الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشيخ

ناصر مكارم الشيرازي

المجلد السابع

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الشيخ

تفس

١٣/١٤

النحل
الكهف

سة الأ

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

١٣ - ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثالث عشر

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٠١/٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ النَّحْلِ

مكية وعدد آياتها مائة وثمان وعشرون

محتويات السّورة

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ قسماً من آيات هذه السورة مكيّة، وقسمها الآخر آيات مدنيّة، في حين يعتبر بعضهم أنّ آياتها مكيّةً على الإطلاق. وعند ملاحظة طبيعة السورة المكيّة والمدنيّة يتبيّن لنا أنّ الرأي الأوّل أكثر صواباً، ويعزز ذلك ما تبحثه الآية (٤١) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾، والآيــة (١١٠) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا... رَحِيمٌ﴾ حيث إنّها تناولت بوضوح موضوع الهجرة والجهاد معاً.. وكما هو بيّن فإنّ الموضوعين يتناسبان مع الحوادث التي جرت بعد هجرة النّبي ﷺ من مكّة إلى المدينة.

وإذا اعتبرنا الهجرة المشار إليها في الآية (٤١) هي هجرة المسلمين الأُولى حين هاجر جمع منهم من مكّة إلى الحبشة برئاسة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فيستبعد أن تكون الهجرة والجهاد المشار إليهما في الآية (١٠١) الهجرة الأُولى، ولا تنطبق الآية المباركة إلاّ على هجرة النّبي ﷺ إلى المدينة.

بالإضافة إلى أنّ الآية (١٢٦) ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ قد نزلت في غزوة أُحد التي وقعت بعد الهجرة الثّانية، وهذا معروف عند المفسّرين.

وقال بعض المفسّرين: إنّ الآيات الأربعين الأُول من السورة نزلت في مكّة وبقية الآيات نزلت في المدينة، في حين يعتبر البعض الآخر منهم جميع آياتها مكّية سوى الآيات المتعلقة بغزوة أُحد (الآيات الثلاث الأخيرة).

فالمتيقن بخصوص السورة أنّ آياتها مكّية ومدنية، إلاّ أنّه لا يمكن تشخيص ما هو مكي أو مدني بالدقّة الكافية سوى الموارد المذكورة.

وعلى أيّة حال، فمن خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكّية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة الشرك وعبادة الأصنام، وتارةً أُخرى ما تتناوله الآيات المدنية مثل: الأحكام الاجتماعية ومسائل الجهاد والهجرة.

ويمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية وإحكام بما يلي:

١ - ذكر النعم الإلهيّة، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كلّ ذي حسٍّ حي، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم وواهبها.

ومن النعم المذكورة في السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات والثمار، المواد الغذائية الأُخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات ومنافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة وحتى نعمة الولد والزوجة، وبعبارة شاملة (أنواع الطيّبات).

ولهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

وعرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعاني الجليلة والعجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهيّة الواسعة، وبخصوص اعتبار النحل مصدراً لغذاء مهم من أغذية الإنسان، وباعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد الله.

٢ - الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين والمجرمين.

٣ - تناول الأحكام الإسلامية المختلفة، من قبيل: الأمر بالعدل والإحسان، الهجرة والجهاد، النهي عن الفحشاء والمنكر والظلم والاستبداد وخلف العهد، بالإضافة إلى الدعوة لشكر الله تعالى على نعمه الجزيلة، وتأتي الإشارة في آيات عديدة إلى أنّ إبراهيم عليه السلام رجل التوحيد لأنّه كان من الشاكرين.

٤ - الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حيّة.

٥ - وأخيراً تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة السّورة

روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، في فضل سورة النحل، أنّه قال: «مَنْ قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التي أنعمها عليه من دار الدنيا»(١).

فقراءة الآيات - التي تتناول جانباً كبيراً من النعم الإلهيّة - بتدبّر وتفكّر مع وجود العزم على العمل والسير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلاً لأنْ يستعمل الإنسان كلّ نعمة بما ينبغي عليه أن يستعمل، فلا يحبس ولا يهمل، ويكون من الشاكرين... فإنْ أصبح كذلك فهل سيتعرض لمحاسبة بعد؟

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٤٧.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

التّفسير

أتى أمْرُ الله:

ذكرنا سابقاً أنّ قسماً مهمّاً من الآيات التي جاءت في أوّل السورة هي آيات مكّية نزلت حينما كان النّبي ﷺ يخوض صراعاً مشتدّاً مع المشركين وعبدة الأصنام، وما يمرّ يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهة جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنّها تريد بناء صرح الحريّة، بل كلّ الحياة من جديد.

ومن جملة مواجهاتهم اليائسة قولهم للنّبي ﷺ حينما يهددهم وينذرهم بعذاب الله: إنْ كان ذلك حقاً فَلِمَ لا يحلّ العذاب والعقاب بنا إذن؟!

ولعلّهم يضيفون: وحتى لو نزل العذاب فسنلتجىء إلى الأصنام لتشفع لنا عند الله في رفع العذاب.. وَلِمَ لا يكون ذلك، أَوَ لسن شفيعات؟!..

وأوّل آية من السورة تُبطل أوهام أُولئك بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وإنْ اعتقدتم أنّ الأصنام شافعة لكم عند الله فقد أخطأتم الظن ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

فـ ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ هنا: أمر العذاب للمشركين، أمّا الفعل ﴿أَتَىٰٓ﴾ فالمراد منه المستقبل الحتمي الوقوع على الرّغم من وقوعه بصيغة الماضي، ومثل هذا كثير في الأسلوب البلاغي للقرآن.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ «أمر الله» إشارة إلى نفس العذاب وليس الأمر به.

واحتمل بعض آخر أنّ المراد به يوم القيامة.

ويبدو لنا أنّ التّفسير الذي ذكرناه أقرب من غيره، والله العالم.

---

(١) ﴿مِنۡ﴾ في عبارة ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ جاءت بمعنى «ب» السببية.

وبما أنّ مستلزمات العدل الإلهي اقتضت عدم العقاب إلاّ بعد البيان الكافي والحجّة التامة، فقد أضاف سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ(١) عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ بناء على هذا الإنذار والتذكير ﴿فَاتَّقُونِ﴾.

أمّا المقصود من «الروح» في الآية فهناك كلام كثير بين المفسّرين في ذلك إلاّ أنّ الظاهر منها هو: الوحي والقرآن والنّبوة.. والتي هي مصدر الحياة المعنويّة للبشريّة.

وقد فصل بعض المفسّرين الوحي عن القرآن وعن النّبوة، معتبراً ذلك ثلاثة تفاسير مستقلة للكلمة، ولكنّ الظاهر رجوع الجميع إلى حقيقة واحدة.

وعلى أيّة حال فكلمة «الروح» في هذا الموضوع ذات جانب معنوي وإشارة إلى كلّ ما هو سبب لإحياء القلوب وتهذيب النفوس وهداية العقول، كما نقرأ في الآية الرّابعة والعشرين من سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ... وفي الآية الخامسة عشرة من سورة غافر: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ... وفي الآية الثانية والخمسين من سورة الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾.

وجليٌّ أنّ «الرّوح» في الآيات المتقدمة ترمز إلى «القرآن» و«الوحي» و«أمر النّبوة».

وقد وردت «الرّوح» بمعانٍ أُخر في مواضع من القرآن الكريم، ولكنْ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما ذكر من قرائن، نخلص إلى أنّ المراد من مفهوم «الروح» في الآية مورد البحث هو القرآن وما تضمّنه الوحي.

وجدير بالملاحظة أنّ عبارة: ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ لا تعني أنّ هداية الوحي والنّبوة لا حساب فيها، لأنّه لا انفصام ولا ضديّة بين مشيئة الله وحكمته، كما تحدثنا في ذلك في الآية (١٢٤) من سورة الأنعام: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ولا ينبغي غضّ الطرف من كون الإنذار من أوائل الأوامر الرّبانية الموجّهة إلى الأنبياء عليهم السلام بدليل عبارة: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾، لأنّ من طبيعة الإنذار أن يعقبه انتباه فنهوض وحركة.

صحيح أنّ الإنسان طالب للمنفعة ودافع للضرر، ولكنّ التجربة أظهرت أنّ للترغيب أثر بالغ لمن يمتلك أسس وشرائط قبول الهداية، أمّا مَنْ أعمت بصيرتهم ملهيات الحياة الدنيا فلا ينفع معهم إلاّ التهديد والوعيد، وفي بداية دعوة النّبي كان من الضروري استخدام أُسلوب الإنذار الشديد.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

الحيوان ذلك المخلوق المعطاء

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة عن نفي الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، وتوجّه الإنسان نحو خالقه بطريقين:

الأوّل: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما في الخلائق من نظام عجيب.

الثّاني: عن طريق العاطفة ببيان نعم الله الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وتتّضح حقّانيّة السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظّم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثمّ يضيف: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده الله؟!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضة صغيرة أو ذرة تراب؟!

فكيف إذن جعلوها شريكة الله سبحانه!!..

والمضحك المبكي في حال المشركين أنّهم يعتبرون الله هو الخالق عن علم وقدرة لهذا النظام العجيب والخلق البديع.. ومع ذلك فهم يسجدون للأصنام!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

«النطفة» (في الأصل) بمعنى: الماء القليل، أو الماء الصافي، ثمّ أطلقت على قطرات الماء التي تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها.

وحقيقة التعبير يراد به تبيان عظمة وقدرة الله عزّوجلّ، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقي المخلوقات وعند الله أيضاً.

هذا إذا ما اعتبرنا «الخصيم» بمعنى المدافع والمعبّر عمّا في نفسه، كما تخبرنا الآية (١٠٥) من سورة النساء بذلك: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ كما ذهب إليه جمع من المفسّرين.

وهناك من يذهب إلى تفسير آخر، خلاصته: بقدرة الله التامة خُلق الإنسان من نطفة حقيرة، ولكنّ هذا المخلوق غير الشكور يقف في كثير من المواضع مجادلاً خصيماً أمام خالقه، واعتبروا الآية السابعة والسبعين من سورة يس شاهداً على ما ذهبوا إليه.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل - كما يبدو - أقرب من الثّاني، لأنّ الآيات أعلاه في مقام بيان عظمة الله وقدرته، وتتبيّن عظمته بشكل جلّي حين يخلق كائناً شريفاً جدّاً من مادة ليست بذي شأن في ظاهرها.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم: (خلقه من قطرة من ماء منتن فيكون خصيماً متكلماً بليغاً)[١].

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فخلق الأنعام الدال على علم وقدرة الباري سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان، وقد أشارت الآية إلى ثلاث فوائد:

أوّلاً: «الدفء» ويشمل كلّ ما يتغطّى به (بالاستفادة من وبرها وجلودها) كاللباس والأغطية والأحذية والأخبية.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٣٩ ح٨.

ثانياً: «المنافع» إشارة إلى اللبن ومشتقاته.

ثالثاً: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أيْ، اللحم.

ويلاحظ تقديم الملابس والأغطية والمسكن، في استعراض منافع الأنعام دون المنافع الأخرى، وهذا دليل على أهمّيتها وضروريتها في الحياة.

ويلاحظ أيضاً مجيء كلمة «الدفء» قبل «المنافع» إشارة إلى أنّ ما تدفع به الضرر مقدّم على ما يجلب لك فيه المنفعة.

ويمكن للبعض ممن يخالفون أكل اللحوم أن يستدلوا بظاهر هذه الآية، حيث لم يعتبر الباري جلّ شأنه مسألة أكل لحومها ضمن منافعها، ولهذا نرى قد جاءت ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعد ذكر كلمة «المنافع»، وأقل ما يستنتج من الآية اعتبارها لأهمّية الألبان أكثر بكثير من اللحوم.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسيّة والمعنوية كذلك حين قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

﴿تُرِيحُونَ﴾: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل استراحتها، ولهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و﴿تَسْرَحُونَ﴾: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحاً إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمة ﴿جَمَالٌ﴾ عن تلك الحركة الجماعية للأنعام حين تسرح إلى مراعيها وتعود إلى مراحها، لما لها من جمال ورونق خاص يغبط الإنسان، والمعبّر عن حقيقة راسخة في عمق المجتمع.

فحركة الإبل إضافة إلى روعتها فإنّها تطمئن المجتمع بأنّ ما تحتاجه من مستلزمات حياتك ها هو يسير بين عينيك، فتمتّع به وخذ منه ما تحتاجه، ولا داعي لأن ترتبط بهذا أو ذاك فتستضعف، وكأنّها تخاطبه: فأنت مكتف ذاتياً بواسطتي.

فـ «الجمال» جمال استغناء واكتفاء ذاتي، وجمال إنتاج وتأمين متطلبات أُمّة كاملة، وبعبارة أوضح: جمال الاستقلال الاقتصادي وقطع كل تبعيّة للغير!

والحقيقة التي يدركها القرويون وأبناء الريف أكثر من غيرهم، هي ما تعطيه حركة تلك الأنعام من راحة نفسيّة للإنسان، راحة الإحساس بعدم الحاجة والاستغناء، راحة تأدية إحدى الوظائف الاجتماعية الهامّة.

ومن لطيف الإشارة أنْ بدأت الآية أعلاه بذكر عودة الأنعام إلى مراحها، حيث

الملاحظ عليها في هذه الحال أثديتها ملأى باللبن، بطونها ممتلئة، يشاهد على وجوهها علائم الرضا والارتياح ولا يُرى فيها ذلك الحرص والولع والعجلة التي تظهر عليها حين خروجها في الصباح، بل تسير هادئة مطمئنة نحو محل استراحتها، ويكفيك الشعور بالغنى من خلال رؤية أثدائها.

ثمّ يشير تعالى في الآية التي تليها إلى إحدى المنافع المهمّة الأُخرى فيقول: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله عزّوجلّ ورأفته حيث سخّر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدرة وقوّة ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

«الشق»: (من مادة المشقة)، ولكنّ بعض المفسّرين احتمل أنّها بمعنى الشق والقطع، أيْ أنّكم لا تستطيعون حمل هذه الأثقال وإيصالها إلى مقاصدكم إلاّ بعد أنْ تخسروا نصف قوّتكم.

ويبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب من الثّاني.

فالأنعام إذَنْ: تعطي للإنسان ما يلبسه ويدفع عنه الحر والبرد. وكذلك تعطيه الألبان واللحوم ليتقوّت بها. وتترك في نفس الإنسان آثاراً نفسيّة طيّبة. وأخيراً تحمل أثقاله.

وبالرغم ممّا وصل إليه التقدّم التقني في مدنية الإنسان وتهيئة وسائل النقل الحديثة، إلاّ أنّ سلوك كثير من الطرق لا زال منحصراً بالدواب.

ثمّ يعرج على نوع آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها في تنقلاته، فيقول: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾.

و﴿وَزِينَةٗۚ﴾ هنا ليست كلمة زائدة أو عابرة بقدر ما تعبّر عن واقع الزينة في مفهومها الصحيح، وما لها من أثر على ظاهر الحياة الاجتماعية.

ولأجل الإيضاح بشكل أقرب نقول: لو قطع شخص طريقاً صحراوياً طويلاً مشياً على الأقدام، فكيف سيصل مقصده؟ سيصله وهو متعب خائر القوى، ولا يقوى على القيام بأيّ نشاط.

أمّا إذا ما استعمل وسيلة مريحة سريعة في سفره، فإنّه - والحال هذه - سيصل إلى مقصده وقد كسب الوقت، ولم يهدر طاقاته، وحافظ على النشاط والقدرة على قضاء حوائجه... بعد كلّ هذا، أوَ ليس ذلك زينة؟!

وتأتي الإشارة في ذيل الآية إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان في الحصول على

الوسائط النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المراكب ووسائل النقل.

وبعض قدماء المفسّرين اعتبر هذا المقطع من الآية إشارة إلى حيوانات ستخلق في المستقبل ليستعملها الإنسان في تنقلاته.

وورد في تفسير (المراغي) وتفسير (في ظلال القرآن) أنّ درك مفهوم هذه الجملة أسهل لنا ونحن نعيش في عصر السيّارة ووسائل النقل السريعة الأُخرى.

وعند ما تعبّر الآية بكلمة ﴿وَيَخْلُقُ﴾ فذلك لأنّ الإنسان في اختراعه لتلك الوسائل ليس هو الخالق لها، بل إنّ المواد الأوليّة اللازمة للاختراعات، مخلوقة وموجودة بين أيدينا وما على الإنسان إلاّ أنْ يستعمل ما وهبه الله من قدرة على الاختراع لما أودع فيه من استعداد وقابلية بتشكيل وتركيب تلك المواد على هيئة يمكن من خلالها أن تعطي شيئاً آخر يفيد الإنسان.

أهمّية الزراعة والثروة الحيوانية

على الرغم من انتشار الآلات الإنتاجية في جميع مرافق الحياة، كما هو حاصل في يومنا، إلاّ أنّ الزراعة وتربية الحيوانات تبقى متصدرة لقائمة المنتوجات من حيث الأهمّية في حياة الإنسان، لأنّهما مصدر الغذاء، ولا حياة بدونه.

حتى أنّ الاكتفاء الذاتي في مجالي الزراعة والثروة الحيوانية يعتبر الدعامة الرئيسية لضمان الاستقلالين الاقتصادي والسياسي إلى حدّ كبير.

ولذلك نرى شعوب العالم تسعى جاهدة لإيصال زراعتها وثروتها الحيوانية لأعلى المستويات مستفيدة من التقدّم التقني الحاصل.

والحاجة لأي من هذين الإنتاجين الأساسيين من الخطورة والأهميّة البالغة ما يجعل دولة عظمى كروسيا تمدّ يد العوز وتعطي بعض التنازلات السياسية لدول متباينة معها في الخط السياسي العقائدي لاضطرارها لتأمين احتياجاتها!

وأعطت التعاليم الإسلامية أهميّة خاصة للإنتاج الحيواني والزراعة بالحثّ والترغيب لغور غمار هذه العملية المعطاءة.

فقد رأينا كيف عرضت الآيات السابقة وبلحن مشوّق حركة الأنعام ومنافعها للترغيب فيها.

وسيأتي الحديث إنّ شاء الله في الآيات القادمة عن أهميّة الزراعة ومنافع الثمار المختلفة.

ونورد هنا (ومن مصادر مختلفة) بعض الرّوايات التي تخصّ موضوعنا وما جاءت به من تعبيرات جميلة.

١ - عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمته: ما يمنعك من أن تتخذي في بيتك بركة؟

فقالت: يا رسول الله ما البركة؟

فقال: شاة تحلب، فإنّه مَنْ كانت في داره شاة تحلب أو نعجة أو بقرة فبركات كلّهن»(١).

٢ - وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال في الغنم: «نعم المال الشاة»(٢).

٣ - وفي تفسير نور الثقلين، في تفسير الآيات مورد البحث، روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «أفضل ما يتخذه الرجل في منزله لعياله الشاة، فمن كان في منزله شاة قدّست عليه الملائكة مرّتين في كلّ يوم».

ولا ينبغي الغفلة عن أنّ الكثير من بيوت المدن غير صالحة لتربية الأغنام، والهدف الأصلي من إشارة الرّوايات هو إنتاج ما يحتاج إليه الناس على الدوام، فتأمل.

٤ - ويكفينا ما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في أهميّة الزّراعة: «مَنْ وجد ماءً وتراباً ثمّ افتقر فأبعده الله»(٣).

وبديهي انطباق هذا الحديث على الفرد والأُمّة معاً، فالشعب الذي لديه مستلزمات الزراعة بشكل كاف ومع ذلك يمدّ يده لطلب المساعدة إلى الآخرين، فهو مُبعد عن رحمة الله بلا إشكال.

٥ - روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «عليكم بالغنم والحرث فإنّهما يروحان بخير ويغدوان بخير»(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص. ١٣٠ ورد ذكر النعجة (في هذا الحديث) إضافة إلى الشاة والبقرة، وهي في اللغة: البقر الوحشي والأغنام الجبلية وأنثى الغنم.

(٢) بحار الأنوار، ج٦١، ص١٢٩.

(٣) بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٩. وج ٩٧، ص٦٥.

(٤) بحار الأنوار، ج١٤، ص٣٠٤. وج١٧، ص٤١.

٦ - وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما في الأعمال شيء أحبّ إلى الله من الزراعة»[١].

٧ - وأخيراً نقرأ في حديث روي عن الإمام الصادق عليه السلام ما يلي: «الزارعون كنوز الأنام يزرعون طيباً أخرجه الله عزّ وجلّ، وهم يوم القيامة أحسن الناس مقاماً وأقربهم منزلة، يدعون المباركين»[٢].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

التّفسير

كلّ شيء في خدمة الإنسان!

بعد ذكر مختلف النعم في الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم أُخرى. . . فتشير أوّلاً إلى نعمة معنوية عاليةً في مرماها ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم وهو الحافظ له من كلّ انحراف، وقد وضعه في متناول الإنسان.

«القصد»: بمعنى صفاء واستواء الطريق، فيكون معنى «قصد السبيل» الصراط المستقيم الذي ليس فيه ضلال ولا انحراف[٣].

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٠. المصدر السابق.

(٢) وسائل الشيعة، ج١٣، ص١٩٤.

(٣) ذكر بعض كبار المفسّرين كالعلاّمة الطباطبائي في الميزان أنّ «القصد» بمعنى (القاصد) في قبال (الجائر) أي المنحرف عن الحق.

ولكن أيّ النحوين من الصراط المستقيم هو المراد، التكويني أم التشريعي؟

اختلف المفسّرون في ذلك، إلاّ أنّه لا مانع من قصد الجانبين معاً.

توضيح ذلك:

جهّزَ اللهُ الإنسان بقوى متنوعة وأعطاه من القوى والقابليات المختلفة ما يعينه على سلوكه نحو الكمال الذي هو الهدف من خلقه.

وكما أنّ بقية المخلوقات قد أُودعت فيها قوىً وغرائز توصلها إلى هدفها، إلاّ أنّ الإنسان يمتاز عليها بالإرادة وبحريّة الاختيار فيما يريده، ولهذا فلا قياس بين الخط التصاعدي لتكامل الإنسان وبقية الأحياء الأُخرى.

فقد هدى اللهُ الإنسان بالعقل والقدرة وبقية القوى التكوينية التي تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء والوحي السماوي وأعطاه التعليمات الكافية والقوانين اللازمة للمضي بهدى التشريع الرّباني في تكملة مشوار المسيرة، وترك باقي السبل المنحرفة.

ومن لطيف الأسلوب القرآني جعل الأمر المذكور في الآية فريضةً عليه جلّ شأنه فقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، وكثيراً ما نجد مثل هذه الصيغة في الآيات القرآنية، كما في الآية ١٢ من سورة الليل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، ولو دققنا النظر في سعة مدلول ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ وما أُودع في الإنسان من هدى تكويني وتشريعي لأجل ذلك، لأدركنا عظمة هذه النعمة وما لها من الفضل على بقية النعم.

ثمّ يحذّر الباري جلّ شأنه الإنسانَ من وجود سبل منحرفة كثيرة: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾[1].

وبما أنّ نعمة الإرادة وحرية الاختيار في الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملة قصيرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولا تستطيعون عندها غير ما يريد الله.

إلاّ أنّه سبحانه لم يفعل ذلك، لأنّ الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل والفخر، فأعطاه حرية الاختيار ليسير في الطريق بنفسه كي يصل لأعلى ما يمكن الوصول إليه من درجات الرفعة والكمال.

كما تشير الآية إلى حقيقة أُخرى مفادها أنّ سلوك البعض للطريق الجائر والصراط

(١) ضمير «منها» يعود إلى السبيل. والسبيل مؤنث مجازي.

المنحرف ينبغي أن لا يوجد عند البعض توهّماً أنّ الله (سبحانه وتعالى) مغلوب أمام هؤلاء، بل إنّ مشيئته جلّ اسمه ومقتضى حكمته دعت لأن يكون الإنسان حرّاً في اختياره ما يريد من السبل.

وفي الآية التالية يعود إلى الجانب المادي بما يثير حسّ الشكر للمنعم عند الناس، ويوقد نار عشق الله في قلوبهم بدعوتهم للتقرّب أكثر وأكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ماء فيه سبب الحياة، وزلالاً شفافاً خال من أيّ تلوّث ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾، وتخرج به النباتات والأشجار فترعى أنعامكم ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

«تسيمون»: (من مادة الإسامة) بمعنى رعي الحيوانات، وكما هو معلوم فإنّ الحيوانات تستفيد من النباتات الأرضية وورق الأشجار، و«الشجر» لغةً: ذو معنى واسع يشمل إطلاقه الأشجار وغيرها من النباتات.

وممّا لا شك فيه أيضاً أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواء النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفّسه براحة، وما شابه ذلك.. فالمذكور من فوائده في هذه الآية ليس حصراً وإنّما من باب الأهم.

ويكمّل الموضوع بقوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ولا شك أنّ خلق هذه الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ٱلزَّرْعَ﴾: يشمل كل مزروع ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ اسم لشجرة معروفة واسم لثمرها أيضاً.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يذهبون إلى أنّ «الزّيتون» هو اسم الشجرة فقط، واسم ثمرتها «زيتونة». في حين أنّ الآية الخامسة والثلاثين من سورة النّور تطلق كلمة «الزيتونة» على الشجرة.

﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ تستعمل للمفرد والجمع... ﴿وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ جمع أعنبة، وهي ثمرّة معروفة.

وهنا يرد سؤال وهو: لماذا اختار القرآن ذكر هذه الثمار دون غيرها (الزيتون التمر العنب)؟ ستقرأ توضيح ذلك في البحوث التّفسيرية لهذه الآيات إن شاء الله.

ثمّ يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة في العالم للإنسان بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ﴾ على عظمة وقدرة الله وعظمة ما خلق.

قلنا في تفسيرنا لآيات سورتي الرعد وإبراهيم، أنّ المفهوم الواقعي لتسخير الموجودات للإنسان أنْ تكون في منفعته، ويكون ذلك من شأنها ووظيفتها مع تمكين الإنسان من الاستفادة منها.

فكلّ من الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم له نوع وأثر خاص في حياة الإنسان، وما أجمل عبارة (تسخير الموجودات للإنسان بأمر الله) فبالإضافة لما تظهره من شرف ورفعة شخصية الإنسان بنظر الإسلام والقرآن، وإعطائه من الجلال ما يجعله مؤهّلاً لمقام خليفة الله، فهي تذكرة للإنسان بأن لا يغفل عمّا أنعم الله عليه، وباعثة فيه شعور لزوم الشكر لله تعالى من خلال ما يلمس ويرى، عسى أن يتقرب لخالقه فينال حسن مآبه.

ولهذا يقول تعالى في ذيل الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ﴾.

راجع تفسيرنا للآيتين ٣٢ و ٣٣ من سورة إبراهيم للاستزادة في معرفة أسرار التسخير المذكور.

وإضافة لكلّ ما تقدم ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من مخلوقات سخرّها لكم و﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ من الأغطية والملابس والأغذية والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الأخرى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةٗ لِّقَوْمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

البحوث

١ - النعم المادية والمعنوية

احتوت الآيات مورد البحث على ذكر النعم المادية والمعنوية بشكل مترابط لا يقبل الفصل، إلاّ أنّ أُسلوب ولحن التعبير يختلف بين النعم المادية والمعنوية، فبالنسبة للنعم المادية لا نجد مورداً يقول فيه القرآن الكريم: إنّ على الله رزقكم، لكنّه في مورد الهداية يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ فيعطيكم كلّ ما تحتاجونه تكوينياً وتشريعياً للسير باقتدار في الطريق الإلهي.

وحينما يتحدث عن خلق الأشجار والفواكه وعن تسخير الشمس والقمر نراه سبحانه

يضعها في مسير هدف معنوي. . . ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وذلك لأنّ الأُسلوب القرآني - كما هو معروف - لا يتخذ بُعداً واحداً في خطابه للناس.

٢ - لماذا الزّيتون والنخيل والأعناب دون غيرها؟!

يمكننا للوهلة الأُولى أن نتصور أنّ ذكر القرآن للزيتون والتمر والعنب، في الآيات مورد البحث، لوجودها في المنطقة التي نزل فيها القرآن. . ولكنْ بملاحظة الجانب العالمي لرسالة القرآن ومع الاعتقاد ببقائها واستمرارها بالإضافة إلى التوجّه لعمق التعبير القرآني. . يتّضح لنا خطل ذلك التصور.

يقول العلماء المتخصصون بالأغذية (ممن صرفوا السنين الطوال في البحث عن فوائد وخواص الأغذية): إنّ القليل من الفواكه التي تنفع بدن الإنسان من الناحية الغذائية هي بمستوى هذه الثمار الثلاث.

ويقولون: إنّ (زيت الزيتون) له قيمة عالية جدّاً لتأمين السعرات الحرارية اللازمة للبدن، ولذلك يعتبر من الأغذية المقويّة للبدن، وعلى الذين يريدون حفظ سلامتهم أن يواظبوا على تناول هذا الإكسير.

إنّ زيت الزيتون ملائم لكبد الإنسان، مؤثّر فعّال في رفع عوارض الكلى، والقولنج الكلوي والكبدي واليبوسة.

ولهذا نجد له مدحاً كثيراً في الرّوايات، ففي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال عن الزيتون: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب البلغم، ويصفي اللون، ويشد العصب، ويذهب بالوصب، ويطفىء الغضب»[(١)].

والأهم من ذلك كلّه تسمية القرآن لشجرة الزيتون بـ «الشجرة المباركة».

وللتمر حديث أيضاً حيث ثبتت الأهميّتين العلاجية والغذائية له من خلال ما بيّنه علماء الطب والأغذية. . فقد اتّضح وجود الكالسيوم فيه الذي يعتبر العامل الأساسي لبناء وتقوية العظام، وكذلك الفسفور الذي يعتبر من العناصر الأساسية في تكوّن الدماغ، بالإضافة إلى أنّ التمر يمنع ضعف الأعصاب ومزيل للتعب، كما أنّ له دوراً في حدّة البصر.

وفيه البوتاسيوم الذي له الأهميّة البالغة في بناء خلايا الجسم، علاوة على أنّ فقدانه يسبب قرحة المعدة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ١٨٣.

كما بات من المعروف عند المتخصصين في علم الأغذية أنّ التمر له الدور الفعّال في عدم الإصابة بمرض السرطان.

وأظهرت الإحصائيات أنّ المناطق التي يكثر فيها تناول التمر هي أقل المناطق إصابة بهذا المرض الفتّاك. ولهذا نجد أنّ البدو في الصحاري العربية مع ما يعانونه من فقر غذائي إلاّ أنّهم لا يصابون بمرض السرطان، ويعزى سبب ذلك إلى وجود المغنيسيوم في التمر، غذائهم الأول.

أمّا السكر الموجود في التمر فيعتبر من أفضل أنواع السكريات، حتى أنّه لا يسبب ضرراً لكثير من المصابين بمرض السكر عند تناوله.

وقد اكتشف العلماء لحدّ الآن ثلاث عشرة مادة حياتية وخمسة أنواع من الفيتامينات في التمر، تجعله مصدراً غذائياً غنيّاً وذا قيمة عالية جدّاً(١).

ولهذا ورد تأكيد واسع على أهميّة هذه المادة الغذائية في الرّوايات، وممّا روي عن علي عليه السلام أنّه قال: «كل التمر فإنّ فيه شفاء من الأدواء».

وقد روي أيضاً أنّ طعام أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما كان الخبز والتمر.

وفي رواية أُخرى: «بيت لا تمر فيه جياع أهله»(٢).

وفي سورة مريم أنّ الله أطعم مريَم عندما ولدت عيسى عليه السلام، الرطب، وهو إشارة إلى أنّ أفضل غذاء للمرأة حديثة الولادة التمر، وعليه كان تأكيد الرّوايات بخصوص تفسير هذه الآية.. إنّ أفضل طعام لها هو التمر(٣).

أمّا العنب.. فيقول عنه علماء الأغذية: إنّ ما فيه من الفوائد تدعونا إلى القول بأنّه صيدلية طبيعية متكاملة.

إضافة إلى أنّ خواص العنب شبيهة جدّاً بخواص حليب الأم (أيْ أنّه غذاء كامل)، وفائدته ضِعف فائدة اللحم، وهو ذو سعرة حرارية عالية، ومقاوم للسموم، وله أثر علاجي قطعي في تصفية الدم والوقاية من الروماتيزم والنقرس، ويزيد في الدم، وينظّف المعدة والأمعاء، وهو: منشط، مزيل للتعب، مقوٍّ للأعصاب، وتعطي الفيتامينات المختلفة التي يحتويها قوّة للإنسان.

---

(١) أول جامعة وآخر نبي، الجزء السابع، ويختص هذا الجزء بشرح الخواص الغذائية والصحية والعلاجية للتمر والعنب ويطلع الإنسان من خلاله على أهميّة هذين الغذاءين.

(٢) سفينة البحار، ج١، ص١٢٤.

(٣) سفينة البحار، : ج١، ص١٢٤ كذلك.

وإضافة لكونه مادة غذائية مهمّة فله القدرة على مكافحة الميكروبات بدرجة ملحوظة، حتى اعتبر من العوامل المهمّة في مكافحة مرض السرطان والوقاية منه(١).

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «خير طعامكم الخبز، وخير فاكهتكم العنب»(٢).

ولو أردنا ذكر كلّ ما أورده علماء التغذية بخصوص الفواكه الثلاث وضمّناها ما جاء بصددها من روايات لخرجنا عن طبيعة التّفسير، وإنّما كان القصد من هذه الإطالة بيان السبب العلمي الدقيق وراء ذكر هذه الفواكه في الآية المشار إليها، ولعلّ أكثر ما ذكر من فوائد كان خافياً على أهل زمان نزول الآية.

٣ - التفكّر والتعقّل والتذكّر

رأينا في الآيات المبحوثة أنّ القرآن دعا الناس بعد ذكر ثلاثة أقسام من النعم الإلهيّة إلى التأمل في ذلك، فقال في المورد الأوّل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وفي المورد الثّاني: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وفي الثّالث: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

إنّ الاختلاف الوارد ليس للتصوير الفني في عبارات القرآن، لأنّ المعروف عن الأسلوب القرآني إشارته لكلّ معنى برمز خاص.

ولعلّ المقصود من ذلك أنّ النعم الإلهيّة الموجودة في الأرض من الوضوح ما يكفي معها التذكّر.

أمّا فيما يخصّ الزراعة والزيتون والنخيل والأعناب والفاكهة فتحتاج إلى تركيز الفكر لمعرفة خواصها الغذائية والعلاجيّة، ولهذا ورد التعبير بالتفكّر فيها.

وأمّا تسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم فيحتاج إلى تفكير أشد وأعمق من الحالة الأُولى، فورد التعبير بالتعقل.

وعلى أيّة حال، فالقرآن - دوماً - يخاطب العلماء والمفكرين والعقلاء، بالرغم من أنّ المحيط الذي نزل فيه كان متخوماً بالجهل، ومن هنا تتضح لنا عظمة عبارات القرآن بشكل جلي.

والقرآن بما يحمله يمثّل ضربة قاصمة لضيّقي الأفق من الذين رفضوا الأديان كلّها لأنّهم اصطدموا بوجود أديان خرافية، وعلى أساسها الهش بنوا بنيانهم المهزوز على

(١) أول جامعة وآخر نبي، الجزء السابع ص١٠١ و ١٤٢.

(٢) الإسلام طبيب بلا دواء.

اعتبار أنّ الدين معطّل للعقل والعلم وأنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ ناتج عن جهل الإنسان وضعفه!!

ومن هذه النداءات الرّبانية ما نجده في جميع السور القرآنية تقريباً، التي تتحدث بكلّ وضوح عن: أنّ الدين الحق هو وليد التعقّل والتفكّر وليس وليد الخيال السارح والجهل الدامس.

وخطاب الإسلام موجّه باستمرار إلى علماء وأُولي الألباب وليس إلى الجهلة وذوي الخرافات الباطلة أو إلى أدعياء الثقافة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

نعمة الجبال والبحار والنجوم

تبيّن هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهيّة غير المحدودة التي تفضّل بها الله عزّ وجلّ على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوي للحياة، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾.

وكما هو معلوم أنّ البحار تشكّل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأنّ الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار تعتبر المنبع المهم في إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحيّة على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار في خدمة الإنسان...

ثمّ يشير الباري سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فقد جعل الله في البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد في

تربيته، بل أوجدته ونمّته يد القدرة الإلهيّة، وقد خصّه بالطراوة، فمع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ اللحوم غير الطازجة متوفرة في ذلك الزمان وفي هذا الزمان على السّواء ندرك جيّداً أهميّة هذه النعمة، وفي ذلك إشارة أيضاً إلى أهميّة اللحوم الطازجة.

ومع ما شهدته الحياة البشرية من التقدّم والتمدّن المدني في كافّة أصعدة الحياة لا زال البحر أحد المصادر الرئيسية للتغذية، ويصاد سنوياً مئات الآلاف من الأطنان من الأسماك الطريّة التي أوجدتها ورعتها يد اللطف الإلهيّة لأجل الإنسان.

ونجد أنظار العلماء متّجهة صوب البحار في قبال ما سيهدد البشرية من خطر نقص المواد الغذائية في المستقبل جراء الزيادة السكّانية الهائلة، آملين خيراً بأنّ البحار ستسد مقداراً ملحوظاً من ذلك النقص، بواسطة تربية وتكثير أنواع الأسماك.

ومن جهة أُخرى وضعوا عدّة مقررات لمنع تلوّث مياه البحار للحدِّ من تلف نسل الحيوانات البحريّة، وكلّ ذلك يوضّح ما في الآية المذكورة من مسائل علمية طرحت على البشرية قبل أربعة عشر قرناً.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

الحس الجمالي من الأُمور الفطرية التي فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وبلا شك، يلعب هذا البعد دوراً مهمّاً في حياة البشر، وينبغي العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أيّ نوع من الإفراط والتفريط..

فلا فرق بالنتيجة بين مَنْ غرق في عبادة التجميل والزينة، وبين مَنْ أهملها وعاش حالة الجفاف الجمالي، لأنّ الأوّل مارس الإفراط الباعث على تلف رأسماله وبات سبباً في إيجاد الفواصل الطبقيّة المصاحب لقتل كلّ ما يمتّ للمعنويات بصلة، والثّاني مارس التفريط الباعث على الخمود والركود. فالاثنان معاً عملا بما لا ينبغي أن يعمله أي إنسان ذو فطرة سليمة بكافّة أبعادها.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالتزيّن المعقول الخالي من أي إسراف مثل: لبس اللباس الجيّد، التطيّب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة... الخ.

ثمّ يتطرق القرآن إلى الفائدة الثّالثة في البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمّة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾،

وما أجمل ما تقع عليه أنظار راكبي السفينة حين حركتها على سطح البحار والمحيطات.

وأعطاكم الله هذه النعمة لتستفيدوا منها في التجارة أيضاً ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾(١).

٢٤وبعد ذكر هذه النعم التي تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتي في ذيل الآية: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿الْفُلْكَ﴾: أيْ السفينة، وتأتي بصيغتي المفرد والجمع.

٢٤﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع «ماخرة» (من مادة مخر) على وزن (فخر) بمعنى شق الماء يميناً وشمالاً، وتطلق على صوت الرياح الشديد أيضاً، وباعتبار السفن عند حركتها تشق الماء بمقدمتها فيطلق عليها اسم (الماخر) أو الماخرة.

ونتساءل: مَنْ الذي أعطى المواد التي تصنع منها السفن خاصيّة الطفو على سطح الماء؟

فالسفينة بما تحمل أثقل من الماء بكثير، ولو لم تكن تلك القوّة الدافعة للماء، هل بإمكاننا الطفو على سطح المياه؟

ومَنْ الذي يحرّك الرياح على سطح البحر؟

بل مَنْ أعطى البخار القوّة لتحريك السفينة في مسيرها على سطح الماء؟

أوَ ليس ذلك كلّه من نعم الله تعالى؟

وممّا يكشف عن عظم نعمة البحار أنّها: أوسع بكثير من الطرق البريّة، أقلّ كلفة، أكثر أهليّةً للحركة، أعظم وسيلة نقلية للبشر، وذلك بملاحظة كبر السفن المستخدمة في النقل وضخامة ما تحمله.

ثمّ يأتي الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٢).

كما قلنا سابقاً فإنّ الجبال متّصلة من جذورها وتقوم بتثبيت الأرض ممّا يجعلها مانعاً حصيناً من الزلازل الأرضية الشديدة الناشئة من الغازات الكامنة في باطن الأرض والمهددة بالخروج في أيّة لحظة على شكل زلزال.

إضافة لخاصيّة الجبال في مدّ القشرة الأرضية بالمقاومة اللازمة أمام جاذبية القمر

---

(١) ابتدأت عبارة ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بواو العطف بما يستوجب تقدّم المعطوف وهو هنا مقدّر، تقديره «لتنتفعوا بها ولتبتغوا من فضله».

(٢) ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ على تقدير (لئلا تميد بكم) أو (كراهة أنْ تميد بكم).

(التي تسبب ظاهرة المدّ والجزر) ويقلل من أثرها إلى حدّ كبير.

وللجبال من جانب ثالث القدرة على تقليل شدّة حركة الرياح وتوجيه حركتها، ولو لم تكن الجبال لكان سطح الأرض عرضة للعواصف الشديدة المستمرة.

ثمّ يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾.

ثمّ يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أنّ الجبال حاجز بين ارتباط الأراضي فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أمام حركة النقل، فيقول: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

وهذه المسألة ملفتة للنظر حقاً، حيث نجد بينها طرقاً يستطيع أن يتخذها الإنسان سبيلاً لتنقلاته بين أكبر السلاسل الجبليّة في العالم، وقليلاً ما يكون هناك قطع كامل بين المناطق بسبب الجبال.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ لأنّ الطرق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصة يستهدي بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الارتفاع والانخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء.

ولمعرفة ما لوجود هذه العلامات من أهميّة، يكفينا أن نلقي نظرة إلى حال الصحاري الواسعة ذات الصفة الواحدة الموجودة في بعض مناطق العالم، حيث عملية التنقل فيها أمر صعب مستصعب إلى حدّ كبير، إضافة لخطورته الكبيرة، وكم هناك من مسافر دخل فيها ولم يعد...

فلو كان سطح الأرض كلّه على شاكلة الصحاري، كأنْ تكون الجبال كلّها بشكل وحجم واحد، وحقولها بلون واحد، وأوديتها متشابهة تماماً... فهل كان من اليسير على الإنسان أن يسير عليها؟!

وأمّا في حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل في أيّ من سفر البر أو

---

(١) تعتبر هذه الآية إحدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم، حيث ذكرت هذا الأمر وبما يحمل من ظواهر علمية في زمن لم يصل الإنسان لاكتشافه بعد.

ولأجل مزيد من التوضيح راجع كتابنا (القرآن وآخر نبي) - فصل المعجزات العلمية للقرآن.

البحر، فقد جعل الله تعالى علامات في السماء تعوّض عن علامات الأرض في تلك الحال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

بطبيعة الحال فهذه إحدى الفوائد الجمّة للنجوم، ولو لم يكن لها سوى هذه الفائدة لكان كافياً لوجودها، خصوصاً في زمن لم يكن فيه أسطرلاب ولا مؤشرات قطبية تعين السفن في تحديد مسيرها وفق خرائط أعدّت لذلك الغرض، وقديماً كانت الرحلات تتوقف إذا ما غطّيت السماء بالسُّحب وتلبّدت بالغيوم، ومَنْ يجرؤ على تكملة السفر فسيواجه خطر الموت.

وكما هو معلوم اليوم، فإنّ النجوم التي تبدو لنا متحركة في السماء عبارة عن خمسة كواكب، ويطلق عليها اسم السيارات، والسيارات أكثر من خمس، إلاّ أنّ البقية لا يمكن تشخيصها بالعين المجرّدة بسهولة، أمّا بقية النجوم فإنّها تحتفظ بمكانها النسبي، وكأنّها لآلىء خيطت على قطعة قماش أسود، وهذه القطعة كأنّها تسحب من إحدى جهاتها فتتحرك بكاملها.

وبعبارة أُخرى: إنّ حركة النجوم الثوابت جمعيّة، وحركة السيارات انفراديّة، حيث تتغير المسافات بينها وبين الثوابت باستمرار.

إضافة لذلك، فالنجوم الثوابت تشكّل فيما بينها أشكالاً معيّنة تعرف بـ(الصور الفلكية) ولها الأثر الكبير في معرفة الاتجاهات الأربعة (الشمال، الجنوب، الشرق، والغرب).

وبعد أن بيّن القرآن كلّ هذه النعم الجليلة والألطاف الإلهيّة الخفيّة، راح يدعو الوجدان الإنساني للحكم في ذلك ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟!

وكما اعتدنا عليه من القرآن في أُسلوبه التربوي الهادف المؤثّر، فقد طرح مسألة المحاججة بصيغة سؤال يترك الجواب عنه في عهدة الوجدان الحي للإنسان، مستعيناً بتحريك الإحساس الباطني ليجيب من أعماق روحه، ولينشد عشقاً بخالقه.

والثابت في الواقع النفسي للإنسان، أنّ التعليم والتربية السليمة يستلزمان بذل أقصى سعي ممكن لإقناع المقابل بقبول ما يوجّه إليه عن قناعة ذاتية، أي ينبغي إشعاره بأنّ ما يعطى إليه ما هو في حقيقته إلاّ انبعاث من داخله وليس فرضاً عليه من الخارج ليتقبّلها بكلّ وجوده ويتبناها ويدافع عنها.

ونجد من الضرورة إعادة ما قلناه سابقاً من أنّ المشركين الذين كانوا يسجدون

للأصنام كانوا يعتقدون أنّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق، ولهذا يتساءل القرآن الكريم. . مَنْ أحقُّ بالسجود. . خالق كلّ شيء أم المخلوق؟!

وفي نهاية المطاف، يفنّد الباري سبحانه مسألة حصر النعم الإلهيّة بما ذكر، بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

إنّكم غارقون في النعم الإلهيّة وفي كلّ نفس يصعد وينزل آلاف النعم (ولكلّ نعمة شكر واجب).

إنّ كلّ دقيقة تمرّ من عمرنا نكون فيها مدينين لفعاليات ملايين الموجودات الحيّة في داخل بدننا وملايين الموجودات الحيّة وغير الحيّة في خارجه، والتي لا يمكننا أن نحيا ولو للحظة واحدة بدونها.

ولكنّ ضبابية الغفلة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمّة التي كلّما خطا العلم الحديث خطوة إلى الأمام اتّضحت لنا أبعاد واسعة وانفتحت لنا آفاقاً جديدة في معرفة النعم الإلهيّة، وكلّ ما ندركه في هذا المجال قليل جدّاً ممّا قدّره الباري لنا، فهل بإمكان المحدود أن يعدّ ما أعطاه المطلق؟!

ونواجه في هذا المقام سؤالاً واستفساراً: كيف إذَنْ نؤدّي حق الشكر لله؟ و. . ألسنا مع ما نحن فيه، في زمرة الجاحدين؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ خير جواب لذلك السؤال.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء أتمّ الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين في حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتتبع ونحصي النعم الرّبانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة للّه، وعلماً بعالم الخليقة، وآفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه في أعماق قلوبنا، وكذا يحرّك فينا الشعور المتحسس بضرورة ووجوب شكر المنعم جلّ وعلا.

ولهذا نجد أنّ الأئمّة عَلَيْهِمْ السَّلَامُ يتطرقون في أقوالهم وأدعيتهم ومناجاتهم إلى النعم الإلهيّة ويعدّون جوانب منها، عبادةً لله وتذكيراً ودرساً للآخرين.

(وقد تناولنا مسألة شكر النعمة وعدم قدرة الإنسان على إحصاء النعم الإلهيّة عند

بحث الآية الرّابعة والثلاثين من سورة إبراهيم).

بحث

الطريق، العلامة، القائد

تحدثت الآيات أعلاه عن الطرق الأرضية بكونها إحدى النعم الإلهيّة باعتبارها من أهم وسائل الارتباط في طريق التمدّن الإنساني.

ولهذا عند وضع الخطط العمرانية لا بدَّ معها من رسم وبناء خطوط الطرق المناسبة للمكان المقصود، وإلاّ لا يمكن أن يقام عمران.

ومع هذا، فلا يمكننا حصر البيان القرآني بهذا الجانب فحسب، بل يمكننا القول بأنّه يشمل حتى جوانب الحياة المعنوية للبشرية أيضاً، لأنّ الوصول إلى هدف مقدّس يستلزم سلوك الطريق الصحيح لذلك الهدف.

بالإضافة إلى الأهميّة الحيويّة لوجود العلامات في تشخيص السبيل من بين كثرة السبل وتشابكها، فإضاعة السبيل الأصلي ممكن في حال عدم وجود ما يدل عليه من «علامات».

وخصوصاً، وورود تسمية المؤمنين في الآيات القرآنية بالمتوسمين للتأكيد على ضرورة الانتباه إلى هذه العلامات.

فلكي يستطيعوا تشخيص الحق من الباطل لابدّ من معرفة المذاهب والسنن والدعوات المختلفة، بل حتى الأشخاص، وذلك من خلال (العلامات).

وأمّا مسألة وجود القائد فلا تحتاج لتوضيح وبيان (الموضّح لا يوضّح).

وقد فسّرت «النجم» برسول الله صلى الله عليه وآله و«العلامات» بالأئمّة عليهم السلام في روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام ... وفي بعضها فسّر «النعم» و«العلامات» كلاهما بالأئمّة عليهم السلام، ونشير هنا إلى نماذج من الرّوايات:

١ - في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «النجم رسول الله، والعلامات الأئمّة عليهم السلام»[1] وورد مثله عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٤٥.

٢ - وروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أعلاه أنّه قال: «نحن النجم»[١].

٣ - وروي كذلك عن الإمام الرضا عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «أنت نجم بني هاشم»[٢].

٤ - وفي رواية أُخرى: «أنت أحد العلامات»[٣].

وكلّ ذلك يشير إلى التّفسير المعنوي لهذه الآيات.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾

التّفسير

آلهة لا تشعر!

تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيّة منها على الأصنام وسائر المعبودات الأُخرى غير الله تعالى وهما: (خلق الموجودات وإعطاء النعم)، أمّا الآية الأُولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثّالثة للمعبود الحقيقي (وهي العلم)، فتقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾.

فلماذا تسجدون للأصنام التي لم تكن هي الخالقة لكم، ولم تمنّ عليكم بأيّةِ نعمة، ولا تعرف عن علانيتكم شيئاً فضلاً عن سرّكم؟!

فهل يصح عبادة مَنْ لا يمتلك مستلزمات المعبود؟!

ثمّ يعود القرآن إلى مسألة الخالقيّة بأُفق أوسع من الآية السابقة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

وقد بحث لحدّ الآن في عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنّها ليست خالقة، بل

(١-٣) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٤٥.

والأكثر من ذلك أنّها إضافة لكونها مخلوقة فهي فقيرة ومحتاجة في وجودها، فكيف يلجأ إليها الإنسان لسدّ حوائجه؟! أوَ ليس ذلك السخف بعينه؟

ومع ذلك كلّه، فإنّها ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾.

أوَ ليس ينبغي أن يكون المعبود حيّاً (على أقل التقادير) ليكون مطلعاً على حاجات عباده؟

إذن... يلزم توفر صفة «الحياة» للمعبود الحقيقي، وهذا ما لا يتوفر في الأصنام.

ثمّ يضيف قائلاً عنها: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

فإذا كان الثواب والعقاب بيد الأصنام. فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهنّ، ومع جهلها بيوم البعث والحساب كيف تكون لائقة للعبادة؟!

وهذه هي الصفة الخامسة التي يجب توفرها في المعبود الحقيقي وتفتقدها الأصنام[1].

وقلنا مراراً فيما سبق أنّ مفهوم الصنم وعبادة الأصنام في المنطق القرآني أوسع من أنّ يحدد بالآلهة المصنوعة من الحجر والخشب والمعادن، فكلّ موجود نجعله ملجأ لنا مقابل الله عزّ وجلّ، ونسلّم له أمر مصائرنا، فهو صنم وإن كان بشراً.

ولهذا فكلّ ما جاء في الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون الله بألسنتهم، ولكن في واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، وقد تبعوه لكونه المخلص لهم من دون الله، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

أُولئك الذين يعتقدون أنّ القوى العالمية الكبرى يمكن أن تكون ملجأً لهم في حياتهم، وإن كانت كافرة بالله وجهنميّة فهم من الناحية العملية الواقعية عبدةٌ للأصنام ومشركين بالله عزّ وجلّ، وينبغي محاججتهم بـ: هل خلقت لكم هذه المعبودات شيئاً؟

هل هي مصدر النعمة؟

أهي مطّلعة على شؤونكم الظاهرة والخفيّة؟

وهل تعلم متى ستبعثون؟

---

(١) ويرى المفسرون في تفسير الآية: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ احتمالات أُخرى غير ما ذُكر في المتن. منها أنّ المراد من الآية أنّ الأصنام لا تعلم أنها تُبعث يوم القيامة، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء: ٩٨]، ولكن من الواضح أن هذا الاحتمال لا ينسجم مع ما قبل الآية وما بعدها، فالصحيح هو ما ذكرنا أعلاه.

هل بيدها الثواب والعقاب؟

وإن كانت الإجابة بالنفي، فَلِمَ تعبدونها من دون الله؟!

وبعد هذه الاستدلالات الحيّة والواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

وبما أنّ العلاقة بين المبدأ والمعاد مترابطة ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(١).

فأدلة التوحيد والمعاد قائمة لمن أراد الحق وطلب الحقيقة، إلاّ أنّ سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الاستكبار وعدم التسليم له، ويصبح ملكةً في وجود المنكرين خصوصاً بعد أن يصل بهم الحال إلى إنكار الحقائق الحسيّة المتوفرة لديهم، وعندها فلا ينفع معهم كلام حق أو دليل شاخص أو منطق سليم.

فالأدلة الحيّة التي ذكرتها الآيات السابقة بعدم صلاحية الأصنام للعبادة كافية لكلّ ذي لبّ رشيد، إلاّ أنّ هناك الكثير ممّن لا يقبلها مع ما لها من حقيقة ووضوح!!!

ثمّ تتطرق الآية الآخيرة إلى علم الله في الغيب والشهادة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

والآية في واقعها تهديد للكفّار وأعداء الحق، بأنّ الله عزّ وجلّ ليس بغافل عنهم، سرّهم وعلانيتهم، وكلّ سينال جزاءه بما غرفت يداه.

فهم مستكبرون و﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، والاستكبار على الحق من علامات الجهل بالله عزّ وجلّ.

إنّ كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ متكوّن من «لا» و«جرم» وتستعمل عادة للتأكيد بمعنى (قطعاً)، وأحياناً بمعنى (لا بد)، وفي بعض الأحيان تستعمل كقسم مثل: (لا جرم لأفعلن).

أمّا كيف أمكن استخراج هذه المعاني من كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ فذلك لأنّ «جرم» في الأصل بمعنى القطف وقطع الثمار من الأشجار، وعندما تدخل عليها «لا» يكون مفهومها: أنْ لا شيء يستطيع قطع هذا الموضوع ومنعه من التحقق، ولهذا يستفاد منها معاني: قطعاً، ولابدّ، وأحياناً القَسم.

---

(١) إنّ حرف الفاء في كلمة ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ للتفريع كما هو معلوم، فيكون المراد: إنّ إنكار القيامة فرع لإنكار المبدأ.

بحث

من هم المستكبرون؟

وردت كلمة الاستكبار في آيات كثيرة من القرآن الكريم باعتبارها إحدى الصفات الذميمة الخاصّة بالكفّار، ولتعطي معنى التكبّر عن قبول الحق.

ففي الآية السابقة من سورة نوح: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾.

وفي الآية الخامسة من سورة المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

وكذلك في الآية الثّامنة من سورة الجاثية: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

ومن أقبح ألوان التكبّر ذلك الذي يقف أمام الحق فيرفضه، لأنّه يغلق على الإنسان جميع سبل الهداية ويتركه يتخبط في متاهات المعاصي والضلال.

ويصف أمير المؤمنين عليه السلام الشيطان بأنّه: «سلف المستكبرين»(١) لأنّه أوّل مَنْ خطا في طريق مخالفة الحق بعدم تسليمه للحقيقة الرّبانية التي تقول: إنّ آدم أكمل منه.

صحيح أنّ زهو المال قد يوقع الإنسان في حالة الاستكبار، إلاّ أنّ المسألة أكبر من ذلك وأشمل، فكلّ رافض لقبول الحق مستكبر وإن كان فقيراً.

ونختم البحث برواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ومَنْ ذهب يرى أنّ له على الآخر فضلاً فهو من المستكبرين، فقلت: إنّما يرى أن له عليه فضلاً بالعافية إذا رآه مرتكباً للمعاصي؟ فقال: هيهات هيهات! فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى وأنت موقوف تحاسب، أما تلوت قصّة سحرة موسى عليه السلام»(٢).

(حين وقف السحرة يوماً في مقابل موسى عليه السلام إرضاءً لفرعون وطمعاً في جوائزه، ولكنّهم انقلبوا فجأة لما تبيّن لهم الحق واعتنقوه وما هابوا تهديد فرعون، وبقوا على رفضهم في عدم التسليم للطاغية، فكانت النتيجة أنْ عفا الله عنهم ورحمهم).

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٤٨، ح٥٦ نقلاً عن (روضة الكافي).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير مجمع البيان: يروى أنّها نزلت في المقتسمين وهم ستة عشر رجلاً خرجوا إلى عقاب مكّة أيام الحج على طريق الناس على كلّ عقبة أربعة منهم ليصدّوا الناس عن النّبي ﷺ وإذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

التّفسير

حمل أوزار الآخرين

دار الحديث في الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث في التنصّل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق.

أمّا في هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فليس هو وحي إلهي، بل أكاذيب القدماء.

وكانوا يقصدون بكلامهم هذا أمرين:

الأوّل: الإيحاء بأنّ مستوى تفكيرهم وعلميتهم أرقى ممّا أنزل الله!

الثّاني: ما جاء به النّبي ﷺ إن هو إلاّ أساطير الأولين قد صيغت بعبارات جذّابة لتنطلي على عوام الناس، وهذا ليس بالجديد، وما محمد ﷺ إلاّ معيد لما جاء به الأوّلون من أساطير.

«الأساطير»[1]: جمع أسطورة، وتطلق على الحكايات والقصص الخرافية والكاذبة، وقد وردت هذه الكلمة تسع مرّات في القرآن الكريم نقلاً عن لسان الكفّار ضدّ الأنبياء تبريراً لمخالفتهم الدعوة إلى الله عزّوجلّ.

وفي جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأوّلين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة وأنّ الأيّام ستتجاوزها! حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن لسانهم في الآية ٣١ من سورة الأنفال: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾.

والملاحظ على مستكبري يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروباً من الحق وإضلالاً للآخرين، ووصلت بهم الحماقة لأنْ يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشري، وما الآراء الدينية إلاّ أساطير وخرافات! حتى أنّهم أثبتوا ذلك في كتب (علم الاجتماع ودوّنوه بصياغة (علمية) كما يدّعون).

أمّا لو نفذنا في أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة أُخرى: فهم لم يحاربوا الأديان والمذاهب الخرافية المجعولة أبداً، فهم مؤسسوها والداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة والدين الحق الذي يوقظ الفكر الإنساني ويحطّم الأغلال الاستعمارية ويقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

إنّهم يرون عدم انسجام دعوة الدين إلى الأخلاق الحميدة مع مزاجهم، لأنّها تعارض أهواءهم الطائشة ورغباتهم غير المشروعة.

لذلك يجدون في دعوة الحق مانعاً أمام ما يطمحون الحصول عليه، ونراهم يستعملون مختلف الأساليب لتوهين هذا الدين القيّم وإسقاطه من أنظار الآخرين كي تخلو الساحة لهم ليفعلوا ما يشاؤون.

ومن المؤسف أنّ طرح بعض الخرافات والأفكار الخاطئة في قالب ديني من قبل

---

(١) يعتبرها البعض جمع الجمع، فالأساطير جمع أسطار، والأساطير جمع سطر.. ويعتبرها البعض الآخر جمعاً ليس له مفرد من جنسه.. إلاّ أنّ المشهور ما ذكرناه أعلاه.

الجهلة، كان بمثابة العامل المساعد في تجرّي هؤلاء ودفعهم لإلصاق تهمة الخرافات بالدين. ولابدّ للمؤمنين الواعين أمام هذه الحال من الوقوف بكلّ صلابة أمام الخرافات ليبطلوا هذا السلاح في أيدي أعدائهم ويذكروا هذه الحقيقة في كلّ مكان وأنّ هذه الخرافات لا ترتبط بالدين الحق أبداً ولا ينبغي للداعية المخلص أن يجعل الخرافات ذريعة لأعداء الدين في محاربته ومحاربتنا، لأنّ عملية انسجام التعليمات الربانية مع العقل بحدّ من المتانة والوضوح لا يفسح أيّ مجال لأن تُوجه إليه هكذا أباطيل.

توضّح الآية الأُخرى أعمالهم بالقول: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

لأنّ أقوالهم الباطلة لها الأثر السلبي بتضليل أعداد كبيرة من الآخرين. فمن أسوأ ممن حُمِّلَ أوزار آلاف البشر إلى وزره! والأكثر من ذلك أنّ أقوالهم ستركد في مخيّلة مَنْ يأتي بعدهم من الأجيال لتكون منبعاً لإضلالهم، ممّا يزيد في حمل الأوزار باطراد.

وقد جاءت عبارة: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ بصيغة الأمر، أمّا مفهومها فلبيان نتيجة وعاقبة أعمال أُولئك المضلّلين، كما نقول لشخص ما: لكونك قمت بهذا العمل غير المشروع فعليك أن تتحمل عاقبة ما فعلت بتذوقك لمرارة عملك القبيح. (واحتمل بعض المفسّرين أنّ لام (ليحملوا، لام نتيجة).

«والأوزار»: جمع وزر، بمعنى الحمل الثقيل، وجاءت بمعنى الذنب أيضاً، ويقال للوزير وزير لعظم ما يحمل من مسؤولية.

ويواجهنا السؤال التالي. لماذا قال القرآن: يحملون من أوزار الذين يضلّونهم ولم يقل كلّ أوزارهم، في حين أنّ الرّوايات تؤكّد... أنّ «مَنْ سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة»؟

أجاب بعض المفسّرين بوجود نوعين من الذنوب عند المضلّلين، نوع ناتج من اتّباعهم لأئمّة الضلال، والنوع الآخر من أنفسهم، فما يحمله أئمّتهم وقادتهم هو من النوع الأوّل دون الثّاني.

واعتبر البعض الآخر من المفسّرين أنّ «مِنْ» في هذه الجملة ليست تبعيضية، بل جاءت لبيان أنّ ذنوب الأتباع على عاتق المتبوعين.

وثمّة تفسير آخر قد يكون أقرب إلى القبول من غيره، يقول: إنّ الأتباع الضالين لهم حالتان من التبعية...

فتارةً يكونون أتباعاً للمنحرفين على علم وبيّنة منهم، والتاريخ حافل بهكذا صور، فيكون سبب الذنب أوامر القادة من جهة، وتصميم الأتباع من جهة أُخرى فيقع على عاتق القادة قسم من المسؤولية المترتبة على هذه الذنوب «ولا يقلل من وزر الأتباع شيء».

وتارةً أُخرى تكون التبعية نتيجة الاستغفال والوقوع تحت شراك وساوس المنحرفين من دون وعي وإدراك لحقيقة الأمر لدى التابعين، وهو ما يشاهد في عوام الناس عند الكثير من المجتمعات البشرية، (وقد يسلك طريق الضلال بعنوان التقرّب إلى الله).. وفي هذه الحال يكون وزر ذنوبهم على عاتق مضلّيهم بالكامل، ولا وزر عليهم إنْ لم يقصّروا بالتحقق من الأمر.

ولا شك أنّ المجموعة الأُولى التي سارت في طريق الضلال عن علم وبيّنة من أمرها سوف لا يخفف من ذنوبهم شيء مضافاً إلى ما يلحق أئمّتهم من ذنوبهم.

وهنا يلزم ملاحظة أنّ التعبير ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في الآية ليس دليلاً على الغفلة الدائمة للمضلّلين، ولا يُعبّر عن سقوط المسؤولية - في جميع الحالات - على غير المطلعين بحال وشأن أئمّة السوء والضلالة بل يشير إلى سقوط عوام الناس لجهلهم بشكل أسرع من علمائهم في شراك أو شباك المضلِّلين.

ولهذا نرى القرآن في آيات أُخرى لا يبرّىء هؤلاء الأتباع ويحمّلهم قسطاً من المسؤولية كما في الآيتين ٤٧ و ٤٨ من سورة غافر: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.

ثمّ تتحرك الآية الأُخرى لتقرر أنّ تهمة وصف الوحي الإلهي بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المستجد: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

مع أنّ بعض المفسّرين قد ذهب بالآية إلى قصّة «نمرود» وصرحه الذي أراد من خلاله محاربة رب السماء! والبعض الآخر فسّرها بقصّة «بخت نصر».. إلاّ أنّ الظاهر من مفهوم الآية شمول جميع مؤامرات ودسائس المستكبرين وأئمّة الضلال.

ومن لطيف دقّة العبارة القرآنية، أنّ الآية أشارت إلى أنّ الله عزّوجلّ لا يدمرّ البناء العلوي للمستكبرين فحسب، بل سيدمّره من القواعد لينهار بكلّه عليهم.

وقد يكون تخريب القواعد وإسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل والصواعق لتنهار على رؤوسهم، وقد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم بأمر الله عزّوجلّ، بل لا مانع من شمول الأمرين معاً.

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن ذكر كلمة «السقف» بعد ذكر ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾، فـ«السقف» عادة في الطرف الأعلى من البناء، فما الذي استلزم ذكر ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾؟ ويمكن حمله للتأكيد، وكذلك لبيان أنّ السقوط سيتحقق بوجودهم أسفله لهلاكهم، حيث إنّ السقوط قد يحدث بوجود أصحاب الدار أو عدم وجودهم.

وقدّم لنا التاريخ قديمه وحديثه بوضوح صوراً شتى للعقاب الإلهي، فأحكام الطغاة والجبابرة لما يعيشون ويتمتعون في كنفه من حصون وقلاع، إضافة لخططهم المحبوكة كي يستمر لهم ولنسلهم الحال، وما قاموا به من تهيئة وإعداد كل مستلزمات بقاء قدرة التسلط ودوام نظام الحكم... كلّ ذلك لا يعبّر في الحقيقة إلاّ عن ظواهر خاوية من كل معاني القدرة والاقتدار والدوام، حيث تحكي لنا قصص التاريخ أنّ هؤلاء يأتيهم العذاب الإلهي وهم بذروة ما يتمتعون به، وإذا بالقلاع والحصون تتهاوى على رؤوسهم فيفنون ولا تبقى لهم باقية.

وعذابهم في الحياة الدنيا لا يعني تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾.

فيسألهم الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي تجادلون وتعادون فيهم[1]، فلا يتمكنون من الإجابة، ولكنْ: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ويظهر من خلال ذلك أنّ المتحدثين يوم القيامة هم العلماء، ولا ينبغي في ذلك المحضر المقدّس الحديث بالباطل.

وإذا رأينا في بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السلام التأكيد على أنّ العلماء في ذلك المحضر هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام لأنّهم أفضل وأكمل مصداق لذلك[2].

ونعاود الذكر لنقول: إنّ المقصود من السؤال والجواب في يوم القيامة ليس لكشف

---

(١) ﴿تُشَاقُّونَ﴾ من مادة الشقاق، بمعنى المخالفة والعداء، وأصلها من (شقّ، أي قَطَعَهُ نصفين).
(٢) راجع تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٥٠، ح٧١.

أمر خفي، بل هو نوع من العذاب الروحي، وذلك إحقاقاً للمؤمنين الذين لاقوا اللوم والتوبيخ الشديدين في الحياة الدنيا من المشركين المغرورين.

ويصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

لأنّ ممارسة الظلم في حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانية، ويهتك حرمة الصفات الفطرية الكامنة فيه.

بالإضافة إلى أنّ الظلم متى ما شاع وانتشر في أيّ مجتمع، فالنتيجة الطبيعية له أن يعود على الظالمين أنفسهم ليشملهم الحال.

أمّا حين تحين ساعة الموت ويزول حجاب الغفلة عن العيون ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾.

لماذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل إنّهم يكذبون وقد أصبح الكذب صفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إننا نعلم سوء أعمالنا، ولكننا أخطأنا ولم تكن لدينا نوايا سيئة فيه؟؟.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

ولكنّ الجواب يأتيهم فوراً: إنّكم تكذبون فقد ارتكبم ذنوباً كثيرة: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حتى بنيّاتكم.

وليس المقام محلاً للإنكار أو التبرير.. ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

بحثان

١ - السُّنّة سنتان... حسنة وسيئة

القيام بأي عمل يحتاج بلا شك إلى مقدمات كثيرة، وتعتبر السنن السائدة في المجتمع سواء كانت حسنة أم سيئة من ممهّدات الأرضية الفكرية والاجتماعية التي تساعد القائد (سواء كان مرشداً أم مضلاً) للقيام بدوره بكلّ فاعلية، وحتى أنّه قد يفوق دور الموجّهين وواضعي السنن على جميع العاملين في بعض الأحيان.

ولهذا لا يمكن فصل دور واضعي السنن عن العاملين بتلك السنن، فهم شركاء في

العمل الصالح إذا ما سنوا سنة حسنة، وشركاء في جرم المنحرفين إذا ما سنوا لهم سنة سيئة.

وقد اهتم القرآن الكريم، وكذا الأحاديث الشريفة كثيراً بمسألة السنّة الحسنة والسنّة السيئة وواضعيها.

كما طالعتنا الآيات أعلاه بأنّ المستكبرين المضلّين يحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم (دون أن ينتقص من أوزارهم شيء).

وهذا الأمر من الأهميّة بمكان حتى قال عنه النّبي ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»[١].

وفي تفسير هذه الآية روي عن النّبي ﷺ قال: «أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع، فله مثل أُجورهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليه، فإنّ عليه مثل أوزار مَنْ اتبعه، من غير أنْ ينقص من أوزارهم شيئاً»[٢].

وكذلك روي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ استنّ بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، ومَنْ استنّ سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر مَنْ عمل به، من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء»[٣].

وثمّة روايات أُخرى تحمل نفس هذا المضمون رويت عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام وقد جمعها الشّيخ الحر العاملي (قدس سره)، في المجلد الحادي عشر من كتابه الموسوم بالوسائل (كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب السّادس عشر).

وفي صحيح مسلم ورد حديث عن النّبي ﷺ مرفوعاً عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء ومتقلدي السيوف... فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثمّ خرج فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلى وخطب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٤] ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٥]، ليتصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره (حتى قال) ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفّه تعجز

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٤٣٦.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١١، ص٣٥٩ في تفسير الآية مورد البحث.

(٣) وسائل الشيعة، ج١١، ص٤٣٧.

(٤) سورة النّساء، الآية: ١.

(٥) سورة الحشر، الآية: ١٨.

عنها بل قد عجزت، قال: ثمّ تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله يتهلل كأنّه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أُجورهم شيء، ومَنْ سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»(١).

وهنا، يواجهنا سؤال.. كيف تنسجم هذه الرّوايات مع ما يعاضدها من آيات مع الآية ١٦٤ من سورة الأنعام ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؟

وتتّضح الإجابة من خلال ملاحظة أنّ هؤلاء ليسوا مسؤولين عن ذنوب الآخرين بل عن ذنوبهم فقط، ولكنّهم من خلال اشتراكهم في تحقق ذنوب الآخرين يشاركوهم فيها، أي إنّ تلك الذنوب تعتبر من ذنوبهم بهذا اللحاظ.

٢ - التّسليم بعد فوات الأوان

قليل أُولئك الذين ينكرون الحقيقة بعد رؤيتها في مرحلة الشهود، ولهذا نجد المذنبين والظالمين يظهرون الإيمان فوراً بعد أنْ تزال عن أعينهم حجب الغفلة والغرور وحصول العين البرزخية في حال ما بعد الموت، كما بيّنت لنا الآيات السابقة ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾.

وغاية ما في الأمر أنّ الكلَّ مستسلم، ولكنّ الحديث يختلف من بعض إلى بعض، فقسم منهم يتبرأ من أعماله القبيحة بقولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ أي إنّهم من كثرة ممارستهم للكذب فقد اختلط بلحمهم ودمهم والتبس عليهم الأمر تماماً، فمع علمهم بعدم فائدة الكذب في ذلك المشهد العظيم ولكنّهم يكذبون!

ويستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ هناك مَنْ يكذب حتى في يوم القيامة، كما في الآية الثّالثة والعشرين من سورة الأنعام: ﴿قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾!

وقسم آخر يظهر الندامة ويطلب العودة إلى الحياة الدنيا لإصلاح أمره، كما جاء في الآية ١٢ من سورة السجدة.

وقسم يكتفي بإظهار الإيمان كفرعون، كما جاء في الآية (٩٠) من سورة يونس.

وعلى أيّة حال.. سوف لا تقبل كل تلك الأقوال لأنّها قد جاءت في غير وقتها بعد أن انتهت مدّتها، ولا أثر لهكذا إيمان صادر عن اضطرار.

---

(١) صحيح مسلم، ج٢، ص٧٠٤ (باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة).

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

عاقبة المتقين والمحسنين

قرأنا في الآيات السابقة أقوال المشركين حول القرآن وعاقبة ذلك، والآن ندخل مع المؤمنين في اعتقادهم وعاقبته.. فيقول القرآن: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ﴾.

وروي في تفسير القرطبي: كان يرد الرجل من العرب مكّة في أيّام الموسم فيسأل المشركين عن محمّد ﷺ فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون.. ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى.

ما أجمل هذا التعبير وأكمله ﴿خَيْرًاۗ﴾ خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادي ومعنوي، خير للدنيا والآخرة، خير للإنسان الفرد والمجتمع، وخير في التربية والتعليم، السياسة والاقتصاد، الأمن والحرية... والخلاصة: خير في كلّ شيء (لأنّ حذف المتعلق يوجب عموم المفهوم).

وقد وصفت الآيات القرآنية القرآن الكريم بأوصاف كثيرة مثل: النّور، الشفاء، الهداية، الفرقان (يفرق الحق عن الباطل)، الحق، التذكرة، وما شابه ذلك.. ولكن في هذه الآية وردت صفة «الخير» التي يمكن أن تكون مفهوماً عاماً جامعاً لكلّ تلك المفاهيم الخاصة.

والفرق واضح في نعت القرآن بين المشركين والمؤمنين، فالمؤمنون قالوا: ﴿خَيْرًاۗ﴾ أي أنزل الله خيراً، وبذلك يظهر اعتقادهم بأنّ القرآن وحي إلهي(١).

---

(١) ﴿خَيْرًاۗ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره (أنزل الله).

بينما نجد المشركين عندما قيل لهم ماذا أنزل ربّكم؟ قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهذا إنكار واضح لكون القرآن وحي إلهي[1].

وتبيّن الآية مورد البحث نتيجة وعاقبة ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت الآيات السابقة عاقبة ما قاله المشركين من عقاب دنيوي وأخروي، ومادي ومعنوي مضاعف: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾.

وقد أطلق الجزاء بالـ«حسنة» كما أطلقوا القول ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، ليشمل كلّ أنواع الحسنات والنعم في الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وتشارك عبارة «نعم دار المتقين» الإطلاق في كلمة «خيراً» أيضاً، لأنّ الجزاء بمقدار العمل كمّاً وكيفاً.

فيتّضح لنا ممّا قلنا إنّ الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ إلى آخرها تعبّر عن كلام الله عزّوجلّ، ويقوى هذا المعنى عند مقابلتها مع الآيات السابقة.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ الظاهر من الكلام يتضمّن احتمالين:

الأوّل: أنّه كلام الله.

الثّاني: أنّه استمرار لقول المتقين.

ثمّ تصف الآية التالية - بشكل عام - محل المتقين في الآخرة بالقول: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾.

فهل ثمّة أوسع وصفاً من هذا أم أشمل مفهوماً لبيان نعم الجنّة.

حتى أنّ التعبير يبدو أوسع ممّا ورد في الآية ٧١ من سورة الزخرف ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾، فالحديث في الآية عن ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾، في حين الحديث في الآية مورد البحث عن مطلق الإشاءة ﴿مَا يَشَآءُونَۚ﴾.

واستفاد بعض المفسّرين من تقديم ﴿لَهُمۡ فِيهَآ﴾ على ﴿مَا يَشَآءُونَۚ﴾ الحصر، أي يمكن للإنسان أن يحصل على كلّ ما يشاء في الجنّة فقط دون الدنيا.

وقلنا إنّ الآيات مورد البحث توضّح كيفية حياة وموت المتقين مقارنة مع ما ورد في الآيات السابقة حول المشركين والمستكبرين، وقد مرّ علينا هناك أنّ الملائكة عندما

(١) ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (هذه أساطير الأولين).

تقبض أرواحهم يكون موتهم بداية لمرحلة جديدة من العذاب والمشقة، ثمّ يقال لهم «ادخلوا أبواب جهنم. . .».

وأمّا عن المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من كلّ تلوّثات الشرك والظلم والاستكبار، ومخلصين من كلّ ذنب: ﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ السلام الذي هو رمز الأمن والنجاة.

ثمّ يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والتعبير عن موتهم بـ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ يحمل بين طيّاته اللطف، ويشير إلى أنّ الموت لا يعني الفناء والعدم أو نهاية كلّ شيء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

وفي تفسير الميزان: أنّ في هذه الآية ثلاث مسائل:

١ - طهارة المؤمنين من خبث الظلم.

٢ - يقولون لهم ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ وهو تأمين قولي لهم.

٣ - ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو هداية لهم إليها.

وهذه المواهب الثلاث هي التي ذكرت في الآية (٨٢) من سورة الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

البلاغ المبين... وظيفة الأنبياء

يعود القرآن الكريم مرّة أُخرى ليعرض لنا واقع وأفكار المشركين والمستكبرين ويقول بلهجة وعيد وتهديد: ماذا ينتظرون؟ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال!

أو هل ينتظرون أن يأتي أمر الله بعذابهم: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حيث تغلق أبواب التوبة أيضاً ولا سبيل عندها للإصلاح.

فأيّ فكر يسيّرهم، وأي عناد ولجاجة تحكمهم؟!

كلمة ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ وإن كانت ترمز إلى عنوان عام، إلاّ أنّها في هذا الموقع يقصد منها ملائكة قبض الأرواح انسجاماً مع الآيات السابقة التي كانت تتحدث عنهم.

أمّا عبارة: ﴿يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فمع قبولها لاحتمالات كثيرة في تفسيرها، إلاّ أنّ المعنى الراجح هو نزول العذاب، لورود هذا المعنى بالخصوص في آيات مختلفة من القرآن.

ومجموع الجملتين يعني تقريع المستكبرين بأنّ المواعظ الإلهيّة وتذكير الأنبياء إنْ كانت لا توقظكم من غفلتكم فإنّ الموت والعذاب الإلهي سيوقظكم، ولكنْ حينئذ لا ينفعكم ذلك الإيقاظ.

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء ليس أوّل مَنْ كانوا على هذه الحال والصفة وإنّما ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وسوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

والآية تؤكّد مرّة أُخرى على حقيقة عود الظلم والاستبداد والشر على الظالم المستبد الشرير في آخر المطاف، لأنّ الفعل القبيح يترك آثاره السيئة على روح ونفسيّة فاعله، فيسوِّد قبله ويلوّث روحه فيفقده الأمان والاطمئنان.

ثمّ يذكر عاقبة أمرهم بقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: بمعنى أصابهم، إلاّ أنّ بعض المفسّرين كالقرطبي وفريد وجدي في تفسير لهذه الآية اعتبر معناها (أحاط بهم).

ويمكن الجمع بين المعنيين، فيكون المعنى: نزول العذاب عليهم، وكذلك محيطاً بهم.

وعلى أيّة حال، فتعبير الآية بـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ يؤكّد مرّة أُخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء في الدنيا أو في الآخرة، وتتجسم له بصور شتى، وتعذّبه وتؤلمه ولا شيء غير هذه الأعمال في عذابه(١).

وتشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾.

إنّ قولهم ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التي حرّم لحومها المشركون في عصر الجاهلية، والتي أنكرها رسول الله ﷺ بشدّة.

والخلاصة: أنّهم أرادوا الادّعاء بأنّ كلّ ما عملوه من عبادة للأصنام إلى تحليل وتحريم الأشياء، إنّما كان وفقاً لرضا الله تعالى وبإذنه!

ولعلّ قولهم يكشف عن وجود عقيدة (الجبر) ضمن ما كانوا به يعتقدون، معتبرين كلّ ما يصدر منهم إنْ هو إلاّ من القضاء المحتوم عليهم (كما فهم ذلك جمع كثير من المفسّرين).

وثمّة احتمال آخر: إنّهم لم يقولوا ذلك اعتقاداً منهم بالجبر، وإنّما أرادوا الاحتجاج على الله سبحانه، وكأنّهم يقولون: إنْ كانت أعمالنا لا ترضي الله تعالى فلماذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عمّا نقوم به، فسكوته وعدم منعه ما كنّا نعمل دليل على رضاه.

وهذا الاحتمال ينسجم مع ذيل الآية والآيات التالية.

ولهذا يقول تعالى مباشرة: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ . . . يعني:

أوّلاً: أنْ تقولوا إنّ الله سكت عن أعمالنا! فإنّ الله قد بعث إليكم الأنبياء، ودعوكم إلى التوحيد ونفي الشرك.

ثانياً: إنّ وظيفة الله تعالى والنبي ﷺ ليس هي هدايتكم بالجبر، بل بإراءتكم السبيل الحق والطريق المستقيم، وهذا ما حصل فعلاً.

---

(١) وعلى هذا، فلا داعي لتقدير كلمة ﴿جَزَاءُ﴾ قبل ﴿سَيِّئَاتُ﴾ في الآية.

أمّا عبارة: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ فمواساة لقلب النّبي ﷺ، بأن لا يحزن ويثبت في قبال ما يواجه من قبل المشركين، وأنّ الله معه وناصره.

وبعد ذكر وظيفة الأنبياء ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾.

«الأُمّة»: من الأم بمعنى الوالدة، أو بمعنى: كل ما يتضمّن شيئاً آخر في داخله، (ومن هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معيّنة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «أُمّة»).

ويتأكد هذا المعنى من خلال دراسة جميع موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن والبالغة (٦٤) مورداً.

ويبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السلام، بالقول: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾(١).

فأساس دعوة جميع الأنبياء واللبنة الأُولى لتحرّكهم هي الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الطاغوت، وذلك لأنّ أُسس التوحيد إذا لم تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أيّ برنامج إصلاحي.

﴿ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾: (كما قلنا سابقاً) صيغة مبالغة للطغيان.. أيْ التجاوز والتعدّي وعبور الحد، فتطلق على كلّ ما يكون سبباً لتجاوز الحدّ المعقول، ولهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر وعلى كل مسير يؤدّي إلى غير طريق الحق.

وتستعمل الكلمة للمفرد والجمع أيضاً وإنْ جُمعت أحياناً بـ(الطواغيت).

ونعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾.

وهنا علت أصوات من يعتقد بالجبر استناداً إلى هذه الآية باعتبارها المؤيدة لعقيدتهم!

ولكن قلنا مراراً إنّ آيات الهداية والضلال إذا جمعت وربط فيما بينها فلن يبقى هناك أيُّ إبهام فيها، ويرتفع الالتباس من أنّها تشير إلى الجبر ويتّضح تماماً أن الإنسان مختار في تحكيم إرادته وحريته في سلوكه أيّ طريق شاء.

---

(١) تقدير هذه الجملة: ليقولوا لهم اعبدوا..

فالهداية والإضلال الإلهيّين إنّما يكونان بعد توفّر مقدمات الأهلية للهداية أو عدمها في أفكار وممارسات الإنسان نفسه، وهو ما تؤكّده الكثير من آيات القرآن الكريم.

فالله عزّوجلّ (وفق صريح آيات القرآن) لا يهدي الظالمين والمسرفين والكاذبين ومَنْ شابههم، أمّا الذين يجاهدون في سبيل الله ويستجيبون للأنبياء عليهم السلام فمشمولون بألطافه عزّوجلّ ويهديهم إلى صراطه المستقيم ويوفّقهم إلى السير في طريق التكامل، بينما يوكل القسم الأوّل إلى أنفسهم حتى تصيبهم نتائج أعمالهم بضلالهم عن السبيل.

وحيث إنّ خواصّ الأفعال وآثارها - الحسنة منها أو القبيحة - من الله عزّوجلّ، فيمكن نسبة نتائجها إليه سبحانه، فتكون الهداية والإضلال إلهيين.

فالسنّة الإلهيّة اقتضت في البداية جعل الهداية التشريعية ببعث الأنبياء ليدعوا الناس إلى التوحيد ورفض الطاغوت تماشياً مع الفطرة الإنسانية، ومن ثمّ فمن يبدي اللياقة والتجاوب مع الدعوة فرداً كان أم جماعة يكون جديراً باللطف الإلهي وتدركه الهداية التكوينية.

نعم، فها هي السنّة الإلهيّة، لا كما ذهب إليه الفخر الرازي وأمثاله من أنصار مذهب الجبر من أنّ الله يدعو الناس بواسطة الأنبياء، ومن ثمّ يخلق الإيمان والكفر جبراً في قلوب الأفراد (من دون أيّ سبب) والعجيب أنّه لا مجال للتساؤل ولا يسمح في الاستفهام عن سبب ذلك من الله عزّوجلّ.

فما أوحش ما نسبوا اليه سبحانه.. إنّها صورة لا تتفق مع العقل والعاطفة والمنطق؟!

والتعبير الوارد في الآية مورد البحث يختلف في مورد الهداية والضلال، ففي مسألة الهداية، يقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾، أمّا بالنسبة للقسم الثاني، فلا يقول: إنّ الله أضلّهم، بل إنّ الضلالة ثبتت عليهم والتصقت بهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

وهذا الاختلاف في التعبير يمكن أن يكون إشارة لما في بعض الآيات الأُخرى، والمنسجم مع ما ورد من روايات.. وخلاصته:

إنّ القسم الأعظم من هداية الإنسان يتعلق بالمقدمات التي خلقها الله تعالى لذلك، فقد أعطى تعالى: العقل، وفطرة التوحيد، وبعث الأنبياء، وإظهار الآيات التشريعية والتكوينية، ويكفي الإنسان أن يتخذ قراره بحرية، وصولاً للهدف المنشود.

أمّا في حال الضلال فالأمر كلّه يرجع إلى الضالين أنفسهم، لأنّهم اختاروا السير

خلاف الوضعين التشريعي والتكويني الذي جعلهم الله عليه، وجعلوا حول الفطرة حجاباً داكناً وأغفلوا قوانينها، وجعلوا الآيات التشريعية والتكوينية وراء ظهورهم، وأغلقوا أعينهم وصموا آذانهم أمام دعوة الأنبياء عليهم السلام، فكان أنْ آل المآل بهم إلى وادي التيّه والضلال... أوَليس كلّ ذلك منهم؟

والآية ٧٩ من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

وروي في أصول الكافي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، في إجابته على سؤال لأحد أصحابه حول مسألة الجبر والاختيار، أنّه قال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم قال علي بن الحسين، قال الله عزّ وجلّ: يابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء، وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أنّي أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك منّي»(١).

وفي نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين وتقوية روحية المهتدين، بالقول: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

فالآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإنْ كانت الهداية والضلال أمرين إجباريين، لم يكن هناك معنىً للسير في الأرض والنظر إلى عاقبة المكذّبين، فالأمر بالسير بحدّ ذاته تأكيد على اختيار الإنسان في تعيين مصيره بنفسه وليس هو مجبر على ذلك.

وثمّة بحوث كثيرة وشيّقة في القرآن الكريم بخصوص مسألة السير في الأرض مع التأمل في عاقبة الأُمور، وقد شرحنا ذلك مفصّلاً في تفسيرنا للآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تؤكّد التسلية لقلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بتبيان ما وصلت إليه حال الضّالين: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿تَحْرِصْ﴾ من مادة (حرص)، وهو طلب الشيء بجديّة وسعي شديد.

---

(١) أصول الكافي، ج١، ص١٦٠ (باب الجبر والقدر - الحديث ١٢).

بديهي، أنّ الآية لا تشمل كلّ المنحرفين، لأنّ الشمول يتعارض مع وظيفة النّبي (هداية وتبليغ)، وللتاريخ شواهد كثيرة على ما لهداية الناس وإرشادهم من أثر بالغ، وكم أولئك الذين انتشلوا من وحل الضلال ليصبحوا من خلّص أنصار الحق، بل ودعاته.

فعليه.. تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معيّنة من الضالين الذين وصل بهم العناد واللجاجة في الباطل لأقصى درجات الضلال، وأصبحوا غرقى في بحر الاستكبار والغرور والغفلة والمعصية فأُغلقت أمامهم أبواب الهداية، فهؤلاء لا ينفع معهم محاولات النّبي ﷺ لهديهم حتى وإن طالت المدّة لأنّهم قد انحرفوا عن الحق بسبب أعمالهم إلى درجة أنّهم باتوا غير قابلين للهداية.

ومن الطبيعي أن لا يكون لهكذا أُناس من ناصرين وأعوان، لأنّ الناصر لا يتمكن من تقديم نصرته وعونه إلاّ في أرضية مناسبة ومساعدة.

وهذا التعبير أيضاً دليل على نفي الجبر، لأنّ الناصر إنّما ينفع سعيه فيما لو كان هناك تحرك من داخل الإنسان نحو الصلاح والهداية فيعينه ويأخذ بيده، فتأمل.

ولعلّ استعمال ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ بصيغة الجمع للإشارة إلى أنّ المؤمنين على العكس من الضالين، لهم أكثر من ناصر، فالله تعالى ناصرهم و... الأنبياء، وعباد الله الصالحين، وملائكة الرحمة كذلك.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه النصرة في الآية ٥١ من سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

وكذلك في الآية ٣٠ من سورة فصّلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

بحثان

١ - ما هو البلاغ المبين؟

رأينا في الآيات مورد البحث أنّ الوظيفة الرئيسية للأنبياء هي البلاغ المبين ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أيْ لابدّ من الدعوة علناً، وإذا كانت ثمّة ظروف موضوعية تستدعي من الأنبياء أن تكون دعوتهم سرّية، فهذا لا يكون إلاّ لمدّة محدودة، لأنّ الأسلوب السّري في عصر

دعوة الأنبياء عليهم السلام غير مستساغ من قبل المجتمع، فلا يكون له الأثر المطلوب والحال هذه.

فلابدّ للدعوة إذنْ من الإعلان السليم القاطع المصحوب بالتخطيط والتدبير كشرط أساسي في إنجاح الدعوة بين المجتمع.

وبمطالعة تأريخ جميع الأنبياء عليهم السلام نرى أنّهم كانوا يعلنون دعوتهم ببيان صريح معلن، بالرغم من قلة الناصر من قومهم بالذات.

وهذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء وغيرهم) .. فهم: لا يداهنون في دعوتهم أبداً ولا يجاملون الباطل وأهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة والقاطعية.

٢ - لكل أمّة رسول

عند قوله عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ يواجهنا السؤال التالي: لو كان لكلّ أُمّة رسول لظهر الأنبياء في جميع مناطق العالم، ولكنّ التاريخ لا يحكي لنا ذلك، فكيف التوجيه؟!

وتتضح الإجابة من خلال الالتفات إلى أنّ الهدف من بعث الأنبياء إيصال الدعوة الإلهيّة إلى أسماع كلّ الأُمم، فعلى سبيل المثال... عندما بعث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة لم يكن في بقية مدن الحجاز الأُخرى نبي، ولكنّ رسل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يصلون إليها وبوصولهم يصل صوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أسماع الجميع، بالإضافة إلى كتبه ورسائله العديدة التي أرسلها إلى الدول المختلفة (إيران الروم الحبشة) ليبلغهم الرسالة الإلهيّة.

وها نحن اليوم كأُمّة قد سمعنا دعوة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرغم من بعد الشقّة التاريخية بيننا وبينه صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك بواسطة العلماء الرساليين الذين حملوا رسالته إلينا عبر القرون.. ولا يقصد من بعثة رسول لكلّ أُمّة إلاّ هذا المعنى.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون في شأن نزول الآية الأُولى ٣٨ أنّ رجلاً من المسلمين كان له دين على مشرك فتقاضاه فكان يتعلل في تسديده، فتأثّر المسلم بذلك، فوقع في كلامه القسم بيوم القيامة وقال: والذي أرجوه بعد الموت إنّه لكذا، فقال المشرك: وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت وأقسم بالله، لا يبعث الله مَنْ يموت. فأنزل الله الآية[١].

فأجاب الله فيها الرجل المشرك وأمثاله، وعرض المعاد بدليل واضح، وكان حديث الرجلين سبباً لطرح هذه المسألة من جديد.

التّفسير

المعاد و... نهاية الاختلافات

تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلاً لما بحث في الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد ورسالة الأنبياء.

فتقول الآية الأُولى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

وهذا الإنكار الخالي من الدليل والذي ابتدؤوه بالقسم المؤكّد، ليؤكّد بكلّ وضوح على جهلهم، ولهذا يجيبهم القرآن بقوله: ﴿بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ الكلمات الواردة في المقطع القرآني مثل «بلى»، «وعداً»، «حقّاً» لتظهر بكلّ تأكيد حتمية المعاد.

وعموماً، ينبغي مواجهة مَنْ ينكر الحقّ بحجم ما أنكر بل وأقوى، كي يمحو الأثر النفسي السيّئ للنفي القاطع، ولابدّ من إظهار أنّ نكران الحق جهل حتى يمحى أثره تماماً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثمّ يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد وقدرة الله عزّوجلّ على ذلك، ليردّ الاشتباه القائل بعدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعبثية المعاد..

فيقول: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في إنكارهم للمعاد وبأنّ الله لا يبعث مَنْ يموت!

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٦٠؛ وتفسير القرطبي، وتفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث.

لأنّ ذلك عالم الشهود، عالم رفع الحجب وكشف الغطاء، عالم تجلي الحقائق، كما نقرأ في الآية ٢٢ من سورة ق: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وفي الآية ٩ من سورة الطارق: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أيْ تظهر وتعلن.

وكذا الآية ٤٨ من سورة إبراهيم: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

ففي يوم الشهود وكشف السرائر وإظهارها لا معنى فيه لاختلاف العقيدة، وإنْ كان من الممكن أن يقوم بعض المنكرين اللجوجين بإطلاق الأكاذيب في بعض مواقف يوم القيامة لأجل تبرئة أنفسهم، إلاّ أنّ ذلك سيكون أمراً استثنائياً عابراً.

وهذا يشبه إلى حدّ ما إنكار المجرم لجريمته ابتداءً عند المحاكمة، ولكنّه سرعان ما ينهار ويرضخ للحقيقة عندما تعرض عليه مستمسكات جريمته المادية التي لا تقبل إدانة غيره أبداً، وهكذا فإنّ ظهور الحقائق في يوم القيامة يكون أوضح وأجلى من ذلك.

ومع أنّ أهداف حياة ما بعد الموت (عالم الآخرة) عديدة وقد ذكرتها الآيات القرآنية بشكل متفرّق مثل: تكامل الإنسان، إجراء العدالة الإلهيّة، تجسيد هدف الحياة الدنيا، الفيض واللطف الإلهيين وما شابه ذلك... إلاّ أنّ الآية مورد البحث أشارت إلى هدف آخر غير الذي ذكر وهو: رفع الاختلافات وعودة الجميع إلى التوحيد.

ونعتقد أنّ أصل التوحيد من أهم الأصول التي تحكم العالم، وهو شامل ويصدق على: ذات وصفات وأفعال الله عزّوجلّ، عالم الخليقة والقوانين التي تحكمه، وكلّ شيء في النهاية يجب أن يعود إلى هذا الأصل.

ولهذا فنحن نعتقد بوجود نهاية لكلّ ما تعانيه البشرية على الأرض - الناشئة من الاختلافات المنتجة للحروب والصدامات - من خلال قيام حكومة واحدة تحت ضلال قيادة الإمام المهدي «عجل الله تعالى فرجه الشريف» لأنّه يجب في نهاية الأمر رفع ما يخالف روح عالم الوجود (التوحيد).

أمّا اختلاف العقيدة فسوف لا يرتفع من هذه الدنيا تماماً لوجود عالم الحجب والأستار، ولا ينتهي إلاّ يوم البروز والظهور (يوم القيامة).

فالرجوع إلى الوحدة وانتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد وقد أشارت إليه الآية مورد البحث.

وثمّة آيات قرآنية كثيرة كررت مسألة أنّ الله عَزَّوَجَلَّ سيحكم بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون(١).

ثمّ يشير القرآن إلى الفقرة الثّانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على مَنْ يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فمع هذه القدرة التامّة.. هل ثمّة شك أو ترديد في قدرته عَزَّوَجَلَّ على إحياء الموتى؟!

ولعلّ لا حاجة لتبيان أنَّ «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، وإلاّ لا حاجة في أمر الله لـ«كن» أيضاً، فإرادته سبحانه وتعالى كافية في تحقيق ما يريد.

ولو أردنا أن نضرب مثلاً صغيراً ناقصاً من حياتنا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فنستطيع أن نشبّهه بانطباع صورة الشيء في أذهاننا لمجرد إرادتنا، فإنّنا لا نعاني من أيّة مشكلة في تصور جبل شامخ أو بحر متلاطم أو روضة غنّاء، ولا نحتاج في ذلك لجملة أو كلمة نطلقها حتى نتخيل ما نريد، فبمجرّد إرادة التصور تظهر الصورة في ذهننا.

ونقرأ الحديث المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ... إنّ صفوان بن يحيى سأله: أخبرني عن الإرادة من الله تعالى ومن الخلق، فقال: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عَزَّوَجَلَّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنّه لا يُرَوّي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فإرادة الله تعالى هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف كذلك كما أنّه بلا كيف»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

---

(١) راجع الآيات: (٥٥) آل عمران، (٤٨) المائدة، (١٦٤) الأنعام، (٩٢) النحل و(٦٩) الحج.

(٢) عيون الأخبار، ج١، ص١١٩. أصول الكافي، ج١، ص١٠٩، باب الإرادة، ح٣.

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرين في شأن نزول الآية الأُولى ٤١ أنّها: نزلت في المعذّبين بمكّة مثل صهيب وعمار وبلال وخباب وغيرهم الذين مكّنهم الله في المدينة، وذكر أنّ صهيباً قال لأهل مكّة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرّكم فخذوا مالي ودعوني، فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله ﷺ فقال له أحدهم: ربح البيع يا صهيب.

ويروى أنّ أحد الخلفاء كان إذا أعطى أحداً من المهاجرين عطاءً قال له: خذ، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما أخّره لك أفضل. ثمّ تلا هذه الآية(١).

التّفسير

ثواب المهاجرين

قلنا مراراً: إنّ القرآن الكريم يستخدم أُسلوب المقايسة والمقارنة كأهم أُسلوب للتربية والتوجيه، فما يريد أن يعرضه للناس يطرح معه ما يقابله لتتشخص الفروق ويستوعب الناس معناه بشكل أكثر وضوحاً.

فنرى في الآيات السابقة الحديث عن المشركين ومنكري يوم القيامة، وينتقل الحديث في الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين، ليقارن بين المجموعتين ويبيّن طبيعتهما..

فيقول أوّلاً: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أمّا في الآخرة ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثمّ يصف في الآية التالية المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

بحوث

١ - كما هو معروف فإنّ للمسلمين هجرتين، الأُولى: كانت محدودة نسبياً (هجرة

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٦١ ذيل الآية مورد البحث.

جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة)، والثّانية: الهجرة العامة للنّبي ﷺ والمسلمين من مكّة إلى المدينة.

وظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثّانية، كما يؤيّد ذلك شأن النّزول.

وقد بحثنا أهميّة دور الهجرة في حياة المسلمين في الماضي والحاضر واستمرار هذا الأمر في كلّ عصر وزمان بشكل مفصّل ضمن تفسيرنا للآية ١٠٠ من سورة النساء، والآية ٧٥ من سورة الأنفال.

وعلى أيّة حال، فللمهاجرين مقام سام في الإسلام، وقد اهتمّ النّبي الأكرم ﷺ بهم كثيراً وكذا المسلمون من بعد، وذلك لأنّهم جعلوا حياتهم المادية وما يملكون في خدمة الدعوة الإسلامية المباركة، ممّا حدا بالبعض أن يعرض حياته للمخاطر، والبعض الآخر ترك كلّ أمواله (كصهيب) معتبراً نفسه رابحاً في هذه الصفقة المباركة.

ولو لم تكن تلك التضحيات لأُولئك المهاجرين لما سمح المحيط الفاسد في مكّة وتحكّم الشياطين عليها بأن يخرج صوت الإسلام ليعمّ أسماع الجميع، وَلَكُتِمَ الصوت وقبر في صدور المؤمنين إلى الأبد، ولكنّ المهاجرين بتحولهم المدروس الواعي وهجرتهم المباركة لم يفتحوا مكّة فحسب، وإنّما أوصلوا صوت الإسلام إلى أسماع العالم، فأصبحت الهجرة سنّة إسلامية تجري على مرّ التاريخ إذا ما واجهت ما يشبه ظروف مكّة قبل الهجرة.

٢ - التعبير بـ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ من دون ذكر كلمة «سبيل» إشارة إلى ذروة الإخلاص الذي كان يحمله أُولئك المهاجرون الأُول، فهم هاجروا لله وفي سبيله وطلباً لرضاه وحماية لدينه ودفاعاً عنه، وليس لنجاتهم من القتل أو طلباً لمكاسب مادّية أُخرى.

٣ - وتظهر لنا جملة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ عدم ترك الميدان فوراً، بل لابدّ من الصبر والتحمّل قدر الإمكان.

أمّا عندما يصبح تحمّل العذاب من العدو باعثاً على زيادة جرأته وجسارته، وإضعاف المؤمنين... فهنا تجب الهجرة لأجل كسب القدرة اللازمة وتهيئة خنادق المواجهة المحكمة، ويستمر بالجهاد على كافّة الأصعدة من موقع أفضل، حتى تنتهي الحال إلى نصر أهل الحق في الساحات العسكرية والعلمية والتبليغية...

٤ - أمّا قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ «نبوئنهم» من (بوأت له مكاناً) أي هيّأته له ووضعته فيه فيشير إلى أنّ المهاجرين في الله - وإنْ كانوا ابتداءً يفتقدون إلى

الإمكانيات المادية المستلزمة للمواجهة، إلاّ أنّهم في النهاية - حتى في الجانب الدنيوي - منتصرون[(١)].

فلماذا بعد ذلك يتحمل الإنسان ضربات الأعداء المتوالية ويموت منها ذليلاً؟! لماذا لا يهاجر وبكلّ شجاعة ليجاهد عدوّه من موضع جديد فيأخذ منه حقّه؟!

وقد عرض هذا الموضوع بوضوح أكثر في الآية ١٠٠ من سورة النساء، حيث تقول: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

٥ - إنّ سبب انتخاب صفتين للمهاجرين «الصبر» و«التوكل» واضح، لما يواجه من ظروف صعبة ومتعبة، تحتاج الثبات والصبر على مرارة تلك الظروف في الدرجة الأُولى، ثمّ الاعتماد الكامل على الله سبحانه وتعالى. وأساساً فإنّ الإنسان لو افتقد في الحوادث العصيبة والشدائد القاسية، المعتمد المطمئن والسند المعنوي المحكم، فإنّ الصبر والاستقامة والثبات تكون مستحيلة.

وقال البعض: إنّ انتخاب «الصبر» هنا، لأنّ ابتداء السير في طريق الهجرة إلى الله يحتاج إلى المقاومة والثبات أمام رغبات النفس، أمّا انتخاب «التوكل» فلأجل أنّ نهاية السير هي الانقطاع عن كلّ شيء غير الله عزّوجلّ والارتباط به.

وعلى هذا، تكون الصفة الأُولى لأوّل الطريق والثانية لآخره[(٢)].

وعلى أيّة حال.. فلا سبيل إلى الهجرة الخارجية دون الهجرة الباطنية، فعلى الإنسان أنْ يقطع علائقه المادية الباطنية أوّلاً بهجرته نحو الفضائل الأخلاقية، ليستطيع أنْ يهاجر ويترك دار الكفر - مع كل ما له فيها - منتقلاً إلى دار الإيمان.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(١) ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾: في الأصل من (بوأ) بمعنى تساوي أجزاء مكان ما.. على عكس «نبوء» على وزن (مبدأ) بمعنى عدم تساوي أجزاء المكان. وعلى هذا فـ«بوّأت له مكاناً» أي ساويت له مكاناً، ثمّ بمعنى هيأته له.

(٢) التّفسير الكبير للفخر الرازي، في تفسير الآية مورد البحث.

التّفسير

اسألوا إن كنتم لا تعلمون!

بعد أنْ عرض القرآن في الآيتين السابقتين حال المهاجرين في سياق حديثه عن المشركين، يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق بأُصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة، حين يتقوّل المشركون: لماذا لم ينزل الله ملائكة لإبلاغ رسالته؟. . . أو يقولون: لِمَ لَمْ يجهّز النّبي ﷺ بقدرة خارقة ليجبرنا على ترك أعمالنا!؟. .

فيجيبهم الله عزّوجلّ بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

نعم. فإنّ أنبياء الله عليهم السلام جميعهم من البشر، وبكلّ ما يحمل البشر من غرائز وعواطف إنسانية، حتى يحس بالألم ويدرك الحاجة كما يحس ويدرك الآخرون.

في حين أنّ الملائكة لا تتمكن من إدراك هذه الأُمور جيّداً والاطلاع على ما يدور في أعماق الإنسان بوضوح.

إنّ وظيفة الأنبياء إبلاغ رسالة السماء والوحي الإلهي، وإيصال دعوة الله إلى الناس والسعي الحثيث وبالوسائل الطبيعية لتحقيق أهداف الوحي، وليس باستعمال قوى إلهيّة خارقة للسنن الطبيعية لإجبار الناس بقبول الدعوة وترك الانحرافات، وإلاّ فما كان هناك فخر للإيمان ولا كان هناك تكامل.

ثمّ يضيف القول (تأكيداً لهذه الحقيقة): ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿ٱلذِّكۡرِ﴾: بمعنى العلم والإطلاع، و﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين والعارفين في كافة المجالات. وإذا فسّر البعض كلمة ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ في هذا المورد بـ(أهل الكتاب)، فهو لا يعني حصر هذا المصطلح بمفهوم معيّن، وما تفسيرهم في واقعة إلاّ تطبيق لعنوان كلي على أحد مصاديقه. لأنّ السؤال عن الأنبياء والمرسلين السابقين وهل أنّهم من جنس البشر وذوي رسالات ووظائف ربّانية، يجب أن يكون من علماء أهل الكتاب.

وبالرّغم من عدم وجود الوفاق التام بين علماء اليهود والنصارى من جهة والمشركين من جهة أُخرى، إلاّ أنّهم مشتركون في مخالفتهم للإسلام، ولهذا فيمكن أن يكون علماء أهل الكتاب مصدراً جيّداً بالنسبة للمشركين في معرفة أحوال الأنبياء السابقين.

يقول الراغب في مفرداته: إنّ الذكر على معنيين، الأوّل: الحفظ. والثّاني: التذكّر واستحضار الشيء في القلب، ولذلك قيل: الذكر ذكران، ذكر بالقلب وذكر باللسان. . ولذا رأينا أنّ الذكر يطلق على القرآن لأنّه يعرض الحقائق ويكشفها.

ثمّ تقول الآية التالية: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾(١).

«البينات»: جمع بيّنة، بمعنى الدلائل الواضحة. ويمكن أن تكون هنا إشارة إلى معاجز وأدلة إثبات صدق الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم.

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

فالبيّنات تتحدث عن دلائل إثبات النّبوة، والزّبر إشارة إلى الكتب التي جمعت فيها تعليمات الأنبياء.

ومن ثمّ يتوجّه الخطاب إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ليبيّن للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربّهم الحق.

فدعوتك ورسالتك ليست بجديدة من الناحية الأساسية، وكما أنزلنا على الذين من قبلك من الرسل كتباً ليعلّموا الناس تكاليفهم الشرعية، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبيّن تعاليمه ومفاهيمه، وتوقظ به الفكر الإنساني ليسيروا في طريق الحق بعد شعورهم بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، وليتجهوا صوب الكمال (وليس بطريق الجبر والقوّة).

بحث

من هم أهل الذكر؟

ذكرت الرّوايات الكثيرة المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام، ومن هذه الرّوايات:

روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في جوابه عن معنى الآية أنّه قال: «نحن

(١) أعطى المفسّرون احتمالات متعددة في الفعل الذي تتعلق به عبارة ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ . . . فقال بعضهم: إنّها متعلقة بـ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ كما قلنا وهو ينسجم مع ظاهر الآيات، وبملاحظة أنّ الفعل (علم) يتعدى بالباء وبدونها، وقال بعض آخر: أنها متعلقة بجملة تقديرها ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وهي في الأصل «أرسلناهم بالبينات والزبر»، وقال آخرون: إنّها متعلقة بجملة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ في الآية السابقة، وقال غيرهم: إنّها متعلقة بجملة ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾»، والواضح أنّ جميع الآراء المطروحة كلّ منها يحدد مفهوماً معيّناً للآية، ولكن في المجموع العام لايوجد تفاوت كبير فيما بينها.

أهل الذكر ونحن المسؤولون»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية أنّه قال: «الذكر القرآن وآل الرّسول أهل الذكر وهم المسؤولون»(٢).

وفي روايات أُخرى: أنَّ «الذكر» هو النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، و«أهل الذكر» هم أهل البيت عليهم السلام (٣).

وثمّة روايات متعددة أُخرى تحمل نفس هذا المعنى.

وفي تفاسير وكتب أهل السنّة روايات تحمل نفس المعنى أيضاً، منها:

ما في التّفسير الاثني عشري: روي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: هو محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام هم أهل الذكر والعقل والبيان(٤).

فهذه ليست هي المرّة الأُولى في تفسير الرّوايات للآيات القرآنية ببيان أحد مصاديقها دون أن تقيّد مفهوم الآية المطلق.

وكما قلنا فـ«الذكر» يعني كلّ أنواع العلم والمعرفة والإطلاع، و﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ هم العلماء والعارفون في مختلف المجالات، وباعتبار أنّ القرآن نموذج كامل وبارز للعلم والمعرفة أطلق عليه اسم «الذكر»، وكذلك شخص النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو مصداق واضح لـ«ذكر» والأئمّة المعصومون باعتبارهم أهل بيت النّبوة ووارثو علمه صلى الله عليه وآله وسلم فهم عليهم السلام أفضل مصداق لـ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾.

وهذا لا ينافي عمومية مفهوم الآية، ولا ينافي مورد نزولها أيضاً (علماء أهل الكتاب) ولهذا اتّجه علماؤنا في الفقه والأُصول عند بحثهم موضوع الاجتهاد والتقليد إلى ضرورة ووجوب اتباع العلماء لمن ليست له القدرة على استنباط الأحكام الشرعية، ويستدلون بهذه الآية على صحة منحاهم.

وقد يُتساءل فيما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في كتاب (عيون أخبار

(١-٣) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٥٥ و ٥٦.

(٤) إحقاق الحق، ج٣، ص ٤٢٨ - والمقصود من تفسير الاثني عشر، هو تفاسير كل من: أبي يوسف، ابن حجر، مقاتل بن سليمان، وكيع بن جراح، يوسف بن موسى، قتادة، حرب الطائي، السدي، مجاهد، مقاتل بن حيان، أبي صالح ومحمد بن موسى الشيرازي.

وروي حديث آخر عن جابر الجعفي في تفسير الآية، في كتاب الثعلبي أنّه قال: لما نزلت هذه الآية قال علي عليه السلام: «نحن أهل الذكر» - راجع المصدر أعلاه -.

الرضا عليه‌السلام): أنّ علماءَ في مجلس المأمون قالوا في تفسير الآية: إنّما عُني بذلك اليهود والنصارى، فقال الرضا عليه‌السلام: «سبحان الله وهل يجوز ذلك، إذاً يدعونا إلى دينهم ويقولون: إنّه أفضل من الإسلام...» ثمّ قال: «الذكر رسول الله ونحن أهله»(١).

وتتلخص الإجابة بقولنا: إنّ الإمام قال ذلك لمن كان يعتقد أنّ تفسير الآية منحصر بمعنى الرجوع إلى علماء أهل الكتاب في كلّ عصر وزمان، وبدون شك أنّه خلاف الواقع، فليس المقصود بالرجوع إليهم على مرّ العصور والأيّام، بل لكلّ مقام مقال، ففي عصر الإمام علي بن موسى الرضا عليه‌السلام لابدّ من الرجوع إليه على أساس أنّه مرجع علماء الإسلام ورأسهم.

وبعبارة أُخرى: إذا كانت وظيفة المشركين في صدر الإسلام لدى سؤالهم عن الأنبياء السابقين وهل أنّهم من جنس البشر هي الرجوع إلى علماء أهل الكتاب لا إلى النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، فهذا لا يعني أنّ على جميع الناس في أيّ عصر ومصر أن يرجعوا إليهم، بل يجب الرجوع إلى علماء كلّ زمان.

وعلى أيّة حال... فالآية مبيّنة لأصل إسلامي يتعيّن الأخذ به في كلّ مجالات الحياة المادية والمعنوية، وتؤكّد على المسلمين ضرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، وأن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

وعلى هذا فإنّ «مسألة التخصص» لم يقررها القرآن الكريم ويحصرها في المسائل الدينية بل هي شاملة لكلّ المواضيع والعلوم المختلفة، ويجب أن يكون من بين المسلمين علماء في كافة التخصصات للرجوع إليهم.

وينبغي التنويه هنا إلى ضرورة الرجوع إلى المتخصص الثابت علمه وتمكّنه في اختصاصه، بالإضافة إلى توفر عنصر الإخلاص في عمله فهل يصح أن نراجع طبيباً متخصصاً - على سبيل المثال - غير مخلص في عمله؟!

ولهذا وضع شرط العدالة في مسائل التقليد إلى جانب الاجتهاد والأعلمية، أي لابدّ لمرجع التقليد من أن يكون تقيّاً ورعاً بالإضافة إلى علميته في المسائل الإسلامية.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٥٧.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

التّفسير

لكل ذنب عقابه

ثمّة ربط في كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلالية والمسائل الوجدانية بشكل مؤثّر في نفوس السامعين، والآيات أعلاه نموذج لهذا الأُسلوب.

فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقي مع المشركين في شأن النّبوة والمعاد، في حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة والطغاة والمذنبين.

فتبتدئ القول: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الذين حاكوا الدسائس المتعددة لإطفاء نور الحق والإيمان ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

فهل ببعيد (بعد فعلتهم النكراء) أنْ تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنشق القشرة الأرضية لتبتلعهم وما يملكون، كما حصل مراراً لأقوام سابقة؟!

﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: بمعنى وضعوا الدسائس والخطط وصولاً لأهدافهم المشؤومة السيئة، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن ومحاولة قتل النّبي ﷺ وما مارسوه من إيذاء وتعذيب للمؤمنين المخلصين.

﴿يَخْسِفَ﴾: من مادة «خسف»، بمعنى الاختفاء، ولهذا يطلق على اختفاء نور القمر في ظل الأرض اسم (الخسوف)، يقال (بئر مخسوف) للذي اختفى ماؤه، وعلى هذا يسمّى اختفاء الناس والبيوت في شق الأرض الناتج من الزلزلة خسفاً.

ثمّ يضيف: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴿٤٦﴾﴾ أيْ عند ذهابهم ومجيئهم وحركتهم في اكتساب الأموال وجمع الثروات. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى إزالة قدرة الطرف الآخر، وهي هنا بمعنى الفرار من العذاب ومقاومته.

أو أنّ العذاب الإلهي لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجي ومقروناً بالإنذار المتكرر: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾.

فاليوم مثلاً، يصاب جارهم ببلاء، وغداً يصاب أحد أقربائهم، وفي يوم آخر تتلف بعض أموالهم... والخلاصة، تأتيهم تنبيهات وتذكيرات الواحدة تلو الأخرى، فإنْ استيقظوا فما أحسن ذلك، وإلاّ فسيصيبهم العقاب الإلهي ويهلكهم.

إنّ العذاب التدريجي في هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدي هذه المجموعة، والله عزّوجلّ لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن الملفت للنظر في الآيات مورد البحث، ذكرها لأربعة أنواع من العذاب الإلهي:

الأوّل: الخسف.

الثّاني: العقاب المفاجىء الذي يأتي الإنسان على حين غرّة من أمره.

الثّالث: العذاب الذي يأتي الإنسان وهو غارق في جمع الأموال وتقلّبه في ذلك.

الرّابع: العذاب والعقاب التدريجي.

والمسلّم به أنّ نوع العذاب يتناسب ونوع الذنب المقترف، وإنْ وردت جميعها بخصوص ﴿الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لِعلْمنا أنّ أفعال الله لا تكون إلاّ بحكمة وعدل.

وهنا... لم نجد رأياً للمفسّرين - في حدود بحثنا - حول هذا الموضوع، ولكنْ يبدو أنّ النوع الأوّل من العقاب يختص بأُولئك المتآمرين الذين هم في صف الجبّارين والمستكبرين كقارون الذي خسف الله تعالى به الأرض وجعله عبرة للناس، مع ما كان يتمتع به من قدرة وثروة.

أمّا النوع الثّاني فيخص المتآمرين الغارقين بملذّات معاشهم وأهوائهم، فيأتيهم العذاب الإلهي بغتة وهم لا يشعرون.

والنوع الثّالث يخص عبدة الدنيا المشغولين في دنياهم ليل نهار ليضيفوا ثروة إلى ثروتهم مهما كانت الوسيلة، حتى وإنْ كانت بارتكاب الجرائم والجنايات وصولاً لما يطمحون له! فيعذبهم الله تعالى وهم على تلك الحالة[1].

---

(١) مع أنّ «التقلب» لغةً، بمعنى التردد والذهاب والمجيء، مطلقاً ولكنْ في هكذا موارد - كما قال أكثر المفسّرين وتأييد الرّوايات لذلك - بمعنى التردد في طريق التجارة وكسب المال، فتأمل.

وأمّا النوع الرّابع من العذاب فيخص الذين لم يصلوا في طغيانهم ومكرهم وذنوبهم إلى حيث اللارجعة، فيعذبهم الله بالتخويف، أيْ يحذرهم بإنزال العذاب الأليم في أطرافهم فإنْ استيقظوا فهو المطلوب، وإلاّ فسينزل العذاب عليهم ويهلكهم.

وعلى هذا، فإنّ ذكر الرأفة والرحمة الإلهيّة ترتبط بالنوع الرّابع من الذين مكروا السيئات، الذين لم يقطعوا كل علائقهم مع الله ولم يخربوا جميع جسور العودة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

سجود الكائنات لله عزّ وجلّ

تعود هذه الآيات مرّة أُخرى إلى التوحيد بادئةً بـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾(١).

أي: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات الله يميناً وشمالاً لتعبّر عن خضوعها وسجودها له سبحانه؟!

ويقول البعض: إنّ العرب تطلق على الظلال صباحاً اسم (الظل) وعصراً (الفيء)، وإذا ما نظرنا إلى تسمية (الفيء) لقسم من الأموال والغنائم لوجدنا إشارة لطيفة لحقيقة.. إنّ أفضل غنائم وأموال الدنيا لا تلبث أنْ تزول ولا يعدو كونها كالظل عند العصر.

ومع ملاحظة ما اقترن بذكر الظلال في هذه الآية من يمين وشمال، وإنّ كلمة الفيء استعملت للجميع... فيستفاد من ذلك: أنّ الفيء هنا ذو معنى واسع يشمل كلّ أنواع الظلال.

(١) داخر: في الأصل من مادة (دخور) أي: التواضع.

فعندما يقف الإنسان وقت طلوع الشمس متّجهاً نحو الجنوب فإنّه سيرى شروق قرص الشمس من الجهة اليسرى لأفق الشرق، فتقع ظلال جميع الأشياء المجسّمة على يمينه (جهة الغرب)، ويستمر هذا الأمر حتى تقترب الظلال نحو الجهة اليمنى لحين وقت الظهر، وعندها ستتحول الظلال إلى الجهة المعاكسة (اليسرى) وتستمر في ذلك حتى وقت الغروب فتصبح طويلة وممتدة نحو الشرق، ثمّ تغيب وتنعدم عند غروب الشمس.

وهنا... يعرض الباري سبحانه حركة ظلال الأجسام يميناً وشمالاً بعنوانها مظهراً لعظمته جلّ وعلا واصفاً حركتها بالسجود والخضوع.

أثر الظِلال في حياتنا

ممّا لا شك فيه أنّ لظلال الأجسام دور مؤثّر في حياتنا، ولعلّ الكثير منّا غير ملتفت إلى هذه الحقيقة، فوضع القرآن الكريم إصبعه على هذه المسألة ليسترعي الانتباه لها.

للظلال (التي هي ليست سوى عدم النّور) فوائد جمّة:

١ - كما أنّ لأشعة الشمس دور أساسي في حياتنا، فكذلك الظلال، لأنّها تقوم بعملية تعديل شدّة الحرارة لأشعة الشمس.

إنّ الحركة المتناوبة للظلال تحفظ حرارة الشمس لحدٍّ متعادل ومؤثّر، وبدون الظلال فسيحترق كلّ شيء أمام حرارة الشمس الثابتة وبدرجة واحدة ولمدّة طويلة.

٢ - وثمّة موضوع مهم آخر وربّما على خلاف تصور معظم الناس، ألاَ وهو: إنّ النّور ليس هو السبب الوحيد في رؤية الأشياء، بل لابدّ من اقتران الظل بالنّور لتحقيق الرؤية بشكل طبيعي.

وبعبارة أُخرى: إنّ النّور لو كان يحيط بجسم ما ويشع عليه باستمرار بما لا يكون هناك مجال للظل أو نصف الظل، فإنّه والحال هذه لا يمكن رؤية ذلك الجسم وهو غارق بالنّور.

أي: كما أنّه لا يمكن رؤية الأشياء في الظلمة القاتمة، فكذا الحال بالنسبة للنور التام، ويمكن رؤية الأشياء بوجود النّور والظلمة (النّور والظلال).

وعلى هذا يكون للظلال دور مؤثّر جدّاً في مشاهدة وتشخيص ومعرفة الأشياء وتمييزها، فتأمل.

وثمّة ملاحظة أُخرى في الآية: وهي: ورود «اليمين» بصيغة المفرد في حين جاءت الشمال بصيغة الجمع «شمائل».

فالاختلاف في التعبير يمكن أن يكون لوقوع الظل في الصباح على يمين الذي يقف مواجهاً للجنوب ثمّ يتحرك باستمرار نحو الشمال حتى وقت الغروب حين يختفي في أفق الشرق[١].

واحتمل المفسّرون أيضاً: أنّه رغم أنّ كلمة (اليمين) مفردة إلاّ أنّه يمكن أن يراد بها الجمع في بعض الحالات، وهي في هذه الآية تدل على الجمع[٢].

وجاء في الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أمّا في الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عامّاً شاملاً لكلّ الموجودات المادية وغير المادية، وفي أيّ مكان، فتقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، مسلّمين لله ولأوامره تسليماً كاملاً.

وحقيقة السجود نهاية الخضوع والتواضع والعبادة، وما نؤدّيه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلاّ مصداق لهذا المفهوم العام ولا ينحصر به.

وبما أنّ جميع مخلوقات الله في عالم التكوين والخلق مسلّمة للقوانين العامّة لعالم الوجود، التي أفاضتها الإرادة الإلهيّة فإنّ جميع المخلوقات في حالة سجود له جلّ وعلا، ولا ينبغي لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، وكلّها مظهرة لعظمة وعلم وقدرة الباري عزّ وجلّ، ولتدلل على أنها آية على غناه وجلاله... والخلاصة: كلّها دليل على ذاته المقدسة.

«الدابة»: بمعنى الموجودات الحيّة، ويستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحيّة في السماوات والأرض على وجود كائنات حيّة في الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما هو موجود على الأرض.

وقد احتمل البعض: عبارة ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قيد لـ ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقط، أيْ: إنّ الحديث يختص بالكائنات الحيّة الموجودة على الأرض.

ويبدو ذلك بعيداً بناءً على ما جاء في الآية ٢٩ من سورة الشورى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

صحيح أنّ السجود والخضوع التكويني لا ينحصر بالكائنات الحيّة، ولكن تخصيص الإشارة بها لما تحمله من أسرار وعظمة الخلق أكثر من غيرها.

---

(١) تفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث. (٢) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج٧، ص١١٠.

وبما أنّ مفهوم الآية يشمل كلاً من: الإنسان العاقل المؤمن، والملائكة، والحيوانات الأُخرى، فقد استعمل لفظ السجود بمعناه العام الذي يشمل السجود الاختياري والتشريعي وكذا التكويني الاضطراري.

أمّا الإشارة إلى الملائكة بشكل منفصل في الآية فلأنّ الدابة تطلق على الكائنات الحيّة ذات الجسم المادي فقط، بينما للملائكة حركة وحضور وغياب، ولكنْ ليس بالمعنى المادي الجسماني كي تدخل ضمن مفهوم «الدابة».

وروي في حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّ لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجوداً منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ترعد فرائصهم من مخافة الله تعالى، لا تقطر من دموعهم قطرة إلاّ صارت ملكاً، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم وقالوا: ما عبدناك حق عبادتك»[1].

أمّا جملة ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فإشارة لحال وشأن الملائكة التي لا يداخلها أيُّ استكبار عند سجودها وخضوعها لله عزّوجلّ.

ولهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرةً وتأكيداً لنفي حالة الاستكبار عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾.

كما جاء في الآية ٦ من سورة التحريم في وصف جمع من الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ويستفاد من هذه الآية بوضوح.. أنّ علامة نفي الاستكبار شيئان:

أ - الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهيّة من دون أي اعتراض، وهو وصف للحالة النفسية لغير المستكبرين.

ب - ممارسة الأوامر الإلهيّة بما ينبغي والعمل وفق القوانين المعدّة لذلك... وهذا انعكاس للأول، وهو التحقيق العيني له.

وممّا لا ريب فيه أنّ عبارة: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ليست إشارة إلى العلو الحسي والمكاني، بل المراد منها العلو المقامي، لأنّ الله عزّوجلّ فوق كل شي مقاماً.

كما نقرأ في الآية ٦١ من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، وكذلك في الآية ١٢٧ من سورة الأعراف: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ حينما أراد فرعون أن يظهر قدرته وقوّته!

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾
وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم
مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ
ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ
فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

دين حق ومعبود واحد

تتناول هذه الآيات موضوع نفي الشرك تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفة الله عن طريق نظام الخلق الذي ورد في الآيات السابقة، لتتّضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، وتبتدئ بـ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

وتقديم كلمة «إيّاي» يراد بها الحصر كما في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أيْ: يجب الخوف من عقابي لا غير.

ومن الملفت للنظر أنّ الآية أشارت إلى نفي وجود معبودين في حين أنّ المشركين كانوا يعبدون أصناماً متعددة.

ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى إحدى النقاط التالية أو إلى جميعها:

١ - إنّ الآية نفت عبادة اثنين، فكيف بالأكثر؟!

وبعبارة أُخرى: إنّها بيّنت الحدّ الأدنى للمسألة ليتأكّد نفي الأكثر، وأيُّ عدد ننتخبه (أكثر من واحد) لابدّ له أن يمرّ بالاثنين.

٢ - كل ما يعبد من دون الله جمع في واحد، فتقول الآية: أن لا تعبدوها مع الله، ولا تعبدوا إلهين (الحق والباطل).

٣ - كان العرب في الجاهلية قد انتخبوا معبودين:

الأوّل: خالق العالم، أيْ الله عَزَّوَجَلَّ وكانوا يؤمنون به.

والثّاني: الأصنام، واعتبروها واسطة بينهم وبين الله، واعتبروها كذلك منبعاً للخير والبركة والنعمة.

٤ - يمكن أن تكون الآية ناظرة إلى نفي عقيدة (الثنويين) القائلين بوجود إله للخير وآخر للشر، ومع انتخابهم لأنفسهم هذا المنطق الضعيف الخاطيء، إلاّ أنّ عبدة الأصنام قد غالوا حتى في هذا المنطق وتجاوزوه لمجموعة من الآلهة!

وينقل المفسّر الكبير العلاّمة الطبرسي في تفسير هذه الآية عبارة لطيفة نقلها عن بعض الحكماء: (نهاك ربك أن تتخذ إلهين فاتخذت آلهة عبدتَ نفسك وهواك وطبعك ومرادك وعبدتَ الخلق فأنّى تكون موحداً).

ثمّ يوضّح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات... فيقول أوّلاً ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهل ينبغي السجود للأصنام التي لا تملك شيئاً، أم لمن له ما في السماوات والأرض؟

ثمّ يضيف: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾.

فعندما يثبّت أن عالم الوجود منه، وهو الذي أوجد جميع قوانينه التكوينية فينبغي أن تكون القوانين التشريعية من وضعه أيضاً، ولا تكون طاعة إلاّ له سبحانه.

«واصب»: من «الوصوب»، بمعنى الدوام، وفسّرها البعض بمعنى (الخالص) (ومن الطبيعي أنّ ما لم يكن خالصاً لم يكن له الدوام. أمّا الذين اعتبروا «الدين» هنا بمعنى الطاعة، فقد فسّروا «واصباً» بمعنى الواجب، أيْ: يجب إطاعة الله فقط.

ونقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ شخصاً سأله عن قول الله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ قال: «واجباً»(١).

ومن الواضح أنّ هذه المعاني متلازمة فيما بينها.

ثمّ يقول في نهاية الآية: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

فهل يمكن للأصنام أن تصدَّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟!

هذا... ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

فهذه الآية تحمل البيان الثّالث بخصوص لزوم عبادة الله الواحد جلّ وعلا، وأنّ عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمة فهي ليست بمنعمة، بل الكل بلا استثناء منعّمون في نعم الله تعالى، وهو الأحق بالعبادة لا غيره.

---

(١) تفسير البرهان، ج٢، ص٣٧٣.

وعلاوة على ذلك. . . ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾.

فإنْ كانت عبادتكم للأصنام دفعاً للضر وحلاً للمعضلات، فهذا من الله وليس من غيره، وهو ما تظهره ممارساتكم عملياً حين إصابتكم بالضر، فَلِمَن تلتجئون؟ إنّكم تتركون كلّ شيء وتتجهون إلى الله.

وهذا البيان الرّابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

﴿تَجْـَٔرُونَ﴾: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات والوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثمّ استعملت كنايةً في كلّ الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

إنّ اختيار هذه العبارة هنا إشارة إلى أنّه عندما تتراكم عليكم الويلات ويحلّ بكم البلاء الشديد تطلقون حينها صرخات الاستغاثة اللااختيارية. . وأنتم بهذه الحال، أتوجّهون النداء لغيره سبحانه وتعالى؟! فلماذا إذَنْ في حياتكم الاعتيادية وعندما تواجهون المشاكل اليسيرة تلتجئون إلى الأصنام؟!

نعم. فالله سبحانه يسمع نداءكم في كلّ الحالات ويغيثكم ويرفع عنكم البلاء ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بالعود إلى الأصنام!

وفي الحقيقة. . . فالقرآن في الآية يشير إلى فطرة التوحيد في جميع الناس، إلاّ أنّ حجب الغفلة والغرور والجهل والتعصب والخرافات تغطّيها في الأحوال الاعتيادية.

ولكنْ، عندما تهب عواصف البلاء تنقلع تلك الحجب فيظهر نور الفطرة برّاقاً من جديد ليرى الناس لمن يتوجهون، فيدعون الله مخلصين بكامل وجودهم، فيرفع عنهم أغطية البلاء المتأتية من تلك الحجب، (لاحظوا أنّ الآية قالت: ﴿كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾ أيْ: رفع أغطية البلاء).

ولكنْ. . . عندما تهدأ العاصفة ويرتفع البلاء وتعودون إلى شاطىء الأمان، تُعاودون من جديد على الغفلة والغرور، وتُظهرون الشرك بعبادتكم للأصنام مجدداً!

وفي آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتي التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا الأُسلوب التربوي يشبه ما لو تحرك الإنسان من موقع توجيه النصائح والإرشادات لمنحرف متخلّف لا يفيد معه هذا الأُسلوب المنطقي، فيقطع معه الحديث

باللين ليواجهه بالتهديد عسى أن يرعوي فيقال له: مع كل ما قلنا لك... افعل ما شئت ولكن سترى نتيجة عملك عاجلاً أم آجلاً.

وعلى هذا فتكون اللام في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ يراد بها التهديد، وكذا «تمتعوا» أمر يراد به التهديد أيضاً، أمّا مجيء الفعل الأوّل بصيغة الغائب ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ والثّاني بصيغة المخاطب «تمتعوا»، فكأنّه افترض غيابهم أوّلاً فقال: ليذهبوا ويكفروا بهذه النعم، وعند تهديدهم يلتفت إليهم ويقول: تمتعوا بهذه النعم الدنيوية قليلاً فسيأتي اليوم الذي تدركون فيه عظم خطئكم وسترون عاقبة أعمالكم.

والآية ٣٠ من سورة إبراهيم تشابه الآية المذكورة من حيث الغرض: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾(١)

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

التّفسير

عندما كانت ولادة البنت عاراً!

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثاً استدلالية في نفي الشرك وعبادة الأصنام، تأتي هذه الآيات لتتناول قسماً من بدع المشركين وصوراً من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلاً آخر على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع وعادات المشركين:

وتقول أوّلاً: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ﴾(٢).

---

(١) احتمل جمع من المفسّرين: أنّ ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ غاية ونتيجة للشرك والكفر الذي نسب إليهم في الآية التي قبلها، فيكون المعنى أنّهم بعد إنجائهم من الضرّ تركوا طريق التوحيد وساروا في طريق الشرك ليكفروا بنعم الله وينكرونها.

(٢) ذكر المفسّرون رأيين في تفسير «ما لا يعلمون» وضميرها: =

وكان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشي بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، وهو ما تشير إليه الآية ١٣٦ من سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

وسيكون بعد السؤال اعتراف لا مفرّ منه ثمّ الجزاء والعقاب، وعليه فما تقومون به له ضرر مادي من خلال ما تعملونه بلا فائدة، وله عقاب أخروي لأنّكم أسأتم الظن بالله واتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعة الثّانية فكانت: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ﴾ من التجسّم ومن هذه النسبة. ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أيْ: إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوه إلى الله، ويعتبرون البنات عاراً وسبباً للشقاء!

وإكمالاً للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثّالثة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1].

ولا ينتهي الأمر إلى هذا الحد بل ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ﴾.

ولم ينته المطاف بعد، ويغوص في فكر عميق: (أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب).

وفي ذيل الآية، يستنكر الباري حكمهم الظالم الشقي بقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

وأخيراً يشير تعالى إلى السبب الحقيقي وراء تلك التلوّثات، ألا هو عدم الإيمان بالآخرة: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

= الأوّل: أن ضمير ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعود إلى المشركين أيْ أنّ المشركين يجعلون للأصنام نصيباً وهم لا يعلمون لها خيراً وشراً (وهذا ما انتخبناه من التفسير).

والثّاني: أنّ الضمير يعود إلى نفس الأصنام، أيْ يجعلون للأصنام نصيباً في حين أنّها لا تدرك، لا تعقل، لا تعلم!

والتّفسير الثّاني يظهر نوعاً من التضاد بين عبارات الآية، لأنّ ﴿مَا﴾ تستعمل عادة لغير العاقل و﴿يَعْلَمُونَ﴾ تستعمل للعاقل عادةً.

أمّا في التّفسير الأوّل فـ ﴿مَا﴾ تعود على الأصنام و﴿يَعْلَمُونَ﴾ على عبدتها.

(١) «الكظيم» تطلق على الإنسان الممتلىء غضباً.

فكلّما اقترب الإنسان من العزيز الحكيم انعكس في روحه نور صفاته العليا من العلم والقدرة والحكمة وابتعد عن الخرافات والبدع والأفعال القبيحة.

وكلّما ابتعد عنه تعالى غرق بقدر ذلك البعد في ظلمات الجهل والضعف والذلّة والقبائح.

فالسبب الرئيسي لكلّ انحراف وقبح وخرافة هو الغفلة عن ذكر الله وعن محكمته العادلة في الآخرة، أمّا ذكر الله والآخرة فدافع أصيل للإحساس بالمسؤولية ومحاربة الجهل والخرافة، وعامل قدرة وقوّة وعلم للإنسان.

بحوث

١ - لماذا اعتبروا الملائكة بناتاً لله؟

تطالعنا الكثير من آيات القرآن الكريم بأنّ المشركين كانوا يقولون بأنّ الملائكة بنات الله جلّ وعلا، أو أنّهم كانوا يعتبرون الملائكة إناثاً دون نسبتها إلى الله..

كما في الآية ١٩ من سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾، وفي الآية ٤٠ من سورة الإسراء: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾.

يمكن أن تكون هذه الاعتقادات بقايا خرافات الأقوام السابقة التي وصلت عرب الجاهلية، أو ربّما يحصل هذا الوهم بسبب ستر الملائكة عنهم وحال الاستتار أكثر ما يختص بحال النساء، ولهذا تعتبر العرب الشمس مؤنّثاً مجازياً والقمر مذكّراً مجازياً أيضاً، على اعتبار أنّ قرص الشمس لا يمكن للناظر إليه أن يديم النظر لأنّه يستر نفسه بقوّة نوره، أمّا قرص القمر فظاهر للعين ويسمح للنظر إليه مهما طالت المدّة.

وثمّة احتمال آخر يذهب إلى الكناية عن لطافة الملائكة، والإناث أكثر من الذكور لطافة.

وعلى أيّة حال.. فهذه إحدى ترسّبات الخرافات القديمة التي تكلّست في مخيّلة البشرية حتى وصلت للبعض ممن يعيش في يومنا هذا، ولا تختص هذه الخرافة بقوم دون آخر لأنّنا نلاحظ وجودها في أدبيات عدد من لغات العالم! فنرى الأديب مثلاً حينما يريد وصف جمال امرأة ينعتها بالملائكة، وذاك الفنان الذي يريد أن يعبّر عن الملائكة فيجعلها بهيئة النساء، في حين أنّ الملائكة لا تملك جسماً مادياً حتى يمكننا أن نصفه بالمذكر أو المؤنث.

٢ - لماذا شاع وأد البنات في الجاهلية؟

الوأد في واقعه أمرٌ رهيب، لأنّ الفاعل يقوم بسحق كلّ ما بين جوانحه من عطف ورحمة، ليتمكن من قتل إنسان بريء قد يكون من أقرب الأشياء إليه من نفسه!

والأقبح من ذلك افتخاره بعمله الشنيع هذا!

فأين الفخر من قتل إنسان ضعيف لا يقوى حتى للدفاع عن نفسه؟ بل كيف يدفن الإنسان فلذة كبده وهي حيّة؟!

وهذا ليس بالأمر الهيّن، فأيُّ إنسان ومهما بلغت به الوحشية لا يقدم على هكذا جريمة بشعة من غير أن تكون لها مقدمات اجتماعية ونفسيّة واقتصادية عميقة الأثر والتأثير تدعوه لذلك. . .

يقول المؤرخون: إنّ بداية وقوع هذا العمل القبيح كانت على أثر حرب جرت بين فريقين منهم في ذلك الوقت، فأسّر الغالب منهم نساء وبنات المغلوب، وبعد مضي فترة من الزمن تمّ الصلح بينهم فأراد المغلوبون استرجاع أسراهم إلاّ أنّ بعضاً من الأسيرات ممن تزوجن من رجال القبيلة الغالبة اخترن البقاء مع الأعداء ورفضن الرجوع إلى قبيلتهن، فصعب الأمر على آبائهنّ بعد أن أصبحوا محلاً للوم والشماتة، حتى أقسم بعضهم أنْ يقتل كلّ بنت تولد له كي لا تقع مستقبلاً أسيرة بيد الأعداء!

ويلاحظ بوضوح ارتكاب أفظع جناية ترتكب تحت ذريعة الدفاع عن الشرف والناموس وحيثية العائلة الكاذبة. . فكانت النتيجة: ظهور بدعة وأد البنات القبيحة وانتشارها بين جمع منهم حتى أصبحت سنّة جاهلية، ولفظاعتها فقد أنكرها القرآن الكريم بشدّة بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[1].

وثمّة احتمال آخر يذهب إلى دور الطبيعة الإنتاجية للأولاد الذكور، والنزوع إلى الطبيعة الاستهلاكية عند الإناث، وما له من أثر على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فالولد الذكر بالنسبة لهم ذخر مهم ينفعهم في القتال والغارات وفي حفظ الماشية وما شابه ذلك من الفوائد، في حين أنّ البنات لسن كذلك.

ومن جانب آخر. . . فقد سببت الحروب والنزاعات القبلية قتل الكثير من الرجال والأولاد ممّا أدّى لاختلال التوازن في نسبة الإناث إلى الذكور، حتى وصل وجود الولد

---

(١) سورة التكوير، الآيتان: ٨ - ٩.

الذكر عزيزاً ودفع الرجل لأن يتباهى بين قومه حين يولد له مولود ذكر، وينزعج ويتألم عند ولادة البنت.. ووصل حالهم لحدّ (كما يقول عنه بعض المفسّرين) أنّ الرجل في الجاهلية يغيّب نفسه عن داره عند قرب وضع زوجته لئلا تأتيه بنت وهو في الدار!

وإذا ما أخبروه بأنّ المولود ذكر فيرجع إلى بيته وبشائر الفرح تتعالى وجنتيه، ولكنّ الويل كلّ الويل والثبور فيما لو أخبروه بأنّ المولود بنت فيمتلىء غيظاً وغضباً[1].

وقصّة «الوأد» ملأى بالحوادث المؤلمة...

منها: ما روي أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فأعلن إسلامه، وجاءه يوماً فسأله: إنّي أذنبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تواب رحيم»، قال: يا رسول الله إنّ ذنبي عظيم قال: «ويلك مهما كان ذنبك عظيماً فعفو الله أعظم منه»، قال: لقد سافرت في الجاهلية سفراً بعيداً وكانت زوجتي حبلى وعندما عدّت بعد أربع سنوات استقبلتني زوجتي فرأيت بنتاً في الدار، فقلت لها: ابنة مَنْ هذه؟ قالت: ابنة جارنا. فظننت أنّها سترحل عن دارنا بعد ساعة، فلم تفعل، ثمّ قلت لزوجتي: أصدقيني مَنْ هذه البنت؟ قالت: ألا تذكر أنّي كنت حاملاً عندما سافرت، إنّها ابنتك. فنمت تلك الليلة مغتمّاً، أنام وأستيقظ، حتى اقترب وقت الصباح نهضت من فراشي وذهبت إلى فراش ابنتي فأخرجتها وأيقظتها وطلبت منها أن تصحبني إلى حائط النخل، فتبعتني حتى اقتربنا من الحائط فأخذت بحفر حفيرة وهي تعينني على ذلك، وعندما انتهيت من ذلك وضعتها في وسط الحفرة - وهنا فاضت عينا رسول الله بالدمع - ثمّ وضعت يدي اليسرى على كتفها وأخذت أهيل التراب عليها بيدي اليمنى، فأخذت تصرخ وتدافع بيديها ورجليها وتقول: أبي ما تصنع بي!؟ ثمّ أصاب لحيتي بعض التراب فرفعت يدها تمسحه عنها، وأدمت ذلك حتى دفنتها.

فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح دموعه: «لولا أنْ سبقت رحمة الله غضبه لعجل الله لك العذاب»[2].

وكذلك ما روي في (قيس بن عاصم) أحد أشرف رؤساء قبيلة بني تميم في الجاهلية، وقد أسلم عند ظهور النّبي ﷺ، جاء يوماً إلى النّبي وقال له: إنّ آباءنا كانوا يدفنون بناتهم أحياءً، وقد دفنت أنا ١٢ بنتاً، وعندما ولدت لي زوجتي البنت الثّالثة عشرة

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢٠، ص ٥٥.
(٢) القرآن يواكب الدهر، ج٢، ص٣١٤ (مضموناً).

أخفت أمرها وادّعت أنّها ماتت عند الولادة، ثمّ أودعتها آخرين، وعندما علمت بذلك بعد مدّة، أخذتها إلى مكان بعيد ودفنتها حيّة دون أن أعتني ببكائها وتضرّعها.

فتأذّى النّبي ﷺ من ذلك فقال ودموعه جارية: «من لا يرحم لا يُرحم» ثمّ التفت إلى قيس وقال: «إنّ لك يوماً سيئاً»، فقال قيس: ما أفعل لتكفير ذنبي؟ فقال النّبي ﷺ: «حرّر من العبيد بعدد ما وأدت»(١).

وروي أيضاً أن (صعصعة بن ناجية) جدّ الفرزدق الشاعر المعروف، وكان رجلاً شريفاً فقيل: إنّه كان في الجاهلية يحارب الكثير من العادات القبيحة حتى أنّه اشترى ٣٦٠ بنتاً من آبائهن كي ينقذهنّ من القتل، وقد أعطى يوماً دابته مع بعيرين لأب كان يريد قتل ابنته.

وقال له الرّسول ﷺ ذات مرّة (ما معناه): ما أحسن ما صنعت وأجرك عند الله.

وقال الفرزدق فخراً بعمل جدّه:

ومنّا الذي منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم توئد(٢)

وسنرى كيف أنّ الإسلام قد قضى على تلك الفواجع العظام، واعتبر للمرأة مكانة جليلة ما كانت تحظى بها من قبل على مرّ العصور.

٣ - دور الإسلام في إعادة اعتبار المرأة

لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الاحترام والتقدير حتى في أكثر الأُمم تمدّناً في ذلك الزمان، وكانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة وليست إنساناً محترماً، ولكنّ عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة ووحشية من غيرهم، حتى أنّهم ما كانوا يدخلونهن في الأنساب كما نقرأ ذلك في الشعر الجاهلي المعروف:

بنونا بنو آبائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وكانوا أيضاً لا يورّثون النساء، ولم يجعلوا لتعدد الزوجات حدّاً، وعملية الزواج أو الطلاق أسهل من شربة الماء عندهم.

وعندما ظهر الإسلام حارب بشدّة هذه المهانة من كافة أبعادها، وبالخصوص مسألة

---

(١) الجاهلية والإسلام، ص ٦٣٢. (٢) قاموس الرجال، ج٥، ص ١٢٥ (مضموناً).

اعتبار ولادة البنت عاراً، حتى وردت الرّوايات الكثيرة التي تؤكّد على أنّ البنت باب من أبواب رحمة الله للعائلة.

وأولى النّبي صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام من الاحترام ما جعل الناس في عجب من أمره، حيث كان صلى الله عليه وآله مع ما يحظى به من شرف ومقام، كان يقبّل يد الزهراء عليها السلام، وعندما يعود من السفر يذهب إليها قبل أيّ أحد. وعندما يريد السفر كان بيت فاطمة الزهراء عليها السلام آخر بيت يودّعه.

وحينما أُخبر بولادة الزهراء عليها السلام، رأى الانقباض في وجوه أصحابه فقال على الفور: «ما لكم! ريحانة أشمها، ورزقها على الله عزّوجلّ [1]».

وفي حديث أنّه صلى الله عليه وآله قال: «نعم الولد البنات، ملطفات، مجهزات، مؤنسات، مفليات»[2].

وفي حديث آخر: «مَنْ دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل الصدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنّه مَنْ فرّح ابنته فكأنّما أعتق رقبة من ولد إسماعيل»[3].

فالاحترام الذي أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حوالك الجاهلية، وحررها من العادات البالية، وأنهى عصر تحقيرها.

وإن كان غور هذا الموضوع يستلزم التفصيل فسنتطرق إلى ذلك في تفسيرنا للآيات المناسبة له، ولكن ما يحزّ في النفوس ولا يمكن السكوت عنه ما يشاهد في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية من آثار لنفس ذلك التوجّه الجاهلي الموبوء، فإلى الآن نرى الكثير من العوائل تفرح وتسر عندما يأتيها مولود ذكر، وتتأسف وتتأفف عندما تكون المولودة بنتاً! وعلى أقل التقادير ترجّح ولادة الولد على البنت!.

من الممكن أن تكون الظروف الخاصة اقتصادياً واجتماعياً، المرتبطة بوضع المرأة في مجتمعاتنا، عاملاً على وجود عادات وحالات خاطئة، إلاّ أنّه ينبغي على المؤمنين المخلصين مكافحة هذا النمط من التفكير واقتلاع جذوره الاجتماعية والاقتصادية، فالإسلام لا يقبل من أتباعه بعد ١٤ قرن العود إلى أفكار الجاهلية المقيتة.. فهذا السلوك في واقعه نوع من الجاهلية الثّانية.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٥ ص١٠٢.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٠.
(٣) مكارم الأخلاق، ص ٥٤.

ولا ينبغي أن تأخذنا التصورات السارحة فنرى عن بعد أنّ المرأة قد نالت مناها في عالم الغرب وأنّها تحظى من الاحترام والتحرر ما تحسد عليه! فالحياة العملية في الغرب تؤكّد بما لا يقبل الشك أنّ المرأة هناك محتقرة، وقد جعلت لعبة مبتذلة ووسيلة رخيصة لإشباع الشهوات أو وسيلة إعلان للبضائع والمنتوجات[1].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

وسعت رحمته غضبه

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة في وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالي: لماذا لم يعذّب الله المذنبين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح وظلم فجيع؟!

والآية الأُولى ٦١ تجيب بالقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[2].

«الدابة»: يراد بها كلّ كائن حي، ويمكن أن يراد بها هنا (الإنسان) خاصّة بقرينة (بظلمهم).

---

(١) ومن جميل الصدف أن كتب هذا البحث في اليوم العشرين من جمادى الثّانية سنة ١٤٠١، وهو يوم ولادة فاطمة الزّهراء عليها السلام.

(٢) إنّ ضمير ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى «الأرض» وإنْ لم يرد لها ذكر في الآيات المتقدمة لوضوح الأمر، ونظائر ذلك كثيرة في لغة العرب.

أي: إنّ الله لو يؤاخذ الناس على ما ارتكبوه من ظلم لما بقي إنسان على سطح البسيطة.

ويحتمل أيضاً إرادة جميع الكائنات الحيّة، لعلمنا بأنّ هذه الكائنات إنّما خلقت وسخّرت للإنسان كما يقول القرآن في الآية ٢٩ من سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فعندما يذهب الإنسان فسينتفي سبب وجود الكائنات الأُخرى وينقطع نسلها.

وهنا يواجهنا السؤال التالي: لو نظرنا إلى سعة مفهوم الآية وعموميتها فإنّها تدل في النتيجة على أنّه لا يوجد على الأرض إنسان غير ظالم، فالكلُّ ظالم كلٌّ حسب قدره وشأنه، ولو نزل العذاب الفوري السريع والحال هذه لما بقي إنسان على سطح الأرض... مع أنّنا نعلم أنّ هناك من لا يصدق عليه هذا المعنى، فالأنبياء والأئمّة المعصومون عليهم السلام خارجون عن شمولية هذا المعنى، بل في كلّ زمان ومكان ثمة مَنْ تزيد حسناته على سيئاته من الصالحين المخلصين والمجاهدين ممن لا يستحقون العذاب المهلك أبداً...

والجواب على ذلك أنّ الآية تبيّن حكماً نوعيّاً وليس حكماً عاماً شاملاً للجميع ونظير ذلك كثير في الأدب العربي.

ومن الشواهد على ذلك: الآية ٣٢ من سورة فاطر حيث تقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

فنرى الآية تتطرق إلى ثلاثة أقسام: ظالم، صاحب ذنوب خفيفة، وسابق بالخيرات... ومن المسلّم به أنَّ القسم الأوّل هو المقصود في الآية مورد البحث دون القسمين الآخرين، ولا عجب من تعميم الآية، لأنّ هذا القسم يشكّل القسم الأكبر من المجتمعات البشرية.

ويتّضح من خلال ما ذكر أنّ الآية لا تنفي عصمة الأنبياء، أمّا مَنْ يعتقد بخلاف ذلك فقد غفل عن القرائن الموجودة في العبارة من جهة، ولم يلتفت إلى ما توحي إليه بقية الآيات القرآنية بهذا الخصوص.

ويضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

بل يدركهم الموت في نفس اللحظة المقررة.

بحث

ما هو الأجل المسمى؟

للمفسّرين بيانات كثيرة بشأن المراد من «الأجل المسمى» ولكن بملاحظة سائر الآيات القرآنية، ومن جملتها الآية ٢ من سورة الأنعام، والآية ٣٤ من سورة الأعراف، يبدو أنّ المراد منه وقت حلول الموت، أيْ: إنَّ الله عزّوجلّ يمهل الناس إلى آخر عمرهم المقرر لهم إتماماً للحجة عليهم، ولعلّ مَنْ ظلم يعود إلى رشده ويصلح شأنه فيكون ذلك العود سبباً لرجوعه إلى بارئه الحق وإلى العدالة.

ويصدر أمر الموت بمجرّد انتهاء المهلة المقررة، فيبدأ بعقابهم من بداية اللحظات الأُولى لما بعد الموت.

ولأجل المزيد من الإيضاح حول مسألة (الأجل المسمى) راجع ذيل الآية رقم ٢ من سورة الأنعام وكذا ذيل الآية ٣٤ من سورة الأعراف.

ويعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين وخرافاتهم في الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى والاعتقاد بأنّ الملائكة إناثاً) فيقول: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

فهذا تناقض عجيب، وكما جاء في الآية ٢٢ من سورة النجم ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ فإنْ كانت الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى فينبغي أن تكون البنت أمراً حسناً، فلماذا تكرهون ولادتها؟! وإنْ كانت شيئاً سيّئاً فلماذا تنسبونها إلى الله؟!

ومع كلّ ذلك... ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾.

فبأي عمل تنتظرون حسنى الثواب؟! أبوأدكم بناتكم؟! أم بافترائكم على الله؟!...

وجاءت ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ (وهي مؤنث أحسن) هنا بمعنى أفضل الثواب أو أفضل العواقب، وذلك ما يدّعيه أُولئك المغرورون الضالون لأنفسهم مع كلّ ما جاؤوا به من جرائم!

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: كيف يقول عرب الجاهلية بذلك وهم لا يؤمنون بالمعاد؟

والجواب: أنّهم لم ينكروا المعاد مطلقاً، وإنّما كانوا ينكرون المعاد الجسماني، ويستوعبون مسألة عودة الإنسان إلى حياته المادية مرّة أُخرى.

إضافة إلى إمكان اعتبار قولهم قضية شرطية، أي: إنْ كان هناك معاد حقّاً فسيكون لنا

في عالمه أفضل الجزاء! وهكذا هو تصور كثير من الجبابرة والمنحرفين فبالرغم من بُعدهم عن الله تعالى يعتبرون أنفسهم أقرب الناس اليه، ويتشدّقون بادّعاءات هزيلة مدعاة للسخرية!

واحتمل بعض المفسّرين أيضاً أنّ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ تعني نعمة الأولاد الذكور، لأنّهم يعتبرون البنات سوءاً وشرّاً، والبنين نعمةً وحسنى.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صواباً، ولهذا يقول القرآن، وبلا فاصلة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾، أيْ: أنّهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و﴿لَهُمُ النَّارَ﴾ ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: من المتقدمين في دخول النّار.

والمفرط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

وربّما يراود البعض منّا الاستغراب عند سماعه لقصة عرب الجاهلية في وأدهم للبنات، ويسأل: كيف يصدَّق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده وهي على قيد الحياة؟!..

وكأنّ الآية التالية تجيب على ذلك: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

نعم، فللشيطان وساوس يتمكن من خلالها أن يصوّر أقبح الأعمال وأشنعها جميلة في نظر البعض بحيث يعتبرها مجالاً للتفاخر! كما كانوا يعتبرون وأد البنات شرفاً وفخراً وحفظاً لناموس وكرامة القبيلة! ممّا يحدو ببعض المغفّلين لأن يتفاخر بالقول: لقد دفنتُ ابنتي اليوم بيدي كي لا تقع غداً أسيرة في يد الأعداء!

فإن كان الشيطان يزيّن أقبح الأعمال مثل وأد البنات بنظر بعض الناس بهذه الحال، فحال بقية الأعمال معلوم.

ونرى في يومنا الكثير من أعمال الناس التي سيطر عليها زخرف الشيطان، فراحوا ينعتون سرقاتهم وجرائمهم بعبارات تبدو مقبولة فيخفون حقيقتها في طي زخرف القول.

ثمّ يضيف القرآن: إنّ مشركي اليوم على سنّة من سبقهم من الماضين من الذين زيّنوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، يستفيدون ممّا يعطيهم إيّاه.

ولهذا... ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وللمفسّرين بيانات كثيرة في تفسير ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ ولعلّ أوضحها ما قلناه أعلاه، أي: إنّها إشارة إلى أنّ المشركين في عصر الجاهلية إنّما هم على خطى الأُمم المنحرفة

السابقة، والشيطان رائد مسيرتهم والموجّه لهم كما كان للماضين(١).

ويحتمل تفسيرها أيضاً بأنّ المقصود من ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أنّه لا تزال بقايا الأمم المنحرفة السابقة موجودة إلى اليوم، ولا زالوا يعملون بطريقتهم المنحرفة، والشيطان وليهم كما كان سابقاً.

وتبيّن آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، ولتؤكّد حقيقة أنّ الأقوام والأُمم لو اتبعت الأنبياء وتخلّت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقي أثر لأيّ خرافة وانحراف، ولزالت تناقضات الأعمال، فتقول: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ليخرج وساوس الشيطان من قلوبهم، ويزيل حجاب النفس الأمارة بالسوء عن الحقائق لتظهر ناصعة برّاقة، ويفضح الجنايات والجرائم المختفية تحت زخرف القول، ويمحو أيَّ أثر للاختلافات الناشئة من الأهواء، فيقضي على القساوة بنشر نور الرحمة والهداية ليعمّ الجميع في كلّ مكان.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

التّفسير

المياه، الثمار، الأنعام

مرّة أُخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهيّة الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة الله، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقرّبوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الرّباني تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات.

(١) ولكن لازم هذا التّفسير وجود اختلاف في ضمير ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وضمير ﴿وَلِيُّهُمُ﴾، فالأوّل يعود إلى الأُمم السالفة، والثّاني إلى المشركين في صدر الإسلام. ويمكن حل هذا المشكل بتقدير جملة، وهي أن تقول: هؤلاء يتبعون الأُمم الماضية. (فتأمل).

فالآية الأخيرة من الآيات السابقة تناولت مسألة نزول القرآن وما فيه من حياة لروح الإنسان، وبنفس السياق تأتي الآية الأُولى من الآيات مورد البحث لتتناول نزول الأمطار وما فيها من حياة لجسم الإنسان: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

لقد تناولت آيات قرآنية كثيرة مسألة إحياء الأرض بواسطة نزول الأمطار من السماء، فكم من أرض يابسة أو ميّتة أحياناً أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الاستفادة من قبل الإنسان، ونتيجة لما وصلت إليه من وضع قد يخيّل للإنسان أنّها أرض غير منبتة أصلاً، ولا يصدّق بأنّها ستكون أرضاً معطاءة مستقبلاً، ولكن، بتوالي سقوط المطر عليها وما يبث عليها من أشعة الشمس، ترى وكأنّها ميّت قد تحرك حينما تدب فيه الروح من جديد، فتسري في عروقها دماء المطر وتُعاد لها الحياة، فتعمل بحيوية ونشاط وتقدّم أنواع الورود والنباتات، ومن ثمّ تتجه إليها الحشرات والطيور وأنواع الحيوانات الأُخرى من كلّ جانب، وبذلك... تبدأ عجلة الحياة على ظهرها بالدوران من جديد.

وخلاصة المقال أنّه سيبقى الإنسان مبهوتاً أمام تحوّل الأرض الميتة إلى مسرح جديد للحياة، وهذا بحق من أعظم عجائب الخلقة.

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عزّوجلّ يدلّل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد، وما ارتداء الأموات لباس الحياة الجديد إلاّ أمراً خاضعاً لقدرته سبحانه.

وإنّ نعمة الأمطار (التي لا يتحمل الإنسان أي قسط من أمر إيجادها) دليل آخر على قدرة وعظمة الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذي يعتبر الخطوة الأُولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾.

وأيّة عبرة أكثر من أنْ: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

«الفرث» لغةً: بمعنى الأغذية المهضومة في المعدة والتي بمجرّد وصولها إلى الأمعاء تزوّد البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج.. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأنّ جدار المعدة لا يمتص إلاّ مقداراً قليلاً من الغذاء (كبعض المواد السكّرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كي يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصّة داخل ثدي الإناث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوّة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن في استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوّثة!

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

«السكر» لغةً، له معانٍ مختلفة، إلاّ أنّه هنا بمعنى: المسكرات والمشروبات الكحولية (وهو المعنى المشهور من تلك المعاني).

وممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن لا يجيز في هذه الآية صنع المسكرات من التمر والعنب أبداً، وإنّما جاء ذكر المسكرات هنا لمقابلته بـ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ وكإشارة صغيرة لتحريم الخمر ونبذه. وعلى هذا... فلا حاجة للقول بأنّ هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر أو أنّها تشير إلى تحليله، بل حقيقة التعبير القرآني يشير إلى التحريم، ولعلّ الآية كانت تمثّل الإنذار الأوّل للتحريم.

وقد تبدو العبارة وكأنّها جملة اعتراضية بين قوسين داخل الآية القرآنية.

بحوث

١ - كيف يتكوّن اللبن؟

يقول القرآن الكريم في ذلك كما في الآيات أعلاه: إنّه يخرج من بين «فرث» - الأغذية المهضومة داخل المعدة - و«دم».

وقد أثبت ذلك فيزيولوجياً: حيث إنّه عندما يتمّ هضم الغذاء داخل المعدة ويكون جاهزاً للامتصاص ينتشر داخل المعدة والأمعاء بشكل واسع وأمام الملايين من العروق الشعيرية، فتمتص منه العناصر المفيدة المطلوبة لتوصلها إلى تلك الشجرة ذات الجذور التي تنتهي عروقها عند عروق الثدي.

عندما تتناول المرأة الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلى الدم الذي يجري في عروقها حتى يصل نهاية العروق المجاورة لعروق الجنين ليتغذى الجنين بهذه الطريقة ما دام في بطن أُمّه، وعندما ينفصل عن أُمّه يتحول طريق تغذيته إلى الثدي... وهنا لا تستطيع

الأم أن تصل دمها إلى دم ولدها، ولذلك ينبغي تصفية الغذاء وتغيير حالته بما ينسجم والوضع الجديد للطفل، وهنا... يتكون اللبن من بين فرث ودم، أي: من بين ما تتناوله الأم الذي يتحول إلى فرث وما ينتقل من مواده إلى الدم ليتكون منه اللبن.

فاللبن في الحقيقة... شيء وسط بين الفرث والدم، فلا هو دم مصفى ولا هو غذاء مهضوم، وهو أعلى من الثّاني ودون الأوّل!

علماً بأنّ الثدي يستفيد من الحوامض الأمينية المخزونة في البدن فقط في صناعة المواد البروتينية للبن.

وثمّة مكوّنات أُخرى للبن لا توجد في الدم وإنّما تنتجها غدد خاصّة في الثدي (كالكازوئين).

والبعض الآخر من المكوّنات يأتي من ترشح بلازما الدم مباشرة: ويدخل في تكوين اللبن من دون أي تغيير (كالفيتامينات وملح الطعام والفوسفات).

أمّا سكر اللاكتوز الموجود في اللبن فيؤخذ من السكر الموجود في الدم بعد أن تجري عليه الغدد الخاصّة في الثدي التغييرات اللازمة لتحويله إلى نوع جديد من السكر.

ومع أنّ إنتاج اللبن يكون عن طريق جذب المواد الغذائية بواسطة الدم، ومن خلال الارتباط المباشر بين الدم وغدد الثدي، إلاّ أنّنا لا نلاحظ أيَّ أثر لرائحة الفرث أو لون الدم فيه، بل يبدأ اللبن بالترشح من ثدي الأم بلون جديد ورائحة خاصّة به.

ومن لطيف ما ينقل عن العلماء المتخصصين أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن في الثدي يحتاج بما لا يقل عن عبور ٥٠٠ لتر من الدم خلال الثدي ليستطيع من امتصاص المواد اللازمة لإنتاج اللبن، كما يلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائية كثيرة من الأمعاء... وبهذا يتّضح لنا معنى ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ كاملاً(١).

٢ - أهم ما في اللبن من مواد غذائية

اللبن مليء بالمواد الغذائية المختلفة التي تشكّل مع بعضها مجموعة غذائية كاملة.

فالمواد المعدنية في اللبن، عبارة عن: الصوديوم، البوتاسيوم، الكالسيوم، المغنيسيوم، النحاس، قليل من الحديد بالإضافة إلى الفسفور والكلور وغيرها.

(١) مقتبس من كتابي: الكيمياء الحياتية والطبية، وأوّل جامعة وآخر نبي، الجزء السادس، ص٧١ - ٧٧.

ويوجد في اللبن كذلك غاز الأوكسجين وحامض الكاربونيك.

أمّا المواد السكرية فموجودة بكميّة كافية على شكل (لاكتوز).

والفيتامينات المحلولة في اللبن عبارة عن: فيتامين ب، د، آ، د.

وقد أثبت العلم الحديث أنّ الحيوان الذي يتغذى بشكل جيّد يكون لبنه حاوياً لكافة أنواع الفيتامينات، وأصبح بديهياً أنّ اللبن الطازج يعتبر غذاءً كاملاً. ولا يمكن لنا تفصيل ذلك في هذا البحث المختصر.

ولعلّ ما روي عن النّبي ﷺ من قوله: «ليس يجزي مكان الطعام والشراب إلاّ اللبن» إشارة لهذا السبب.

ونقرأ في روايات أُخرى عن اللبن أنّه يزيد في عقل الإنسان، ويحد النظر، ويرفع النسيان، ويقوي القلب والظهر (كما أصبح معلوماً أنّ هذه الآثار لها ارتباط وثيق بما في اللبن من مواد حياتية)[1].

٣ - اللبن... غذاء خالص وسهل الهضم

لقد أكّدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن - كونه «خالصاً»، و«سائغاً» أي لذيذاً وسريع الهضم - وكما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاءً كثير الفائدة على الرغم من قلّة حجمه. و«خالص» أي خال من المواد الزائدة وبذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذي جُعِلَ ملائماً لأي إنسان وعلى مختلف الأعمار - منذ الطفولة حتى الشيخوخة - ولهذا يعتمده المرضى كغذاء ملائم ومفيد ومقبول، وبالخصوص ما له من أثر فعّال بالنسبة لنمو العظام، ولهذا يوصى بالإكثار من تناوله في حالات كسور العظام وما شابهها.

ومن جملة معاني الخلوص هو (الربط)، ولعلّ البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء في التعبير القرآني «خالصاً»، واعتبارهم من كون «خالصاً» إشارة إلى تأثير اللبن الخالص في بناء وربط العظام.

وكذا نجد في الأحكام الإسلامية الواردة حول الرضاعة ما يشير إلى هذا المعنى بوضوح.

ويقول الفقهاء: إنّ الطفل لو رضع من غير أُمّه حتى اشتدت عظامه وزاد لحمه فإنّ مرضعته ستحرم عليه (وما يتبع ذلك في مَنْ يعود إليه النسب).

---

(١) لزيادة التفصيل، يراجع كتاب أول جامعة وآخر نبي - الجزء السادس.

ويقولون أيضاً: إنّ ١٥ رضاعة متوالية، أو رضاعة يوم وليلة متصلة، يؤدّي إلى هذه الحرمة أيضاً.

ولو جمعنا القولين، ألا ينتج أنّ التغذية باللبن يوم وليلة لها أثر في تقوية العظام وزيادة اللحم!؟

وينبغي الالتفات إلى أنّ التوجيهات الإسلامية أكّدت كثيراً على لبن «اللباء» وهو أو ما ينزل من اللبن بعد الولادة، حتى أنّ بعض كتب الفقه تقول إنّ حياة الطفل مرهونة به، ولهذا اعتبر إعطاء الطفل من حليب اللباء واجباً(١).

ولعلّ ما في الآية ٧ من سورة القصص حول موسى عليه السلام يتعلق بهذا الموضوع أيضاً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

التّفسير

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾!

انتقل الأسلوب القرآني بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهيّة المختلفة وبيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» وما يدرّه من منتوج (العسل) ورمز إلى ذلك الإلهام الخفيّ بالوحي الإلهي إلى النحل: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

وفي الآية المباركة جملة تعبيرات تستدعي التوقف والدقّة:

ما هو «الوحي»؟

«الوحي» في الأصل (كما يقول الراغب في مفرداته) بمعنى الإشارة السريعة، ثمّ بمعنى الإلقاء الخفي.

وقد جاءت كلمة «الوحي» في القرآن الكريم لترمز إلى عدّة أشياء، ولكنّها بالنتيجة تعود لذلك المعنى، منها:

---

(١) شرح اللمعة، كتاب النكاح، أحكام الأولاد ومنها الرضاع.

وحي النّبوة: حيث نلاحظ وروده في القرآن بهذا المعنى كثيراً. كما في الآية ٥١ من سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

ومنها: الوحي بمعنى «الإلهام» سواء كان الملهَم منتبهاً لذلك (كما في الإنسان) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[1]، أو مع عدم انتباه المُلهم كالإلهام الغريزي (كما في النحل) وهو ما ورد في الآية مورد البحث.

ومن المعروف أنّ الوحي في هذا المورد يعني الأمر الغريزي والباعث الباطني الذي أودعه الله في الكائنات الحيّة.

ومنها: أنّ الوحي بمعنى الإشارة، كما ورد في قصّة زكريا في الآية ١١ من سورة مريم ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

ومنها أيضاً: إيصال الرسالة بشكل خفي، كما في الآية ١١٢ من سورة الأنعام ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

٢ - هل يختص الإلهام الغريزي بالنحل؟

وإذا كان وجود الغرائز (الإلهام الغريزي) غير منحصر بالنحل بل يشمل جميع الحيوانات، فلماذا ورد ذكره في الآية في النحل خاصّة؟

والإجابة على السؤال تتّضح من خلال المقدمة التالية: إنّ الدراسة الدقيقة التي قام بها العلماء بخصوص حياة النحل، قد أثبتت أنّ هذه الحشرة العجيبة لها من التمدن والحياة الاجتماعية المدهشة ما يشبه لحدّ كبير الجانب التمدني عند الإنسان وحياته الاجتماعية، من عدّة جهات.

وقد توصل العلماء اليوم لاكتشاف الكثير من أسرار حياة هذه الحشرة والتي أوصلتهم بقناعة تامة إلى توحيد الخالق والإذعان لربوبيته سبحانه وتعالى.

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز بكلمة «الوحي» ليبيّن أنّ حياة النحل لا تقاس بحياة الأنعام، وليدفعنا للتعمق في عالم أسرار هذه الحشرة العجيبة، ولنتعرف من خلالها على عظمة وقدرة خالقها، ولعلّ «الوحي» هو التعبير الرمزي الذي اختصت به هذه الآية نسبة إلى الآيات السابقة.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

٣ - المهمّة الأُولى في حياة النحل

وأوّل مهمّة أمر بها النحل في هذه الآية هي: بناء البيت، ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّ اتّخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياة، ومن ثمّ القيام ببقية الفعّاليات، أو لعلّه إشارة إلى ما في بيوت النحل من دقة ومتانة، حيث إنّ بناء البيوت الشمعية والسداسية الأضلاع، والتي كانت منذ ملايين السنين وفي أماكن متعددة ومختلفة، قد يكون أعجب حتى من عمليّة صنع العسل(١).

فكيف تضع هذه المادة الشمعيّة الخاصة؟ وكيف تبني الخلايا السداسية بتلك الهندسة الدقيقة؟ وبيوت النحل ذات هيئة وأبعاد محسوبة بدقة فائقة وذات زوايا متساوية تماماً، ومواصفاتها تخلو من أيّة زيادة أو نقصان...

فقد اقتضت الحكمة الربانية من جعل بيوت النحل في أفضل صورة وأحسن اختيار وأحكم طبيعة، وسبحان الله خالق كلّ شيء.

٤ - أين مكان النحل؟

وقد عيّنت الآية المباركة مكان بناء الخلايا في الجبال، وبين الصخور وانعطافاتها المناسبة، وبين أغصان الأشجار، وأحياناً في البيوت التي يصنعها لها الإنسان.

ويستفاد من تعبير الآية أنّ خلايا النحل يجب أن تكون في نقطة مرتفعة من الجبل أو الشجرة أو البيوت الصناعية ليستفاد منها بشكل أحسن.

ويذكر القرآن الكريم في الآية التالية المهمّة الثّانية للنحل: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾.

«الذلل»: (جمع ذلول) بمعنى التسليم والانقياد.

ووصف الطرق بالذلل لأنّها قد عيّنت بدقّة لتكون مسلّمة ومنقادة للنحل في تنقله، وسنشير إلى كيفية ذلك قريباً.

وأخيراً يعرض القرآن المهمّة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة): ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في طبيعة

---

(١) عُرِفَ لحد الآن (٤٥٠٠) نوعاً من النحل الوحشي، والعجيب أنّها في حال واحدة من حيث: الهجرة، بناء الخلايا، المكان، تناول رحيق الأزهار - أوّل جامعة وآخر نبي، الجزء الخامس.

حياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾، وهو دليل على عظمة وقدرة الباري عزّوجلّ.

بحوث

وفي الآية جملة بحوث قيّمة أُخرى:

١ - ممّ يتكوّن العسل؟

يمتص النحل بعض المواد السكّرية الخاصّة الموجودة في مياسم الورود، ويقول خبراء النحل: إنّ عمل النحل في واقعه لا ينحصر بأخذ المادة السكّرية فقط، بل يتعدى ذلك في بعض الأحيان للاستفادة من بعض أجزاء الورود الأخرى، وكذا الحال مع الأثمار، وهو ما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

وهنا ننقل قول عالم البيئة (مترلينك) بما يوضّح التعبير القرآني بشكل أوضح: (لو قدّر أن تفنى أنواع النحل - الوحشي والأهلي - فإنّ مائة ألف نوع من النباتات والثمار والأوراد ستفنى، أي أنّ تمدننا سيفنى أيضاً)(١). ذلك لأنّ دور النحل في نقل حبوب اللقاح من ذكر الأشجار إلى مياسم إناثها من الأهميّة بحيث يجعل بعض العلماء يعتقدون أنّ ذلك أهم من إنتاج العسل نفسه.

والحقيقة أنّ ما يتناوله النحل من أنواع الثمار إنّما هو بالقوّة لا بالفعل، ولهذا فهو يساهم في عملية تكوينها، فما أشمل وأدق التعبير القرآني ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾!

٢ - السُبل المذللة!

لقد توصّل العلماء المتخصصون بدراسة حياة النحل إلى ما يلي: تخرج في كل صباح مجموعة من النحل لمعرفة أماكن وجود الورود وتعيينها، ثمّ تعود إلى الخليّة لتخبر بقية النحل عن أماكن الورود والجهات التي ينبغي التوجّه إليها، ومقدار الفاصلة بين الورود والخليّة.

ويستعمل النحل أحياناً لأجل تعيين طرق وصوله إلى الورود علامات خاصّة كأن

---

(١) أول جامعة وآخر نبي، الجزء الخامس، ص٥٥.

يشخّص طبيعة الروائح المنتشرة على طول الطريق أو ما شابه ذلك، وذلك لضمان عدم إضاعة الطريق ذهاباً وإياباً.

ولعلّ عبارة: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ إشارة لهذه الحركة.

٣ - أين يصنع العسل؟

ربّما، إلى الآن يوجد من يتصور بأنّ النحل يمتص رحيق الأوراد ويجمعه في فمه ثمّ يخزنه في الخليّة، وهذا خلاف الواقع، فالنحلة تجمع الرحيق في حفر خاصّة داخل بدنها يطلق عليها علمياً اسم (الحوصلة) وهي بمثابة معامل مختبرات كيمياوية خاصّة تقوم بعمليات تحويل وتغيير مختلفة لرحيق الأزهار، حتى يصل إلى إنتاج العسل، الذي تقوم النحلة بإخراجه وجمعه في الخليّة.

والمدهش أنّ سورة النحل مكيّة، وكما هو معلوم بأنّ مكّة منطقة جافة ليس فيها نحل لعدم توفر النباتات والورود التي يحتاجها ومع ذلك فالقرآن الكريم يتحدث بكلّ دقة عن النحل ويشير إلى أدّق أعماله (إنتاج العسل): ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾.

٤ - ألوان العسل المختلفة؟

تتفاوت ألوان العسل وفقاً لتنوع الورود التي يؤخذ رحيقها منها... فيبدو أحياناً بلون البن القاتم، وأحياناً أُخرى يكون أصفر اللون، أو أبيض فضّي، أو ليس له لون، وتارةً تراه شفافاً، وتارة أُخرى ذهبيّاً أو تمرياً وقد تراه مائلاً إلى السواد!

ولهذا التفاوت في اللون حكمة بالغة قد تبيّنت أخيراً مفادها: إنّ للون الغذاء أثر بالغ في تحريك رغبة الإنسان إليه.

وهذه الحقيقة ما كانت خافية على القدماء أيضاً، فكانوا يعتنون بإظهار لون الغذاء المشهّي لدرجة كانوا يضيفون إليه بعض المواد تحصيلاً لما يريدون كإضافة الزعفران وما شابهه.

ولهذا الموضوع بحوث مفصّلة في كتب التغذية لا يسمح لنا المجال بعرضها كاملة خوفاً من الابتعاد عن مجال التّفسير.

٥ - العسل... والشفاء من الأمراض

كما نعلم بأنّ للنباتات والورود استعمالات علاجية فعّالة لكثير من الأمراض، ولا زلنا نجهل الكثير من فوائدها على الرغم من كثرة ما عرفناه، والشيء المهم في

موضوعنا ما توصّل إليه العلماء من خلال تجاربهم التي أكّدت على أنّ للنحل من المهارة بحيث إنّه في عملية صنعه للعسل لم يبذّر فيما تحويه النباتات والورود من خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها في العسل!

وقد صرّح العلماء بكثير من تلك الخواص الوقائية والعلاجية والمقوية.

فالعسل: سريع الامتصاص من قبل الدم، ولهذا فهو غذاء مقوّ ومؤثّر جدّاً في تكوين الدم.

والعسل: يقي المعدة والأمعاء من العفونة.

والعسل: رافع لليبوسة.

وهو علاج ضد الأرق (على أن لا يتناول الكثير منه لأن الإكثار منه يقلّل النوم).

وللعسل: أثر مهم في رفع التعب وتشنج العضلات.

والعسل: يقوي الشبكية العصبية للأطفال (إذا ما أطعمت الأم أثناء الحمل).

و يرفع نسبة الكالسيوم في الدم.

ونافع لتقوية الجهاز الهضمي (وبالخصوص لمن ابتلي بنفخ البطن).

وبما أنّه سريع الاحتراق فهو يعمل على توليد الطاقة بسرعة فائقة بالإضافة لترميمه للقوى.

والعسل أيضاً: مقوّ للقلب، مساعد في علاج أمراض الرئة، نافع للإسهال لخاصيته في قتل المكروبات.

ويعتبر العسل عاملاً مهمّاً من عوامل معالجة قرحة المعدة والاثني عشري.

وهو دواء نافع لعلاج الروماتيزم، ونقصان قوّة نمو العضلات، ورفع الآلام العصبية.

وبالإضافة إلى ذلك فهو نافع في رفع السعال وعامل مهم لتصفية الصوت.

والخلاصة: إنّ خواص العسل العلاجية أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر.

ومع ذلك كلّه فإنّه يدخل في صناعة الأدوية لتلطيف الجلد وللتجميل، ويستعمل لطول العمر، ولعلاج ورم الفم واللسان والعين، ويستعمل أيضاً لمعالجة الإرهاق، وتشقق الجلد، وما شابه ذلك.

أمّا المواد والفيتامينات الموجودة في العسل فكثيرة جدّاً. وفيه من المواد المعدنية:

الحديد، الفسفور، البوتاسيوم، اليود، المغنيسيوم، الرصاص، النحاس، السلفور، النيكل، الصوديوم وغيرها.

ومن المواد الآليّة فيه: الصمغ، حامض اللاكتيك، حامض الفورميك، حامض السيتريك والتاتاريك والدهون العطرية.

أمّا ما يحويه من الفيتامينات، ففيه: فيتامينات (K , D , C , B , A).

ويعتقد البعض باحتوائه على فيتامين (P B) أيضاً.

وأخيراً: فالعسل علاج لصحة وجمال الإنسان.

وصرّحت الرّوايات كذلك بخواص العسل العلاجية، وورد الكثير عن أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام وبعض الأئمّة المعصومين عليهم السلام من أنّهم قالوا: «ما استشفى الناس بمثل العسل»[1].

وفي رواية أُخرى: «لم يستشف مريض بمثل شربة عسل»[2].

وروي عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من شرب العسل في كل شهر مرّة يريد ما جاء به القرآن، عوفي من سبعة وسبعين داءً»[3].

وثمّة أحاديث أُخرى حول أهميّة العسل في علاج آلام البطن.

ونُذكّر أنّ لكلّ حكم عام أو قاعدة كلّية استثناء، ولهذا فقد ورد النهي عن تناول العسل في بعض الحالات النادرة.

٦ - ﴿لِلنَّاسِ﴾

وممّا يجذب النظر أنّ خبراء النحل يرون كفاية امتصاص وردتين أو ثلاث لسدّ جوع النحلة، إلاّ أنّها تحط على ٢٥٠ وردة في كلّ ساعة (كمعدّل) ولأجل ذلك تقطع مسافة عدّة كيلومترات، وعلى الرغم من قصر عمر النحلة، إلاّ أنّها تنتج كمية لا بأس بها من العسل، وقد لا يُصدّق كثرة ما تنتجه قياساً لما تعيشه من عمر، ولكنّ ما تقوم به من مثابرة وعمل دؤوب لا يعرف الكلل والملل قد هيأها لأن تقوم بهذا العمل الكبير العجيب.

وكلّ ذلك السعي وتلك المثابرة ليس في واقعه لملء بطنها بقدر ما عبّر عنه القرآن الكريم بـ ﴿لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، ص٧٣ إلى ٧٥. (٢) المصدر السابق.

(٣) سفينة البحار، ج٢، ص١٩٠.

٧ - ملاحظات مهمّة بخصوص العسل

أثبت العلم الحديث أنّ العسل من المواد الغذائية التي تبقى على الدوام طازجة وسالمة ومحافظة على كلّ ما تحويه من فيتامينات مهما طالت المدّة لأنّه من المواد غير القابلة للفساد.

ويعزو العلماء سبب ذلك لوجود نسبة البوتاسيوم الوافية فيه المانع من نمو الجراثيم، بالإضافة لاحتوائه على بعض المواد المقاومة للعفونة كحامض الفورميك فمضافاً لكون العسل مانع من نمو الجراثيم، فهو قاتل لها أيضاً ولهذا السبب فقد استعمله المصريون القدماء في عملية التحنيط.

ويقول العلماء: لا ينبغي حفظ العسل في أوانٍ فلزّية.

ويقول القرآن في هذا الجانب: ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أيْ: إنّ بيوت النحل لا ينبغي أن تكون إلاّ بين الأحجار والأخشاب.

وملاحظة مهمّة أُخرى: للاستفادة من خواصه الصّحية والعلاجية ينبغي عدم تعريضه لحرارة الطبخ، يعتقد البعض أنّ تعبير القرآن بكلمة «شراب» إشارة لهذه المسألة، فهو من المشروبات وليس من المأكولات كي يعرض لحرارة الطبخ.

وثمّة ملاحظة أُخرى: على الرغم ممّا تسببه لسعة النحل من ألم، إلاّ أنّ لهذا أثر علاجي أيضاً، ومع ذلك ونتيجة لطبع النحل اللطيف فإنّه لا يلسع أحداً بلا سبب، بل نحن ندفعه إلى ذلك ونضطرّه ليلسعنا عن علم أو جهل.

ومن الأسباب التي تدفع النحل للسع الإنسان: عدم ارتياحه للروائح الكريهة، وعندما يقترب الإنسان من الخليّة لجني نتاج النحل فهي لا تلسعه إلاّ إذا كانت يده ملوّثة أو أنّ في لباسه رائحة كريهة، أو عندما يمدّ الإنسان يده إلى خلية ما وبدون أن يغسل يده يمدّها إلى خليّة أُخرى، فإنّ نحل الخلية الثّانية ستسرع في لسعه لأنّه قد نقل إليها رائحة خليّة أجنبية!

وعلى الرغم من أنّ اللسع يحمل أهدافاً دفاعية، إلاّ أنّه بالنسبة للنحل يعني الانتحار لأنّه بمجرّد أن تقوم النحلة باللسع فإنّها قد كتبت على نفسها مصير الموت!

وقد وضع العلماء المتخصصون برنامجاً معيّناً لمعالجة الأمراض كالروماتيزم والملاريا والآلام العصبية وغيرها عن طريق لسعات النحل، والاّ فإنّ لسع النحل قد يؤدّي إلى آلام مؤذية تصل في بعض حالاتها إلى مخاطر كبيرة.

وقد يتحمل الإنسان لسعة أو عدّة لسعات، ولكنّ الأمر حينما يصل إلى ٢٠٠ - ٣٠٠ لسعة فإنّ ذلك سيؤدّي إلى التسمم واضطرابات في القلب، وإذا ما وصل العدد إلى ٥٠٠ لسعة فسوف يؤدّي إلى شلل الجهاز التنفسي، وربّما يؤدّي إلى الموت.

٨ - عجائب حياة النحل

كان القدماء يعرفون القدر اليسير عن حياة النحل، أمّا اليوم ونتيجة لدراسات العلماء الواسعة فقد تبيّن أنّ للنحل حياة منظّمة جدّاً ويتخللها: تقسيم أعمال، توزيع مسؤوليات، وبرنامج عمل دقيق جدّاً.

ومدينة النحل: أكثر المدن نظافة، وأكثرها نظاماً، كلّها عمل... إنّها مدينة على خلاف كل مدن البشر، فليس فيها بطالة ولا فقر، والكلّ يعيش حياة تمدن جميل... وكلّ أفراد المدينة يخضعون لقوانينها ولا ترى مخالفاً للضوابط القانونية ولا مقصّراً في عمله إلاّ ما ندر، وإذا ما حدث ذلك كأن تذهب إحدى النحلات إلى وردة كريهة الرائحة وتمتص رحيقها، فإنّها ستخضع للتفتيش عند أعتاب المدينة ثمّ تحاكم في محكمة صحراوية، ويحكم عليها بالموت كما هو المعروف فى عقوبة ارتكاب مثل هذه الأخطاء!

يقول (مترلينك) عالم البيئة البلجيكي الذي أجرى العديد من الدراسات حول حياة النحل والنظام العجيب الذي يحكم مدنها: إنّ ملكة النحل (أو على الأصح أُمُّ الخليّة) لا تعيش في مدينتها، كما نتصور من سلطتها وإصدارها الأوامر، بل هي كسائر أفراد هذه المدينة في إطاعتها للقواعد والأنظمة الكلّية السائدة، إنّنا لا نعلم كيف وضعت هذه القوانين والأنظمة، وننتظر أن نفهم هذا الأمر يوماً ما، ونعرف واضع هذه المقررات، إلاّ أنّنا نسميه مؤقتاً (روح الخلية)!!

إنّ الملكة تطيع روح الخلية شأنها شأن بقية الأفراد.

إنّنا لا نعلم أين توجد روح هذه الخلية؟ وفي أيّ فرد من سكنة مدينة النحل قد حلّت؟

إلاّ أنّنا نعلم أنّ روح الخلية ليست شبيهة بغريزة الطيور، ونعلم أيضاً أنّ روح الخليّة ليست عادة وإرادة عمياء تحكم عنصر ونوع النحل، إنّ روح الخلية تقوم بتحديد وظيفة كلّ فرد من أفراد الخلية وفق استعداده، وتوجّه كل واحد منها نحو عمل معيّن.

إنّ روح الخلية تأمر النحل المهندس والبنّاء والعامل ببناء البيوت، وهي التي تأمر سكنة المدينة جميعاً بالهجرة منها في يوم معيّن وساعة معينة، وتتجه نحو حوادث ومشاق غير معلومة من أجل تحصيل مسكن ومأوى جديد!

إنّنا لا نستطيع أن نفهم في أيّ مجمع شورى قد طرحت قوانين مدينة النحل التي وضعتها روح الخليّة واتخذ قرارها بتنفيذها؟ مَنْ يصدر الأمر بالحركة في اليوم المعيّن؟

نعم، إنّ في الخلية مقدمات هجرة من أجل إطاعة الإله الذي بيده مصير النحل(١).

إنّ العالم المذكور قد واجه الإبهام في فهم هذه المسألة، لما علقت في ذهنه من ترسبات الفكر المادي!

ولكننا نفهم بيسر من أين جاءت تلك القوانين والبرامج؟ ومَنْ الآمر بها؟ وذلك من خلال الاستهداء بنور القرآن.

ما أجمل ما عبّر عنه القرآن حين قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾!

أوَ هل ثمّة تعبير أوسع وأشمل وأنطق من هذا؟!

لم نذكر فيما قلناه عن النحل إلاّ النزر اليسير لأنّ منهج التّفسير لايسمح لنا بمواصلة هذا الموضوع(٢).

ونظن كفاية هذا القدر للمتفكّر السائر نحو معرفة عظمة الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

---

(١) تلخيص من كتاب (النحل)، تأليف مترلينك.

(٢) اعتمدنا في بحثنا عن النحل وخواص العسل على جملة كتب منها: أوّل جامعة وآخر نبي، والنحل، تأليف مترلينك، وعجائب عالم الحيوانات.

التّفسير

سبب اختلاف الأرزاق

بيّنت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهيّة المجعولة في عالمي النبات والحيوان، لتكون دليلاً حسيّاً لمعرفته جلّ شأنه، وتواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جلّ وعلا بأُسلوب آخر، وذلك بأنّ تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقّة والتأمل على وجود المقدّر لذلك.

فيبتدئ القول بـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنّكم لستم خالقين لأيّ من الطرفين (الحياة والموت).

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم مَنْ يموت في شبابه أو في كهولته ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾(١).

ونتيجة هذا العمر الموغل في سني الحياة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾(٢).

فيكون كما كان في مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم... نعم فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فكلّ القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاؤه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلاّ عندما يَلْزَم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله في الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنّما... ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ فأصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

---

(١) ﴿أَرْذَلِ﴾: من (رذل) بمعنى الحقارة وعدم المرغوبية، والمقصود من ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: السنين المتقدمة جدّاً من عمر الإنسان حيث الضعف والنسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأرذل العمر، وقد اعتبر بعض المفسّرين أنّها تبدأ من عمر (٧٥) عاماً، وبعض آخر من (٩٠) وآخرون اعتبروها من (٩٥) والحق أنّها لا تحدد بعمر، وإنّما تختلف من شخص لآخر.

(٢) عبارة ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ يمكن أن تكون غاية ونتيجة للسنين المتقدمة من حياة الإنسان، فيكون مفهومها أنّ دماغ الإنسان وأعصابه في هذه السنين تفقد القدرة على التركيز والحفظ فيسيطر على الإنسان النسيان والغفلة، ويمكن أن يكون معناها العلّة، أيْ إنّ الله تعالى يوصل الإنسان إلى هذا العمر لكي يصاب بالنسيان، فيفهم الناس بأنّهم لا يملكون شيئاً من أنفسهم.

واحتمل بعض المفسّرين أنّ الآية تشير إلى بعض أعمال المشركين الناتجة عن حماقتهم، حينما كانوا يجعلون لآلهتهم من الأصنام سهماً من مواشيهم ومحاصيلهم الزراعية، بالرغم من عدم وجود أيّ أثر لتلك الأحجار والأخشاب على حياتهم! بل كان الأولى بهم أن يلتفتوا إلى خدمهم وعبيدهم ليعطوهم شيئاً جزاء ما يقدّمونه لهم من خدمات ليل نهار!...

هل التفاضل في الرّزق من العدالة؟!

وهنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل أنّ إيجاد التفاوت والاختلاف في الأرزاق بين الناس، ينسجم مع عدالة الله عزّ وجلّ ومساواته بين خلقه، التي ينبغي أن تحكم نظام المجتمع البشري؟

لأجل الإجابة، ينبغي الالتفات إلى الملاحظتين التاليتين:

١ - إنّ الاختلاف الموجود بين البشر في جانب الموارد المادية يرتبط بالتباين الناشيء بين الناس جرّاء اختلاف استعداداتهم وقابليتهم من واحد لآخر.

والتفاوت في الاستعدادين الجسمي والروحي يستلزم الاختلاف في مقدار ونوعية الفعالية الاقتصادية للأفراد، ممّا يؤدّي إلى زيادة وارد بعض وقلّة وارد البعض الآخر.

ولا شكّ أنّ بعض الحوادث والاتفاقات لها دخل في ثراء بعض الناس، إلاّ أنّه لا يمكن أن نعوّل عليها عند البحث لأنّها ليست أكثر من استثناء، أمّا الضابط في أكثر الحالات فهو التفاوت الموجود في كمية وكيفية السعي (ومن الطبيعي أنّ بحثنا يتناول المجتمع السليم والبعيد عن الظلم والاستغلال، ولا نقصد به تلك المجتمعات المنحرفة التي تركت قوانين التكوين والنظام الإنساني جانباً وانزلقت في طرق الظلم والاستغلال).

وقد يساورنا التعجّب حينما نجد بعض الفاقدين لأيّ مؤهل أو استعداد يتمتعون برزق وافر وجيّد، ولكننا عندما نتجرّد عن الحكم من خلال الظواهر ونتوغّل في أعماق مميزات ذلك البعض جسمياً ونفسياً وأخلاقياً، نجد أنّهم يتمتعون بنقاط قوّة أوصلتهم إلى ذلك (ونكرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع سليم خال من الاستغلال).

وعلى أيّة حال... فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالاستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهيّة أيضاً، وإنْ أمكن أنْ يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابي قطعاً. فإذنْ وجود التفاوت في الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من

الناحية الاقتصادية، ويتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة. . إلاّ إذا افترضنا وجود مجموعة أفراد كلّهم في هيئة واحدة من حيث: الشكل، اللون، الاستعداد ولا يعتريهم أيَّ اختلاف! وإذا ما افترضنا حدوث ذلك فإنّه بداية المشاكل والويلات!

٢ - لو نظرنا إلى بدن إنسان ما، أو إلى هيكل شجرة أو باقة ورد، فهل سنجد التساوي بين أجزاء كلّ منها ومن جميع الجهات؟

وهل أنّ قدرة ومقاومة واستعداد جذور الشجرة مساوية لقدرة ومقاومة واستعداد أوراق الوردة الظريفة؟ وهل أنّ عظم قدم الإنسان لا يختلف عن شبكية عينه؟

وَهل من الصواب أن نعتبر كلّ ذلك شيئاً واحداً؟!

ولو تركنا الشعارات الكاذبة والفارغة من أيِّ معنى، وافترضنا تساوي الناس من جميع النواحي، فنملأ الأرض بخمسة مليارات من الأفراد ذوي: الشكل الواحد، الذوق الواحد، الفكر الواحد، بل والمتحدين في كلّ شيء كعلبة السجائر. . فهل نستطيع أن نضمن أنّ حياة هؤلاء ستكون جيّدة؟ ستكون الإجابة بالنفي قطعاً، وسيحرق الجميع بنار التشابه المفرط والرتيب الكئيب، لأنّ الكلّ يتحرك في جهة واحدة، والكلّ يريد شيئاً واحداً، ويحبّون غذاءً واحداً، ولا يرغبون إلاّ بعمل واحد!

ومن البديهي أن حياة كهذه ستكون سريعة الانقراض، ولو افترض لها الدوام، فإنّها ستكون متعبة ورتيبة وفاقدة لكل روح. وبعبارة أشمل سوف لا يبعدها عن الموت بون شاسع.

وعلى هذا فحكمة وجود التفاوت في الاستعدادات المستتبعة لهذا التفاوت قد ألزمتها ضرورة حفظ النظام الاجتماعي، وليكون التفاوت في الاستعدادات دافعاً لتربية وإنماء الاستعدادات المختلفة للأفراد. ولا يمكن للشعارات الكاذبة أن تقف في وجه هذه الحقيقة التي يفرضها الواقع الموضوعي أبداً.

ولا ينبغي أن نفهم من هذا الكلام أنّنا نريد منه إيجاد مجتمع طبقي أو نظام استغلالي واستعماري، لا، أبداً. . . وإنّما نقصد بالاختلافات التفاوت الطبيعي بين الأفراد (وليس المصطنع) الذي يعاضد بعضه الآخر ويكمله (وليس الذي يكون حجر عثرة في طريق تقدّم الأفراد ويدعو إلى التجاوز والتعدّي على الحقوق).

إنّ الاختلاف الطبقي (والمقصود من الطبقات هنا: ذلك المفهوم الاصطلاحي الذي يعني وجود طبقة مستغِلة وأُخرى مستغَلة) لا ينسجم مع نظام الخليقة أبداً، ولكنّ

الموافق لنظام الخليقة هو ذلك التفاوت في الاستعدادات والسعي وبذل الجهد، والفرق بين الأمرين كالفرق بين السماء والأرض، فتأمل.

وبعبارة أُخرى، إنّ الاختلاف في الاستعدادات ينبغي أن يوظف لخدمة مسيرة البناء، كما في اختلاف طبيعة أعضاء بدن الإنسان أو أجزاء الوردة، فمع تفاوتها إلاّ أنّها ليست متزاحمة، بل إنّ البعض يعاضد البعض الآخر وصولاً للعمل التام على أكمل وجه.

وخلاصة القول: ينبغي أن لا يكون وجود التفاوت والاختلاف في الاستعدادات وفي الدخل اليومي للأفراد دافعاً لسوء الاستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقي[1].

ولهذا يقول القرآن الكريم في ذيل الآية مورد البحث: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وذلك إشارة إلى أنّ هذه الاختلافات في حالتها الطبيعية (وليست الظالمة المصطنعة) إنّما هي من النعم الإلهيّة التي أوجدها لحفظ النظام الاجتماعي البشري.

وتبدأ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلالة «الله» كما كان في الآيتين السابقتين، ولتتحدث عن النعم الإلهيّة في إيجاد القوى البشرية، ولتتحدث عن الأرزاق الطيّبة أيضاً تكميلاً للحلقات الثلاث من النعم المذكورة في آخر ثلاث آيات، حيث استهلّت البحث بنظام الحياة والموت، ثمّ التفاوت في الأرزاق والاستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياة) لتنتهي بالآية مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشري و. . . الأرزاق الطيّبة.

وتقول الآية: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشري.

ولهذا تقول وبلا فاصلة: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

«الحفدة» بمعنى (حافد) وهي في الأصل بمعنى الإنسان الذي يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أمّا في هذه الآية - كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسّرين - فالمقصود منها أولاد الأولاد، واعتبرها بعض المفسّرين بأنّها خاصّة بالإناث دون الذكور من الأولاد.

---

(١) لقد بحثنا بشكل مفصّل موضوع فلسفة الاختلاف في الاستعدادات والفوائد الناتجة عن ذلك في ذيل الآية (٣٢) من سورة النساء - فراجع.

ويعتقد قسم آخر من المفسّرين: أنّ ﴿بَنِينَ﴾ تطلق على الأولاد الصغار، و«الحفدة» تطلق على الأولاد الكبار الذين يستطيعون إعانة ومساعدة آبائهم.

واعتبر بعض المفسّرين أنّها شاملة لكلّ معين ومساعد، من الأبناء كان أم من غيرهم[1].

ويبدو أنّ المعنى الأوّل (أولاد الأولاد) أقرب من غيره، بالرغم ممّا تقدّم من سعة مفهوم ﴿وَحَفَدَةً﴾ في الأصل.

وعلى أيّة حال فوجود القوى الإنسانية من الأبناء والأحفاد والأزواج للإنسان من النعم الإلهيّة الكبيرة التي أنعمها جلّ اسمه على الإنسان، لأنّهم يعينونه مادياً ومعنوياً في حياته الدنيا.

ثمّ يقول القرآن الكريم: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هنا لها من سعة المفهوم بحيث تشمل كلّ رزق طاهر نظيف، سواء كان مادياً أو معنوياً، فردياً أو اجتماعياً.

وبعد كلّ العرض القرآني لآثار وعظمة قدرة الله، ومع كلّ ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكلّ ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام ويتركون السُّبُل التي توصلهم إلى جادة الحق ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

فما أعجب هذا الزيغ! وأيّة حال باتوا عليها! عجباً لهم وتعساً لنسيانهم مسبب الأسباب، وذهابهم لما لا ينفع ولايضر ليقدسوه معبوداً!!!

بحثان

١ - أسباب الرزق

على الرغم ممّا ذكر بخصوص التفاوت من حيث الاستعداد والمواهب عند الناس، إلاّ أنّ أساس النجاح يكمن في السعي والمثابرة والجدّ، فالأكثر سعياً أكثر نجاحاً في الحياة والعكس صحيح.

---

(١) وفي هذه الحال يجب أن لا تكون ﴿وَحَفَدَةً﴾ معطوفة على ﴿بَنِينَ﴾ بل على ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولكنّ هذا العطف خلاف الظاهر الذي يشير إلى عطفها على ﴿بَنِينَ﴾ - فتأمل.

ولهذا جعل القرآن الكريم ارتباطاً بين ما يحصل عليه الإنسان وبين سعيه، فقال بوضوح: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

ومن الأُمور المهمّة والمؤثّرة في مسألة استحصال الرزق الالتزام بالمبادئ من قبيل: التقوى، الأمانة، إطاعة القوانين الإلهيّة والالتزام بأصول العدل، كما أشارت إلى ذلك الآية (٩٦) من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وكما في الآيتين ٢ و ٣ من سورة الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وكما أشارت الآية ١٧ من سورة التغابن بخصوص أثر الإنفاق في سعة الرزق: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾.

ولعلّنا لانحتاج إلى التذكير بأنّ فقدان فرد أو جمع من الناس يضر بالمجتمع ولهذا فحفظ سلامة الأفراد وإعانتهم يعود بالنفع على كل الناس (بغض النظر عن الجوانب الإنسانية والروحية لذلك).

وخلاصة القول إنّ اقتصاد المجتمع إن بُني على أُسس التقوى والصلاح والتعاون والإنفاق فالنتيجة أنّ ذلك المجتمع سيكون قويّاً مرفوع الرأس، أمّا لو بني على الاستغلال والظلم والاعتداء وعدم الاهتمام بالآخرين، فسيكون المجتمع متخلّفاً اقتصادياً وتتلاشى فيه أواصر الحياة الاجتماعية.

ولذلك فقد أعطت الأحاديث والرّوايات أهمّية استثنائية للسعي في طلب الرزق المصحوب بالتقوى، وحتى روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تكسلوا في طلب معايشكم، فإن آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها»[2].

وروي عنه أيضاً: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[3].

وحتى أنّ الأمر قد وجّه إلى المسلمين بالتبكير في الخروج لطلب الرزق[4] وذكر أنّ من جملة مَنْ لا يستجاب لهم الدعاء أُولئك الذين تركوا طلب الرزق على ما لهم من استطاعة، انزووا في زوايا بيوتهم يدعون الله أن يرزقهم!

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) الوسائل، ج١٢، ص٤٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٣.
(٤) المصدر السابق، ص ٥٠.

وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤل عن الآيات القرآنية والرّوايات التي تؤكّد على أنّ الرزق بيد الله، وذمّ السعي فيه، فكيف يتمّ تفسير ذلك؟!

وللإجابة نذكر الملاحظتين التاليتين:

١ - دقة النظر والتحقق في المصادر الإسلامية يوضّح أنّ الآيات أو الرّوايات التي يبدو التضاد في ظاهر ألفاظها - سواء في هذا الموضوع أو غيره - إنّما ينتج من النظرة البسيطة السطحية، لأنّ حقيقة تناولها لموضوع ما إنّما يشمل جوانب متعددة من الموضوع، فكلّ آية أو رواية إنّما تنظر إلى بعد معيّن من أبعاد الموضوع، فتوهم غير المتابع بوجود التضاد.

فحيث يسعى الناس بولع وحرص نحو الدنيا وزخرف الحياة المادية، ويقومون بارتكاب كلّ منكر للوصول إلى ما يريدونه، تأتي الآيات والرّوايات لتوضّح لهم تفاهة الدنيا وعدم أهمّية المال.

وإذا ما ترك الناس السعي في طلب الرزق بحجة الزهد، تأتيهم الآيات والرّوايات لتبيّن لهم أهمّية السعي وضرورته.

فالقائد الناجح والمرشد الرشيد هو الذي يتمكن من منع انتشار حالتي الإفراط والتفريط في مجتمعه.

فغاية الآيات والرّوايات التي تؤكّد على أنّ الرزق بيد الله هي غلق أبواب الحرص والشره وحبّ الدنيا والسعي بلا ضوابط شرعية، وليس هدفها إطفاء شعلة الحيوية والنشاط في الأعمال والاكتساب وصولاً لحياة كريمة ومستقلة.

وبهذا يتّضح تفسير الرّوايات التي تقول: إنّ كثيراً من الأرزاق إن لم تطلبوها تطلبكم.

٢ - إنّ كلّ شيء من الناحية العقائدية تنتهي نسبته إلى الله عزّ وجلّ، وكلّ موحّد يعتقد أنّ منبع وأصل كلّ شيء منه سبحانه وتعالى، ويردد ما تقوله الآية ٢٦ من سورة آل عمران: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وينبغي عدم الغفلة عن هذه الحقيقة وهي أنّ كلّ شيء من سعي ونشاط وفكر وخلاّقية الإنسان إنّما هي في حقيقتها من الله عزّ وجلّ.

ولو توقّف لطف الله (فرضاً) عن الإنسان - ولو للحظة واحدة - لما كان ثمّة شيء اسمه الإنسان.

ويقول الإنسان الموحّد حينما يركب وسيلة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

وعندما يحصل على نعمة ما، يقول: «**وما بنا من نعمة فمنك**»[١].

ويقول عندما يخطو في سبيل الإصلاح - كما هو حال الأنبياء في طريق هدايتهم للناس: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢].

وإلى جانب كلّ ما ذكر فالسعي والعمل الصحيح البعيد عن أيّ إفراط أو تفريط، هو أساس كسب الرزق، وما يوصل إلى الإنسان من رزق بغير سعي وعمل إنّما هو ثانوي فرعي وليس بأساسي، ولعلّ هذا الأمر هو الذي دفع أمير المؤمنين عليه السلام في كلماته القصار في تقديم ذكر الرزق الذي يطلبه الإنسان على الرزق الذي يطلب الإنسان، حيث قال: «يابن آدم، الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك»[٣].

٢ - مواساة الآخرين

أشارت الآيات إلى بخل كثير من الناس ممن لم يتّبعوا سلوك وهدي الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وقد أكّدت الرّوايات في تفسيرها لهذه الآيات على المساواة والمواساة ومنها: ما جاء في تفسير علي بن إبراهيم في ذيل الآية: «لا يجوز للرجل أن يخص نفسه بشيء من المأكول دون عياله»[٤].

وروي أيضاً عن أبي ذر أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عن العبيد: «إنّما هم إخوانكم فاكسوهم ممّا تكسون واطعموهم ممّا تطعمون» فما رُئي عبد بعد ذلك إلاّ ورداؤه رداءه وإزارُه إزارَه من غير تفاوت[٥].

والذي نستفيده من الرّوايات المذكورة والآية المبحوثة حين تقول: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أنّ الإسلام يوصي بمراعاة المساواة كبرنامج أخلاقي بين أفراد العائلة الواحدة ومن يكون تحت التكفّل قدر الإمكان، وأن لا يجعلوا لأنفسهم فضلاً عليهم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) من أدعية التعقيبات لصلاة العصر، كما في كتب الدعاء.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٣٧٩.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٦٨، ح١٤٧.
(٥) المصدر السابق، ح١٤٨.

التفسير

لا تجعلوا لله شبيهاً:

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيد السابقة، وتشير إلى موضوع الشرك، وتقول بلهجة شديدة ملؤها اللوم والتوبيخ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ .

وليس لا يملك شيئاً فقط، بل ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يخلقوا شيئاً .

وهذه إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم في عبادتكم للأصنام، لأنّها لا تضرّكم ولا تنفعكم وليس لها أيُّ أثر على مصيركم، فالرزق مثلاً والذي به تدور عجلة الحياة سواء كان من السماء (كقطرات المطر وأشعة الشمس وغير ذلك) أو ما يستخرج من الأرض، إنّما هو خارج عن اختيار الأصنام، لأنّها موجودات فاقدة لأيّة قيمة ولا تملك الإرادة، وإن هي إلاّ خرافات صنعتها العصبية الجاهلية ليس إلاّ .

وجملة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ سبب لجملة «لا يملكون» أي: إنّها لا تملك شيئاً من الأرزاق لعدم استطاعتها الملك، فكيف بالخلق!

ثمّ تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

قال بعض المفسّرين: إنّ عبارة ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تشير إلى منطق المشركين في عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه أُولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنّما نعبد الأصنام لأنّنا لا نمتلك الأهلية لعبادة الله، فنعبدها لتقرّبنا إلى الله! وإنّ الله مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلاّ الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلاّ أن تتقرب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة الله!!

هذا الانحراف في التوجّه والتفكير، والذي قد يتجسم أحياناً على هيئة أمثال منحرفة، إنّما هو من الخطورة بمكان بحيث يطغى على كلّ الانحرافات الفكرية.

ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ التي هي من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكنة الوجود) ومليئة بالنواقص.

وإنّكم لو أحطتم علماً بعظمة وجوده الكريم وبلطفه ورحمته المطلقة، لعرفتم أنّه أقرب إليكم من أنفسكم ولما جعلتم بينكم وبينه سبحانه من واسطة أبداً .

فالله الذي دعاكم لأن تدعوه وتناجوه، وفتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لاينبغي أن تشبّهوه بجبّار مستكبر لا يتمكن أيّ أحد من الوصول إليه ودخول قصره إلاّ بعض الخواص ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

لقد أكّدنا في بحوثنا السابقة حول صفات الله عزّ وجلّ: أنّ منزلق التشبيه يعتبر من أخطر المنزلقات في طريق معرفة صفاته سبحانه وتعالى، ولا ينبغي مقايسة صفاته سبحانه بصفات العباد، لأنّ الباري جلّت عظمته وجود مطلق، وكلّ الموجودات بما فيها الإنسان محدودة، فهل يمكن تشبيه المطلق بالمحدود؟!

وإذا ما اضطررنا إلى تشبيه ذاته المقدسة بالنّور وما شابه ذلك فينبغي أن لا يغيب عن علمنا بأنّ هذا التشبيه ناقص على أيّة حال، وأنّه لا يصدق إلاّ من جهة واحدة دون بقية الجهات، فتأمل.

وبما أنّ أكثر الناس قد غفلوا عن هذه الحقيقة، وكثيراً ما يقعون في وادي التشبيه الباطل والقياس المرفوض فيبتعدون عن حقيقة التوحيد، فلذا نجد القرآن الكريم كثيراً ما يؤكّد على هذه المسألة، فمرّة يقول كما في الآية ٤ من سورة التوحيد، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وأخرى كما في الآية ١١ من سورة الشورى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وثالثة كما في الآية مورد البحث: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

ولعلّ عبارة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، في ذيل الآية مورد البحث، تشير إلى أنّ أغلب الناس في غفلة عن أسرار صفات الله.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

التّفسير

مثلان للمؤمن والكافر!

ضمن التعقيب على الآيات السابقة التي تحدثت عن: الإيمان، الكفر، المؤمنين، الكافرين والمشركين، تشخّص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين والكافرين) بضرب مثلين حيّين وواضحين.

يشبّه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأيّة خدمة لمولاه، ويشبّه المؤمنين بإنسان غني، يستفيد الجميع من إمكانياته... ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

والعبد ليس له قدرة تكوينية لأنّه أسير بين قبضة مولاه ومحدود الحال في كلّ شيء، وليس له قدرة تشريعية أيضاً لأنّ حق التصرف بأمواله (إنْ كان له مال) وكلّ ما يتعلق به هو بيد مولاه، وبعبارة أُخرى إنّه: عبد للمخلوق، ولا يعني ذلك إلاّ الأسر والمحدودية في كلّ شيء.

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذي يتمتع بأنواع المواهب والرزق الحسن: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ والإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ فاحكموا: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾.

قطعاً، لا... فإذنْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. الذي يكون عبده حُرّ وقادر ومنفق، وليس الأصنام التي يكون عبّادها أسرى وعديمو القدرة ومحددون ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثمّ يضرب مثلاً آخر لعبدة الأصنام والمؤمنين والصادقين، فيشبّه الأوّل بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء، ويشبّه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾[2] ولهذا.. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

---

(١) المثال المذكور عبارة عن تشبيه للمؤمن والكافر (على ضوء تفسيرنا)، إلاّ أنّ جمعاً من المفسّرين ذهب إلى أنّ العبد المملوك يرمز إلى الأصنام، وأنّ المؤمن الحر المنفق إشارة إلى الله سبحانه وتعالى (ويبدو لنا أنّ هذا التشبيه بعيد).

(٢) يقول الراغب في مفرداته: الأبكم هو الذي يولد أخرس، فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، ويقال: بكم عن الكلام، إذا أضعف عنه لضعف عقله فصار كالأبكم.

وعلى هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

أبكم (لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة).

وعاجز لا يقدر على شيء.

وكَلٌّ على مولاه.

وأينما يوجهه لا يأتِ بخير.

مع أنّ الصفات المذكورة ترتبط فيما بينها بعلاقة العلّة والمعلول ولكنّها ترسم صورة إنسان سلبي مائة في المائة حيث إنّ وجوده لا ينمّ عن أي خير أو بركة إضافة لكونه «كلٌّ» على أهله ومجتمعه.

ف ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟!

وأمّا الرجل الآخر في مثل الآية فهو صاحب دعوة مستمرّة إلى العدل وسائر على الصراط المستقيم، وما هاتان الصفتان إلاّ مفتاح لصفات أُخرى متضمنة لها، فصاحب هاتين الصفتين: لسانه ناطق، منطقه محكم، إرادته قويّة، شجاع وشهم، لأنّه لا يمكن أن يتصور لداعية العدل أن يكون: أبكم، جباناً وضعيفاً! ولا يمكن أن يكون من هو على صراط مستقيم إنساناً عاجزاً أبله وضعيف العقل، بل ينبغي أن يكون ذكيّاً، نبيهاً، حكيماً وثابتاً.

وتظهر المقايسة بين هذين الرجلين، ذلك البون الشاسع بين الاتجاهين الفكريين المختلفين لعبدة الأصنام من جهة، وعباد الله عزّوجلّ من جهة أُخرى، وما بينهم من تفاوت تربوي وعقائدي.

كما رأينا من ربط القرآن في بحوثه المتعلقة بالتوحيد ومحاربة الشرك مع بحث المعاد ومحكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وكأنّ الآية جواب على الإشكال العالق في أذهان وألسنة منكري المعاد الجسماني بقولهم: إنّنا إذا متنا وتبعثرت ذرات أجسامنا بين التراب، فمن يقدر على جمعها؟! وإذا ما افترضنا أنّ هذه الذرات قد جمعت وعدنا إلى الحياة، فَمَنْ سيعلم بأعمالنا التي طوتها يد النسيان فنحاسب عليها؟!

وبعبارة مختصرة تجيب الآية على كلّ أبعاد السؤال، فالله عزّوجلّ : «يعلم غيب السماوات والأرض» فهو حاضر في كلّ زمان ومكان، وعليه فلا يخفى عليه شيء أبداً،

ولا مفهوم لقولهم إطلاقاً، وكلّ شيء يعلمه تعالى شهوداً، وأمّا تلك العبارات والأحوال فإنّما تناسب وجودنا الناقص لا غير.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾(١).

وهذا المقطع القرآني يشير إلى رد إشكال آخر كان يطرحه منكرو المعاد بقولهم: مَنْ له القدرة على المعاد ومن يتمكن من إنجاز هذا الأمر العسير؟!

فيجيبهم القرآن، بأنّ هذا الأمر يبدو لكم صعباً لأنّكم ضعفاء، أمّا صاحب القدرة المطلقة فهو من السهولة والسرعة بحيث يكون أسرع ممّا تتصورون، وإنْ هو ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ منكم.

وبعد أن شبّه قيام الساعة بلمح البصر، قال: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، أيْ: إنّ التشبيه بلمح البصر جاء لضيق العبارة واللغة، وإنّما هو من السرعة بما لا يلحظ فيه الزمان أساساً، وما ذلك الوصف إلاّ لتقريبه لأذهانكم من حيث إنّ لمح البصر هو أقصر زمان في منطقكم.

وعلى أيّة حال، فالعبارتان إشارة حيّة لقدرة الله عزّوجلّ المطلقة، وبخصوص مسألتي المعاد والقيامة، ولهذا يقول الباري في ذيل الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بحوث

١ - الإنسان بين الحريّة والأسر

إنّ مسألة التوحيد والشرك ليست مسألة عقائدية ذهنية صرفة كما يتوهم البعض وذلك لما لها من آثار بالغة على كافة أصعدة الحياة، بل إنّ بصماتها لتراها شاخصة على كافة مرافق ومناحي الحياة، فالتوحيد إذا دخل قلباً أحياه وغرس فيه عوامل الرّشد والكمال، لانّه يُوسّع أفق نظر وتفكير الإنسان بشكل يجعله مرتبطاً بالمطلق.

والشرك على العكس من ذلك تماماً، حيث يجعل الإنسان يعيش في دوامة عالم محدود، وتتقاذف كيانه تلك الأصنام الحجرية والخشبية، أو ميول وشهوات الأصنام البشرية الضعيفة، فيختزل فكر وإدراك وقدرة وسعي الإنسان في دائرة تلك الأبعاد الضيّقة المتناقضة.

---

(١) لمح: (على وزن مسح) بمعنى ظهور البرق، ثمّ جاءت بمعنى النظر السريع، وينبغي الانتباه إلى أنّ «أو» هنا بمعنى (بل).

وقد صوّرت الآيات تصويراً دقيقاً لهذا الواقع، وجمعته في مثال تقريباً للأذهان وقالت: إنّ المشرك في الحقيقة أبكم وممارساته تنمّ عن خطل تفكيره وفقدانه للمنطق السليم، وقد قيّد الشرك إمكانياته فجعله خواء لا يقوى على القيام بأيّ شيء فانسلخت منه حريّته بعد أن أسلم نفسه أسيراً في يد الخرافات والأوهام.

وبسبب هذه الصفات المذمومة فهو كَلٌّ على المجتمع، لأنّه يستهين بكرامة وعزّة المجتمع من خلال تسليم مقدّراته بيد الأصنام أو المستعمرين.

وهو تابع أبداً ما دام لم يتحرر من ربقة الشرك، ولن يذوق طعم الحرية والاستقلال الحق إلاّ بعد أن يتوجه إلى التوحيد بصدق.

ونتيجة لمتبنياته الفكرية الضالة فلن يخترق طريقاً إلاّ ضاع به، ولن يجد الخير أينما حط ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

فكم هي الفاصلة بين ذلك الخرافي، ضيّق الأفق، الأسير، العاجز... وبين هذا الحر، الشجاع، الذي لا يكتفي بنهج خط العدل، بل يدعو إليه ليعم كلّ الناس؟!

الشخص الذي يمتلك الفكر المنطقي المنسجم مع نظام التوحيد الحاكم على الخليقة يسير دوماً على صراط مستقيم، وهذا السير سيوصله بأقرب وأسرع طريق إلى الهدف المنشود دون أن يفني ذخائر وجوده في طرق الضلال والانحراف.

وخلاصة القول: فالتوحيد والشرك ليسا أمراً عقائدياً ذهنياً بحتاً، بل نظام كامل لكلّ الحياة، وبرنامج واسع يشمل: فكر، وأخلاق وعواطف الإنسان ويتناول كذلك حياته الفردية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية والثقافية.

لو وضعنا مقايسة بين عرب الجاهلية المشركين والمسلمين في صدر الإسلام لوجدنا الفرق الواضح بين المسيرين...

الأشخاص الذين كانوا في: جهل، تفرقة، انحطاط، ولا يعرفون إلاّ محيطاً محدوداً مملوءاً بالفقر والفساد، نراهم قد أصبحوا وكلهم: وحدة، علم، قدرة... حتى أصبح العالم المتمدن في ذلك الزمان تحت تأثيرهم وقدرتهم... كلّ ذلك بسبب تغيير سير خطواتهم من الشرك إلى التوحيد.

٢ - دور العدل والاستقامة في حياة الإنسان

من الملفت للنظر إشارة الآيات إلى الدعوة للعدل والسير على الصراط المستقيم من بين صفات وشوؤن الموحّدين، لتبيان ما لهذين الأمرين من أهمّية في خصوص الوصول

إلى المجتمع الإنساني السعيد، وهو ما يتم من خلال امتلاك برنامج صحيح بعيد عن أيّ انحراف يميناً أو شمالاً (لا شرقي ولا غربي)، ومن ثمّ الدعوة لتنفيذ ذلك البرنامج المبني على أُصول العدل، كما وينبغي أن لا يكون البرنامج وقتياً ينتهي بانقضاء المدّة، بل كما يقول القرآن: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ (حيث يعطي الفعل المضارع معنى الاستمرار) برنامج مستمر ودائمي.

٣ - أمّا الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام

الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بخصوص تفسير هذه الآية تذكر أنّ: «الذي يأمر بالعدل أمير المؤمنين والأئمّة صلوات الله عليهم»(١).

وذكر بعض المفسّرين: أنّ جملة ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ نزلت في: حمزة وعثمان بن مظعون أو في عمار.

و﴿أَبْكَمُ﴾ في: أُبي بن مخلف وأَبي جهل ومَنْ شابههم.

وكلّ ذلك إنّما هو من جهة بيان مصاديق مهمّة وواضحة للآية، ولا يمكن بأيّة حال أن يكون سبباً للحصر، مع ملاحظة أنّ التفاسير التي تناولت الآيات المبحوثة مبنيّة على أساس بيان الفرق بين المشركين والمؤمنين، وليس بين الأصنام وبين الله عزّ وجلّ.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٧٠، ح١٦١.

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

التّفسير

أنواع النعم المادية والمعنوية

يعود القرآن الكريم مرّة أُخرى بعرض جملة أُخرى من النعم الإلهيّة كدرس في التوحيد ومعرفة الله، وأوّل ما يشير في هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله.. ويقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

فمن الطبيعي أنّكم في ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كلّ شيء، ولكنْ عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زوّدكم الباري سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾. لكي يتحرك حس الشكر للمنعم في أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ملاحظات:

وهنا نطرح الملاحظات التالية:

١ - بداية الإدراك عند الإنسان

تصرّح الآية بوضوح بأنّ الإنسان حين يولد فإنّه لا يدرك من الأشياء شيئاً، وكلّ ما يدركه إنّما هو بعد الولادة وبواسطة الحواس التي منحه الله إيّاها.

ويواجهنا الإشكال التالي: إنّ الإنسان مزوّد بجملة من العلوم الفطرية كالتوحيد ومعرفة الله، بالإضافة إلى بعض البديهيات مثل (عدم اجتماع النقيضين، الكل أكبر من الجزء، حسن العدل، قبح الظلم... الخ) وكل هذه العلوم قد أودعت في قلوبنا وتولّدت معنا.. فكيف يقول القرآن إنّ الإنسان حين يخرج من محيط الجنين ليس له من العلم شيئاً؟

وهل علمنا بوجودنا (والذي هو علم حضوري) لم يكن فينا وإنّما نكتسبه عن طريق السمع والبصر والفؤاد؟

وللإجابة على هذا الإشكال، نقول: إنّ العلوم البديهية والضرورية والفطرية لم تكن في الإنسان بصورة فعلية حين ولادته، وإنّما على شكل استعداد ووجود بالقوّة.

وبعبارة أُخرى: إنّنا عند الولادة نكون في غفلة عن كلّ شيء حتى عن أنفسنا التي بين جنبينا، إلاّ أنّ مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوّة لا الفعل، وبالتدريج تحصل لأعيننا قوّة النظر ولآذاننا قوة السمع ولعقولنا القدرة على الإدراك والتجزئة والتحليل، فننعم بهذه العطايا الإلهيّة الثلاث التي بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيراً من التصورات ونودعها في العقل لكي ننشىء منها مفاهيم كليّة، ومن ثمّ نصل إلى الحقائق العقلية بطريق (التعميم) و(التجريد).

وتصل قدرتنا الفكرية إلى إدراك أنفسنا (باعتبارها علماً حضورياً) ومن ثمّ تتحرر العلوم التي أُودعت فينا قوّةً لتصبح علوماً بالفعل، ونجعل بعد ذلك من العلوم البديهية والضرورية سلّماً للوصول إلى العلوم النظرية وغير البديهية.

وعلى هذا... فالعموم والكليّة التي نطقت بها الآية (من أنّنا لا نعلم شيئاً عند الولادة) ليس لها استثناء ولا تخصيص.

٢ - نعمة وسائل المعرفة

ممّا لا شك فيه عدم إمكانية استيعاب ودخول العالم الخارجي في وجودنا، والحاصل الفعلي هو رسم صورة الشيء الخارجي في الذهن من خلال الوسائل المعيّنة لذلك، وعليه... فمعرفتنا بالعالم الخارجي تكون عن طريق أجهزة خاصّة منها السمع والبصر.

وتنقل هذه الآلات والأجهزة كلّ ما تلتقطه من الخارج لتودعه في أذهاننا وعقولنا، ونقوم بواسطة العقل والفكر بعملية التجزئة والتحليل...

ولذلك بيّنت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لكي تحصلوا على حقائق الوجود وتدركوها.

ونشاهد تقديم ذكر السمع على البصر في الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، ولعلّ ذلك لسبق الأذن في العمل على العين بعد الولادة، حيث إنّ العين كانت في ظلام دامس (في رحم الأم) ونتيجة لشدّة أشعة النّور (بعد الولادة) فإنّها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، وإنّما تتدرج في اعتيادها على مواجهة النّور حتى تصل للحالة الطبيعية المعتادة، ولذا نجد الوليد في بداية أيّامه الأُولى مغلق العين. أمّا

بخصوص الأذن.. فثمة مَنْ يعتقد بأنّ لها القدرة على السماع (قليلا أو كثيراً) وهي في عالم الأجنّة وأنّها تسمع دقات قلب الأم وتعتاد عليها!

أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنّما يرى بعينه الأشياء الحسيّة فقط، في حين أنّ الأذن تعتبر وسيلة للتربية والتعليم في جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق سواء ما كان منها في دائرة الحس أو ما كان خارجها، وليس للعين هذه السعة، وصحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلاّ أنّ القراءة ليست عامّة لكلّ الناس وسماع الكلمات أمر عام.

أمّا سبب ورود «السمع» بصيغة المفرد و«الأبصار» بصيغة الجمع، فقد بيّناه عند تفسيرنا للآية ٧ من سورة البقرة.

وثمّة ملاحظة أُخرى ينبغي ذكرها تتعلق بكلمة «الفؤاد»، فقد جاءت هنا بمعنى القلب (العقل) الذي يعيش حالة التوقّد، وبعبارة أُخرى: يعيش حالة التّفسير والتحليل والابتكار.

يقول الراغب في مفرداته: (الفؤاد كالقلب، لكنْ يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد). ومن المسلّم به أنّ هذا الموضوع يحصل للإنسان بعد حصوله على تجارب كافية.

وعلى أيّة حال، فآلات المعرفة وإن لم تنحصر بهذه الأجهزة الثلاثة، إلاّ أنّها أفضل الأجهزة جميعاً، لأنّ علم الإنسان إمّا أن يكون عن طريق التجربة أو عن طريق الاستدلالات العقلية، ولا تجربة بدون السمع والبصر، ولا استدلالات عقلية من غير الفؤاد (العقل).

٣ - ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

تعتبر نعمة أجهزة تحصيل العلم من أفضل النعم التي وهبها الله للإنسان، فلا يقتصر دور العين والأذن (مثلاً) على النظر إلى آثار الله في خلقه، والاستماع إلى أحاديث أنبياء الله وأوليائه، وتفهم ذلك وتدركه بالتحليل والاستنتاج، بل إنّ كلّ خطوة نحو التكامل والتقدم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الوسائل الثلاث.

والغاية من إعطاء هذه الوسائل إنّما هي شكر الواهب، لأنّه من خلالها يمكن الحصول على العلم والمعرفة اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات.

وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان ليقف عاجزاً أمام حق شكر المولى وليس له إلاّ الاعتذار.

وتستمر الآية التالية في بيان أسرار عظمة الله عزّوجلّ في علم الوجود، وتقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾.

«الجو» لغةً: هو الهواء (كما ذكره الراغب في مفرداته)، أو ذلك الجزء من الهواء البعيد عن الأرض (كما ورد في تفسير مجمع البيان وتفسير الميزان وكذلك تفسير الآلوسي).

وبما أنّ الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور في الهواء بالتسخير، أي: إنّ الباري سبحانه قد جعل في أجنحة الطيور قوّة، وفي الهواء خاصيّة، تمكنان الطيور من الطيران في الجوّ على رغم قانون الجاذبية.

ويضيف قائلاً: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

صحيح أنّ ثمّة أُمور مجتمعة تعطي للطيور إمكانية التحليق والطيران، مثل: الخاصيّة الطبيعية للأجنحة، قدرة عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة... ولكنْ، مَنْ الذي خلق هذه الهيئة وتلك الخواص؟

ومَنْ الذي أقرّ هذا النظام الدقيق؟

فهل هي الطبيعة العمياء، أم مَنْ يعلم بجميع الخواص الفيزيائية للأجسام وأحاط علمه المطلق بكلّ هذه الأُمور؟؟

فإذا ما رأينا نسبة هذه الأُمور إلى الله، لأنّ منبع وجودها منه تعالى، وأمثال هذا التعبير في نسبة الأسباب والعلل إلى الله كثيرة في القرآن الكريم.

وفي نهاية الآية، يأتي قوله عزّ مَنْ قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنّهم ينظرون إلى هذه الأُمور بعين باصرة وأذن سميعة ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوى إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

بحوث

١ - أسرار تحليق الطيور في السماء

إنّنا لا نشعر بأهمية الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثرة مشاهدتها ولعدم انشغالنا بالتدقيق العلمي عند المشاهدة، حتى باتت هذه العادة كحجاب يغطّي تلك العظمة، ولو استطاع أيٌّ منّا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيرة من حوله.

وتحليق الطيور في السماء لا تبتعد عن هذه الحقيقة، فحركة جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبية من دون أيّة صعوبة، وارتفاعه بسرعة حتى ليغيب عن أعيننا في لحظات لأمر يدعو إلى التأمل والدراسة.

ولو دققنا النظر في بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته وحالاته التي تساعده على الطيران، فهيكله العام مدبب ليقلل من مقاومة الهواء على بدنه لأقصى حدّ ممكن، وريشه خفيف مجوّف، وصدره مسطّح يمكنه من ركوب أمواج الهواء، وطبيعة أجنحته الخاصّة تمنحه القوة الرافعة[1] التي تساعده على الارتفاع، وكذلك الطبيعة الخاصّة لذيل الطائر التي تعينه على تغيير اتجاه طيرانه وسرعة التحوّل يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل (كذيل الطائرة)، وذلك التناسق الموجود بين النظر وبقية الحواس التي تشترك جميعاً في عملية الطيران. . . وكلّ ذلك يعطي للطائر إمكانية الطيران السريع.

ثمّ إنّ طريقة تناسل الطير (وضع البيض)، وعملية تربية الجنين ونموّه تجري خارج رحم الأُم ممّا يرفع عنها حالة الحمل والتي تعيق (بلا شك) عملية الطيران. . وثمّة أُمور كثيرة تعتبر من العوامل المؤثّرة فيزيائياً في عملية الطيران.

وكلّ ما ذكر يكشف عن وجود علم وقدرة فائقين لخالق ومنظّم بناء وحركة هذه الكائنات الحيّة، وكما يقول القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

إنّ عجائب الطيور لأكثر من أنْ تسطر في كتاب أو عدّة كتب، فهناك مثلاً الطيور المهاجرة وما يكتنف رحلاتها من عجائب، وحياة هذه الطيور مبنيّة على التنقل بين أرجاء المعمورة المختلفة حتى أنّها لتقطع المسافة ما بين القطبين الشمالي والجنوبي على طولها، وتعتمد في تعيين اتجاهات رحلاتها على إشارات رمزية تمكّنها من عبور الجبال والأودية والبحار، ولا يعيق تحركها رداءة الجو أو حلكة الظلام في الليالي التي يتيه فيها حتى الإنسان مع ما يملك.

---

(١) «القوة الرافعة»: اصطلاح فيزيائي حديث يستعمل في حقل الطائرات، وخلاصته: أنّ الجسم إذا كان له سطحين متفاوتين بالاستواء (كجناح الطائرة حيث سطحه الأسفل مستوياً والأعلى محدباً) وتحرك أفقياً فستتولد فيه قوّة خاصّة ترفعه إلى الأعلى، تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل والذي يكون أكثر منه على السطح الأعلى، لأنّ الأسفل مساحته أصغر، والسطح العلوي أوسع مساحة، وهذا ما تعتمد عليه حركة الطائرات. . وإذا ما دققنا النظر في أجنحة الطيور فسنرى هذه الظاهرة بوضوح - فتأمل. وعموماً، ينبغي القول: ما بناء الطائرات إلاّ تقليد لأجسام الطيور في جوانب مختلفة!

ومن غريب ما يحدث في رحلاتها أنّها: قد تنام أحياناً بين عباب السماء وهي طائرة! وقد تستغرق بعض رحلاتها عدّة أسابيع دون توقف ليل نهار وبدون أن يتخلل تلك المدّة أيّة فترة لتناول الطعام! حيث إنّها تناولت الطعام الكافي قبل بدئها حركة الرحيل (بإلهام داخلي) ويتحول ذلك الطعام إلى دهون تدخرها في أطراف بدنها!

وثمّة أسرار كثيرة تتعلق في: بناء الطير لعشّه، تربية أفراخه، كيفية التحصن من الأعداء، كيفية تحصيل الغذاء اللازم، تعاون الطيور فيما بينها بل ومع غير جنسها أيضاً... إلخ، ولكلّ ممّا ذكر قصّة طويلة.

نعم، وكما تقول الآية المباركة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢ - ترابط الآيات

لا شك أنّ هناك ترابطاً بين الآية أعلاه والتي تتحدث عن كيفية طيران الطيور وما قبلها من الآيات، يتمثل في الحديث عن نعم الله عزّوجلّ في عالم الخليقة، وعن أبعاد عظمته وقدرته سبحانه وتعالى، ولكن لا يبعد أن يكون ذكر تحليق الطيور بعد ذكر آلات المعرفة يحمل بين طيّاته إشارة لطيفة في تشبيه تحليق هذه الطيور في العالم المحسوس بتحليق الأفكار في العالم غير المحسوس، فكلٌّ منها يحلق في فضائه الخاص وبما لديه من آلات.

يقول الإمام علي عليه السلام في خطبته الشقشقية: «ينحدر عنّي السيل ولا يرقى إليّ الطير».

وكذا في كلماته عليه السلام القصار في بيان فضيلة مالك الأشتر رحمه الله، ذلك القائد الشجاع: «لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر»(١).

وعدّ في هذه السورة، خمسين نعمة كلّها تدعو إلى معرفة الله جلّ وعلا وتدفع إلى شكره، ولذلك ذهب البعض لتسميتها بـ(سورة النِّعْم).

وتستمر الآيات في الإشارة إلى النعم الإلهيّة حتى نصل إلى الآية الثّالثة (مورد البحث) لتقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

وحقّاً إنّ هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من (البيتوتة): وهي في الأصل بمعنى التوقف ليلاً، وأُطلقت كلمة (بيت) على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسكن ليلاً.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٤٤٣.

ويلزمنا هنا التنويه بالملاحظة التالية: إنّ القرآن الكريم لم يقل: إنّ الله جعل بيوتكم سكناً لكم، وإنّما ذكر كلمة ﴿مِّنۢ﴾ التبعيضية أوّلاً وقال: ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ وذلك لدقة كلام الله التامة في التعبير، حيث إنّ الدار أو الحجرة الواحدة تلحقها مرافق أُخرى كالمخزن والحمام وغيرها.

وبعد أنْ تطرّق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾(١).

وهي من الخفّة بحيث ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ - أي رحيلكم - وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾.

بل وجعل لكم: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وكما هو معلوم فإنّ الشعر الذي يحمله بدن الحيوان بعضه خشن تماماً كشعر الماعز ويطلق عليه (شعر)، وجمعه (أشعار)، وبعضه الآخر أقل خشونة بقليل وهو (الصوف) وجمعه (أصواف)، (والوبر) أقل نعومة من الصوف وجمعه (أوبار)، وبديهي أنّ الاختلاف الحاصل في طبيعته وخشونته يؤدّي إلى تنوع الاستفادة منها، فمن بعضها تصنع الخيام، ومن البعض الآخر يصنع اللباس، ومن الثّالث الفرش وهكذا...

أمّا عن المقصود بـ «الأثاث» و«المتاع» في الآية فقد ذكر المفسّرون لذلك جملة احتمالات.

قال بعضهم: «الأثاث» بمعنى الوسائل المنزليّة، وهي في الأصل من (أثّ) بمعنى الكثرة والتجمع، وأطلقت على الوسائل والأدوات المنزليّة لكثرتها عادة.

ويطلق «المتاع» على كلّ ما يتمتع به الإنسان ويستفيد منه (فالمصطلحان إشارة إلى شيء واحد من جهتين مختلفتين).

ومع ملاحظة ما ذكر فاستعمال المصطلحين على التوالي يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

واحتمل البعض ومنهم «الفخر الرازي»: «الأثاث» بمعنى الأغطية والملابس، و«المتاع» بمعنى الفرش، إلاّ أنّه لم يذكر أيَّ دليل لتفسيره.

---

(١) إنّ صناعة الخيام من الجلود قليلة في عصرنا المعاش، ولكنّ الآية المباركة أرادت أن تظهر أنّ هذا النوع من الخيام كان من أفضل الأنواع في تلك الأزمان، واختص بالذكر دون بقية الأنواع ربما لكونها أكثر مأمناً أمام عواصف الصحراء الحارقة في الحجاز.

واحتمل «الآلوسي» في (روح المعاني): «الأثاث» إشارة إلى الوسائل المنزليّة، و«المتاع» إشارة إلى الوسائل المستخدمة في التجارة.

ويبدو أنّ ما قلناه أوّلاً أقرب من الجميع.

وذكرت وجوه عديدة في تفسير ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ولكنّ الظاهر من مقصودها هو: استفيدوا من هذه الوسائل في هذا العالم حتى نهاية الحياة فيه، وهو إشارة إلى عدم خلود الحياة في هذا العالم وما فيه من وسائل ولوازم وأنّ كلّ ما فيه محدود.

٣ - الظلال، المساكن، الأغطية

ويشير القرآن الكريم إلى نعمة أُخرى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾.

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد أُطلقت على المغارات وأماكن الاختفاء وفي الجبال.

ونرى إطلاق كلمة «الظلال» في الآية لتشمل كلّ الظلال، سواء كانت ظلال الأشجار أو المغارات الجبلية أو ظل أيّ شيء آخر، باعتبارها إحدى النعم الإلهيّة (وحقيقة الأمر كذلك)، فكما يحتاج الإنسان إلى النّور في حياته فكثيراً ما يحتاج إلى الظل كذلك، لأنّ النّور إذا ما استمر في إشراقه فسوف تكون الحياة مستحيلة، ويكفينا أن نلمس ما لظل الكرة الأرضية (والمسمى بالليل) على حياتنا، وكذلك دور الظلال الأُخرى خلال النهار في مختلف الأمكنة والحالات.

وكأنّ ذكر نعمة «الظلال» و«أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و«الخيام» في الآية السابقة، للإشارة إلى: أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة.. واحدة تعيش في المدن والقرى وتستفيد من بناء البيوت لسكناها، وأُخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة أُولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى.. ولم يترك الباري جلّ شأنه المجموعة الثّالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل في طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم.

وقد لا يدرك سكنة المدن ما لوجود المغارات الجبلية من أهميّة، ولكنّ عابري الصحاري والمسافرين العزّل والرعاة وكلّ مَنْ حرم من نعمة البيوت الثابتة أو السيارة (مؤقتاً أو دائماً) عندما يكونون تحت سطوة حرارة الصيف اللاهبة أو تحت وطأة زمهرير الشتاء القارص، سيعرفون عندها أهميّة تلك المغارات، وخصوصاً كونها باردة في

الصيف ودافئة في الشتاء، وهي ملاذ ينجي من موت قريب - في بعض الأحيان - للإنسان أو الحيوانات.

وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وثمّة ألبسة أُخرى تستعمل لحفظ أبدانكم في الحروب ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

«السرابيل»: جمع «سربال» (على وزن مثقال)، بمعنى الثوب من أيِّ جنس كان (على ما يقول الراغب في مفرداته)، ويؤيده في ذلك أكثر المفسّرين، ولكنّ البعض منهم قد اعتبر معنى السربال هو: لباس وغطاء لبدن الإنسان، إلاّ أنّ المشهور هو المعنى الأوّل.

وكما هو معلوم، فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر في حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تُلبِس الإنسان ثوب الكرامة وتقي بدنه من الأخطار الموجّهة إليه، فلو تعرّى الإنسان لكان أكثر عرضة للجراحات وما شابهها، تخصيص الآية المباركة للخاصيّة الأُولى بالذكر دون غيرها لأهمّيتها المميزة.

ولعلّ ذكر خصوص الحر في الآية جاء تماشياً مع ما شاع في لغة العرب من ذكر أحد المتضادين اختصاراً، فيكون الثّاني واضحاً بقرينة وجود الأوّل، أو لأنّ المنطقة التي نزل فيها القرآن الكريم كان دفع الحرِّ فيها ذا أهميّة بالغة عند أهلها.

وثمّة احتمال آخر: أنْ يكون ذلك بلحاظ خطورة الإصابة بمرض ضربة الشمس المعروفة، وبتعبير آخر: إنّ تحمل الإنسان لحرِّ أشعة الشمس الشديدة أقل من تحمله ومقاومته للبرد، لأنّ حرارة البدن الداخلية يمكن لها أن تعين الإنسان على تحمل البرودة لحدٍّ ما.

وفي ذيل الآية.. يقول القرآن مذكّراً: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تطيعون أمره.

وطبيعي جدّاً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تنبّهه للنعم المختلفة التي تحيط بوجوده، وأنّ ضميره سيستيقظ ويتجه نحو المنعم قاصداً زيادة معرفته به إذا ما امتلك أدنى درجات حسن الشكر.

ومع أنّ بعض المفسّرين قد حصروا كلمة «النعمة» في الآية ببعض النعم: كنعمة الخلق، وتكامل العقل، أو التوحيد، أو نعمة وجود النّبي ﷺ إلاّ أنّ معنى الكلمة أوسع من ذلك، ليشمل كلّ النعم (المذكور منها أو غير المذكور)، وما التخصيص في حقيقته إلاّ من قبيل التّفسير بالمصداق الواضح.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة.. يقول عزّوجلّ : إنّهم لو أعرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأنّ وظيفتك ابلاغهم: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ومع كلّ ما يمتلكه المتكلم من منطق سليم ومدعم بالاستدلال الحق والجاذبية، إلاّ أنّه لا يؤثّر في المخاطب ما لم يكن مستعداً لاستماع وقبول كلام المتكلم، وبعبارة أُخرى: إنّ (قابلية المحل) شرط في حصول التأثّر.

وعلى هذا، فإنْ لم يسلم لك أصحاب القلوب العمياء ومَنْ امتاز بالتعصب والعناد، فذلك ليس بالأمر الجديد، وما عليك إلاّ أن تصدع ببلاغ مبين وأنْ لا تقصر في ذلك والمراد من هذا المقطع القرآني هو مواساة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وتسليته.

وتكميلاً للحديث... يضيف القرآن الكريم القول: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

فعلّة كفرهم ليست في عدم معرفتهم بالنعم الإلهيّة وإنّما بحملهم تلك الصفات القبيحة التي تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى والعناد في معاداة الحق، وتقديم منافعهم المادية على كلّ شيء، وتلوّثهم بمختلف الشهوات، بالإضافة إلى مرض التكبّر والغرور.

ولعلّ ما جاء في آخر الآية ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

وقد جذبت كلمة ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ انتباه واهتمام المفسّرين وراحوا يبحثون في سبب ذكرها... حتى توصّل المفسّرون إلى أسباب كثيرة كلٌّ حسب زاوية اهتمامه في البحث، ولكن ما ذكرناه يبدو أقرب من كلّ ما ذكروه، وخلاصته: إنّ أكثرية الكفّار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم، فهم القلّة قياساً إلى أُولئك.

ويشاهد في القرآن الكريم مقاطع قرآنية تطلق الكفر على ذلك النوع الناشىء من التكبّر والعناد، ومنها ما يتحدث عن الشيطان كما جاء في الآية ٣٤ من سورة البقرة ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

واحتمل البعض: أنّ المقصودين بـ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ مَنْ تمّت عليهم الحجّة في قبال أقليّة لم تتم عليهم الحجّة بعد، وهذا المعنى يمكن أن يعود إلى المعنى الأوّل.

بحثان

١ - كلمات المفسّرين

ما نطالعه في كلمات المفسّرين المتعددة بخصوص تفسير ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ في الآية لا يعدو غالباً من قبيل التّفسير بالمصداق، في حين أنّ مفهوم ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ من السعة بحيث يشمل جميع النعم المادية والمعنوية، حتى أنّ النّبي ﷺ يعتبر أحد المصاديق الحيّة لنعمه سبحانه وتعالى.

وروايات أهل البيت عليهم السلام تؤكّد على أنّ المقصود بـ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ هو وجود الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا فاز مَنْ فاز»[(١)].

فواضحٌ أَنَّ السعادة والنجاح لا يمكن إدراكهما إلاّ عن طريق قادة الحق وهم الأئمّة عليهم السلام فوجودهم إذنْ من أوضح وأفضل النعم الإلهيّة (وقد ذكر ﷺ هنا لأنّه أحد المصاديق الجليّة لنعم الله سبحانه).

٢ - صراع الحقّ مع الباطل

لقد توقف بعض المفسّرين عند كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، لأنّ استعمالها عادةً كأداة عطف مع وجود فاصلة بين أمرين، ولذلك فثمّة فاصلة بين معرفتهم لنعم الله وبين إنكارهم للنعم، فقالوا: إنّ الهدف من هذا التعبير تبيان ما ينبغي عليهم من الاعتراف بالتوحيد بعد معرفتهم بنعمة الله، وكان عليهم أن يذعنوا لذلك الإعتراف، إلاّ أنّهم ساروا في طريق الباطل! فاستبعد القرآن عملهم وعبّر عن ذلك بكلمة ﴿ثُمَّ﴾.

ونحتمل أنّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا إشارة إلى معنى خفي، خلاصته: أنّ دعوة الحقّ عندما تتوغل إلى دواخل الروح الإنسانية عن طريق أصولها المنطقية السليمة، فإنّها ستصطدم مع عوامل السلب والإنكار الموجودة فيه أحياناً، فيستغرق ذلك الجدال أو الصراع الداخلي مدّة تتناسب مع حجم قوّة وضعف تلك العوامل، فإنْ كانت عوامل النهي والإنكار أقوى فإنها ستغلبها بعد مدّة. . . وعبّر القرآن عن تلك الحالة بكلمة ﴿ثُمَّ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٧٢، ح١٦٤.

والآيتان ٦٤ و ٦٥، من سورة الأنبياء ضمن عرضهما لقصّة إبراهيم عليه السلام تتحدثان عن قوّة احتجاج نبي الله إبراهيم عليه السلام بعد أن حطّم أصنامهم جميعها إلاّ كبيرها ممّا تركهم في الوهلة الأولى يغوصون في تفكير عميق، ممّا حدا بهم لأن يلوموا أنفسهم وكادوا أن يهتدوا إلى الحق لولا وجود تلك الرواسب من العوامل السلبية في نفوسهم (التعصب، الكبر، العناد) التي أمالت كفّة انحرافهم على قبول دعوة الحق، فعادوا من جديد إلى ما كانوا عليه، ولوصف تلك الحالة نرى القرآن قد استعمل كلمة ﴿ثُمَّ﴾ أيضاً: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وعلى هذا فمعنى «الكافرون» يتوضّح بشكل أدق عند وجود كلمة ﴿ثُمَّ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

التّفسير

عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين

بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة جحود منكري الحق وعدم اعترافهم بالنعم الإلهيّة، يتطرق في هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهي الشديد الذي ينتظر أُولئك في عالم الآخرة، لينبّه الغافل من سباته، فعسى أنْ يعيد النظر في مواقفه المنحرفة

قبل فوات الأوان، فيقول أوّلاً: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾(١).

وهل ثمّة حاجة إلى شاهد مع وجود علم الله المطلق؟

قد يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال عند قراءة الآية، وتتّضح الإجابة على ذلك من خلال التدقيق في الملاحظة التالية: إنّ الأُمور غالباً ما يقصد فيها الجانب النفسي والروحي، والإنسان كلّما أيقن بوجود الشهود والمراقبين عليه من قبل الله سبحانه، ازداد في محاسبة نفسه، وأقل ما يمكن أن يذكر بهذا الصدد ما سيصيبه من خجل يوم مواجهتهم مع ما اقترفت يداه.

وبخصوص تلك المحكمة، تأتي الآية لتقول: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وهل من الممكن أن لا يأذن الله للمجرمين في الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، وذلك لعدم الحاجة للسان في ذلك اليوم العظيم، لأنّ الجوارح من رجل وأذن وعين وكذلك الجلد، بل وحتى الأرض التي أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلّها ستشهد عليه، ويمكن استفادة هذا المعنى من آيات قرآنية أُخرى كالآية ٦٥ من سورة يس والآية ٣٦ من سورة المرسلات.

بل ويزاد على عدم السماح لهم بالكلام بـ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(٢).

لأنّ هناك محل مواجهة نتائج الأعمال وليس يوم العمل والإصلاح، وهم حينها كالثمرة المقطوفة التي انتهى زمن نموّها.

وتشرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم ودخولهم في العذاب، وكيف أنّهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارةً، ويطلبون إمهالهم مدّة تارةً أُخرى، فتقول: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

والآيتان أشارتا إلى أربع مراحل لحالات المجرمين (وهو ما نشاهد شبيهه في حياتنا الدنيا):

المرحلة الأُولى: سعي المجرم للتنصّل والتزوير لتبرئة نفسه، وإن لم يحصل على هدفه يسعى إلى المرحلة التالية.

---

(١) الـ«يوم» هنا ظرفٌ متعلق بفعل مقدّر، وأصل العبارة: (وليذكروا) أو (واذكروا).

(٢) ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من الاستعتاب، وهي في الأصل من (العتاب) وهو التحدث بلهجة شديدة ولوم، فيكون مفهوم الاستعتاب،: أن يطلب المذنب من صاحب الحق عقابه فيصبح سبباً لسكون غضبه وحصول رضاه، ولهذا اعتبر البعض؛ أنّ الاستعتاب بمعنى الاسترضاء.. في حين أنّ حقيقة مفهومه ليس الاسترضاء وإنّما هو لازم له.

المرحلة الثّانية: يستعتب صاحب الحق ويمتص غضبه وصولاً لرضاه، وإذا لم ينفعه ذلك ينتقل إلى المرحلة الثّالثة.

المرحلة الثّالثة: يطلب تخفيف العذاب، فيقول: عاقبني ولكنْ خفف العذاب! وإن لم يُستجب له لعظم ذنبه فإنّه سيطلب الطلب الأخير...

المرحلة الرّابعة: يطلب الإمهال والتأجيل، وهو المحاولة الأخيرة للنجاة من العقاب...

إلاّ أنّ القرآن الكريم يجيب عن طلبات المجرمين بعدم حصول إذن الدفاع عنهم، ولا يمكنهم تحصيل رضا المولى جلّ وعلا، ولا يخفف عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، لأنّ أعمالهم من القباحة وذنوبهم من العظمة تسد كلّ أبواب الاستجابة.

وفي الآية التالية... يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، وكيف أنّهم سيحشرون في جهنّم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية والبشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾، فهذه المعبودات هي التي وسوست لنا للوقوع في درك العمل القبيح، وهي شريكتنا في الجرم أيضاً، فارفع عنّا بعض العذاب واجعله لها!

وعندها... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، فلم نكن شركاء لله، ومهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

وهنا ينبغي التذكير ببعض الملاحظات:

١ - إنّ استعمال كلمة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ بدلاً من «شركاء الله» للدلالة على أنّ الأصنام ما كانت في حقيقتها شريكة لله عزّ وجلّ، بل إنّ عبدة الأصنام والمشركين هم الذين نسبوها بهذا النسب خيالاً وكذباً، فمن الحري أن تنسب لهم وليس إلى الله سبحانه.

ويؤيد ذلك ما مرّ علينا فيما سبق من تخصيص عبدة الأصنام بعض مواشيهم ومحصولاتهم الزراعية مشاركة بينهم وبين الأصنام أي إنّهم جعلوا الأصنام شريكة لهم في هذه الانعام.

٢ - يستفاد من الآية أنّ الأصنام تحضر عرصة يوم القيامة أيضاً، وليس المعبودات البشرية فقط كفرعون والنمرود.

والآية (٩٨) من سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ تؤيد ذلك.

٣ - وتظهر الآية قول المشركين يوم القيامة من أنّهم كانوا يعبدون هذه الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ وهذا القول يتضمن صدقهم في قولهم فلا معنى لتكذيب الأصنام لهم في هذه المقولة.

ولكن من الممكن أنْ يكون التكذيب بمعنى عدم لياقة الأصنام لأن تكون معبودة من دون الله. أو أنّ المشركين قد أضافوا جملة أُخرى مفادها أنّ هذه المعبودات قد دعتنا ووسوست لنا لنعبدها، فتكذّبهم الأصنام بأنّها لا تملك القدرة أصلاً على الوسوسة والإيحاء.

٤ - لعلّ ورود جملة ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ بدل «قالوا لهم» لعدم قدرة الأصنام على التكلّم بنفسها، فيكون قولها عبارة عن إلقاء من قبل الله فيها، أي إنّ الله عزّوجلّ يلقي إليها، وهي بدورها تلقيه إلى المشركين.

وتأتي الآية التالية لتبيّن أنّ الجميع بعد أنْ يقولوا كلّ ما عندهم، ويسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة أُخرى. . . ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾(١) مسلمين لله، مذعنين لعظمته جلّ وعلا، لأنّ غرور وتعصب الجاهلين قد أُزيل برؤية الحق الذي لا مفرّ من تصديقه والإذعان إليه.

وفي هذه الأثناء، وحيث كلّ شيء جليّ كوضوح الشمس. . ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ . فتبطل كذبتهم بوجود شريك لله، وكذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعة الأصنام لهم عند الله، عندما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأيّ عمل، بل ويرونها محشورة معهم في نار جهنم!.

وبهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبّاً حول انحراف المشركين الضالين وغرقهم في درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه. . وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، وإنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾.

فهم شركاء في جرم الآخرين إضافة لما عليهم من تبعات أعمالهم، لأنّهم كانوا عاملاً مؤثراً للفساد على الأرض وإضلال خلق الله بالصدّ عن سبيله.

---

(١) احتمل بعض المفسّرين كصاحب الميزان: أنّ إظهار التسليم هنا كان من جانب عبدة الأصنام فقط دون الأصنام، ويؤيد ذلك ما ورد في ذيل الآية.

وذكرنا مراراً وانطلاقاً من منطق الاجتماع الإسلامي أنّ مَنْ يسن سنّة (حسنة أم سيئة) فهو شريك العاملين بها ثواباً أو عقاباً، والحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح: «مَنْ استن بسنّة عدل فاتبع كان له أجر مَنْ عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء، ومَنْ استن سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر مَنْ عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

وعلى أيّة حال، فالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة توضّح مسؤولية الرؤساء والموجّهين أمام الله وأمام الناس.

وتتناول الآية أيضاً مسألة وجود الشهيد في كلّ أُمّة (والذي ذكر قبل آيات معدودة)، ولمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ووجود هؤلاء الشهود، وعلى الخصوص من الأشخاص الذين ينهضون لهذه المهمّة من وسط نفس الأمم، لا يتعارض مع علم الله تعالى وإحاطته بكلّ شيء، بل هو للتأكيد على مراقبة أعمال الناس، وللتنبيه على وجود المراقبة الدائمة بشكل قطعي.

ومع أنّ عموم الحكم في هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامي والنّبي ﷺ، إلاّ أنّ القرآن الكريم في مقام التأكيد قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾.

وقيل إنّ المقصود بـ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ المسلمون الذين يعيشون في عصر النّبي ﷺ، والنّبي ﷺ هو الرقيب والناظر والشاهد على أعمالهم، ومن الطبيعي أن يكون ثمّة شخص آخر يأتي بعد النّبي ﷺ ليكمل طريقه فيكون شهيداً على الأُمّة (وهو من وسطها)، وينبغي أن يكون طاهراً من كلّ ذنب وخطيئة، ليتمكن من إعطاء الشهادة حقّها.

ولهذا.. اعتمد بعض المفسّرين (من علماء الشيعة والسنّة) على كون الآية بمثابة الدليل على وجود شاهد، حجّة، عادل، في كلّ عصر وزمان. وضرورة وجود الإمام المعصوم في كلّ زمان، وهذا المنطق يتفق مع مذهب أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم من المذاهب الإسلامية.

ولعلّ لهذا السبب عرض الفخر الرازي في تفسيره عند مواجهته لهذا الإشكال توجيهاً لا يخلو من إشكال أيضاً حيث قال: (فحصل من هذا أنّ عصراً من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، وذلك الشهيد لابدّ أن يكون غير جائز الخطأ وإلاّ لافتقر إلى

شهيد آخر، ويمتد ذلك إلى غير النهاية، وذلك باطل، فيثبت أنّه لابدّ في كلّ عصر من أقوام تقوم الحجّة بقولهم، وذلك يقتضي أن يكون إجماع الأمّة حجّة)[1].

لو أنّ الفخر الرازي تجاوز قليلاً حدود عقائده لم يكن ليسقط في هكذا تناقض وعناد فاحش. لأنّ القرآن يقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وليس مجموع الأُمّة شاهداً على كلّ فرد من أفراد الأُمّة.

وكما ذكرنا عند تفسيرنا للآية ٤١ من سورة النساء أنّ هناك احتمالين آخرين في تفسير ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾:

الأوّل: أنّ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى شهداء الأمم السابقة من الأنبياء عليهم السلام والأوصياء، فيكون النّبي شاهداً على هذه الأمة وشاهداً على الأنبياء السابقين أيضاً.

الثّاني: المقصود من الشاهد هنا هو الشاهد العملي، أيْ: شخص يكون وجوده قدوة وميزاناً لتمييز الحق من الباطل.

(ولمزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآية ٤١ من سورة النساء).

وبما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل وجامع للناس بما تتم فيه الحجّة عليهم، ويصح فيه مفهوم النظارة والمراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

بحثان

١ - القرآن تبيان لكل شيء

من أهم ما تطرقت له الآيات المباركات هو أنّ القرآن مبيّن لكلّ شيء.

«تبيان» (بكسر التاء أو فتحها) له معنىً مصدري[2]، ويمكن الاستدلال بوضوح على كون القرآن بياناً لكلّ شيء من خلال ملاحظة سعة مفهوم «كل شيء»، ولكنْ بملاحظة أنّ القرآن كتاب تربية وهداية للإنسان وقد نزل للوصول بالفرد والمجتمع - على كافة الأصعدة المادية والمعنوية - إلى حال التكامل والرقي، يتّضح لنا أنّ المقصود من «كل

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٣٠، ص٩٨.

(٢) نقل «الآلوسي» في (روح المعاني) عن بعض الأدباء: أنّ جميع المصادر على وزن (تفعال) تفتح تاؤها إلاّ مصدرين: «تبيان» و«تلقاء». ويعتبرها بعض مصدراً، وبعض آخر يعتبرها اسم مصدر.

شيء» هو كلّ الأُمور اللازمة للوصول إلى طريق التكامل، والقرآن ليس بدائرة معارف كبيرة وحاوية لكلّ جزئيات العلوم الرياضية والجغرافية والكيميائية والفيزيائية. . . الخ، وإنّما القرآن دعوة حق لبناء الإنسان، وصحيح أنّه وجّه دعوته للناس لتحصيل كلّ ما يحتاجونه من العلوم، وصحيح أيضاً أنّه قد كشف الستار عن الكثير من الأجزاء الحساسة في جوانب علمية مختلفة ضمن بحوثه التوحيدية والتربويّة، ولكنْ ليس ذلك الكشف هو المراد، وإنّما توجيه الناس نحو التوحيد والتربية الربانية التي توصل الإنسان إلى شاطىء السعادة الحقّة من خلال الوصول لرضوانه سبحانه.

ويشير القرآن الكريم تارةً إلى جزئيات الأُمور والمسائل، كما في بيانه لأحكام كتابة العقود التجارية وسندات القرض، حيث ذكر ١٨ حكماً في أطول آية قرآنية وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة[١].

وتارةً أُخرى يعرض القرآن المسائل الحياتية للإنسان بصورها الكلّية، كما في الآية التي ستأتي قريباً، حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ﴾.

وكذلك عموم مفهوم الوفاء بالعهد في الآية ٣٤ من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾، وعموم مفهوم الوفاء بالعقد في الآية الأُولى من سورة المائدة: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِۚ﴾، ولزوم أداء حق الجهاد كما جاء في الآية ٧٨ من سورة الحج: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ وكمفهوم إقامة القسط والعدل كما جاء في الآية ٢٥ من سورة الحديد: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾، وعموم مفهوم رعاية النظم في كلّ الأُمور في الآيات ٧، ٨، ٩ من سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ وعموم مفهوم الامتناع عن فعل الفساد في الأرض كما في الآية ٨٥ من سورة الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، بالإضافة إلى الدعوة للتدبّر والتفكّر والتعقل التي وردت في آيات كثيرة في القرآن الكريم، وأمثال هذه التوجيهات العامة كثيرة في القرآن، لتكون للإنسان نبراساً وهّاجاً في كافة مجالات الفكر والحياة والإنسان. . وكلّ ذلك يدلل بما لا يقبل التردد أو الشك على أنّ القرآن الكريم ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

بل وحتى فروع هذه الأوامر الكليّة لم يهملها الباري سبحانه، وإنّما عيّن لها مَنْ

(١) راجع ذيل تفسير الآية (٢٨٢) من سورة البقرة.

يؤخذ منه التفاصيل، كما تبيّن لنا ذلك الآية ٥٩ من سورة الحشر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

والإنسان كلّما سبح في بحر القرآن الكريم وتوغّل في أعماقه، واستخرج برامج وتوجيهات توصله إلى السعادة، اتّضحت له عظمة هذا الكتاب السماوي وشموله.

ولهذا، فَمَنْ استجدى القوانين من ذا وذاك وترك القرآن، فهو لم يعرف القرآن، وطلب من الغير ما هو موجود عنده.

وإضافةً لتشخيص الآية المباركة مسألة أصالة واستقلال تعاليم الإسلام في كلّ الأُمور، فقد حَمَّلَتْ المسلمين مسؤولية البحث والدراسة في القرآن الكريم باستمرار ليتوصّلوا لاستخراج كلّ ما يحتاجونه.

وقد أكّدت الرّوايات الكثيرة على مسألة شمول القرآن ضمن تطرقها لهذه الآية وما شابهها من آيات.

منها: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك شيئاً تحتاج إليه العباد - حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن - إلاّ وقد أنزله الله فيه»[١].

وفي رواية أُخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله صلى الله عليه وآله وجعل لكل شيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدل عليه، وجعل على مَنْ تعدى ذلك الحد حدّاً»[٢].

وجاء في الرّوايات الشريفة الإشارة إلى هذه المسألة أيضاً. وهي أنّه مضافاً إلى ظواهر القرآن وما يفهمه منها العلماء وسائر الناس، فإنّ باطن القرآن بمثابة البحر الذي لا يدرك غوره، وفيه من المسائل والعلوم ما لا يدركها إلاّ النّبي صلى الله عليه وآله وأوصياؤه بالحق، ومن هذه الرّوايات ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ما مِنْ أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»[٣].

إنّ عدم إدراك العامة لهذا القسم من العلوم القرآنية الذي يمكننا تشبيهه بـ(عالم اللاشعور) لا يمنع من التحرّك في ضوء (عالم الشعور) وعلى ضوء ظاهره والاستفادة منه.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٧٤، ح١٧٦. (٢) المصدر السابق، ح١٧٧.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٥، ح ١٨٠.

٢ - مراحل الهداية الأربع

إنّ الآية أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن:

١ - تبياناً لكلّ شيء.

٢ - هدى.

٣ - رحمة.

٤ - بشرى للمسلمين.

ولو أمعنا النظر لوجدنا ثمّة ارتباطاً منطقياً واضحاً بين هذه التعابير، فكلٌّ منها يرمز إلى مرحلة معيّنة، المرحلة الأُولى في مسير الهداية تستلزم البيان والتعليم، وبعدها تأتي مرحلة الهداية، ومن ثمّ يأتي العمل الموجب للرحمة، وأخيراً البشرى بثواب الله لمن آمن وعمل صالحاً وسرور جميع السائرين على طريق الحق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

التّفسير

أكمل برنامج اجتماعي

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أنّ القرآن فيه تبيان لكلّ شيء، جاءت هذه الآية المباركة لتقدّم نموذجاً من التعليمات الإسلامية في شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، وقد تضمّنت الآية ستة أُصول مهمّة، الثلاثة الأوَل منها ذات طبيعة إيجابية ومأمور بالعمل بها، والبقية ذات صفة سلبية منهّي عن ارتكابها.

فتقول في البدء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

وهل يمكن تصور وجود قانون أوسع وأشمل من «العدل»؟!

فالعدل هو القانون الذي تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود، وحتى السماوات والأرض فهي قائمة على أساس العدل (بالعدل قامت السماوات والأرض)(١).

---

(١) «عوالي اللآلي»، ج٤، ص١٠٢.

والمجتمع الإنساني الذي هو جزء صغير في كيان هذا الوجود الكبير، لا يقوى أن يخرج عن قانون العدل، ولا يمكن تصور مجتمع ينشد السلام يحظى بذلك دون أن تستند أركان حياته على أسس العدل في جميع المجالات.

ولمّا كان المعنى الواقعي للعدل يتجسد في جعل كلّ شيء في مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدّي على حقوق الآخرين، ما هي إلاّ صور لخلاف أصل العدل.

فالإنسان السليم هو ذلك الذي تعمل جميع أعضاء جسمه بالشكل الصحيح (بدون أيّة زيادة أو نقصان). ويحلّ المرض فيه وتتبيّن عليه علائم الضعف والخوار بمجرّد تعطيل أحد الأعضاء، أو تقصيره في أداء وظيفته.

ويمكن تشبيه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنّه سيمرض ويعتل إنْ لم يُراع فيه العدل.

ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق في كلّ الأوقات - الطبيعية والاستثنائية - في عملية بناء المجتمع السليم، إلاّ أنّها ليست العامل الوحيد الذي يقوم بهذه المهمّة، ولذلك جاء الأمر بـ«الإحسان» بعد «العدل» مباشرة ومن غير فاصلة.

وبعبارة أوضح: قد تحصل في حياة البشرية حالات حسّاسة لا يمكن معها حلّ المشكلات بالاستعانة بأصل العدالة فقط، وإنّما تحتاج إلى إيثار وعفو وتضحية، وذلك ما يتحقق برعاية أصل «الإحسان».

وعلى سبيل المثال: لو أنّ عدواً غدّاراً هجم على مجتمع ما، أو وقعت زلزلة أو فيضان أو عواصف في بعض مناطق البلاد، فهل من الممكن معالجة ذلك بالتقسيم العادل لجميع الطاقات والأموال، وتنفيذ سائر القوانين العادية؟! هنا لابدّ من تقديم التضحية والبذل والإيثار لكلّ مَنْ يملك القدرة المالية، الجسمية، الفكرية، لمواجهة الخطر وإزالته، وإلاّ فالطريق مهيّأ أمام العدو لإهلاك المجتمع كلّه، أو أنّ الحوادث الطبيعية ستدمّر أكبر قدر من الناس والممتلكات.

والأصلان يحكمان نظام بدن الإنسان أيضاً بشكل طبيعي، ففي الأحوال العادية تقوم جميع الأعضاء بالتعاضد فيما بينها، وكلٌّ منها يؤدّي ما عليه من وظائف بالاستعانة بما تقوم به بقية الأعضاء (وهذا هو أصل العدالة).

ولكنْ... عندما يصاب أحد الأعضاء بجرح أو عطل يتسبّب في فقدانه القدرة على أداء وظيفته، فإنّ بقية الأعضاء سوف لن تنساه، لأنّه توقف عن عمله، بل تستمر في تغذيته ودعمه... الخ، (وهذا هو الإحسان).

وفي المجتمع كذلك، حيث ينبغي للمجتمع السليم أن يحكمه هذان الأصلان.

وما جاء في الرّوايات وفي أقوال المفسّرين، من بيانات مختلفة في الفرق بين العدل والإحسان، لعلّ أغلبها يشير إلى ما قلناه أعلاه.

فعن علي عليه السلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل»(١) وهذا ما أشرنا إليه.

وقال البعض: إنّ العدل: أداء الواجبات، والإحسان: أداء المستحبات.

وقال آخرون: إنّ العدل: هو التوحيد، والإحسان: هو أداء الواجبات.

(وعلى هذا التّفسير يكون العدل إشارة إلى الاعتقاد، والإحسان إشارة إلى العمل).

وقال بعض: العدالة: هي التوافق بين الظاهر والباطن، والإحسان: هو أنْ يكون باطن الإنسان أفضل من ظاهره.

واعتبر آخرون: أنّ العدالة ترتبط بالأُمور العمليّة، والإحسان بالأُمور الكلامية.

وكما قلنا فإنّ بعض هذه التفاسير ينسجم تماماً مع التّفسير الذي قدّمناه أعلاه، وبما أنَّ البعض الآخر لا ينافيه فيمكن والحال هذه الجمع بينهما.

أمّا مسألة ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فتندرج ضمن مسألة «الإحسان» حيث إنّ الإحسان يشمل جميع المجتمع، بينما يخص هذا الأمر جماعة صغيرة من المجتمع الكبير وهم ذوو القربى، وبلحاظ أنّ المجتمع الكبير يتألف من مجموعات، فكلّما حصل في هذه المجموعات انسجام أكثر، فإنّ أثره سيظهر على كلّ المجتمع، والمسألة تعتبر تقسيماً صحيحاً للوظائف والمسؤوليات بين الناس، لأنّ ذلك يستلزم من كل مجموعة أن تمدّ يد العون إلى أقربائها (بالدرجة الأُولى) ممّا سيؤدّي لشمول جميع الضعفاء والمعوزين برعاية واهتمام المتمكنين من أقربائهم.

وعلى ما نجده في بعض الأحاديث من أنّ المقصود بـ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هم أهل بيت النّبي صلى الله عليه وآله وذريته من الأئمّة عليهم السلام، والمقصود بـ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو أداء الخمس، فإنّه لا يقصد منه تحديد مفهوم الآية أبداً، بل هو أحد المصاديق لذلك البارزة لذلك المفهوم، ولا يمنع إطلاقاً من شمول مفهوم الآية الواسع.

لو اعتبرنا مفهوم ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بمعنى مطلق الأقرباء، سواء كانوا أقرباء العائلة

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٣١.

والنسب، أو أقرباء من وجوه أُخرى، فسيكون للآية مفهوم أوسع ليشمل حتى الجار والأصدقاء وما شابه ذلك (ولكنّ المعروف في ذلك قربى النسب).

ولإعانة المجموعات الصغيرة (الأقرباء) بناء محكم من الناحية العاطفية، إضافة لما لها من ضمانة تنفيذية.

وبعد ذكر القرآن الكريم للأُصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للأُصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾.

وتحدّث المفسّرون كثيراً حول المصطلحات الثلاثة «الفحشاء»، «المنكر»، «البغي»، إلاّ أنّ ما يناسب معانيها اللغوية بقرينة مقابلة الصفات مع بعضها الآخر يظهر أنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفيّة، و«المنكر»: إشارة إلى الذنوب العلنيّة، و«البغي»: إشارة إلى كلّ تجاوز عن حق الإنسان، وظلم الآخرين والاستعلاء عليهم.

قال بعض المفسّرين(١): إنّ منشأ الانحرافات الأخلاقية ثلاث قوى: القوّة الشهوانية، القوّة الغضبية، والقوة الوهمية الشيطانية.

أمّا القوّة الشهوانية فإنّما تُرغّب في تحصيل اللذائذ الشهوانية والغرق في الفحشاء، والقوة الغضبية تدفع الإنسان إلى فعل المنكرات وإيذاء سائر الناس، وأمّا القوّة الوهمية الشيطانية فتوجد في الإنسان الاستعلاء على الناس والترفّع وحبّ الرياسة والتقدّم والتعدّي على حقوق الآخرين.

وأشار الباري سبحانه في المصطلحات الثلاثة أعلاه إلى طغيان غرائز الإنسان، ودعا إلى طريق الحق والهداية ببيان جامع لكلّ الانحرافات الأخلاقية.

وفي آخر الآية المباركة يأتي التأكيد مجدداً على أهميّة هذه الأصول الستة: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أشمل آيات الخير والشر

إنّ محتوى هذه الآية المباركة له من قوّة التأثير ما جعل كثيراً من الناس يصبحون مسلمين على بيّنة من أمرهم، وها هو «عثمان بن مظعون» أحد أصحاب رسول الله ﷺ حيث قال: «كنت أسلمت استحياءً من رسول الله ﷺ لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام، ولم يقرّ الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٠، ص١٠٤.

نحو السماء كأنّه يستفهم شيئاً، فلمّا سُرّي عنه سألته عن حاله فقال: نعم، بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وقرأها عليَّ إلى آخرها، فقرّ الإسلام في قلبي. وأتيت عمّه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش، اتبعوا محمّداً ﷺ ترشدوا، فإنّه لا يأمركم إلاّ بمكارم الأخلاق، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إنْ كان محمّد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربّه فنعم ما قال»[١].

ونقرأ في حديث آخر أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال: (يا ابن أخي[٢] أعد، فأعاد ﷺ فقال الوليد: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسلفه لمغدق، وما هو قول البشر»[٣].

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «جماع التقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[٤].

ونستفيد من هذه الأحاديث - وأحاديث أُخرى - أنّ الآية تعتبر دستور عمل إسلامي عام، وتمثل أحد مواد القانون الأساسي للإسلام في كلّ زمان ومكان، حتى روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه كان يقرأ الآية المباركة قبل الانتهاء من خطبة الجمعة ثمّ يقول بعدها: «اللّهم اجعلنا ممن يذكر فتنفعه الذكرى»[٥] ثمّ ينزل من على المنبر.

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى»، ومكافحة الانحرافات الثلاثة «الفحشاء والمنكر، والبغي» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من كلّ اضطراب، وخالية من أيّ سوء وفساد، وإذا روي عن ابن مسعود (الصحابي المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير والشر) فهو للسبب الذي ذكرناه.

ويذكّرنا محتوى الآية المباركة بالحديث المروي عن النّبي ﷺ بقوله: «صنفان من أُمتي إذا صلحا صلحت أُمتي، وإذا فسدا فسدت أُمتي، فقيل: يا رسول الله، مَنْ هما؟ قال: الفقهاء والأمراء».

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٨٠، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) قال هذا لأنه عم أبي جهل وكلاهما من قريش.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٨١، ذيل الآية مورد البحث.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٧٨، ح١٩٦.
(٥) أصول الكافي على ما نقل عنه تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٧٧، ح١٩٢.

وذكر المحدّث القمّي في (سفينة البحار) حديثاً - بعد نقله لهذا الحديث - مروياً عن رسول الله ﷺ أنّه قال:

«تكلم النّار يوم القيامة ثلاثة: أميراً، وقارئاً، وذا ثروة من المال، فتقول للأمير: يا مَنْ وهب الله له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما تزدرد الطير حبّ السمسم، وتقول للقارىء: يا مَنْ تزين للناس وبارز الله بالمعاصي، فتزدرده، وتقول للغني: يا مَنْ وهب الله له دنيا كثيرة واسعة فيضاً وسأله الحقير اليسير قرضاً، فأبى إلاّ بخلاً، فتزدرده».

وقد بحثنا موضوع العدالة باعتبارها ركناً إسلامياً مهمّاً جدّاً ضمن تفسيرنا للآية ٨ من سورة المائدة.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

سبب النّزول

يقول المفسّر الكبير العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان) في شأن نزول أوّل آية من هذه الآيات أنّها نزلت في الذين بايعوا النّبي ﷺ على الإسلام (وكان من المحتمل أن ينقض بعضهم البيعة لقلّة المسلمين وكثرة الأعداء)، فقال سبحانه مخاطباً لهم: لا يحملنّكم قلّة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة).

التّفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان

بعد أن عرض القرآن الكريم في الآية السابقة بعض أصول الإسلام الأساسية (العدل، والإحسان، وما شابههما)، يتناول في هذه الآيات قسماً آخر من تعاليم الإسلام المهمّة (الوفاء بالعهد والأيمان).

يقول أوّلاً: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾، ثمّ يضيف: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

إنّ ظاهر معنى «عهد الله» - مع كثرة ما قال المفسّرون فيه - هو: العهود التي يبرمها الناس مع الله تعالى (وبديهي أنّ العهد مع النّبي عهد مع الله أيضاً)، وعليه فهو يشمل كلّ عهد إلهي وبيعة في طريق الإيمان والجهاد وغير ذلك.

بل إنّ التكاليف الشرعية التي يعلنها النّبي ﷺ هي نوع من العهد الإلهي الضمني، وكذا الحال بالنسبة للتكاليف العقلية، لأنّ إعطاء العقل والإدراك من الله عزّوجلّ للإنسان إنّما يرافقه عهد ضمني، وهكذا يدخل الجميع في المفهوم الواسع لعهد الله.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أي: القسم) التي وردت في الآية - والتي عرض فيها المفسّرون آراء كثيرة - فلها معنى واسع، ويتّضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث إنّه يشمل العهود التي يعقدها الإنسان مع الله عزّوجلّ ، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان في تعامله مع خلق الله.

وبعبارة أُخرى: يدخل بين إطار هذه الجملة كلّ عهد يبرم تحت اسم الله وباستعمال صيغة القسم، وما يؤكّد ذلك ما تبعها من عبارة تفسيرية تأكيدية ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

ونتيجة القول: أنّ جملة ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ خاصّة، وجملة ﴿وَلَا تَنقُضُواْ الْأَيْمَانَ﴾ عامّة.

وحيث إنّ الوفاء بالعهد أهم الأُسس في ثبات أيّ مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره بأُسلوب يتّسم بنوع من اللوم والتوبيخ، فتقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾(١).

---

(١) «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنى حلّ خيوط الصوف والشعر بعد برمها، وتطلق أيضاً على اللباس الذي يصنع من الصوف والشعر، وأمّا محل إعرابها في الآية فهو (حال) للتأكيد على قول البعض، فيما اعتبرها آخرون (مفعولاً ثانياً) لفعل «نقضت» أيْ (جعلت غزلها أنكاثاً).

والآية تشير إلى (رايطة) تلك المرأة التي عاشت في قريش زمن الجاهلية، وكانت هي وعاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار في غزل ما عندهن من الصوف والشعر، وبعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، ولهذا عرفت بين قومها بـ(الحمقاء).

فما كانت تقوم به (رايطة) لا يمثّل عملاً بلا ثمر - فحسب - بل هو الحماقة بعينها، وكذا الحال بالنسبة لمن يبرم عهداً مع الله وباسمه، ثمّ يعمل على نقضه، فهو ليس بعابث فقط، وإنّما هو دليل على انحطاطه وسقوط شخصيته.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[1]، أي لا تنقضوا عهودكم مع الله بسبب أنّ تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا في الخيانة والفساد.

وهذا دليل على ضعف شخصية الفرد، أو نفاقه وخيانته حينما يرى كثرة أتباع المخالفين فيترك دينه القويم وينخرط في المسالك الباطلة التي يتبعها الأكثرية.

واعلموا ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

واليوم الذي تكونون فيه كثرة وأعداؤكم قلّة ليس بيوم اختبار وامتحان، بل امتحانكم في ذلك اليوم الذي يقف فيه عدوّكم أمامكم وهو يزيدكم عدداً بأضعاف مضاعفة وأنتم قلّة.

وعلى أيّة حال. . ستتّضح النتيجة في الآخرة ليلاقي كلّ فرد جزاءه العادل: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من هذا الأمر وغيره.

والآية التالية تجيب على توهّم، غالباً ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهي والتأكيد على الالتزام بالعهود والوظائف، وخلاصته: هل أنّ الله لا يقدر على إجبار الناس جميعاً على قبول الحق؟ فتقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ من حيث الإيمان والعمل على الحق بشكل إجباري، ولكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل والتسامي ولا فيه أفضلية للإنسان في قبوله الحق، وعليه فقد جرت سُنّة الله بترك الناس أحراراً ليسيروا على طريق الحق مختارين.

---

(١) «الدّخل»: (على وزن الدغل)، بمعنى الفساد والتقلب ومنها أُخذ معنى (الداخل)، وينبغي الالتفات إلى أنّ جملة ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ - على ما قلناه من تفسير - جملة حاليّة، إلاّ أنّ بعض المفسّرين اعتبرها جملة استفهامية، والتفسير الأوّل يوافق ظاهر الآية.

ولا تعني هذه الحرية بأنّ الله سيترك عباده ولا يعينهم في سيرهم، وإنّما بقدر ما يقدمون على السير والمجاهدة سيحصلون على التوفيق والهداية والسداد منه جلّ شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمة الرّبانية، فتراهم كلّما طال المقام بهم ازدادوا ضلالاً.

ولهذا يواصل القرآن الكريم القول بـ: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

ولكنّ الهداية الإلهيّة أو الإضلال لا تسلب المسؤولية عنكم، حيث إنّ الخطوات الأُولى على عواتقكم، ولهذا يأتي النداء الرباني: ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وتشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، وتؤكّد على تحميلهم مسؤولية تلك الأعمال، وتعتبر من القرائن الواضحة في تفسير مفهوم الهداية والإضلال الإلهيين وأنّ أيّاً منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبداً.

وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً (راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة).

وتأكيداً على مسألة الوفاء بالعهد والثبات في الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمّة في ثبات المجتمع) يقول القرآن: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي وسيلة للخداع والنفاق، لأنّ في ذلك خطرين كبيرين:

الأوّل: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾، لأنّ مَنْ يبرم عهداً أو يطلق قسماً ونيّته أنْ لايفي بذلك فسوف لا يعوّل عليه الناس ولا يثقون به، ومثله كمن وضع قدمه على أرض قد بدت له أنّها صلبة ومحكمة، إلاّ أنّها زلقة في الواقع، وستكون سبباً في انزلاقه وسقوطه.

الثّاني: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ في هذه الدنيا ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود والأيمان شياع سوء ظن الناس وتنفّرهم من الدين الحق، وتشتت الصفوف وفقدان الثقة حتى لا يرغب الناس في الإسلام، وإنْ عقدوا معكم عهداً فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بالوفاء به، وهذا ما يؤدّي لمساوئ ومفاسد كثيرة، وبروز حالة التخلّف في الحياة الدنيا.

وأمّا على صعيد الحياة الأُخرى فإنّه سيكون سبباً للعقاب والعذاب الإلهي.

بحثان

١ - فلسفة احترام العهد

كما هو معلوم فإنّ الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع تمثل أهم دعائم رسوخ

المجتمع، بل من دعائم تشكيل المجتمع وإخراجه من حالة الآحاد المتفرقة وإعطائه صفة التجمّع، بالإضافة لكون أصل الثقة المتبادلة يعتبر السند القويم للقيام بالفعاليات الاجتماعية والتعاون على مستوى واسع.

والعهد والقسم من مؤكّدات حفظ هذا الارتباط وهذه الثقة، وإذا تصورنا مجتمعاً كان نقض العهد فيه هو السائد، فمعنى ذلك انعدام الثقة بشكل عام في ذلك المجتمع، وعندها سوف يتحول المجتمع إلى آحاد متناثرة تفتقد الارتباط والقدرة والفاعلية الاجتماعية.

ولهذا نجد أنّ الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تؤكّد باهتمام بالغ على مسألة الوفاء بالعهد والأيمان، وتعتبر نقضها من كبائر الذنوب.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهمّية هذا الموضوع في الإسلام والجاهلية واعتبره من أهم المواضيع في قوله عند عهده لمالك الأشتر: «فإنّه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر»(١).

ونجد في أحكام الحرب الإسلامية أنّ إعطاء الأمان من قبل فرد واحد من جيش المسلمين لشخص أو كتيبة من كتائب العدو يوجب مراعاة ذلك على كلّ المسلمين!

يقول المؤرخون والمفسّرون: من جملة الأُمور التي جعلت الكثير من الناس في صدر الإسلام يعتنقون هذا الدين الإلهي العظيم هو التزام المسلمين الراسخ بالعهود والمواثيق ورعايتهم لأيمانهم.

وما لهذا الأمر من أهمّية بحيث دفع سلمان الفارسي لأنّ يقول: (تهلك هذه الأُمّة بنقض مواثيقها)(٢).

أي إنّ الوفاء بالعهد والميثاق كما أنّه يوجب القدرة والنعمة والتقدّم، فنقضهما يؤدّي إلى الضعف والعجز والهلاك.

ونجد في التاريخ الإسلامي أنّ المسلمين عندما غلبوا جيش الساسانيين في عهد

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٨٣ ذيل الآية مورد البحث.

الخليفة الثّاني وأسروا الهرمزان قائد جيش فارس، وجاؤوا به إلى عمر، قال له عمر: ما حجتك وما عذرك في انتقاضك مرّة بعد أُخرى؟

فقال: أخاف أنْ تقتلني قبل أنْ أخبرك.

قال: لا تخف ذلك، واستسقى ماءً فأتي به في قدح غليظ.

فقال: لو مت عطشاً لم أستطع أنْ أشرب في مثل هذا! فأتي به في إناء يرضاه..

فقال: إنّي أخاف أنْ أُقتل وأنا أشرب.

فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه...

فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش..

فقال: لا حاجة لي في الماء، إنّما أردت أنْ أستأمن به.

فقال عمر له: إنّي قاتلك.

فقال: قد أمنتني.

فقال: كذبت.

قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته.

فقال عمر: يا أنس، أنا أُؤمن قاتل مجزأة بن ثور، والبراء بن مالك! ولله لتأتيّن بمخرج أو لأعاقبنّك.

قال: قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرني، ولا بأس عليك حتى تشربه..

وقال له من حوله مثل ذلك...

فأقبل على الهرمزان وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلاّ أنْ تسلم فأسلم[1].

٢ - ما لا يقبل في نقض العهود

إنّ قبح نقض العهد من الشناعة بحيث لا أحد على استعداد لأن يتحمل مسؤوليته بصراحة إلاّ النادر من الناس حتى أنّ ناقض العهد يلتمس لذلك أعذاراً وتبريرات مهما كانت واهية لتبرير فعلته، وقد ذكرت لنا الآيات أعلاه نموذجاً لذلك.. فبعض المسلمين يتذرعون بحجج واهية ككثرة الأعداء وقلّة المؤمنين للتنصّل من عهودهم مع الله والنّبي ﷺ فتكون مواقفهم متزلزلة، في حين أنّ الأكثرية من حيث العدد لا تمثل

(١) الكامل في التاريخ، ج٢، ص٥٤٩.

القدرة والقوة في واقع الحال، وانتصار القلّة المؤمنة على الكثرة غير المؤمنة من الشواهد المعروفة في تأريخ البشرية، ثمّ إنّ حصول القدرة والقوة للأعداء - على فرض حصولها - لا تسوّغ لأن تكون مبرراً مقبولاً لنقض العهد، ولو دققنا النظر في الأمر لرأينا في واقعه أنّه نوع من الشرك والجهل بالله عزّوجلّ.

وقد تجسّد هذا الموضوع بعينه في عصرنا الحاضر ولكنْ بصورة أُخرى..

فقسم من الدول الإسلامية الصغيرة في الظاهر قد تنصّلت عن أداء وظائفها في نصرة المؤمنين لخوفها من الدول الاستعمارية الكبرى، فتقدّم في حساباتها قدرة البشر الهزيلة على قدرة الله المطلقة، وتلتجىء إلى غير الله وتخشى غيره، وتنقض عهدها مع بارئها، وكلّ ذلك من بقايا الشرك وعبادة الأصنام.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

سبب النزول

نقل المفسّر الكبير العلاّمة الطبرسي عن ابن عباس قوله: إنّ رجلاً من حضرموت يقال له عيدان الأشرع قال: يا رسول الله، إنّ امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطع من أرضي فذهب بها منّي، والقوم يعلمون إنّي لصادق، ولكنّه أكرم عليهم منّي، فسأل رسول الله امرأ القيس عنه فقال: لا أدري ما يقول، فأمره أنْ يحلف. فقال عيدان: إنّه فاجر لا يبالي أنْ يحلف، فقال: إنْ لم يكن لك شهود فخذ بيمينه، فلمّا قام ليحلف أنظره فانتظر فنزل قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ...﴾ الآيتان فلمّا قرأهما رسول الله ﷺ قال امرؤ القيس: أمّا ما عندي فينفد، وهو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه ولم أدرِ كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء ومثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الآية.

التفسير

ثمن الحياة الطيّبة

جاءت الآية الأُولى من هذه الآيات لتؤكّد على قبح نقض العهد مرّة أُخرى ولتبيّن عذراً آخر من أعذار نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقة إلى عذر الخوف من كثرة الأعداء تأتي هذه الآية لتطرح ما للمصلحة الشخصية (المادية) من أثر سلبي على حياة الإنسان. ولهذا تقول: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي إنّ قيمة الوفاء بعهد الله لا تدانيها قيمة، ولو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه لا يساوي قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد الله.

وتضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ويبيّن القرآن في الآية التالية سبب الأفضلية بقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ لأنّ المنافع المادية وإنْ بدت كبيرة في الظاهر، إلاّ أنّها لا تعدو أنْ تكون فقاعات على سطح ماء، في حين أنّ الجزاء والثواب الإلهي النابع من ذات الله المطلقة والمقدّسة أعلى وأفضل من كلّ شيء.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم﴾ - وعلى الأخص في الثبات على العهد والأيمان - ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنّ التعبير بـ«أحسن» دليل على أنّ أعمالهم الحسنة ليست بدرجة واحدة، فبعضها حسن والبعض الآخر أحسن، ولكنّ الله تعالى يجزي الجميع بأحسن ما كانوا يعملون، وهو ذروة اللطف والرحمة الربانية، كما لو مثّلنا لذلك بشيء من حياتنا كأنْ يعرض بائع أنواعاً من البضائع المتفاوتة في النوعية، فقسم منها بضائع جيّدة، وقسم آخر بضائع رديئة، والبقية بين الاثنين، فيأتي مشترٍ ليأخذ الجميع بسعر النوعية الجيّدة!

ولا تخلو جملة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ من الإشارة إلى أنّ الصبر والثبات في السير على طريق الطاعة، وخصوصاً حفظ العهود والإيمان هي من أفضل أعمال الإنسان.

وقد روي عن علي عليه السلام قوله: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه»[1].

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٨٢.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم بعد ذلك - على صورة قانون عام - نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان في هذه الدنيا وفي الآخرة، فيقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وعليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الاجتماعية أو ما شابه ذلك.

و«الحياة الطيبة» في هذه الدنيا هي النتاج الطبيعي للعمل الصالح النابع من الإيمان، أيْ أنّ المجتمع البشري سيعيش حينها حياةً هادئةً مطمئنةً ملؤها الرفاه والسلم والمحبّة والتعاون، بل وكلّ ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانية، وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانية التي تملأ الدنيا ظلاماً وظلامات.

وعلاوة على كلّ ما تقدم فإنّ الله سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون (كما تقدّم تفسيره).

بحوث

١ - منابع الخلود

إنّ طبيعة الحياة في هذا العالم المادي هي الفناء والهلاك، فأقوى الأبنية وأكثر الحكومات دواماً وأشدّ البشر قدرة لا يعدون أن يصيروا في نهاية أمرهم إلى الضعف فالفناء، وكلّ شيء معرّض للتلف بلا استثناء في هذا الأمر.

أمّا لو تمكنت الكائنات من أنْ توجد لها ارتباطاً على نحو ما مع الذات الإلهيّة المقدّسة، وتبقى تعمل لأجلها وفي سبيلها، فإنّها والحال هذه ستصطبغ بصبغة الخلود، لأنّ ذات الله المقدّسة أبدية وأزلية وكلّ من ينتسب إليها يحصل على صبغة الأبدية.

فالأعمال الصالحة أبدية، الشهداء لهم حياة أبدية، والأنبياء والعلماء المخلصون والمجاهدون في سبيل الله يبقى ذكرهم خالداً في ذاكرة التاريخ.. لأنّهم يحملون الصبغة الإلهيّة.

ولهذا، تذكّرنا الآيات أعلاه وتدعونا لأنْ ننقذ ذخائر وجودنا من الفناء، ونودعها في صندوق لا تطاله يد الزمان ولا تفنيه الليالي والأيّام.

فهلمّوا لبذل الطاقات في سبيل الله وفي خدمة خلق الله، وكسب رضا الباري، لتصبح من مصاديق ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولتكون باقية بمقتضى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ عن ثلاث: صدقة جارية، علم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»(١).

وعن علي عليه السلام أنّه قال: «شتّان ما بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤنته ويبقى أجره»(٢).

٢ - التساوي بين الرجل والمرأة

ممّا لا شكّ فيه أنّ بين الرجل والمرأة تفاوت واختلاف من الناحيتين الجسمية والروحية، وهذا الفرق هو الذي جعلهما مختلفين في وظائفهما وشؤونهما الاجتماعية، إلاّ أنّ طبيعة الاختلاف الموجود لا تنعكس على الشخصية الإنسانية، ولا توجد اختلافاً في مقامهما عند الله عزّ وجلّ، فهما في هذا الجانب متساويان ومتكافئان، ويحكم شخصية أيّ منهما مقياس واحد ألا وهو الإيمان والعمل الصالح والتقوى، وإمكانية تحصيل ذلك لأيٍّ منهما متساوية.

إنّ الآيات أعلاه قد بيّنت هذه الحقيقة بكلّ وضوح لتخرس الأفواه المشككة في الطبيعة الإنسانية للمرأة في الماضي والحاضر، ولترد بقوّة أُولئك الذين يعطون للمرأة مقاماً أقل ورتبة أنْزَل من الناحية الإنسانية نسبة إلى الرجل، وقد أعلنت الآيات المنطق الإسلامي في هذه المسألة الاجتماعية المهمّة، فقالت: إنّ الإسلام خلافاً لقاصري الفكر ليس دين الرجال، فهو يخص المرأة بنفس القدر الذي يخص الرجل.

فمن عمل صالحاً وهو مؤمن رجلاً كان أو امرأة، فله الحياة الطيّبة: وسينال ثواب الله تعالى من غير تمايز في الجنس، ولا تفاضل بينهما إلاّ من خلال ما يتفوق أيٌّ منهما على الآخر من حيث الإيمان والعمل الصالح.

٣ - جذور العمل الصالح ترتوي من الإيمان

العمل الصالح: مصطلح له من سعة المفهوم ما يضمّ بين طيّاته جميع الأعمال الإيجابية والمفيدة والبنّاءة على كافة أصعدة الحياة العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية... الخ.

ويشمل: الاختراع الذي يبذل فيه العالم جهده سنوات طويلة من أجل خدمة

---

(١) إرشاد الديلمي، ج١، ص١٤.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ١٢١.

الإنسانية. . جهاد الشهيد الذي حمل روحه على كفّه وخاض ساحة الصراع بين الحق والباطل فبذل دمه الشريف في سبيل الله. . الآلام التي تتحملها الأُمّ المؤمنة عند الولادة وما تواجه من صعاب في تربية أبنائها. . وتشمل ما يعانيه العلماء في تحرير كتبهم الثمينة.

وتشمل أيضاً: أعظم الأعمال، كحمل رسالة النبوة. . وأقل وأصغر الأعمال، كرفع حجر صغير من طريق المارّة، نعم، فكلّ ما ذكر يدخل ضمن مفهوم العمل الصالح.

والحال هذه. . . يواجهنا «السؤال» الآتي: لماذا قيّد العمل الصالح بشرط الإيمان، في حين يمكن أداؤه بدون هذا الشرط، والساحة البشرية فيها كثير من الشواهد التي تحكي ذلك؟

و«الجواب» ينصب على تبيان مسألة واحدة، ألا وهي (الباعث الإيماني)، فإنْ لم يحرز هذا الباعث فغالباً ما تكون الأعمال المنجزة ملوّثة (وقد تشذ عن هذه القاعدة العامّة بعض المتفرقات هنا وهناك)، وأمّا إذا ارتوت جذور شجرة العمل الصالح من ماء التوحيد والإيمان بالله، فنادراً ما يصيب هذا العمل آفات مثل: العجب، والرياء، الغرور، التقلب، المنّة. . . الخ، ولذلك نرى القرآن الكريم غالباً ما يربط بين هذين الأمرين، لما لارتباطهما من واقعية.

ونوضّح المسألة في مثال: لو افترضنا أنّ شخصين أرادا بناء مستشفى، أحدهما يدفعه الباعث الإلهي لخدمة خلق الله، والآخر هدفه التظاهر بالعمل الصالح والحصول على السمعة والمكانة الاجتماعية المرموقة.

وفي النظرة الأُولى وبتفكير سطحي يمكننا أنْ نقول: إنّ المستشفى ستقام، وسيستفيد الناس من عملهما على السواء، وصحيح أنّ أحدهما سيحصل على الثواب الإلهي والآخر لا يحصل عليه، ولكنّ ظاهر عمليهما لا اختلاف فيه.

وكما قلنا فإنّ هذا القول ناتج عن رؤية سطحية للموضوع، أمّا لو أمعنا النظر لرأينا أنّهما مختلفان من جهات متعددة، فعلى سبيل المثال: إنّ الشخص الأوّل سينتخب مكاناً لمستشفاه يكون قريباً من أكثر طبقات المنطقة فقراً وحرماناً، ولربّما تكون في محلة غير معروفة ومنزوية، أمّا الشخص الثّاني فإنّه سيبحث عن منطقة أكثر شهرة حتى وإن كانت حاجتها للمستشفى قليلة جدّاً.

وسيسعى الشخص الأوّل في انتخاب مواد البناء وطريقته بما يلحظ فيه المستقبل

البعيد، ويحكم أساس البناء ليصمد البناء لسنين طويلة، أمّا الشخص الآخر فإنّه سيحاول أن يسرع في البناء وتعجيل افتتاح المستشفى ويكثر الضجيج والإعلام لينال مراده. وسيجدّ الأوّل في إحكام باطن العمل في حين أنّ الثّاني سيهتم بمظهره ورونقه، وعند انتخاب الأقسام الطبيّة، الأطباء، الممرضين وسائر احتياجات المستشفى، فثمّة اختلاف كبير بين الشخصين، فاختلاف النيّة يترك أثره على جميع مراحل وشؤون العمل وبعبارة أُخرى: إنّ العمل يصطبغ بصبغة النيّة.

٤ - ما هي الحياة الطيّبة؟

لقد ذكر المفسّرون في معنى الحياة الطيّبة تفاسير عديدة:

فبعض فسّرها بـ : الرّزق الحلال.

وبعض بـ : القناعة والرضا بالنصيب.

وبعض بـ : الرزق اليومي.

وبعض بـ : العبادة مع الرزق الحلال.

وبعض بـ : التوفيق لطاعة أوامر الله. . . وما شابه ذلك.

ولعلّه لا حاجة بنا للتذكير بأنّ مفهوم الحياة الطيّبة من السعة بحيث يشمل كلّ ما ذكروه وغيره، فالحياة الطيّبة بجميع جهاتها، وخالية من التلوّثات والظلم والخيانة والعداوة والذل وكلّ ألوان الآلام والهموم، وفيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

وبملاحظة تعبير الآية عن الجزاء الإلهي وفق أحسن الأعمال، ليفهم من ذلك أنّ الحياة الطيّبة ترتبط بعالم الدنيا بينما يرتبط الجزاء بالأحسن بعالم الآخرة.

وعندما سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، قال: «هي القناعة»(١).

ولا شكّ أنّ هذا التّفسير لا يعني حصر معنى الحياة الطيّبة بالقناعة، بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضحة جدّاً، حيث إنّ الإنسان لو أُعطيت له الدنيا بكاملها وسُلبت منه روح القناعة فإنّه - والحال هذه - سيعيش دائماً في عذاب وألم وحسرة، وبعكس ذلك، فإذا امتلك الإنسان القناعة وترك الحرص والطمع، فإنّه سيعيش مطمئناً راضياً على الدوام.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٢٩.

وقد ورد في روايات أُخرى تفسير الحياة الطيّبة بمعنى الرضا بقسم الله، وهذا المعنى قريب الأُفق مع القناعة.

وينبغي أنْ لا نعطي لهذه المفاهيم صفة تخديرية أبداً، وإنّما الهدف الواقعي من بيان الرضا والقناعة هو القضاء على الحرص والطمع واتّباع الهوى في نفس الإنسان، التي تعتبر من العوامل المؤثّرة في إيجاد الاعتداءات والاستغلال والحروب وإراقة الدماء، والمسببة للذل والأسر.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

اقرأ القرآن هكذا

لم يفت ذاكرتنا ما ورد قبل عدّة آيات أنّ القرآن ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ ثمّ تمّ البحث عن قسم من أهم الأوامر الإلهيّة في القرآن.

وتبيّن الآيات مورد البحث طريقة الاستفادة من القرآن وتتطرق إلى كيفية تلاوته، فكثافة المحتوى القرآني لا تكفي وحدها لتوجيهنا، ولابدّ من رفع الحجب المخيّمة على وجودنا وإزالتها عن محيط فكرنا وروحنا، كي نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثّر الغني.

ولهذا يقول القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

ولا يقصد من الاستعاذة الاكتفاء بالذكر، بل ينبغي لها أنْ تكون مقدمة لتحقيق وإيجاد الحالة الروحية المطلوبة.. حالة: التوجّه إلى الله عزّوجلّ، الانفصال عن هوى النفس والعناد المانع للفهم والدرك الصحيح للإنسان، البعد عن التعصبات والغرور وحبّ الذات ومحورية الذات التي تضغط على الإنسان ليسخر كلّ شيء (حتى كلام الله) في تحقيق رغباته المنحرفة.

وإنْ لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنية، وربّما

سيجعل القرآن وسيلة لتبرير آرائه ورغباته الملوّثة بالشرك بواسطة «التفسير بالرأي».

وتأتي الآية التالية لتكون دليلاً على ما جاء في الآية التي قبلها: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾، لأنهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر الله!

بحوث

١ - موانع المعرفة

مع كل ما للحقيقة من ظهور ووضوح فإنّها لا تلحظ إلاّ بعين باصرة، وبعبارة أُخرى، ثمّة شرطان لمعرفة الحقائق:

الأوّل: وضوح الحقيقة.

الثّاني: وجود وسيلة للنظر إليها وإدراكها.

فهل يمكن للأعمى أنْ يرى قرص الشمس يوماً ما مع البقاء على حالة العمى؟ وهل يمكن للأصم أنْ يسمع نغمات هذا العالم الجميلة؟ فكذا الحال بالنسبة لفاقد البصيرة الثاقبة والأذن السميعة، فإنّه محروم من رؤية جلال الحق، ومحروم من سماع آياته الرائعة.

ولكنْ، لماذا يفقد الإنسان قدرته على المعرفة؟!

لأنّه قد أوجد الأحكام المسبقة الخاطئة عنده، وسمح للأهواء النفسية والتعصبات العمياء المتطرفة أن تتغلب على توجّهه، ووقع في أسر الذات والغرور، ولوّث صفاء قلبه وطهارة روحه بأُمور قد جعلها موانع أمام فهم وإدراك الحقائق.

وجاء في الحديث الشريف: «لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات»(١).

فأوّل شرط ينبغي تحقيقه لمن رام السير على طريق الحق هو تهذيب النفس وامتلاك التقوى، وبدون ذلك يقع الإنسان في ظلمات الوهم فيضل الطريق.

ويشير القرآن الكريم لهذه الحقيقة بـ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٥٦، ص١٦٣.

وكم من أُناس طلبوا آيات القرآن بتعصب وعناد وأحكام مسبقة (فردية أو اجتماعية) وحملوا القرآن بما يريدون لا بما يريده القرآن، فازدادوا ضلالاً بدلاً من أن يكون القرآن هادياً لهم (وطبيعي أنّ القرآن بآياته وحقائقه الناصعة لا يكون وسيلة للإضلال، ولكنّ أهواءهم وعنادهم هو الذي جرّهم لذلك) والآيتان ١٢٤ و ١٢٥ من سورة التوبة تبيّن لنا هذه الحالة بكلّ وضوح: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

فالمقصود بالآية عدم الاكتفاء بذكر (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) بل ينبغي أن نجعل من هذا الذكر فكراً، ومن الفكر حالة داخلية، وعندما نقرأ آية، نستعيذ بالله من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، وتحول بيننا وبين كلام الله جلّ وعلا.

٢ - لماذا يكون التعوّذ «من الشيطان الرجيم»؟

«الرجيم»: من (رجم)، بمعنى الطرد، وهو في الأصل بمعنى الرمي بالحجر ثمّ استعمل في الطرد.

ونلاحظ ذكر صفة طرد الشيطان من دون جميع صفاته، للتذكير بتكبّره على أمر الله حين أمره بالسجود والخضوع لآدم، وإنّ ذلك التكبّر الذي دخل الشيطان بات بمثابة حجاب بينه وبين إدراك الحقائق، حتى سوّلت له نفسه أن يعتقد بأفضليته على آدم وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1].

فكان ذلك العناد والغرور سبباً لتمرّده على أمر الله عزّ وجلّ ممّا أدّى لكفره ومن ثمّ طرده من الجنّة.

وكأنّ القرآن الكريم يريد أنْ يفهمنا باستخدامه كلمة «الرجيم» بضرورة الاحتياط والحذر من الوقوع في حالة التكبّر والغرور والتعصب عند تلاوة آيات الله الحكيم، لكي لا نقع بما وقع به الشيطان من قبل، فنهوى في وحل الكفر بدلاً من إدراك وفهم الحقائق القرآنية.

٣ - بين لواءي الحقّ والباطل

قسّمت الآيات أعلاه الناس إلى قسمين: قسم يرزح تحت سلطة الشيطان وقسم خارج عن هذه السلطة، وبيّنت صفتين لكلٍّ من هذين القسمين:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

فالذين هم خارج سلطة الشيطان: مؤمنون ومتوكلون على الله عَزَّوَجَلَّ ، أي إنّهم من الناحية الاعتقادية عباد لله، ومن الناحية العملية يعيشون مستقلين عن كلّ شيء سوى الله، ويتوكلون عليه لا على البشر أو على الأهواء والتعصبات.

أمّا الذين يرزحون تحت سلطة الشيطان، فقائدهم الشيطان ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ وهم مشركون، لأنّ أعمالهم تشير إلى تبعيتهم للشيطان وأوامره كشريك لله جلّ وعلا.

وثمّة مَنْ يسعى لأنْ يكون من القسم الأوّل، ولكنّ ابتعاده عن المربّين الإلهيّين، أو الضياع في محيط فاسد، أو أيّ أسباب أُخرى، تؤدّي إلى سقوطه في وحل القسم الثّاني.

وعلى أيّةِ حال، فالآية تؤكّد حقيقة أنّ سلطة الشيطان ليست إجبارية على الإنسان، ولا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أنْ يمهّد الإنسان السبيل لدخول الشيطان في نفسه، ويعطيه إجازة المرور من بوّابة قلبه.

٤ - آداب تلاوة القرآن

كلّ شيء يحتاج إلى برنامج معيّن ولا يستثنى كتاب عظيم - كالقرآن الكريم - من هذه القاعدة، لذلك فقد ذكر في القرآن بعض الآداب والشروط لتلاوة كلام الله والاستفادة من آياته:

١ - يقول تعالى أوّلاً: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾(١)، ويمكن أن يشير هذا التعبير إلى الطهارة الظاهرية، كأن يكون مس كتابة القرآن مشروط بالطهارة والوضوء، وكذا الإشارة إلى إمكان تيسّر الوصول لفهم محتوى آيات القرآن من خلال تطهير النفس من الرذائل الأخلاقية، لأنّ الصفات القبيحة تمنع من مشاهدة جمال الحق باعتبارها حجاباً مظلماً بين الإنسان والحقائق.

٢ - يجب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل الشروع بتلاوة آيات الله ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وعندما سئل الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن طريقة العمل بهذا القول، يروى أنّه قال: «قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»(٢).

وفي رواية أُخرى، عند تلاوته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لسورة الحمد قال: «أعوذ بالله السميع العليم

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٤، ص٢٦٤.

من الشيطان الرجيم وأعوذ بالله أنْ يحضرون»[١].

وكما قلنا، فإنّ التلفظ - فقط - في الاستعاذة لا يغني من الحق شيئاً، ما لم تنفذ الاستعاذة إلى أعماق الروح بشكل ينفصل فيه الإنسان عند التلاوة عن إرادة الشيطان، ويقترب من الصفات الإلهيّة، لترتفع عن فكره موانع فهم كلام الحق، وليرى جمال الحقيقة بوضوح تام.

إذن، فالاستعاذة بالله من الشيطان لازمة قبل الشروع بالتلاوة، ومستمرّة مع التلاوة إلى آخرها وإنْ لم يكن ذلك باللسان.

٣ - تجب القراءة ترتيلاً، أي مع التفكّر والتأمّل ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[٢].

وفي تفسير هذه الآية روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنَّ القرآن لا يُقرأ هذرمةً ولكنْ يرتل ترتيلاً، إذا مررت بآية فيها ذكر النّار وقفت عندها وتعوّذت بالله من النّار»[٣].

٤ - وقد ورد الأمر بالتدبّر والتفكّر في القرآن إضافةً إلى الترتيل، حيث جاء في الآية ٨٢ من سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدّثنا مَنْ كان يُقرئنا من الصحابة أنّهم كانوا يأخذون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأُخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل[٤].

وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[٥].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ولكنّهم لا يبصرون»[٦]. ولكنّ ذوي الضمائر الحيّة والعلماء المؤمنين، يستطيعون رؤية جماله المتجلّي في كلامه جلّ وعلا.

٥ - على الذين يستمعون إلى تلاوة القرآن أنْ ينصتوا إليه بتفكّر وتأمّل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٧].

---

(١) وسائل الشيعة، ج٦، ص١٣٤.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٤.
(٣) أصول الكافي، ج٢، ص٦١٨.
(٤) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٦. وج ٩٢، ص ١٠٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٠٧.
(٧) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

وثمّة أحاديث شريفة تحثّ على قراءة القرآن بصوت حسن، لما له من فعل مؤثّر في تحسّس مفاهيمه، ولكنّ المجال لا يسمح لنا بتفصيل ذلك[1].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

سبب النّزول

يقول ابن عباس: «كانوا يقولون يسخر محمّد بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر وإنّه لكاذب يأتيهم بما يقول من عند نفسه».

التّفسير

الافتراء!

تحدثت الآيات السابقة عن أُسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، وتتناول الآيات مورد البحث جوانب أُخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتبتدىء ببعض الشبهات التي كانت عالقة في أذهان المشركين حول الآيات القرآنية المباركة، فتقول: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فهذا التغيير والتبديل يخضع لحكمة الله، فهو أعلم بما ينزل، وكيف ينزل، ولكنّ المشركين لجهلهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وحقيقة الأمر أنّ المشركين لم يتوصلوا بعد لإدراك وظيفة القرآن وما يحمل من

---

(١) لمزيد من الاطلاع... راجع بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٩٠ وما بعدها.

رسالة، ولم يدخل في تصوراتهم وأذهانهم أنّ القرآن في صدد بناء مجتمع إنساني جديد يسوده التّطوّر والتقدّم والحريّة والمعنوية العالية. . . نعم، فأكثرهم لا يعلمون.

فبديهي والحال هذه أنْ يطرأ على وصفة الدواء الإلهي لنجاة هؤلاء المرضى التغيير والتبديل تدرّجاً مع ما يعيشونه، فما يعطون اليوم يكمله الغد. . . وهكذا حتى تتمّ الوصفة الشاملة.

فغفلة المشركين عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للاعتقاد بأنّ أقوال النّبي ﷺ تحمل بين ثناياها التناقض أو الإفتراء على الله عزّ وجلّ ! وإلاّ لعلموا أنّ النسخ في الأحكام جزء من أوامر وآيات القرآن المنظّمة على شكل برنامج تربوي دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائي لنيل التكامل إلاّ به.

فالنسخ في أحكام مجتمع يعيش حالة انتقالية بين مرحلتين يعتبر من الضروريات العملية والواقعية، فالتحوّل والانتقال بالناس من مرحلة إلى أُخرى لا يتمّ دفعة واحدة، بل ينبغي أنّ يمرّ بمراحل انتقالية دقيقة(١).

أيمكن معالجة مريض مزمن في يوم واحد؟

أو شفاء رجل مدمن على المخدرات لسنوات عديدة في يوم واحد؟ أوَ ليس التدرّج في المعالجة من أسلم الأساليب؟

وبعد الإجابة على هذه الأسئلة لا يبقى لنا إلاّ أنْ نقول: ليس النسخ سوى برنامج مؤقت في مراحل انتقالية.

وتستمر الآية التالية بنفس الموضوع، وللتأكيد عليه تأمر النبي ﷺ أنْ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أو (الرّوح المقدّسة) هو أمين الوحي الإلهي «جبرائيل الأمين»، وبواسطته كانت الآيات القرآنية تتنزّل بأمر الله تعالى على النّبي الأكرم ﷺ سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكلّ الآيات حق، وهدفها واحد يتركّز في توجيه الإنسان ضمن التربية الرّبانية له، وظروف وتركيبة الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة والمنسوخة في العملية التربوية.

---

(١) لقد بحثنا مسألة «النسخ» في ذيل الآية ٢٦ من سورة البقرة.

ولهذا، جاء في تكملة الآية المباركة: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

يقول صاحب تفسير الميزان: إنّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين إنّما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب، ونصيبه التثبيت في العلم والإذعان، والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الاهتداء إلى واجب العمل والبشرى بأنّ الغاية هي الجنّة والسعادة.

وعلى أيّةِ حال، فلأجل تقوية الروح الإيمانية والسير في طريق الهدى والبشرى لابدّ من برامج قصيرة الأمد ومؤقتة، وبالتدريج يحلّ البرنامج النهائي الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ في الآيات الإلهيّة.

وبعد أنْ فنّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة أُخرى، أو على الأصح لذكر افتراء آخر لمخالفي نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

اختلف المفسّرون في ذكر اسم الشخص الذي ادّعى المشركون أنّه كان يعلّم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم . . .

فعن ابن عباس: أنّه رجل يدعى (بلعام) كان يصنع السيوف في مكّة: وهو من أصل رومي وكان نصرانياً.

واعتبره بعضهم: غلاماً رومياً لدى بني حضرم واسمه (يعيش) أو (عائش) وقد أسلم وأصبح من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال آخرون: إنّ معلّمه غلامين نصرانيين أحدهما اسمه (يسار) والآخر (جبر) وكان لهما كتاب بلغتهما يقرآنه بين مدّة وأُخرى بصوت عال.

واحتمل بعضهم: أنّه (سلمان الفارسي)، في حين أنّ سلمان الفارسي، التحق بالنّبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة وأسلم على يديه هناك، وأنّ هذه التهم التي أطلقها المشركون كانت في مكّة، أضف إلى ذلك كون القسم الأعظم من سورة النحل مكّي وليس مدنياً.

وعلى أيّة حال، فالقرآن أجابهم بقوة وأبطل كلّ ما كانوا يفترونه، بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ(٢) وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) ﴿يُلْحِدُونَ﴾ من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، وقد يطلق على أيّ انحراف، والمراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان ويدعون بأنّه معلم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم !

(٢) الإعجام والعجمة لغةً: بمعنى الإبهام، ويطلق الأعجمي على الذي في بيانه لحن (نقص) سواء كان من=

فإنْ كان مقصودهم في تهمتهم وافترائهم أنّ مُعَلِّمَ النّبي ﷺ لألفاظ القرآن هو شخص أجنبي لا يفقه من العربية وبلاغتها شيئاً فهذا في منتهى السفه، إذ كيف يمكن لفاقد ملكة البيان العربي أن يعلِّم هذه البلاغة والفصاحة التي عجز أمامها أصحاب اللغة أنفسهم، حتى أنّ القرآن تحدّاهم بإتيان سورة من مثله فما استطاعوا، ناهيك عن عدد الآيات؟!

وإن كانوا يقصدون أنّ المحتوى القرآني هو من معلّم أجنبي.. فردّ ذلك أهون من الأوّل وأيسر، إذ إنّ المحتوى القرآني قد صُبَّ في قالب كلّ عباراته وألفاظه من القوة بحيث خضع لبلاغته وإعجازه جميع فطاحل فصحاء العرب، وهذا ما يرشدنا لكون الواضع يملك من القدرة على البيان ما تعلو وقدرة وملكة أيِّ إنسان، وليس لذلك أهلاً سوى الله عزّ وجلّ وسبحانه عمّا يشركون.

وبنظرة تأمّلية فاحصة نجد في محتوى القرآن أنّه يمتلك المنطق الفلسفي العميق في إثبات عقائده، وكذا الحال بالنسبة لتعاليمه الأخلاقية في تربية روح الإنسان وقوانينه الاجتماعية المتكاملة، وأنّ كلّ ما في القرآن هو فوق طاقة المستوى الفكري البشري حقّاً... ويبدو لنا أنّ مطلقي الافتراءات المذكورة هم أنفسهم لا يعتقدون بما يقولون، ولكنّها شيطنة ووسوسة يدخلونها في نفوس البسطاء من الناس ليس إلاّ.

والحقيقة أنّ المشركين لم يجدوا من بينهم مَنْ ينسبون إليه القرآن، ولهذا حاولوا اختلاق شخص مجهول لا يعرف الناس عنه شيئاً ونسبوا إليه القرآن، عسى بفعلهم هذا أن يتمكنوا من استغفال أكبر قدر ممكن من البسطاء.

أضف إلى ذلك كلّه أنّ تاريخ حياة النّبي ﷺ لا يسجّل له اتصالات دائمة مع هذه النوعيات من البشر، وإن كان (على سبيل الفرض) صاحب القرآن موجوداً ألا يستلزم ذلك اتصال النّبي ﷺ به وباستمرار؟ إنّهم حاولوا التشبث لا أكثر، وكما قيل: (الغريق يتشبَّث بكلّ حشيش).

إنّ نزول القرآن في البيئة الجاهلية وتفوّقه الإعجازي أمر واضح، ولم يتوقف تفوّقه حتى في عصرنا الحاضر حيث التقدّم الذي حصل في مختلف مجالات التمدّن الإنساني، والتأليفات المتعمّقة التي عكست مدى قوّة الفكر البشري المعاصر.

= العرب أو من غيرهم، وباعتبار أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب..

نعم، فمع كلّ ما وصلت إليه البشرية من قوانين وأنظمة ما زال القرآن هو المتفوّق وسيبقى.

وذكر سيد قطب في تفسيره: أنّ جمعاً من الماديين في روسيا عندما أرادوا الانتقاص من القرآن في مؤتمر المستشرقين المنعقد في سنة ١٩٥٤ م قالوا: إنّ هذا الكتاب لا يمكن أن ينتج من ذهن إنسان واحد «محمّد» بل يجب أن يكون حاصل سعي جمع كثير من الناس بما لا يصدّق كونهم جميعاً من جزيرة العرب، وإنّما يقطع باشتراك جمع منهم من خارج الجزيرة(١).

ولقد كانوا يبحثون - وفقاً لمنطقهم الإلحادي - عن تفسير مادي لهذا الأمر من جهة، وما كانوا يعقلون أنّ القرآن نتاج إشراقة عقلية لإنسان يعيش في شبه الجزيرة العربية من جهة أُخرى، ممّا اضطرّهم لأنْ يطرحوا تفسيراً مضحكاً وهو: اشتراك جمع كثير من الناس - في تأليف القرآن - من داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها!! على أنَّ التاريخ ينفي ما ذهبوا إليه جملة وتفصيلاً.

وعلى أيّة حال، فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآني من حيث اللفظ والمضمون، فحلاوة القرآن وبلاغته وجاذبيته والتناسق الخاص في ألفاظه وعباراته ما يفوق قدرة أيّ إنسان. (قد كان لنا بحث مفصّل في الإعجاز القرآني تناولناه في تفسير الآية ٢٣ من سورة البقرة - فراجع).

وبلهجة المهدّد المتوعّد يبيّن القرآن الكريم أنّ حقيقة هذه الاتهامات والانحرافات ناشئة من عدم انطباع الإيمان في نفوس هؤلاء، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لأنّهم غير لائقين للهداية ولا يناسبهم إلاّ العذاب الإلهي، لما باتوا عليه من التعصب والعناد والعداء للحق.

وفي آخر الآية يقول: إنّ الأشخاص الذين يتّهمون أولياء الله هم الكفّار: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾، فهم الكاذبون وليس أنت يا محّمد، لأنهم مع ما جاءهم من آيات بينات وأدلة قاطعة واضحة ولكنّهم يستمرون في إطلاق الافتراءات والأكاذيب.

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨٢.

فأيّة أكاذيب أكبر من تلك التي تطلق على رجال الحق لتحول بينهم وبين المتعطشين للحقائق!

بحوث

١ - قبح الكذب في المنظور الإسلامي

الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، وقد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين والمنكرين للآيات الإلهيّة.

ومع أنّ موضوع الآية هو الكذب والافتراء على الله والنّبي ﷺ، إلاّ أنّ الآية تناولت قبح الكذب بصورة إجمالية.

ولأهمّية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصّة لمسألة الصدق والنهي عن الكذب، وإليكم نماذج مختصرة ومفهرسة لجوانب الموضوع:

الصدق والأمانة من علائم الإيمان وكمال الإنسان، حتى أنّ دلالتهما على الإيمان أرقى من دلالة الصلاة.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإنّ ذلك شيء قد اعتاده ولو تركه استوحش لذلك، ولكنْ انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»(١).

فذكر الصدق مع الأمانة لاشتراكهما في جذر واحد، وما الصدق إلاّ الأمانة في الحديث، وما الأمانة إلاّ الصدق في العمل.

٢ - الكذب منشأ جميع الذنوب

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب..

فعن علي عليه السلام أنّه قال: «الصدق يهدي إلى البِر والبر يهدي إلى الجنّة»(٢).

وعن الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرّ من الشراب»(٣).

---

(١) سفينة البحار، مادة (صدق)، نقلاً عن الكافي.
(٢) مشكاة الأنوار للطبرسي، ص ١٥٧.
(٣) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٥٤.

وعن الإمام العسكري عليه السلام أنّه قال: «جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب»[١].

فالعلاقة بين الكذب وبقية الذنوب تتلخص في كون الكاذب لا يتمكن من الصدق، لأنّه سيكون موجباً لفضحه، فتراه يتوسَّل بالكذب عادةً لتغطية آثار ذنوبه.

وبعبارة أُخرى: إنّ الكذب يطلق العنان للإنسان للوقوع في الذنوب، والصدق يحدّه.

وقد جسّد النّبي صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة بكلّ وضوح عندما جاءه رجل وقال له: يا رسول الله، إنّي لا أُصلي وأرتكب القبائح وأكذب، فأيّها أترك أوّلاً؟.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكذب»، فتعهد الرجل للنّبي صلى الله عليه وآله أنْ لا يكذب أبداً.

فلمّا خرج عرضت له نيّة منكر فقال في نفسه: إنْ سألني رسول الله غداً عن أمري، ماذا أقول له! فإنْ أنكرت كنت كاذباً، وإنْ صدقت جرى عليّ الحد. وهكذا ترك الكذب في جميع أفعاله القبيحة حتى تورَّع عنها جميعاً.

ولذا.. فترك الكذب طريق لترك الذنوب.

٣ - الكذب منشئ للنفاق

لأنّ الصدق يعني تطابق اللسان مع القلب، في حين أنّ الكذب يعني عدم تطابق اللسان مع القلب، وما النفاق إلاّ الاختلاف بين الظاهر والباطن.

والآية ٧٧ من سورة التوبّة تبيّن لنا ذلك بوضوح: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

٤ - لا انسجام بين الكذب والإيمان

وإضافة إلى الآية المباركة فثمّة أحاديث كثيرة تعكس لنا هذه الحقيقة الجليّة...

فقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سُئل: يكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم»، قيل: ويكون بخيلاً؟ قال: «نعم»، قيل: يكون كذّاباً؟ قال: «لا»[٢].

ذلك لأنّ الكذب من علائم النفاق، وهو لا يتفق مع الإيمان.

---

(١) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٣٣؛ وبحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٦٣.
(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٣٢٢؛ بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٦٢.

وبهذا المعنى نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه أشار لهذا المعنى واستدل عليه بالآية مورد البحث.

٥ - الكذب يرفع الاطمئنان

إنّ وجود الثقة والاطمئنان المتبادل من أهم ما يربط الناس فيما بينهم، والكذب من الأُمور المؤثّرة في تفكيك هذه الرابطة لما يشيعه من خيانة وتقلّب، ولذلك كان تأكيد الإسلام على أهمّية الالتزام بالصدق وترك الكذب.

ومن خلال الأحاديث الشريفة نلمس بكلّ جلاء نهي الأئمّة عليهم السلام عن مصاحبة مجموعة معيّنة من الناس، منهم الكذّابون لعدم الثقة بهم.

فعن علي عليه السلام أنّه قال: «إيّاك ومصادقة الكذّاب، فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد ويبعد عليك القريب»[1].

والحديث عن قبح الكذب وفلسفته، والأسباب الداعية إليه من الناحية النفسية، وطرق مكافحته، كلّ ذلك يحتاج إلى تفصيل طويل لا يمكن لبحثنا استيعابه، ولمزيد من الاطلاع راجع كتب الأخلاق[2].

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

(١) نهج البلاغة، الكمات القصار، رقم ٣٨.
(٢) راجع كتابنا (الحياة على ضوء الأخلاق).

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرين في شأن نزول الآية الأولى من هذه الآيات أنّها: نزلت في جماعة أُكرهوا - وهم: عمار وأبوه ياسر وأُمّه سمية وصهيب وبلال وخبّاب - وعُذِّبُوا وقُتِل أبو عمار وأمّه وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثمّ أخبر سبحانه بذلك رسوله ﷺ، فقال قوم: كفر عمّار. فقال ﷺ كلا: «إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه».. وجاء عمّار إلى رسول الله وهو يبكي، فقال النّبي ﷺ: «ما وراءك»؟ فقال: شرّ يا رسول الله، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «إنْ عادوا لك فعد لهم بما قلت»، فنزلت الآية(١).

التّفسير

المرتدون عن الإسلام

تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين والكفّار وما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئة أُخرى من الكفرة وهم المرتدون.

حيث تقول الآية الأُولى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾(٢).

تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

النوع الأوّل: هم الذين يقعون في قبضة العدو الغاشم ويتحملون أذاه وتعذيبه،

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٦، ص٣٨٧، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) اختلف المفسرون بخصوص جملة ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ...﴾، فاعتبرها بعضهم: شرحاً وتوضيحاً للجملة السابقة لها وأنّها بدل لعبارة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فيما اعتبرها آخرون: بدلاً لكلمة ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، وقال بعضهم: إنّها مبتدأ محذوف الخبر ويقدروها بـ«مَن كفر مِن بعد إيمانه فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم»، فجزاء الشرط محذوف لدلالة الجملة التالية على ذلك.
وثمّة احتمال رابع (ويبدو أفضل الاحتمالات) وهو: أنّها مبتدأ، وخبرها في نفس الآية وغير محذوف، أمّا عبارة ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ فهي توضيح جديد للمبتدأ لوقوع جملة استثنائية بينها وبين خبرها، وهذا النوع من التعبير كثير الاستعمال حتى في غير اللغة العربية - فتأمل.

ولكنّهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام وولاءهم للكفر، على أنّ ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، وأمّا قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشمولاً بالعفو الإلهي بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنّهم قد مارسوا التقية التي أحلّها الإسلام لحفظ النفس وحفظ الطاقات للاستفادة منها في طريق خدمة دين الله عزّوجلّ.

النوع الثّاني: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقةً، ويغيّرون مسيرتهم ويتخلّون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب الله عزّوجلّ وعذابه العظيم.

ويمكن أن يكون «غضب الله» إشارة إلى حرمانهم من الرحمة الإلهيّة والهداية في الحياة الدنيا، و«العذاب العظيم» إشارة إلى عقابهم في الحياة الأُخرى.. وعلى أيّةِ حال، فما جاء في الآية من وعيد للمرتدين هو في غاية الشدّة.

وتتطرق الآية التالية إلى أسباب ارتداد هؤلاء، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين يصرّون على كفرهم وعنادهم.

وخلاصة المقال: حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادية وتعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسلامهم لشدّة حبّهم لدنياهم، وعادوا خاسئين إلى كفرهم.

وبديهي أنّ من لا يرغب في الإيمان ولا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهداية الإلهيّة، لأنّ الهداية تحتاج إلى مقدمات كالسعي للحصول على رضوانه سبحانه والجهاد في سبيله، وهذا مصداق لقوله عزّوجلّ في آخر سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

وتأتي الآية الأُخرى لتبيّن سبب عدم هدايتهم، فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾ بحيث إنّهم حُرموا من نعمة الرؤية والسمع وإدراك الحقائق: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾.

وكما قلنا سابقاً فإنّ ارتكاب الذنوب وفعل القبائح يترك أثره السلبي على إدراك الإنسان للحقائق وعلى عقله ورؤيته السليمة، وتدريجياً يسلب منه سلامة الفكر، وكلّما ازداد في غيّه كلّما اشتدت حجب الغفلة على قلبه وسمعه وبصره، حتى يؤول به المآل إلى أن يصبح ذا عين ولكنْ لا يرى بها، وذا أُذن وكأنّه لا يسمع بها، وتغلق أبواب

روحه من تقبّل أيّة حقيقة، فيخسر حسّ التشخيص والقدرة على التمييز، والتي تعتبر من النعم الإلهي العالية.

«الطبع» هنا: بمعنى «الختم»، وهو إشارة إلى حالة الإحكام المطلق، فلو أراد شخص مثلاً أنْ يغلق صندوقاً معيّناً بشكل محكم كي لا تصل إليه الأيدي فإنّه يقوم بربطه بالحبال وغيرها، ومن ثمّ يقوم بوضع ختم من الشمع على باب الصندوق للاطمئنان من عبث العابثين.

ثمّ تعرض الآية التالية عاقبة أمرهم، فتقول: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهل هناك من هو أتعس حالاً من هذا الإنسان الذي خسر جميع طاقاته وإمكاناته لنيل السعادة الدائمة باتباعه هوى النفس.

وبعد ذكر الفئتين السابقتين، أي الذين يتلفظون بكلمات الكفر وقلوبهم ملأى بالإيمان، والذين ينقلبون إلى الكفر مرّة أُخرى بكامل اختيارهم ورغبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآية التالية إلى فئة ثالثة وهم البسطاء المخدوعون في دينهم، فتقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

فالآية دليل واضح على قبول توبة المرتد، ولكنّ الآية تشير إلى مَن كان مشركاً في البداية ثم أسلم، فعليه يكون المقصود به هو (المرتد الملّي) وليس (المرتد الفطري؟)[2].

وتأتي الآية الأخيرة لتقدّم تذكيراً عاماً بقولها: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[3] لتنقذها من العقاب والعذاب.

فالمذنبون أحياناً ينكرون ما ارتكبوه من ذنوب إنكاراً تاماً فراراً من الجزاء والعقاب،

---

(١) ضمير ﴿بَعْدِهَا﴾ - وكما يقول كثير من المفسّرين - يعود إلى «الفتنة»، في حين ذهب البعض من المفسّرين إلى أنّه يعود إلى الهجرة والجهاد والصبر المذكورة سابقاً.

(٢) «المرتد الفطري» هو الذي يولد من أبوين مسلمين ثمّ يرتد عن الإسلام بعد قبوله إياه، والمرتد الملّي: يطلق على مَن انعقدت نطفته من أبوين غير مسلمين ثمّ قبل الإسلام، وارتّد عنه بعد ذلك.

(٣) اختلاف القول بخصوص متعلق «يوم» جار بين المفسّرين. فبعضهم يذهب إلى أنّه متعلق بفاعل مستتر والتقدير هو «ذكرهم يوم القيامة»، واعتبره آخرون متعلقاً بفعل الغفران والرحمة المأخوذان من (الغفور الرحيم) في الآية السابقة، (ولكنّنا نرجح الاحتمال الأوّل لشموله).

والآية ٢٣ من سورة الأنعام تنقل لنا قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وعندما لا يلمسون أيّة فائدة لإنكارهم يتّجهون بإلقاء اللوم على أئمتهم وقادتهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾(١).

ولكنْ... لا فائدة من كلّ ذلك... ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

بحثان

١ - التقيّة وفلسفتها

إمتاز المسلمون الأوائل الذين تربّوا على يد النّبي ﷺ بروح مُقاومة عظيمة أمام أعدائهم، وسجلّ لنا التاريخ صوراً فريدة للصمود والتحدّي، وها هو «ياسر» لم يلن ولم يدخل حتى الغبطة الكاذبة على شفاه الأعداء، وما تلفّظ حتى بعبارة تافهة ممّا يطمح الأعداء أن يسمعوها منه، مع أنّ قلبه مملوءٌ ولاءً وإيماناً بالله تعالى وحبّاً وإخلاصاً للنّبي ﷺ وصبر على حاله رغم مرارتها فنال شرف الشهادة، ورحلت روحه الطاهرة إلى بارئها صابرة محتسبة تشكو إليه ظلم وجور أعداء دين الله.

وها هو ولده «عمّار» الذي خرجت منه كلمةٌ بين صفير الأسواط وشدّة الآلام تنمّ عن حالة الضعف ظاهراً، وبالرغم من اطمئنانه بإيمانه وتصديقه لنبيّه ﷺ، إلاّ أنّه اغتمّ كثيراً وارتعدت فرائصه حتى طمأنه النّبي ﷺ بحلّيّة ما فعل به حفظاً للنفس، فهدأ.

ويطالعنا تأريخ (بلال) عندما اعتنق الإسلام راح يدعو له ويدافع عن النّبي ﷺ، فشدَّ عليه المشركون حتى أنّهم طرحوه أرضاً تحت لهيب الشمس الحارقة، وما اكتفوا بذلك حتى وضعوا صخرةً كبيرة على صدره وهو بتلك الحال، وطلبوا منه أنْ يكفر بالله ولكنّه أبى أنْ يستجيب لطلبهم وبقي يردد: أحدٌ أحد، ثمّ قال: أُقسم بالله لو علمتُ قولاً أشدّ عليكم من هذا لقلته(٢).

ونقرأ في تاريخ (حبيب بن زيد) أنّه لمّا أسّره مسيلمة الكذاب فقد سأله: هل تشهد أنّ محمّداً رسول الله؟

قال: نعم.

ثمّ سأله: أتشهد أنّي رسول الله؟

فأجابه ساخراً: إنّي لا أسمع ما تقول! فقطّعوه إرباً إرباً[(١)].

والتاريخ الإسلامي حافل بصور كهذه، خصوصاً تاريخ المسلمين الأوائل وتاريخ أصحاب الأئمّة عليهم السلام.

ولهذا قال المحققون: إنّ ترك التقية وعدم التسليم للأعداء في حالات كهذه، عملٌ جائز حتى لو أدى الأمر إلى الشهادة، فالهدف سام وهو رفع لواء التوحيد وإعلاء كلمة الإسلام، وخاصة في بداية دعوة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان لهذا الأمر أهمّية خاصّة.

ومع هذا، فالتقية جائزة في موارد، وواجبة في موارد أُخرى، وخلافاً لما يعتقده البعض فإنّ التقية (في مكانها المناسب) ليست علامة للضعف، ولا هي مؤشّر للخوف من تسلط الأعداء، ولا هي تسليم لهم، بقدر ما هي نوع من المراوغة المحسوبة لحفظ الطاقات الإنسانية وعدم التفريط بالأفراد المؤمنين مقابل موضوعات صغيرة وقليلة الأهمية.

وممّا تعارف عليه كلّ الشعوب أنْ تلجأ الأقليات المجاهدة والمحاربة إلى أُسلوب العمل السرّي غالباً، وذلك لحفظ حياة الأفراد وتهيئة الظروف لإكثارهم، فتشكّل مجموعات سرّية وتضع لأنفسها برامج غير معلنة على غيرهم، حتى أنّ البعض من أفرادهم يحاول أن يتنكر حتى في زيّه، وإذا ما تمَّ اعتقالهم من قبل السلطة المعادية لمبادئهم فيحاولون جهد الإمكان إخفاء حقيقة أمرهم كي لاتخسر المجموعة كلّ طاقاتها، ولتكون قادرة على مواصلة الطريق بالبقية المتبقية منهم.

والعقل لا يجيز في ظروف كهذه أن تعلن المجموعة المجاهدة قليلة العدد عن نفسها، لكي لا يعرفها العدو بسهولة وهو القادر على القضاء عليها بما يملك من بطش وتسلط.

فالتقية قبل أنْ تكون برنامجاً إسلامياً هي أسلوب عقلاني ومنطقي، ينفّذه ويعمل به مَن يعيش صراعاً مع عدو قوّي متمكن منه.

ولذا فقد ورد تعبير (الترس) عن التقية في الأحاديث الشريفة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن»[(٢)].

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١١، الحديث (٦) من الباب (٢٤) من أبواب الأمر بالمعروف.

(لاحظوا أنّ التقية هنا شبّهت بالترس، والترس إنّما يستعمل في ميادين الحرب والقتال مع الأعداء لحفظ القوى الثائرة).

وإذا رأينا أنّ الأحاديث الشريفة تعتبر التقية علامةً للدين والإيمان وتقدّرها بتسعة أعشار الدين، فإنّما هو للسبب المذكور.

والمجال - في هذا الكتاب - لا يسع للخوض في تفصيل موضوع التقية، وكلّ ما أردنا بيانه هو أنّ مَنْ يستنكر التقية ويذمّها إنّما هو جاهل بشروطها وفلسفتها.

وثمّة حالات تحرم فيها التقية، حينما يكون حفظ النفس فيها سبباً لزوال الدين نفسه، أو قد تؤدّي التقية لحدوث فساد عظيم، فيجب والحال هذه كسر طوق التقية واستقبال كلّ خطر يترتب على ذلك(١).

٢ - المرتد الفطري والملي و... المخدوعين

لا يواجه الإسلام الذين لا يعتنقون الإسلام من (أهل الكتاب) بالشدّة والقسوة وإنّما يدعوهم باستمرار ويتحدث معهم بالمنطق السليم، فإذا لم يقتنعوا وراموا البقاء على ديانتهم فيعطون الأمان والتعهّد بحفظ أموالهم وأرواحهم ومصالحهم المشروعة بعد أن يعلنوا قبول شرط أهل الذمة في عهدهم مع المسلمين.

أمّا الذين يقبلون الإسلام ومن ثمّ يرتدون عنه فيواجهون بشدّة وعنف، لأنّ عملاً كهذا يؤدّي إلى أضرار فادحة تصيب المجتمع الإسلامي، وهو بمثابة نوع من الحرب ضد الحكومة الإسلامية، وغالباً ما يصدر مثل هذا العمل مستبطناً النيّة السيّئة بإيصال أسرار المجتمع الإسلامي (ونقاط القوة والضعف) ليد الأعداء المتربصين للمسلمين الدوائر.

فلهذا، مَنْ انعقدت نطفته وكان أبواه مسلمين عند انعقاد النطفة (مسلم الولادة) ثمّ تثبت المحكمة الإسلامية بأنّه قد ارتد عن الإسلام يباح دمه، تقسّم أمواله على ورثته، تبين عنه زوجته، وظاهراً لا تقبل توبته، أي إنّ هذه الأحكام الثلاثة تجري في حقه على كلّ حال، ولكن إذا ندم وتاب صادقاً، فإنّ توبته ستقبل عند الله تعالى (وتوبة المرأة تقبل على الإطلاق).

---

(١) لأجل المزيد من الإيضاح في مسألة التقية وأحكامها وفلسفتها وأدلتها، راجعوا كتابنا (القواعد الفقهية)، الجزء الثالث.

وإذا ارتدَّ إنسان ما عن الإسلام ولم يكن مسلماً بالولادة، يتعيّن عليه التوبة، فإن تاب قُبِلَتْ توبته وينجو من العقاب.

وقد يُنْظَر للحكم السياسي الصادر بحقِّ المرتدّ الفطري على أنّ فيه نوعاً من الخشونة والقسوة وفرضاً للعقيدة وسلباً لحرية الفكر، ولكنّ حقيقة هذه الأحكام تختص بمن يظهر عقائده المخالفة أو يدعو لها ولا تطال من يعتقد باعتقادات مخالفة ولكنّه لم يظهرها للناس، لأنّ الدعوة للعقائد المخالفة تمثّل في واقعها حرباً للنظام الاجتماعي الموجود، وعليه فلا تكون الخشونة والحال هذه عبثاً، ولا تتنافى وحرية الفكر والاعتقاد، وكما قلنا فإنّ شبيه هذا القانون موجود في كثير من دول الغرب والشرق مع بعض الاختلافات.

وينبغي الالتفات إلى أنّ قبول الإسلام يجب أن يكون طبقاً للمنطق، والذي يولد من أبوين مسلمين وينشأ بين أحضان بيئة إسلامية، فمن البعيد عدم إدراكه محتوى الإسلام، ولهذا يكون ارتداده وعدوله عن الإسلام أشبه بالخيانة منه من عدم إدراك الحقيقة، ولذلك فهو يستحق ما خُطَّ في حقه من عقاب.

على أنّ الأحكام عادةً لا تخصص لشخص أو شخصين وإنّما يلحظ فيها المجموع العام.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

التّفسير

الذين كفروا فأصابهم العذاب

قلنا مراراً: إنّ هذه السورة هي سورة النِّعَمْ، النعم المادية والمعنوية وعلى كافة الأصعدة، وقد مرَّ ذكر ذلك في آيات متعددة من هذه السورة المباركة.

وتصوّر لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهيّة على شكل مثل واقعي.

ويبتدئ التصوير القرآني بضرب مثل لمن لم يشكر نعمة الله عليه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ لا تضطر إلى هجرة إجبارية، بل تعيش في أمن وأمان ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ ومضافاً إلى ذلك ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

ولكنّ حالها قد تبدّل في النهاية ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وإضافة لاستكمال نعم الله المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم في الدنيا، ويدام لهم ذلك في الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء وأرسلت إليهم التعاليم السماوية ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾.

فكانت النتيجة أنْ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

وإنّكم حين تطّلعون على هذه النماذج الواقعية من الأُمم السابقة، فاعتبروا بها ولا تنهجوا طريق أُولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم الله ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

بحوث

١ - أهو مثالٌ أمْ حدثٌ تاريخي؟

لقد عبّرت الآيات أعلاه عند حديثها عن تلك المنطقة العامرة بكثرة النعم، والتي أصاب أهلها بلاء الجوع والخوف نتيجة كفرهم بأنعم الله، عبّرت عن ذلك بكلمة ﴿مَثَلًا﴾ وبذات الوقت فإنّ الآية استخدمت الأفعال بصيغة الماضي، ممّا يشير إلى وقوع ما حدث فعلاً في زمن ماض، وهنا حصل اختلاف بين المفسّرين في الهدف من البيان القرآني، فقسمٌ قد احتمل أنّ الهدف هو ضرب مثال عام، وذهب القسم الثّاني إلى أنّه لبيان واقعة تاريخية معيّنة.

وتطرّق مؤيدو الاحتمال الثّاني إلى تحديد المنطقة التي حدثت فيها هذه الواقعة. فذهب بعضهم أنّها أرض مكّة، ولعلّ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ تدعو إلى تقوية هذا الاحتمال، لأنّه دليل على أنّ هذه المنطقة مجدبة، وما تحتاج إليه يأتيها من خارجها، وما جاء في الآية ٥٧ من سورة القصص ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعضد هذا المعنى، خصوصاً وأنّ المفسّرين قد قطعوا بأنّها إشارة إلى مكّة المكرمة.

ويُردّ هذا الزعم بعدم معرفة حادثة كهذه في تاريخ مكّة على ما للحادثة من وضوح، فغير معروف عن مكّة أنّها عاشت أيّاماً رغيدة ومن ثمّ جاءها القحط والجوع!

وقال بعض آخر: حدثت هذه القصّة لجمع من بني إسرائيل في منطقة ما، وأنّهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله.

وممّا يؤيّد ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ قوماً في بني إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم يستنجون بها فلم يزل الله بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلونها وهو قول الله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾»(١).

ورويت روايات أُخرى قريبة من هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام وتفسير علي ابن إبراهيم ممّا لا يمكن الاعتماد الكامل على أسانيده، وإلاّ لكانت المسألة واضحة(٢).

وثمّة احتمال آخر وهو أنّ الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا في اليمن، وقد ذكر القرآن الكريم قصّتهم في الآيات ١٥ - ١٩ من سورة سبأ، وكيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار والخيرات في أمن وسلام، حتى أصابهم الغرور والطغيان والاستكبار وكفران النعم الإلهيّة، فأهلكهم الله وشتّت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرين.

وجملة ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ ليست دليلاً قاطعاً على أنّها لم تكن عامرة بذاتها، لأنّه من الممكن أنْ يقصد بـ﴿كُلِّ مَكَانٖ﴾ أطرافها وضواحيها، وكما هو معروف فإنّ المحاصيل الزراعية لإقليم كبير تنتقل إلى المدينة من القرى الموجودة في أطراف تلك المنطقة.

وينبغي التذكير مرّة أُخرى بعدم وجود المانع من شمولية إشارة الآية إلى كلّ ما ذكر من احتمالات.

وعلى أيّةِ حال، فليس ثمّة مشكلة مهمّة في تفسير هذه الآية وذلك لكثرة المناطق التي أصابها مثل هذه العاقبة عبر التاريخ.

وإذا كان عدم الاطمئنان الكافي في تعيين محل المنطقة قد دفع بعض المفسّرين إلى اعتبار الموضوع مثالاً عامّاً مجرّداً وليس منطقة معيّنة، فظاهر الآيات مورد البحث لا يناسب ذلك التّفسير، بل يشير إلى وجود منطقة معيّنة وحادثة تأريخية.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٩١ (لاحظ بأنّ الرّواية عن تفسير العياشي، وأحاديثه مرسلة).
(٢) المصدر السابق.

٢ - الرابطة ما بين الأمن والرّزق الكثير

ذكرت الآيات ثلاث خصائص لهذه المنطقة العامرة المباركة:

الخاصية الأُولى: الأمن.

الخاصية الثّانية: الاطمئنان في إدامة الحياة.

الخاصية الثّالثة: جلب الأرزاق والمواد الغذائية الكثيرة إليها.

وترتبط هذه الخواص فيما بينها ترابطاً علّياً وحسب تسلسلها، فكلّ خاصية ترتبط بما قبلها ارتباط علة ومعلول، فلو فُقِدَ الأمن لما اطمأن الإنسان على إدامة حياته في مكانه المعيّن، وإذا فقد الاثنان فلا رغبة حقيقية لأحد على الإنتاج وتحسين الوضع الاقتصادي هناك.

فالآية تقدّم درساً عملياً لمن يرغب في بلاد عامرة وحرّة ومستقلة، فقبل كلّ شيء لابدّ من توفير حالة الأمن، ومن ثمّ بعث الاطمئنان في قلوب الناس بخصوص مستقبل وجودهم في تلك المنطقة، ومن بعد ذلك يأتي دور تحريك عجلة الاقتصاد.

فبهذه النعم المادية الثلاث تصل المجتمعات إلى درجة تكامل حياتها المادية فقط، ووصولاً للحياة المتكاملة من كافة الجوانب (مادياً ومعنوياً) تحتاج المجتمعات إلى نعمة الإيمان والتوحيد، ولهذا فقد جاء بعد ذكر هذه النعم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾(١).

٣ - لباس الجوع والخوف

ذكرت الآيات في بيان عاقبة الكافرين بنعم الله، قائلةً: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فمن جهة: شبّهت الجوع والخوف باللباس، ومن جهة أُخرى: عبّرت بـ«أذاقها» بدلاً من (ألبسها).

وحمل هذا التفاوت في التعبير، المفسّرين إلى التوقف والتأمل في الآية...

فالتعبير يحمل بين طيّاته إشارة لطيفة، فمثلاً:

قال ابن الراوندي لابن الأعرابي الأديب: هل يُذاق اللباس؟

قال ابن الأعرابي: لا بأس ولا لباس يا أيُّها النسناس، هب أنّك تشكّ أنّ محمّداً ما كان نبيّاً، أما كان عربياً؟!(٢).

---

(١) تفسير الميزان، ج١٢، ص٣٨٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٠، ص ١٢٨.

وعلى أيّةِ حال، فالتعبير إشارة إلى أنّ القحط والخوف كانا من الشدّة وكأنّهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كلّ الجهات، وأبدانهم في تماس معه، ومن جهة أُخرى فقد وصلت حالة لمسهم للخوف والقحط كأنّهم يتذوقونه بألسنتهم.

وهو تعبير عن أشدّ حالات الخوف ومنتهى حالات الفقر والذي يمكن أن يصيب جميع وجود الإنسان.

فكما أنّ نعمة الأمن والرفاه قد غطّت كامل وجودهم في البداية، فها هم وقد حال بهم الأمر لأنْ يحلّ الفقر والخوف محلّها في آخر مطافهم نتيجة لكفرانهم بنعم الله سبحانه.

٤ - أثر كفران النعمة في تضييع المواهب الإلهيّة

رأينا في الرّواية المتقدمة كيف راح أُولئك المرفّهون بتطهير أجسادهم بواسطة المواد الغذائية بعد أنْ تسلّطت عليهم الغفلة وساورهم الغرور، حتى ابتلاهم الله بالقحط والخوف.

وعرض الحادثة ما هو إلا تنبيه للناس ولكلّ الأمم الغارقة بالنعم الإلهيّة، على أنّ الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع.

وهو تنبيه أيضاً للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) في أكياس الأوساخ دائماً.

وهو تنبيه كذلك لأُولئك الذين يهيّئون غذاءً يكفي لعشرين شخصاً، وليس لهم من الضيوف إلاّ أربعة، ولا يصل الزائد منه إلى بطون الجياع من الناس.

وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، ويملؤون مخازنهم انتظاراً لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد ويذهب هباءً من غير أنْ يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا يخلو أيّ عمل ممّا ذكر من عقوبة إلهيّة، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

وتتّضح أهمّية المسألة إذا علمنا أنّ المواد الغذائية على سطح الكرة الأرضية محدّدة بنسبة، فأيُّ إفراط في أيِّ نوع من المواد يؤدّي إلى حرمان نسبة من البشر من تلك المواد.

ولذلك جاء التأكيد الشديد حول هذه المسألة في الأحاديث الشريفة، حتى روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «كان أبي يكره أن يمسح يده في المنديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له، إلاّ أنْ يمصها، أو يكون إلى جانبه صبي فيمصها، قال: فإنّي أجد اليسير يقع من الخوان فأتفقده فيضحك الخادم، ثمّ قال: إنّ أهل قرية ممن كان قبلكم كان الله قد وسّع عليهم حتى طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شيء من هذا النقي فجعلناه نستنجي به كان ألين علينا من الحجارة، قال عليه السلام: فلما فعلوا ذلك بعث الله على أرضهم دواباً أصغر من الجراد فلم تدع لهم شيئاً خلقه الله إلاّ أكلته من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا على الذي كانوا يستنجون به، فأكلوه، وهي القرية التي قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾»(١)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

التّفسير

لا يفلح الكاذبون

بعد أنْ تحدثت الآيات السابقة عن النعم الإلهيّة ومسألة شكر النعمة، تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع وتطرح مسألة المحرمات الواقعية وغير الواقعية لتفصل بين الدين الحق وبين البدع التي أُحدثت في دين الله، وتشرع بالقول:

(١) تفسير نورالثقلين، ج ٣، ص ٩١ و٩٢، ح٢٤٨.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾(١).

وقد بحثنا موضوع تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير بالتفصيل في تفسيرنا للآية ١٧٣ من سورة البقرة.

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافياً على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، والدم من أكثر مكوّنات البدن تقبّلاً للتلوّث بالجراثيم، وأمّا لحم الخنزير فيعتبر سبباً للإصابة بالكثير من الأمراض الخطرة، وفوق كلّ ذلك (وكما قلنا في تفسيرنا لسورة البقرة) فتناول لحم الخنزير والدم، له الأثر الخطير على الحالة النفسية والأخلاقية للإنسان، بسبب التأثير الحاصل منهما على هرمونات البدن، (والميتة بسبب عدم ذبحها وخروج دمها فإنّ أضرار التلوّث تتضاعف فيها).

أمّا فلسفة تحريم ما يذبح لغير الله (حيث كانوا بدلاً من ذكر اسم الله عند الذبح يذكرون أسماء أصنامهم أو لا يتلفظون بشيء) فليست صحيّة، بل هي أخلاقية ومعنوية، حيث نعلم بعدم كفاية علّة التحليل والتحريم في الإسلام بملاحظة الجانب الصحي للموضوع، بل من المحرمات ذات جانب معنوي صرف، وحرّمت بلحاظ تهذيب الروح والنظر إلى الجنبة الأخلاقية، وقد يأتي التحريم في بعض الحالات حفظاً للنظام الاجتماعي.

فتحريم أكل لحم ما لم يذكر عليه اسم الله إنّما كان بلحاظ أخلاقي، فمن جهة يكون التحريم حرباً على الشرك وعبادة الأصنام، ومن جهة أُخرى يكون دعوة إلى خالق هذه النعم.

ويستفاد من المحتوى العام للآية والآيات التالية أنّ الإسلام يوصي بالاعتدال في تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم واكتفوا بالأغذية النباتية، ولا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحوم أيّاً كانت كأهل الجاهلية والبعض ممن يدّعي التمدّن في عصرنا الحاضر، ممن يجيزون أكل كلّ لحم (كالسحالي والسرطان وأنواع الديدان).

جواب على سؤال:

وهنا يأتي السؤال التالي.. ذكرت الآية المباركة أربعة أقسام من الحيوانات المحرمة

---

(١) ﴿أُهِلَّ﴾: من الإهلال، مأخوذٌ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤية الهلال، وباعتبار أنّ المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عالياً بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه بـ ﴿أُهِلَّ﴾.

الأكل أو أجزائها، والذي نعلمه أنّ المحرم من اللحوم أكثر ممّا ذكر، حتى أنّ بعض السور القرآنية ذكرت من المحرمات أكثر من أربعة أقسام (كما في الآية ٣ من سورة المائدة).

فلماذا حددت الآية أربعة أشياء فقط؟

وجواب السؤال - كما قلنا في تفسير الآية ١٤٥ من سورة الأنعام -: أنّ الحصر الموجود في الآية هو حصر إضافي، أي إنّ المقصود من استعمال ﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآيات لنفي وإبطال البدع التي كان يقول بها المشركون في تحريم بعض الحيوانات، وكأنّ القرآن يقول لهم: هذه الأشياء حرام، لا ما تقولون!

وثمّة احتمال آخر، وهو أنْ تكون هذه المحرمات الأربعة هي المحرمات الأصلية أو الأساسية، حيث إنّ ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ المذكورة في الآية ٣ من سورة المائدة داخلة في إحدى الأقسام الأربعة ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾.

أمّا المحرمات الأُخرى من أجزاء الحيوانات أو أنواعها - كالوحوش - فتأتي في الدرجة الثّانية، ولذا أتى حكم تحريمها بطريق سنّة النّبي ﷺ، وعليه فيمكن أنْ يكون الحصر في الآية حصراً حقيقياً، فتأمل.

وفي نهاية الآية سياقاً مع الأسلوب القرآني، ذُكرت الحالات والموارد الاستثنائية، يقول: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ كأن يكون في صحراء ولا يملك غذاء ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿بَاغٍ﴾ أو الباغي: (من البغي) بمعنى «الطلب»، ويأتي هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرّم الله.

﴿عَادٍ﴾ أو العادي، (من العدو) أي «التجاوز»، ويأتي هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حدّ الضرورة.

وورد تفسير (الباغي) في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بأنّه (الظالم)، و(العادي) بمعنى (الغاصب)، وجاء - أيضاً - الباغي: هو الذي يخرج على إمام زمانه، والعادي، هو السارق.

وإشارة الرّوايات المذكورة يمكن حملها على الاضطرار الحاصل عند السفر، فإذا سافر شخص ما طلباً للظلم والغصب والسرقة ثمّ اضطر إلى أكل هذه اللحوم المحرّمة فسوف لا يغفر له ذنبه، حتى وإن كان لحفظ حياته من الهلاك المحتّم.

وعلى أيّةِ حال، فلا تنافٍ بين ما ذهبت إليه التفاسير وبين المفهوم العام للآية، حيث يمكن جمعها.

وتأتي الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، والذي تطرّق القرآن إليه سابقاً بشكل غير مباشر، فتأتي الآية لتطرحه صراحةً حيث تقول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾(١).

أي إنّ ما جئتم به ليس إلاّ كذبة صريحة أطلقتها ألسنتكم في تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، وتحريمكم لأخرى! (إشارة إلى الأنعام التي حرّمها البعض على نفسه، والبعض الآخر حللها لنفسه بعد أنْ جعل قسماً منها لأصنامه).

فهل أعطاكم الله حقّ سنّ القوانين؟ أمْ أنّ أفكاركم المنحرفة وتقاليدكم العمياء هي التي دفعتكم لإحداث هذه البدع؟ .. أوَ ليس هذا كذباً وافتراءً على الله؟!

وجاء في الآية ١٣٦ من سورة الأنعام بوضوح: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ويستفاد كذلك من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ أنّهم كانوا يجعلون لأنفسهم حق التشريع في التحليل والتحريم، ويظنون أنّ الله يؤيّد بدعهم! (وعلى هذا فكانوا يضعون البدعة ويحللون ويحرمون أوّلاً ثمّ ينسبون ذلك إلى الله فيكون افتراءً آخر)(٢).

ويحذّر القرآن في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب والإفتراء على أيِّ إنسان، فكيف به إذا كان على الله عزّوجلّ !؟ فلا أقل والحال هذه من مضاعفة آثاره السيّئة.

وتوضّح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويمكن أنْ تكون ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ إشارة إلى أجنّة الحيوانات الميتة التي كانوا يحللونها لأنفسهم ويأكلون لحومها، أو إشارة إلى إشباعهم حبّ الذات وعبادتها بواسطة جعل

---

(١) وهكذا أصل تركيب جملة ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾: اللام: .. لام التعليل، «ما» في ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ .. مصدرية، و﴿ٱلْكَذِبَ﴾ .. مفعول ل - «تصف» .. فتكون العبارة: (لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لتوصيف ألسنتكم الكذب).

(٢) ولذا جاء ذكر افترائهم في الآية مسبوقاً باللام ليكون نتيجة وغاية لبدعهم - فتأمل.

البدع، أو أنّهم بتثبيت الشرك وعبادة الأصنام في مجتمعهم يتمكنون أن يحكموا على الناس مدّة من الزمن، وكلّ ذلك ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ سيعقبه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويطرح السؤال التالي: لماذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الآية التالية كأنّها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾.

وهو إشارة إلى ما ذكر في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿ذِى ظُفُرٍ﴾: هي الحيوانات ذات الظفر الواحد كالخيل.

﴿مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾: الشحوم التي في منطقة الظهر منها.

﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: الشحوم التي على أطراف الأمعاء والخاصرتين.

وحقيقة هذه المحرمات الإضافية العقاب والجزاء لليهود جرّاء ظلمهم، ولذلك يقول القرآن الكريم في آخر الآيات مورد البحث: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وكذلك ما جاء في الآيتين ١٦٠ و ١٦١ من سورة النساء: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴿١٦١﴾﴾.

فكان تحريم قسم من اللحوم على اليهود ذا جنبة عقابيّة دون أنْ يكون للمشركين القدرة على الإحتجاج في ذلك.

وما حرّمه المشركون إنْ هو إلاّ بدعة نشأت من خرافاتهم وأباطيلهم، لأنّ ما فعلوه ما كان جارياً لا عند اليهود ولا عند المسلمين (ويمكن أنْ تكون إشارة الآية تؤدّي إلى هذا المعنى وهو أنّكم فعلتم ما لا يتفق مع أيّ كتاب سماوي).

وفي آخر آية من الآيات مورد البحث، وتمشّياً مع الأُسلوب القرآني، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس والنادمين من ضلالهم، فيقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويلاحظ في هذه الآية جملة أُمور:

أوّلاً: اعتبرت علّة ارتكاب الذنب «الجهالة»، والجاهل المذنب يعود إلى طريق

الحق بعد ارتفاع حالة الجهل، وهؤلاء غير الذين ينهجون جادّة الضلال على علم واستكبار وغرور وتعصب وعناد منهم.

ثانياً: إنّ الآية لا تحدّد الموضوع بالتوبة القلبية والندم، بل تؤكّد على أثر التوبة من الناحية العملية وتعتبر الإصلاح مكمّلاً للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر الله»، وتؤكّد على وجوب إصلاح الأمور عملياً، وترميم ما أُفسِدَ من روح الإنسان أو المجتمع بارتكاب تلك الذنوب، للدلالة إلى التوبة الحقيقية لا توبة لقلقة اللسان.

ثالثاً: التأكيد على شمول الرحمة الإلهيّة والمغفرة لهم، ولكن بعد التوبة والإصلاح: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وبعبارة أُخرى إنّ مسألة قبول التوبة لا يكون إلاّ بعد الندم والإصلاح، وقد ذكر ذلك في ثلاثة تعابير:

أوّلاً: باستعمال الحرف ﴿ثُمَّ﴾.

ثانياً: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

ثالثاً: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾.

لكي يلتفت المذنبون إلى أنفسهم ويتركوا ذلك التفكير الخاطىء بأن يقولوا: نرجو لطف الله وغفرانه ورحمته، وهم على ارتكاب الذنوب دائمون.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا
لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

التّفسير

كان إبراهيم لوحده أُمّة!

كما قلنا مراراً بأنّ هذه السورة هي سورة النعم، وهدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق وواهب هذه النعم.

والآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور لله، ألا وهو «إبراهيم» بطل التوحيد، وأوّل قدوة للمسلمين عامة وللعرب خاصة.

والآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميدة التي كان يتحلّى بها إبراهيم عليه السلام.

١ - ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

وقد ذكر المفسّرون أسباباً كثيرة للتعبير عن إبراهيم عليه السلام بأنّه ﴿أُمَّةً﴾ وأهمّها أربعة:

الأوّل: كان لإبراهيم شخصية متكاملة جعلته أن يكون أُمّة بذاته، وشعاع شخصية الإنسان في بعض الأحيان يزداد حتى ليتعدّى الفرد والفردين والمجموعة فتصبح شخصيته تعادل شخصية أُمّة بكاملها.

الثّاني: كان إبراهيم عليه السلام قائداً وقدوة حسنة ومعلّماً كبيراً للإنسانية، ولذلك أطلق عليه ﴿أُمَّةً﴾ لأنّ «أُمّة» اسم مفعول يطلق على الذي تقتدي به الناس وتنصاع له.

وثمّة ارتباط معنوي خاص بين المعنيين الأوّل والثاني، حيث إنّ الذي يكون بمرتبة إمام في الصدق والاستقامة لأُمّة ما، يكون شريكاً لهم في أعمالهم وكأنّه نفس تلك الأُمّة.

الثّالث: كان إبراهيم عليه السلام موحّداً في محيط خالٍ من أيّ موحّد، فالجميع كانوا يخوضون في وحل الشرك وعبادة الأصنام، فهو والحال هذه ﴿أُمَّةً﴾ في قبال أمّة المشركين (الذين حوله).

الرّابع: كان إبراهيم عليه السلام منبعاً لوجود أُمّة، ولهذا أطلق القرآن عليه كلمة ﴿أُمَّةً﴾.

ولا مانع من أنْ تحمل هذه الكلمة القصيرة الموجزة كلّ ما ذكر ما معان كبيرة..

نعم فقد كان إبراهيم أمّة وكان إماماً عظيماً، وكان رجلاً صانع أُمّة، وكان منادياً بالتوحيد وسط بيئة اجتماعية خالية من أيّ موحّد(١).

وقال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر أنْ يجمع العالم في واحد

٢ - صفته الثّانية في هذه الآيات: أنّه كان ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

٣ - وكان دائماً على الصراط المستقيم سائراً على طريق الله، طريق الحق ﴿حَنِيفًا﴾.

---

(١) وفي الرّوايات عنه صلى الله عليه وآله أنّ عبد المطلب: «يُبعث يوم القيامة أُمّة وحده، عليه بهاء الملوك وسيماء الأنبياء» لأنّه كان مدافعاً عن التوحيد في بيئة الشرك وعبادة الأصنام. (سفينة البحار، ج ٢، ص ١٣٩).

٤ - ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان نور الله يملأ كلّ حياته وفكره، ويشغل كلّ زوايا قلبه.

٥ - وبعد كلّ هذه الصفات، فقد كان ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾.

وبعد عرض الصفات الخمس يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمّة لها، فيقول:

١ - ﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوة وإبلاغ دعوته.

٢ - ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وحفظه من كلّ انحراف، لأنّ الهداية لا تأتي لأحد عبثاً، بل لابدّ من توفّر الاستعداد والأهلية لذلك.

٣ - ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

«الحسنة» في معناها العام كلّ خير وإحسان، فتشمل منح مقام النّبوة، مروراً بالنعم المادية حتى نعمة الأولاد وما شابهها.

٤ - ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ومع أنّ إبراهيم كان على رأس الصالحين في الدنيا، فإنّه سيكون منهم في الآخرة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وهذه دلالة على عظمة مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السلام على ما له من مقام سام كأحدهم في دار الآخرة، ولِمَ لا يكون ذلك وقد طلب إبراهيم عليه السلام ذلك من ربّه حين قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١).

٥ - وختمت عطايا الله عزّ وجلّ لإبراهيم عليه السلام لما ظهر منه من صفات متكاملة، بأن جعل دينه عامّاً وشاملاً لما ما سيأتي بعده من أزمان - وخصوصاً للمسلمين - ولم يجعل دينه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(٢).

ويأتي التأكيد مرّة أُخرى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وبملاحظة الآيات السابقة يبدو لنا هذا السؤال: إنْ كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم وأنّ المسلمين يتّبعون سنن إبراهيم عليه السلام في كثير من المسائل ومنها احترام يوم الجمعة، فلماذا اتّخذ اليهود يوم السبت عيداً لهم بدلاً من الجمعة ويعطلون فيه أعمالهم؟

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

(٢) «الحنيف»: بمعنى الذي يترك الانحراف ويتّجه إلى الاستقامة والصلاح، وبعبارة أُخرى، يغضّ نظره عن الأديان والأوضاع المنحرفة ويتوجّه نحو صراط الله المستقيم، الدين الموافق للفطرة، ولهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل بين طيّاته إشارة خفيّة إلى أنّ التوحيد هو دين الفطرة.

إنّ آخر آية من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي إنّ السبت وما حرّم في السبت كان عقوبة لليهود، وقد اختلفوا فيه أيضاً، فمنهم مَنْ قبله ومنهم مَنْ أهمله.

وتقول بعض الرّوايات: إنّ موسى عليه السلام دعا قومه - بني إسرائيل - لاحترام يوم الجمعة وتعطيل أعمالهم فيه، وهو دين إبراهيم عليه السلام، إلاّ إنّهم تعلّلوا، واختاروا يوم السبت، فجعله الله عطلة لهم ولكنْ بضيق وشدّة، ولهذا لا ينبغي الاعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنّه إنّما كان استثنائياً وذا طابع جزائي، وأفضل دليل على هذا الأمر أنّ اليهود أنفسهم اختلفوا في يومهم المنتخب هذا، فبعض احترمه وبعض آخر خالف ذلك وأدام العمل والكسب فيه حتى أصابهم عذاب الله.

وثمّة احتمال آخر، أنْ تكون إشارة الآية مرتبطة ببدع المشركين في موضوع الأغذية الحيوانية، لأنّ الآيات السابقة تطرّقت لذلك من خلال إجابتها على تساؤل: لماذا لم يحرم في الإسلام ما كان محرّماً في دين اليهود؟ فجاء الجواب أنّ ذلك كان عقاباً لهم، فيطرح السؤال مرّة أُخرى حول عدم حرمة صيد الأسماك يوم السبت في الأحكام الإسلامية في حين أنّه محرّم على اليهود . . فيكون الجواب بأنّه كان عقاباً لليهود أيضاً.

وعلى أيّةِ حال، فثمّة ارتباط بين هذه الآيات والآيات١٦٣ - ١٦٦ من سورة الأعراف التي تتحدث عن «أصحاب السبت»، حيث عرضت قصّتهم، وكيف أنّ صيد السمك قد حرّم عليهم في يوم السبت، ومخالفة قسم منهم لهذا الأمر، والعقاب الشديد الذي نزل عليهم بعد ذلك الامتحان الإلهي.

وينبغي الالتفات إلى أنّ «السبت» في الأصل بمعنى تعطيل الأعمال للاستراحة، ولذلك سمّي يوم السبت، لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فيه، وبقي هذا الاسم مستعملاً حتى بعد مجيء الإسلام، إلاّ أنّه لا عطلة فيه.

ويقول القرآن الكريم في آخر الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ إحدى خصائص يوم القيامة إنهاء الاختلافات على كافّة الأصعدة، والعودة إلى التوحيد المطلق، لأنّ يوم القيامة هو يوم: البروز، الظهور، كشف السرائر والبواطن، وكشف الغطاء ويوم رفع الحجب.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ
عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾
وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا
يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

التّفسير

عشرة قواعد أخلاقية... سلاح داعية الحق

حملت آيات السورة بين طيّاتها أحاديث كثيرة ومتنوعة، فقد تناولت المشركين واليهود وأصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة ليّنة وأُخرى بأُسلوب تقريع وشدة، وخصوصاً الآيات السابقة لما لها من عمق وشدّة أكثر ممّا سبقها من الآيات المباركات.

أمّا الآيات أعلاه والتي تمثّل خاتمة بحوث وأحاديث سورة النحل، فتبيّن أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التي ينبغي التحصّن بها عند مواجهة المخالفين على أساس منطقي، كما وتبيّن كيفية العقاب والعفو وأُسلوب الصمود أمام مؤامراتهم وما شابه ذلك.

ويمكن تسمية ذلك بالأصول التكتيكية ومنهج المواجهة في الإسلام ضدّ المخالفين، كما وينبغي العمل به كقانون كلّي شامل لكلّ زمان ومكان.

ويتلخص هذا البرنامج الرّباني بعشر خطوات، تمّ ترتيبها وفقاً لتسلسل الآيات مورد البحث:

١ - : ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾

«الحكمة»: بمعنى العلم والمنطق والاستدلال، وهي في الأصل بمعنى (المنع) وقد أُطلقت على العلم والمنطق والاستدلال لقدرتها على منع الإنسان من الفساد والانحراف. . .

فأوّل خطوة على طريق الدعوة إلى الحقّ هي التمكّن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس ومحاولة تحريك وإيقاظ عقولهم، كخطوة أُولى في هذا الطريق.

٢ - ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾

وهي الخطوة الثّانية في طريق الدعوة إلى الله، بالاستفادة من عملية تحريك الوجدان الإنساني، وذلك لما للموعظة الحسنة من أثر دقيق وفاعل على عاطفة الإنسان وأحاسيسه، وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ.

وفي الحقيقة فإنّ «الحكمة» تستثمر البُعد العقلي للإنسان، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ تتعامل مع البُعد العاطفي له(١).

إنّ تقييد «الموعظة» بقيد «الحسنة» لعلّه إشارة إلى أنّ النصيحة والموعظة إنّما تؤدّي فعلها على الطرف المقابل إذا خلّيت من أيّةِ خشونة أو استعلاء وتحقير، التي تثير فيه حسّ العناد واللجاجة وما شابه ذلك.

فكم من موعظة أعطت عكس ما كان يُؤَمَّل بها بسبب أُسلوب طرحها الذي يُشْعِر الطرف المقابل بالحقارة والإهانة كأن تكون الموعظة امام الآخرين ومقرونة بالتحقير، أو يستشمّ منها رائحة الاستعلاء في الواعظ، فتأخذ الطرف المقابل العزّة بالإثم ولا يتجاوب مع تلك الموعظة.

وهكذا يترتب الأثر الإيجابي العميق للموعظة إذا كانت «حسنة».

٣ - ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

الخطوة الثّالثة تختص بتخلية أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فيه والأفكار المغلوطة ليكون مستعداً لتلقّي الحق عند المناظرة.

وبديهي أنْ تكون المجادلة والمناظرة ذات جدوى إذا كانت ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أيْ أنْ يحكمها الحق والعدل والصحة والأمانة والصدق، وتكون خالية من أيّةِ إهانة أو

(١) قال بعض المفسّرين في الفرق ما بين الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن: أنّ الحكمة إشارة إلى الأدلة القطعية . . الموعظة الحسنة إشارة إلى الأدلة الظنية . . . والمجادلة بالتي هي أحسن إشارة إلى الأدلة التي تهدف إلى إفحام المخالفين من خلال إلزامهم بما يقبلون. (إلاّ أنّ ما أوردناه أعلاه يبدو أكثر مناسبة للمقصود).

تحقير أو تكبّر أو مغالطة، وبعبارة شاملة: أنْ تحافظ على كلّ الأبعاد الإنسانية السليمة عند المناظرة.

وفي ذيل الآية الأُولى، يقول القرآن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

فالآية تشير إلى أنّ وظيفتكم هي الدعوة إلى طريق الحق بالطرق الثلاث المتقدمة، أمّا مسألة مَنْ الذي سيهتدي ومَنْ سيبقى على ضلاله، فعلم ذلك عند الله وحده سبحانه.

وثمّة احتمال آخر في مقصود هذه الجملة وهو بيان دليل للتوجيهات الثلاثة المتقدمة، أي: إنّما أمر سبحانه بهذه الأوامر الثلاثة لأنّه يعلم الكيفية التي تؤثّر بالضالين لأجل توجيههم وهدايتهم.

٤ - انصبّ الحديث في الأصول الثلاثة حول البحث المنطقي والأُسلوب العاطفي والمناقشة المعقولة مع المخالفين، وإذا حصلت المواجهة معهم ولم يتقبّلوا الحق وراحوا يعتدون، فهنا يأتي الأصل الرابع: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

٥ - ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾

وتقول الرّوايات: إنّ الآية نزلت في معركة (أُحد) عندما شاهد رسول الله ﷺ شهادة عمّه حمزّة بن عبدالمطلب المؤلمة (حيث لم يكتف العدو بقتله بل شقّ صدره بوحشيّة وقساوة فظيعة وأخرج كبده أو قلبه وقطع أُذنه وأنفه) وتأذى النّبي لذلك كثيراً وقال: «اللّهم لك الحمد وإليك وأنت المستعان على ما أرى» ثمّ قال: «لئن ظفرت لأمثلّن ولأمثلّن ولأمثلّن» وعلى رواية أُخرى أنّه قال: «لأمثلّن بسبعين منهم» فنزلت الآيـة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فـقـال رسول الله ﷺ: «اصبر اصبر»(١).

ربّما كانت تلك اللحظة من أشد لحظات حياة النّبي ﷺ ولكنّه تمالك زمام أُمور نفسه واختار الطريق الثّاني، طريق العفو والصبر.

ويحكي لنا التاريخ ما قام به الرّسول ﷺ حين فتح مكّة، فما أنْ وطأت أقدام المسلمين المنتصرة أرض مكّة حتى أصدر نبي الرحمة ﷺ العفو العام عن أُولئك الجفاة، فوفى بوعده الذي قطعه على نفسه في معركة أُحُد(٢).

---

(١) تفسير العياشي، وتفسير الدر المنثور في تفسير الآية (على ما ذكره تفسير الميزان).

(٢) يلاحظ في بعض الرّوايات أنّ القول بالمثلة بأكثر من واحد عند الظفر كان من بعض المسلمين (راجع تفسير التبيان، ج ٦، ص ٤٤٠).

وحرّي بالإنسان إذا أراد أنْ ينظر إلى أعلى نموذج حي في العواطف الإنسانية، أنْ يضع قصّتي أُحد وفتح مكّة نصب عينيه ليقارن ويربط بينهما.

ولعلّ التاريخ لا يشهد لأيّة أمّة منتصرة عاملت الطرف الآخر بمثل ما عامل به النّبي ﷺ والمسلمون مشركي مكّة عند انتصارهم عليهم، على الرغم من أنّ المسلمين كانوا من أبناء تلك البيئة التي نفذ شعور الانتقام والحقد فيها ليتوغّل ويركد في أعماق المجتمع، بل وكانت الأحقاد تتوارث جيلاً بعد جيل إلى حدّ كان عدم الانتقام يُعدّ عيباً كبيراً لا يمكن ستره!

ومن ثمار عفو وسماحة الإسلام أنْ اهتزت تلك الأُمة الجاهلة العنيدة من أعماقها واستيقظت من نوم غفلتها، وراح أفرادها كما يقول عنهم القرآن الكريم: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾(١).

٦ - ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾

والصبر إنّما يكون مؤثّراً وفاعلاً إذا قصد به رضوانه تعالى ولا يلحظ فيه أيّ شيء دون ذلك.

وهل يتمكن أيّ إنسان من الصبر على الكوارث المقطعة للقلب من غير هدف معنوي وبدون قوة إلهيّة ويتحمل الآلام دون فقدان الاتزان!؟... نعم، ففي سبيل رضوان الله كلّ شيء يهون وما التوفيق إلاّ منه عزّوجلّ.

٧ - وإذا لم ينفع الصبر في التبليغ والدعوة إلى الله، ولا العفو والتسامح، فلا ينبغي أنْ يحلّ اليأس في قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار في التبليغ بسعة صدر وهدوء أعصاب أكثر، ولهذا يقول القرآن الكريم في الأصل السابع: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

لأنّ الحزن والتأسف على عدم إيمان المعاندين يترك أحد أثرين على الإنسان، فإمّا أنْ يصيبه اليأس الدائم، أو يدفعه إلى الجزع والغضب وضعف التحمّل، فالنهي عن الحزن عليهم يحمل في واقعه نهياً للأمرين معاً، فينبغي للعاملين في طريق الدعوة إلى الله عدم الجزع وعدم اليأس.

٨ - ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعة ودقيقة وخطرة فلا ينبغي لك ترك الميدان،

---

(١) سورة النصر، الآية: ٢.

لظنّك أنْ قد وقعت في زاوية ضيّقة وحصار محكم، بل لابدّ من التوكّل على الله، وسوف تفشل كلّ الدسائس وتبطل مفعولها بقوّة الإيمان والثبات والمثابرة والعقل والحكمة.

وآخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع والعاشر، حيث تقول:

٩ - ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾

التقوى في جميع أبعادها وبمفهومها الواسع، ومنها: التقوى في مواجهة المخالفين بمراعاة أُصول الأخلاق الإسلامية عند المواجهة، فمع الأسير لابدّ من مراعاة أصول المعاملة الإسلامية، ومع المنحرف ينبغي مراعاة الإنصاف والأدب والتورّع عن الكذب والاتهام، وفي ميدان القتال لابدّ من التعامل على ضوء التعليمات العسكرية وفق الموازين والضوابط الإسلامية، فمثلاً: ينبغي عدم الهجوم على العزّل من الأعداء، وعدم التعرّض للأطفال والنساء والعجزة، ولا التعرض للمواشي والمزارع لأجل إتلافها، ولا بقطع الماء على العدو... وخلاصة القول: تجب مراعاة أُصول العدل مع العدو والصديق (وطبيعي أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم استثناءً وليس قاعدة).

١٠ - ﴿وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾

أكّد القرآن الكريم في كثير من آياته البيّنات بأن يقابل المؤمن إساءة الجاهل بالإحسان، عسى أنْ يخجل الطرف المقابل أو يستحي من موقفه المتشنج، وبهذه السلوكية الرائعة قد ينتقل ذلك الجاهل من ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ إلى أحسن الأصدقاء ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾!

وإذا عمل بالإحسان في محلّه المناسب، فإنّه أفضل أُسلوب للمواجهة، والتاريخ الإسلامي يرفدنا بعيّنات رائعة في هذا المجال... منها: موقف معاملة النّبي ﷺ مع مشركي مكّة بعد الفتح، معاملة النّبي الكريم ﷺ لـ(وحشي) قاتل حمزة، معاملته ﷺ لأسرى معركة بدر الكبرى، معاملته ﷺ مع مَنْ كان يؤذيه بمختلف السُّبل من يهود زمانه... ونجد شبيه معاملة النّبي ﷺ مع الآخرين قد تجسّدت عملياً في حياة علي عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام، وكلّ ذلك يكشف لنا بوضوح أهميّة الإحسان في حياة الإنسان من وجهة نظر الإسلام.

ومن دقيق العبارة في هذا المجال ما نجده في نهج البلاغة ضمن الخطبة المعروفة

بخطبة همّام[1]، ذلك الرجل الزاهد العابد الذي طلب من أمير المؤمنين عليه السلام أنْ يصف له المتقين، حيث اكتفى أمير المؤمنين عليه السلام بذكر الآية المباركة من مجموع القرآن وقال: اتق الله وأحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

ولكنّ السائل العاشق للحقّ لم يروَ عطشه بهذا البيان المختصر، ممّا اضطر الإمام عليه السلام أنْ يعرض له بياناً أكثر تفصيلاً حتى استخرجت من فمه الشريف أكمل خطبة في وصف المتقين، حوت على أكثر من مائة صفة لهم، إلاّ أنّ جوابه المختصر يبيّن أنّ الآية المباركة مختصر جامع لكلّ صفات المتقين.

وبنظرة تأمليّة ممعنة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصليّة والفرعية لأُسلوب مواجهة المخالفين، وأنّ هذه الأُصول إنّما احتوت كلّ الأُسس المنطقية والعاطفية والنفسية والتكتيكية، وكلّ ما يؤدّي للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الايجابي فيها.

ومع ذلك... فالاكتفاء بالمنطق والاستدلال في مواجهة الأعداء وفي كلّ الظروف لا يقول به الإسلام ولا يقرّه، بل كثيراً ما تدعو الضرورة لدخول الميدان عملياً في مواجهة الأعداء حتى يلزم الأمر في بعض الأحيان المقابلة بالمثل والتوسل بالقوّة في قبال استعمال القوّة من قبل الأعداء، والتحرك على مستوى الممارسة والتخطيط الميداني لمواجهة مخططات الأعداء ومؤامراتهم. ولكنْ أُصول العدل والتقوى والأخلاق الإسلامية يجب أنْ تراعى في جميع الحالات.

ولو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كلّ أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

خاتمة مقال سورة النحل «سورة النعِّم»:

ممّا يلفت النظر في السورة المباركة - كما قلنا سابقاً - ذكرها لكثير من النعم الإلهيّة، المادية منها والمعنوية، الظاهرية والباطنية، الفردية والاجتماعية، ممّا دعت المفسّرين لأن يطلقوا عليها اسم (سورة النعم).

وبملاحظة ودراسة آيات السورة تظهر لنا في حدود الأربعين نعمة من النعم الكبيرة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

والصغيرة متوزّعة بين طيّاتها، وسنذكر أدناه فهرساً لهذه النعم مع التأكيد على أنّ الهدف من ذكرها إنّما هو لأمرين:

الأوّل: تعليم درس التوحيد وبيان عظمة الخالق.

الثّاني: تقوية حب وتعلّق الإنسان بخالقه وتحريك غريزة الشكر لديه.

١ - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ - ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾.

٣ - ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾.

٤ - الاستفادة من صوفها وجلدها ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾.

٥ - ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾.

٦ - ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

٧ - الاستفادة من جمال الاستقلال الاقتصادي ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾.

٨ - ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ... ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴿٨﴾﴾.

٩ - الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٠ - ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾.

١١ - إنشاء المراعي ﴿شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

١٢ - ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

١٣ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

١٤ - ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

١٥ - ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾.

١٦ - ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾.

١٧ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

١٨ - ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

١٩ - ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

٢٠ - ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

٢١ - ﴿وَسُبُلًا﴾.

٢٢ - ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ لمعرفة الطرق.

٢٣ - ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ في معرفة الطرق ليلاً.

٢٤ - ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾.

٢٥ - ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

٢٦ - ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾.

٢٧ - العسل ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾.

٢٨ - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾.

٢٩ - ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾.

٣٠ - ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بمعناها الواسع.

٣١ - ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾.

٣٢ - ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾.

٣٣ - ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ﴾.

٣٤ - ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ وهي البيوت الثابتة.

٣٥ - ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ وهي البيوت المتحركة.

٣٦ - ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾.

٣٧ - نعمة الظلال ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾.

٣٨ - نعمة وجود الملاجىء الآمنة في الجبال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾.

٣٩ - ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾.

٤٠ - ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ أي: في الحروب.

وجاء في خاتمة هذه النعم: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾.

الهدف من ذكر النعم

لا حاجة للتنبيه على أنّ ذكر النعم الإلهيّة الواردة في القرآن الكريم لا يقصد منها إلقاء المِنّة أو كسب الوجاهة وما شابه ذلك، فشأن الباري أجلُّ وأسمى من ذلك وهو الغني ولا غني سواه، ولكنّ ذكرها جاء ضمن أُسلوب تربوي مبرمج يهدف لإيصال الإنسان إلى أرقى درجات الكمال الممكنة من الناحيتين المادية والمعنوية، وأقوى دليل على ذلك ما جاء في أواخر كثير من الآيات السابقة من عبارات والتي تصب - مع كثرتها وتنوعها - في نفس الاتجاه التربوي المطلوب.

فبعد ذكر نعمة تسخير البحار، يقول القرآن في الآية ١٤: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وبعد بيان نعمة الجبال والأنهار والسبل، يقول في الآية ١٥: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وبعد بيان أعظم النعم المعنوية (نعمة نزول القرآن) تأتي الآية ٤٤ لتقول: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وبعد ذكر نعمة آلات المعرفة المهمّة ﴿السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾، تقول الآية ٧٨: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وبعد الإشارة إلى إكمال النعم الإلهيّة، تقول الآية ٨١: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

وبعد ذكر جملة أُمور في مجال العدل والإحسان ومحاربة الفحشاء والمنكر والظلم، تأتي الآية ٩٠ لتقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

والحقيقة أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى خمسة أهداف من خلال ما ذكر في الموارد الستة أعلاه:

١ - الشكر.

٢ - الهداية.

٣ - التفكّر.

٤ - التسليم للحق.

٥ - التذكّر.

وممّا لا شك فيه أنّ الأهداف الخمسة مترابطة فيما بينها ترابطاً وثيقاً فالإنسان يبدأ بالتفكّر، وإذا نسي تذكّر، ثمّ يتحرك فيه حس الشكر لواهب النعم عليه، فيفتح الطريق إليه ليهتدي، وأخيراً يسلِّم لأوامر مولاه.

وعليه، فالأهداف الخمسة حلقات مترابطة في طريق التكامل، وإذا سلك السالك ضمن الضوابط المعطاة لحصل على نتائج مثمرة وعالية.

وثمّة ملاحظة، هي أنّ ذكر النعم الإلهيّة بشكليها الجمعي والفردي إنّما يراد بها بناء الإنسان الكامل.

إلهي! أحاطت نعمك بكلّ وجودنا، فغرقنا في بحر عطاياك، ولكننا لم نعرفك بعد.

إلهي! هب لنا بصراً وبصيرة نرى بهما طريق معرفتك وحبّك، ووفقنا للسير في مراضيك وأوصلنا إلى منزل الشاكرين حقاً.

اللّهم! أنت تعلم بحوائجنا دون غيرك، وتعلم أكثر منّا لما نريد، فَمُنَّ علينا لنكون كما تحب، واجعلنا خيراً ممّا يظن الناس إنّك سميع مجيب.

سُورَة الإسراء

مكيّة وعدد آياتـها مائة واحدى عشرة

قبل الدّخول في تفسير هَذِه السورة مِن المفيد الانتباه إلى النقاط الآتية:

أوّلاً: أسماء السّورة ومكان النّزول

بالرّغم من أنَّ الإسم المشهور لهَذه السورة هو «بني إسرائيل» إلاّ أنَّ لها أسماء أُخرى مثل «الإسراء» و«سبحان»(١).

ومن الواضح أنَّ ثمّة علاقة بين أي اسم مِن أسماء السورة وبين محتواها ومضمونها، فهي «بني إسرائيل» لأنّ هُناك قسماً مهمّاً في بداية السورة وَنهايتها يرتبط بالحديث عن بني إسرائيل.

وإذا قلنا إنّها سورة «الإسراء» فإنَّ ذلك يعود إلى الآية الأُولى فيها التي تتحدث عن إسراء (ومعراج) النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمّا تسميتها بـ«سبحان» فإنَّ ذلك يعود إلى الكلمة الأُولى في السورة المباركة.

ولكنّ الرّوايات التي تتحدّث عن فضيلة هَذِهِ السورة، تطلق عليها «بني إسرائيل» فقط. ولهذا السبب فإنَّ معظم المفسّرين يقتصرون على هَذا الاسم، وقد اختاروه دون غيره.

وبالنسبة لمكان نزول السورة، فمن المشهور أنّ جميع آياتها مكّية، وممّا يؤيّد ذلك أنَّ مضمون السورة ومفاهيمها يناسب بشكل كامل مضمون ومحتوى وسياق السور المكّية؛ هذا بالرغم من أنَّ المفسّرين يعتقدون بأنَّ هناك مقطعاً من السورة قد نزل في المدينة، ولكنّ المشهور ما شاعَ بين المفسّرين من مكّية تمام السورة.

ثانياً: فضيلة سورة الإسراء

وَردت في فضيلة سورة الإسراء وأجرها أحاديث كثيرة عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وَعن الإمام الصادق عليه السلام.

---

(١) تفسير الآلوسي، ج ١٥، ص ٢.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه»[١].

وبالنسبة لثواب قراءة سور القرآن الكريم والرّوايات التي تتحدث عن فضائلها، ينبغي أن يلاحظ أنّ ملاك الأمر لا يتعلق بمجرّد القراءة وحسب، وإنّما - كما قلنا مراراً - أنَّ التلاوة ينبغي أن تقترن بالتفكّر في معانيها والتأمُّل في مفاهيمها، وينبغي أن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، وتحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم في سلوكه.

خصوصاً وأنّنا نقرأ في واحدة من الرّوايات التي تتحدث عن فضيلة هَذِهِ السورة ما نصه: «فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين». أي إنّ هناك أثراً ترتَّب على القراءة، وقد تمثّل هنا بموجة مِن الأحاسيس النّبيلة والحبّ والمودّة للوالدين[٢].

إذاً، ألفاظ القرآن تملك ولا شك قيمة واحتراماً بحدّ ذاتها، إلاّ أنَّ هذه الألفاظ هي مقدمة للوعي الفكري الصحيح، كما أنَّ الوعي الفكري الإيماني الصحيح هو مقدمة للعمل الصالح.

ثالثاً: خطوط عامّة في محتوى السورة

لقد أشرنا إلى مكّية السورة وفق القول المشهور بين المفسّرين، لذا فإنَّ محتوى السورة يُوافق خصوصيات السور المكّية، من قبيل تركيزها على قضية التوحيد والمعاد، ومواجهة إشكاليات الشرك والظلم والانحراف.

وبالإمكان فرز المحاور المهمّة الآتية التي يدور حولها مضمون السورة:

أوّلاً: الإشارة إلى أدلة النّبوة الخاتمة وبراهينها، وفي مقدمتها معجزة القرآن وقضية المعراج.

ثانياً: ثمّة بحوث في السورة ترتبط بقضية المعاد وما يرتبط به من حديث عن صحيفة الأعمال، وقضية الثواب والعقاب المترتب على نتيجة الجزاء.

ثالثاً: تتحدَّث السورة في بدايتها ونهايتها عن قسم من تاريخ بني إسرائيل المليء بالأحداث.

رابعاً: تتعرض السورة إلى حريّة الاختيار لدى الإنسان وأنَّ الإنسان غير مجبر في

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٦، ص٣١٠.

(٢) مصباح الكفعمي، ص٤٤١.

أعماله، وبالتالي فإنّ على الإنسان أن يتحمّل مسؤولية تلك الحريّة من خلال تحمّله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

خامساً: تبحث السورة قضية الحساب والكتاب في هذه الدنيا، لكي يعي الإنسان قضية الحساب والكتاب على أعماله وأقواله في اليوم الآخر.

سادساً: تشير إلى الحقوق في المستويات المختلفة، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، وبالأخص منهم الأم والأب!

سابعاً: تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و«التبذير»، و«البخل»، و«قتل الأبناء»، و«الزنا»، و«أكل مال اليتيم»، و«البخس في المكيال»، و«التكبُّر»، و«إراقة الدماء».

ثامناً: في السورة بحوث حول التوحيد ومعرفة الله تعالى

تاسعاً: تواجه السورة مواقف العناد والمكابرة إزاء الحق، وأنّ الذنوب تتحوَّل إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

عاشراً: تركّز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

الحادي عشر: تؤكّد السورة على تأثير القرآن الكريم في معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.

الثاني عشر: تبحث السورة في المعجزة القرآنية وعدم تمكن الخصوم وعجزهم عن مواجهة هذه المعجزة.

الثالث عشر: تحذّر السورة المؤمنين مِن وساوس الشيطان وإغواءاته، وتنبههم إلى المسالك التي ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.

الرابع عشر: تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا والمفاهيم والتعاليم الأخلاقية.

الخامس عشر: أخيراً تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس والعبر من هذه القصص.

في كلّ الأحوال تعكس سورة الإسراء في مضمونها ومحتواها العقائدي والأخلاقي والاجتماعي لوحة متكاملة ومتناسقة لسمو وتكامل البشر في المجالات المختلفة.

والجميل في السورة أنّها تبدأ بـ «تسبيح الله» - جلَّ جلاله - وتنتهي بـ «الحمد والتكبير». والتسبيح هو تنزيهه عن كلّ عيب ونقص، والحمد علامة على تحقق صفات الفضيلة، وتمثُّلها في ذاته العُليا المقدَّسة، بينما التكبير هو رمز الشرف والعظمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

التفسير

معراج النّبي ﷺ

الآية الأُولى في سورة الإسراء تتحدَّث عن إسراء النّبي ﷺ، أي سفره ليلاً من المسجد الحرام في مكّة المكرمة إلى المسجد الأقصى (في القدس الشريف). وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه ﷺ إلى السماء. وقد لوحظ في هذا السفر أنّه تمَّ في زمن قياسي حيث إنّه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن ولهذا كان أمراً اعجازياً وخارقاً للعادة.

السّورة المباركة تبدأ بالقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾.

وقد كان القصد من هذا السفر الليلي الإعجازي هو ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

ثمّ خُتمت الآية بالقول: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وهذه إشارة إلى أنَّ الله تبارك وتعالى لم يختر رسوله ﷺ ولم يصطفه لشرف الإسراء والمعراج، إلاّ بعد أن اختبر استعداده ﷺ لهذا الشرف ولياقته لهذا المقام، فالله تبارك وتعالى سمع قول رسوله ﷺ ورأى عمله وسلوكه فاصطفاه للمقام السامي الذي اختاره له في الإسراء والمعراج.

واحتمل بعض المفسّرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أن يكون تهديداً لمنكري هذا الإعجاز، وأنَّ الله تباركَ وتعالى محيط بما يقولون وبما يفعلون، وبما يمكرون!

وَبالرغم مِن أنَّ هَذه الآية تنطوي على اختصار شديد، إلاّ أنّها تكشف عن مواصفات هذا السفر الليلي «الإسراء» الإعجازي مِن خلال ما ترسمهُ لهُ مِن أفق عام يمكن تفصيله بالشكل الآتي:

أوّلاً: إنَّ تعبير «أسرى» في الآية يشير إلى وقوع السفر ليلاً، لأنَّ «الإسراء» في لغة العرب يستخدم للدلالة على السفر الليلي، فيما يُطلق على السفر النهاري كلمة «سير».

ثانياً: بالرغم مِن أنَّ كلمة «ليلاً» جاءت في الآية تأكيداً لكلمة «أسرى» إلاّ أنّها تريد أن تبيّن أنّ سفر الرّسول ﷺ قد تمَّ في ليلة واحدة فقط على الرغم مِن أنّ المسافة بين المسجد الحرام وبيت المقدس تقدَّر بأكثر مِن مائة فرسخ، وبشروط مواصلات ذلك الزمان، كانَ إنجاز هذا السفر يتطلّب أيّاماً بل وأسابيع، لا أن يقع في ليلة واحدة فقط!

ثالثاً: إذا كانَ مقام العبودية هو أسمى مقام يبلغه الإنسان في حياته، فإنَّ الآية قد كرَّمت رسول الله ﷺ بإطلاق وصف العبودية عليه، فقالت «عبده» للدلالة على مراقي الطاعة والعبودية التي قطعها الرّسول ﷺ لله تبارك وَتعالى حتى استحق شرف «الإسراء» حيث لم يسجد جبين رسول الله ﷺ لشيء سوى الله، ولم يطع ﷺ ما عداه، وقد بذل كلّ وسعه، وخطا كلّ خطوة في سبيل مرضاته تعالى.

رابعاً: تفيد كلمة «عبد» في الآية، أنَّ سفر الإسراء قد وقع في اليقظة، وأنَّ رسول الله سافر بجسمه وروحه معاً، وأنَّ الإسراء لم يكن سفراً روحانياً معنوياً وحسب، لأنَّ الإسراء إذا كانَ بالروح - وحسب - فهو لا يعدو أن يكون رؤيا في المنام، أو أي وضع شبيه بهذه الحالة، ولكن كلمة «عبد» في الآية تدلّل على أنَّ رسول الله ﷺ قد سافر بجسمه وروحه، لأنَّ «عبد» كلمة تُطلق لتستوعب الروح والجسد معاً.

أمّا الأشخاص الذين لا يستطيعون هضم معجزة الإسراء والمعراج، ولم تستطع عقولهم أن تتعامل مَع هذه المعجزة كما هي، فقد عمدوا إلى توجيهها بعنوان الإسراء الروحي في حين أنّه لو قال شخص لآخر: إنّي نقلتك إلى المكان الفلاني فإنَّ المفهوم الصريح للمعنى لا يمكن تأويله باحتمال أنَّ هذا الأمر قد تمَّ في حالة النوم، أو أنّه تعبير عن حالة معنوية تمتزج بأبعاد مِن الوهم والتخيُّل.

خامساً: لقد كان مُبتدأ هذا السفر (الذي كان مقدمة للمعراج كما سنثبت ذلك في محلّه) هو المسجد الحرام في مكّة المكرمة، ومنتهاه المسجد الأقصى في القدس الشريف.

بالطبع هناك كلام كثير للمفسّرين عن المكان الدقيق الذي انطلق مِنهُ رسول الله ﷺ وفيما إذا كان هذا المكان بيت أحد أقربائه (باعتبار أنّ المسجد الحرام قد يطلق أحياناً ومن باب التعظيم على مكّة المكرمة بأجمعها) أو أنَّهُ انطلق مِن جوار الكعبة، ولكن ظاهر الآية بلا شك يفيد أنَّ المنطلق في سفر الإسراء كان مِن المسجد الحرام.

سادساً: لقد كان الهدف مِن هذا السفر الإعجازي أنْ يشاهد رسول الله ﷺ آيات

العظمة الإلهيّة، وقد استمرَّ سفر الإسراء إلى المعراج صعوداً في السماوات لتحقيق هذا الغرض، وهو أن تمتلىء روح رسول الله ﷺ أكثر بدلائل العظمة الرّبانية، وآيات الله في السماوات، ولتجد روحه السامية في هذه الآيات زخماً إضافياً يوظِّفهُ ﷺ في هداية الناس إلى ربّ السماوات والأرض!

وبذلك فإنَّ سفر رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج لم يكن - كما يتصوّر البعض ذلك - بهدف رؤية الله تبارك وتعالى ظنّاً منهم أنّه تعالى يشغل مكاناً في السماوات!!!

وبالرغم من أنّ الرّسول ﷺ كان عارفاً بعظمة الله سبحانه، وكان عارفاً أيضاً بعظمة خلقه، ولكن «متى كان السماع كالرؤية؟!».

ونقرأ في سورة (النّجم) التي تلت سورة الإسراء وتحدثت عن المعراج قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾(1).

سابعاً: إنَّ تعبير الآية ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ تفيد بأنَّه علاوة على قدسيّة المسجد الأقصى، فإنَّ أطرافه أيضاً تمتاز بالبركة والأفضلية على ما سواها، ويمكن أن يكون مُراد الآية البركة الظاهرية المتمثلة بما تهبه هذه الأرض الخصبة الخضراء مِن مزايا العمران والأنهار والزراعة.

ويمكن أن تُحمل البركة على قواعد الفهم المعنوي فتشير حين ذاك إلى ما تمثِّله هذه الأرض في طول التاريخ، مِن كونها مركزاً للنبوّات الإلهيّة، ومُنطلقاً لنور التوحيد، وأرضاً خصبة للدعوة إلى عبودية الله.

ثامناً: إنَّ تعبير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إشارة إلى أنَّ إكرام الله لرسوله ﷺ بمعجزة الإسراء والمعراج لم يكن أمراً عفوياً عابراً، بل هو بسبب استعدادات رسول الهدى ﷺ وقابلياته العظيمة التي تجلّت في أقواله وأفعاله، هذه الأقوال والأفعال التي يعرفها الله ويحيط بها.

تاسعاً: إنَّ كلمة «سبحان» إشارة إلى أنَّ سفر رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج دليل آخر على تنزيه الله تبارك وتعالى من كل عيب ونقص.

عاشراً: كلمة ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ إشارة إلى عظمة آيات الله بحيث

---

(1) سورة النجم، الآية: ١٨.

إنَّ رسول الله ﷺ - على علو مقامه واستعداده الكبير - لم ير مِن هذه الآيات خلال سفره الإعجازي سوى جزء معين مِنها.

المعراج

مِن المعروف والمشهور بين علماء الإسلام أنَّ رسول الله ﷺ عند ما كان في مكّة! أسرى بِهِ الله تبارك وتعالى بقدرته مِن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وَمِن هُناك صعد بِهِ إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الرّبانية وآيات الله الكبرى في فضاء السماوات، ثمّ عادَ ﷺ في نفس الليلة إلى مكّة المكرمة.

والمعروف المشهور أيضاً أنّ سفر الرّسول ﷺ في الإسراء والمعراج قد تمَّ بجسم رسول الله ﷺ وروحه معاً.

ولكنّ العجيب ما يحاولهُ البعض مِن توجيه معراج الرّسول ﷺ بالمعراج الروحي والذي هو حالة شبيهة بالنوم أو «المكاشفة الروحية» ولكن هذا التوجيه - كما أشرنا - لا ينسجم اطلاقاً معَ ظواهر الآيات، بل هو مخالف لها، إذ يدل الظاهر على أنَّ القضية تمّت بشكل جسمي حسي.

وفي كلّ الأحوال تبقى هُناك مجموعة أسئلة تثار حول قضية المعراج يمكن أن نلخّصها بالشكل الآتي:

١ - كيفية المعراج مِن وجهة نظر القرآن والتاريخ والحديث.

٢ - آراء علماء الإسلام شيعة وسنّة حول هذه القضية.

٣ - الهدف مِن المعراج.

٤ - إمكانية المعراج مِن وجهة نظر العلوم المعاصرة.

بالرغم مِن أنّ الإجابة المُفصَّلة على هذه الأسئلة هي خارج نطاق بحثنا التّفسيري، إلاّ أنّنا سنعالج هذه النقاط باختصار يُناسب ذوق القارىء الكريم. إن شاء الله:

المعراج في القرآن والحديث

في كتاب الله سورتان تتحدثان عن المعراج:

السورة الأُولى هي سورة «الإسراء» التي نحنُ الآن بصددها، وقد أشارت إلى القسم الأوّل مِن سفر الرّسول ﷺ «أي أشارت لإسرائه ﷺ مِن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» وقد استتبع الإسراء بالمعراج.

السورة الثّانية التي أشارت للمعراج هي سورة «النجم» التي تحدثت عنهُ في ستِ آيـات هـي: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[(١)].

هذه الآيات تفيد حسب أقوال المفسّرين أنَّ الإسراء والمعراج تحققا في حالة اليقظة، وإنّ قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ هو إثبات آخر لصحة هذا القول.

في الكتب الإسلامية المعروفة هُناك عدد كبير جدّاً مِن الأحاديث والرّوايات التي جاءت حول قضية المعراج، حتى أنَّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلى «تواتر» حديث المعراج أو اشتهاره، وعلى سبيل المثال نعرض النماذج الآتية:

يقول الشيخ «الطوسي» في تفسير (التبيان) ما نصّهُ: «إنَّهُ عرج به في تلك الليلة إلى السماوات حتى بلغ سدرة المنتهى في السماء السابعة، وأراه الله مِن آيات السماوات والأرض ما ازداد به معرفة ويقيناً، وكان ذلك في يقظته ﷺ دون منامه»[(٢)].

أمّا العلاّمة «الطبرسي» في تفسيره المعروف «مجمع البيان» فيقول: «وما قالهُ بعضهم أنَّ ذلك كانَ في النوم فظاهر البطلان إذ لا معجز يكون فيه ولا برهان، وقد وردت روايات كثيرة في قصّة المعراج، في عروج نبيّنا ﷺ إلى السماء، ورواها كثير من الصحابة... [إذ إنَّهُ ﷺ] صلّى المغرب في المسجد الحرام ثمّ أُسري به في ليلته ثمّ رجع فصلى الصبح في المسجد الحرام. وقال الأكثرون وهو الظاهر مِن مذاهب أصحابنا والمشهور في أخبارهم، أنَّ الله تعالى صعد بجسمه إلى السماء حيّاً سليماً حتى رأى ما رأى مِن ملكوت السماوات بعينه، ولم يكن ذلك في المنام»[(٣)].

أمّا العلاّمة «المجلسي» فيقول في (بحار الأنوار) ما نصّه: «اعلم أنَّ عروجه ﷺ إلى بيت المقدس ثمّ إلى السماء في ليلة واحدة بجسده الشريف، ممّا دلّت عليه الآيات والأخبار المتواترة مِن طرق الخاصّة والعامّة، وإنكار أمثال ذلك أو تأويلها بالعروج الروحاني أو بكونه في المنام ينشأ إمّا مِن قلّة التتبع في آثار الأئمّة الطاهرين أو مِن ضعف اليقين»[(٤)].

---

(١) سورة النجم، الآيات: ١٣ - ١٨.
(٢) تفسير «التبيان»، للشيخ الطوسي، ج ٦، ص ٤٤٦.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٩٥.
(٤) بحار الأنوار، الطبعة الحديثة، ج ١٨، ص ٢٨٢ و٢٨٩ و٤٠٩.

ثمّ يردف العلاّمة المجلسي قائلاً: «لو أردت استيفاء الأخبار الواردة في هذا الباب لصار مجلداً كبيراً»[١].

ومِن علماء السنّة قام منصور علي ناصف الأزهري المعاصر بجمع أحاديث المعراج في كتابه المعروف باسم «التاج».

أمّا الفخر الرازي - المفسّر الإسلامي المعروف - فيقول بعد ذكره لسلسلة مِن الاستدلالات على إمكان الوقوع العقلي للمعراج، ما يلي: «مِن وُجهة نظر الحديث تعتبر أحاديث المعراج من الرّوايات المشهورة في صحاح أهل السنّة، ومفاد هذه الأحاديث إسراء الرّسول ﷺ مِن مكّة إلى بيت المقدس، وعروجه مِن بيت المقدس إلى السماء».

أمّا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وهو مِن مُتعصبي علماء الوهابية والذي يشغل الآن منصب رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، فيقول في كتابه «التحذير مِن البدع»: «ليس مِن شك في أنَّ الإسراء والمعراج هي مِن العلامات الكبيرة على صدق النّبي ﷺ وعلوّ مقامه ومنزلته» إلى أن يقول: «نقلت أخبار متواترة عن الرّسول ﷺ بأنَّ الله تبارك وتعالى أخذ الرّسول ﷺ وفتح لهُ أبواب السماء»[٢].

وَلكن ينبغي أن نلاحظ هُنا أنّ مِن بين الرّوايات الواردة في قضية المعراج ثمّة أحاديث ضعيفة ومجعولة لا يمكن القبول بها مطلقاً.

لذلك نرى أنّ المفسّر الإسلامي الكبير، الشيخ الطبرسي عَمدَ في ذيل تفسير هذه الآية مورد البحث إلى تقسيم الأحاديث الواردة في المعراج إلى أربع فئات هي:

١ - ما يُقطع بصحته لِتواتر الأخبار به وإحاطة العلم بصحته، ومثلهُ أنَّهُ أسري بِهِ على الجملة.

٢ - ما وردَ في ذلك ممّا تجوّزه العقول ولا تأباه الأُصول، فنحنُ نجوّزه ثمّ نقطع على أنَّ ذلك كان في يقظته دون منامه، ومثله ما شاهده مِن آيات ربّه في السماوات.

٣ - ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول إلاّ أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق العقول، نحو ما روي أنَّهُ ﷺ رأى قوماً في الجنّة يتنعمون فيها، وقوماً في النّار يعذبون فيها، فهو يُحمل على أنَّهُ رأى صفتهم أو أسماءهم.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٢) التحذير مِن البدع، ص ٧.

٤ - ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله إلاّ على التعسف البعيد فالأولى أن لا نقبله، نحو ما قيل مِن أنَّهُ ﷺ كلَّم الله سبحانه جهرة، ورآه وقعد معه على سريره... ممّا يوجب ظاهره التشبيه، والله سبحانه وتعالى يتقدَّس عن ذلك[1].

هناك أيضاً اختلافات بين المؤرخين المسلمين حول تاريخ وقوع المعراج، إذ يقول البعض: إنّه حصل في السنة العاشرة للبعثة في ليلة السابع والعشرين مِن شهر رجب، والبعض يقول: إنَّهُ عرجَ به ﷺ في ١٧ رمضان مِن السنة الثّانية عشرة للبعثة المباركة. وبعض ثالث قال: إنَّ المعراج وَقَع في أوائل البعثة.

ولكن في كلّ الأحوال، فإنَّ الاختلاف في تأريخ وقوع المعراج لا ينفي أصل الحادثة.

مِنَ المفيد أيضاً أن نذكر أنَّ عقيدة المعراج لا تقتصر على المسلمين، بل هُناك ما يُشابهها في الأديان الأخرى، بل إنّا نرى في المسيحية أكثر ممّا قيل في معراج النّبي ﷺ، إذ يقول أُولئك كما في الباب السّادس مِن إنجيل «مرقس» والباب ٢٤ مِن إنجيل «لوقا» والباب ٢١ مِن إنجيل (يوحنّا): إنّ عيسى بعد أن صُلب وقُتل ودُفن نهض مِن مدفنه وعاش بين الناس أربعين يوماً قبل أن يعرج إلى السماء ليبقى هناك في عروج دائم! ونستفيد مِن مؤدّى بعض الرّوايات أنّ بعض الأنبياء السابقين عُرِجَ بهم إلى السماء أيضاً.

هل كان المعراج جسدياً أم روحياً؟

إنّ ظاهر الآيات القرآنية الواردة في أوائل سورة الإسراء، وكذلك سورة النجم (كما تقدم أعلاه) تدلل على وقوع المعراج في اليقظة، ويؤكّد هذا الأمر كبار علماء الإسلام من الشيعة والسنة.

وتشهد التواريخ الإسلامية أيضاً على صدق هذا الموضوع، ونقرأ في التاريخ أنّ المشركين أنكروا بشدّة قضية المعراج عندما تحدّث بها الرّسول ﷺ، وأخذوها عليه ذريعة للاستهزاء به، ممّا يدل بوضوح على أنّ الرّسول لم يدّع الرؤية أو المكاشفة الروحية أبداً، وإلاّ لما استتبع القضية كلّ هذا الضجيج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصري أنّه: (كان في المنام رؤيا رآها) أو عن عائشة أنّه: (والله ما فُقِدَ جسد رسول الله ولكن عرج بروحه)، فيبدو أنّ لذلك منظور سياسي، لإخماد الضجّة التي أثيرت حول قضية المعراج.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣٩٥.

هدف المعراج

اتّضح لنا من خلال البحوث الماضية، أنّ هدف المعراج لم يكن تجوالاً للرّسول ﷺ في السماوات للقاء الله كما يعتقد السذّج، وكما نقل بعض العلماء الغربيين - ومع الأسف - لجهلهم أو لمحاولتهم تحريف الإسلام أمام الآخرين، ومنهم (غيور غيف) الذي يقول في كتاب (محمد رسول ينبغي معرفته من جديد، ص ١٢٠)، (بلغ محمد في سفر معراجه إلى مكان كان يسمع فيه صوت قلم الله ويفهم أنّ الله منهمك في تدوين حساب البشر ومع أنّه كان يسمع صوت قلم الله إلاّ أنّه لم يكن يراه لأنّ أحداً لا يستطيع رؤية الله وإن كان رسولاً).

وهذا يُظهر أنّ القلم كان من النوع الخشبي! الذي يهتز ويولّد أصواتاً عند حركته على الورق!! وأمثال هذه الخرافات والأوهام.

كلا. فالهدف كان مشاهدة الرّسول ﷺ لأسرار العظمة الإلهيّة في أرجاء عالم الوجود، لا سيما العالم العلوي الذي يشكّل مجموعة من براهين عظمته، وتتغذى بها روحه الكريمة وتحصل على نظرة وإدراك أفضل لهداية البشرية وقيادتها.

ويتّضح هذا الهدف بشكل صريح في الآية الأُولى من سورة الإسراء، والآية ١٨ من سورة النجم.

وهناك رواية أيضاً منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه على سبب المعراج. أنّه قال عليه السلام: «إنّ الله لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزّ وجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكّان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه»(١).

المعراج والعلوم العصرية

كان بعض الفلاسفة القدماء يعتقد بنظرية «الأفلاك البطليموسية التسعة» والتي تكون على شكل طبقات البصل في إحاطتها بالأرض، لذلك فقد أُنكر المعراج بمزاعم علميّة تقوم على أساس الإيمان بنظرية الهيئة البطليموسية والتي بموجبها يلزَم خرق هذه الأفلاك ومِن ثمّ التئامها ليكون المعراج ممكناً(٢).

ولكن مع انهيار قواعد نظرية الهيئة البطليموسية أصبحت شبهة خرق والتئام الأفلاك

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٠٠؛ بحار الأنوار، ج٣، ص٣١٥.

(٢) بعض القدماء يعتقد بعدم إمكان خرق هذه الأفلاك ثمّ التئامها.

في خبر كان، وضمّتها يد النسيان، ولكن التطوّر المعاصر في علم الأفلاك أدّى إلى إثارة مجموعة مِن الشبهات العلمية التي تقف دون إمكانية المعراج علمياً، وهذه الشبهات يمكن تلخيصها كما يلي:

أوّلاً: إنّ أوّل ما تواجه الذي يريد أن يجتاز المحيط الفضائي للأرض إلى عمق الفضاء هو وجوب الانفلات مِن قوّة الجاذبية الأرضية، ويحتاج الإنسان للتخلّص مِن الجاذبية إلى وسائل استثنائية تكون معدَّل سرعتها على الأقل ٤٠ ألف كيلومتر في الساعة.

ثانياً: المانع الآخر يتمثل في خلو الفضاء الخارجي مِن الهواء، الذي هو القوام في حياة الإنسان.

ثالثاً: المانع الثّالث يتمثل بالحرارة الشديدة الحارقة (للشمس) والبرودة القاتلة، وذلك بحسب موقع الإنسان في الفضاء مِن الشمس.

رابعاً: هناك خطر الإشعاعات الفضائية القاتلة كالأشعّة الكونية والأشعّة ما وراء البنفسجية وأشعّة إكس، إذ مِن المعروف أنّ الجسم يحتاج إلى كميّات ضئيلة مِن هذه الإشعاعات، وهي بهذا الحجم لا تشكّل ضرراً على جسم الإنسان ووجود طبقة الغلاف الجوّي يمنع من تسربها بكثرة إلى الأرض. ، ولكن خارج محيط الغلاف الجوّي تكثُر هذه الإشعاعات إلى درجة تكون قاتلة.

خامساً: هُناك مُشكلة فقدان الوزن التي يتعرض لها الإنسان في الفضاء الخارجي، فمن الممكن للإنسان أن يتعوَّد تدريجياً على الحياة في أجواء انعدام الوزن، إلاّ أنَّ انتقاله مرّة واحدة إلى الفضاء الخارجي - كما في المعراج - هو أمرٌ صعب للغاية، بل غير ممكن.

سادساً: المشكلة الأخيرة هي مُشكلة الزمان، حيثُ تؤكد علوم اليوم على أنَّهُ ليست هُناك وسيلة تسير أسرع مِن سرعة الضوء، والذي يريد أن يجول في سماوات الفضاء الخارجي يحتاج إلى سرعة تكون أسرع مِن سرعة الضوء!

في مُواجهةِ هذه الأسئلة:

أوّلاً: في عصرنا الحاضر، وبعد أن أصبحت الرحلات الفضائية بالاستفادة مِن معطيات العلوم أمراً عادياً، فإنَّ خمساً مِن المشاكل الست الآنفة تنتفي، وتبقى - فقط - مشكلة الزمن. وهذه المشكلة تثار فقط عند الحديث عن المناطق الفضائية البعيدة جداً.

ثانياً: إنَّ المعراج لم يكن حدثاً عادياً، بل أمرٌ إعجازي خارق للعادة تمّ بالقدرة

الإلهيّة. وكذلك الحال في كافة معجزات الأنبياء وهذا يعني عدم استحالة المعجزة عقلاً، أمّا الأمور الأُخرى فتتم بالاستناد إلى القدرات الإلهيّة.

وإذا كانَ الإنسان قد استطاع باستثمار معطيات العلوم الحديثة أن يوفِّر حلولاً للمشكلات الآنفة الذكر، مثل مشكلة الجاذبية والأشعّة وانعدام الوزن وما إلى ذلك، حتى أصبح بمستطاعه السفر إلى الفضاء الخارجي... فألا يمكن الله - خالق الكون، صاحب القدرات المطلقة - أن يوفِّر وسيلة تتجاوز المشكلات المذكورة؟!

إنّنا على يقين من أنَّ الله تبارك وتعالى وضع في مُتناول رسوله ﷺ مركباً مناسباً صانهُ فيه عن كلّ المخاطر والأضرار في معراجه نحو السماوات، ولكن ما اسم هذا المركب هل هو «البُراق» أو «رفرف»؟ وعلى أيّ شكل وهيئة كان؟ كلّ هذه أُمور غامضة بالنسبة لنا، ولكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمَّ، وإذا أردنا أن نتجاوز كلّ هذه الأُمور فإنَّ مشكلة السرعة التي بقيت - لوحدها - تحتاج إلى حل، فإنَّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكلة بعد أن وجدت لها حلولاً مناسبة بالرغم ممّا يُؤكّده «أنشتاين» في نظريته من أنّ سرعة الضوء هي أقصى سرعة معروفة اليوم.

إنّ علماء اليوم يُؤكّدون أنَّ الأمواج الجاذبة لا تحتاج إلى الزمن، وهي تنتقل في آن واحد من طرف من العالم إلى الطرف الآخر منه وهناك احتمال مطروح بالنسبة للحركة المرتبطة بتوسّع الكون (مِن المعروف أنَّ الكون في حالة اتساع وأنّ النجوم والمنظومات السماوية تبتعد عن بعضها البعض بحركة سريعة) إذ يلاحظ أنَّ الأفلاك والنجوم والمنظومات الفضائية تبتعد عن بعضها البعض وعن مركز الكون إلى أطرافه، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء!

إذن، بكلام مُختصر نقول: إنَّ المشكلات الآنفة ليس فيها ما يحول عقلاً دون وقوع المعراج، ودون التصديق به، والمعراج بذلك لا يعتبر مِن المحالات العقلية، بل بالإمكان تذليل المشكلات المثارة حوله بتوظيف الوسائل والقدرات المناسبة.

وبذلك فالمعراج لا يعتبر أمراً غير ممكن لا مِن وجهة الأدلة العقلية، ولا مِن وجهة معطيات وموازين العلوم المعاصرة، وهو بالإضافة إلى ذلك أمرٌ إعجازي خارق للعادة. لذلك، إذا قام الدليل النقلي السليم عليه فينبغي قبوله والإيمان به[1].

---

(١) للمزيد مِن التفاصيل يمكن مُراجعة كتاب: «الكل يريد أن يعرف» والذي يبحث في قضية المعراج وشق القمر بالإضافة إلى قضايا أُخرى.

وأخيراً. . . هناك إشارات أُخرى حول المعراج سنقف عليها أثناء الحديث عن سورة النجم إن شاء الله.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

التّفسير

بعد أن أشارت الآية الأُولى في السورة إلى معجزة إسراء النّبي ﷺ ليلاً مِن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كشفت آيات السورة الأُخرى، عن موقف المشركين والمعارضين لمثل هذه الأحداث، وأبانت استنكارهم لها، وعنادهم إزاء الحق، في هذا الاتجاه انعطفت الآية الأُولى - مِن الآيات مورد البحث - على قوم موسى، لتقول لرسول الله ﷺ: إنّ تأريخ النبوّات واحد، وإنَّ موقف المعاندين واحد أيضاً، وإنَّهُ ليس مِن الجديد أن يقف الشرك القرشي موقفه هذا منك، وبين يديك الآن تأريخ بني إسرائيل في موقفهم مِن موسى عليه السلام.

تقول الآية أوّلاً: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وصفة هذا الكتاب أنّه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والكتاب الذي تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذي نزل على موسى عليه السلام هدىً لبني إسرائيل.

ثمّ تشير الآية إلى الهدف مِن بعثة الأنبياء بما فيهم موسى عليه السلام فتقول: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾(١).

إنَّ التوحيد في العمل هو واحدٌ مِن معالم أصل التوحيد، وهو علامة على التوحيد العقائدي. الآية تقول: لا تتكىء على أحد سوى الله، وإنَّ أي اعتماد على غيره دلالة على ضعف الإيمان بأصل التوحيد. إنَّ أسمى معاني التجلّي في هداية الكتب السماوية، هو اشتعال نور التوحيد في القلوب والانقطاع عن الجميع والاتصال بالله تعالى.

ومن أجل أن تحرِّك الآية التالية عواطف بني إسرائيل وتحفّزهم لشكر النعم الإلهيّة عليهم، خصوصاً نعمة نزول الكتاب السماوي، فإنّها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾(٢) ولا تنسوا: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

والآية تخاطب بني إسرائيل بأنّهم أولاد مَن كانَ مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم في الشكر لأنعم الله.

«شكور» صيغة مبالغة بمعنى «كثير الشكر»، وأمّا كون بني إسرائيل ذرية مَن كانَ مع نوح، فإنّ ذلك قد يعود إلى أنَّ مَن في الأرض جميعاً، بعد طوفان نوح، ومنهم بنو إسرائيل، هم كُلّهم مِن سلالة الأبناء الثلاثة لنوح، أي «سام» و«حام» و«يافث» كما ورد في كتب التاريخ. وممّا لا شكّ فيه أنَّ كلّ أنبياء الله شكورون، ولكنَّ الأحاديث تعطي ميزة خاصّة لنوح الذي كان دائم الشكر على كلّ نعمة ففي كلّ شربة ماء، أو وجبة غذاء، أو وصول نعمة أُخرى له فإنّه يذكر الله فوراً ويشكره على نعمائه.

وفي حديث عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام نقرأ قولهما إنَّ نوحاً كان يقرأ هذا الدعاء في كلّ صباح ومساء، «اللّهم إنّي أشهدك أنَّ ما أصبح أو أمسى بي مِن نعمة في دين أو دنيا فمنك، وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها عليّ حتى ترضى، وبعد الرضا».

---

(١) من وجهة التركيب النحوي يقول بعض المفسّرين: إنّ تقدير جملة ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ هو: لئلا تتخذوا.. وبعضهم قال: «أن» زائدة، وجملة «قلنا لهم» تقديرها: «وقلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً».

(٢) إنّ جملة: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ جملة ندائية وفي التقدير تكون: يا ذرية مَن حملنا مع نوح. أمّا ما احتمله البعض من أنّ «ذرية» هي بدل عن «وكيلاً» أو مفعول ثان لـ - «تتخذوا» فهو بعيد، ولا يتسق مع جملة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

ثمّ أضاف الإمام: «هكذا كان شكر نوح»[١].

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بني إسرائيل المليء بالأحداث، فتقول: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

كلمة «قضاء» لها عدّة معان، إلاّ أنّها استخدمت هنا بمعنى «إعلام» أمّا المقصود مِن «الأرض» في الآية - بقرينة الآيات الأُخرى - هي أرض فلسطين المقدّسة التي يقع المسجد الأقصى المبارك في ربوعها.

الآية التي تليها تفصّل ما أجملته مِن إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبني إسرائيل والحوادث التي تلي ذلك على أنّها عقوبة إلهيّة فتقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ وارتكبتم ألوان الفساد والظلم والعدوان ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

وهؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾.

وهذا الأمر لا مناص منه: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

ثمّ تشير بعد ذلك إلى أنّ الألطاف الإلهيّة ستعود لتشملكم، وسوف تعينكم في النصر على أعدائكم، فتقول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[٢].

وهذه المنّة واللطف الإلهي بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم وتصلحوا أعمالكم وتتركوا القبائح والذنوب لأنّه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

إنّ الآية تعبّر عن سُنَّة ثابتة، إذ إنّ محصّلة ما يعمله الإنسان مِن سوء أو خير تعود لنفسه، فالإنسان عندما يلحق أذىً أو سوءاً بالآخرين، فهو في الواقع يلحقه بنفسه، وإذا عمل للآخرين، فإنّما فعل الخير لنفسه، أمّا بنو إسرائيل، فهم مع الأسف لم توقظهم العقوبة الأُولى، ولا نبّهتهم عودة النعم الإلهيّة مجدداً، بل تحركوا باتجاه الإفساد الثّاني في الأرض وسلكوا طريق الظلم والجور والغرور والتكبّر.

تقول الآية في وصف المشهد الثّاني إنّه حين يحين الوعد الإلهي سوف تغطّيكم

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج١١، ص٢٩٠.

(٢) «نفير» اسم جمع وهي بمعنى مجموعة من الرجال، وقال بعض: هي من «نفر». و«نفر» في الأصل على وزن «عفو» تعني الارتحال والإقبال على شيء. ولذلك يطلق على الجماعة المستعدة للتحرك باتجاه شيء بأنّها في حالة «نفير».

جحافل من المحاربين ويحيق بكم البلاء إلى درجة أنّ آثار الحزن والغم تظهر على وجوهكم: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾.

بل ويأخذون مِنكم حتى بيت المقدس: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وسوف لايكتفون بذلك، بل سيحتلّون جميع بلادكم ويدمّرونها عن آخرها: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ وفي هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهيّة مفتوحة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾.

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي إن عدتم لنا بالتوبة فسوف نعود عليكم بالرحمة، وإن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة. وإذا كان هذا جزاؤكم في الدنيا ففي الآخرة مصيركم جهنّم: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾(١).

ملاحظات

الأولى: الإفسادان التأريخيان لبني إسرائيل

تحدثت الآيات أعلاه عن فسادَين اجتماعيين كبيرين لبني إسرائيل، يقود كلّ مِنهما إلى الطغيان والعلو، وقد لاحظنا أنَّ الله سلَّط على بني إسرائيل عقب كلّ فساد، رجالاً أشدّاءَ شُجعاناً يذيقونهم جزاء فسادهم وعلوّهم وطغيانهم، هذا مع استثناء الجزاء الأخروي الذي أعدَّه الله لهم.

وبالرغم من اتساع تاريخ بني إسرائيل، وتنوّع الأحداث والمواقف فيه، إلاّ أنَّ المفسّرين يختلفون في كلّ المرّات التي يتحدّث القرآن فيها عن حدث أو موقف مِن تاريخ بني إسرائيل وعلى سبيل التدليل على هذه الحقيقة نتعرّض فيما يلي للنماذج الآتية:

أوّلاً: يستفاد من تاريخ بني إسرائيل بأنَّ أوّل من هجم على بيت المقدس وخرّبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقي الخراب ضارباً فيه لسبعين عاماً، إلى أن نهض اليهود بعد ذلك لإعماره وبنائه، أمّا الهجوم الثّاني الذي تعرّض له، فقد كانَ مِن قبل قيصر الروم «أسبيانوس» الذي أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس وقتل بني إسرائيل. وقد تمَّ ذلك في حدود مائة سنة قبل الميلاد.

---

(١) «حصير» مُشتقة مِن «حصر» بمعنى الحبس، وكل شيء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير». ويقال للحصير العادية حصيراً لأنَّ خيوطها وموادها نسجت إلى بعضها البعض.

وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتي «نبوخذ نصر» و«أسبيانوس» لأنَّ الأحداث الأُخرى في تاريخ بني إسرائيل لم تفن جمعهم، ولم تذهب بملكهم واستقلالهم بالمرّة، ولكن نازلة (نبوخذ نصر) ذهبت بجمعهم وسؤددهم إلى زمن «كورش» حيث اجتمع شملهم مجدّداً وحررهم مِن أسر بابل وأعادهم إلى بلادهم وأعانهم في تعمير بيت المقدس، إلى أن غلبتهم الروم وظهرت عليهم، وذهبت قوّتهم وشوكتهم(١).

لقد استمر بنوإسرائيل في مرحلة الشتات والتشرُّد إلى أن أعانتهم القوى الدولية الاستعمارية المعاصرة في بناء كيان سياسي لهم مِن جديد.

ثانياً: أمّا «الطبري» فينقل في تفسيره عن رسول الله ﷺ أنَّ المراد في الفساد الأوّل هو قتل بني إسرائيل لزكريا عليه السلام ومجموعة أُخرى مِن الأنبياء عليهم السلام، وأنَّ المقصود مِن الوعد الأول، هو الانتقام الإلهي مِن بني إسرائيل بواسطة (نبوخذ نصر) وأمّا المراد مِن الفساد الثّاني فهو الفوضى والاضطراب الذي قامَ به «بنوإسرائيل» بعد تحريرهم مِن بابلَ بمساعدة أحد ملوك فارس، وما قاموا به من فساد. أمّا الوعد الثّاني، فهو هجوم «أنطياخوس» ملك الروم عليهم.

وبالرغم مِن انطباق بعض جوانب هذا التّفسير مع التّفسير الأوّل، إلاّ أنَّ راوي الحديث الذي يعتمد عليه «الطبري» غير ثقة، بالإضافة إلى عدم تطابق تاريخ «زكريا» و«يحيى» مع تاريخ «نبوخذ نصر» و«أسبيانوس أو أنطياخوس» إذ يلاحظ أنّ «نبوخذ نصر» عاصر «أرميا» أو «دانيال» النّبي كما يرى بعض المؤرخين، وقيامه قد تمَّ في حدود ٦٠٠ سنة قبل زمان يحيى عليه السلام، لذلك كيف يقال: إنَّ قيام نبوخذ نصر كان للانتقام مِن دمِ يحيى عليه السلام ؟!

ثالثاً: وقال آخرون: إنَّ بيت المقدس شيِّد في زمن داود وسليمان عليهما السلام، وقد هدّمه «نبوخذ نصر» وهذا هو المقصود من إشارة القرآن إلى الوعد الأوّل. أمّا المرّة الثّانية، فقد بُني فيها بيت المقدس على عهد ملوك الأخمنيين ليقوم بعد ذلك «طيطوس» الرومي بهدمه وخرابه (الملاحظ أنّ «طيطوس» يطابق «طرطوز» الذي ذكر في التّفسير السابق) وقد بقي على خرابه إلى عصر الخليفة الثّاني عندما فتح المسلمون فلسطين(٢).

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص٤٦.
(٢) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ٧، ص ٢٠٩.

والملاحظ في هذا التّفسير أنّه لا يفترق كثيراً عمّا ورد في مضمون التفسيرَيْن أعلاه.

رابعاً: في مقابل التفاسير الآنفة والتفاسير الأُخرى التي تتشابه في مضمون آرائها مع هذه التفاسير، نلاحظ أنَّ هناك تفسيراً آخر يورده «سيد قطب» في تفسيره «في ظلال القرآن» يختلف فيه مع كلّ ما ورد، حيث يرى أنّ الحادثتين لم تقعا في الماضي، بل تتعلّقان بالمستقبل، فيقول: «فأمّا إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنّة ماضية ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ثمّ يقول: «ولقد عادوا إلى الإفساد فسلَّط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم مِن الجزيرة كُلّها. ثمّ عادوا إلى الإفساد وسلَّط الله عليهم عباداً آخرين، حتى كانَ العصر الحديث فسلّط عليهم «هتلر» ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب - أصحاب الأرض - الويلات. وليسلطنَّ الله عليهم مَن يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف... وإنّ غداً لناظره قريب!»[(١)].

ولكنّ الاعتراض الأساسي الذي يرد على هذا التّفسير، هو أنَّ أيّاً مِنهما لم ينته بدخول القوم المنتصرين (على اليهود) إلى بيت المقدس حتى يخرِّبوه؟

خامساً: الاحتمال الأخير الذي أورده البعض في تفسير الإفسادَيْن الكبيرَيْن لبني إسرائيل، يرتبط بأحداث ما بعد الحرب العالمية الثّانية، حيثُ يقول هؤلاء: إنّ قيام الحزب الصهيوني وتشكيل دولة لليهود باسم «إسرائيل» في قلب العالم الإسلامي مثَّل الإفساد والطغيان والعلو الأوّل لهم، وبذلك فإنَّ وعي البلاد الإسلامية لخطر هؤلاء، دعى الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت إلى التوحّد وتطهير بيت المقدس وقسماً آخر من مدن وقرى فلسطين، حتى أصبح المسجد الأقصى خارج نطاق احتلالهم بشكل كامل.

أمّا المقصود مِن الإفساد الثّاني حسب هذا التّفسير، فهو احتلال اليهود مجدداً للمسجد الأقصى بعد أن حشدت «إسرائيل» قواها واستعانت بالقوى الدولية الاستعمارية في شن هجومها الغادر (عام ١٩٦٧).

وبهذا الشكل يقف المسلمون اليوم بانتظار النصر الثّاني على بني إسرائيل، ليخلّصوا المسجد الأقصى مِن دَنس هؤلاء ويقطعوا دابرهم عن كلّ الأرض الإسلامية. وهذا ما

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٤ الطبعة العاشرة. ج٥، ص٣٠٨.

وُعِدَ بِهِ المسلمون مِن فتح ونصر آت بلا ريب[١].

بالطبع هُناك تفاسير وآراء أُخرى في الموضوع صرفنا النظر عنها، ولكن ينبغي أن يلاحظ أنَّ في حال اعتماد التفسيرين الرّابع والخامس، ينبغي أن نحمل الأفعال الماضية في الآية على معنى الفعل المضارع، وهذا ممكن في أدب اللغة العربية، وذلك إذا جاءَ الفعل بعد حرف من حروف الشرط.

ولكن يُستفاد مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ إنَّ الإفساد الأوّل - على الأقل - والانتقام الإلهي مِن بني إسرائيل كان قد وقع في الماضي.

وإذا أردنا أن نتجاوز كلّ ذلك، فينبغي أن نلتفت إلى أنّ قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ تفيد في أنَّ الرجال الذين سيؤدّبون «بني إسرائيل» على فسادهم وعلوّهم وطغيانهم، هم رجال مؤمنون، شجعان حتى استحقوا لقب العبودية. وممّا يؤكّد هذا المعنى الذي غفلت عنه معظم التفاسير، هو كلمة «وبعثنا» و«لنا».

ولكنّا مع ذلك، لا نستطيع الادّعاء أنّ كلمة «بعث» تستخدم فقط في مورد خطاب الأنبياء والمؤمنين، بل هي تستخدم في غير هذه الموارد أيضاً، ففي قصّة هابيل وقابيل يقول القرآن الكريم: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

وكذلك الحال في كلمة «عباد» أو «عبد» فهي تطلق في بعض الأحيان على الأفراد غير الصالحين مِن المذنبين وغيرهم، كما في الآية ٥٨ مِن سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ والآية ٢٧ مِن سورة الشورى، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي خصوص المخطئين والمنحرفين نقرأ في الآية ١١٨ مِن سورة المائدة قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾.

ولكنّا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر - وإن لم تَقُم قرينة على خلاف ذلك - أنَّ العباد الذين بعثهم الله للانتقام مِن بني إسرائيل هم مِن العباد المؤمنين الصالحين.

وخلاصة البحث: إنَّ هذه الآيات تتحدث عن فسادين كبيرين لبني إسرائيل، وكيف

---

(١) يلاحظ هذا الرأي العدد (١٢) السنة (١٢) مِن مجلة «عقيدة الإسلام» وقد كتب البحث في عددين إبراهيم الأنصاري.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣١.

أنَّ الله تبارك وتعالى لم يهمل هؤلاء، بل أذاقهم جزاءهم في الدنيا، وبقي عليهم جزاء الآخرة وحسابها، والدرس الذي نستفيدهُ والإنسانية جمعاء هو أنَّ الله تعالى لا يهمل الظالمين ولا يسكت على ظلمهم بل علينا أن نعتبر ونتّعظ مِن دروس التاريخ وأحوال الأُمم الماضية.

الثّانية: تحمّل الإنسان لتبعات أعماله

الآيات الآنفة تشير إلى قاعدة مهمّة، وهي أنَّ أعمال الإنسان سواء كانت حسنة أم قبيحة فإنَّ مردودها يعود إليه. صحيح أنَّ الآيات تتحدَّث عن بني إسرائيل، ولكنّ القاعدة مِن الشمول والعموم بحيث تشمل كافة البشر على مرّ التاريخ[(١)].

إنَّ الحياة والتاريخ يعكسان لنا الكثير من تلك النماذج التي أسست أعمالاً وسنناً سيّئة، وسنّت قوانين ظالمة ومُبتدعة، ولكنّها في النهاية، كانت ضحيّة ما سنَّت وابتدعت وأسست، وكانت نهايتها ونهاية مَن يلوذ بها الوقوع في نفس الحفرة التي حفرتها للآخرين، وبذلك نالت جزاءها بما اقترفت أيديها. إنَّ خصوصية هذا الأمر تتّضح أكثر بالنسبة لأعمال الفساد وعلى الأخص العلو والاستكبار، فإنّ الإنسان لابدَّ وأن يذوق في هذه الدنيا جزاء ما اقترف مِن أسباب العلو والاستكبار والإفساد.

ولهذا السبب بالذات رأينا أنّ بني إسرائيل لاقوا جزاءهم السريع في الدنيا، من دون أن يعني ذلك انتفاء العقاب الأخروي إذ عاشوا طويلاً واقع الشتات والتشرُّدْ، وذاقوا الكثير من السوء والمصائب. إنّنا اليوم نعيش مظاهر من فساد بني إسرائيل وعلوّهم وطغيانهم، فهم قد اغتصبوا أرض الآخرين وطردوهم مِنها، وأذاقوا أهلها ألوان القتل والبطش والإرهاب، وروّعوا الأبناء وسبوا النساء، بل لم يحترموا حتى بيوت الله في بيت المقدس!

إنَّ هؤلاء يتعاملون مع العالم بدون رعاية أي شكل مِن أشكال القانون أو الضوابط والمعايير الدولية، فإذا قامَ - مثلاً - فدائي فلسطيني بإطلاق رصاصة عليهم، فإنّهم بدلاً عنها يقومون بقصف وتخريب المخيمات السكنية للاّجئين، ومدارس الأطفال،

---

(١) نقرأ في الآية: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ بينما كان ينبغي أن يكون التعبير «عليها» لأنَّ الإساءة لا تكون في فائدة ونفع الإنسان بل هي في ضرره! إنَّ السبب في ذلك يعود إلى ضرورات التنسيق بين قسمي الجملة، أو قد يكون ذلك بسبب أنّ اللام هنا استخدمت بمعنى التخصيص لا بمعنى النفع والضرر. بعض المفسّرين احتمل أيضاً أن تكون اللام بمعنى «إلى».

والمستشفيات. وهم في مقابل خسارتهم لقتيل واحد، يقومون بحصد المئات من الأنفس البريئة ويفجّرون عدداً كبيراً مِن البيوت.

إنَّ هؤلاء يتجاهرون بعدم التزامهم، بل بعدائهم لكلّ قرارات المنظّمات الدولية، والكلّ يعرف أنّ جرأتهم في مُواجهة العالم إنّما كانت وما زالت مستمدة مِن دعم القوى الاستعمارية الدولية لهم - وفي الطليعة منها أمريكا - من دون أن يعني دعم هذه القوى لهم تبريراً لما يمتازون هم بهِ مِن خصائص انحرافية ذاتية في الفكر والأخلاق، وإستعداد قَبْلي للعلوّ والطغيان والفساد.

إنّهم بعلوّهم وفسادهم عليهم أن ينتظروا أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله: ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ حيث ينالون جزاءهم، وهو وعد إلهي قاطع في قرآنه الكريم.

الثّالثة: تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامي

في روايات عدّة نرى انطباق الآيات أعلاه على بعض أحداث التاريخ الإسلامي حيث يشير بعضها إلى أنَّ الفساد الأوّل والثّاني هو قتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، والعدوان على جنازة الإمام الحسن عليه السلام. وبعضها تشير إلى أنَّ المقصود مِن قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هو الإشارة إلى الإمام المهدي عليه السلام وأصحابه.

وفي روايات أُخرى نقرأ أنَّ المقصود، هو نهضة مجموعة مِن المسلمين قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام [1].

من الواضح أنَّ هذه الأحاديث لا تفسّر الآيات تفسيراً لفظياً، لأنَّ الآيات تتحدث بصراحة عن بني إسرائيل، ولكنّها تتحدث عن التشابه بين نهج هؤلاء (بني إسرائيل) وبين ما يقع على شبههم وحالتهم في أحداث التاريخ الإسلامي، وهكذا ننتهي إلى نتيجة مؤدّاها أنّ الآيات وإن تحدّثت عن خصوصيات بني إسرائيل، إلاّ أنّها تتسع في مفهومها لترتفع إلى مستوى القاعدة الكليّة، والسنَّة المستمرّة في تأريخ البشرية بما يطويه من حياة شعوب وأمم.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٣٨.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

التّفسير

أقصر الطرق للهداية والسعادة

الآيات السابقة تحدّثت عن بني إسرائيل وكتابهم السماوي «التوراة» وكيف تخلّفوا عن برنامج الهداية الإلهيّة ليلقوا بعض جزائهم في هذه الحياة الدنيا، والباقي مدّخرٌ ليوم القيامة.

وفي هذا المقطع مِن الآيات، انتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب السماوي للمسلمين، وآخر حلقة في الكتب السماوية، فقال تعالى أوّلاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

﴿أَقْوَمُ﴾ صيغة تفضيل مُشتقة من «قيام» حيث يكون الإنسان فيها على أحسن حالاته حينما يريد أن يشرع بعمل ما، لذلك فإنَّ «القيام» كناية عن أفضل الصيغ التي يُنجز فيها الإنسان الأعمال التي يُباشرها، أو يستعد لِمباشرتها.

«الإستقامة» مُشتقّة أيضاً مِن مادة «قيّم» وهي بمعنى الاعتدال والاستواء والثبات.

وبما أنّ ﴿أَقْوَمُ﴾ هي «أفعل تفضيل» بمعنى الأكثر ثباتاً واستقامةً واعتدالاً، فإنَّ معنى الآية أعلاه، هو أنَّ القرآن الكريم يمثّل أقصر وأفضل طرق الاستقامة والثبات والهداية.

وبهذا فإنّ الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار، يتمثل بالعقائد الواضحة، القابلة للهضم والإدراك والفهم، والتي تكون أساساً للعمل؛ وتعبئة الطاقات الإنسانية باتجاه الإعمار والبناء العقيدة الأقوم هي العقيدة الخالية مِن الخرافات والأوهام، وَهي التي تُوائم بين الإنسان وعالم الوجود والطبيعة مِن حوله.

العقيدة الأقوم مِن هذه الزاوية، هي التي توافق بين الاعتقاد والعمل، والظاهر والباطن، الفكر والمنهج، وتدفع الإنسان والجميع نحو الله.

أمّا الأقوم مِن وجهة نظر القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التي تسود المجتمع؛ فهي تلك التي تربّي في المجتمع الإنساني الجوانب المادية والمعنوية وتدفع الجميع نحو التكامل والاتساق.

والأقوم مِن وجهة النظر العبادية والأخلاقية، هو كلّ ما يجعل الإنسان في المركز الوسط بين الإفراط والتفريط، ويجعلهُ في موقع الاعتدال بين الإسراف والبخل، بين الاستضعاف والاستكبار.

وأخيراً فإنَّ المنهج الأقوم بالنسبة للنظم والسلطات الحاكمة، هو كلّ ما يدفعها إلى إقامة العدل، والدعوة إلى إشاعة الإنصاف، ومواجهة الظلم والظالمين.

نعم، إنَّ القرآن هو الطريق الأقوم في كلّ تلك المستويات الآنفة الذكر، وهو الأسلوب الأقوم في كلّ جوانب الحياة والوجود، وعلى كافّة القضايا والصُّعد.

ولكنّا هنا نقف مع نقطة حساسة، وهي إذا كانَ القرآن هو الأقوم؛ أي «أفعل تفضيل» فمعنى ذلك، تفوّقه في ميزات العدل وصفات الهداية والاستقامة ليس على سائر المذاهب والعقائد الوضعية وحسب، وإنّما على سائر الأديان والشرائع السابقة عليه أيضاً.

وإزاء المفهوم الذي تطرحهُ هذه النقطة، نرى أنفسنا بحاجة إلى إثارة الحديث على النحو الآتي:

أوّلاً: إذا كانت أطراف المقايسة هي الأديان السماوية الأخرى، فلا شك أنَّ كلّ دين وشريعة منها كانت أفضل وأقوم لوقتها وزمانها، ولكن وفق قانون التكامل الذي وصلت البشرية بمقتضاه إلى أقصى حالات رشدها وتكاملها، في زمن الرسالة الإسلامية الخاتمة والنّبوة الخاتمة، فإنَّ القرآن الكريم يعبِّر تبعاً لذلك عن أرقى وأقوم مضامين الهداية والاستقامة والاعتدال.

ثانياً: أمّا إذا كانَ طرف المقايسة هو المذاهب والعقائد الوضعية، فمن الطبيعي جدّاً أن يكون القرآن كتاب السماء الواصل إلينا مِن الله ذي العلم المطلق، هو الأقوم والأظهر عليها، لأنَّ العقائد الوضعية مهما بلغت مزاياها فهي نتاج الفهم المحدود للبشر.

ثالثاً: أشرنا في غير مكان إلى أنّ «أفعل تفضيل» لا يدلُّ دائماً على أنَّ الموضوع لابدّ وأن يكون طرفاً للمقايسة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾(١).

وعلى هامش هذه النقطة ينبغي أنْ لا يفوتنا أنّ تعبير ﴿أَقْوَمُ﴾ في الآية الآنفة يشير إلى أنَّ الإسلام هو آخر أديان السماء، وأنَّ النبي الأكرم ﷺ هو آخر الأنبياء.

وكيفية ذلك، هو أنَّ أقوم بوصفها أفعل تفضيل، تمثّل أعلى درجات التفضيل، ولأنَّ الآية لا تذكر الطرف الآخر في المقايسة والذي يكون القرآن أقوم بالنسبة إليه، وطالما أنَّ حذف المتعلق يدل على العموم كما يقول الأصوليون، فينتج أنَّ الإسلام آخر الأديان، وأنَّ محمداً ﷺ خاتم الرسل، لأنَّهُ ليسَ بعد صيغة تفضيل ﴿أَقْوَمُ﴾ من درجة في التفضيل.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس في مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذي ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالأولى يكون حالها كما يقول تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

أمّا الفئة الثّانية فيكون مصيرها تبعاً لموقفها كما يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وإذا كان استخدام «بشارة» واضح هُنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم مِن غير المؤمنين يقع على معنى السخرية والاستهزاء، أو أنَّهُ بشارة للمؤمنين أيضاً تخبرهم عن حال غير المؤمنين(٢).

ضمناً الآية تشير باختصار بليغ إلى جزاء المؤمنين وثوابهم فتقول: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أمّا غير المؤمنين فإنّ لهم - بنفس صورة الإيجاز القرآني البليغ - ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذا الاختصار البليغ يطوي في كلا مجالَيْه صوراً تفصيلية مِن الثواب والعقاب.

أمّا لماذا اقتصرت الآية في غير المؤمنين على صفة عدم إيمانهم بالآخرة دون غيرها مِن الصفات والأعمال. في الواقع يمكن أن يكون ذلك بسبب أنَّ الإيمان بالآخرة هو

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) في نهاية الآية (١٣٨) مِن سورة النساء قلنا: إنَّ «بشارة» مُشتقّة أصلاً مِن «البشرة» بمعنى الوجه. والملاحظ أنَّ صحيفة الوجه وبشرته كالمرآة تعكس كل خبر إذا كان سارّاً أو سيّئاً بشكل إيحاءات معيّنة وحمل بعضهم ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ على (أجر كبير).

صمّام أمان يضبط الإنسان عن ارتكاب المعاصي والذنوب. ثمّ إنَّ إنكار القيامة يعتبر إنكاراً لوجود الله تعالى، وإلاّ كيف يستقيم للإنسان أن يؤمن بالله العادل الحكيم ولا يؤمن بوجود آخرة يُحاسب فيها الإنسان على أعماله وينال حسابه العادل؟!

ثمّ إنّ حديث الآية هو عن العقاب والثواب وهو يتناسب مع الحديث عن الإيمان باليوم الآخر.

الآية التي بعدها تنساق في نفس اتجاه البحث وتشير إلى إحدى العلل المهمّة لعدم الإيمان وتقول بأنّ عجلة الإنسان وتسرّعه وعدم اطّلاعه على الأُمور وإحاطته بها تسوقه إلى أن يساوي في جهده بين دعائه بالخير وطلبه، وبين دعائه بالشر وطلبه له!

تقول الآية: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾.

لماذا؟: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

إنَّ كلمة «دعا» هُنا تنطوي على معنى واسع يشمل كلّ طلب ورغبة للإنسان، سواء أعلن عنها بلسانه وكلامه، أو سعى إليها بعمله وجهده وسلوكه.

إنَّ استعجال الإنسان واندفاعه في سبيل تحصيل المنافع لِنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للأُمور بحيثُ إنَّهُ لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة المعمّقة ممّا يفوّت عليه تشخيص خيره الحقيقي ومنفعته الواقعية، وهكذا بنتيجة تعجّله واندفاعه المُضطرب يَضيع عليه وجه الحقيقة، ويتغيَّر مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر والأعمال السيّئة الضارّة.

وهكذا ينتهي الإنسان - نتيجة سوء تشخيصه واضطراب مقياسه في رؤية الخير والحقيقة - إلى أن يطلب من الله الشر، تماماً كما يطلب مِنه الخير، وأن يسعى وراء الأعمال السيّئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة، وهذا الاضطراب وفقدان الموازين هو أسوأ بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينهُ وبين السعادة الحقيقية.

ما أكثر الناس الذين يضعون أنفسهم - بسبب عجلتهم واندفاعاتهم المضطربة - على حافّة الخطر ومشارف الضلال، وهم يظنون أنّهم يسيرون نحو الأمن والاستقرار والهداية، إنَّ مثل هؤلاء كمن هو غارق بالسوء والقبائح وهو يفتخر بما هو فيه!!

إنّ نتيجة العجلة والتسرُّع والاندفاع الأهوج لن تكون أحسن مِن هذه العاقبة.

مِن هنا يتّضح - كما أشرنا سابقاً - أنَّ معنى «دعا» لا يقتصر لا على الرغبات التي يظهرها الإنسان على لسانه، ولا على تلك الرغبات التي يسعى لتحقيقها بسلوكه وبما

يبذل لها مِن جهد، وإنّما المعنى يشمل محصّلة الاثنين معاً، وأمّا ما ذهب إليه بعض المفسّرين من حصر المعنى في أحدهما فليس ثمّة دليل عليه.

أمّا ما يظهر من بعض الرّوايات مِن اقتصار المعنى على الدعاء اللفظي، فإنَّ ذلك مِن قبيل بيان المصداق لا كلّ المفهوم، من قبيل الرّواية التي يقول فيها الإمام الصادق عليه السلام: «واعرف طريق نجاتك وهلاكك، كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك، وأنت تظن أنّ فيه نجاتك»[1]، قال الله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾.

مِن هنا يتبيّن أنّ أفضل طريق لوصول الإنسان إلى الخير والسعادة، هو أن يكون الفرد في كلّ خطوة وموقف على غاية قصوى من الدقّة والحيطة والحذر، وأن يتجنب الاندفاع والعجلة والتسرُّع، ويدرس الموقف مِن جميع جوانبه، ويجانب الأحكام المتعجِّلة الممزوجة بالهوى والعاطفة، وأن يستعين بالله العزيز ويستمدّه القوّة والعون.

الآية التي بعدها تتحدث عن تعاقب الليل والنهار ومنافع هذا التعاقب، لتجعل مِن هذا الشاهد مثالاً على معرفة الله والتمعُّن بآياته، والمثال أيضاً يُفيد معنى التأمُّل والهدوء ويدعو إلى محاذرة التعجُّل والتسرُّع.

الآية تقول أوّلاً: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ ثمّ: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾. ولنا في ذلك هدفان: الأوّل: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ حيثُ تنطلقون نهاراً في الكسب والعمل والمعاش مستثمرين العطايا الإلهيّة، وتنعمون ليلاً بالراحة والهدوء والاستقرار. والهدف الثّاني فهو: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ لكي لا تبقى شبهة لأحد ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾.

بين المفسّرين كلام كثير حول المقصود مِن ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ و﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ وفيما إذا كانَ ذلك كناية عن نفس الليل والنهار، أم أنَّ المقصود مِن ﴿ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ القمر، ومن ﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ الشمس[2].

ولكنّ التدقيق في الآية يكشف عن رجاحة التّفسير الأوّل، خصوصاً وأنَّ المقصود مِن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ هو أنّ كلّ واحد مِنهما علامة على إثبات

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٣، ص١٤١.

(٢) في الحالة الأولى تكون الإضافة «إضافة بيانية» أما في الثّانية فتكون الإضافة «إضافة اختصاصية».

وجود الله، أمّا محو آية الليل فهو تمزيق ظلمة الليل وحجب الظلمة فيه بواسطة نور النهار، الذي يكشف ما كان مستوراً بظلمة الليل.

وإذا كانت آيات أُخرى في القرآن [الآية ٥ مِن سورة يونس] تفيد أنّ الغاية من خلق الشمس والقمر هو تنظيم الحساب إلى سنين وأشهر، فليس ثمّة تنافٍ بين الآيتين، إذ مِن الممكن أن تنتظم حياة الإنسان وحسابهُ على أساس الليل والنهار، وعلى أساس الشمس والقمر مِن دون أيّ تناف بين الاثنين.

في نهج البلاغة نقرأ للإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قوله: «وجعل شمسها آية مُبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوّة مِن ليلها، وأجراهما في مَناقل مجراهما، وقدّر سيرهما في مدارج درجهما، ليميّز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»(١).

إنّ كلام الإمام هنا لا يُنافي التّفسير الأوّل، لأنَّ حساب السنين يمكن أن يكون على أساس الأيّام والليالي، كما يمكن أن يتم ذلك على أساس الشمس والقمر.

بحوث

أوّلاً: هل الإنسان عجول ذاتاً؟

إنَّ الإنسان لا يوصف في القرآن بوصف «العجول» وَحسب، وإنّما هناك أوصاف أُخرى أطلقها على الإنسان مثل «ظلوم» و«جهول» و«كفور» و«هلوع» و«مغرور».

ولكنّ السؤال هنا، هو أنَّ هذه الأوصاف تتعارض مع التعليمات القرآنية التي تتحدّث عن الفطرة النظيفة الطاهرة للإنسان، فكيف إذن نوائم بين الحالتين؟

بعبارة أُخرى: إنّ الإنسان مِن وجهة نظر الإسلام هو أفضل الموجودات وأكرمها حتى أنّه استحق مقام الخلافة عن الله في الأرض، وهو مُعَلِّم الملائكة وأفضل منها، فكيف - إذن - يتسق هذا الطرح مع الأوصاف السيّئة الآنفة التي نقرؤها عن الإنسان في القرآن؟

إنَّ الإجابة على هذا السؤال يمكن أن نختصرها بجملة واحدة، وهي أنَّ شخصية الإنسان كما تقدّم آنفاً تحوي عناصر السمو والرفعة ذاتاً، ولكن بشرط أن تتم تربيته

---

(١) نهج البلاغة، خطبة الأشباح، رقم (٩١).

وتكون رعايته مِن قبل القادة الرّبانيين، وإلاّ ففي غير هذه الصورة، فسيتسافل نحو أسوأ الأحوال، ويغرق في الهوى والشهوات، ويخسر القابليات العظيمة الموجودة فيه بالقوّة لتظهر بدلاً عنها الجوانب السلبية.

لذلك إذا تحقق الشرط السابق (تربية الإنسان على يد القادة الإلهيين) فإنَّ الجوانب الإيجابية في الإنسان هي التي تظهر، وهي التي تطبعه بطابعها وبعكس ذلك تظهر الصفات السلبية، لذلك نقرأ في الآيات ١٩ - ٢٣ مِن سورة المعارج قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ويمكن للقارىء أن يعود إلى تفسير الآية ١٢ مِن سورة يونس لأجل المزيد مِن التفاصيل حول الموضوع.

ثانياً: أضرار العجلة

إنَّ تعلّق الإنسان واندفاعه نحو موضوع معيّن، والتفكير السطحي المحدود، والهوى والاضطراب، وحسن الظن أكثر من الحدّ الطبيعي إزاء أمر ما، كُلّها عوامل للعجلة في الأعمال. ثمّ إنَّ الاقتصار على بحث المقدمات بشكل سطحي سريع ومرتجل لا يكفي في التوصّل إلى حقيقة الأمر، وعادة تؤدّي العجلة والتسرّع في الأعمال إلى الخسران والندامة!

وقد قرأنا في الآيات أعلاه أنَّ عجلة الإنسان تقوده إلى أن يطلب الشر لِنفسه ويسعى إليه، بنفس الحالة والسرعة التي يطلب فيها الخير ويسعى إليه!

إنّنا لا نستطيع أن نحصي ما أصاب الإنسان على طول التاريخ جرّاء استعجاله وتسرّعه، وفي التجربة الحياتية الخاصّة لأيّ واحد مِنّا ثمّة ما يكفي لنتعلّم دروس العجلة والتسرُّع مِن خلال النتائج المرّة التي جنيناها.

إنَّ «التثبت» و«التأني» هي الصفات التي تقابل العجلة، ففي حديث عن رسول الله نقرأ قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنَّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السلام: «مع التثبت تكون السلامة، ومع العجلة تكون الندامة»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إنَّ الأناة مِن الله والعجلة مِن الشيطان»[٣].

(١-٣) سفينة البحار، ج ١، ص ١٢٩؛ وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٤٠.

طبعاً هناك باب في الرّوايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» ففي حديث عن رسول الله نقرأ قوله ﷺ: «إنّ الله يحب مِن الخير ما يعجل»(١).

إنَّ الرّوايات في هذا المجال كثيرة، والمقصود مِنها هي السرعة في مقابل الإهمال والتأخير غير الموجَّه، والاتكاء إلى الأعذار والتسويف باليوم وغداً، التي غالباً ما تؤدّي إلى ظهور المشاكل في الأعمال، وشاهد هذا الكلام هو الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَن همَّ بشيء مِن الخير فليعجله فإنَّ كل شيء فيه تأخير فإنَّ للشيطان فيه نظرة»(٢).

لذلك نقول: نعم للجديّة والسرعة في الأعمال، ولكن لا . . . للعجلة والتسرُّع.

وبعبارة أُخرى: إنَّ العجلة المذمومة هي التي تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان تكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ في الرّوايات «سارعوا في عمل الخير» أي بعد أن يثبت أنّ هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويف.

ثالثاً: دور العدد والحساب في حياة الإنسان

كل عالم الوجود يدور حول محور العدد والحساب، ولا نظام في هذا العالم بدون حساب، وطبيعي أنَّ الإنسان الذي هو جزء مِن هذه المجموعة لا يستطيع العيش مِن دون حساب وكتاب.

لهذا السبب تعتبر الآيات القرآنية وجود الشمس والقمر أو الليل والنهار واحدة مِن نعم الله تعالى، لأنّها الأساس في تنظيم الحساب في حياة الإنسان، إنَّ شيوع الفوضى وفقدان الحياة للاتساق والنظم يؤدّي إلى دمار الحياة وفنائها. والظريف أنَّ الآية تتحدّث عن فائدتين لنعمة الليل والنهار: الأُولى: ابتغاء فضل الله والتي تعني التكسّب والعمل المفيد المثمر. والثّانية: معرفة عدد السنين والحساب.

وقد يكون الهدف مِن ذكر الاثنين إلى جنب بعضهما البعض يعود إلى أنَّ (ابتغاء فضل الله) لا يتم بدون الاستفادة مِن (الحساب والكتاب) وقد لا يكون هذا المعنى واضحاً في العصور الماضية، أمّا في عصرنا فهو واضح كالشمس.

(١-٢) أصول الكافي، ج ٢، (كتاب الإيمان والكفر، باب تعجيل فعل الخير)؛ وبحار الأنوار، ج٦٨، ص٢٢٢ و ٢٢٥.

إنَّ عالمنا اليوم، هو عالم الأرقام والأعداد والإحصاء؛ فإلى جانب كلّ مُؤسسة ومنظّمة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية أو علميّة أو ثقافية، ثمّة مؤسسة إحصائية.

وَهكذا نستفيد من الإشارة القرآنية أنّ القرآن لا يبلى بالزمان، بل كُلّما مرَّ عليه الزمان تجددت معانيه وتجلّت آفاقه(١).

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

أربعة أُصول إسلامية مهمّة

لقد تحدَّثت الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التي تتصل بالمعادِ والحساب، لذلك فإنَّ الآيات التي نبحثها الآن تتحدَّث عن قضية «حساب الأعمال» التي يتعرض لها البشر، وكيفية ومراحل إنجاز ذلك في يوم المعاد والقيامة حيثُ يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

«الطائر» يعني الطير، ولكن الكلمة هنا تشير إلى معنى آخر كانَ سائداً ومعروفاً بين العرب؛ إذ كانوا يتفألون بواسطة الطير؛ وكانوا يعتمدون في ذلك على طبيعة الحركة التي يقوم بها الطير. فمثلاً إذا تحرَّك الطير مِن الجهة اليمنى، فَهُم يعتبرون ذلك فألاً حسناً وَجميلاً، أمّا إذا تحرَّك الطير مِن اليُسرى فإنَّ ذلك في عُرفهم وعاداتهم علامة الفأل السيّىء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطيّر، من هنا فإنّ هذه الكلمة غالباً ما كانت تعني الفأل السيّىء في حين أنَّ كلمة التفؤل (عكس التطيُّر) كانت تُشير إلى الفأل الجميل الحسن.

---

(١) لنا كلام مفصّل حول الموضوع أثناء الحديث عن الآية (٥) مِن سورة يونس.

وفي الآيات القرآنية وَرد مراراً أنَّ «التطيُّر» هو بمعنى الفأل السيّىء حيثُ يقول تعالى في الآيـة ١٣١ مِـن سـورة الأعـراف: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ وفـي الآية ٤٧ مِن سورة النمل نقرأ أيضاً: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ والآية تحكي خطاب المشركين مِن قوم صالح عليه‌السلام لنبيّهم.

بالطبع عِندما نقرأ الأحاديث والرّوايات الإسلامية نراها تنهى عن «التطيُّر» وتجعل «التوكّل على الله» طريقاً وأُسلوباً لمواجهة هذه العادة.

وفي كلِّ الأحوال فإنَّ كلمة «طائر» في الآية التي نبحثها، تشير إلى هذا المعنى بالذات، أو أنّها على الأقل تُشير إلى مسألة «الحظ وحسن الطالع» التي تقترب في أُفق واحد مع قضية التفؤل الحَسَنِ والسيّىء، إنّ القرآن - في الحقيقة - يبيّن أنَّ التفؤل الحسن والسيّىء أو الحظ النحس والجميل، إنّما هي أعمالكم لا غير، والتي ترجع عهدتها إليكم وتتحملون على عاتقكم مسؤولياتها.

إنَّ تعبير الآية الكريمة، بكلمتي ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ﴾ و﴿فِي عُنُقِهِۦۖ﴾ تدُلان بشكل قاطع على أنَّ أعمال الإنسان والنتائج الحاصلة عن هذه الأعمال لا تنفصل عنه في الدنيا ولا في الآخرة، وهُو بالتالي وفي كلّ الأحوال، عليه أن يكون مسؤولاً عنها، إذ إنّ الملاك هو العمل دون غيره.

بعض المفسّرين ذكروا في إطلاق معنى كلمة «طائر» على الأعمال الإنسانية أنّها تعني أنَّ الأعمال الحسنة والأعمال القبيحة للإنسان كالطير الذي يطير مِن بين جنباته، لذلك شبّهوها (أي الأعمال) بالطائر.

وفي كلّ الأحوال، اختلفَ المفسّرون في معنى كلمة (طائر) في هذه الآية، وقد أوردوا في ذلك مجموعة احتمالات مِنها أنَّ «الطائر» بمعنى «حصيلة ما يجنيه الإنسان من أعماله الحسنة والسيئة»، أو أنَّ الطائر بمعنى «الدليل والعلامة»، وبعضهم قال: إنّ معناه «صحيفة أعمال الإنسان» بينما ذهب البعض الآخر إلى أنَّ معنى «الطائر» هو «اليُمن والشؤم».

ولكنّ الملاحظ في هذه التّفسيرات جميعاً، أنَّ بعضها يرجع إلى نفس التّفسير الذي ذكرناه في البداية؛ كما أنّ بعضها الآخر بعيد عن معنى الآية.

يقول القرآن بعد ذلك: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾. ومِن الوضح أنَّ المقصود مِن «الكتاب» في الآية الكريمة هي صحيفة الأعمال لا غير، وهي نفس

الصحيفة الموجودة في هذه الدنيا والتي تُثبّت فيها الأعمال، ولكنّها هنا (في الدنيا) مخفيّةٌ عنّا ومكتومة، بينما في الآخرة مكشوفة ومعروفة.

إنَّ التعبير القرآني في كلمتي ﴿وَنُخْرِجُ﴾ و﴿مَنشُورًا﴾ يشير إلى هذا المعنى، إذ نخرج وننشر ما كان مخفياً ومكتوماً.

وبالنسبة لصحيفة الأعمال وحقيقتها وما يتعلق بها، فسيأتي البحث عنها في نهاية هذه الآيات.

في هذه اللحظة يُقال للإنسان: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ يعني أنَّ المسألة - مسألة المصير - بدرجة مِن الوضوح والعلنية والانكشاف، بحيثُ إنّ كلّ من يرى صحيفة الأعمال هذه سيحكم فيها على الفور - مهما كانَ مجرماً - لماذا؟ لأنَّ صحيفة الأعمال هذه - كما سيأتي - هي مجموعة مِن آثار الأعمال أو هي نفس الأعمال، وبالتالي فلا مجال لإنكارها فإذا سمعت - أنا - صوتي مِن شريط مُسجَّل، أو رأيتُ صورتي وهي تضبط قيامي ببعض الأعمال الحسنة أو السيئة؛ فهل أستطيع أن أنكر ذلك؟ كذلك صحيفة الأعمال في يومِ القيامة؛ بل هي أكثر حيوية ودقة مِن الصورة والصوت!

الآية التي بعدها توضّح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب والجزاء على الأعمال، وهذه الأحكام هي:

١ - أوّلاً تُقرِّر أنَّ ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ حيث تعود النتيجة عليه.

٢ - ثمّ تُقرِّر أيضاً أنَّ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

وقرأنا نظير هذين الحكمين في الآية السابعة مِن هذه السورة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

٣ - ثمّ تنتقل الآية لتقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

«الوزر» بمعنى الحمل الثقيل. وأيضاً تأتي بمعنى المسؤولية، لأنَّ المسؤولية - أيضاً - حمل معنوي ثقيل على عاتق الإنسان، فإذا قيل للوزير وزيراً، فإنّما هو لتحمّله المسؤولية الثقيلة على عاتقه مِن قبل الناس أو الأمير الحاكم.

طبعاً هذا القانون الكُلّي الذي تُقرّره آية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا يتنافى مع ما جاء في الآية ٢٥ مِن سورة النحل التي تقول: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ لأنَّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين

يكونون فاعلين للذنب أيضاً، أو يُعتبرون بحكم الفاعلين له، ولذلك فهم في واقع الأمر يتحملونَ أوزارهم وذنوبهم، وبتعبير آخر: فإنَّ «السبب» هنا هو في حكم «الفاعل» أو «المُباشر».

كذلك مرَّت علينا روايات مُتعدِّدة حول مسألة السُّنَّة السيئة والسنَّة الحسنة، والتي كانَ مؤدّاها أنَّ مَن سنَّ سنةً سيئة أو حسنة فإنَّهُ سيكون لهُ أجرٌ مِن نصيب العاملين بها، وهو شريكهم في الثواب أو العقاب وهذا الأمر هو الآخر لا يتنافى مع قاعدة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لأنَّ المؤسس للسُنّة، يعتبر في الحقيقة أحد أجزاء العلة التامّة للعمل، وهو بالتالي شريك في العمل والجزاء.

٤ - الحكم الرّابع يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يقوم ببيان التكليف وإلقاء الحجة.

هناك نقاش بين المفسّرين حول نوع العذاب المقصود هنا، وهل هو نوع من أنواع العذاب الذي يقع في الدنيا أو في الآخرة، أم المقصود بهِ هو عذاب «الاستيصال» الذي يعني العذاب الشامل المُدمّر كطوفان نوح مثلاً؟

إنَّ ظاهر الآية الكريمة يوحي بالإطلاق، وهو بالتالي يشمل كلّ أنواع العذاب.

وهناك نقاشٌ آخر - أيضاً - بين المفسّرين حول قاعدة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وهل أنَّ الحكم فيها يخص المسائل الشرعية التي يعتمد فهمها على الأدلة النقلية فقط؛ أو أنَّهُ يشمل جميع المسائل العقلية والنقلية في الأصول والفروع؟

في الواقع، إذا أردنا العمل بظاهر الآية الذي يُفيد الإطلاق، فينبغي القول أنّها تشمل جميع الأحكام العقلية والنقلية، سواء ارتبطت بأصول أو فروع الدين، ومفهوم هذا الكلام أنَّهُ حتى في المسائل العقلية البحتة التي يقطع «العقل المستقل» بحسنها وقُبحها مثل حُسن العدل وقُبح الظلم، فإنَّه ما لم يأت الأنبياء، ويؤيّدون حكم العقل بحكم النقل، فإنَّ الله تبارك وتعالى لا يُجازي أحداً بالعذاب، للطفه ورحمته بالعباد.

ولكنّ هذا الموضوع مستبعد وضعيف الاحتمال، لأنَّهُ يصطدم مع قاعدة أنَّ المستقلات العقلية لا تحتاج إلى بيان الشرع، وحكم العقل في إتمام الحجة في هذه الموارد يُعتبر كافياً ومجزياً، لذلك فلا طريق أمامنا إلاّ أن نستثني المستقلات العقلية عن مجال عمل القاعدة المذكورة.

وإذا لم نستثن ذلك فسيكون معنى العذاب في هذه الآية هو «عذاب الاستيصال»

وسيكون المعنى الأخير هو أنّ الله سبحانهُ وتعالى لرحمته ولطفه بالعباد لا يُهلك الظالمين والمنحرفين إلاّ بعدَ أن يبعث الأنبياء، وتستبين جميع طرق السعادة والهداية؛ حتى تُطابق حجّة الشرع حجة العقل المستقل، وتتم الحجة بذلك من طريقي العقل والنقل (فتأمّل ذلك).

بحوث

١ - التفؤل والتطيّر

التفؤل والتطيُّر كانا موجودين بين جميع الأمم ولا يزالان كذلك. ويظهر أنَّ مصدرهما هو عدم القدرة على اكتشاف الحقائق، والغفلة عن علل الحوادث. وعلى أيّة حال، ليست هناك آثار طبيعية فعلية لِهذين الأمرين، ولكن لهما آثار نفسية؛ إذ (التفاؤل) يبعثُ على الأمل بينما «التطيُّر» يُؤدّي إلى اليأس والعجز.

ولأنَّ الإسلام يُؤكّد دائماً على الأُمور الإيجابية، ويتحرك باتجاه التشويق إليها، لذا فإنَّهُ لم ينه عن (التفاؤل) ولكنَّهُ أدان وبشدَّة «التطيُّر» حتى أنَّهُ في بعض الرّوايات اعتبر ذلك من الشرك، إذ جاء عن الرّسول الأكرم ﷺ قوله: «الطيرة شرك»[1] وقد بحثنا هذا الموضوع بشكل مفصّل في نهاية الآية ١٣١ مِن سورة الأعراف[2].

الظريف في الأمر أنَّ الإسلام يقوم دائماً بتوجيه مثل هذه الأُمور الوهمية ويحاول توظيفها في مجراها الصحيح والبنّاء، حتى يمكن الاستفادة مِنها.

فمثلاً ممّا هو شائع بين الناس أنَّ الزوجة الفلانية قَدمُها خير، بينما الأُخرى قدمها في بيت زوجها شرٌّ ونحس، وكذلك شائع أنّ الزوجة الفلانية ومُنذ أن دخلت بيت زوجها حصل كذا وكذا (خيراً أم شراً) بينما واقع الحال أنَّ هذه الأُمور خُرافية وهمية، لكنّ الإسلام أعطى بعضها - من خلال توجيهه - شكلا بنّاءً ومضموناً تربوياً، فعن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: «مِن شؤم المرأة غلاء مهرها وشدّة مؤنتها»[3]. وفي حديث آخر عن رسول الهدى ﷺ نقرأ: «أمّا الدار فشؤمها ضيقها وخُبث جيرانها»[4].

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٥، ص٣٢٢.

(٢) يُراجع التّفسير «الأمثل» عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

(٣) راجع وسائل الشيعة، ج ٣، ص ١٠٤. وج٢١، ص٢٥٢.

(٤) سفينة البحار، ج١، ص ٦٨٠؛ ووسائل الشيعة، ج٥، ص٣٠٣.

لاحظوا بدقة كيف يستخدم الإسلام نفس الألفاظ التي كان الناس يستخدمونها في مفاهيم خرافية ووهمية؛ يوظّفها في مفاهيم واقعية وبأُسلوب تربوي بنّاء؛ ولاحظوا أيضاً، كيف أنَّ الأفكار التي كانت تنتهي إلى طريق مغلق، جاءَ الإسلام ووجّهها نحو طريق الهداية والإصلاح.

أخيراً وقبل أن ننتقل إلى الملاحظة الثّانية نختم حديثنا بكلام لرسول الله ﷺ يُطابق ما قلناه آنفاً، إذ روي عنهُ ﷺ قوله: «اللهمَّ لا خير إلاّ خيرك، ولا طير إلاّ طيرك ولا ربَّ غيرك»[١].

٢ - صحيفة أعمال الإنسان العجيبة

لقد تحدَّثت آيات قرآنية وروايات عديدة عن صحيفة أعمال الإنسان. وكلٌّ هذه الآيات والرّوايات تؤكّد على أنَّ جميع الأعمال وجزئياتها وتفصيلاتها تكون مُدوَّنة في صحيفة الأعمال، وفي يوم البعث والقيامة، يستلم الإنسان صحيفة عمله بيمينه إذا كان مُحسناً ويتناولها بشماله إذا كان مسيئاً، ففي الآية ١٩ مِن سورة الحاقة نقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ وفي الآية ٢٥ مِن نفس السورة نقرأ قوله تعالى حكاية عن الإنسان الخاسر: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾. وفي الآية ٤٩ مِن سورة الكهف نقرأ قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، يتعلق بالآية مورد البحث - ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ - قال: «يذكر العبد جميع ما عمل، وما كتب عليه، حتى كأنّهُ فعلهُ تلك الساعة، فلذلك قالوا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾»[٢].

وهنا يُطرح هذا السؤال؛ عن ماهية هذه الصحيفة وكيفيتها؟

ممّا لا شك فيه أنّها ليست مِن جنس الكتب والورق والصحف العادية، لذا فإنَّ بعض المفسّرين قالوا بأنّ صحيفة الأعمال ليست سوى «روح الإنسان» والتي تكون جميع

---

(١) وسائل الشيعة، ج١١، ص٣٨٧؛ وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج١٩، ص٣٧٣.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٤٤.

الأعمال مُثبتة فيها[١] لأنّ أيّ عمل نعملهُ سيكون لهُ أثرٌ في روحنا شئنا أم أبينا.

وقد تكون صحيفة الأعمال، هي أعضاء جسمنا وجلودنا، والأعظم مِن ذلك هو أنَّ الصحيفة قد تكون مُتضَمّنة في الأرض والهواء والفضاء الذي يحيطنا والذي نعيش فيه، لأنَّ هذه المفردات هي وعاء أعمالنا، فترتسم الأعمال في أفق الأرض، الهواء والوجود الذي حولنا، هذا الوجود الذي تنحت في ذرّاته أعمالنا أو آثارها على الأقل.

وإذا كانت هذه الآثار غير محسوسة اليوم، ولا يمكن دركها في الحياة الدنيا هذه، إلاّ أنَّ ذلك - بدون شك - لا يعني عدم وجودها؛ فعندما نرزق بصراً جديداً آخر (في يوم القيامة) فسوف يكون بإمكاننا أن نرى جميع هذه الأُمور، ونقرأها.

على أنَّ استخدام الآية الكريمة لِتعبير (اقرأ) ينبغي أن لا يُغيِّر من تفكيرنا شيئاً إزاء ما ذهبنا إليه آنفاً، لأنَّ كلمة «اقرأ» تتضمّن مفهوماً واسعاً، وتدخل الرؤيا بمفهومها الواسع هذا، فنحن مثلاً وفي تعابيرنا العادية التي نستخدمها يومياً نقول: قرأتُ في عينَي فلان ما يُريد أن يفعلهُ، أو أنّنا عرفنا مِن نظرتنا إلى فلان، بقيّة القصّة، وعرفنا بقيّة العمل الذي يريد أن يفعله. كما أنّنا في عالم اليوم أخذنا نستخدم كلمة «اقرأ» بخصوص الأشعّة التي تؤخذ للمرضى، هذا بالرغم مِن أنَّ الأشعّة، هي صورة تخضع للمشاهدة لا للقراءة، وهذا المِثال والأمثلة التي سبقته تؤكّد ما ذهبنا إليه أنَّ المشاهدة تدخل في إطار المعنى الواسع للقراءة.

وقد تقدّم في الآيات السابقة أنَّ تفصيلات صحيفة الأعمال هذه، لا يمكن إنكارها بأيّ وجه، لأنَّ الآثار الحقيقية الموضوعية (أي الخارجية) والتكوينية للعمل تشبه كثيراً الصوت المسجَّل للإنسان، أو الصورة المأخوذة له، أو بصمات أصابعه، وأيّاً مِن هذه الآثار لا يجد الإنسان إلى نكرانها سبيلاً!

٣ - البريء لا يؤخذ بجريرة المذنب

في منطق العقل وتوجيهات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن مُعاقبة البريء بسبب جريمة المذنب، وهذا تماماً عكس ما هو شائع بين عامّة الناس مِن خلال المثل الذي يقول (يحرق الأخضر واليابس معاً)، وكمثل على ذلك، نرى أنَّ في كلّ المدن والمناطق التي كانت في حدود نبوّة النّبي لوط عليه السلام، لم تكن هناك سوى عائلة مؤمنة واحدة، ولكن

---

(١) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

عندما نزل العذاب على قوم لوط عليه السلام أنجى الله تلك العائلة، وكتب لها سبيل الخلاص مِن العذاب العام، وهكذا لم تؤخذ هذه العائلة المؤمنة البريئة بجريرة القوم المذنبين.

وتتحدث الآية، مِن مجموع الآيات التي نحن بصددها، بصراحة عن هذه القاعدة، فتقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. وإذا صادَف أن وجدنا مِن بين الأحاديث غير المعتبرة، أموراً تعارض هذا القانون الإسلامي العام، فيجب ترك تلك الأحاديث أو توجيهها.

وفي هذا الاتجاه، أمامنا رواية تقول: إنَّ الشخص الميّت يتعذَّب ببكاء الحيّ، (وهنا يُحتمل، ومِن باب توجيه الحديث، أن يكون الغرض مِن العذاب، هو ليس العذاب الإلهي، بل الأذى الذي يصيب الميت من ذلك عندما تطلع روحه على جزع الأهل والأقرباء).

ويتّضح هنا - أيضاً - مصير عقيدة الأشخاص الذين يقولون: إنَّ أبناء الكفّار يُحشرون مع آبائهم في نار جهنَّم لبطلانه إسلامياً ولمنافاته لقاعدة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وأنَّ الذرية لا تؤاخذ بجريرة الآباء، وهي بالتالي لا تُعاقب بسبب ذنوب الأب والأم، ولهذا السبب بالذات، قلنا بأنَّ الأبناء غير الشرعيين (أولاد الزنا) لايترتب عليهم مِن جريرة غيرهم شيء، وأنّهم بمنأى عن خطيئة الوالدين وأنّ أبواب السعادة أمامهم مفتوحة، إذا أرادوا هم ذلك، بالرغم مِن اعترافنا بصعوبة تربيتهم!

٤ - قاعدة «أصل البراءة» وآية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾

في علم الأصول، وفي بحث «البراءة» استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ﴾ على أنّ فهم الآية يُوَضّح أنَّ المسائل التي لا يمكن للعقل إدراكها أو القطع بها، لا يُعاقب عليها الإنسان حتى يبعث الله الرسل والأنبياء ليبيّنوا الأحكام والتكاليف والوظائف، وهذا بحدّ ذاته دليل على عدم العقاب في الأُمور التي لم تُقم الحجة عليها؛ وقاعدة «أصل البراءة» لا تعني شيئاً غير هذا؛ أي لا عقاب بدون حجة مِن العقل أو النقل.

أمّا قول البعض: إنَّ مفاد «العذاب» في الآية أعلاه، هو «عذاب الاستئصال» مِثل طوفان نوح، فلا دليل على ذلك، بل - كما قلنا - إنَّ اطلاق الآية ينفي ذلك، وهي تشمل بالتالي كلَّ عذاب وعقاب.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا
تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

مراحل العقاب الإلهي

إنَّ موضوع البحث في هذه الآيات يُكمّل ما كُنّا بصددِ بحثه في نهاية الآيات السابقة، ولكن بصورة أُخرى، إذ تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾(١). إنَّ الآيات التي كُنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدَّث عن أنَّ العقاب الإلهي لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو أُمّة، مِن دون أن تكون هناك حجّة وبيان للتكليف مِن قبل الرسل والأنبياء عليهم السلام، والآية التي نحنُ بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل، ولكن بطريقة أُخرى.

صحيح أنَّ المفسّرين وضعوا احتمالات متعددة لتفسير هذه الآية، إلاّ أنّنا نعتقد بأنَّه لا يوجد سوى تفسيرٌ واحد واضحٌ لهذه الآية، يمكن تبيانه من مؤدّى ظاهرها، وهذا التّفسير هو: إنَّ الله لا يُعاقب أو يؤاخذ أحداً بالعذاب، قبل أن يتمَّ الحجّة عليه، وقبل أن يتّضح ويستبين تكليفه، ففي البداية يضع الله تعليماته وأوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها وأطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا والآخرة. أمّا إذا عصوا وخالفوا ولم يلتزموا الأوامر والنواهي الربانية، فسيحيق بهم العذاب، ويؤدّي إلى هلاكهم.

وإذا تأملنا الآية، ودققنا النظر فيها بشكل صحيح، فسنرى أنَّ هناك أربع مراحل لهذا البرنامج الرباني، هي:

١ - مرحلة الأوامر والنواهي.

٢ - مرحلة الفسق والمخالفة.

٣ - مرحلة استحقاق المجازاة.

٤ - مرحلة الهلاك.

---

(١) بالرغم مِن أنّ كلمة «قول» لها معنى واسع، ولكنّها هُنا تعني إعطاء الأمر بالعذاب.

والملاحظ هنا، أنَّ المراحل الأربع هذه، معطوفة على بعضها البعض بواسطة «فاء» التفريع.

هنا يُطرح هذا السؤال: لماذا كان المأمورون في الآية الكريمة هم المترفون دون غيرهم؟(١).

في الإجابة على السؤال المثار، لابدَّ مِن الإشارة إلى ملاحظة تعتبر مهمّة في توضيح المعنى، وهي أنَّ المترفين هم وجهاء القوم، ورؤساء المجتمع - طبعاً هذه القاعدة تخص المجتمعات المريضة - والآخرون تبع لهم.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ التعبير في الآية الكريمة ينطوي على إشارة مهمّة، هي أنَّ أغلب المفاسد الاجتماعية تنبع مِن المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن الله تعالى، والذين يعيشون حياةً مترفة بعيدة عن الشرع مملوءة بالأهواء والمفاسد، وهم بذلك لا يفقهون شيئاً عن تلك المفردات التي تتحدث عن الأخلاق والإنسانية والإصلاح، ولهذا السبب بالذات، وبحكم موقعهم، كان المترفون دائماً في الصفوف الأُولى، في مُواجهة دعوات الأنبياء والرسل، وكانوا يعتبرون دعوات الأنبياء - القائمة على أساس العدل وحماية المستضعفين - ضدّهم.

لهذه الأسباب ذكر هؤلاء بالخصوص لأنّهم أساس الفساد، على أيّة حال، هذه الآية بمثابة تحذير لكلّ المؤمنين كي ينتبهوا، ولا يسلّموا زمام أُمورهم وحكوماتهم بيد المترفين والأغنياء الغارقين بالشهوات، وألاّ يتبعونهم، لأنَّ هؤلاء يجرّون مجتمعهم نحو الهلاك.

الآية التي بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنّها أصلٌ عام، وقاعدة سارية، إذ تقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وفقاً لهذه القاعدة والسنّة، ثمّ تضيف بعد ذلك: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي إنَّ ظلم وذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التي لا تنام لربِّ العالمين.

«قرون» جمع «قرن» وهي تعني الجماعة التي تعيش في عصر واحد، ثمّ أطلقت فيما بعد على مجموع العصر الواحد.

أمّا بصدد عدد سنين القرن الواحد، فهناك آراء مختلفة، فقسم اعتبر القرن ٤٠ سنة،

---

(١) مُترفون، مِن مادة «ترفه»، وتعني المتنعمين وذوي الأموال الكثيرة الناسين لله تعالى.

وآخرون قالوا: ثمانين، والبعض الثالث، قال: إنَّ القرن مائة عام، أخيراً فقد اعتبر البعض أنَّ القرن هو مائة وعشرون عاماً. وفي كلِّ الأحوال لابدَّ مِن الإشارة هنا إلى أنَّ الحكم في هذه القضية يخضع لطبيعة الاتفاق العرفي الذي ينعقد حولها، ومِن هُنا فقد اتفق في عصرنا الراهن على أنَّ كلّ مائة سنة تعتبر قرناً واحداً[١].

أمّا لماذا أكّدت الآية على القرون مِن بعد نوح عليه السلام؟ فقد يكون ذلك بسبب أنَّ الحياة قبل نوح عليه السلام كانت حياة بسيطة، والاختلافات التي تقسّم المجتمعات إلى مُترف ومستضعف، كانت بسيطة وضئيلة، لذلك فالعذاب الإلهي لم يشملهم بكثرة.

أمّا عن سبب ذكر كلمتي «خبير» و«بصير» معاً، فإنّ ذلك يعود إلى المعنى المراد، إذ «خبير» تعني العلم والإحاطة بالنيّة والعقيدة؛ أمّا «بصير» فتشير إلى رؤية الأعمال، لذلك فإنَّ الله تبارك وتعالى يعلم بواطن الأعمال والنيّات، ويحيط بنفس الأعمال، ومثل هذه القدرة لا يمكنها بحال أن تظلم أحداً، ولا أن يضيع حق أحد في ظل حكومتها.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

التّفسير

طلاّب الدنيا والآخرة

لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر الله تعالى، وكيفية هلاكهم، لذا فإنَّ هذه الآيات - التي نحنُ بصددها الآن - تشير إلى سبب التمرُّد على شريعة الله، والعصيان لأوامره، وهذا السبب هو حبّ الدُّنيا، إذ يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

---

(١) في نهاية الآية (١٣) مِن سورة يونس أشرنا إلى هذا الموضوع.

«العاجلة» تعني النعم الزائلة، أو الدنيا الزائلة.

والظريف في الآية، أنّها لا تقول: إنَّ مَن يسعى وراء الدنيا، ويجعلها كلَّ همّه، يحصل على كلِّ ما يريد، بل قيّدت ذلك بشرطين هما:

أوّلاً: سيحصل على جزء ممّا يريده؛ وأنَّ هذا الجزء هو المقدار الذي نريده نحن، أي ﴿مَا نَشَآءُ﴾.

ثانياً: إنَّ جميع الأشخاص - رغم سعيهم الدنيوي - لا يحصلون على هذا المقدار، وإنّما قسمٌ مِنهم سيحصل على جزء مِن متاع الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾.

وبناءً على ذلك، فلا كلَّ طُلاّب الدنيا يحصلون عليها، ولا أُولئك الذين يحصلون على شيء مِنها، يحصلون على ما يريدون. ومسار الحياة اليومية يوضّح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكدّون ليلاً ونهاراً ولكنّهم لا يحصلون على شيء.

وما أكثر الذين لهم أُمنيات كبيرة وطموحات متعددة ومشاريع بعيدة، ولكن لا يحصلون إلاّ على القليل منها.

وفي هذا تحذيرٌ للدنيا إنّكم إذا تصوّرتم بأنّكم ستصلون إلى أهدافكم عن طريق بيع الآخرة بالدنيا، فهذا خطأ واشتباه كبير، حيث إنّكم في بعض الأحيان قد لا تُحققون أيّ هدف، وفي أحيان أُخرى قد تُحققون بعض أهدافكم.

وعادةً ما تكون للإنسان آمال كبيرة ومُتعدِّدة، لا يمكن إشباعها في هذه الدُّنيا المادية المحدودة، فلو أعطيت الدنيا كُلّها إلى شخص واحد، فقد لا يقتنع بها!

أمّا الأشخاص الذين يكدّونَ ولا يصلون إلى شيء، فلذلك أسباب مُختلفة، إذ قد يكون هُناك أمل في إنقاذهم، والله بذلك يحبّهم وييسّر سُبل الهداية لهم، أو يكون السبب أنّهم إذا وصلوا إلى مرحلة ما من أهدافهم ورغباتهم، فسيطغون ويؤذون خلق الله، ويضيّقون عليهم الخناق.

«يصلى» مُشتقة مِن «صَلى» وهي تعني إشعال النّار، وأيضاً تعني الحرق بالنّار، والمقصود مِنها هُنا هو المعنى الثاني.

والجدير بالانتباه هنا، أنَّ عاقبة هذه المجموعة مِن الناس، والتي هي نار جهنّم، قد تمَّ تأكيدها في الآية، بكلمتي ﴿مَذْمُومًا﴾ و﴿مَّدْحُورًا﴾ إذ التعبير الأوّل يأتي بمعنى اللوم، بينما الثّاني يعني الابتعاد عن رحمة الخالق، وفي الحقيقة إنَّ نار جهنّم تمثّل العقاب

الجسدي لهم، أمّا «مذموم» و«مدحور» فهما عقاب الروح، لأنَّ المعاد هوَ للروح وللجسد، والجزاء والعقاب يكون للاثنين معاً.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثّانية ومصيرها، وبقرينة المقابلة - وهي أسلوب قرآني مميّز - يتوضّح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

بناءً على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هي:

أوّلاً: إرادة الإنسان: وهي الإرادة التي ترتبط بالحياة الأبدية، ولا تكون مرتبطة باللذّات الزائلة والنعم غير الثابتة، والأهداف المادية؛ فالإرادة القويّة والروحية العالية تجعلان من الإنسان حرّاً طليقاً غير مرتبط بالدنيا.

ثانياً: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة وقاصرة في المجال الفكري والروحي للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرّات الوجود الإنساني، وتدفعهُ للحركة، وببذل كلّ ما يستطيع مِن السعي في هذا المجال. (يجب الملاحظة، بأنَّ كلمة «سعيها» قد جاءت في الآية الكريمة للتأكيد. وهي تعني أنَّ على الإنسان أن يبذل أقصى ما يستطيع مِن السعي في سبيل الآخرة).

ثالثاً: إنَّ كلّ ما سبق مِن حديث عن الإرادة في النقطتين السابقتين، ينبغي أن يقترن بالإيمان؛ الإيمان الثابت القوي. لأنَّ أيّ تصميم وجهد، إذا أريد لهُ أن يُثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، ومصدر هذه الأهداف هو الإيمان بالله لا غير.

صحيح أنَّ السعي وبذل الجهد للآخرة لا يمكن أن يكون بدون إيمان، حيث إنَّ مفهوم الإيمان داخل ضمنهُ، ولكن يجب عدم الاكتفاء بهذا المقدار مِن الدلالة الالتزامية للإيمان، بل وينبغي التوسّع في شرطِ الإيمان، بحكم أنَّ (الإيمان) يعتبر أمراً أساسياً، وركناً مهمّاً في هذا الطريق.

والملاحظ هنا، أنَّ الآية تخاطب عبيد الدنيا بالقول: ﴿جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ بينما عندما تنتقل إلى طُلاّب الآخرة وعشّاقها ومريدوها، فهي تخاطبهم بالقول: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾. إنَّ استخدام هذا التعبير أشمل وأجمل مِن استخدام أيّ تعبير آخر، مثل (جزاؤهم الجنّة) لأنَّ الشكر من أيّ شخص هو بمقدار شخصيته ومكانته لا بمقدار العمل الذي تمَّ، لذا فإنَّ شكر الله لسعي عباده يتناسب مع ذاته اللامتناهية، ونعمه المادية والمعنوية وما نتصوّره وما نعجز عن تصوّره.

وبالرغم من أنَّ بعض المفسّرين قد فسّروا كلمة ﴿مَشْكُورًا﴾ في هذه الآية بمعنى «الأجر المضاعف»[١]. أو بمعنى «قبول العمل»[٢]، إلاّ أنَّهُ مِن الواضح أنّ كلمة ﴿مَشْكُورًا﴾ لها معنى أوسع مِن هذه المعاني جميعاً.

وقد يتوهم البعض ويلتبس عليه الأمر، ظانّاً أنّ نعم الدنيا هي من نصيب عبيدها وطلاّبها فقط، وأنَّ طلاّب الآخرة وأهلها محرومون مِنها، لذلك فإنَّ الآية التي بعدها تقف أمام هذا اللبس، وتمنع هذا الظن، عندما تقول: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ لتضيف بعدها بقليل: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

نمدُّ هنا مِن «الإمداد» بمعنى الزيادة.

الآية التي بعدها تشير إلى أصل مهم في هذا الخصوص وتقول: كما أنّ السعي في هذه الدنيا متفاوت، وتتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر في الآخرة، ولكن التفاوت الدنيوي محدود، لأنَّ الدنيا هي نفسها محدودة، وأمّا الآخرة - ولكونها غير محدودة - فإن تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

قد يقول قائل هنا: إننا نرى في هذه الدنيا أفراداً يحصلون على أرباح كثيرة بدون أيّ سعي أو جهد؟

الجواب: إنّ وجود هؤلاء يعبِّر عن حالات استثنائية لا يمكن اعتبارها قاعدة في مقابل الأصل الكلي المتمثل في الجهد والسعي ودورهما في نجاح الإنسان وتوفيقه، وبذلك فإنَّ هذه الاستثناءات الثانوية لا تنافي الأصل الأساسي.

وأخيراً، وقبل أن ننتقل إلى الملاحظات، ينبغي أن نُنبه إلى أنَّ السعي وبذل الجهد لا يتعلقان بالكميّة والمقدار فقط، ففي بعض الأحيان يكون السعي القليل ذو الكيفية العالية أكثر أثراً من السعي الكثير ذي الكيفية الدانية.

بحوث

أوّلاً: هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفي نقيض؟

في الواقع إنّنا نرى في كثير مِن الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها

---

(١) يُراجع في هذا الشأن تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٨٥٢.
(٢) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

المادية، ففي بعض الآيات اعتبر المال خيراً (سورة البقرة الآية ١٨٠). وفي آيات كثيرة وصفت العطايا والمواهب المادية بأنها فضل الله ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾(١). وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٢). وفي آيات كثيرة أُخرى وصفت نعم الدنيا بأنها مسخّرة لنا ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾.

وإذا أردنا أن نجمع كلّ الآيات التي تهتم بالإمكانات المادية وتؤكّد عليها، وتجعلها في سياق واحد، فستكون أمامنا مجموعة كبيرة مِنها.

ولكن، وبرغم الأهميّة الكبرى التي تختص بها النعم المادية، فإنَّ القرآن الكريم استخدم تعابير أُخرى تحقّرها وتحطّ مِنها بقوّة، إذ نقرأ في سورة النساء الآية (٩٤)، قوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٣). وفي سورة العنكبوت الآية ٦٤، نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أمّا في الآية ٣٧ مِن سورة النّور، فإنّا نلتقي مع قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

هذه المعاني المزدوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً في الأحاديث والرّوايات الإسلامية، فالدنيا في وصف لأمير المؤمنين علي عليه السلام هي «مسجدُ أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله»(٤).

وفي جانب آخر، نرى أنَّ الأحاديث والرّوايات الإسلامية تعتبر الدنيا دار الغفلة والغرور، وما شابه ذلك.

والسؤال هنا: هل تتعارض هذه المجاميع من الآيات والرّوايات فيما بينها؟

في الواقع، عندما تلام الدنيا، فإنَّ اللوم ينصب على أُولئك الناس الذين لا هدف لهم ولا همّ سواها. مِن هنا نقرأ في الآية ٢٩ مِن سورة النجم قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾. وبعبارة أُخرى، فإنَّ الذم الذي يَرد للدنيا يقصد به الأشخاص الذين باعوا آخرتهم بدنياهم. ولا يتناهون عن أيّ منكر وجريمة في سبيل الوصول إلى أهدافهم المادية، وفي هذا السياق نقرأ في الآية ٣٨ مِن سورة التوبة: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ١٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٠.
(٤) نهج البلاغة، باب الكلمات القصار، الكلمة رقم ١٣١.

ثمّ إنَّ الآيات التي نبحثها تشهد على ما نقول، إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ هو خطاب لأُولئك الذين يستهدفون هذه الحياة العادية الزائلة، ويقفون عندها.

وعادةً فإنّ استخدام تعابير «المزرعة» أو «المتجر» وما شاكلهما في تشبيه الحياة الدنيا ووصفها، يعتبر دليلاً حيّاً على هذا الموضوع.

وخلاصة القول: إنَّهُ إذا تمّت الاستفادة مِن مواهب الدنيا وعطاياها التي تُعتبر مِن النعم الإلهيّة؛ ويعتبر وجودها ضرورياً في نظام الخلق والوجود، وتمّت الاستفادة في سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوي، فإنَّ ذلك يعتبر أمراً جيّداً، وتمتدح معه الدنيا، أمّا إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سَيُصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغي والظلم.

وما أجمل وصف الإمام علي عليه السلام للدنيا حينما يقول: «مَن أبصر بها بصّرته، ومَن أبصر إليها أعمته»(١). حيث إنَّ الفرق بين الدنيا المذمومة والدنيا الممدوحة، هو نفس الفرق الذي نستفيده، بين «إليها» و«بها»، إذ تعني الأُولى أنَّ الدنيا هدف، بينما تعني الثّاني أنّها مجرد وسيلة!

ثانياً: دور السعي في تحقيق المكاسب

هذه ليست المرّة الأُولى التي يشيد فيها القرآن بالسعي والجهد ودورهما في تحقيق المكاسب، وبعكسه يُحذِّر الأشخاص العاطلين والكُسالى بأنَّ السعادة الأخروية لا يمكن ضمانها بالكلام المجرّد، والتظاهر بالإيمان، بل الطريق يتمثل بالسعي وبذل الجهود.

وهذه الحقيقة واضحٌ مفادها في الكثير مِن الآيات القرآنية. ففي سورة المدّثر الآية ٣٨ نقرأ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وآيةٌ أُخرى تقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٢)، وفي آيات كثيرة أُخرى، يأتي العمل الصالح بعد ذكر الإيمان حتى لا يتوهم أحدٌ ويظن بأنَّهُ يستطيع الوصول إلى مرحلة ما بدون سعي وجهد، فمواهب الدنيا المادية لا يمكن استحصالها بدون سعي وجهد؛ فكيف إذن بالسعادة الأخروية الخالدة؟!

(١) يراجع نهج البلاغة، الخطبة رقم (٨٢).
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ثالثاً: الإمدادات الإلهية

﴿نُمِدُّ﴾ مشتقّة مِن كلمة «إمداد» وهي تعني إيصال المعونة، يقول الراغب الأصفهاني في كتاب «المفردات»: إنّ كلمة «إمداد» غالباً ما تُستعمل في المساعدات المفيدة والمؤثِّرة. أمّا كلمة «مدَّ» فإنّها تستعمل في الأشياء المكروهة وغير المقبولة.

على أيّةِ حال، نقرأ في الآيات التي نبحثها، أنَّ الله سبحانه وتعالى يضع جزءاً من نعمه في خدمة الجميع، إذ يستفيد مِنها المحسنون والمسيئون، وهذه النعم غالباً ما تكون من النوع الذي يتوقف استمرار الحياة عليه.

بتعبير آخر: هذه النعم هي تعبير عن مقام الرحمانية الإلهيّة التي تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن والكافر، ولكن هناك نعم لا تحصى وراء ذلك تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ
كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

أحكام إسلامية مهمّة

الآيات التي نحنُ بصدد بحثها هي بداية لسلسلة مِن الأحكام الإسلامية الأساسية، والتي تبدأ بالدعوة إلى التوحيد والإيمان؛ التوحيد الذي يعتبر الأساس والأصل لكلّ النشاطات الإيمانية، والأعمال الحسنة والبنّاءة. والآيات عندما تنحو هذا المنحى فهي بذلك تتصل مع مضمون البحث في الآيات السابقة، التي كانت تتحدث عن الناس السُّعداء الذين أقاموا حياتهم على دعائم ثلاث هي: الإيمان، السعي والعمل ووضع الآخرة ومنازلها نصب أعينهم.

وتعتبر هذه الآيات - أيضاً - تأكيداً ثانياً لدعوة القرآن إلى أفضل السبل وأكثرها

استقامة. في البداية تبدأ هذه الآيات بالتوحيد وتقول: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إنّها لم تقل: لا تعبد مع الله إلهاً آخر، بل تقول: ﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ هذا اللفظ أشمل وأوسع، إذ هو يعني: لا تجعل معبوداً آخر مع الله لا في العقيدة، ولا في العمل، ولا في الدعاء، ولا في العبودية. بعد ذلك توضّح الآية النتيجة القاتلة للشرك: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

إنَّ استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف والعجز، فمثلاً يقال: قَعَدَ به الضعف عن القتال. وَمِن هذا التعبير يُمكن أن نستفيد أنَّ للشرك ثلاثة آثار سيّئة جدّاً في وجود الإنسان، هي:

١ - الشرك يؤدّي إلى الضعف والعجز والذّلة، في حين أنَّ التوحيد هو أساس الحركة والنهوض والرفعة.

٢ - الشرك موجب للذم واللوم، لأنَّهُ خط انحرافي واضح في قبال منطق العقل، ويعتبر كفراً واضحاً بالنعم الإلهيّة، لذا فالشخص الذي يسمح لنفسه بهذا الانحراف يستحق الذم.

٣ - الشرك يكون سبباً في أن يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأشياء التي يعبدها، ويمنع عنهُ حمايته، وبما أنَّ هذه المعبودات المختلفة والمصطنعة لا تملك حماية أيّ إنسان أو دفع الضرر عنه، ولأنَّ الله لا يحمي مثل هؤلاء، لذا فإنّهم يصبحون «مخذولين» أي بدون ناصر ومعين.

إنَّ هذا المعنى يتّضح بشكل آخر في آيات قرآنية أُخرى، إذ نقرأ مثلاً في الآية ٤١ من سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدي، تشير الآيات إلى واحدة مِن أهم توجيهات الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية - بعد أن تؤكّد مرّة أُخرى على التوحيد - تقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾.

كلمة «قضاء» لها مفهوم توكيدي أكثر مِن كلمة «أمر» وهي تعني القرار والأمر المحكم الذي لا نقاش فيه، وهذا أوّل تأكيد في هذه القضية. أمّا التأكيد الثّاني الذي يدل على أهمية هذا القانون الإسلامي، فهو ربط التوحيد الذي يعتبر أهم أصل إسلامي، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثّالث والرّابع فهما يتمثلان في معنى الإطلاق الذي تفيده كلمة

«إحسان» والتي تشمل كلّ أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذي تفيده كلمة «والدين» إذ هي تشمل الأم والأب، سواء كانا مُسلِمَيْن أم كافِرَيْن.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجيء كلمة ﴿إِحْسَٰنًا﴾ نكرة، لتأكيد أهمّيتها وعظمتها(١).

ومِن الضروري الانتباه إلى هذه الملاحظة؛ وهي أنَّ الأمر عادةً ما ينصبّ على الأُمور الإيجابية، بينما جاءَ هنا في مفاد السلب والنفي ﴿وَقَضَىٰ... أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ...﴾ فما هو يا تُرى سبب ذلك؟

من الممكن أن نقول: إنَّ جملة ﴿وَقَضَىٰ...﴾ تتضمن جملة إيجابية، تقديراً يمكن أن نقدّرها بالقول: وقضى ربّك أن تعبده، ولا تعبد أيّ شيء سواه. أو من الممكن أن تكون جملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ التي تتضمّن «النفي والإثبات» جملة إيجابية واحدة، إذ هي تحصر العبادة بالله دون غيره ثمّ تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلاً بالإحسان إلى الوالدين فتقول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بحيث يحتاجان إلى الرعاية والاهتمام الدائم، فلا تبخل عليهما بأيّ شكل من أشكال المحبّة واللطف ولا تؤذيهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «أُف»: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾(٢) بل: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وكن أمامهما في غاية التواضع ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

الأهمية الاستثنائية لاحترام الوالدين

إنَّ الآيتين السابقتين توضّحان جانباً من التعامل الأخلاقي الدقيق، والاحترام الذي ينبغي أن يؤدّيه الأبناء للوالدين:

---

(١) يعتقد البعض أنَّ كلمة «إحسان» تتعدى غالباً بـ«إلى» مثل قولنا «أحسن إليه». وفي بعض الأحيان قد تتعدى بالباء. وقد يكون هذا التعبير لإظهار المباشرة، أي إظهار المحبّة والاحترام مباشرة وبدون أي واسطة. وهذا في الواقع تأكيد سادس في هذه القضية.

(٢) هناك قولان حول ﴿إِمَّا﴾ في جملة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ فالفخر الرازي في تفسيره يذهب إلى أنّها مركّبة من «إن» الشرطية و«ما» الشرطية، وهي بذلك تفيد التأكيد. أما البعض الآخر كصاحب «الميزان» مثلاً، فيرى أنّها مركبة من «إن» الشرطية و«ما» الزائدة، التي جاءت هنا لتسمح لـ«إن» الشرطية بالدخول على الفعل المؤكّد بنون التوكيد.

١ - من جانب أشارت الآية إلى فترة الشيخوخة، وحاجة الوالدين في هذه الفترة إلى المحبّة والاحترام أكثر مِن أيّ فترة سابقة، إذ تقول الآية: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾. مِن الممكن أن يصل الوالدان إلى مرحلة يكونان فيها غير قادرين على الحركة دون مساعدة الآخرين، وقد لا يستطيعان بسبب الكهولة رفع الخبائث عنهما، وهنا يبدأ الاختبار العظيم للأبناء، فهل يعتبرون وجود مِثل هذين الوالدين دليل الرحمة، أو أنّهم يحسبون ذلك بلاءً ومصيبةً وعذاباً... هل عندهم الصبر الكافي لاحترام مثل هؤلاء الآباء والأمهات، أم أنّهم يوجّهون الإهانات ويسيئون الأدب لهم؛ ويتمنّون موتهم؟!

٢ - مِن جانب آخر... تقول الآية: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ بمعنى لا تظهر عدم ارتياحك أو تنفرك مِنهم ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ثمّ تؤكّد مرّة أُخرى على ضرورة التحدّث معهم بالقول الكريم، إذ اللسان مفتاح القلب ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

٣ - مِن جانب ثالث تأمر الآية بالتواضع لهم، هذا التواضع الذي يكون علامة المحبّة، ودليل الودّ لهم: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾.

٤ - أخيراً تنتهي الآيات، إلى توجيه الإنسان نحو الدعاء لوالدَيْه وذكرهم بالخير سواء كانا أمواتاً أم أحياء، وطلب الرحمة الرّبانية لهما جزاء لما قاما به مِن تربية ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

إضافة إلى ما ذكرناه، فثمّة ملاحظة لطيفة أُخرى يطويها التعبير القرآني، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مُسِنيّن وضعيفين وكهلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنّك عندما كُنت صغيراً كُنت على هذه الشاكلة أيضاً، ولكن والديك لم يقصّرا في مداراتك والعناية بك، لذا فلا تقصّر أنت في مداراتهم ومحبّتهم.

وقد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين واحترامهم والتواضع لهم، وقد يصدر هذا العقوق عن جهل في بعض الأحيان، وعن قصد وعلم في أحيان أُخرى، لذا فإنَّ الآية الأخيرة في بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾. وهذه إشارة إلى أنَّ علم الله ثابت وَأزلي وأبدي وبعيد عن الاشتباهات، بينما علمكم أيّها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان وعصى أوامر خالقه في مجال احترام الوالدين والإحسان إليهم، ولكن بدون قصد وعن

جهل، ثمّ تابَ بعد ذلك وأناب، وندم على ما فعل وأصلح، فإنَّهُ سيكون مشمولاً لعفو الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

«أوّاب» مُشتقة مِن «أوب» على وزن «قوم» وهي تعني الرجوع مع الإرادة، في حين أنّ كلمة «رجع» تقال للرجوع مع الإرادة أو بدونها، لهذا السبب يقال للتوبة «أوبة» لأنَّ حقيقة التوبة تنطوي على الرجوع عن الأمر (المنكر)، إلى الله، مع الإرادة.

وبما أنَّ كلمة «أوّاب» هي صيغة مبالغة، لذا فإنّها تقال للأشخاص الذين كلّما أذنبوا رجعوا إلى خالقهم. وقد تكون صيغة المبالغة في «أوّاب» هي إشارة إلى تعدُّد عوامل العودة والرجوع إلى الله. فالإيمان بالله أوّلاً؛ والتفكير بحكمة يوم الجزاء والقيامة ثانياً؛ والضمير الحي ثالثاً؛ والتفكير بعواقب ونتائج الذنوب رابعاً، كلّ هذه العوامل تعمل سويّةً لأجل عودة الإنسان مِن طريق الانحراف، نحو الله.

بحوث

أوّلاً: احترام الوالدين في المنطق الإسلامي

بالرغم مِن أنَّ العاطفة الإنسانية ومعرفة الحقائق، يكفيان لوحدهما لاحترام ورعاية حقوق الوالدين، إلاّ أنَّ الإسلام لا يلتزم الصمت في القضايا التي يمكن للعقل أن يتوصل فيها بشكل مستقل، أو أن تدلّ عليها العاطفة الإنسانية المحضة، لذلك تراه يُعطي التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، بحيث لا يمكن لنا أن نلمس مثل هذه التأكيدات في الإسلام إلاّ في قضايا نادرة أُخرى.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

ألف: في أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مُباشرة، وهذا الاقتران يدل على مدى الأهمّية التي يوليها الإسلام للوالدين.

ففي سورة البقرة الآية ٨٣ نقرأ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

وفي سورة النساء الآية ٣٦ نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. أمّا الآية ١٥١ مِن سورة الأنعام فإنّها تقول: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. وفي الآية التي نبحثها نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

ب: إنَّ مسألة احترام الوالدين ورعاية حقّهما مِن المنزلة بمكان، حتى أنَّ القرآن

والأحاديث والرّوايات الإسلامية، تؤكّدان معاً على الإحسان للوالدين حتى ولو كانا مُشركين، إذ نقرأ في الآية ١٥ مِن سورة لقمان: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾.

ج: رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلى منزلة شكر الله تعالى، إذ تقول الآية ١٤ مِن سورة لقمان: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

وهذا دليل على عمق وأهمية حقوق الوالدين في منطق الإسلام وشريعته، بالرغم من أنّ نعم الله التي يشكرها الإنسان لا تعدّ ولا تحصى.

د: القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك، ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لو علم الله شيئاً هو أدنى من أفّ لنهى عنه، وهو مِن أدنى العقوق، ومِن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحدّ النظر إليهما»(١).

هـ: بالرغم مِن أنَّ الجهاد يُعتبر مِن أهم التعاليم الإسلامية، إلاّ أنَّ رعاية الوالدين تعتبر أهم مِنهُ، بل لا يجوز إذا أدّى الأمر إلى أذيّة الوالدين، بالطبع هذا إذا لم يكن الجهاد واجباً عينياً، وإذا توفرَّ العدد الكافي مِن المتطوعين له.

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «أنَّ رجلاً جاءَ إلى الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال لَهُ، إنّي أُحبّ الجهاد، وصحّتي جيّدة، ولكن لي أمّ لا ترتاحُ لذلك، فماذا أفعل؟ فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم: ارجع فكن مَع والدتك فوالذي بعثني بالحق لأنسها بك ليلة خيرٌ مِن جهاد في سبيل الله سنة»(٢).

ولكن عندما يجب الجهاد وجوباً عينياً، وتصبح بلاد الإسلام في خطر يُلزم الجميع بالحضور ولا تُقبل جميع الأعذار حينئذ بما فيها عدم رضاء الوالدين.

وما قلناه عن الجهاد ينطبق كذلك على الواجبات الكفائية الأخرى؛ وكذلك المستحبّات.

و: عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إيّاك وعقوق الوالدين فإنَّ ريح الجنّة توجد مِن ميسرة ألف عام ولا يجدها عاقّ»(٣).

هذا التعبير ينطوي على إشارة لطيفة، إذ إنّ مِثل هؤلاء الأشخاص (العاقّين) ليسوا لا

(١) جامع السعادات، النراقي، ج ٢، ص ٢٥٨؛ وبحار الأنوار، ج٧١، ص٦٤.
(٢) جامع السعادات، ج ٢، ص ٢٦٠. المصدر السابق، ص ٢٦١.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٩ و٢٥٧.

يدخلون الجنّة وحسب، بل إنّهم يبقون على مسافة بعيدة جدّاً منها ولا يستطيعون الاقتراب مِنها.

وينقل «سيد قطب» حديثاً عن رسول الله ﷺ جاء فيه: «عن بريده عن أبيه، أنَّ رجلاً كانَ في الطواف حاملاً أُمّه يطوف بها، فرأى النّبي ﷺ فسأله: هل أدّيت حقّها؟ فأجابه ﷺ: لا، ولا بزفرة واحدة».

ويقصد بالزفرة الواحدة الوجعة الواحدة، أو الطلقة الواحدة، التي تغشى الأم حين الولادة والوضع(١).

إذا أردنا أن نطلق العنان للقلم في هذا المجال، فسيطول بنا المقام ونبتعد عن التّفسير، لكن - بصراحة - يجب أن نعترف بأنَّ كلّ ما يُقال في هذا المجال فَهو قليل، لأنَّ للوالدين حق العيش والحياة على الولد.

في نهاية هذه الفقرة، أشير إلى أنَّ الوالدين - في بعض الأحيان - يقترحان على الأبناء أشياء غير منطقية وحتى غير شرعية، طبعاً في مثل هذه الحالات لا تجب الطاعة، ولكن مِن الأفضل أن يتّسم التعامل معهما بالهدوء والمنطق، وأن تتم عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأحسن وجه.

أخيراً نختم الكلام بحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام قال فيه: إنَّ رجلاً جاءَ النّبي الأكرم ﷺ يسأله عن حق الأب على ابنه، فأجابهُ ﷺ بقوله: «لا يسميه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له»(٢) (أي لا يفعل شيئاً يؤدّي إلى أن يسبّ الناس والديه).

ثانياً: بحثٌ حول كلمة «قضى»

«قضى» أصلها مِن كلمة «قضاء» بمعنى الفصل في شيء ما، إمّا بالعمل وإمّا بالكلام. وقال بعض: إنَّ معناها هو وضع نهاية لشيء ما، وفي الواقع فإنَّ المعنيين مُتقاربان. وبما أنَّ الفصل ووضع النهاية لهما معاني واسعة، لذا فإنَّ هذه الكلمة لها استخدامات في مفاهيم مُختلفة، فالقرطبي في تفسيره مثلاً ذكر لها ستة معان هي:

* «قضى» بمعنى «أمر» كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٢، الطبعة العاشرة. وج٥، ص٣١٨.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٤٩.

* «قضى» بمعنى «خلق» كما في قوله الآية ١٢ مِن سورة فصلت: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

* «قضى» بمعنى «حكم» كما في الآية ٧٢ من سورة طه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ قَالُوا۟﴾

* «قضى» بمعنى الانتهاء مِن شيء، ومثلهُ الآية ٤١ مِن سورة يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

* «قضى» بمعنى «أراد» كما في سورة آل عمران، الآية ٤٧: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

* «قضى» بمعنى «عهد» كما في الآية ٤٤ من سورة القصص: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[١].

وقد أضاف أبو الفتوح الرازي إلى هذه المعاني قوله:

* «قضى» بمعنى «الإخبار والإعلام» مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢].

ونستطيع أن نضيف إلى هذا المعنى، معنى آخر تكون فيه «قضى» بمعنى «الموت» كما في الآية ١٥[٣] مِن سورة القصص ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

المهم هُنا، أنَّ بعض المفسّرين وضع أكثر مِن ١٣ معنى لكلمة في القرآن الكريم[٤].

ولكن لا يُمكن اعتبار كلّ هذه معاني المُتعدّدة لكلمة «قضى» لأنّها تنتهي إلى مفهوم واحد. لذلك فإنَّ أغلب المعاني المذكورة أعلاه هي مِن باب اختلاط المصداق بالمفهوم. لأنّ كلّ واحدة مِنها، ما هي في واقعها إلاّ مصداقاً للمفهوم الكلّي والجامع المتمثل في «الفصل ووضع النهاية» فالقاضي بحكمه يضع نهاية للدعوى؛ والخالق يضع نهاية لما خلق؛ والمُخبر بأخباره يضع نهاية لما يريد أن يوضحه، ولكن لا يمكن الإنكار أنَّ بعض هذه المصاديق، ومِن كثرة الاستخدام قد وضعت معان جديدة لكلمة «قضاء» مِثل الحكم أو إعطاء الأوامر.

ثالثاً: بحثٌ حول معنى كلمة ﴿أُفٍّ﴾

أصل ﴿أُفٍّ﴾ كلّ مستقذر مِن وَسخ وقُلامةِ ظفر وما يجري مجراهما، ويقالُ ذلك لكلِّ

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٨٥٣.

(٢) تفسيره أبي الفتوح الرازي، ج ٧، ص ١٨٨.

(٣) وجوه القرآن للتفليسي، ص ٢٣٥.

(٤) التّفسير الكبير، للفخر الرازي، ج ٢٠، ص١٨٨.

مُستَخفٌ به استقذاراً له. ويمكن أن نشتق مِنهُ فعلاً، كمثل قولنا: قد أففت لكذا، إذا قلت ذلك استقذاراً له. (مفردات الراغب صفحة ١٩).

بعض المفسّرين مثل «القرطبي» في الجامع، و«الطبرسي» في «مجمع البيان» قالوا: «أف» و«تف» في الأصل بمعنى وسخ الظفر حيث إنّه ملوّث وتافه أيضاً، وينقل الرازي عن الأصمعي أنَّ «الأف» وسخ الأذن، و«التف» وسخ الظفر، حتى توسّع المعنى ليشمل كلّ ما يُتأذى منه، وتذكر اللفظة أيضاً عند كلّ مكروه يصل إليهم(١).

وهُناك معان أُخرى لكلمة ﴿أُفٍّ﴾ مِنها أنّها تعني الشيء القليل، أو الأذى مِن الرائحة الكريهة.

البعض الآخر قال: إنَّ أصل هذه الكلمة مأخوذ مِن «الصوت» الذي يخرج مِن الفم عندما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه مِن الغبار الموجود عليها؛ وهذا الصوت يشبه كلمة «أوف» أو «أف» وقد استفيد مِنها فيما بعد للتعبير عن التنفُّر وعدم الراحة مِن الأشياء الصغيرة بالخصوص.

والخلاصة أنه نظر لما تقدم آنفاً بالإضافة إلى قرائن أُخرى يمكن القول بأنَّ هذه الكلمة هي في الأصل «اسم صوت» والمقصود بالصوت هنا ما يصدره الإنسان مِن فمه عندما يتذمَّر أو ينفخ لإزالة شيء ما. ثمّ بعد ذلك تحول «اسم الصوت» إلى كلمة يمكن اشتقاق الأفعال مِنها، وبذلك تكون المعاني التي ذكرناها مصاديق لهذا المفهوم العام والشامل.

ومُنتهى الكلام هنا، أنَّ الآية تريد أن تقول بعبارة قصيرة وفصيحة وبليغة. إنَّ احترام الوالدين ورعاية حقوقهما مهمّان للغاية، بحيث لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة ﴿أُفٍّ﴾ مِن معنى.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ
ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ
عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ
مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

(١) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

التّفسير

رعاية الاعتدال في الإنفاق والهبات

مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر مِن سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التي لها علاقة بحقوق القربى والفقراء والمساكين، والإنفاق بشكل عام ينبغي أن يكون بعيداً عن كل نوع مِن أنواع الإسراف والتبذير، حيث تقول الآية: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

«تبذير» مِن «بذر» وهي تعني بذر البذور، إلاّ أنّها هنا تخص الحالات التي يصرف فيها الإنسان أمواله بشكل غير منطقي وفاسد. بتعبير آخر: إنَّ التبذير هو هدر المال في غير موقعه ولو كانَ قليلاً، بينما إذا صُرِفَ في محلِّه فلا يعتبر تبذيراً ولو كان كثيراً، ففي تفسير العياشي، عن الإمام الصادق عليه السلام، نقرأ قوله: «مَن أنفق شيئاً في غير طاعة الله فهو مُبذر ومَن أنفق في سبيل الله فهو مُقتصد»(١).

وينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه دعا برطب (لضيوفه) فأقبل بعضهم يرمي بالنوى، فقال: «لا تفعل إن هذا من التبذير، وإن الله لا يحب الفساد»(٢).

وفي مكان آخر نقرأ، أنَّ رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم وإن كُنت على نهر جار»(٣).

وبالنسبة لذوي القربى هناك كلام كثير بين المفسّرين، هل هُم عموم القربى؟ أو المقصود بهم قُربى الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره هو المخاطب بالآية؟

في الأحاديث الكثيرة التي سنقرؤها وفي الملاحظات التي سنقف عندها سنعرف بأنَّ ذوي القربى هم قربى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعض الرّوايات تشير إلى أنَّ الآية تتحدث عن قصّة فدك التي أعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنتهُ فاطمة الزهراء عليها السلام. ولكن مخاطبة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في كلمة ﴿وَءَاتِ﴾ لا تعتبر دليلاً على اختصاص هذا الحكم به، لأنَّ جميع الأحكام الواردة في هذه المجموعة من الآيات كالنهي عن الإسراف ومداراة السائل والمسكين، والنهي عن البخل، هي أحكام عامّة بالرغم مِن أنّها تخاطب الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وهُناك نقطة ينبغي الالتفات إليها؛ وهي مجيء النهي عن التبذير والإسراف، بعد

(١-٣) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

إعطاء الأمر بأداء حق الأقرباء والمساكين حتى لا يقع الإنسان تحت تأثير عاطفة القرابة أو الصداقة فيعطي لهذا المسكين أو ابن السبيل أو القريب أكثر ممّا يستحق أو يتحمل، فيعتبر ذلك إسرافاً وتبذيراً، وهما مذمومان دائماً.

الآية التي بعدها هي لتأكيد النهي عن التبذير ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

أمّا كيف كفر الشيطان بنعم ربّه، فهذا واضح، لأنَّ الله أعطاه قدرةً وقوّةً واستعداداً وذكاءً خارقاً للعادة، ولكن الشيطان استفاد مِن هذه الأُمور في غير محلّها، أي في طريق إغواء الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

أمّا كون المبذرين إخوان الشياطين، فذلك لأنّهم كفروا بنعم الله، إذ وضعوها في غير مواضعها. ثمّ إنَّ استخدام ﴿إِخْوَٰنَ﴾ تعني أنَّ أعمالهم مُتطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما مُتشابهة، أو أنّهم قرناء وجلساء للشيطان في الجحيم، كما توضّح ذلك الآية ٣٩ مِن سورة الزخرف بعد أن تشرك الشيطان والمذنب في العذاب: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

أمّا لماذا جاءت كلمة شيطان هنا بصيغة الجمع «شياطين»؟ قد يعود ذلك إلى أنّ لكلّ إنسان غافل عن خالقه وربّه، شيطانٌ قرينٌ له، كما نرى هذا المعنى واضحاً في الآيات ٣٦ - ٣٨ مِن الزخرف: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ . . . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

ثمّ إنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، وفي هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقة التصرُّف بالنحو الآتي: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

«ميسور» مُشتقّة مِن «يسر» وهي بمعنى الراحة والسهولة، أمّا هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كلّ كلام جميل وسلوك مقرون بالاحترام والمحبّة، وإذا فسَّرها البعض بمعنى الوعد للمستقبل فإنَّ ذلك أحد مصاديقها.

نقرأ في الرّوايات، أنّه بعد نزول هذه الآية، كانَ إذا جاء شخص محتاج إلى رسول الله ﷺ، والرّسول لا يملك شيئاً لإعطائه، قال له ﷺ: «يرزقنا الله وإيّاكم مِن فضله»(١).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

وقديماً عندما كانَ السائل يطرق الباب، ويطلب مِنّا شيئاً لا نستطيع إعطاءه إيّاه، نقول له «العفو» وذلك تأكيداً على أنَّ لهذا السائل حق علينا يُطالِبنا به، وإذا كُنّا لا نملك قضاء حاجته وإعطاءه حقّه، فإنّنا نطلب منه العفو.

الاعتدال هو شرط في كلّ الأُمور بما فيها الإنفاق ومساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. وهذا تعبير جميل يفيد أنَّ الإنسان ينبغي أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وكأنّ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بُخلاً وخشية من الإنفاق، ولكن في نفس الوقت تقرّر الآية أنّ بسط اليد لا ينبغي أن يتجاوز الحدّ المقرر والمعقول في الصرف والبذل والعطاء، حتى لا ينتهي المصير إلى الملامة والإبتعاد عن الناس: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

و«تقعد» مُشتقّة مِن «قعود» وهي كناية عن التوقف عن العمل. أمّا تعبير «ملوم» فهو يشير إلى أنَّ عاقبة الإسراف لا تؤدّي إلى توقف الإنسان عن عمله ونشاطه وحسب، وإنّما تؤدّي إلى إيقاع لوم الناس عليه.

«محسور» مُشتقّة مِن كلمة «حسر» وهي في الأصل تعني خلع الملابس، رفع الثوب وإظهار بعض البدن من تحته، لذا يقال للمقابل الذي لم يلبس الخوذة والدرع، بأنّه «حاسر». وأيضاً يقال للحيوان الذي يتعب مِن كثرة المشي بأنّه «حسير» أو «حاسر» بسبب استنفاد طاقته وقدرته.

وقد توسّع هذا المفهوم فيما بعد بحيث أصبح يُطلق على كلّ إنسان عاجز عن الوصول إلى هدفه بأنَّهُ «حسير» أو «محسور» أو «حاسر».

أمّا كلمة «الحسرة» والتي تعني الغمّ والحزن، فهي مُشتقة مِن هذه الكلمة، وتطلق على الإنسان الفاقد لقابلية حلّ المشاكل بسبب الضعف.

وكذلك بالنسبة للإنفاق، فهو إذا تجاوز الحدّ المقرَّر بحيث يستنفد طاقة الإنسان، فإنَّهُ يؤدّي إلى أن يُصاب صاحبه بالغمّ والحزن بسبب الضعف عن أداء واجباته ومسؤولياته، وينقطع اتصاله وارتباطه بالناس.

وبعض الرّوايات التي تتحدث عن سبب نزول الآية تؤكّد هذا المعنى، إذ إنّها تتحدث أنَّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم كانَ يوماً في بيته فجاءه سائل يسأله إعطاءه ملابس، ولمّا لم يكن مع الرّسول ما يُعطي السائل، فقد خلع لباسه وأعطاهُ إيّاه، الأمر الذي أدّى إلى بقاء الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في البيت وعدم خروجه في ذلك الوقت للصلاة.

وقد كانَ هذا الحادث سبباً لِتقوّلات الكفار المنافقين، الذين قالوا: إنَّ الرّسول نائم،

أو إنَّهُ في لهو أنساهُ صلاته، وبذلك أدّى هذا العمل إلى إيقاع اللوم، وشماتة الأعداء والانقطاع عن الأصحاب، وأصبح بذلك مصداقاً للملوم والمحسور، عندها نزلت الآية أعلاه تنهى الرّسول ﷺ عن تكرار هذا العمل.

أمّا عن التضاد القائم بين هذا الأمر ومسألة «الإيثار» فسنبحثهُ في الملاحظات القادمة إن شاء الله.

بعض الرّوايات تتحدث عن أنّ سبب نزول الآية، هو أنَّ الرّسول ﷺ كان يعطي ما يوجد في بيت المال إلى المحتاج بحيث إذا جاءه محتاج آخر، فلن يجد شيئاً يعطيه له، فيلوم ذلك المحتاج الرّسول ﷺ ويؤذيه، لذلك صدرت التعليمات بأن لا ينفق كلّ ما في بيت المال، لمواجهة هذه المشكلات.

سؤال: لماذا يجب أن يكون هناك مساكين وفقراء ومحرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الأفضل أن يعطيهم الله ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآية الأخيرة بمثابة جواب على هذا السؤال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾. إنَّهُ اختبارٌ لنا، فالله قادر على كلّ شيء، ولكنَّهُ يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السخاء والتضحية والعطاء، إضافة إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس في حالة الكفاية وعدم الحاجة فإنَّ ذلك يقود إلى الطغيان والتمرّد ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾، لذلك مِن المفيد أن يبقوا في حدٍّ معين مِن الحاجة. هذا الحد لا يسبب الفقر ولا الطغيان، مِن ناحية أُخرى يرتبط التقدير والبسط في رزق الإنسان بمقدار السعي وبذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزة والمعلولين)، وهكذا تقتضي المشيئة الإلهيّة ببسط الرزق وتقديره لمن يشاء، وهذا دليل الحكمة، إذ تقتضي الحكمة بزيادة رزق مَن يسعى ويبذل الجهد، بينما تقضي بتضييقه لمن هو أقل جهداً وسعياً.

العلاّمة الطباطبائي ينظر للعلاقة بين هذه الآية والتي قبلها في ضوء احتمال آخر فيقول في تفسير الميزان: «إنَّ هذا دأب ربّك وسنّته الجارية، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدّر لمن يشاء، فلا يبسطه كلّ البسط، ولا يمسك عنهُ كلّ الإمساك رعاية لمصلحة العباد، إنَّه كان بعباده خبيراً بصيراً أو ينبغي لك أن تتخلق بخلق الله وتتخذ طريق الاعتدال وتتجنب الإفراط والتفريط»(١).

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٨٤ و٨٨.

بحوث

أوّلاً: مَن هم المقصودون بذي القربى؟

كلمة ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تعني الأرحام والمقرّبين، وهناك كلام بين المفسّرين، حول المقصود بها، إذ هل هو المعنى العام أو الخاص؟ ويمكن أن نلاحظ هنا بعض هذه الآراء:

البعض يعتقد أن المخاطب بالآية جميع المؤمنين والمسلمين، والغرض هو الحث على أداء حقوق الأقرباء.

البعض الآخر يرى أن المخاطب في الآية هو الرسول ﷺ، والغرض هو إيصال حقوق أقرباء النّبي ﷺ كخمس الغنائم، أو غيرها ممّا يتعلق بها الخمس، أو بصورة عامّة تأدية كلّ الحقوق التي لهم في بيت المال.

لذلك نرى في روايات عديدة عند الشيعة والسنّة أنّ رسول الله ﷺ بعث إلى فاطمة عليها السلام بعد نزول هذه الآية، ووهبها فدكاً[(١)].

ففي مصادر السنة مثلاً نقرأ عن أبي سعيد الخُدري الصحابي المعروف: «لما نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً»[(٢)].

ويستفاد مِن بعض الرّوايات، أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام أثناء سيره إلى الشام بعد واقعة كربلاء، استدلَّ بهذه الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ في التعريف بنفسه وأهل بيته وعيال أبيه الحسين عليه السلام، بأنّهم هم المعنيون بقوله تعالى، فيما كانَ أهل الشام يغمطونهم هذا الحق![(٣)].

---

(١) فدك أرض معمورة وخصبة، كانت بالقرب مِن خيبر وعلى بعد (١٤٠) كم عن المدينة المنورة، وفدك بعد خيبر كانت مركزاً لاستقرار يهود الحجاز [يراجع كتاب: مراصد الاطّلاع. موضوع فدك]. وبعد أن استسلم اليهود للنّبي ﷺ بدون حرب، أعطى الرّسول هذه الأرض إلى فاطمة الزّهراء عليها السلام وذلك وفقاً للوقائع التأريخية الثابتة لدى الجميع، لكنّها صودرت بعد وفاة رسول الله ﷺ ولأسباب سياسية وبقيت في أيدي الخلفاء إلى أن أعادها عمر بن عبد العزيز أيّام خلافته إلى العلويين.

(٢) نقل هذا الحديث «البزار» و«أبو يعلى» و«ابن أبي حاتم» و«ابن مردويه» عن «أبي سعيد» [لاحظ كتاب ميزان الاعتدال المجلد الثّاني صفحة (٢٨٨) وكنز العمال المجلد الثّاني صفحة (١٥٨)] وقد ورد هذا الحديث أيضاً في تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي عند حديثه عن هذه الآية، وفي الدر المنثور أيضاً وقد أخرجه عن طريق السنة والشيعة معاً؛ بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ١٠٧.

(٣) راجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٥٥.

ولكن - كما أشرنا سابقاً - ليس هناك تعارض بين هذين التّفسيرين، فالكل مكلفون بإيتاء حقوق ذوي القربى، والرّسول ﷺ الذي اعتبر قائداً للأُمّة الإسلامية مكلّف أيضاً بالعمل بهذه المسؤولية الكبيرة، فأهل بيت النّبي ﷺ هم في الواقع مِن أوضح مصاديق القربى له ﷺ، والرّسول ﷺ في طليعة المخاطبين بالآية الكريمة، لهذا السبب وهب الرّسول ﷺ حقوق ذوي القربى لهم، فأعطى فاطمة فدكاً، وأجرى عليهم الأخماس وغير ذلك، حيث كانت الزكاة أموالا عامّة محرّمة على أهل بيت النّبي ﷺ وقرباه.

ثانياً: مصائب الإسراف والتبذير

لا ريب في أنَّ النعم الموجودة على الكرة الأرضية كافية لساكنيها، بشرط واحد، هو أن لا يبذّروا هذه النعم بلا سبب، بل عليهم استثمارها بشكل معقول وبلا إفراط أو تفريط، وإلاّ فإنَّ هذه النعم ليست غير متناهيه حتى لو أُسيء استثمارها والتصرّف بها. وقد يؤدّي الإسراف والتبذير في منطقة معيّنة إلى الفقر في منطقة أُخرى، أو إنَّ إسراف وتبذير الناس في هذا الزمان يسبِّب فقر الأجيال القادمة.

وفي ذلك اليوم الذي لم تكن فيه الأرقام والإحصاءات في متناول الإنسان، حذّر الإسلام مِن مغبة الإسراف والتبذير في نعم الله على الأرض، لذلك فالقرآن أدان في أماكن كثيرة وبشدّة المسرفين والمبذّرين.

ففي الآيتين ١٤١ مِن الأنعام و٣١ من الأعراف نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أمّا في غافر الآية ٤٣ فنقرأ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

والآية ١٥١ مِن الشعراء تنهى عن طاعة المسرفين: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أمّا الآية ٨٣ مِن يونس فتجعل الإسراف صفة فرعونية: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

والهداية ممنوعة عن المسرفين كما هو مفاد الآية ٢٨ مِن سورة غافر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وأخيراً تتحدث الآية ٩ مِن سورة الأنبياء عن مصيرهم: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وقد رأينا في الآية التي نبحثها أنّ الله تعالى جعل المسرفين إخوان الشياطين، والإسراف بمعناه الواسع هو الخروج وتجاوز الحد في أيّ عمل يقوم به الإنسان، ولكنّها عادةً تستخدم في المصروفات.

ومِن آيات القرآن نفسها نستفيد أنَّ الإسراف هو في مقابل التقتير، بينما هناك طريق ثالث هو منزلة بين الأمرين، كما في الآية ٦٧ مِن سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

ثالثاً: الفرق بين الإسراف والتبذير

في الواقع لا يوجد هناك بحث واضح عند المفسّرين في التفاوت الموجود بين الإسراف والتبذير، ولكن عند التأمُّل بأصل هذه الكلمات في اللغة، يتبيَّن أنَّ الإسراف هو الخروج عن حدّ الاعتدال، ولكن دون أن نخسر شيئاً، فمثلاً نلبس ثياباً ثميناً بحيث إنَّ ثمنهُ يُعادل أضعاف سعر الملبس الذي نحتاجه، أو أنّنا نأكل طعاماً غالياً بحيث يمكننا إطعام عدد كبير مِن الفقراء بثمنه. كلّ هذه أمثلة على الإسراف، وهي تُمثّل خروجنا عن حدِّ الاعتدال، ولكن مِن دون أن نخسر شيئاً.

أمّا كلمة «تبذير» فهي تعني الصرف الكثير، بحيث يؤدّي إلى إتلاف الشيء وتضييعه، فمثلا نهيّىء طعام عشرة أشخاص لشخصين، كما يفعل ذلك بعض الجهلاء ويعتبرون ذلك فخراً، حيث يرمون الزائد في المزابل.

ولكن بالرغم مِن هذا التمييز، لا بدَّ مِن القول بأنَّ كثيراً ما تستخدم هاتين الكلمتين للتدليل على معنى واحد، وقد تردان في الجملة الواحدة لغرض التأكيد.

فالإمام علي عليه السلام يقول في نهج البلاغة: «ألا إنَّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعهُ في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينهُ عند الله»[1].

وفي الآيات التي بحثناها رأينا أنّ الإسلام يحثّ كثيراً على عدم الإسراف والتبذير إلى درجة أنّه نهى عن الإسراف في ماء الوضوء حتى إذا كان ذلك قرب نهر جار؛ وحتى في نوى التمر. وعالم اليوم الذي بدأ يتحسّس الضائقة في بعض الموارد، أخذ يهتم بهذه الفكرة، حتى بات يستفيد مِن كلِّ شيء، فهو مثلاً يستفيد مِن فضولات المنازل في صنع السماد، ومِن ماء المجاري لسقي المزروعات، لأنَّهُ أحسَّ أنَّ المصادر الطبيعية محدودة، لذا لا يمكن التفريط بها بسهولة، وإنّما ينبغي الاستفادة مِنها ضمن ما يعرف بـ«دورة المصادر الطبيعية».

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

رابعاً: هل ثمّة تعارض بين الاعتدال في الإنفاق والإيثار؟

مع الأخذ بنظر الاعتبار، الآيات أعلاه والتي تؤكّد ضرورة الاعتدال في الإنفاق، يثار سؤال مؤدّاه، إنَّ في سورة الدهر مثلاً، وآيات أُخرى، وفي مجموعة مِن الأحاديث والرّوايات، ثمّة إشادة بالمؤثرين الذين يؤثرون غيرهم على أنفسهم في أحلك الساعات وأشدّ الظروف ويعطون ما يملكون للآخرين، فكيف يا تُرى نوفّق بين هذين المفهومين؟

إنَّ الدقة في سبب نزول هذه الآيات مع قرائن أُخرى تفيدنا في الوقوف على جواب هذا السؤال، إذ يكون الأمر بمراعاة الاعتدال في المجالات التي يكون فيها العطاء والهبات الكثيرة سبباً لاضطراب الإنسان في حياته أو بمصطلح القرآن يصبح فيها ﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وكذلك إذا كانَ الإيثار سبباً في التضييق على أبنائه أو أنَّهُ يهدِّد انسجام عائلته. وإذا لم يقع أي مِن هذين المحذورَيْن، فإنَّ الإيثار يُعتبر أفضل السُّبل، نضيف إلى ذلك أنَّ الاعتدال في الإنفاق يُعتبر حكماً عاماً، بينما الإيثار يعتبر حكماً خاصاً يرتبط بمصاديق خاصّة، وليس ثمّة تضاد بين الاثنين.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

ستةُ أحكام مهمّة

في متابعة للأحكام الإسلامية التي أثارتها الآيات السابقة، تتحدَّث هذه الآيات عن ستةِ أحكام إسلامية أُخرى وردت في ست آيات، بعبارات قصيرة ومعان كبيرة، تأخذُ بلباب القلوب.

أوّلاً: تشير الآية إلى عمل قبيح وجاهلي هو مِن أعظم الذنوب، فتنهى عنهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فرزق هؤلاء ليس عليكم ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أمّا علّة الحكم فهي: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

هذه الآية تفيد أنَّ الوضع الاقتصادي للعرب في الجاهلية كان صعباً وسيّئاً. بحيث إنّهم كانوا يقتلون أبناءهم في بعض الأحيان خوف العيلة والفقر، وهناك كلام بين المفسّرين فيما إذا كانَ العرب في الجاهلية يدفنون البنات أحياء وحسب، أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضاً خوفاً مِن الفقر!

البعض يعتقد أنَّ الآيات تتحدث عن دفن البنت وهي حيَّة، هذا العمل الذي كان شائعاً في الجاهلية لسببين:

الأوّل: يتمثل في الخوف مِن وقوعهن في الأسر أثناء الحروب، الأمر الذي يجعل الأعراض والنواميس تحت رحمة العدو.

أمّا الثّاني: فيعود إلى خوفهم مِن الفقر وعدم تمكنهم مِن توفير المؤونة للبنات اللاتي لا يقمن بعمل إنتاجي، ويقتصر دورهن على الاستهلاك فقط. صحيح أنَّ الولد في مطلع حياته لا ينتج، لكنّه في عرف عرب الجاهلية يعتبر رأسمالاً ثميناً، لا يمكن التفريط به.

البعض الآخر من المفسّرين يعتقد أنّ هناك نوعين مِن القتل، النوع الأوّل يشمل البنات، لحفظ الناموس حسب اعتقادهم الخاطىء، أمّا النوع الثّاني فسببهُ الفقر. وهو يشمل البنات والبنين معاً.

ظاهر الآية يدل على هذا المعنى، لوجود ضمير الجمع المذكّر في الآية في ﴿قَتْلَهُمْ﴾ وهذا الضمير يطلق في اللغة العربية على الولد والبنت معاً، وبالتالي فإنّه يستبعد اختصاصه بالبنات وحدهن.

أمّا ما يقال مِن أنَّ الولد قادر على الإنتاج، ويعتبر وجوده رأسمالاً للمستقبل، فهذا صحيح في حال وجود القدرة المالية، أمّا في حالة عدم القدرة على تأمين حياة هؤلاء الأولاد فالرأي الثّاني هو الأصح.

المهم أنَّ هذا التصرف الجاهلي يرتبط بعقيدة وهمية تقول: إنَّ الأب والأم هما الرازقان، بينما الله سبحانهُ وتعالى يقول: اطردوا هذا التفكير الشيطاني مِن أذهانكم وابذلوا سعيكم وسعكم والله يؤمّن رزقكم ورزقهم.

وفي الوقت الذي نستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحقّ النوع البشري،

فإنَّ عصرنا الحاضر - وفي أكثر مُجتمعاته رُقيّاً وتقدّماً - يعيد تكرار هذه الجريمة ولكن بأسلوب آخر، إذ إنَّ العمليات الواسعة في إسقاط الجنين وقتله خوفاً مِن الضائقة المالية وازدياد عدد السكان، هي نموذج آخر للقتل، (للمزيد راجع تفسير الآية ١٥١ مِن سورة الأنعام).

إنَّ تعبير ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إشارة لطيفة إلى الدافع الوهمي الشيطاني ورفضه، حيثُ يُفيد التعبير أنَّ الوهم ومجرّد الخوف هو الذي يتحكم بهذا السلوك المحرَّم. لا الدوافع الحقيقية.

كما يجب الانتباه إلى أنَّ «كان» في ﴿كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ هي فعل ماض، يُفيد هنا التأكيد على أنَّ قتل الأبناء يعتبر مِن الذنوب العظيمة التي كانت معروفة، منذ القدم بين البشر، وأنَّ الفطرة الإنسانية السليمة تحمل دوافع الرفض والإدانة لِمثل هذا السلوك الذي لا يختص بزمان معيّن دون غيره.

ثانياً: الآية التي بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وفي هذا التعبير القرآني تمّت الإشارة إلى ثلاث نقاط:

ألف: لم تقل الآية: لا تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، وهذا الأُسلوب في النهي فضلاً عمّا يحملهُ مِن تأكيد، فإنَّهُ يوضّح أنَّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغي تجنّبها وعدم مقاربتها، فخيانة العين تعتبر واحدة مِن المقدمات، والسفور والتعرّي مقدمة أُخرى، الكتب السيئة والأفلام الملوّثة والمجلات الفاسدة ومراكز الفساد كلّ واحدة مِنها تعتبر مقدمة لِهذا العمل.

كذلك فإنَّ الخلوة بالأجنبية (يعني خلوة المرأة والرجل الأجنبي في مكان واحد ولوحدهما) يعتبر عاملاً في إثارة الشهوة.

وأخيراً فإنَّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعة أمام الطرفين، هي مِن العوامل التي قد تؤدّي إلى الزنا. والآية نهت عن كلّ ذلك بشكل بليغ مُختصر، ولكنّا نرى في الأحاديث والرّوايات نهياً مُفصّلاً عن كلّ واحدة مِن هذه المقدمات.

ب: إنَّ جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ بتأكيداتها الثلاثة المستفادة مِن «إن» والفعل الماضي ﴿كَانَ﴾ وكلمة ﴿فَٰحِشَةً﴾ تكشف عن فظاعة هذا الذنب.

ج: إنَّ جملة ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ توضّح حقيقة أنَّ هذا العمل «الزنا» يؤدّي إلى مفاسد أُخرى في المجتمع.

فلسفة تحريم الزنا

يمكن الإشارة إلى خمسة عوامل في فلسفة تحريم الزنا، هي:

١ - شياع حالة الفوضى في النظام العائلي، وانقطاع العلاقة بين الأبناء والآباء، هذه الرابطة التي تختص بكونها سبباً للتعارف الاجتماعي، بل إنّها تكون سبباً لصيانة الأبناء، ووضع أُسس المحبّة الدائمة في مراحل العمر المختلفة، والتي هي ضمانة الحفاظ على الأبناء.

إنَّ العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس العلاقات العائلية ستتعرض للانهيار والتصدّع إذا شاع وجود الأبناء غير الشرعيين «أبناء الزنا»، وللمرء أن يتصوّر مصير الأبناء فيما إذا كانوا ثمرة للزنا، ومقدار العناء الذي يتحملونه في حياتهم مِن لحظة الولادة وحتى الكبر.

وعلاوة على ذلك، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأُسري الذي يعتبر عاملاً في الحدّ من الجريمة في المجتمع الإسلامي، وحينئذ يتحوّل المجتمع الإنساني بالزنا إلى مجتمع حيواني تغزوه الجريمة والقساوة من كلّ جانب.

٢ - إنَّ إشاعة الزنا في جماعة ما، ستقود إلى سلسلة واسعة مِن الانحرافات أساسها التصرفات الفردية والاجتماعية المنحرفة لذوي الشهوات الجامحة. وما ذكر في هذا الصدد من القصص عن الجرائم والانحرافات المنبعثة عن مراكز الفحشاء والزنا في المجتمعات يوضّح هذه الحقيقة، وهي أنّ الانحرافات الجنسية تقترن عادة بأبشع ألوان الجرائم والجنايات.

٣ - لقد أثبت العلم ودلَّت التجارب على أنَّ إشاعة الزنا سبب لكثير مِن الأمراض والمآسي الصحية وكلّ المعطيات تشير إلى فشل مُكافحة هذه الأمراض مِن دون مُكافحة الزنا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز في المجتمعات المعاصرة، ونتائجها الصحية والنفسية المدمِّرة).

٤ - إنَّ شياع الزنا غالباً ما يؤدّي إلى محاولة إسقاط الجنين وقطع النسل، لأنَّ مِثل هؤلاء النساء «الزانيات» لا يرضين بتربية الأطفال، وعادة ما يكون الطفل عائقاً كبيراً أمام الانطلاق في ممارسة هذه الأعمال المنحرفة، لذلك فهنّ يُحاولن إسقاط الجنين وقطع النسل.

أمّا النظرية التي تقول، بأنَّ الدولة يمكنها - من خلال مؤسسات خاصّة - جمع

الأولاد غير الشرعيين وتربيتهم والعناية بهم، فإنَّ التجارب أثبتت فشل هذه المؤسسات في تأدية أهدافها، إذ هناك صعوبات التربية، وهناك النظرة الاجتماعية لهؤلاء، ثمّ هناك ضغوطات العزلة والوحدة وفقدان محبّة الوالدين وعطفهما، كلّ هذه العوامل تؤدّي إلى تحويل هذه الطبقة مِن الأولاد إلى قساة وجناة وفاقدي الشخصية.

٥ - يجب أن لا ننسى أنَّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية وحسب، بل المشاركة في تأسيس الحياة على أساس تحقيق الاستقرار الفكري والأنس الروحي للزوجين. وأمّا تربية الأبناء والتعامل مع قضايا الحياة، فهي آثار طبيعية للزواج، وكلّ هذه الأُمور لا يمكن لها أن تثمر مِن دون أن تختص المرأة بالرجل، وقطع دابر الزنا وأشكال المشاعيّة الجنسية.

في حديث عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأمّا اللاتي في الدنيا، فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء. وأمّا اللّواتي في الآخرة، فغضب الرب، وسوء الحساب، والدخول في النّار، أو الخلود في النّار»(١).

ثالثاً: الحكم الآخر الذي تشير إليه الآية التي بعدها، هو احترام دماء البشر، وتحريم قتل النفس حيث تقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

إنَّ احترام دماء البشر وحرمة قتل النفس تعتبر من المسائل المتفق عليها في كلّ الشرائع السماوية وقوانين البشر، فقتل النفس المحترمة لدى الجميع مِن الذنوب الكبيرة، إلاّ أنَّ الإسلام أعطى أهمّية استثنائية لهذه المسألة بحيث اعتبر مَن يقتل إنساناً فكأنّما قتل الناس جميعاً، كما في الآية ٣٢ مِن سورة المائدة ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. بل نستفيد مِن بعض الآيات القرآنية أنَّ جزاء قتل النفس بغير حق هو الخلود في النّار، وأنَّ هؤلاء الذين يتورطون في دم الأبرياء يخرجون عن ربقة الإيمان، ولا يمكن أن يخرجوا مِن هذه الدنيا مؤمنين: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾(٢). وحتى في الإسلام فإنَّ الذين يشهرون السلاح بوجه الناس ينطبق عليهم عنوان «محارب» وهذا الصنف لهُ عقوبات شديدة مُفصّلة في المصنفات الفقهية، وقد أشرنا إلى بعضها أثناء الحديث عن الآية ٣٣ من سورة المائدة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤١٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

إنَّ الإسلام يُحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقهُ الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل وإراقة الدماء؟! وهنا نستطيع أن نقول - باطمئنان -: إنّنا لا نرى أيَّ شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفي معها احترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبة به، لذلك فإنَّ الآية بعد أن تُثبت حرمة الدم كأصل، تشير للاستثناء بالقول: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

وفي حديث معروف عن الرّسول ﷺ نقرأ: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المُحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١).

أمّا القاتل فتكون نهايتهُ معلومة بالقصاص، الذي يُؤمّن استمرار الحياة واستقرارها، وإذا لم يعط الحق لأولياء دم المقتول بالقصاص مِن القاتل، فإنَّ القتلة سيتجرؤون على المزيد من القتل والإخلال بالأمن الاجتماعي.

أمّا الزاني المحصن، فإنّ قتله في قبال واحد من أعظم الذنوب قباحة، وهو يساوي سفك الدم الحرام في المرتبة.

أمّا قتل المرتد فيمنع الفوضى والإخلال في المجتمع الإسلامي، وهذا الحكم - كما أشرنا سابقاً - هو حكم سياسي، لأجل حفظ النظام الاجتماعي في قبال الأخطار التي تهدِّد كيان النظام الإسلامي ووحدة أمنه الاجتماعي، والإسلام - عادةً - لا يفرض على أحد قبول الانتماء إليه، ولكن إذا اقتنع أحد بالإسلام واعتنقهُ، وأصبح جزءاً من المجتمع الإسلامي، واطلع على أسرار المسلمين، ثمّ أراد بعد ذلك الارتداد عن الإسلام ممّا يؤدّي عملاً إلى تضعيف وضرب قواعد المجتمع الإسلامي، فإنّ حكمه سيكون القتل(٢) بالشرائط المذكورة في الكتب الفقهية.

إنَّ حرمة دم الإنسان في الإسلام لا تختص بالمسلمين وحسب، بل تشمل غير المسلمين أيضاً مِن غير المحاربين، والذين يعيشون مع المسلمين عيشة مُسالمة، فإنَّ دماءهم - أيضاً - وأعراضهم وأرواحهم مصونة ويحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولي القتيل فتقول: ﴿وَمَن قُتِلَ

(١) تفسير في ظلال القرآن نقلاً عن صحيح البخاري ومسلم.

(٢) هناك بحث مفصّل في نهاية الآية (١٠٦) من سورة النحل، من التّفسير الأمثل حول الارتداد، وفلسفة العقوبات الشديدة للمرتد.

مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾. ولكن في نفس الوقت ينبغي لولي المقتول أن يلتزم حدّ الاعتدال ولا يسرف ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ إذ ما دام ولي الدم يتحرك في الحدود الشرعية فإنّه سيكون مورداً لنصرة الله تعالى.

والنهي عن الإسراف يشير إلى واقع كان سائداً في الجاهلية، واليوم أيضاً يُمكن مُشاهدة نماذج لها، فحين يُقتل فرد مِن قبيلة معيّنة، فإنّها تقوم بهدر الكثير مِن الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. كأن يكون المقتول شخصاً معروفاً وذا منزلة اجتماعية، فإنَّ أهله وفق الأعراف الجاهلية، سوف لن يكتفوا بحدّ القصاص الشرعي، بل يقتلون فرداً معروفاً ومكافئاً في منزلته الاجتماعية للمقتول من قبيلة القاتل حتى وإن لم يكن له أيّ دور في عملية القتل(١).

وعصرنا الحاضر، شهد مِن التجاوز في الإسراف وهدر دِماء الأبرياء ما غسل معه عار أهل الجاهلية، فهذه إسرائيل اليوم تقوم بحجة قتل أحد جنودها بإلقاء القنابل والصواريخ على رؤوس النساء والأطفال الفلسطينيين الأبرياء، وتعمد إلى هدم ديارهم.

كذلك شهدت سنوات الحرب الظالمة التي شنّها النظام البعثي على الجمهورية الإسلامية أسوأ أنواع العدوان على دماء الأبرياء والإسراف في القتل.

إنَّ رعاية العدالة - حتى في عقاب القاتل - مهمّة جداً في نظر الإسلام، لذلك نقرأ في وصية الإمام علي عليه السلام، بعد أن اغتاله عبدالرحمن بن ملجم المرادي قوله: «يا بني عبد المطلب، لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً، تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بي إلاّ قاتلي، انظروا إذا أنا مت مِن ضربته هذه، فاضربوه، ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل»(٢).

رابعاً: الآية التي بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، والملاحظ أنَّ الآية استخدمت نفس أُسلوب الآية التي سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم وحسب، وإنّما قالت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾.

وفي هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. ولكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يُهدر ويكون عرضة للحوادث بدون أن يكون عليه

(١) يراجع تفسير الآلوسي (روح المعاني) ذيل الآية مورد البحث.
(٢) نهج البلاغة، مجموعة الرسائل، الرقم (٤٧).

قيّم، لذلك استثنت بقوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. وبناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، وتنميتها وتكثيرها. وهذا الوضع يستمر إلى أن يبلغ اليتيم سنّ الرشد ويستطيع فكرياً واقتصادياً أن يكون قيّماً على نفسه وأمواله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

«أشدّ» مأخوذة مِن «شدّ» على وزن «جدّ» وهي بمعنى «العقدة المحكمة» ثمّ توسّع المعنى فيما بعد ليشمل أي نوع مِن القوّة الروحية والجسمية. والمقصود من كلمة «أشد» في الآية هو الوصول إلى مرحلة البلوغ. ولكن ليس البلوغ الجسمي وحسب، وإنّما الرشد الفكري والقدرة الاقتصادية التي تؤهّل اليتيم لأنْ يحفظ أمواله. اختيار كلمة «أشد» في الآية هو لتحقيق كلّ هذه المعاني مجتمعة، والتي يمكن اختيارها بالتجربة.

الأيتام ظاهرة طبيعية في أيّ مجتمع، ووجودهم يكون تبعاً لحوادث مختلفة يمرّ بها المجتمع، والدوافع الإنسانية تفرض رعاية هؤلاء اليتامى من قبل الخيّرين والمحسنين في المجتمع، والإسلام يحثّ على رعاية الأيتام، وقد تحدّثنا عن هذا الأمر مُفصّلاً في الآية ٢ مِن سورة النساء.

والشيء الذي نريد أن نضيفهُ هنا هو أنّ بعض الرّوايات والأحاديث الإسلامية وسّعت في مفهوم اليتيم ليشمل الأفراد الذين انقطعوا عن إمامهم وقائدهم، ولا يصل صوت الحق إليهم، وهذا المعنى نوع مِن التوسّع في المفهوم واستفادة معنوية مِن حكم مادي.

خامساً: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾. إنَّ الكثير مِن العلاقات الاجتماعية وخطوط النظام الاقتصادي والمسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور وانهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعي وستحل الفوضى، ولهذا السبب تؤكّد الآيات القرآنية - بقوّة - على قضية الوفاء بالعهود.

«العهد» لهُ معان واسعة، فهو يشمل العهود والمواثيق الخاصة بين الأفراد في القضايا الاقتصادية والمعاشية، وفي العمل والزواج، وهو يشمل أيضاً المواثيق والمعاهدات بين الحكومات والشعوب، وفوق ذلك فإنَّ العهد يشير إلى ميثاق الأُمم مع الله ورسله وكتبه، وكذلك العكس، أي التزام هؤلاء بالعهد أمام الناس[1].

(١) بالنسبة لأهمية الوفاء بالعهد والقسم لدينا بحث مفصّل حول الموضوع يمكن مراجعته في بحث الآيات ٩١ - ٩٤ مِن سورة النحل.

سادساً: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل في الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس في ذلك ومحاربة التطفيف في الميزان حيثُ تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

ملاحظات:

١ - أضرار التطفيف في الكيل

أوّل ملاحظة ينبغي الانتباه إليها هنا، هي أنَّ القرآن الكريم أكدّ مِراراً على ضرورة الوزن للناس بالقسطاس، وحذَّر مِن البخس والتطفيف في الميزان حتى أنَّهُ اعتبر ذلك في موضع، مُرادفاً لنظام الخلق في عالم الوجود، حيثُ نقرأ في الآيتين ٧ و ٨ مِن سورة الرحمن، قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾. والآية تشير إلى أنَّ مسألة بخس الناس والتطفيف في الميزان ليست مسألة صغيرة، بل هي كبيرة وتدخل في صميم أصول العدالة والنظام المهيمن على عالم الوجود برمّته.

في مكان آخر، وبأُسلوب أكثر قوّة، يهدّد القرآن المطففين، بقوله - كما في سورة المطففين ١ - ٥: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

بعض الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن كانوا يُحاربون التطفيف بعد الشرك مُباشرة، كما حصل لشعيب مع قومه؛ ولمّا لم يلتفتوا إلى تعليمات نبيّهم نالهم العذاب الأليم. (تراجع القصّة في نهاية الآية ٨٥ مِن سورة آل عمران).

وعادةً، فإنَّ الحق والعدل والنظام والحساب، كلّ هذه الأُمور تعتبر أصولا أساسية للحياة، بل وتدخل في نظام الوجود والخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل - خصوصاً بالنسبة لبخس الكيل والتطفيف في الميزان - يؤدّي إلى إنزال ضربة شديدة بالثقة التي تعتبر جوهر استقرار التعامل الاقتصادي بين الناس.

ومع الأسف فإنّنا نرى - في بعض الأحيان - أنَّ غير المسلمين، ولأغراض كسب الثقة لأنفسهم وتجارتهم، يلتزمون بشكل دقيق بالمواصفات والأرقام المُتّفق عليها، بينما يتجاوز بعض المسلمين هذه الحدود! وهذه إشارة إلى أنَّ طريق الدنيا أيضاً يمرّ من خلال عدم الخيانة والغش.

وينبغي أن يلاحظ هنا أنَّ هؤلاء الذين يخلّون بالميزان ويطففون الكيل مسؤولون أمام المُشتري مسؤولية حقوقية، لذلك فإنَّ توبتهم لا تتم إلاّ بردّ الحقوق المغصوبة إلى

أهلها، وإذا تعذَّر عليهم ذلك، فينبغي لهم إعطاء ما يساويها إلى الفقراء والمحتاجين بعنوان رد مظالم عن الأصحاب الحقيقيين.

٢ - ما هو حكم التطفيف وبخس الكيل؟

الجدير بالملاحظة أنّ حكم التطفيف وبخس الكيل، قد يعمَّم بحيث يشمل كلّ أشكال التقصير المتعمد في الأعمال والوظائف المختلفة، فمن التطفيف مَن لا ينجِز عمله كاملاً، والمعلّم الذي لا يدرِّس بشكل جيّد، والموظّف الذي لا يلتزم بأوقات عمله وهو غير حريص عليه. ولكنّ الألفاظ المستخدمة في هذه الآية لا تفيد هذا التعميم، فهي من التوسعة العقلية إلاّ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾[1] يشير إلى هذا التعميم.

٣ - ما هو معنى «قسطاس»؟

«قِسطاس» بكسر القاف أو ضمّها على وزن «مِقياس» وأحياناً تقاس على وزن «قُرآن» بمعنى «الميزان» والبعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنّها كلمة عربية. وهناك مَن يقول بأنّها مركبة مِن كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و«طاس» بمعنى كفّة الميزان، أمّا البعض الآخر فيقول بأنَّ كلمة «قسطاس» تطلق على الميزان الكبير، بينما كلمة «ميزان» تطلق على الموازين الصغيرة[2].

وفي كلّ الأحوال، فإنَّ ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ تعني الميزان الصحيح والسالم والعادل بدون نقيصة أو زيادة.

والطريف هو أنَّ هناك رواية عن الإمام الباقر عليه السلام، تفسّر هذه الكلمة بقوله: «هو الميزان الذي له لسان»[3].

وذلك لأنّه مع عدم وجود اللسان لا يستطيع الميزان أن يوضّح حركة الكفتين بشكل دقيق، أمّا مع وجوده فإنَّ أقل حركة للكفتين تنعكس على اللسان، وبهذا الشكل يُمكن رعاية العدل كاملاً.

---

(١) سورة الرحمٰن، الآيتان: ٧ - ٨.
(٢) تفسير الميزان، والفخر الرازي، ومجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير الصافي، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج١٠٠، ص ١٠١.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن
تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ
مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

الانقياد للعلم

في الآيات السابقة وقفنا على مجموعة مِن الأُصول والأحكام الإسلامية التي بدأت بالتوحيد بوصفه أساسِ هذه التعاليم، وانتهت بالأحكام التي تشمل الحياة الفردية والجماعية للإنسان.

وفي الآيات التي نبحثها الآن نلتقي مع آخر مجموعة مِن سلسلة هذه الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه إلى عدّة أحكام مهمّة:

أوّلاً: في البداية ينبغي للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة في كل الأمور ويجعل العلم رائده ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في شؤونك الشخصية وفي القضاء بين الناس، وفي إعطاء الشهادة، وحتى في الأعمال الشخصية ليكن رائدك الدائم هو العلم دون غيره.

وعلى هذا الأساس يكون مورد الآية شاملاً لمعان واسعة، ولا دليل على ما يذهب إليه بعض المفسّرين من تقييد المعنى ببعض ما ورد أعلاه من الموارد والذي يؤيد ذلك أن ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ مأخوذة من «قفو» على وزن «عفو» وهي تعني متابعة شيء ما، ومن المعلوم أنَّ الأُمور التي نتابعها هي أُمور لا تقف عند حدّ، لذلك فإنَّ النهي الوارد في الآية يشملها جميعاً.

بناءً على ذلك، يتّضح أنَّ (العلم واليقين) هما أساس المعرفة في كلِّ شيء، وأن لا شيء مِن «الظن» أو «التخمين» أو «الشك» يسدّ مسد العلم واليقين، ومَن يعتمد على ما دون العلم فإنَّهُ بذلك يخالف القانون الإسلامي الصريح.

وبعبارة أُخرى: لا الشائعة يمكن أن تكون مقياساً للقضاء والشهادة والعمل، ولا القرائن الظنّية، ولا الأخبار غير القطعية المشكوك في مصادرها. وفي النهاية تعلّل الآية عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

والسّؤال الذي تواجه بِهِ الأعضاء المذكورة يعود إلى مسؤولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسؤول عن الكلام المشكوك غير الموثق، والبصر عن موارد ادّعاء الإنسان للمشاهدة والرؤية مع أنَّهُ لم يشاهد أو يرى، والفؤاد يُسأل عن الأفكار الخاطئة التي تدخل في الأحكام الخاطئة. وإذا كان بعض المفسّرين يرى أنَّ المسؤولية التي تتحدث عنها الآية تقع على عاتق صاحبها لا عليها - أي الأعضاء - بالذات، إلاّ أنَّ هناك الكثير مِن الآيات تصرِّح بأنَّ الأعضاء نفسها تُسأل يوم القيامة (مثل الآية ٢١ مِن سورة فصّلت) وتجيب عمّا اقترفت، لذلك لا معنى لِتوجيه المسؤولية في الآية مِن الأعضاء المذكورة إلى صاحبها.

أمّا لماذا أشارت الآية - مِن بين كل حواس الإنسان - إلى السمع والبصر بالذات؟ فسبب ذلك واضح، إذ إنَّ معظم المعلومات الحسية للإنسان يكون مصدرها السمع والبصر.

درس في استقرار النظام الاجتماعي

الآية المذكورة آنفاً تشير إلى أحد المبادئ والأُصول المهمّة في الحياة الاجتماعية الذي لو طبّق في المجتمع البشري بشكل دقيق لأمكن اجتثاث جذور الفساد من الشائعات والأحكام القضائية المتسرعة والظنون العائمة والأكاذيب وأمثال ذلك، وفي غير هذه الصورة فإنَّ حالة من الفوضى ستضرب العلاقات الاجتماعية، إذ سوف لا يبقى أي شخص بمنأى عن الشك والريبة، وبمأمن عن سوء الظن وستنعدم الثقة بين الأفراد، وتكون مكانة الفرد في المجتمع في خطر دائم.

لذلك نرى الآيات والأحاديث الإسلامية تؤكّد بكثرة على هذه الفكرة، وبين يدينا الآن ما يلي:

* الآية ٣٦ من سورة يونس تنتقد بشدّة الأفراد الذين يتبعون الظن ويجعلونه مقاساً لقناعاتهم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

* أمّا الآية ٢٣ من النجم، فإنها اعتبرت الظن في مرتبة اتباع هوى النفس ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

* وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: «إنّ مِن حقيقة الإيمان أن لا يجوز مَنطقك علمك»[(١)].

* وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام نقل عن آبائه عليهم السلام، قوله: «ليس لك أن تتكلم بما شئت، لأنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾»[(٢)].

* وعن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إيّاكم والظن فإنَّ الظن أكذب الكذب»[(٣)].

* وفي مَن لا يحضره الفقيه: «قال رجل للصادق عليه السلام: إنَّ لي جيراناً ولهم جوار يتغنين ويضربن بالعود، فربما دخلت المخرج فأطيل الجلوس استماعاً مِنّي لهن؟ قال لهُ الصادق عليه السلام: «تالله أنت! أما سمعت الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فقال الرجل: كأنّي لم أسمع بهذه الآية مِن كتاب الله عزّ وجلّ مِن عربي ولا عجمي، ولا جرم أني قد تركتها وأنا أستغفر الله تعالى»[(٤)].

وفي بعض المصادر الحديثية نقرأ أنَّ الإمام الصادق عليه السلام أمر الرجل أن ينهض ويغسل غسل التوبة، وأن يصلّي ما استطاع، لأنَّهُ قد ارتكب عملاً سيئاً لو قبض عليه لكانت مسؤولية عظيمة!

من خلال مجموع هذه الآيات والرّوايات تتّضح مدى المسؤولية التي تقع على العين والأذن، وكيف أنَّ الإسلام ينهى عن أن يقول الإنسان ما لم يسمع، أو ما لا يقوم على العلم، أو يتحدث عن أشياء لم يَرها، إذ العلم وحده هو الميزان دون اتّباع الظن والوهم والحدس أو الاعتماد على الشك والإشاعة، لأنَّ سبيل الاعتماد على هذه المصادر يؤدي إلى آثار خطرة على حياة الفرد والمجتمع، هذه الآثار يمكن أن نلخصها كما يلي:

١ - إنَّ اعتماد ما هو دون العلم، يؤدّي إلى هضم حقوق الأفراد وإعطاء الحق لغير صاحبه.

٢ - الاعتماد على الظن وما شابهه يؤدّي إلى تعريض كرامة الإنسان المؤمن للخطر، ويقلّل أيضاً مِن حماس واندفاع المخلصين.

٣ - اعتماد ما هو دون العلم، يؤدّي إلى انتشار الشائعات.

٤ - اعتماد الظن وغيره يقضي على ملاكات الدقّة والبحث والتحقيق عند الإنسان ويجعلهُ ساذجاً سريع التصديق.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٦.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٧.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٨.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٦٤.

٥ - إنَّ الاعتماد على غير العلم ينقض العلائق الودية الحميمة القائمة بين الناس في البيت والسوق ومحل العمل، ويجعل بعضهم يسيء الظن بالبعض الآخر.

٦ - اعتماد غير العلم يُفسد في الإنسان قابلية الاستقلال الفكري ويجعله عرضة للأفكار الفاسدة.

٧ - إنَّ اعتماد غير العالم يكون قاعدة للتعجُّل في انتخاب الأشياء والحكم على الأشخاص ممّا يُسبِّب الندامة والفشل فيما بعد.

الأوهام وسبل مكافحتها

السؤال الذي يرد هُنا، هو كيف نصون أنفسنا ومجتمعنا مِن الانجرار إلى هذه العادة الخاطئة (اتّباع الظن) ذات العواقب الوخيمة؟

والجواب على السؤال يحتاج إلى بحث طويل، ولكنّا لا نعدم ثلاث إشارات سريعة هي:

ألف - يجب أن نُنبِّه الناس إلى العواقب الخطيرة لاتّباع الظن دون العلم، ونحذِّرهم مِن مغبة النتائج الوخيمة لذلك.

ب - يجب تكريس طريقة التفكير الإسلامي، وجعلها حيَّة في حياة الإنسان، هذه الطريقة التي تؤكّد على أنّ الإنسان مُراقب دوماً مِن قبل الله تعالى، إذ هو سميع وبصير، وخبير بالنوايا والبواطن، إذ جاء في الآية ١٩ مِن غافر قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

ج - ينبغي ترشيد المستوى الفكري والثقافي في حياة الإنسان المسلم لأنّ اتّباع غير العلم هو سمة يختص بها الجهلاء الذين ما إن يستمعوا إلى إشاعة معينة حتى يُصدِّقوا بها، ويجعلوا مِنها قاعدة للحكم على القضايا ومقياساً لآرائهم.

ثانياً: الكبر والغرور

الآية التي بعدها تدعو إلى محاربة الكبر والغرور، وبتعبير واضح ولطيف تنهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيثُ تخاطب النّبي ﷺ بالقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾[1]. لماذا؟ ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾. وهذه إشارة إلى سلوك

(١) «مَرَح» على وزن فَرَح، وهي تعني الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

المتكبرين والمغرورين الذي يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكي يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤوسهم في السماء علامة على أفضليتهم المزعومة بين الناس، لهؤلاء تقول الآية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾. إذ مثل هؤلاء كالنملة التي تمشي على صخرة كبيرة وتضرب برجلها عليها، إلاّ أن الصخرة تسخر مِن حماقتها، ثمّ أنت أيّها المتكبر هل تستطيع - مهما رفعت رأسك في السماء - أن تكون مثل الجبال علواً؛ إنّك مهما تفعل لا ترتفع سوى سنتيمترات قليلة، وحتى هذه الجبال لن تكون شيئاً إزاء الكرة الأرضية، والكرة الأرضية تعتبر ذرّة سابحة في عالم الوجود!

إذن فما هذا الكبر والغرور الموجود عندك أيّها الإنسان؟!

الطريف في الأمر، أنَّ القرآن لم يبحث مُباشرة هذه الصفات الداخلية الخطرة في تركيب الإنسان ووجوده (أي التكبر والغرور) وإنّما أشار إليها مِن خلال آثارها والظواهر السلوكية التي تنتج عنها، حيثُ تحدَّث القرآن عن مشية المتكبر والمغرور، وهذه إشارة إلى أنَّ التكبر والغرور، حتى في أهون الصور وأقل الحالات، يُعتبر مذموماً مُخجلاً مهما كانت آثاره جزئية وصغيرة.

وفي الآية - أيضاً - إشارة إلى أنَّ الصفات الداخلية - الباطنية - للإنسان تظهر - شاء أم أبى - مِن خلال الأعمال والتصرفات، من خلال المشي مثلاً، أو النظر أو الكلام وأمثال ذلك. لهذا السبب ينبغي علينا إذا ما واجهتنا أدنى ظاهرة أو أثر لهذه الصفات، أن نعرف أنَّ الخطر أصبح قريباً، وأنَّ هذه الصفة المذمومة (التكبر والغرور) قد عششت في روحنا ويجب علينا مجاهدتها فوراً.

ويمكن أن نفهم مِن خلال هذه الآية، وما ذكر في القرآن الكريم (ومَن خلال سورة لقمان وسور أُخرى) أنَّ التكبر والغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأنَّ الغرور هو مصدر الغربة عن الله وعن النفس السليمة، وهو سبب الخطأ في الحكم والقضاء، وسبيل ضياع الحق والارتباط بخط الشيطان والتلوث بأنواع الذنوب.

فالإمام علي عليه السلام يقول في صفات المتقين في حديثه إلى «همام»: «ومشيهم التواضع»[1]. والمقصود بالمشي هنا ليس التجوال في السوق والشارع، وإنّما هي كناية عن أسلوب المشي والتعامل في جميع الأُمور الحياتية، بما في ذلك خطوطهم الفكرية إذ هم مُتواضعون في تفكيرهم.

(١) نهج البلاغة، الخطبة (١٩٣).

البرنامج الحياتي العملي لقادة الإسلام يعتبر درساً مفيداً لكل مسلم حقيقي في هذا المجال. ففي سيرة الرّسول ﷺ نرى أنّهُ لم يكن يسمح لأحد أن يمشي بين يديه وهو راكب، بل كان يقول: اذهب أنت إلى المكان الفلاني وأنا سآتيك إلى نفس المكان، حيث إنَّ المشي بين يدي الراكب يؤدّي إلى غرور الراكب وذلة الماشي(١).

ونقرأ - أيضاً - أنّ رسول الله ﷺ كان يجلس على التراب تواضعاً، ويأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان ﷺ يحلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء(٢). وقد كان الرّسول ﷺ يلتزم هذا السلوك في كل مواقفه حتى عند فتح مكّة، حتى لا يفكر الناس بأنّهم إذا وصلوا إلى منصب مهم، أو أحرزوا إنجازاً ما، فإنَّ ذلك مدعاة لهم بأن يصابوا بالتكبر والغرور ويكونوا بالتالي بعيدين وغرباء عن الناس والمستضعفين.

وفي سيرة الإمام علي عليه السلام، نقرأ أنّهُ كان يجلب الماء إلى البيت، وفي بعض الأحيان كان ينظّف البيت.

أمّا في سيرة الإمام الحسن عليه السلام، فنقرأ أنّهُ عليه السلام، حجَّ إلى بيت الله عشرين مرّة مشياً على الأقدام، والنجائب (المحامل والدواب) تُقاد بين يديه، وكان عليه السلام يبيّن أن هذا العمل تواضع لله تعالى(٣).

أمّا الآية التي بعدها فهي تؤكّد على ما تمَّ تحريمه في الآيات السابقة كالشرك وقتل النفس والزنا وقتل الأولاد والتصرف في مال اليتيم وإيذاء الوالدين وما شابه ذلك، حيثُ تقول الآية: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾(٤).

ومِن هذا التعبير يتّضح أنَّ الله سبحانه وتعالى ليس فقط لايجبر الإنسان على الذنب، وإنّما لا يريد له (بمعنى لا يرغب ولا يَوّد) أن يرتكب الذنب أيضاً، وإلاّ لو كانَ الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكد الله سبحانه وتعالى على كراهية هذه الذنوب.

ويتّضح مِن التعبير - أيضاً - أنّ القرآن استخدم كلمة «مكروه» اتجاه أعظم الذنوب وأكبرها.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص ٢٣٦. (٢) المصدر السابق، ص٢٢٦.

(٣) لقد تحدّثنا عن التكبر والغرور وآثارهما السيئة في المجلد الرّابع في تفسير الأمثل لدى تفسير الآية ١٢ مِن سورة الأعراف.

(٤) ضمير ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ يعود على «ذلك» أو «كل» وسبب كونه مفرداً لأنّ كلاًّ من هاتين الكلمتين مفردتين بالرغم من أنّهما تعطيان معنى الجمع.

ثالثاً: لا تكن مشركاً

مِن أجل التأكيد أكثر على أنَّ كل هذه التعليمات إنّما تصدر مِن الوحي وتتسم بالحكمة، تقول الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

إنَّ استخدام كلمة ﴿ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ هي إشارة إلى أنَّ هذه التعاليم والنواهي برغم كونها وحياً سماوياً إلهياً، إلاّ أنّها في نفس الوقت يمكن إدراكها بميزان العقل.

وإلاّ فمن يستطيع أن ينكر - عقلاً - قباحة الشرك أو القتل أو إيذاء الوالدين أو قبح الزنا والتكبر والغرور، وظلم اليتامى والعواقب السيئة لِنقض العهود وما إلى ذلك؟

بتعبير آخر؛ إنَّ هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هي ثابتة عن طريق الوحي الإلهي. وعادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم مِن أنَّ الإنسان لا يستطيع في كثير مِن الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، ويبقى بعد ذلك الوحي هو المجال الوحيد لمصداقية دركها والإيمان بها.

بعض المفسّرين استفادوا مِن كلمة «حكمة» على أساس أنَّ الأحكام المتعدِّدة في الآيات السابقة تعتبر مِن الأحكام الثابتة التي لا تقبل النسخ في جميع الأديان السماوية، إذ لا يمكن - في أي شريعة إلهية - اعتبار الشرك وقتل النفس والزنا ونقض العهود أُموراً جائزة. لذلك فإنَّ هذه الأحكام تعتبر مِن المحكمات والقوانين الثابتة.

بعد ذلك ينتهي الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البداية التي انطلق مِنها، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. لماذا؟ لأنَّ المصير سيكون ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾.

وفي الحقيقة، إنَّ الشرك هو أساس جميع الانحرافات والجرائم والذنوب، لذلك فإنَّ هذه المجموعة مِن الأحكام بدأت بالشرك وانتهت به.

بنات الله!!

آخر آية - من الآيات التي نبحثها - تشير إلى واحدة مِن الأفكار الخرافية للمشركين، إذ الكثير مِنهم كان يعتقد بأنَّ الملائكة هم بنات الله، في حين أنّهم كانوا يعتبرون البنت عاراً وشناراً، وولادتها في بيت يؤدّي إلى سوء الحظ. القرآن يُساير هذا المنطق فيقول لهم: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾.

إنَّ البنات - بدون شك - كالبنين، هم عطايا الإله ومواهبه، ولا يوجد أي تفاوت بينهم في القيمة الإنسانية. وعادة لا يمكن الحفاظ على الأصل البشري من دونهما معاً، لذلك فإن تحقير البنات تعتبر عادة جاهلية كانت تعيشها تلك المجتمعات، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً(١). ولكن هدف القرآن هو مقابلتهم بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربّكم ما تحسبوه عاراً لكم؟!

بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ إذ هذا الكلام لا يتلاءم مع أي مَنطق ويعتبر ضعيفاً مِن عدّة جهات، هي:

١ - إنَّ الاعتقاد بوجود ابن الله يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدّس، لأنَّهُ سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصفات الجسمانية، ولا يحتاج في بقائه إلى النسل. لذا فالاعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.

٢ - كيف تعتقدون بأنَّ أولاد الله كُلّهم بنات، في حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانة واحتراماً مِن الأولاد؟ هذا الاعتقاد السفيه يعتبر إهانة أُخرى إلى مقام الله تبارك وتعالى.

٣ - هذا الاعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة الله الذين يعتبرون مِن المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرّد سماع كلمة «بنت»، في حين تعتبرون هؤلاء المقربين مِن العرش إناثاً؟!

من الالتفات إلى هذه الأُمور يتّضح أنَّ هذا الكلام يُعتبر انحرافاً عظيماً وكبيراً... إنّه كبير من حيث الانحراف عن الحقائق وكبير من حيث استحقاق صاحبه العقاب العظيم، وهو أيضاً كبير قياساً لأعراف أهل الجاهلية وعاداتهم، هذه العادات التي كانت تقوم على أساس تحقير البنات.

أمّا لماذا يعتبر مشركو العرب الملائكة إناثاً؟ ولماذا كانَ عرب الجاهلية يئدون البنات أحياءً ويفزعون مِن مجرّد ذكرهن؟... ثمّ دور الإسلام في إعادة بناء موقع المرأة داخل مجتمعهم، كل هذه الأُمور بحثناها مفصلاً أثناء الحديث عن الآيات ٥٧ - ٥٩ مِن سورة النحل. وننصح هُنا بالعودة لها مجدداً.

---

(١) انظر تفسير الآيتين ٥٨ و٥٩ مِن سورة النحل في هذا التّفسير.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

كيف يفرّون من الحق؟

كان الحديث في الآيات السابقة يتعلّق بقضيتي التوحيد والشرك، لذا فإنَّ هَذهِ الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح وَقاطعية أكبر، ففي البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين وعنادهم في قبال أدلة التوحيد فتقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

«صرَّف» مُشتقّة مِن «تصريف» وتعني التغيير والتحويل، وَكونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة، وبما أنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة وَفنوناً كلامية مُختلفة مِن أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلي المنطقي والفطري أو التهديد والترغيب، لذا فإنَّ كلمة ﴿صَرَّفْنَا﴾ تناسب هذا التنوّع في هَذا المقام.

القرآن الكريم يريد أن يقول: إنّنا سلكنا مُختلف الطرق، وَفتحنا مُختلف الأبواب مِن أجل أن ننير قلوب هؤلاء العميان بضياء التوحيد، ولكن مجموعة مِن هَؤلاء وصل بهم التعصب والعناد واللجاجة إلى درجة أنَّ كل هَذِهِ الوسائل لم تؤثّر في جذبهم إلى الحقيقة، بل إنّها زادت في ابتعادهم ونفورهم.

وَهُنا قد يطرح هَذا السؤال: إذاً ما الفائدة مِن ذكر كلّ ذلك، إذا كانت النتائج معكوسة؟

إنَّ جواب هَذا السؤال واضح، إذ إنَّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصّة، وَلكنّه للمجتمع كافّة، وَطبيعي أنّ جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هُناك الكثير ممن يتّبع طريق الحق إذا استبانت له أدلته كما في هَذا النوع مِن الأدلّة القرآنية، بالرغم من أنّها تؤدّي بمجموعة أُخرى مِن فاقدي بصيرة القلب إلى المزيد مِن العناد.

إضافة إلى أنَّ وجود هؤلاء المعاندين مفيد للمجموعة الأُخرى التي تقبل الحق وتَنصاع إليه، إذ يستبين المؤمن طريقه مِن خلال النظر إلى سلوك المعاندين، إذ إنّ تقابل الظّلمة والنّور يوضّح قيمة النور أكثر (الأشياء تعرفُ بأضدادها) كما أنّ تعلّم الأخلاق والآداب يمكن أن يتمّ - أحياناً - بتوسط عديمي الأدب والخلق.

وهَذا في الواقع درسٌ مفيد في القضايا التربوية والتبليغية، إذ يُمكن أن نستفيد مِن هَذِهِ الآية ضرورة سلوك طرق مُختلفة وَوسائل مُتعدِّدة لتحقيق الأهداف التربوية المنشودة، حيث إنَّ الاقتصار على طريق واحد يُخالف التنوّع الكبير في أذواق الناس وَمؤهّلاتهم، وَبالتالي يُجافي الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يُتّبع.

دليل التمانع

الآية التي بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد والذي يعرف بين العلماء والفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنّبي ﷺ : قل لهم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

وَبالرغم مِن أنَّ جملة ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ تفيد أنّهم لابدّ أن يجدوا طريقاً يؤدّي بهم إلى صاحب العرش، وَلكن طبيعة الكلام توضّح بأنَّ الهدف هو العثور على سبيل للانتصار عليه (على ذي العرش) خاصّة وأنَّ كلمة ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ التي استخدمت بدلاً مِن «الله» تُشير إلى هَذا الموضوع وَتؤكّده. إذ تعني أنّهم أرادوا أن يكونوا مالكي العرش وحكّومة عالم الوجود، لذلك فإنّهم سيحاولون منازلة ذي العرش.

وَمِن الطبيعي هُنا أنَّ كلّ صاحب قدرة يسعى لمدّ قدرته وتكميلها، لذا فإنَّ وجود عدّة آلهة يؤدّي إلى التنازع والتمانع فيما بينهم حول الحكم والسلطة في عالم الوجود(١).

هُنا قد يقال: إنّ مِن الممكن تصوّر وجود عِدَّة آلهة يحكمون العالم من خلال التعاون والتنسيق فيما بينهم، لذلك فليس ثمّة مِن سبب للتنازع بينهم؟!

في الإجابة على هذا السؤال نقول: بصرف النظر عن أنَّ كلّ موجود يسعى نحو توسيع قدرته بشكل طبيعي، وَبصرف النظر أيضاً عن الآلهة التي يعتقد بها المشركون

---

(١) بعض المفسّرين قال: إنّ هَذا الجزء مِن الآية يعني أنَّ هناك آلهة أُخرى تحاول أن تقرّب نفسها إلى الله. وَهَذا يعني أنَّ هَذِهِ الآلهة (الأصنام وَغيرها) الوهمية عِندما لا تستطيع أن تقرّب نفسها لله فكيف تستطيع أن تقرّبكم أنتم؟ وَلكن سياق هَذِهِ الآية والآية التي بعدها لا يتواءمان مَع هَذا التّفسير.

تحمل العديد من الصفات البشرية، وأوضحها جميعاً هي الرغبة في السيطرة والحكم وتوسيع نطاق القدرة. . . بغض النظر عن كلِّ ذلك نقول: إنَّ اللازمة الضرورية لِتعدُّد الوجود هي الاختلاف، وَحيثُ لا يوجد اختلاف بين وجودين اطلاقاً، فلا معنى لوجود التعدُّد!! (دَقق جيّداً).

وَنظير هَذا البحث وَرد في الآية ٢٢ من سورة الأنبياء في قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وَمَنعاً للالتباس ينبغي أن نقول: هناك اختلاف بين الدليلين بالرغم مِن التشابه بينهما:

الأوّل يدلّ على فساد العالم ونظام الوجود بسبب تعدُّد الآلهة.

أمّا الثّاني فيتحدّث - بغض النظر عن النظم في عالم الوجود - عن حالة التنازع والتمانع التي سوف تقوم بين الآلهة المتعدّدة. (سوف نبحث هَذِهِ الأُمور مُفصّلاً أثناء تفسير الآية ٢٢ مِن سورة الأنبياء).

وَبما أنَّ كلام المشركين وعباراتهم توحي بأنّهم نزلوا في إدراكهم لله عَزَّوَجَلَّ إلى مستوى أن يكون طرفاً للنزاع، لذا فإنَّ الآية تقول بعد ذلك مُباشرة: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

في الواقع إنَّ هَذا التعبير القرآني القصير، يوضّح - مِن خلال أربعة تعابير - علوّ الكبرياء الإلهيّة ونزاهتها عن مِثل هَذِهِ التخيّلات، إذ يقول:

١ - استخدام كلمة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ بمعنى التنزيه للذات الإلهيّة.

٢ - ثمّ تعبير ﴿وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾.

٣ - ثمّ استخدام ﴿عُلُوًّا﴾ وَهي مفعول مطلق يفيد التأكيد.

٤ - أخيراً، جاءت كلمة ﴿كَبِيرًا﴾ للتأكيد مجدداً على معاني التنزيه والعلو.

وَبعد ذلك فإنَّ جملة ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ لها معنى واسع حيث إنّها تنفي كلّ أشكال التهم الباطلة ولوازمها.

ثمّ لأجل إثبات عظمة الخالق وَأنّه مُنزّه عن خيالات واعتقادات وأوهام المشركين، تتحدث الآية التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدّسة إذ تقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾. ثمّ تتطرق الآية إلى أنَّ التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود في السماوات والأرض، وإنّما ليسَ هُناك موجود إلاّ ويسبّح وَيحمد الله، وَلكن لا تدركون تسبيحهم: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وَمَعَ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

حَلِيمًا غَفُورًا﴾. أي لا يُؤاخذكم وَلا يعاقبكم بسبب كفركم وَشرككم مُباشرة، وَلكن يمهلكم بالقدر الكافي، وَيفتح لكم أبواب التوبة ويَتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

بتعبير آخر: إنّكم تملكون القدرة على إدراك تسبيح ذرّات الوجود والكائنات جميعاً لله القادر المتعال، وتدركون وجوده عزّوجلّ، وَلكنّكم مَع ذلك تقصّرون، والله سبحانه وَتعالى لا يُؤاخذكم مُباشرة على هذا التقصير، وَلا يجازيكم به فوراً وَلكن يعطيكم الفرصة الكافية لمعرفة التوحيد وَترك الشرك.

تسبيح الكائنات

تذكر الآيات القرآنية المُختلفة تسبيح وَحمد جميع موجودات عالم الوجود لله تعالى، وإنَّ أكثر الآيات صراحة بهذا الخصوص هي الآية التي نبحثها والتي تذكر لنا - بدون استثناء - أنَّ جميع الموجودات في العالم - الأرض والسماء، النجوم والفضاء، الأناس والحيوانات وأوراق الشجر، وَحتى الذرّات الصغيرة تشترك جميعاً في هَذا التسبيح والحمد العام.

يبيّن القرآن الكريم أنَّ عالم الوجود قطعة واحدة مِن التسبيح والحمد، وأنَّ كلّ موجود يؤدّي هَذا التسبيح وَيقوم به بشكل معيّن وَيثني على الباري عزّوجلّ، وأنَّ أزيز هَذا التسبيح والحمد يملأ عالم الوجود المترامي الأطراف، ولكن الجهلاء لا يستطيعون سماع هَذا الأزيز، بعكس المستبصرين المتأمّلين والعلماء الذين أضاءَ الله قلوبهم وأرواحهم بنور الإيمان، فإنَّ هَؤلاء يسمعون هَذا الصوت من جميع الجهات بشكل جيّد.

هُناك كلام كثير بين العلماء والمفسّرين والفلاسفة حول تفسير حقيقة هَذا الحمد والتسبيح، فبعضهم اعتبر الحمد والتسبيح (حالاً) والبعض الآخر (قولاً)، أمّا خلاصة أقوالهم فهي:

١ - البعض يعتقد أنَّ جميع ذرّات الوجود في هَذا العالم لها نوع مِن الإدراك والشعور، سواء كانت هَذِهِ الموجودات عاقلة أم غير عاقلة، وَهِي تقوم بالتسبيح والحمد في نطاق عالمها الخاص، بالرغم مِن أنّنا لا نستطيع إدراك ذلك أو الإحساس بهَذا الحمد والتسبيح وَسماعه، آيات كثيرة تؤكّد هَذا المعنى مِنها الآية ٧٤ مِن سورة البقرة واصفة الحجارة أو نوع مِنها: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾. ثمّ قوله تعالى في الآية ١١ مِن سورة فصّلت: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾.

٢ - الكثير يعتقد أنَّ هَذا التسبيح والحمد هو على شاكلة ما نسميه بـ «لسان الحال» وَهو حقيقي غير مجازي إلاّ أنّهُ بلسان الحال وَليس بالقول. (تأمّل ذلك).

ولتوضيح ذلك نقول: قد يحدث أن نشاهد آثار عدم الارتياح والألم، وَعدم النوم في وَجه أو عيني شخص ما وَنقول له: بالرغم مِن أنّك لم تتحدث عن شيء مِن هَذا القبيل، إلاّ أنّ عينيك تقولان بأنّك لم تنم الليلة الماضية، وَوجهك يؤكّد بأنّك غير مرتاح ومتألم! وَقد يكون لسان الحال مِن الوضوح بدرجة أنَّهُ يُغطّي على لسان القول لو حاول التستر عليها بالسكوت.

وَهَذا هو المعنى الذي صرّح به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وَجهه»[1].

مِن جانب آخر هل يمكن التصديق بأنَّ لوحة فنيّة جميلة للغاية تدل على ذوق وَمهارة رسّامها، لا تمدحه أو تثني عليه؟ وهل يمكن إنكار ثناء دواوين أشعار أساطين الشعر والأدب وتمجيدها لقرائحهم وأذواقهم الرفيعة؟.. أو يمكن إنكار أنّ بناءً عظيماً أو مصنعاً كبيراً أو عقولاً الكترونية معقّدة أو أمثالها، أنّها تمدح صانعها وَمُبتكرها بلسان حالها غير الناطق؟

لذا يجب التصديق والتسليم بأنَّ عالم الوجود العجيب ذا الأسرار المتعدِّدة والعظمة الكبيرة، والجزئيات العديدة المُحيِّرة، يقوم بتسبيح وَحمد الخالق عزّ وجلّ، أليس «التسبيح» سوى التنزيه عن جميع العيوب؟ فنظام عالم الوجود ناطق بأنَّ خالقهُ ليسَ فيه أيّ نقص أو عيب.

ثمّ هل «الحمد» سوى بيان الصفات الكمالية؟ فنظام الخلق والوجود كلّه يتحدث عن الصفات الكمالية للخالق وعلمه وَقدرته اللامتناهية وَحكمته الوسيعة.

خاصّة وأنَّ تقدّم العلوم البشرية وكشف بعض أسرار وَخفايا هَذا العالم الواسع، توضّح هَذا الحمد والتسبيح العام بصورة أجلى، فاليوم مثلاً ألّف علماء النبات المؤلفات العديدة عن أوراق الأشجار، وَخلايا هَذِهِ الأوراق، وَالطبقات السبع الداخلة في تكوينها، والجهاز التنفسي لها، وَطريقة التغذية وَسائر الأمور الأُخرى التي تتصل بهذا العالم.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ٢٦.

لذلك، فإنَّ كلّ ورقة توحّد الله ليلاً وَنهاراً، وَينتشر صوت تسبيحها في البساتين والغابات، وَفوق الجبال وَفي الوديان، إلاّ أنَّ الجهلاء لا يفقهون ذلك، وَيعتبرونها جامدة لا تنطق.

إنَّ هَذا المعنى للتسبيح والحمد الساري في جميع الكائنات يمكن دركه تماماً، وَليست هُناك حاجة لأن نعتقد بوجود إدراك وَشعور لكل ذرّات الوجود، لأَنَّه لا يوجد دليل قاطع على ذلك، والآيات السابقة يحتمل أن يكون مقصودها التسبيح والحمد بلسان الحال.

الجواب على السؤال

يبقى سؤال واحد، وَهو إذا كان المقصود مِن الحمد والتسبيح هو أنّ نظام الكون يعبّر عن نزاهة وَعظمة وَقدرة الخالق عزّوجلّ، وتبيان الصفات السلبية والثبوتية، فلماذا يقول القرآن: ﴿لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ لأنّه إذا كانَ البعض لا يفقه، فإنَّ العلماء يفقهون ويعلمون؟.

هُناك جوابان على هَذا السؤال:

الأوّل: إنَّ الآية توجّه خطابها إلى الأكثرية الجاهلة مِن عموم الناس، خصوصاً إلى المشركين، حيثُ إنَّ العلماء المؤمنين قِلَّة وَهم مستثنون مِن هَذا التعميم، وفقاً لقاعدة ما مِن عام إلاّ قد خُص.

الثّاني: هو أنَّ ما نعلمهُ مِن أسرار وَخفايا العالم في مقابل ما لا نعلمُه كالقطرة في قبال البحر، وَكالذرة في قبال الجبل العظيم. وإذا فكّرنا بشكل صحيح فلا نستطيع أن نسمّي الذي نعرفه بأنّه (علم). إنّنا في الواقع لا نستطيع أن نسمع تسبيح وَحمد هَذِهِ الموجودات الكونية مهما أوتينا مِن العلم، لأنَّ ما نسمعهُ هو كلمة واحدة فقط مِن هَذا الكتاب العظيم!!

وَعَلى هذا الأساس تستطيع الآية أن تخاطب العالم بأجمعه وَتقول لهم: إنّكم لا تفقهون تسبيح وَحَمد الموجودات بلسان حالها، أمّا الشيء الذي تفقهوه فهو لا يساوي شيئاً بالنسبة إلى ما تجهلون.

٣ - بعض المفسّرين يحتمل أنَّ الحمد والتسبيح هو تركيب من لسان «الحال» و«القول». وبعبارة أُخرى: يعتقدون بأنّهُ تسبيح تكويني وَتشريعي، لأنَّ أكثر البشر وَكلّ الملائكة يحمدون الله عَن إدراك وشعور؛ وكلّ ذرّات الوجود تتحدَّث عن عظمة الخالق

بلسان حالها. وَبالرغم مِن أنّ هَذين النوعين مِن الحمد والتسبيح مُختلفين، إلاّ أنّهما يشتركان في المفهوم الواسع لكلمتي الحمد والتسبيح.

وَلكنّ التّفسير الثّاني - حسب الظاهر - أكثر قبولاً للنفس مِن التّفسيرين الآخرين.

جانب من روايات العترة الطاهرة

هناك تعابير لطيفة في هَذا المجال وَردت في أحاديث الرّسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، منها:

* أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام يقول: سألت الإمام عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ فقال عليه السلام: «كل شيء يسبّح بحمده وإنّا لنرى أن ينقض الجدار وَهو تسبيحها»(١).

* وَعن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: «نهى رسول الله أن توسم البهائم في وجوهها، وأن تضرب وجوهها لأنّها تسبّح بحمد ربِّها»(٢).

* وَعن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما مِن طير يُصاد في برٍّ وَلا بحر، وَلا شيء يُصاد مِن الوحش إلاّ بتضييعه التسبيح»(٣).

* أمّا الإمام الباقر عليه السلام، فعندما سمع يوماً صوت عصفور، فقال لأبي حمزة الثمالي - وَكانَ مِن خاصّة أصحابه -: «يسبحن ربّهنّ عزّ وجلّ ويسألن قوت يومهن»(٤).

* وفي حديث آخر نقرأ أنّ رسول الله ﷺ أتى إلى عائشة، وقال لها: «اغسلي هَذين الثوبين» فقالت: يا رسول الله، لقد غسلتهما أمس، فقالَ ﷺ: «أما علمت أنّ الثوب يسبّح فإذا اتسخ انقطع عن تسبيحه»(٥).

* في حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السلام: «للدابّة على صاحبها ستة حقوق: لا يحمّلها فوق طاقتها، وَلا يتخذ ظهرها مجلساً يتحدث عليها، وَيبدأ بعلفها إذا نزل، وَلا يسمها في وجهها، وَلا يضربها فإنّها تسبح، ويعرض عليها الماء إذا مرَّ بها»(٦).

إنَّ هَذِهِ المجموعة مِن الأحاديث والرّوايات والتي لبعضها معانٍ دَقيقة، تظهر أنَّ

(١-٣) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٦٨.

(٤-٥) عن أبي نعيم الإصفهاني في حلية الأولياء (نقلاً عن تفسير الميزان).

(٦) أصول الكافي، ج١، ص٥٣٧، طبقاً لما ذكره صاحب الميزان.

التسبيح العام للموجودات يشمل كلّ شيء بدون استثناء، وَكلّ هَذا يتطابق مَع ما ذكرناه في التّفسير الثّاني (أي إنّ التسبيح هو تسبيح تكويني أو تسبيح بلسان الحال).

أمّا ما قرأناه في هَذهِ الأحاديث مِن أنَّ اللباس إذا توسّخَ ينقطع تسبيحهُ، فهو كناية عن أنَّ المخلوقات إذا كانت محافظة على نظافتها الطبيعية فسوف تذكِّر الإنسان بخالقه، أمّا إذا فقدت نظافتها الطبيعية فسوف لا تقوم بالتذكير.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

سبب النّزول

تحدّث مجموعة مِن المفسّرين مِثل الطبرسي في «مجمع البيان» والفخر الرازي في «التّفسير الكبير» وآخرون، في شأن نزول هذهِ الآيات، فقالوا: إنّها نزلت في مجموعة مِن المشركين كانوا يؤذون النّبي ﷺ بالليل إذا تلا القرآن وَصلّى عِندَ الكعبة، وَكانوا يرمونه بالحجارة وَيمنعونه عن دعوة الناس إلى الدين، فحالَ اللهُ سبحانه بينه وَبينهم حتى لا يؤذوه.

وقد احتمل الطبرسي أن يكون الله منع المشركين عن رسول الله ﷺ عن طريق إلقاء الخوف والرعب في قلوبهم[1].

أمّا الرازي فيقول في ذلك: «إنَّ هَذهِ الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس. روي أنّهُ عليه الصلاة والسلام كان كلّما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وَعن يساره آخران مِن ولد قصي يصفقون وَيصفرون وَيخلطون عليه بالأشعار»[2].

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤١٨.

(٢) التّفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

ثمّ أضاف: «وَروي عن ابن عباس، أنَّ أبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وَغيرهم كانوا يجالسون النّبي ﷺ وَيستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدري ما يقول محمّد غير أنّي أرى شفتيه تتحركان بشيء. وقال أبوسفيان: إنّي لأرى بعض ما يقوله حقّاً. وَقال أبوجهل: هو مجنون. وَقالَ أبو لهب: هو كاهن. وَقالَ حويطب بن عبد العزى: هو شاعر، فنزلت الآية أعلاه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ﴾»[1].

التّفسير

المغرورون وموانع المعرفة

بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هَذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث إنَّ جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلماذا - إذن - لا يقبل المشركون هَذِهِ الحقيقة وَلا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم مِن سماعهم لها؟

الآيات التي نبحثها يمكن أن تكون جواباً على هذا السؤال، إذ تقول الآية الأُولى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. وَهَذا الحجاب والساتر هو نفسهُ التعصُّب واللجاجة والغرور والجهل، حيث تقوم هَذِهِ الصفات بصدّ حقائق القرآن عن أفكارهم وعقولهم وَلا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مِثل التوحيد والمعاد وَصدق الرّسول في دعوته وَغير ذلك.

وفيما يخص كلمة «مستور» هل أنّها صفة للحجاب، أو لشخص الرّسول ﷺ أو للحقائق القرآنية؟ فإنّ البحث عن ذلك سنشيرُ إليه في البحوث. وسنتناول في البحوث - أيضاً - كيفية نسبة الحجاب للخالق جلَّ وعلا.

أمّا الآية التي بعدها فتقول: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي إنّنا غطّينا قلوبهم بأستار لكي لا يفهموا معناه، وجعلنا في آذانهم ثقلاً، لذلك فإنّهم ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

حقّاً ما أعجب الهروب مِن الحق؛ الهرب مِن السعادةِ والنجاة، مِن النصر والفهم! إنَّ شبيه هَذا المعنى نجده - أيضاً - في الآيتين ٥٠ - ٥١ مِن سورة المدثر: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ أي كالحمير الهاربة من الأسد.

---

(١) التفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

ثمّ يضيف الله تبارك وتعالى مرّة أُخرى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي إنّ الله تعالى يعلم الغرض من استماعهم لكلامك وحضورهم في مجلسك و﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يتشاورون ويتناجون ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. إذ - في الحقيقة - إنّهم لا يأتون إليك مِن أجل سماع كلامك بقلوبهم وأرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، وَتَصيّد الأخطاء (بزعمهم وَدعواهم) حتى يحرفوا المؤمنين عن طريقهم إذا استطاعوا، وَعادةً يكون مِثل هؤلاء الأشخاص وَبمثل نواياهم، قلوبهم موصدة، وَفي آذانهم وَقر، لذلك لا يجالسون رجال الحق إلاّ لتحقيق أهداف شيطانية.

الآية الأخيرة خطاب للنّبي ﷺ وبالرغم مِن أنَّ عبارة الآية قصيرة، إلاّ أنّها كانت قاضية بالنسبة لِهَذِهِ المجموعة حيث قالت: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾. وَالآية لا تعني أنَّ الطريق غير واضح والحق خاف، بل على أبصارهم غشاوة، وَقلوبهم مغلقة دون الاستجابة للحق، وَعقولهم معطّلة عن الهدى بسبب الجهل والحقد والتعصب والعناد.

بحوث

١ - خلاصة عامّة للآيات

الآيات الآنفة ترسم لنا بدقة أحوال الضالين والموانع التي تحول دون معرفتهم للهدى، وَبشكل عام تقول الآيات: إنَّ ثمّة ثلاثة موانع لمعرفة هَؤلاء للحق، بالرغم مِن سهولة رؤية طريق الحق، هَذِهِ الموانع هي:

أ - وجود الحجاب بينك وَبينهم، وَهَذا الحجاب في حقيقته ليس شيئاً سوى أحقادهم وحسدهم وَبُغضهم والعداوة التي يضمرونها نحوك، فَهذا الحجاب بمكوناته هو الذي يمنعهم مِن النظر إلى شخصيتك الرسالية، أو أن يدركوا كلامك، حتى أنَّ الحسنات تتحول في نظرهم إلَى سيئات.

ب - سيطرة الجهل والتقليد الأعمى على قلوبهم بحيث إنّهم غير مستعدين لسماع كلمة الحق مِن أي شخص كان.

ج - إنَّ حواس المعرفة لدى هؤلاء، كالأذنِ - مثلاً - تنفر مِن كلام الحق، وَتكون كأنّها صمّاء، أمّا الكلام الباطل فإنّهم يتذوّقونه وَيفرحون به، وينفذ إلى أعماقهم بسرعة، خاصَّة وأنّ التجربة أثبتت أنَّ الإنسان إذا لم يكن راغباً بشيء فسوف لا يسمعه بسهولة. أمّا إذا كان راغباً فيه، فإنَّهُ سيدركُه بسرعة، وَهَذا يدل على أنَّ الإحساسات

الداخلية لها تأثيرها على الحواس الظاهرة، بل وَتَستطيع أن تطبعها بالشكل الذي تريدُه.

أمّا نتيجة هَذِهِ الموانع الثلاثة فهي:

أوّلاً: الهروب مِن سماع الحق، خاصّة عندما يكون الحديث عن وَحدانية الخالق، لأنَّ هَذِهِ الوحدانية تتناقض مَع أصول اعتقادات المشركين.

ثانياً: اللجوء إلى توجيهات خاطئة لِتبرير انحرافهم، حيثُ كانوا يصفون الرّسول ﷺ بتُهم مُختلفة كالساحر والشاعر والمجنون. وَبِذلك تكون عاقبة كل أعداء الحق أنَّ أعمالهم الرذيلة تكون حجاباً لهم دون الحق والهدى.

وَهُنا ينبغي القول بأنَّ مَن يريد أن يسلك الصراط المستقيم وأن يأمن مِن الانحراف يجب عليه أوّلاً وَقبل كلّ شيء إصلاح نفسه. يجب تطهير القلب مِن البغض والحسد والعناد، وَتطهير الروح مِن التكبر والغرور، وَبشكل عام تطهير النفس مِن جميع الصفات الرذيلة، لأنَّ القلب إذا تطهَّر مِن هَذِهِ الرذائل وأصبحَ نظيفاً نقيّاً، فسوف يدرك جميع الحقائق. لِهذا السبب نرى أنَّ الأميين وأصحاب القلوب النقيّة يدركون الحقائق أسرع مِن العالم الذي لم يقم بتهذيب نفسه.

٢ - لماذا تُنسب الحجب للخالق؟

الآيات تنسب الحجب إلى الخالق، حيثُ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾. كذلك هُناك آيات قرآنية أُخرى بنفس المضمون. وَهَذِهِ التعابير قد يستشم منها رائحة «الجبر» في حين أنّها لم تكن سوى صدى لأعمالهم، وَلكن هَذِهِ الحجب - في الواقع - هي بسبب الذنوب والصفات الرّذيلة لنفس الإنسان، وإن هي إلاَّ آثار الأعمال، وَنسبة هَذِهِ الأُمور إلَى الخالق يعود إلى أنَّهُ سبحانه وَتعالى هو الذي خلق خواص الأُمور، فإنّ تلك الأعمال الرّذيلة والصفات القبيحة لها هَذِهِ الخواص، وَقد تحدَّثنا عن هَذِهِ الفكرة في البحوث السابقة مستفيدين مِن الشواهد القرآنية الكثيرة.

٣ - ما معنى الحجاب المستور؟!

هُناك آراء كثيرة للمفسّرين حول الحجاب المستور، مِنها:

أ - (مستور) صفة للحجاب، وَنستفيد مِن ظاهر التعبير القرآني أنَّ هذا الحجاب مَخفي عن الأنظار. وَفي الواقع إنَّ حجاب الحقد والعداوة والحسد لا يمكن رؤيته بالعين، لأنّها في نفس الوقت تضع حجاباً سميكاً بين الإنسان والشخص الذي يقوم بحسده والحقد عليه.

ب - البعض الآخر فسَّر (مستور) بمعنى «الساتر» (لأنّ اسم المفعول قد يأتي بمعنى الفاعل كما فسَّر بعض المفسّرين كلمة «مسحور» في هَذِهِ الآيات بمعنى الساحر)(١).

ج - القسم الثّالث مِن المفسّرين اعتبر (مستور) وَصفاً مجازياً، أي إنّه لا يعني أنَّ الحجاب مستور، بل إنَّ الحقائق الموجودة خلف هَذا الحجاب هي المستورة (مِثل شخصية الرّسول ﷺ وَصدق دعوته وَعظمة أحاديثه).

وَعِندَ التدقيق في هَذِهِ التفاسير الثّلاثة يظهر أنَّ التّفسير الأوّل يتلاءم أكثر مَع ظاهر الآية.

وَفِي بعض الرّوايات نقرأ أنَّ أعداء الرّسول ﷺ كانوا يأتونه وَهو مَع أصحابه يتلو القرآن، إلاّ أنّهم لم يكونوا يرونه، وكأنّ عظمة الرّسول ﷺ تمنعهم من رؤيته ومعرفته، وَبذلك يكون بعيداً عن أذاهم.

٤ - «أكنّة» و«وَقر» ماذا يعنيان؟

(أكنّة) جمع «كنان» وَهي على وَزن «لسان» وَفي الأصل تعني أي غطاء يمكن أن يستر شيئاً ما، أمّا «كِن» على وزن «جِن» فتعني الوعاء الذي يمكن أن نحفظ في داخله شيئاً ما، أمّا جمع «كن» فهو «أكنان» وَقد توسّع هَذا المعنى لِيشمل أيّ شيء يؤدّي إلى التستُّر، كالأستار والبيت والأجسام التي يتستر الإنسان خلفها.

أمّا «وَقَر» على وزن «جَبَر» فتعني ثُقل السمع، و«وِقر» على وَزن «رِزق» تعني الحمل الثقيل.

٥ - تفسير جملة ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦ﴾

في معنى هَذِهِ الجملة ذُكِرَ تفسيرين:

الأوّل: الذي يذهب إليه العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان، والرازي في التّفسير الكبير، إذ قالا بأنّها تعني «غرض الاستماع» يعني نحنُ نعلم الغرض مِن استماعهم لك، فهو ليس لسماع الحق، بل للاستهزاء وإلصاق التهم وَتضليل الآخرين.

أمّا الثّاني: (كما ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان) فقد اعتبرها «وسيلة

---

(١) نقل عن الأخفش، أنَّ اسم المفعول قد يأتي في بعض الأحيان بمعنى اسم الفاعل مِثل ميمون بمعنى يامن، وَمشؤوم بمعنى شائم.

الاستماع» بمعنى نحنُ نعلم بأيّ مسمع وأذن يستمعون إليك، وَنعلم ما في قلوبهم وَنعلم نجواهم. (ويظهر أنَّ التّفسير الأوّل أقرب).

٦ - لماذا اتهموا النّبي بأنَّهُ مسحور؟

إنّ اتّهام النّبي العظيم ﷺ من قبل المشركين بأنّه (مسحور) لأَنَّهُم أرادوا رَميه بالجنون، وأنَّ السحرة أثّروا على عقله وفكره بحيث أصيب في حواسه، وأخذ يُظهر ما يظهر، والعياذ بالله!!

بعض المفسّرين احتملوا أن تكون كلمة (مسحور) بمعنى الساحر (لأَنَّ - اسم المفعول كما أشرنا قبلاً قد يأتي في بعض الأحيان بمعنى اسم الفاعل) وَبِهذا الأسلوب أرادوا إعطاء صِفة السحر لكلام الرّسول حتى يحولوا دون تأثيره في النفوس والقلوب. وَهَذا الاتهام بحدِّ ذاته يعتبر اعترافاً ضمنياً على مدى تأثير دعوة الرّسول ﷺ وأقواله على الناس.

٧ - تخوّف المشركين مِن نداء التوحيد

في الآيات السابقة عرفنا كيف أنَّ المشركين كانوا يتخوّفون مِن نداء التوحيد وَكانوا يفرون مِنهُ، لأنَّ أساس حياتهم قائم على الشرك وَعبادة الأصنام، وَكلّ النظم التي كانت تحكم مجتمعاتهم كانت تقوم على أساس قواعد الشرك وأُصوله.

إذن، فالتوحيد لا ينسف عقائدهم المذهبية وَحسب، بل يهدم نظامهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي الذي يقوم على أساس الشرك.

فالحكومة مثلاً ستكون بيد المستضعفين، وَستسقط حكومة المستكبرين، وَسينتهي التقسيم الطبقي، والاستغلال وغيرها من الظواهر السلبية التي تعتبر بأجمعها نتائج للأنظمة الكافرة. لذا فإنَّ زعماء الشرك كانوا يحاولون - بقوّة - ألاّ يصل صوت التوحيد إلى آذان الآخرين، وَلكنّهم - كما تُشير الآيات القرآنية - كانوا يظلمون المستضعفين وَكانوا يظلمون أنفسهم أيضاً، لأنّ أي ظالم وَمنحرف إنّما يحفر قبره بيده.

والطّريف أنّ القرآن يقول: إنَّ هؤلاء المشركين، ولأجل تبرير فجورهم واستمرار كفرهم كانوا يسألون دوماً عن موعد يوم القيامة متى تقوم: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾[1] وَهَذِهِ إشارة إلى تهربهم من تحمُل المسؤولية.

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٥ - ٦.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً
أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ
ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

التّفسير

حتمية البعثْ وَيوم الحساب

الآيات السابقة تحدَّثت عن التوحيد وَحاربت الشرك، أمّا الآيات التي نبحثها الآن فتتحدّث عن المعاد والذي يعتبر مكمّلاً للتوحيد.

لقد قُلنا سابقاً: إنَّ أهم العقائد الإسلامية تتمثل في الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، والاعتقاد بهَذين الأصلين يربيّان الإنسان عملياً وأخلاقياً، وَيصدّانه عن الذنوب وَيدعوانه لأداء مسؤولياته وَيرشدَانه إلى طريق التكامل.

الآيات التي نحنُ بصددها أجابت على ثلاثة أسئلة - أو شكوك - يُثيرها مُنكرو المعاد، ففي البداية تحكي الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾(١). يقول هؤلاء: هل يُمكن أن تجتمع هَذِهِ العظام المتلاشية الدائرة المتناثرة في كلّ مكان؟ وهل يمكن أن تُعاد لها الحياة مرّة أُخرى؟!. ثمّ أين هَذِهِ العظام النخرة المتناثرة في كلّ حدب وَصوب مِن هَذا الإنسان الحي القوي العاقل؟

إنَّ التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة يدلل على أنَّ الرّسول ﷺ كانَ يبيّن في دعوته (المعاد الجسماني) بعد موت الإنسان، إذ لو كانَ الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّةَ سبب لإيراد مِثل هَذِهِ الإشكالات مِن قبل المعارضين والمنكرين.

القرآن في إجابته على هؤلاء يبيّن أنَّ قضية بعث عظام الإنسان سهلة وممكنة، بل وأكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديداً: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ وحتى

(١) «رُفات» على وزن «كُرات» وهو معنى يطلق على كلِّ شيء قديم وَمُتلاشٍ.

لو كنتم أشدّ من الحجر والحديد وأبعد منهما من الحياة: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فإنَّ البعث سيكون مصيركم.

مِن الواضح أنَّ العظام بعد أن تندثر وَتتلاشى تتحول إلى تُراب، والتراب فيه دائماً آثار الحياة، إذ النباتات تنمو في التربة، والأحياء تنمو في التراب، وأصل خلقة الإنسان هي من التراب، وَهذَا كلام مُختصر على أنَّ التراب هو أساس الحياة.

أمّا الحجارة أو الحديد أو ما هو أكبر مِنهما، تحدّى بِهِ القرآن مُنكرِي المعاد، فإنّ كلّ هَذِهِ أُمور بينها وَبين الحياة بونٌ شاسع، إذ لا يمكن للنبات مثلاً أن ينبت في الحديد أو الصخر، أمّا القرآن فيبيّن أن لا فرق عِند الخالق جلَّ وَعلا، مِن أي مادة كنتم، إذ إنّ عودتكم إلى الحياة بعد الموت تبقى ممكنة، بل وَهي المصير الذي لابدَّ وأن تنتهوا إليه.

إنَّ الأحجار تتلاشى وَتتحول إلى تراب، وأصل الحياة ينبع مِن هَذا التراب، الحديد هو الآخر يتلاشى وَيتفاعل مَع باقي الموجودات على الكرة الأرضية ليدخل في أصل مادتها وَفي تركيبها الترابي الذي هو أيضاً أصل الحياة الذي تنبع مِن داخله وَمِن مادته الموجودات الحيَّة. وَهكذا تحتوي جميع موجودات الكرة الأرضية بما فيها الإنسان، في بنائها وَتركيبها على خليط مِن الفلزات واللافلزات. وَهَذا التحوُّل والتغيُّر في حركة الموجودات، دَليل على أنَّ جميع مخلوقات عالم الوجود لها قابلية التحوُّل إلى موجود حَيّ باختلاف واحد يقع في الدرجة والمرحلة، إذ بعضها يكون في مرتبة أقرب إلى الحياة مِثل التراب، بينما بعضها الآخر يكون في مرتبة أبعد مِثل الحجارة والحديد.

السؤال التشكيكي الآخر الذي يُثيره مُنكرو المعاد هو: إذا سلَّمنا بأنَّ هَذِهِ العظام المُندثرة المتلاشية يُمكن أن تَعود إلى الحياة، فمن يستطيع أن يقوم بهَذا الأمر، وَمَن الذي لهُ قدرة القيام بهَذِهِ العملية المعقَّدة للغاية؟

هَذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا﴾ القرآن يجيب على هَذا السؤال حيث يقول: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. إذا كانَ شككم في (القابلية) فقد كنتم تراباً في أوّل الأمر، فما المانع أن تصيروا تراباً، ثمّ يعيدكم مَرَّةَ أُخرى إلى الحياة مِن نفس التراب؟!

وإذا كان شككم في (الفاعلية) فإنَّ الخالق الذي خلقكم في البداية مِن تراب يستطيع مرّة أُخرى أن يكرِّر هَذا العمل لأنَّ: «حكم الأمثال فيما يجوز وَفيما لا يجوز واحد».

بعد الانتهاء مِن الشك الأوّل والثّاني الذي يطلقهُ المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى

الشك الثّالث الذي تصوغهُ على لسانهم بِهَذا السؤال: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾.

«سينغضون» مشتقّة مِن مادة «إنغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل بسبب التعجُّب.

ما يقصده هؤلاء مِن سؤالهم - في الواقع - هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان مِن التراب مِن جديد، فإنَّ هذا يبقى مجرّد وَعد لا ندري مَتى يتحقق، إذا كانَ سيحصل هَذا في آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره في يومنا هَذا... إنَّ المهم أن نتحدَّث عن الحاضر لا عن المستقبل!!

ويجيب القرآن بقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ إنّ يوم المعاد - طبعاً - قريب، لأنَّ عمر العالم والحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها في قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شيء، إذ هي مجرّد لحظات سريعة وَعابرة وسرعان ما تنتهي.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ القيامة إذا كانت في تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنَّ مقدمة القيامة والتي هي الموت، تعتبر قريبة منّا جميعاً، لأنَّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا ماتَ الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنَّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، وَلكنَّه علامة عليها ومذكّر بها.

كما إنَّ استخدام كلمة ﴿عَسَىٰ﴾ في الآية الشريفة هو إشارة إلى أنَّ لا أحد يعرف - وَبدقة - متى تقوم القيامة؟ حتى شخص الرّسول ﷺ، وَهَذا الأمر هو مِن أسرار الكون والخليقة التي لا يعلمها سوى الله تبارك وتعالى.

في الآية التي بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي إنّ بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمتثلون لأمره طوعاً أو كرهاً، والآية - بالطبع - تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

في ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلاً في عالم ما بعد الموت (البرزخ) وَهو قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إنَّ هذا الإحساس سيطغى على الإنسان في يوم القيامة، وَهو يظن أنَّهُ لم يلبث في عالم البرزخ إلاَّ قليلاً، بالرغم مِن طول الفترة التي قضاها هُناك، وَهَذِهِ إشارة إلى أنَّ حياة البرزخ لا تعتبر في مدتها شيئاً في قبال عالم الخلود الأُخروي.

بعض المفسّرين يحتمل أنَّ الغرض مِن الآية هو الإشارة إلى حياةِ الإنسان في الدنيا، والمعنى أنَّ الإنسان سيدرك في يوم القيامة أنَّ الحياة الدنيوية لم تكن إلاَّ وَقفة، أو يوم، بل وَساعات قصار سريعة الزوال في مقابل الحياة الآخرة الأبدية.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الرابع عشر

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

التّفسير

التعامل المنطقي مع المعارضين

الآيات السابقة تعرّضت لقضية المبدأ والمعاد، أمّا الآيات التي نحنُ بصددها فهي توضّح أسلوب المحادثة والاستدلال مَع المعارضين وَخصوصاً المشركين، لأنَّهُ مهما كانَ المذهب عالي المستوى، والمنطق قويّاً، فإنَّ ذلك لا تأثير له ما دامَ لا يتزامن مَع أُسلوب صحيح للبحث والمجادلة مُرفقاً بالمحبّة بدلاً مِن الخشونة، لذا فإنَّ أوّل آية مِن هَذِهِ المجموعة تقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. الأحسن مِن حيثُ المحتوى وَالبيان، والأحسن مِن حيث التلازم بين الدليل وَمكارم الأخلاق والأساليب الإنسانية، وَلكن لماذا يستعمل هَذا الأُسلوب مَع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن واتبعوا الخشونة في الكلام والمجادلة فـ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ ويثير بينهم الفتنة والفساد، فلا تنسوا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

أمّا مَن هم (العباد) المقصودون في هَذِهِ الآية؟

في صدد الجواب هُناك رأيان مُختلفان بين المفسّرين، وَكلّ رأي مدعم بالقرائن التي تؤيّدهُ؛ هَذان الرأيان هما:

أوّلاً: المقصود مِن (عبادي) هُم عبيده المشركون، إذ بالرغم مِن أنّهم سلكوا طريقاً خاطئاً، إلاّ أنّ الله تبارك وَتَعالى يناديهم (عبادي) وَذلكَ مِن أجل إثارة عواطفهم الإنسانية، وَيدعوهم إلى (القول الأحسن) ويعني هُنا كلمة التوحيد وَترك الشرك وَمراقبة أنفسهم مِن وسواس الشيطان، وهكذا يكون الهدف مِن هَذِهِ الآيات - بعد ذكر أدلة التوحيد والمعاد - هو النفوذ إلى قلوب المشركين حتى يستيقظ ذوو الاستعداد مِنهم.

الآيات التي تلي هَذِهِ الآية - كما سيأتي - تُناسب هَذا المعنى، وَكون هَذِهِ السورة مكّية يرجّح هَذا الرأي، إذ لم يكن الجهاد قد فرضَ بعد وَكانت الدعوة بالمنطق والأسلوب الحسن فقط هي المأمور بها.

ثانياً: كلمة (عبادي) خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية أُسلوب النقاش مَع الأعداء، فقد يحدث في بعضِ الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجُدد بخشونة مَع معارضي عقيدتهم وَيقولون لهم بأنّهم مِن أهل النّار والعذاب، وأنّهم ضالون، وَيعتبرون أنفسهم مِن الناجين، قد يكون هَذا الموقف سبباً في أن يقف المعارضون موقفاً سلبياً إزاء دعوة الرّسول ﷺ.

إضافة لذلك، فإنّ الاتهامات التي يطلقها المشركون ضدَّ شخص رسول الله ﷺ وَيتهمونه فيها بالسحر والجنون والكهانة والشعر، قد تكون سبباً في أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم وَيبدأون بالتشاجر مَع المشركين وَيستخدمون الألفاظ الخشنة ضدَّهم... القرآن يمنع المؤمنين مِن هَذا العمل وَيدعوهم إلى التزام اللين والتلطُّف بالكلام واختيار أفضل الكلمات في أُسلوب التخاطب، حتى يأمنوا مِن إفساد الشيطان.

كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وُفقاً لهذا الرأي توضّح أنَّ الشيطان يحاول زرع الفساد بين المؤمنين وَمَن يخالفهم؛ أو أنَّهُ يحاول النفوذ إلى قلوب المؤمنين لإفسادها ﴿يَنزَغُ﴾ مُشتقة مِن «نزغ» وتعني الدخول إلى عملٍ بنيّة الإفساد.

بملاحظة مجموع هَذِهِ القرائن يتبيّن لنا أنَّ التّفسير الثّاني ينطبق مَع ظاهر الآية الكريمة أكثر مِن التّفسير الأوّل، لأنَّ كلمة (عبادي) في القرآن تستخدم عادة لمخاطبة المؤمنين، إضافة إلى أنّ سبب نزول الآية يُؤيّد هَذا المعنى وَيدعم هَذا التّفسير، إذ ينقل بعض المفسّرين أنَّ المشركين كانوا يُؤذون أصحاب الرّسول ﷺ في مكّة وَيضيّقون عليهم، وَفي أثناء ذلك كان بعضهم يَأتي إلى رسول الله ﷺ يستأذنَهُ وَيلحّ عليه في مُواجهة المشركين بالمثل (على الأقل الرد عليهم بألفاظ شديدة تناسب ألفاظ المشركين)

والبعض يطلب الإذن بالجهاد، وَلكن الرّسول ﷺ كانَ يبيّن لهم بأنّه لم يُؤذَن له بعد القيام بهَذِهِ الأعمال، وَفي هَذِهِ الأثناء نزلت الآيات أعلاه تؤكّد بأنّ التكليف ما زال يتمثل في استمرار الدعوة بالكلام، والمجادلة باللطف وبالتي هي أحسن(١).

الآية التي بعدها تضيف: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾. بناءً على الرأيين السابقين في تفسير مَن المخاطَب في تعبير (عبادي) فإنَّ هَذِهِ الآيه أيضاً - وَتبعاً لما سبق - تَحتَمِلُ تفسيرين هما:

الأوّل: أيّها المشركون؛ إنَّ ربّكم ذو رحمة واسعة، وذو عقاب أليم، وَسيشملكم مُنهما ما يلائم أعمالكم، وَلكن الأفضل أن تتوسلوا برحمته الواسعة وَتحذروا عذابه.

الثّاني: لا تظنوا أيّها المؤمنون بأنّكم وحدكم الناجون، وأنّ غيركم سيكون مصيره النّار، فالله أعلم بأعمالكم وَنواياكم، وَلو أراد عزّوجلّ لأخذكم بذنوبكم، وَلو شاء لشملكم برحمته، ففكّروا قليلاً في أنفسكم وَليكن حكمكم على أنفسكم والآخرين بالإنصاف.

وفي آخر الآية مُواساة للرّسول ﷺ الذي كان يتأذى وَيتألم مِن عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾. إنَّ مسؤوليتك - يا رسول الله - هي الإبلاغ الواضح، والدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذا آمنوا فهو الأفضل، وإن لم يُؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر، لأنّك أنجزت مسؤوليتك وَقمت بواجبك.

وَبالرغم مِن أنَّ المخاطب في الآية هو الرّسول ﷺ، إلاّ أنَّ مِن غير المستبعد أن يكون هدف الخطاب جميع المؤمنين، وَهَذا دليل آخر على التّفسير الثّاني للمعنى مِن خطاب (عبادي)، إذ يقول القرآن للمؤمنين: إنَّ مسؤوليتكم هي الدعوة سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، لذا لا داعي لعدم ارتياحكم الذي قد يُؤدّي بكم إلى اتّباع الخشونة مَع غير المؤمنين، والخروج بالتالي عن طريق التي هي أحسن، ممّا يؤدّي إلى نزغ الشيطان.

الآية التّالية ذهبت أكثر مِن الآية السابقة في التعبير عن إحاطة الله تبارك وَتعالى وَعلمه بأعمال ونيّات عباده، فقالت: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثمّ أضافت: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾.

---

(١) إلى هذا الرأي يذهب الشّيخ الطبرسي في مجمع البيان، والقرطبي في تفسيره. يُراجع تفسيرهما للآية الكريمة.

هذا التعبير القرآني جواب على أحد أسئلة المشركين وَشكوكهم، حيثُ كانوا يقولون - بأُسلوب استهزائي - لماذا انتخب الله للنّبوة محمّداً اليتيم، ثمّ ما الذي حصل حتى أصبح هَذا اليتيم ليس نبيّاً وَحسب، وإنّما خاتم الأنبياء؟

القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا مِن ذلك، لأنَّ الله عليم بقيمة كلّ إنسان، وَهو سبحانُه وَتعالى ينتخب أنبياءه مِن بين عامّة الناس، وَيفضّل بعضهم على بعض، إذ جعل أحَدهم (خليل الله) والآخر (كليم الله) والثّالث (روح الله)، أمّا نبيّنا فقد انتخبه بعنوان (حبيب الله). وباختصار: لقد فضّل الله بعض النّبيين على بعض لموازين يعلمها هو وَتختص بها حكمتُه جلّ وَعلا.

أمّا لماذا اختار تبارك وَتعالى (داود) مِن بين جميع الأنبياء، وَذكر (الزبور) مِن دون الكتب السماوية الأُخرى؟... قد يكون السبب ما يلي:

أوّلاً: يختص زبور داوُد عليه السلام مِن بين جميع كُتب الأنبياء بأنَّ جميعهُ على شكل مُناجاة وَدعاء، وَذكرهُ هُنا يتلاءم أكثر مَعَ موقع هَذِهِ الآيات وَحديثها عن القول الحسن والكلام الجميل.

ثانياً: في زبور داوُد إخبار عن حكومة الصالحين الذين هُم ظاهراً أناس فقراء وَيتامى. وَهَذا الإخبار يتناسب مَع دعوة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الذين يكونوا عادة في زمرةِ الفقراء، وَهو رَدّ على إشكال المشركين وأسئلتهم وشكوكهم(١).

ثالثاً: بالرّغم مِن أنَّ داوُد عليه السلام كان له حكم عظيم وَدولة كبيرة وَملك واسع، إلاّ أنَّ الله سبحانه لم يجعل هَذِهِ الأُمور سبباً لافتخاره، بل اعتبر كتاب الزّبور فخره، حتى يدرك المشركون أنَّ عظمة الإنسان، ليسَ لها علاقة بالمال وَالثروة وَوجود الحكومة والسلطة، كما أنّ اليتم والفقر ليس مدعاةً للذل أو دليلاً على الحقارة.

رابعاً: بعض اليهود قالوا: لا يمكن نزول كتاب سماوي آخر بعدَ موسى عليه السلام، والقرآن يقول لهم: إنّنا أعطينا داوُد زبوراً، فلماذا تتعجبون مِن نزول القرآن؟ (بالطبع

---

(١) في كتاب مزامير داوُد (الزّبور) والذي بين أيدينا الآن، نقرأ في الزبور (٢٧): «لأنَّ الشريرين سوف ينقطعون، أمّا المتوكلون على الله فسيرثون الأرض، وَبعد مدّة سوف لا يكون هُناك شريرون، أمّا الحكماء والصالحون فسيرثون الأرض». وَفي المُزمور في الجملتين (٢٢) و(٢٩) نقرأ تعابير مُشابهة. وَهَذا ينطبق مع ما جاء في القرآن الكريم في الآية (١٠٥) مِن سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

كتاب داوُد كان كتاباً للأخلاق وَليسَ للأحكام وَلكِنَّهُ نَزَلَ من الله سبحانه وَتَعالى بعد التّوراة).

في كلّ الأحوال، ليسَ هُناك مِن مانع أن تكون النقاط الأربع أعلاه سبباً لانتخاب داوُد وَزبوره مِن بين جميع الأنبياء، وَجميع الكتب السماوية.

الآية التي تليها تستمر في اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرّسول ﷺ أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

إنَّ هَذِهِ الآية في الحقيقة - كما في آيات أُخرى كثيرة - تبطل مَنطق المشركين وَتضرب صميم عقيدتهم مِن هَذا الطريق، وَهو أنَّ عبادة الآلهة مِن دون الله، إمّا بسبب جلب المنفعة أو دَفع الضرر، في حين أنَّ الآلهة التي يعبدونها لَيس لها القدرة على حلّ مُشكلة معيّنة أو حتى تحريكها؛ أي نقل المشكلة مِن مستوى معيّن إلى مستوى أقل.

لذا فإنَّ ذكر جملة ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ بعد قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ إشارة إلى أنّ هؤلاء ليست لهم القدرة للتأثير الكامل في حلّ المشاكل بشكل نهائي، وَلا القدرة للتأثير الناقص في تغيير هَذِهِ المشاكل وَحلّها بشكل جزئي.

﴿زَعَمْتُم﴾ مأخوذة مِن «زعم» وَهي عادة ما تعني المعنى الناقص، لذا نُقل عن ابن عباس أنَّهُ متى ما جاءت كلمة (زعم) في القرآن فإنّها تعني الكذب والعقائد الباطلة.

أمّا الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات فيقول: «الزعم حكاية قول يكون مظنّة للكذب». لذا فإنَّ هَذِهِ الكلمة وَردت مذمومة في جميع الموارد التي ذكرت في القرآن الكريم.

أمّا كلمة ﴿كَشْفَ﴾ ففي الأصل تعني إبعاد الستار أو اللباس أو ما شابهَه عن شيء معيّن، وإذا استخدمت في تعبير ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ فتعني إبعاد الحزن والغمّ والمرض؛ والسبب في ذلك أنّ هَذِهِ الأُمور تعتبر كالستار الذي يغطّي وَجه الإنسان وَجسمه، إذ تغطّي الوجه الحقيقي الذي هو عبارة عن السلامة والراحة والهدوء، لذلك فإنَّ إزالة هذا الغم والحزن يعتبر (كشفاً للضر).

مِن الضروري أيضاً الالتفات هُنا إلى ملاحظة مهمّة هي أنَّ استخدام تعبير ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في هَذِهِ الآية لا يشمل جميع المعبودات التي يشركها الإنسان مَع الله (كالأصنام وَغيرها) بل يشمل الملائكة والمسيح وَأمثالهم، لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في اللغة العربية هي اسم إشارة يستخدم عادة للعاقل.

بعد ذلك تؤكّد الآية التالية على ما ذكرناه في الآية السابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم مِن دون الله أن يحلّوا مشاكلكم، أو أن يجيبوا لكم طلباتكم بدون إذن الله سبحانه وَتعالى؟

الآية تجيب على ذلك بأنَّ هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت الله، وَيلجأون للتقرّب مِن الذات الإلهيّة المقدَّسة لقضاء حوائجهم وَحل مشاكلهم وَتحقيق ما يريدونه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ هناك آراء مُختلفة للمفسّرين في ذلك، نحاول استعراضها فيما يلي:

ذهب بعض كبار مفسري الإسلام إلى: أنّ التعبير القرآني يُشير إلى أنّ أولياء الله يتوجّهون إلى الملائكة والأنبياء (الذين يعبدهم المشركون من دون الله)، أيّهم أقرب إلى الله فيقتربون إليه أكثر، وَهؤلاء لا يملكون شيئاً مِن عِندهم، بل كلّ ما يملكونه هو مِن الله، وَكلّما يرتفعون في المقام تزداد طاعتهم وَعبوديتهم(١).

البعضُ الآخر مِن المفسّرين يعتقد بأنّ مفهوم التعبير القرآني هو أنّهم يحاولون التسابق في التقرُّب مِن الخالق، ففي طريق طاعة الله والتقرّب مِن ذاته المقدَّسة اشترك هؤلاء في مسابقة معنوية، حيثُ يحاول كلّ واحد مِنهم أن يتقدّم على الآخر في الميدان.

والآية - بعد ذلك - تقول: الذين يتّصفون بهذه الصفات هل يُمكن عبادتهم مِن دون الله، وَهل هُم مستقلّون(٢)؟

أمّا التّفسير الذي يقول: إنّهم يسلكون أي وسيلة تقرّبهم مِن الله، فاحتمالُه بعيد جدّاً، لأنَّ ضمير (هُم) في «أيّهم» والذي يُستخدم لجمع المذكر، لا يتلاءم مَع هذا المعنى، بل كان يجب أن يكون «أيّها» ليستقيم الرأي وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ جملة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ تقع على شكل مُبتدأ وَخبر، في حين أنّها وفقاً لهَذا المعنى يجب أن تكون على شكل مفعول أو بدلاً عن المفعول.

---

(١) وُفقاً لهذا التّفسير تكون ﴿أَيُّهُمْ﴾ بدل من ضمير ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أو مبتدأ لخبر محذوف، وَفي التقدير تكون الآية: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أيهم أكثر دعاءً وابتغاءً للوسيلة.

(٢) في هَذِهِ الحالة ﴿أَيُّهُمْ﴾ مِن حيث التركيب النحوي يمكن أن تكون - فقط - بدلاً مِن ضمير ﴿يَبْتَغُونَ﴾.

ما هي الوسيلة؟

هَذِهِ الكلمة استخدمت في موضعين في القرآن الكريم، الموضع الأوّل في هَذِهِ الآية، والآخر في الآية ٣٥ مِن سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وَقد قُلنا هُناك: إنَّ ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ تعني (التقرّب) أو الشيء الذي يبعث على التقرُّب (أو النتيجة التي يمكن الحصول عليها مِن التقرُّب).

على هذا الأساس فإنَّ هُناك مفهوماً واسعاً جدّاً لكلمة ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يشمل كلّ عمل جميل ولائق، وتدخل في مفهومها كلّ صفة بارزة أُخرى، لأنَّ كلّ هَذِهِ الأُمور تكون سبباً في التقرّب مِن الله.

ونقرأ في الكلمات الحكيمة للامام علي عليه السلام في الخطبة ١١٠ مِن نهج البلاغة قوله عليه السلام: «إنَّ أفضلَ ما توسلَ بِهِ المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان بِهِ وَبِرَسُولِهِ، والجهادُ في سبيله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وَصومُ شهرِ رمضان، وَحج البيت واعتمارُه، وَصلة الرحم، وصدقة السّر، وصدقة العلانية، وَصنائعُ المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان»[1].

شفاعة الأنبياء والصالحين والمقرّبين التي تكون مقبولة في حضرة الله تبارك وَتعالى، كما تصرّح بذلك الآيات القرآنية، تعتبر أيضاً مِن وسائل التقرُّب.

وَينبغي هُنا عدم التباس الأُمور، إذ إنَّ التوسُّل بالمقرّبين مِن الله تعالى لا يعني أنَّ الإنسان يريد شيئاً مِن النّبي أو الإمام بشكل مستقل، أو أنّهم يقومون بحل مشاكله بشكل مستقل عن الله، بل الهدف هو أن يضع الإنسان نفسه في خطّهم وَيطبّق برامجهم، ثمّ يطلب مِن الله بحقهم، حتى يعطي الله إذن الشفاعة لهم. (لمزيد مِن التفاصيل يُراجع التّفسير الأمثل، الآية ٣٥ من سورة المائدة).

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ

(١) ملخص مِن الخطبة (١١٠) مِن نهج البلاغة. وَقد شرحنا هَذِهِ الخطبة في تفسيرنا هذا، ذيل الآية (١٣) من سورة المائدة.

﴿... إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

التّفسير

بعد أنَّ تحدّثت الآيات السابقة مَع المشركين في قضايا التوحيد والمعاد، تبدأ أوّل آية من هَذِهِ الآيات بكلام على شكل نصيحة لِتوعيتهم، حيثُ تُجسّم هَذِهِ الآية النهاية الفانية لِهَذِهِ الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أنَّ هَذِهِ الدنيا دار زوال وأنَّ البقاء الأبدي في مكان آخر، لذلك ما عليهم إلاَّ تهيئة أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيثُ تقول الآية: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

فالطغاة والظالمون نبيدهم بواسطة العذاب، أمّا الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

وأخيراً، فإنَّ هَذِهِ الدنيا زائلة والكلّ يسلك طريق الفناء (كانَ ذلك في الكتاب مسطوراً). والكتاب هُنا هو نفس اللوح المحفوظ وَهو العلم اللامتناهي للخالق جلّ وعلا، وَمجموعة القوانين الإلهيّة التي لا يمكن التخلُّف عنها في عالم الوجود هذا.

وَنظراً لِهَذا القانون الحتمي الذي لا يمكن تغييره يجب على المشركين والظالمين والمنحرفين - من الآن - أن يحاسبوا أنفسهم لأنّهم حتى لو بقوا أحياءً حتى نهاية هَذِهِ الدنيا، فإنَّ عاقبتهم ستكون الفناء ثمّ الحساب والجزاء.

وَهُنا قد يقول المشركون: نحنُ لا مانع لدينا مِن الإيمان وَلكن بشرط أن يقوم الرّسول ﷺ بجميع المعجزات التي نقترحها عليه، أي أن يستسلم لحججنا، القرآن يجيب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾.

الآية تشير إلى أنَّ الله تبارك وتعالى أرسل معجزات كثيرة وَكافية للدلالة على صدق الرّسول ﷺ، أمّا ما تقترحونه مِن معجزات فهي غير مقبولة، لأنّكم بعد وقوعها وَمشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أنَّ الأمم السابقة والتي كانت أوضاعها وَحالاتها مماثلة لأوضاعكم وَحالاتكم، اقترحت نفس الاقتراحات ثمّ لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لِهَذه الحالة فتقول: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾

لقد طلبَ قوم صالح الناقة فأخرجها الله لهم مِن الجبل، وأجيبت بذلك المعجزة التي طلبوها، وَقد كانت معجزة واضحة وَموضِّحة!

وَلكن بالرغم مِن كلّ ذلك ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

وَعادة فإنَّه ليس مِن مُقتضيات البرنامج الإلهي أن يستجيب لأيّ معجزة يقترحها إنسان، أو ينصاع إلى تنفيذها الرّسول، وَلكنّ الهدف هو: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. إنَّ أنبياء الله ليسوا أفراداً خارقي العادة حتى يجلسوا وَينفّذوا أيَّ اقتراح يُقترح عليهم وإنّما مسؤوليتهم إبلاغ دعوة الله والتعليم والتربية وإقامة الحكومة العادلة، إلاَّ أنّهم يظهرون المعجزات مِن أجل إثبات علاقتهم بالخالق جلّ وعلا، وَبالقدر الذي يُناسب هَذا الإثبات ليسَ أكثر.

ثمّ يواسي الله تبارك وَتعالى نبيّه ﷺ في مقابل عناد المشركين وإلحاحهم بالباطل، إذ يبيّن لهُ أن ليس هَذا بالشيء الجديد: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾. ففي قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام هناك دائماً مجموعة مؤمنة نظيفة القلب نقيّة السريرة، صافية الفطرة، في مقابل مجموعة أُخرى معاندة مُكابرة لجوجة تتحجج وَتجد لِنفسها المعاذير في معاداة الدعوات وإيذاء الأنبياء، وَهكذا يتشابه الحال بين الأمس واليوم.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وامتحاناً لهم، وكذلك الشجرة الملعونة هي أيضاً امتحان وفتنة للناس: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

فيما يخص المقصود مِن (الرؤيا) و(الشجرة الملعونة) فسنبحث ذلك في مجموعة الملاحظات التي ستأتي بعد قليل إن شاء الله.

وَفي الختام يأتي قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾. لماذا؟ لأنَّهُ ما دام قلب الإنسان غير مستعد لقبول الحق والتسليم له، فإنَّ الكلام ليسَ لا يؤثّر فيه وحسب، بل إنَّ لهُ آثاراً معكوسة، حيثُ يزيد في ضلال هؤلاء وَعِنادهم بسبب تعصّبهم وَمقاومتهم السلبية وانغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمّل ذلك).

بحوث

١ - رؤيا النّبي ﷺ والشّجرة الملعونة

كَثُرَ الكلام بين المفسّرين عن المقصود بالرؤيا ونجمل هَذِهِ الأقوال بما يلي:

أ: بعض المفسّرين قالوا: إنَّ هَذِهِ الرؤيا لا تعني رؤيا المنام، بل تعني المشاهدة

الحيَّة الحقيقية للعين، وَيعتبرونها (أي الرؤيا) إشارة إلى قصّة المعراج التي وَرد ذكرها في بداية هَذِهِ السورة.

فالقرآن وَوفقاً لهذا التّفسير يقول: إنَّ حادثة المعراج هي بمثابة اختبار للناس، لأنَّ الرّسول ﷺ ما إن شرعَ بذكر قصّة المعراج والإخبار عنها، حتى ارتفعت أصوات الناس، بآراء مُختلفة حولها، فالأعداء استهزؤوا بها، وَضعيفو الإيمان نظروا إليها بشيء مِن التردُّد والشك، أمّا المؤمنون الحقيقيون فقد صدّقوا رسول الله ﷺ فيما أخبر، واعتقدوا بالمعراج بشكل كامل، لأنَّ مِثل هَذِهِ الأُمور تُعتبر بسيطة في مقابل القدرة المطلقة للخالق جلّ وَعلا.

الملاحظة الوحيدة التي يمكن دَرجها على هذا التّفسير، هي أنَّ الرؤيا عادةً ما تطلق على رؤيا المنام، لا الرؤيا في اليقظة.

ب: نقل عن ابن عباس، أنَّ المقصود بالرؤيا، هي الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في السنّة السّادسة مِن الهجرة المباركة (أي عام الحديبية) في المدينة، وَبشرّ بها الناس أنّهم سينتصرون على قريش قريباً وَسيدخلون المسجد الحرام آمنين.

ومن المعلوم أنَّ هَذِهِ الرؤيا لم تتحقق في تلك السنة، بل تحققت بعد سنتين أي في عام فتح مكّة، وهذا المقدار مِن التأخير جعل أصحاب الرّسول ﷺ يقعون في بوتقة الاختبار، إذ أصيب ضعيفو الإيمان بالشك والريبة مِن رؤيا الرّسول وَقوله، في حين أنَّ الرّسول ﷺ بيّن لهم - بصراحة - بأنّني لم أقل لكم بأنّنا سنذهب إلى مكّة هذا العام، بل في المستقبل القريب. (وَهذا ما حصل بالفعل).

الاعتراض الذي يمكن أن يرد على هذا التّفسير، هو أنَّ سورة بني إسرائيل مِن السور المكّية، بينما حادثة الحديبية وَقعت في العام السّادس للهجرة المباركة!!

ج: مجموعة مِن المفسّرين الشيعة والسنّة، نقلوا أنَّ هَذِهِ الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة والتي رأى فيها النّبي ﷺ في المنام أنّ عدداً مِن القرود تصعد منبره وَتنزل مِنهُ (تنزو على منبره ﷺ)، وَقد حزَن ﷺ كثيراً لِهَذا الأمر بحيث لم ير ضاحكاً مِن بعدها إلاَّ قليلاً (وَقد تمَّ تفسير هَذِهِ القرود التي تنزو على منبر رسول الله ﷺ ببني أمية الذين جلسوا مكان النّبي ﷺ الواحد تلو الآخر، يُقلّد بعضهم بعضاً، وَكانوا ممسوخي الشخصية، وَقد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، وَخلافة رسول الله ﷺ).

ونقل هذِهِ الرّواية (الفخر الرازي) في التّفسير الكبير، و(القرطبي) في تفسيره الجامع و(الطبرسي) في مجمع البيان، وَغيرهم.

ويقول الفيض الكاشاني في تفسير الصافي، بأنَّ هَذِهِ الرّواية مِن الرّوايات المعروفة في أوساط العامّة والخاصّة.

ثمّة إشارة نلاحظ فيها، إنَّ التفاسير الثلاثة هَذِهِ في «الرؤيا» مِن الممكن أن تشترك جميعاً في تفسير الآية، وَلكنّ التّفسير الثّاني - كما أشرنا - لا ينطبق مَع مكّية السورة، وَبالنسبة للمقصود مِن الشجرة الملعونة فقد واجهتنا أيضاً مجموعة مِن التفاسير التي يمكن أن نجمل القول بها في الآراء الآتية:

أ: الشجرة الملعونة التي وَرد ذكرها في القرآن هي ﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وَهي الشّجرة التي تنمو في الجحيم طبقاً للآية ٦٤ مِن سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ولهذه الشجرة طعمٌ مرٌّ وَمؤذ، وَثمارها طعام للمذنبين طبقاً للآيات ٤٣ - ٤٦ مِن سورة الدخان ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ وَطعامها ليس كطعام الدنيا بل يشبه المعدن المذاب بالحرارة والذي يغلي في الأحشاء. وَسيرد تفسيرها بشكل كامل في تفسير الآيات من سورة الدخان إن شاء الله.

إنَّ شجرة الزقوم - بدون شك - لا تشبه أشجار الدنيا أبداً، وَلِهذا السبب فإنّها تنمو في النار، وَطبيعي أنّنا لا ندرك هَذِهِ الأُمور المتعلقة بالعالم الآخر إلاّ على شكل أشباح وتصورات ذهنية.

لقد استهزأ المشركون بهَذِهِ التعابير والأوصاف القرآنية بسبب مِن جهلهم وَعدم معرفتهم وَعِنادهم، فأبو جهل - مثلاً - كانَ يقول: إنَّ محمّداً يهددكم بنار تحرق الأحجار، ثمّ يقولُ بعد ذلك بأنَّ في النار أشجاراً تنمو!

وَيُنقل عن أبي جهل - أيضاً - أَنَّهُ كان يُهيىء التمر والسمن وَيأكل مِنهُ ثمّ يقول لأصحابه: كلوا مِن هَذا فإنَّه الزقوم. (نقلاً عن روح المعاني في تفسير الآية).

لِهَذا السبب فإنّ القرآن يعتبر الشجرة الملعونة في الآيات التي نبحثها، وَسيلة لاختبار الناس، إذ كانَ المشركون يستهزئون بها، بينما استيقنها المؤمنون الحقيقيون الذين كانوا يؤمنون بها.

ويمكن أن يطرح على هذا التّفسير السؤال الآتي: إنَّ شجرة الزقوم لم تطرح في القرآن بعنوان الشجرة المعلونة؟

في الإجابة على ذلك نقول: يمكن أن يكون المقصود هو لعن آكليها. بالإضافة إلى

ذلك أنَّهُ ما من شيء بعد رَحمة الله سوى اللعن، وَطبيعي جداً أنَّ مِثل هَذه الشجرة بعيدة جدّاً عن رحمة الله.

ب: الشجرة الملعونة، هم اليهود البغاة، إذ إنّهم يشبهون الشجرة ذات الفروع والأوراق الكثيرة، وَلكنّهم مطرودون مِن مقام الرحمة الإلهيّة.

ج: جاء في الكثير مِن تفاسير الشيعة والسنّة أنَّ الشجرة الملعونة هُم بنو أمية.

ينقل الفخر الرازي في تفسيره رواية في هَذا المجال عن ابن عباس الذي أدرك الرّسول ﷺ واشتهر في التاريخ الإسلامي بكونه مُفسراً للقرآن الكريم.

هَذا التّفسير يتلاءم مِن جهة مَع الرّواية التي ذكرناها أعلاه بخصوص رؤيا الرّسول ﷺ، وهو أيضاً يتلاءم مَع الحديث المنقول عن عائشة والتي التفتت فيه إلى مروان وَقالت لهُ: «لعن اللهُ أباكَ وَأنت في صلبه، فأنت بعض مَن لعنهُ الله»[1].

وَلكن مرّة أُخرى يُطرح هَذا السؤال: في أيّ مكان مِن القرآن تمَّ لعن بني أمية باعتبارهم الشجرة الخبيثة؟

في الجواب نقول: لقد تمَّ ذلك في الآية ٢٦ مِن سورة إبراهيم عِندَ الحديث عن الشجرة الخبيثة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾. وَذلك للمفهوم الواسع للشجرة الخبيثة، وَلما وَرد من روايات في تفسيرها بأنَّ المقصود مِنها هم بنو أميّة، ثمّ إنَّ (الخبيثة) تقترن مِن حيث المعنى بـ(الملعونة)[2].

وَجدير بالذكر هُنا، أنَّ الكثير مِن هَذِهِ التّفاسير أو كُلّها لا تتعارض فيما بينها، وَمِن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) في القرآن إشارة إلى أي مجموعة مُنافقة وَخبيثة وَمطرودة مِن رحمة الله تعالى وَمقام الربوبية، خصوصاً تلك المجاميع مِثل بني أمية واليهود قساة القلب، والمعاندين وَكلّ الذين يسيرون على خُطاهم. وَشجرة الزقوم في القيامة تمثّل الأشجار الخبيثة في العالم الآخر، وَكلّ هَذِهِ الأشجار الخبيثة (المجاميع المعنيّة) هي لاختبار وَتمحيص المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا.

إنَّ اليهود الذين سيطروا اليوم - زوراً وغصباً - على المقدّسات الإسلامية والذين يشعلون نار الفتنة والحرب في كلّ زاوية مِن زوايا العالم، وَيفتعلون العديد من الجرائم

(١) تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٩٠٢؛ وَتفسير الفخر الرازي، ج ٢٠، ص ٢٣٧.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٣٨.

والمظالم بحق الشعوب، إضافة إلى المنافقين الذين يتعاملون معهم تعاملاً سياسياً وَغير سياسي، وكذلك كلّ المتسلطين الذين يسيرون على خُطى بني أمية في البلاد الإسلامية، وَيقفون ضدَّ الإسلام، وَيُبعدون المخلصين والمؤمنين مِن حركة المجتمع، وَيقومون بتسليط المجرمين والخبثاء على رقاب الناس، وَيقتلون أهل الحق والمجاهدين، وَيفتحون المجال لبقايا الجاهلية في استلام الأُمور والتحكُّم بالمقدّرات... إنَّ هؤلاء جميعاً هُم فروع وأغصان وأوراق هَذِهِ الشجرة الخبيثة الملعونة، وَهم علامات اختبار وَمواقع امتحان للمؤمنين ولعامّة الناس في هَذِهِ الحياة الدنيا.

٢ - أعذار مُنكري الإعجاز

إنَّ بعض الجهلة والغافلين في عصرنا الحاضر، يقولون: إنَّ رسول الله ﷺ لم تكن لديه مِن معجزة سوى القرآن الكريم، ويقدّمون مُختلف الحجج مِن أجل إثبات أقوالهم وَدعاواهم، وَممّا يحتجون به قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ حيثُ يعتبرونها دليلاً على أنَّ الرّسول ﷺ لم يأتِ بمعجزة، بخلاف باقي الأنبياء السابقين.

وَلكنّ العجيب في أمر هؤلاء أنّهم التزموا بأوّل الآية وَتركوا آخرها، حيثُ تقول نهاية الآية: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ هذا التعبير القرآني يوضّح أنَّ المعجزات تقع على نوعين:

القسم الأوّل: المعجزات التي لها ضرورة لإثبات صدق دعوة الرّسول ﷺ وَتشوّق المؤمنين، وتخوّف المنكرين للنّبوة.

القسم الثّاني: المعجزات التي لها جانب اقتراحي، أي إنّها تصدر من اقتراحات المعاندين وَتنطلق مِن أمزجة ذوي الأعذار، وَفي تأريخ الأنبياء نماذج عديدة لِهَذِهِ المعجزات، التي وقع بعضها فعلاً، إلاَّ أنَّ المنكرين والذين سبق لهم اقتراح هَذِهِ المعجزات كشرط لإيمانهم، بقوا على إنكارهم وَلم يؤمنوا بعد وقوع المعجزة، لذلك أصيبوا بالبلاء والعذاب الإلهي، (لأنَّه وَقعت المعجزة المُقترحة وَلم يُؤمن بها مَن اقترحها وَطلبها فإنَّه سيستحق العقاب الإلهي السريع).

بناءً على ذلك، فما نشاهده في الآية أعلاه والتي تخص الرّسول ﷺ إنّما هي نفي للنوع الثّاني مِن المعجزات، وَلَيس للنوع الأوّل، الذي يعتبر ملازماً للنّبوة وَضرورياً لها.

صحيح أنَّ القرآن يعتبر لوحده معجزة خالدة، ويمكنه لوحده إثبات دعوى الرّسول ﷺ (إذا لم تكن معه معجزة أُخرى)، ولكن - بدون شك - فإنَّ القرآن يعتبر معجزة معنوية، وَهو أفضل شاهد بالنسبة لأهل الفكر، وَلكن لا يُمكن إنكار أهمّية أن تكون مَع هَذِهِ المعجزة، معجزات مادية محسوسة بالنسبة للأفراد العاديين وَعموم الناس، خاصّة وأنّ القرآن يتحدّث مراراً عن مِثلِ هَذِهِ المعجزات التي وَقعت للأنبياء السابقين، وَهَذَا الحديث يعتبر - بحدِّ ذاته - سبباً في أن يطالب الناس رسول الإسلام ﷺ بتقديم المعجزات التي تقع على منوال معجزات الأنبياء السابقين، خصوصاً وأنَّ الناس كانوا يقولون لرسول الإسلام: كيف تدّعي بأنّك أفضل الأنبياء وَخاتمهم وَلا تستطيع أن تقدّم لنا أصغر معجزة مِن معجزاتهم!؟

إنَّ أفضل جواب لهذا التساؤل هو مجيء رسول الإسلام ﷺ بنماذج مِن معجزات الأنبياء السابقين، والتواريخ الإسلامية المتواترة تؤكّد بأنَّ الرّسول ﷺ قد جاءَ بمثل هَذِهِ المعجزات.

ففي القرآن تواجهنا نماذج لِهَذِهِ المعجزات، مِثل التنبؤ بحوادث مُختلفة، أو نصرة الملائكة لجيش الإسلام على الأعداء، وَأُمور خارقة أُخرى لا سيّما ما كان يقع في الحروب الإسلامية.

٣ - ما العلاقة بين المنكرين سابقاً والمنكرين لاحقاً؟

قد يطرح أحياناً هَذا السؤال حيثُ يبيّن القرآن - في الآيات أعلاه - أنَّ السابقين اقترحوا معجزات معيّنة ثمّ لم يؤمنوا بعد وقوعها، بل استمروا في تكذيبهم وإنكارهم وَعِنادهم، لذا فقد أصبح هَذا سبباً لعدم إجابة مقترحاتكم.

والسؤال هُنا: هل أنَّ تكذيب السابقين يكون سبباً لحرمان الأجيال اللاحقة، أي كيف يُؤخذ هؤلاء بجريرة أُولئك؟

الجواب على هذا السؤال واضح مِن خلال ما ذكرناه أعلاه، حيثُ يسود هَذا التعبير وَيروج في أوساطنا، إذ نقول - مثلاً - لأحدهم: لا نستطيع أن نسلّم بحججك، فإذا سأل الطرف الآخر: لماذا؟ فإنّنا نقول له: إنَّ هُناك سوابق كثيرة لِهَذا العمل، فهناك مَن قدَّم اقتراحات إلاّ أنّهم لم يستسلموا للحق لمّا جاءهم، لذا فإنَّ وَضعكم وَظروفكم تشابه أُولئك، إضافة لذلك، فإنّكم توافقون أُولئك الأقوام على أساليبهم، بل وَتدعمونها، وأثبتّم عملياً أنّكم لا ترغبون في البحث عن الحق والحقيقة، بل إنّ هدفكم هو مجرّد

العناد والتحجج والبقاء في طور المعاذير، ثمّ تتبعون ذلك كلّه بالعناد والمكابرة والإنكار، لذا فإنَّ الرضوخ إلى مُقترحاتكم وإجابتها لا معنى له.

فهؤلاء القوم - مثلاً - عِندما أخبرهم الرّسول ﷺ بأنَّ أهل النّار يأكلون مِن شجرة تسمّى (زقوم) وَتخرج في أصل الجحيم وَلها أوصاف معيّنة، بدأوا بالسخرية والاستهزاء - كما ذكرنا سابقاً - فالبعض مِنهم كان يقول: إنَّ الزقوم هو التمر والسمن، وَبعض كان يقول: كيف تنمو الأشجار في الجحيم الذي تستعر فيه الحجارة؟ في حين أنّ المعنى واضح وَلا يحتاج إلى مِثل هَذِهِ المكابرة والعناد، إذ إنَّ الشجرة المقصودة لا تشبه أشجار هَذِهِ الدنيا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

التّفسير

مكر إبليس

هَذِهِ الآيات تُشير إلَى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر الله في السجود لآدم عليه السلام، والعاقبة السيئة التي انتهى إليها.

إنّ طرح هَذِهِ القضية بعد ما ذُكِرَ عن المشركين المعاندين هو إشارة - في الواقع - إلى أنَّ الشيطان يعتبر نموذجاً كاملاً للاستكبار والكفر والعصيان. ثمّ انظروا إلى أين وَصلت عاقبته؟ لذا فإنَّ مَن يتبعهُ سيصير إلى نفس العاقبة.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ إصرار الضالّين عميان القلوب على مخالفة الحق، لا يعتبر مدعاةً للعجب والدهشة، لأنَّ الشيطان استطاع - وفقاً لما يُستفاد مِن هَذِهِ الآيات - أن

يغويهم بواسطة عدّة طرق، وَفي الواقع حقق فيهم قولته: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾[1].

الآية تقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾. لقد قُلنا سابقاً في نهاية الآيات الخاصّة بخلق آدم عليه السلام: إنَّ هَذِهِ السجدة التي أمر الله تعالى بها هي في الحقيقة نوع مِن الخضوع والتواضع بسبب عظمة خلق آدم عليه السلام وَتميّزه عن سائر الموجودات، أو هي سجود للخالق جلّ وعلا في قبال خلقه لهَذا المخلوق المتميز.

وقلنا هُناك أيضاً: إنَّ إبليس وَبرغم ذكره هُنا - استثناءً - مَع الملائكة، إلاّ أنَّهُ - بشهادة القرآن - لم يكن مِن الملائكة، بل كانَ مخلوقاً مادياً ومِن الجن، وَقد أصبحَ في صف الملائكة بسبب عبادته لله.

على كلّ حال، فقد سيطر الكبر والغرور على إبليس وتحكّمت الأنانية في عقله، ظنّاً مِنهُ بأنَّ التراب والطين اللذان يعتبران مصدراً لكلّ الخيرات وَمنبعاً للحياة أقل شأناً وأهمّية من النّار، لذا اعترض على الخالق جلَّ وَعلا وَقال: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

وَلكنَّهُ عِندما طُرِدَ - إلى الأبد - مِن حضرة الساحة الإلهيّة بسبب استكباره وَطغيانه في مقابل أمر الله له، قال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

«أحتنكن» مشتقّة مِن «احتناك» وَهي تعني قطع جذور شيء ما، لذا فعندما يأكل الجراد المزروعات تقول العرب: احتنكَ الجراد الزرع، لذا فإنَّ هذا القول يشير إلى أنّ إبليس سيحرف كلّ بني آدم عن طريق الله وَطاعته، إلاّ القليل مِنهم. وَيحتمل أن تكون كلمة (احتنكن) مُشتقة مِن (حنك) وَهي المنطقة التي تحت البلعوم، فعندما يوضع الحبل في رقبة الحيوان تقول العرب (احتنك الدابة)، وَفي الواقع، فإنَّ الشيطان يريد أن يقول بأنَّهُ سيضع حبل الوسوسة في أعناق الناس وَيجرّهم إلى طريق الغواية والضلال.

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

(٢) ذهب المفسّرون إلى أنَّ حرف الكاف في كلمة (أرأيتك) زائد، أو هو حرف للخطاب وَقد جاء للتأكيد، وَجملة (أرأيتك) بمعنى (أخبرني) جوابها محذوف وَتقديرها (أخبرني عن هَذا الذي كرمته عليّ، لِمَ كرمته عليّ وَقد خلقتني مِن نار؟). وَلكن هُناك احتمال آخر، وَهو أنَّ (أرأيت) هي في نفس معناها الأصلي وَلا يوجد محذوف في الجملة، وَبشكل عام تعطي هذا المعنى: هل لاحظت هذا الموجود الذي فضلته عليّ، فإذا أبقيتني على قيد الحياة سترى بأنّي سأضل أكثر أبنائه. (الاحتمال الثّاني أوفق في تركيب الآية وَمعناها).

وهكذا كان، فقد أعطي الشيطان إمكانية البقاء والفعّالية حتى يتحقق الاختبار للجميع، وَيكون وجوده سبباً لتمحيص واختبار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عِندما تهاجمهُ الحوادث وَيقوى عوده في مُواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾. وبهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل مِن الناجح في الامتحان الإلهي الكبير.

ثمّ ذكرت الآيات بعد ذلك - بأسلوب جميل - الطرق التي ينفذ مِنها الشيطان والأساليب التي يستخدمها في الوسوسة والإغواء فقالت:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ. . .﴾.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

﴿وَعِدْهُمْ﴾.

ثمّ يجيء التحذير الإلهي: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثمّ اعلم أيّها الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

بحوث

١ - في معاني الكلمات

«استفزز» مُشتقة مِن «استفزاز» وَهي تعني الإثارة؛ الإثارة السريعة والعادية، وَلكنّ الكلمة في الأصل تعني قطع شيء ما، فالعرب تقول «تفزّز الثوب» إذا تقطّع أو انفصلت منهُ قطعة.

واستعمال هَذِهِ الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص وإثارته لينقطع عن الحق ويتوجه نحو الباطل.

«اجلب» مأخوذ مِن «إجلاب» وَفي الأصل مِن «جلبة» وَهي تعني الصرخة الشديدة، والإجلاب تعني الطرد مَع الأصوات والصرخات. وأمّا النهي عن «الجلب» الوارد في الرّوايات فهو إمّا أن يعني أنَّ الذي يذهب إلى المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا يصيح وَيصرخ بحيث يُخيف الأحياء، أو أنَّهُ يعني أنَّ على المتسابقين عِند سباق الخيل أن لا يصرخوا في وجوه الخيل الأُخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل» لها معنيان، فهي تعني «الخيول» وأيضاً تعني (الخيالة)، أمّا في هَذِهِ الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثّاني.

أمّا «رَجِل» فهي تعني معكوس (الخيالة) أي (جيش الرجّالة والمشاة) وَبهذا يتكوّن جيش الشيطان مِن (الخيالة والرجّالة) من جنسه أو من غير جنسه، وَهذا يعني أنَّ البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطانَ وَيصبح مِن أعوانه وَمساعديه فهؤلاء كالخيّالة، أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء وَعلى مهل كالمشاة والرجّالة(١)!

٢ - وَسائل الشيطان المختلفة في الوسوسة والإغواء

بالرغم مِن أنَّ المخاطب في الآيات أعلاه هو الشيطان، وأنَّ الله جلَّ جلاله يتوعّده وَيقول له: افعل كلّ ما تريده في سبيل غواية الناس، واستخدم كلّ طرقك في ذلك، إلاَّ أنَّ هَذا الوعيد - في الواقع - هو تهديد وَتنبيه لنا نحنُ بني الإنسان حتى نعرف الطرق التي ينفذ مِنها الشيطان والوسائل التي يستخدمها في وساوسه وإغوائه.

الطريف في الأمر أنَّ الآيات القرآنية أعلاه تشير إلى أربعة طرق وأساليب مهمّة وأساسية مِن أساليب الشيطان، وَتقول للإنسان: عليك بمُراقبة نفسك مِن خلال الجوانب الأربعة هَذِهِ:

أ: **البرامج التبليغية**: التي تجد دلالتها في التعبير القرآني ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ حيث اعتبر بعض المفسّرين أنّها تعني - فقط - أنغام الموسيقى الشهوانية المثيرة، والأغاني المبتذلة، ولكن هَذا المعنى يتّسع حتى يشمل جميع البرامج الدعائية التي تقود للانحراف والتي تستخدم - عادة - الأجهزة الصوتية وَالسمعية.

لهذا فإنَّ أوّل برامج الشيطان هو الاستفادة مِن هذِهِ الأجهزة. هَذِه القضية تتوضّح في زماننا هَذا أكثر، لأنَّ عالمنا اليوم هُوَ عالم الأمواج الراديوئيّة، وَعالم الدعاية والتبليغ الواسع، سواء كان على الصعيد السمعي أو البصري. حيثُ إنَّ الشياطين وأحزابهم في الشرق والغرب يعتمدون على هَذِه الأجهزة وَيخصصون قسماً كبيراً مِن ميزانيتهم للصرف في هَذا الطريق حتى يستعمروا عبيد الله، وَيُحرفوهم عن طريق الحق والاستقلال، وَيزيغوا بهم عن طريق الهداية والإيمان والتقوى، وَيجعلون مِنهم عبيداً تابعين لا حول لهم وَلا قوة.

(١) في معاني المفردات تُراجع مفردات الراغب، وتفسير مجمع البيان.

ب: **الاستفادة مِن القوة العسكرية**: وَهذا لا يخص زماننا حيثُ إنَّ الشياطين يستخدمون القوّة العسكرية لأجل الحصول على مَناطق للنفوذ، إنَّ الأداة العسكرية تعتبر أداةً خطرة لكلّ الظالمين والمستكبرين في العالم. فهؤلاء وَفي لحظة واحدة يصرخون في قواتهم العسكرية وَيرسلونها إلى المناطق التي تحاول الحصول على حريّتها واستقلالها وتسعى إلى الاعتماد على قدراتها الخاصّة.

وَفي عصرنا الحاضر نرى أنّهم نظّموا ما يسمّونه بقوات (التدخل السريع) والذي هو نفس مفهوم (الإجلاب) القرآني، وَهذا يعني أنّهم جعلوا جزءاً مِن قواتهم العسكرية على شكل قوات خاصّة كي يستطيعوا إرسالها في أسرع وقت إلى أي منطقة مِن مَناطق العالم تتعرض فيها مصالحهم غير المشروعة للخطر، لكي يقضوا بواسطة هَذِهِ القوات على أيّ حركة تطالب بالحق وتنادي بالاستقلال.

وَقبل أن تصل القوات السريعة الخاصّة هَذِهِ، يكون هؤلاء قد هيأوا الأرضية بواسطة جواسيسهم الماهرين، والذين هُم في الواقع كناية عن جيش المشاة (الرجّالة).

إنَّ هؤلاء في مخططاتهم هَذِهِ قد غفلوا عن أنَّ الله سبحانه وَتعالى قد وَعَدَ أولياءه الحقيقيين - في نفس هَذِهِ الآيات - بأنَّ الشيطان وَجيشه لا يستطيع أن يسيطر عليهم.

ج: **البرامج الإقتصادية ذات الظاهر الإنساني**: مِن أساليب الشيطان الأُخرى المؤثّرة في النفوذ والغواية، هي المشاركة في الأموال والأنفس، وَهُنا نرى أيضاً: أنّ بعض المفسّرين يخصص هَذِهِ المشاركة بـ(الربا)، أمّا المشاركة في الأولاد فيحصر معناها بـ«الأولاد غير الشرعيين»(١).

في حين أنَّ هاتين الكلمتين لهما معاني أوسع، إذ تشمل جميع الأموال المستحصلة عن طريق الحرام، والأبناء غير الشرعيين وغيرهم. فمثلا في زماننا الحاضر نشاهد أنَّ الشياطين المستكبرين يقترحون دائماً استثمار وتأسيس الشركات، وإيجاد مُختلف المصانع والمصالح الاقتصادية في الدول الضعيفة، وَتحت غطاء هَذِهِ الشركات تتم مُختلف أشكال النشاطات الخطرة والضارَّة بالبلد المستضعف، حيث يرسل الشياطين

---

(١) وَردت روايات مُتعدِّدة في أنَّ مشاركة الشيطان في الأولاد تعني الأبناء غير الشرعيين، أو المنعقدة نطفتهم مِن مال حرام، أو انعقاد النطفة في لحظة غفلة الوالدين عن الخالق، وَلكن - كما قلنا مرّات - إنَّ هَذِهِ التفاسير تبيّن جانباً مِن المصداق الواضح وَهي ليست دليلاً على حصر المعنى. (راجع تفسير نور الثقلين، ج الثّالث، صفحة ١٨٤).

جواسيسهم تحت عنوان خبراء فنيين أو مستشارين اقتصاديين أو مهندسين تقنيين، وَيقوم هؤلاء جميعاً بامتصاص خيرات البلد الذين هم فيه بأبرع الحيل وأظرفها، وَيقفون حائلاً بين البلد وَبين تحقيقه لاستقلاله الاقتصادي على بُنية اقتصادية تحتية حقيقية.

وَعن طريق تأسيس المدارس والجامعات والمكتبات والمستشفيات والمراكز السياحية، فإنّهم يشاركون هذه الدول الضعيفة في أبنائها حيثُ يحاولون أن يستميلوا هؤلاء نحوهم، وأحياناً عن طريق توفير (المنح الدراسية) للشباب، فإنّهم يقومون (بجلبهم) نحو ثقافتهم وَيشاركونهم في أفكارهم، وَما يترتب على ذلك مِن فساد العقيدة.

ومن الأساليب الرائجة والمخرّبة لهؤلاء الشياطين إيجاد مراكز الفساد تحت غطاء الفنادق العالمية وإيجاد المناطق الترفيهية ودور السينما والافلام المبتذلة وأمثال ذلك، حيث لا تكون هذه الوسائل أدوات لترويج الفحشاء وزيادة أولاد الزنا فحسب، بل تؤدّي إلى انحراف جيل الشباب وتميّعهم وتغرّبهم، وتصنع منهم أشخاصاً فاقدين للإرادة، وكلّما أمعنا النظر في دسائسهم ومكرهم تكشّفت لنا الأخطار الكبيرة الكامنة في هذه الوساوس الشيطانية.

د: برامج التخريب النفسي: مِن البرامج الأُخرى التي يتّبعها الشياطين، الاستفادة مِن الوعود والأُمنيات الكاذبة التي يطلقونها بمختلف الحيل، فهؤلاء الشياطين يعدّون مجموعة ماهرة وَمتمكنة مِن علماء النفس لغواية الناس البسطاء مِنهم والأذكياء، كلاً بما يناسب وَضعه، ففي بعض الأحيان يصوّرون لهم حالهم بأنّهم سيصبحون قريباً مِن الدول المتمدنة والكبيرة، أو أنَّ شبابهم لا مثيل له، وَيستطيع الشباب في بلدانهم أن يصل مِن خلال اتّباع برامجهم إلى أوج العظمة، وَهكذا في بلدانهم يغرقوهم في هذه الخيالات الواهية التي تتلخّص في جملة ﴿وَعِدْهُمْ﴾.

في أحيان أُخرى يسلك الشياطين طريقاً معكوساً، إذ يصوّرون للبلد بأنَّهُ لا يستطيع مُطلقاً مُواجهة القوى الكبرى، وأنّهم مُتأخرون عن هَذِهِ القوى بمائة عام أو أكثر، وَبهذا الأسلوب تُزرع المبررات النفسية لاستمرار التخلّف وعدم انطلاق جهود البلد الضعيف نحو العمل والبناء الحقيقي.

بالطبع هَذِهِ القصّة لها بدايات بعيدة، وَطرق نفوذ الشيطان فيها لا تنحصر بواحد أو اثنتين.

وَلكنَّ (عباد الله) الحقيقيين والمخلصين، وَبالاتكاء على الوعد القرآني القاطع بالنصر، والذي تضمنته هَذِهِ الآيات، سيقومون بمحاربة الشياطين وَلا يسمحون بالتردد يساور أنفسهم، وَهم يعلمون - برغم الأصوات الكثيرة للشياطين - أنّهم سينتصرون، وأنّهم بصبرهم وَصمودهم وبإيمانهم وَتوكّلهم على الله سوف يُفشِلون الخطط الشيطانية، وَذلك قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

٣ - أمّا لماذا خلق الله الشيطان؟ فقد بحثنا ذلك في الآية ٣٩ مِن سورة البقرة. وَفيما يخص وَساوس الشيطان وَأشكالها وَلبوساتها، وَمعنى الشيطان في القرآن، فقد بحثنا كلّ ذلك في ذيل الآية ١٣ من سورة الأعراف. والآية ٣٩ من سورة البقرة من هذا التّفسير.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ
إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ
أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن
يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ
لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

التّفسير

لماذا الكفران مع كل هذه النعم؟

هَذِهِ الآيات تابعت البحوث السابقة في مجال التوحيد ومحاربة الشرك، وَدخلت في البحث مِن خلال طريقين مُختلفين، هما: طريق الاستدلال والبرهان، وَطريق الوجدان وَمخاطبة الإنسان مِن الداخل.

ففي البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالي فتقول: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾.

طبعاً هُناك أنظمة لأجل حركة الفلك في البحار، فمن جانب ينبغي وجود الماء بشكل يصلح لمسير السفن، ومن جانب آخر لابدّ من توفر بعض الأشياء التي تكون أخف مِن الماء كي يمكن لها أن تطفو على سطحه، وإذا كانت أثقل فيمكن صناعتها بشكل بحيث

تكون أخف مِن الماء وَتستطيع أن تتحمَّل وزن الأحمال الثقيلة والأعداد الكثيرة مِن البشر، ومِن جانب ثالث يلزم وجود القوّة المحرّكة والّتي كانَ الهواء يُمثّلها في السابق، حيث كان البحّارة يستفيدون مِن حركة التيّارات الهوائية فوق المحيطات والبحار لتحديد أوقات وَسرعة واتجاه السفن، واليوم يستفاد مِن طاقة البخار وأشكال الطاقة الأُخرى في حركة السفن.

مِن جانب آخر ينبغي وجود أُسلوب لتحديد الطرق، وَهَذا الأُسلوب كانَ سابقاً يعتمد على الشمس والنجوم في السماء، أمّا اليوم فإنَّ السفن تستفيد مِن البوصلات والخرائط والإحداثيات الدقيقة. على أي حال، إذا لم تتوافر هَذِهِ الشروط الأربعة ولم يكن ثمّة تنسيق بينها فإنَّ حركة السفن تصبح أمراً مستحيلاً، ولا يكون الإنسان قادراً على الاستفادة مِن هَذِهِ الوسيلة المهمّة.

تعلمون - طبعاً - بأنَّ السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، واليوم فإنَّ هُناك مِن السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾. حتى تساعدكم في أسفاركم وَنقل أموالكم وَتجارتكم وتعينكم في كلّ ما يخصّ أُمور دنياكم ودينكم. أمّا لماذا؟ فلأنَّ الله تبارك وَتعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾.

مِن هَذا التوحيد الاستدلالي والذي يعكس جانباً صغيراً مِن نظام الخلق، وَعلم وَقدرة وَحكمة الخالق جلَّ وَعلا، تنتقل الآية إلى أُسلوب الاستدلال الفطري فتقول: لا تنسوا ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾.

حيث يضل أي شيء مِن دون الله، لأنَّ ضرر البحر إذا وقع، كالطوفان وَغيره يذهب بكلّ الحواجز وأستار التقليد والتعصّب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة الذي هو نور التوحيد والإيمان والعبودية لله دون غيره.

نعم في هَذِهِ اللحظات، في لحظات الأزمة ينقطع الإنسان عن جميع المعبودات التصورية والوهمية والخيالية التي سبق وأن أعطاها قوّة بسبب أوهامه، وَتمحى مِن ذهنه فاعليتها ووجودها وتتلاشى وتذوب تماماً كما يذوب الجليد في شمس الصيف ولا يبقى حين ذاك سوى نور الأنوار... نور الله جلَّ جلاله.

إنَّ الآية تعبِّر عن قانون عام، عرفهُ كلّ مَن جرَّب ذلك، حيثُ تؤدّي المشاكل والصعوبات الحادّة التي يمرّ بها الإنسان - ويصل السكين العظم - إلى الغاء كلّ

الأسباب الظاهرية التي كان يتعلّق بها الإنسان، وتَنعدم فاعلية العلل المادية التي كان يتشبث بها، وتنقطع كلّ الأسباب، إلاّ السبب الذي يصل الإنسان بمصدر العلم والقدرة المطلقتين، والذي هو - لوحده سبحانه وتعالى - قادر على حلّ أعقد المشكلات. . . لَيسَ مهمّاً هُنا ما الذي نسمّي فيه هَذِهِ الحالة، وإنّما المهم أنّ نعلم أنّ قلب الإنسان فِي هَذِهِ الحالة ينفتح على الأمل بالخلاص، وتغمر القلب بنور خاص لطيف. وَهِذِهِ المنعطفات هي واحدة مِن أقرب الطرق إلى الله، إنّها طريق ينبع مِن داخل الروح وَمِن سويداء القلب(١).

ثمّ تضيف الآية: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

مرّةً أُخرى تُغطّي حجب الغرور والغفلة والتعصّب هَذا النور الإلهي، وَيغطّي غبار العصيان والذنوب وَملاهي الحياة المادية فطرة الإنسان ووجدانه.

ولكن هل تظنون أنَّ الله لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد وأنتم على اليابسة وفي قلب الصحاري والبراري؟

لذلك تقول الآية: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ ثمّ أضافت: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾، حيث تغشيكم عاصفة محمّلة بالحصي والحجارة وتدفنكم تحتها ولا تجدون من ينقذكم منها (وفي ذلك من العذاب ما هو أشدّ من الغرق في البحر).

إنَّ المتجولين في الصحاري وأهل البوادي يدركون أكثر مِن غيرهم رهبة هَذا التهديد الرّباني والوعيد القرآني، إذ يعرفون كيف تؤدّي ثورة الكثبان الرملية في الصحراء إلى دَفع الرمال والأحجار إلى غير مواقعها لِتشكّل تلالاً تدفن في ثناياها وبطونها قوافل الجمال وَمَن عليها.

بعد ذلك تضيف الآية مذكّرة أمثال هؤلاء بأنّكم هل تظنون أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي تحتاجون فيها إلى السفر في البحر: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾، أي لا أحد حينئذ يطالب بدمكم ويثأر لكم منّا.

(١) طالع الشّرح الكامل للتوحيد الفطري في كتاب (خالق العالم)، ولاحظهُ أيضاً في نهاية الآية (١٤) مِن سورة النحل حيث أشرنا إلى هَذِهِ المسألة.

بحوث

١ - الشّخصية المتقلّبة

إنَّ الكثير مِن الناس لا يذكرون الله إلاَّ عِندَ بروز المشاكل. وَينسونه في الرخاء، إنَّ نسيان الله في حياة هؤلاء هو القاعدة والأصل، أي أنّه صار طبيعة، ثانية لهؤلاء، لذا فإنَّ ذكر الله بالنسبة لهؤلاء والالتفات إلى وَقائع الحياة الحقَّة تعتبر حالة استثنائية في وجودهم، تحتاج في حضورها إلى عوامل إضافية، فما دامت هَذِهِ العوامل الإضافية موجودة فهم يذكرون الله، أمّا إذا زالت فسوف يرجعون إلى طبيعتهم المنحرفة وَينسون الله.

والخلاصة، أنّنا لا نجد من الناس بصورة عامّة مَن لا يلجأ إلى الله وَلا يخضع له عِندما تضغطه المشاكل الحادَّة والصعبة، وَلكن ينبغي أن نعرف أنّ الوعي وذكر الله تعالى في مثل هذه الظروف، والذي نستطيع أن نصفهُ بالوعي الإجباري، هو وعي عديم الفائدة.

إنَّ المؤمنين والمسلمين الحقيقيين، يذكرون الله في الراحةِ والبلاء والسلامة والمرض والفقر والغنى، في السجن وعلى كرسي الحكم، وَفي أيّ وَضع كان. إنَّ تغيير الأوضاع وَتبدُّل الحالات لا يغيِّر هؤلاء، إنَّ أرواحهم كبيرة بحيث تستوعب كلّ هَذِهِ الأُمور، مَثلهم في ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام، حيثُ كانت عبادته وَزهده وَمُتابعته لأمور الفقراء لا تختلف عِندَ وجوده في السلطة، أو عندما كان جليس بيته.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول في وَصف المتقين: «نُزّلت أنفسهم مِنهم في البلاء كالتي نُزّلت في الرخاء»[1].

وخلاصة القول: إنَّ الإيمان والارتباط بالله وَعبادته والتوسل بِهِ والتوبة إليه والتسليم له سبحانه وَتعالى، كلّ هَذِهِ الأُمور تكون مهمّة وَثمينة وَذات أثر عِندما تكون دائمية وَثابتة، أمّا الإيمان الموسمي والتوبة والعبادات الموسمية، والتي تفرضها حالات خاصّة يمرّ بها الإنسان وَيبغي مِن خلالها جلب بعض المنافع له، فليسَ لها أثر وَلا قيمة، والآيات القرآنية توبّخ أمثال هؤلاء الأشخاص دائماً.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٣.

٢ - لا يمكن الهروب مِن حكومة الله

البعض يتوجّه إلى الله (مِثل عبدة الأصنام في الجاهلية) عِندما يكون في وَسط البحر أو عِندما يكون على هاوية السقوط والخطر أو في حالِ مرض شديد، في حين أنّنا إذا فكّرنا بشكل صحيح نرى أنَّ الإنسان معرّض للخطر والضرر في كلّ الأزمنة والحالات والأوقات، فالبحر والبر والصحراء والمرض والهاوية وَغيرها، هي في الواقع مُتساوية الخطورة. إنَّ هزّة أرضية واحدة يمكنها أن تدمِّر بيتنا الآمن الهادىء، وإنَّ تخثراً بسيطاً في الدم يمكنُه أن يغلق مسير الدم في الشريان الأبهر فيؤثّر على القلب أو على الدماغ فتحدث السكتة القلبية أو الدماغية، وَبعد ثانية واحدة يكون الموت هو المصير المحتوم، مَع وجود كلّ هَذِهِ الأُمور نعلم أنّ الغفلة عن الله تعالى كم هي مجانبة للصواب!!

قد يقوم هُنا أنصار نظرية تعليل الإيمان - والدين بشكل عام - على أساس الخوف، بتبرير هَذِهِ الحالة بقولهم: طالما أنَّ الخوف في الإنسان غريزي وَفطري، فإنَّ خوفه مِن العوامل الطبيعية يجعل الإنسان يتوجّه نحو الخالق. وَمثل هَذِهِ الحالات والأوضاع التي تحدّثت عنها الآيات تدعم هَذا التصوّر وَتعضده.

الآيات القرآنية أجابت على هَذِهِ الأوهام، إذ أبانت أنَّ القرآن لم يجعل - أبداً - معرفة الخالق قائمة على هَذِهِ الأُمور، بل إنَّ الأساس هو قراءة في نظام الكون والوجود ومعرفة الله تعالى مِن خلال هَذا الخلق، وَحتى في الآيات أعلاه نرى أنّها ذكرت أوّلاً الإيمان الاستدلالي قبل ذكر التوحيد والإيمان الفطري، وَفي الواقع فإنّها تعتبر هَذِهِ الحوادث بمثابة تذكير بالخالق لا مِن أجل معرفته، إذ إنّ معرفته لطلاّب الحق تتوضّح مِن خلال أسلوب الاستدلال وَعن طريق الفطرة.

٣ - معاني الكلمات

﴿يُزْجِى﴾ مأخوذة مِن «إزجاء» وَهي تعني تحريك شيء ما بشكل مستمر.

«حاصب» تعني الهواء الذي يحرّك معهُ الأحجار الصغيرة ثمّ تضرب الواحدة بعد الأُخرى مكاناً معيّناً، وَهي مُشتقّة أصلاً مِن (حصباء) التي تعني الأحجار الصغيرة (الحصى).

«قاصف» بمعنى المحطّم، وَهي هُنا تشير إلى العاصفة الشديدة التي تقلع كلّ شيء مِن مكانه.

«تبيع» بمعنى تابع، وَهي تشير هُنا إلى الشخص الذي ينهض للمطالبة بالدم، وَثمن الدم والثأر وَيستمر في ذلك.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

التّفسير

الإنسان سيّد الموجودات

إنَّ واحدة مِن أبرز طرق الهداية والتربية، هي التنويه بشخصية الإنسان وَمكانته وَمواهبه، لذا فإنَّ القرآن الكريم وَبعد بحوثه عن المشركين والمنحرفين في الآيات السابقة، يقوم هُنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان والمواهب التي منحها إيّاها ربّ العالمين، لكي لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، وَلا يبيع نفسهُ بثمن بخس، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

ثمّ تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام مِن المواهب الإلهيّة التي حباها الله لبني البشر، هَذِهِ المواهب هي أوّلاً: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

ثمّ قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ومع الالتفات إلى سعة مفهوم ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الذي يشمل كلّ موجود طيّب وطاهر تتّضح عظمة وشمولية هذه النعمة الإلهيّة الكبيرة.

أمّا القسم الثّالث مِن المواهب فينص عليه قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

بحوث

أوّلاً: وسيلة النقل أوّل نعمة للإنسان

الملاحظة التي تلفت النظر هُنا، هي: لماذا اختار الله قضية الحركة على اليابسة وَفي البحار، وأشار إليها أوّلاً مِن بين جميع المواهب الأُخرى التي وَهبها للإنسان؟

قد يكون ذلك بسبب أنَّ الاستفادة مِن الطيبات وأنواع الأرزاق لا يحدث بدون الحركة، حيثُ إنَّ حركة الإنسان على سطح الكرة الأرضية تحتاج إلى وسيلة نقل، إذ إنَّ الحركة هي مقدمة لأيّ بركة.

أو أنَّ السبب قد يكون لإظهار سلطة الإنسان على الكرة الأرضية الواسعة بما في ذلك البحار والصحاري. إذ إنَّ لكلّ نوع مِن أنواع الموجودات سلطة على جزء محدود مِن الأرض، أمّا الإنسان فإنَّهُ يحكم الكرة الأرضية ببحارها وَصحاريها وهوائها.

ثانياً: تكريم الإنسان مِن قبل الخالق

بأيّ شيء كرَّم الله الإنسان؟ الآية تقول بشكل مجمل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

بين المفسّرين كلام كثير عن مصداق هَذا التكريم، فالبعض يعزو السبب لقوّة العقل والمنطق والاستعدادات المختلفة وَحرية الإرادة، أمّا البعض الآخر فيعزو ذلك إلى الجسم المتّزن والجسد العمودي، والبعض يربط ذلك بالأصابع التي يستطيع الإنسان القيام بواسطتها بمختلف الأعمال الدقيقة، وأيضاً تمنحهُ القدرة على الكتابة.

والبعض يعتقد أنّ التكريم يعود إلى أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يأكل طعامه بيده.

وهناك مَن يقول: إنّ السبب يعود إلى سلطة الإنسان على جميع الكائنات الأرضية.

وهناك مِن المفسّرين من يعزو التكريم إلى قدرة الإنسان على معرفة الله، والقدرة أيضاً على إطاعة أوامره.

لكن مِن الواضح أنَّ جميع هَذِهِ المواهب موجودة في الإنسان وَلا يوجد تضاد بينها، لذا فإنَّ تكريم الخالق لِهَذا المخلوق الكريم يتجلّى من خلال جميع هَذِهِ المواهب وَغيرها.

خلاصة القول: إنَّ الإنسان لهُ امتيازات كثيرة على باقي المخلوقات، وَهَذِهِ الامتيازات الواحدة منها أعظم مِن الأُخرى؛ فمضافاً إلى الامتيازات الجسمية، فإنَّ روح الإنسان لها مجموعة واسعة مِن الاستعدادات والقدرات الكبيرة التي تؤهّلُهُ لطي مسيرة التكامل بشكل غير محدود.

ثالثاً: الفرق بين ﴿كَرَّمْنَا﴾ و﴿فَضَّلْنَا﴾

هُناك آراء كثيرة حول التفاوت بين ﴿كَرَّمْنَا﴾ وَ ﴿فَضَّلْنَا﴾ فالبعض يقول: إنّ ﴿كَرَّمْنَا﴾

هي إشارة إلى المواهب التي أعطاها الله ذاتاً للإنسان، بينما ﴿فَضَّلْنَا﴾ إشارة إلى الفضائل التي اكتسبها الإنسان بسبب توفيق الله.

هُناك احتمال قوي بأنّ ﴿كَرَّمْنَا﴾ إشارة إلى الجوانب المادية، أمّا ﴿فَضَّلْنَا﴾ فهي إشارة إلى المواهب المعنوية، لأنَّ كلمة ﴿فَضَّلْنَا﴾ غالباً ما تأتي في القرآن بهذا المعنى.

رابعاً: ما معنى كلمة ﴿كَثِيرٍ﴾ في الآية؟

بعض المفسّرين يعتبرون الآية الآنفة دليلاً على أفضلية الملائكة على بني الإنسان، فالقرآن يقول بأنَّ الإنسان مفضّل على أكثر المخلوقات، وَتبقى مجموعة لا يكون الإنسان أفضل مِنها، وَهَذِهِ المجموعة ليست سوى الملائكة.

وَلكن بملاحظة آيات خلق آدم وسجود الملائكة وَتعليمهم (الأسماء) مِن قبل آدم، لا يبقى شك في أنَّ الإنسان أفضل مِن الملائكة.

لذا فإنَّ كلمة ﴿كَثِيرٍ﴾ تعني هُنا (جميع). وَكما يقول المفسّر الكبير الشّيخ الطبرسي في مجمع البيان، فإنَّ استخدام كلمة ﴿كَثِيرٍ﴾ بمعنى (جميع) يعتبر عادياً وَوارداً في القرآن الكريم وَفي لغة العرب.

وَهكذا يكون معنى الجملة حسب تفسير الطبرسي لها هو: «إنّا فضلناهم على مَن خلقناهم، وهم كثير».

فالقرآن يقول عن الشياطين في الآية ٢٢٣ مِن سورة الشعراء: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ بينما مِن البديهي أنَّ كلّ الشياطين كاذبين وَليس أكثرهم، وَإنّما استخدمت الآية ﴿كَثِيرٍ﴾ بمعنى (الجميع).

على أي حال، إذا اعتبرنا المعنى خلافاً للظاهر، فإنَّ آيات خلق الإنسان ستكون قرينة واضحة لذلك.

خامساً: لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟

لا يعد الجواب على هَذا السؤال معقّداً، إذ إنّنا نعلم أنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتكوّن مِن قوى مُختلفة، مادية وَمعنوية؛ جسمية وَروحية، وَينمو وَسط المتضادات، وَلهُ استعدادات غير محدودة للتكامل والتقدُّم.

وَهُناك حديث معروف للإمام علي عليه السلام وَهو شاهد على ما نقول، إذ يقول فيه: «إنَّ الله عزّوجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب

في بني آدم كلتيهما؛ فمن غلب عقله شهوته فهو خيرٌ مِن الملائكة، وَمن غلبت شهوته عقله فهو شرٌّ من البهائم»[(١)].

وَهُنا يبقى سؤال واحد: هل أنَّ جميع البشر أفضل مِن الملائكة، في حين يوجد بين البشر الكفار والمجرمون والظالمون، وَهَؤلاء يُعتبرون مِن أسوأ خلق الله... بعبارة أُخرى: هل أنَّ كلمة (بني آدم) في الآية تنطبق على جميع البشر أم على قسم مِنهم؟

يمكن تلخيص الإجابة على هذا السؤال في جملة واحدة هي: نعم جميع البشر أفضل، وَلكن بالقوة والإستعداد، يعني أنّ الجميع يملك الأرضية ليكون أفضل، وَلكنَّهم إذا لم يستفيدوا مِن هَذِهِ الأرضية والقابلية المودعة فيهم، وسقطوا في الهاوية، فإنَّ ذلك يكون بسببهم وَيعود عليهم فقط.

وَبالرغم مِن أنَّ أفضلية الإنسان هي في المجالات المعنوية والإنسانية، وَلكن بعض العلماء ذكر أنَّ الإنسان قد يكون أقوى من سائر الأحياء حتى من جهة القوّة الجسمية بالرغم مِن أنَّهُ يعتبر ضعيفاً في مناحي أُخرى.

«الكسيس كارل» مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) يقول في كتابه واصفاً قدرات الإنسان: «إنّ جسم الإنسان مِن المتانة والإحكام والدّقة بحيث إنَّهُ يقاوم كلّ أشكال التعب والعقبات التي يتعرّض لها الوجود الإنساني مِن قلّة غذاء، وَسهر وَتعب، وهموم زائدة، وأشكال المرض والألم والمعاناة، وَهو في ثباته وَمقاومته للأشكال الآنفة يبدي استعداداً استثنائياً يبعث على الحيرة والعجب، حتى أنّنا نستطيع أن نقول: إنَّ الوجود الإنساني في تكوينه الروحي والجسدي هو أثبت الموجودات مِن ذوي الأرواح وأكثرها نشاطاً واستعداداً في مضمار الفاعلية الفكرية والجسدية التي يتضمّنها والتي أدَّت إلى تشييد المدنية الراهنة بكلّ مظاهرها»[(٢)].

الآية التي بعدها تشير إلى موهبة أُخرى مِن المواهب الإلهيّة التي حباها الله للإنسان، ورتّبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هَذِهِ المواهب.

ففي البداية تشير الآية إلى قضية القيادة وَدَورها في مستقبل البشر فتقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ يعني أنَّ الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء وأوصيائهم وَمَن ينوب عنهم في كلّ زمان وَعصر، سوف يكونون مَع قادتهم وَيحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٨.

(٢) الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كارل، ص٧٣ - ٧٤.

الشيطان وأئمّة الضلال والظالمين والمستكبرين قادةً لهم، فإنّهم سيكونون معهم وَيحشرون معهم.

خلاصة القول: إنَّ الارتباط بين القيادة والأتباع في هَذا العالم سوف ينعكس بشكل كامل في العالم الآخر، وَطبقاً لِهَذا الأمر سيتم تحديد الفرقة الناجية، والأُخرى التي تستحق العذاب.

بالرغم من أنَّ بعض المفسّرين قد حصر كلمة (إمام) بـ(الأنبياء) والبعض الآخر حصرها بمعنى (الكتب السماوية) والبعض الثّالث بـ(العلماء)، إلاّ أنَّ من الواضح أنّ كلمة (إمام) في هَذا المكان لها معنى أوسع، وتشمل أيّة قيادة سواء تمثّلت بالأنبياء أو أئمّة الهدى أو العلماء أو الكتاب والسنّة. وَيدخل في معنى الكلمة أيضاً أئمّة الكفر والضلال، وَبهذا الترتيب فإنَّ كلّ إنسان سيسلك في الآخرة مسار القائد الذي انتخبه لنفسه في الدنيا إماماً وقائداً.

هذا التعبير والإشارة إلى دَور الإمامة وَكونها مِن أسباب تكامل الإنسان، يعتبر في نفس الوقت تحذيراً لكلّ البشرية كي تدقق في انتخاب القيادة، وَلا تعطي أزِمَّةَ وجودها الفكري والحياتي بيد أيّ شخص كان.

ثمّ تقسّم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾(١). أمّا القسم الآخر فهو: من كان في الدنيا أعمى القلب: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾. وَطبيعي أن يكون هؤلاء العميان القلوب أضل من جميع المخلوقات ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فهؤلاء لا يوفّقون في هَذِهِ الدنيا لسلوك طريق الهداية، وَلا هُم في الآخرة مِن أصحاب الجنّة والسعادة، لأنّهم أغمضوا عيونهم عن جميع الحقائق وَحرّموا أنفسهم مِن رؤية الحق وآيات الله وَكلّ ما يؤدّي إلى هدايتهم، وَيقود إلى خلاصهم مِن المواهب العظيمة التي أعطاهم الله إيّاها، وَلأنّ الآخرة هي صورة مُنعكسة لوجود الإنسان في هَذه الدنيا، إذن ليسَ ثمّةَ مِن عجب في أن يُحشر هؤلاء العميان بنفس الصورة في يوم الحشر والقيامة.

---

(١) «فتيل» تعني الخيط الرقيق الموجود في شق نوى التمر، وَفي المقابل فإن (نقير) تعني مؤخرة نوى التمر، بينما تعني (قطمير) الطبقة الرقيقة التي تغطّي نوى التمر. وكلّ هذه التعابير كناية عن الشيء الصغير جدّاً والحقير.

بحوث

١ - دَور القيادة في حياة البشر

الحياة الاجتماعية للبشر في الدنيا لا يمكن أن تنفصل عن القيادة أو أن تستغني عنها، لأنَّ تحديد مسير مجموعة معيّنة يحتاج دائماً إلى قيادة، وَعادةً لا يمكن سلوك طريق التكامل بدون وجود قيادة، وَهذا هو سر إرسال الأنبياء وانتخاب الأوصياء لهم.

وَفي علوم العقائد والكلام، يُستفاد أيضاً مِن (قاعدة اللطف) في إثبات لزوم بعث الأنبياء وَلزوم وجود الإمام في كلّ زمان، وذلك لأهمّية دور القائد في تنظيم المجتمع، وَمنع الانحرافات، وَبنفس المقدار الذي يقوم بهِ القائد الإلهي والعالم والصالح بإيصال الإنسان إلى هدفه النهائي بشكل سهل وَسريع، فإنَّ التسليم لقيادة أئمّة الكفر والضلال والانقياد لهم يؤدّيان بالإنسان إلى الهاوية والشقاء.

وَفي تفسير هَذِهِ الآية تتضمّن المصادر الإسلامية أحاديث مُتعدِّدة توضّح مفهومها تبيّن الغرض مِن الإمامة.

ففي حديث تنقُلهُ الشيعة والسنة عن الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام بأسناد صحيحة أنَّهُ نقل عن آبائه عن جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حول تفسير هَذِهِ الآية قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدعى كل أناس بإمام زمانهم وَكتاب ربّهم وسنة نبيّهم»[١].

وَنقرأ عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قوله: «ألا تحمدون الله! إذا كان يوم القيامة فدعي كل قوم إلى من يتولونه وَدعينا إلى رسول الله وَفَزعتم إلينا فإلى أين ترون يذهب بكم؟ إلى الجنّة وَربِّ الكعبة - قالها ثلاثاً»[٢].

٢ - تكريم ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وَردت في القرآن الكريم كعنوان للإنسان مقرونة بالمدح والاحترام، في حين أنّ كلمة (إنسان) ذكرت مَع صفات مِثل: ظلوم، جهول، هلوع، ضعيف، طاغي، وَما شابهها مِن الأوصاف. وَهَذا يدل على أنّ بني آدم صفة للإنسان المتربي، أو على الأقل الذي لهُ استعدادات إيجابية (إنّ افتخار آدم وَتفضيله على الملائكة يؤيّد هذا

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.
(٢) المصدر السّابق.

المعنى لبني آدم). في حين أنّ كلمة (إنسان) وَردت بشكل مطلق، وأحياناً تشير إلى الصفات السلبية.

لذا فإنَّ الآيات التي نبحثها استخدمت كلمة ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لأنَّ الحديث فيها هو عن الكرامة وأفضلية الإنسان. (هُناك بحث مفصّل حول معنى الإنسان في القرآن الكريم يُمكن مُراجعتهُ في تفسيرنا هذا ذيل الآية «١١» من سورة يونس).

٣ - دَور القيادة في الإسلام

في الحديث المعروف عن الإمام محمّد بن علي الباقر عليه السلام يُنقل أنَّهُ عِندما كان يتحدّث عن الأركان الأساسية في الإسلام ذكر (الولاية) كخامس وأهم ركن، في حين أنّ الصلاة التي توضّح العلاقه بين الخالق والخلق، والصيام الذي هو رمز محاربة الشهوات، والزكاة التي تحدّد العلاقة بين الخلق والخالق، والحج الذي يكشف الجانب الاجتماعي في الإسلام، اعتبرت الأركان الأربعة الأساسية الأُخرى. ثمّ يضيف الإمام الباقر عليه السلام: «وَلَمْ ينادَ بشيء كما نودي بالولاية» لماذا؟ لأنَّ تنفيذ الأركان الأُخرى لن يتحقق إلاَّ في ظل هَذا الأصل، أي في ظل الولاية[1].

وَلِهَذا السبب بالذات روي عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله قوله: «مَن مات بغير إمام مات ميتة الجاهلية»[2].

التاريخ يشهد أنّ بعض الأُمم تكون في الصف الأوّل بين دول العالم وأُممه بسبب قيادتها العظيمة والكفوءة، ولكن نفس الأمّة تنهار وَتسقط في الهاوية، برغم امتلاكها لِنفس القوى البشرية والمصادر الأُخرى، إذا كانت قيادتها ضعيفة وَغير كفوءة.

ثمّ ألم يكن عرب الجاهلية غارقين في جهلهم وَفسادهم وَذلّتهم وانحطاطهم، وَكانوا نهشة الآكل، بسبب عدم امتلاكهم لقائد كفوء، وَلكن ما إن ظهرت القيادة الإلهيّة الرّبانية المتمثلة بالهادي محمّد صلى الله عليه وآله حتى سلك نفس القوم طريق العظمة والتكامل بسرعة كبيرة بحيث أدهش العالم، وهذا يكشف عن دَور القائد في ذلك الزمان وَهذا الزمان وَفي كلّ زمان.

---

(١) قال الباقر عليه السلام: «بني الإسلام على خمس، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وَالولاية، وَلم يُنادَ بشيء كما نودي بالولاية» عن أصول الكافي، ج٢، ص ١٨.

(٢) عن تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩٤، وَكذلك مصادر أُخرى.

طبعاً لقد جعل الله للبشرية قائداً لإنقاذ وهداية البشر في كلّ عصر وزمان، حيث تقتضي حكمتهُ أن لا تطبّق السعادة إلاّ مع وجود ضامن تنفيذي لها، والمهم أن تتعرف المجتمعات على قيادتها وأن لا يقعوا في شباك القادة الضالين والفاسدين، حيث تكون النجاة مِن مخالبهم أمراً صعباً للغاية.

وهذه هي فلسفة عقيدة الشيعة بضرورة وجود إمام معصوم في كلّ زمان، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «اللّهم بلى لا تخلو الأرض مِن قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً وإمّا خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيناته»[١].

وهناك بحث في نهاية الآية ١٢٤ مِن سورة البقرة، حول معنى الإمامة وأهمّيتها في دنيا الإنسان.

٤ - عميان القلوب

في القرآن الكريم تعابير لطيفة في وصف المشركين والظالمين، حيث يصفهم هنا بـ(الأعمى) وهذا الوصف كناية عن الحقيقة التي تقول بأنَّ الحق يكون واضحاً دوماً وفي متناول البصر إذا كانت هناك عين بصيرة تنظر، العين التي تُشاهد آيات الله في هذا العالم الواسع، العين التي تعتبر من الدروس المكتوبة على صفحات التاريخ، العين التي تُشاهد عاقبة الظالمين والمستكبرين، العين التي تنظر الحق دون غيره.

أمّا عندما تكون هناك ستائر وحجب الجهل والغرور والتعصُّب والعناد والشهوة أمام هذه العين، فإنّها لا تستطيع مشاهدة جمال الحق بالرغم مِن أنّه غير محجوب بستار.

وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية نقرأ: «مَن لم يدله خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات، على أن وراء ذلك أمرٌ أعظم مِنهُ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً»[٢].

وجاءَ في روايات مُختلفة في تفسير هذه الآية أنّها تعني الشخص الذي يكون مستطيعاً للحج ولكنَّهُ لا يؤدّيه حتى نهاية عمره[٣].

وبدون شك فإنَّ هذا المعنى هو أحد مصاديق الآية وليس كُلّها. وقد يكون ذكر هذا المصداق والتأكيد عليه مِن زاوية دفع المسلمين للمشاركة فيه لمشاهدة هذا الاجتماع

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٤٧. (٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩٦.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩٦ - ١٩٧.

الإسلامي العظيم، بما يحويه مِن أسرار عبادية ومصالح سياسية تتجلى لعين الإنسان عندما يحضر الموسم، ويتعلم الحقائق الكثيرة والمتعدِّدة مِنهُ.

وفي روايات أُخرى ورد أنَّ «شرّ العمى عمى القلب»(١).

على أي حال - كما قلنا سابقاً - فإنَّ عالم القيامة، هو انعكاس لهذا العالم في كلّ ما يحويه وجودنا مِن أفكار ومواقف ومشاعر وأعمال. لذلك نقرأ في الآيات ١٢٤ - ١٢٦ مِن سورة طه، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

سبب النّزول

لقد ذكرت أسباب مُختلفة لِنزول هذه الآيات، إلاّ أنَّ بعض هذه الأسباب لا يتلاءم مع تأريخ النّزول، وبما أنّ أسباب النّزول هذه قد استفاد مِنها بعض المنحرفين لأغراض خاصّة، لذلك سوف نقوم هنا بذكرها جميعاً:

ذكر العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان) خمسة آراء في هذا المجال، وهي:

الرأي الأوّل: قالت قريش للرّسول ﷺ: لا ندعك تلمس الحجر الأسود حتى تحترم آلهتنا، وقال الرّسول في قلبه: إنَّ الله يعلم نفرتي مِن أصنامهم وإنكاري لها، فما المانع مِن أن أنظر إلى هذه الآلة باحترام ظاهراً حتى يسمحوا لي باستلام الحجر الأسود، وهنا أنزل الله تبارك وتعالى الآيات أعلاه التي نهت الرّسول عن هذا الأمر.

الرأي الثّاني: اقترحت قريش على رسول الله ﷺ أن يترك الاستهانة بآلهتهم والاستخفاف بعقولهم، وأن يبعد عنهُ العبيد مِن أصحابه وذوي الأُصول المتواضعة،

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩٦ - ١٩٧.

والرائحة الكريهة، لكي تحضر قريش مجلسهُ ﷺ ويستمعون إليه، فطمع الرّسول ﷺ في إسلامهم، فنزلت الآيات أعلاه تحذّر مِن هذا الأمر.

الرأي الثّالث: عندما حطّم الرّسول ﷺ الأصنام التي كانت موجودة في المسجد الحرام، اقترحت قريش عليه أن يبقي الصنم الموضوع على جبل المروة قرب بيت الله، فوافق الرّسول ﷺ في البداية على هذا الاقتراح لكي يحقق مِن خلاله بعض مصالح الدعوة، إلاّ أنّهُ بعد ذلك عدل عن هذا الأمر وأعطى أوامره ﷺ بتحطيم هذا الصنم، وعندها نزلت الآيات أعلاه.

الرأي الرّابع: إنَّ مجموعة مِن قبيلة (ثقيف) وفدت على النّبي الأكرم ﷺ وعرضت عليه ثلاثة شروط لمبايعته، وكانَ شرطهم، الأوّل: أن لا يركعوا ولا يسجدوا عِند الصلاة، الثاني: أن لا يحطّموا أصنامهم بأيديهم بل يقوم الرّسول ﷺ بذلك. أمّا الشرط الثّالث: فقد طلبوا فيه مِن رسول الله ﷺ أن يسمح لهم ببقاء صنم (اللات) بينهم لمدّة سنة.

وقد أجابهم الرّسول ﷺ بأن لا فائدة في دين لا ركوع ولا سجود فيه، وأمّا تحطيم الأصنام فإذا كُنتم ترغبون في القيام بذلك فافعلوا، وإلاّ فنحن نقوم به، أمّا الاستمرار في عبادة اللات لسنة أُخرى، فلا أسمح بذلك.

بعد ذلك قام رسول الله ﷺ وتوضّأ، فالتفت عمر بن الخطاب وقال: ما بالكم آذيتم رسول الله ﷺ إنّهُ لا يدع الأصنام في أرض العرب، إلاّ أنَّ ثقيف أصرّت على مطالبها، حتى نزلت الآيات الآنفة.

الرأي الخامس: إنَّ وفد ثقيف طلب مِن رسول الله ﷺ أن يمهلهم سنة حتى يستلموا الهدايا المرسلة إلى الأصنام، وبعد ذلك يكسرون الأصنام ويسلمون، فهمَّ رسول الله ﷺ بإمهالهم وإجابتهم إلى ما أرادوا لولا نزول الآيات أعلاه التي نهت عن إجابة طلبهم بشدَّة.

وهناك أسباب أُخرى للنزول تشبه الآراء التي ذكرناها.

أقول: لا حاجة لبيان ضعف هذه الآراء إذ إنَّ بطلان أكثر هذه الآراء كامن فيها، لأنّ مجيء وفود القبائل إلى رسول الله ﷺ وطلباتهم وتحطيم الأصنام، كلّ هذه الأُمور إنّما تمّت بعد فتح مكّة في العام الثّامن للهجرة، في حين أنَّ هذه السورة نزلت قبل هجرة الرّسول، وفي وقت لم يكن فيه ﷺ يمتلك القدرة الظاهرية التي تفرض على المشركين التواضع لمقامه، وسوف نقوم بتوضيح أكثر لاحقاً.

التّفسير

بما أنَّ الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك والمشركين، لذا فإنَّ الآيات التي نبحثها تحذّر الرّسول ﷺ مِن وساوس وإغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يُبدي أدنى ضعف في محاربة الشرك وعبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابة أكبر.

في البداية تقول الآية إنّ وساوس المشركين كادت أن تؤثّر فيك: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾.

ثمّ بعد ذلك تضيف أنّه لولا نور العصمة وأنّ الله تعالى ثبّتك على الحق: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

وأخيراً لو أنّك ركنت اليهم فسوف يكون جزاؤك ضعف عذاب المشركين في الحياة الدنيا، وضعف عذابهم في الآخرة: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

بحوث

١ - هل أبدى الرّسول مرونة إزاء المشركين؟

بالرغم مِن أنَّ بعض السطحيين أرادوا الاستفادة مِن هذه الآيات لِنفي العصمة عن الأنبياء، وقالوا إنّه طبقاً للآيات أعلاه وأسباب النّزول المرتبطة بها إنَّ الرّسول ﷺ قد أبدى ليونة إزاء عبدة الأصنام، وإنَّ الله عاتبه على ذلك، إلاَّ أنَّ هذه الآيات صريحة في إفهام مقصودها بحيث لا تحتاج إلى شواهد أُخرى على بطلان هذا النوع مِن التفكير، لأنَّ الآية الثّانية تقول وبصراحة: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، ومفهوم التثبيت الإلهي (والذي نعتبرهُ بأنّهُ العصمة) أنّهُ منع رسول الله ﷺ مِن التوجّه إلى مزالق عبدة الأصنام، ولا يعني ظاهر الآية - في حال - أنّهُ ﷺ مال إلى المشركين، ثمّ نُهي عن ذلك بوحي من الله تعالى.

وتوضيح ذلك، إنّ الآية الأُولى والثّانية هما في الحقيقة إشارة إلى حالتين مُختلفتين للرّسول ﷺ، الحالة الأُولى هي الحالة البشرية والإنسانية والتي تجلّت بشكل واضح في الآية الأُولى، وبمُقتضى هذه الحالة يُمكن تأثير وساوس الأعداء في الرّسول ﷺ خاصّة إذا كانت ثمّة مرجّحات في إظهار الليونة والتوجّه إليهم، مِن قبيل رغبته ﷺ في

أن يسلم زعماء الشرك بعد إظهار الليونة، أو أن يمنع بذلك سفك الدماء. والآية تكشف عن احتمال وقوع الإنسان العادي ومهما كان قويّاً تحت تأثير الأعداء.

أمّا الآية الثّانية فهي ذات طبيعة معنوية، إذ هي تبيّن العصمة الإلهيّة ولطفه الخاص سبحانه وتعالى الذي يشمل بهِ الأنبياء خصوصاً نبي الإسلام ﷺ حينما يمر بمنعطفات ومزالق دقيقة.

والنتيجة أنَّ الرّسول ﷺ بالطبع البشري قد وصل إلى حافة القبول ببعض وساوس الأعداء، إلاّ أنّ التأييد الإلهي (العصمة) ثبّتهُ وحفظه وأنقذه مِن الانزلاق.

وهذا التعبير نفسهُ نقرؤهُ في سورة يوسف حيث جاءَ البرهان الإلهي في أدق اللحظات وأخطرها، في مقابل الإغواء الخطير وغير الاعتيادي لامرأة العزيز، حيث يقول تعالى في الآية ٢٤ مِن سورة يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وفي اعتقادنا أنَّ الآيات أعلاه ليست لا تصلح أن تكون دليلاً على نفي العصمة وحسب، بل هي واحدة مِن الآيات التي تدل على العصمة، لأنَّ التثبيت الإلهي هذا (والذي هو كناية عن العصمة أو التثبيت الفكري والعاطفي والسلوكي) لا يخص فقط هذه الحالة، وهذا الموقف، بل هو يشمل الحالات المشابهة الأُخرى، وعلى هذا الأساس تُعتبر الآية شاهداً على عصمة الأنبياء والقادة الإلهيّين.

أمّا الآية الثالثة التي نبحثها والتي تقول: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ فهي دليل على صحة البحوث الخاصّة بعصمة الأنبياء، حيثُ إنَّ العصمة ليست حالة جبرية يلتزم فيها النّبي بلا ارادة مِنهُ أو وعي، وإنّما هي توأم مع نوع مِن الوعي الذاتي والتي تقترن مع الاختيار والحرية، لذا فإنَّ ارتكاب ذنب في مثل هذه الحالات ليس محالاً عقلاً، ولكن هذا الإيمان والوعي الخاص سوف يمنعان صدور الذنب، فلا تتحقق المعصية عملاً، ولو فرضنا تحققها في الخارج فإنَّهُ سينال عقوبات الجزاء الإلهي (دقق في ذلك)(١).

٢ - لماذا العذاب المضاعف؟

مِن الواضح أنَّهُ كلّما زاد مقام الإنسان مِن حيث العلم والوعي والمعرفة والإيمان،

---

(١) يمكن ملاحظة المزيد مِن التفاصيل عن الموضوع في كتاب (القادة الكبار).

ازدادت قيمة وعمق الأعمال الخيّرة التي يقوم بها، وبالتالي سيكون ثوابها أكثر، لذا فإنّنا نقرأ في بعض الرّوايات: (إنّ الثواب على قدر العقل)[1].

أمّا الثواب والعقاب فسوف يزداد تبعاً لهذه النسبة، فإذا ارتكب إنسان أُمّي وضعيف الإيمان ذنباً كبيراً، فهذا ليس بالأمر العجيب، ولهذا السبب سيكون جزاؤه أخف، أمّا إذا قام عالمٌ مؤمن بارتكاب ذنب صغير فإنَّ جزاءه في مقابل ذلك سيكون أشد مِن جزاء الأمّي في قبال ذنبه الكبير.

لهذا السبب بالذات نقرأ في الآيتين ٣٠ - ٣١ مِن سورة الأحزاب خطاباً بهذا المضمون إلى نساء النّبي ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

وفي الرّوايات نقرأ هذا المفهوم: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[2].

هذه الآيات تشير إلى هذه الحقيقة، فهي تقول للرسول ﷺ: إذا أظهرت ميلاً (وحاشاه) نحو الشرك والمشركين فإنَّ عقابك سيتضاعف في هذه الدنيا وفي الآخرة.

٣ - معنى (الضّعف)

يجب الانتباه إلى هذه الملاحظة، وهي أنّ كلمة (ضعف) في اللغة العربية ليس المقصود بها مرّتين فقط، بل مرّتان وعدَّة مرّات أيضاً.

يقول الفيروز آبادي، (العالم اللغوي المعروف في القرن الثّامن الهجري) في القاموس: يقال في بعض الأحيان «ضعف شيء معيّن» وهي تعني المرّتين والثلاث مرّات وما شابهها، لأنَّ هذه الكلمة تعني الإضافة غير المحدودة.

الدليل على هذا القول، أنَّ الآيات القرآنية - وفي خصوص الحسنات - تقول: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[3] وفي موقع آخر تقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[4].

وفي الرّوايات الإسلامية ورد عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام قوله في تفسير الآية

(١) أصول الكافي، ج ١، كتاب العقل والجهل، ص ٩، حديث ٨.
(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٤٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

٢٦١ مِن سورة البقرة: «إذا أحسن المؤمن عملهُ ضاعف الله عملهُ بكل حسنة سبعمائة ضعف، وذلك قول الله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾(١).

ولكن هذا الكلام لا يمنع من أن تطلق هذه الكلمة على «التثنية» بمعنى الضعفين، أو عندما تذكر على شكل مضاف فإنّها تعني ثلاثة أضعاف مثلاً نقول: ضعف الواحد.

٤ - تفسير جملة ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

المشهور بين المفسّرين أنَّ القرآن يعني بالآية هذه أنّك إذا أظهرت توجّهاً للمشركين فسوف يعتبرونك صديقاً لهم، إلاَّ أنَّ بعض المفسّرين يعتبر أنَّ معنى الجملة، أنّ المشركين سيعتبرونك - يا رسول الله - فقيراً لهم ومحتاجاً إليهم، إذ في المعنى الأوّل (خليل) مأخوذة مِن (خِلّة) على وزن (قِلّة) وتعني الصداقة، أمّا في المعنى الثّاني فإنَّ (خَلّة) على وزن (غَلّة) وتعني العوز والفقر والحاجة، لكن مِن الواضح أنَّ الصحيح هو المعنى الأوّل.

٥ - إلهي لا تكلني إلى نفسي

في المصادر الإسلامية نقرأ أنّ رسول الله ﷺ عندما نزلت هذه الآيات قرأ هذا الدعاء «اللّهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً»(٢).

وهذا الدعاء المهم لرسول الهدى ﷺ يعطينا درساً مهمّاً، وهو أنَّهُ يجب أن نذكر الله دائماً ونلتجىء إليه، ونعتمد على لطفه، حيثُ إنَّ الأنبياء المعصومين لم يسلموا مِن المزالق بدون نصرة الله وتثبيته لهم، إذن فكيف بنا نحن مع كلّ ما يحيطنا مِن أشكال الوسوسة والإغواء الشيطاني!!

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

---

(١) تفسير العياشي وفقاً لما نقله صاحب الميزان، ج ٢، ص٤٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٤.

أسباب النّزول

المشهور أنَّ هذه الآيات نزلت في أهل مكّة بعد أن قرّروا إخراج النّبي ﷺ مِنها، ثمّ بدّلوا رأيهم بعد ذلك وقرّروا قتلهُ ﷺ، فحاصروا بيتهُ ﷺ ولكنَّ الله أنجاه مِن هذه المكيدة بشكل إعجازي واستطاع أن يهاجر إلى المدينة المنوَّرة.

البعض يرى أنَّ هذه الآيات نزلت بشأن اقتراح يهود المدينة على رسول الله ﷺ في أن يخرج مِنها إلى بلاد الشام باعتبار أنَّ المدينة ليست أرض الأنبياء، بل إنَّ أرض الأنبياء هي الشام، لذلك قال اليهود لرسول الله ﷺ: إذا كنت ترغب بانتشار دعوتك فهاجر إلى هُناك، إلى بلاد الشام.

ولكن لمّا كانت هذه السورة مكّية فيتّضح عدم صحّة هذا السبب للنزول، فضلاً عن أنّنا سوف نرى أثناء الحديث عن الآيات أنّها - أيضاً - لا تتوافق مع السبب المذكور.

التّفسير

مُؤامرة خبيثة أُخرى

في الآيات السابقة رأينا كيف أنَّ المشركين أرادوا مِن خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول الله ﷺ عن الطريق المستقيم، لكنّ الله أنجاه بلطفه له ورعايته إيّاه، وبذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، وطبقاً للآيات التي بين أيدينا، وضع المشركون خطّة أُخرى للقضاء على دعوة الرّسول ﷺ، وهذه الخطّة تقضي بإبعاد الرّسول ﷺ عن مسقط رأسه (مكّة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولاً وبعيداً عن الأنظار، إلاّ أنَّ هذه الخطّة فشلت أيضاً بلطف الله أيضاً.

الآية الأولى تقول: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ بخطة دقيقة.

وبما أنَّ كلمة «يستفزونك» مُشتقة مِن «استفزاز» التي تأتي في بعض الأحيان بمعنى قطع الجذور، وفي أحيان أُخرى بمعنى الإثارة مع السرعة والمهارة، فإنّنا نفهم مِن ذلك أنَّ المشركين وضعوا خطّة محكمة تجعل الوسط المحيط بالرّسول ﷺ غير مناسب له، وتُثير عامّة الناس ضدّه كي يخرجوه بسهولة مِن مكّة، لكن هؤلاء لا يعرفون أنَّ هناك قوّة أعظم مِن قوّتهم، وهي قوّة الخالق الكبير حيث تتلاشى إرادتهم دون إرادته عزّوجلّ .

ثمّ يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهؤلاء سيُبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم في إخراج القائد الكفوء - الذي تذهب نفسه حسرات على العباد - مِن البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، ومثل هؤلاء القوم لا يستحقّون الحياة ويستحقّون العذاب الإلهي.

إنَّ هذا الأمر لا يخص مشركي العرب وحسب، بل هو ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾. وهذه السنة تنبع مِن مَنطق واضح، حيث إنَّ هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، ويحطّمون مصباح هدايتهم ومنبع النور إليهم بأيديهم، إنَّ مِثل هؤلاء الأقوام لا يستحقّون رحمة الخالق، وإنَّ العقاب سيشملهم، ونعلم هُنا أنَّ الله تبارك وتعالى لا يفرّق بين عباده، وبذلك فإنَّ الأعمال المتشابهة في الظروف المتشابهة لها عقاب مُتشابه، وهذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلَّ وعلا.

إنَّ السنن الإلهيّة هي عكس السنن والقوانين التي يضعها البشر حيث تقتضي مصالحهم في يوم أن تكون هناك سنّة أو قانون معيّن، وفي يوم آخر يمكن أن تنقلب هذه السُّنَّة أو القانون إلى عكسه تماماً.

ونعرف هنا أنَّ اختلاف السنن والقوانين البشرية إمّا أن يعود إلى عدم وضوح الأُمور، والتي عادة ما تتوضّح بمرور الزمن، وتنكشف للإنسان اشتباهاته وأخطاؤه، أو أنَّ السبب في ذلك يعود إلى مُقتضيات المصالح الخاصّة وشروط الحياة التي تتحوّل وتتغيّر في كلّ وقت. ولمّا كانت هذه الأُمور لا تؤثّر على الإرادة الإلهيّة، فإنَّ ما يصدر عن الحكمة الإلهيّة مِن سنن تكون ثابتة في جميع الحالات والشرائط.

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

التّفسير

الفناء نهاية الباطل

بعد سلسلة الآيات التي تحدّثت عن التوحيد والشرك وعن مكائد المشركين ومؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة والدعاء والارتباط بالله والتي تعتبر عوامل مؤثّرة في مجاهدة الشرك، ووسيلة لطرد إغواءات الشيطان مِن قلب وروح الإنسان، إذ تقول الآيات في البداية: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

«دلوك الشمس» يعني زوال الشمس مِن دائرة نصف النهار والتي يتحدَّد معها وقت الظهر. وفي الأصل فإنَّ (دلوك) مأخوذة مِن (دَلْكَ) حيثُ إنَّ الإنسان يقوم بِدَلْك عينيه في ذلك الوقت لشدّة ضوء الشمس، أو أنَّ كلمة (دلك) تعني (المَيْل) حيثُ إنَّ الشمس تميل مِن دائرة نصف النهار إلى طرف المغرب، أو أنّها تعني أنَّ الإنسان يضع يده في قبال الشمس حيث يقال بأنَّ الشخص يمنع النور عن عينيه ويميله عنه.

على أي حال، في الرّواية التي وصلتنا عن أهلِ البيت عليهم السلام توضّح لنا أنّ معنى (دلوك) هُوَ زوال الشمس. فقد روى العاملي في (وسائل الشيعة) أنَّ عُبيد بن زُرارة سَأل الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير الآية فقال عليه السلام: «إنَّ الله افترض أربع صلوات أوّل وقتها زوال الشمس إلى انتصاف الليل، مِنها صلاتان أوّل وقتهما مِن عند زوال الشمس إلى غروب الشمس، إلاَّ أنَّ هذه قبل هذه، ومِنها صلاتان أوّل وقتهما مِن غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلاَّ أنَّ هذه قبل هذه»[1].

وفي رواية أُخرى رواها المحدّث الكبير (زرارة بن أعين) عن الإمام الباقر عليه السلام، في تفسير الآية قال عليه السلام: «دلوكها زوالها، وغسق الليل إلى نصف الليل، ذلك أربع صلوات وَضعهنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَوَقّتهُنَّ للناس، وقرآن الفجر صلاة الغداة»[2].

لكن وضع بعض المفسّرين احتمالات أُخرى لمعنى (دلوك) إلاَّ أنّا آثرنا تركها لأنّها لا تستحق الذكر.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، ص ١١٥.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٠٢ و٢٠٥.

وأمّا ﴿غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ فإنّها تعني مُنتصف الليل، حيثُ إنَّ ﴿غَسَقِ﴾ تعني الظلمة الشديدة، وأكثر ما يكون الليل ظلمةً في مُنتصفه.

أمّا ﴿قُرۡءَانَ﴾ فهي تعني كلاماً يُقرأ. و﴿قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ هُنا تعني صلاة الفجر.

وبهذا الدليل تعتبر هذه الآية مِن الآيات التي تُشير بشكل إجمالي إلى أوقات الصلوات الخمس، ومع أخذ الآيات القرآنية الأُخرى بنظر الاعتبار في مجال وقت الصلوات والرّوايات الكثيرة الواردة في هذا الشأن، يُمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

ويجب الانتباه هُنا إلى أنَّ بعض الآيات تشير إلى صلاة واحدة فقط، كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾(١). حيثُ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ وفقاً لأصح التفاسير هي صلاة الظهر.

وفي بعض الأحيان تشير الآية إلى ثلاث صلوات من الصلوات الخمس كما في الآية ١١٤ مِن سورة هود، في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾. حيث يشير تعبير ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى صلاتي الصبح والمغرب، وأمّا ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ فهي إشارة إلى صلاة العشاء.

وفي بعض الأحيان تشير الآية إلى الصلوات الخمس بشكل إجمالي، كما في الآية التي نبحثها (راجع للمزيد من التوضيح نهاية تفسير الآية ١١٤ مِن سورة هود).

على أي حال، لا يوجد ثمّة شك في أنَّ هذه الآيات لم توضّح جزئيات أوقات الصلاة، بل تشير إلى الكليات والخطوط العامّة، مثلها مثل الكثير مِن الأحكام الإسلامية الأُخرى، أمّا التفاصيل فإنّها وردت في سنّة رسول الله ﷺ والأئمّة الصادقين مِن أهل بيته عليهم السلام.

الآية بعد ذلك تقول: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ وهُنا يطرح سؤال حول هويّة الذي يقوم بالمشاهدة، مَن هو يا ترى؟ الرّوايات الواردة في تفسير هذه الآية تقول إنَّ ملائكة الليل والنهار هي التي تُشاهد، لأنَّهُ في بداية الصباح تأتي ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التي كانت تُراقب العباد، وحيثُ إنَّ صلاة الصبح هي في أوّل وقت الطلوع، لذلك فإنَّ المجموعتين من الملائكة تشاهدها وتشهد عليها.

والرّوايات في هذا المجال نقلها علماء الشيعة والسنّة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

فمثلا ينقل أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي والحاكم عن النّبي ﷺ، وفقاً لما نقله عنهم صاحب تفسير (روح المعاني) أثناء تفسير الآية قولهم عَنهُ ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[١].

أمّا البخاري ومسلم فقد نقلا نفس هذا المعنى في صحيحيهما وفقاً لما نقلهُ عنهم صاحب تفسير (روح المعاني) في المجلد الخامس عشر، صفحة ١٢٦ مِن تفسيره.

ولمزيد الاطلاع على الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المورد يمكن مُراجعة المجلد الثّالث مِن تفسير (نور الثقلين) في نهاية حديثه عن الآية الكريمة.

ومن هُنا يتّضح أنَّ أفضل وقت لأداء صلاة الصبح هي اللحظات الأُولى لطلوع الفجر.

وبعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التي بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾[٢] المفسّرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التي وردت روايات عديدة في فضيلتها، وبالرغم مِن أنَّ الآية لا تصرّح بهذا الأمر، إلاّ أنّ هُناك قرائن مُختلفة ترجّح هذا التّفسير.

ثمّ تقول الآية ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي برنامج إضافي علاوة على الفرائض اليومية.

وهذا التعبير اعتبرهُ الكثير بأنَّهُ دليل على وجوب صلاة الليل على الرّسول ﷺ، حيث إنَّ هذه (النافلة) والتي هي بمعنى (زيادة في الفريضة) تخصّك أنت دون غيرك يا رسول الله ﷺ.

أمّا البعض الآخر فيعتقد بأنَّ صلاة الليل كانت بالأصل واجبة على الرّسول ﷺ بقرينة آيات سورة المزمّل، إلاّ أنَّ هذه الآية نسخت الوجوب وأبدلته بالاستحباب.

ولكن هذا التّفسير ضعيف، لأنَّ النافلة لم تكن تعني (الصلاة المستحبّة) كما نُسمّيها اليوم، بل تعني الزيادة والإضافة، ونعلم أنَّ صلاة الليل كانت واجبة على الرّسول ﷺ، لذلك فهي إضافيّة على الفرائض اليومية.

---

(١) روح المعاني، ج ١٥، ص ١٢٦.

(٢) «تهجّد» مأخوذة مِن (هجود) وهي تعني في الأصل: النوم، حسبما يقول الراغب في المفردات، ولكن عندما تكون على وزن (تفعل) فإنّها تعني إزالة النوم والانتقال إلى حالة اليقظة، أمّا الضمير في كلمة «تهجّد به» فإنّهُ يدل على القرآن، ولكن هذه الكلمة استخدمت عند أهل الشرع بمعنى صلاة الليل. ويقال للذي يُصلّي الليل (المتهجّد).

على أيّةِ حال في ختام الآية تتوضّح نتيجة هذا البرنامج الإلهي الروحاني الرفيع حيث تقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

ولا ريب فإنَّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جدّاً يستثير الحمد، حيث إنّ (محمود) مأخوذة مِن (الحمد)، وبما أنَّ هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أنَّ حمد الأوّلين والآخرين يشملك.

الرّوايات الإسلامية الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السلام أو عن طريق أهل السنّة، تشير إلى أنَّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أكبر الشفعاء في ذلك العالم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أمّا الآية التي بعدها فإنّها تُشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية والذي ينبع مِن روح التوحيد والإيمان: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾[1]. فأيّ عمل فردي أو اجتماعي لا أبدؤهُ إلاَّ بالصدق ولا أُنهيه إلاَّ بالصدق، فالصدق والإخلاص والأمانة هي الخط الأساس لبداية ونهاية مسيرتي.

بعض المفسّرين أراد تحديد المعنى الواسع لهذه الآية في مصداق أو مصاديق معيّنة، فمثلاً قال بعضهم: إنَّ الآية تعني الدخول إلى المدينة والخروج مِنها إلى مكّة المكرَّمة، أو الدخول إلى القبر والخروج مِنهُ يوم البعث، وأمثال هذه الأُمور، ولكن مِن الواضح جدّاً أنَّ التعبير القرآني الجامع في الآية الكريمة لا يمكن تحديده، فهو طلب في الدخول والخروج الصادق مِن جميع الأُمور وفي كلّ الأعمال والمواقف والبرامج.

وفي الحقيقة فإنَّ سرّ الانتصار يكمن هُنا، وهذا هو طريق الأنبياء والأولياء الرّبانيين حيث كانوا يتجنّبون كلّ غش وخداع وحيلة في أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وكلّ ما يتعارض معَ الصدق.

وعادة فإنَّ المصائب التي نشاهدها اليوم والتي تصيب الأفراد والمجتمعات والأقوام والشعوب، إنّما هي بسبب الانحرافات عن هذا الأساس، ففي بعض الأحيان يكون أساس عملهم قائماً على الكذب والغش والحيلة، وفي بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معيّن بصدق ولكنّهم لا يستمرّون على صدقهم حتى النهاية. وهذا هو سبب الفشل والهزيمة.

---

(١) (مدخل) و(مخرج) هي تعني الإدخال والإخراج، تؤدّي هنا المعنى المصدري.

أمّا الأصل الثّاني الذي يعتبر مِن ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، وَمِن ناحية أُخرى نتيجة للدخول والخروج الصادق في الأعمال، فهو ما ذكرتهُ الآية في نهايتها: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ لماذا؟ لأنّني وحيد، والإنسان الوحيد لا يستطيع أن يُنجز عملاً، ولا يستطيع أن ينتصر في مقابل جميع هذه المشاكل فيما إذا اعتمد على قوّته وحدها، لذلك فسؤاله مِن الله تبارك وتعالى، هو انصرني واجعل لي نصيراً.

أعطني يا إلهي، لساناً ناطقاً، وأدلة قويّة في مقابل الأعداء، وأتباعاً يضحّون بأنفسهم، وإرادة قويّة، وفكراً وَضّاءً، وعقلاً واسعاً بحيث تقوم كلّ هذه الأُمور بنصرتي، فغيرك لا يستطيع إعطائي هذه الأشياء كلّها.

وبعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و(التوكل) جاءَ بعدها الأمل بالنصر النهائي، والذي يعتبر بحدِّ ذاته عاملاً للتوفيق في الأعمال، إذ خاطبت الآية الرّسول ﷺ بوعد الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[1]، لأنَّ طبيعة الباطل الفناء والدمار: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. فللباطل جولة، إلاَّ أنَّهُ لا يدوم والعاقبة تكون لانتصار الحق وأصحابه وأنصاره.

بحوث

١ - صلاة اللّيل عبادة روحية عظيمة

إنَّ التأثيرات المختلفة لضوضاء الحياة اليومية تؤثّر على الإنسان وعلى أفكاره وتجرّه إلى وديان مُختلفة بحيث يصعب معها تهدئة الخاطر، وصفاء الذهن، والحضور الكامل للقلب في مثل هذا الوضع. أمّا في منتصف الليل وعند السحر عندما تهدأ ضوضاء الحياة المادية، ويرتاح جسم الإنسان، وتهدأ روحه بعد فترة مِن النوم، فإنَّ حالةً مِن التوجّه والنشاط الخاص تُخالج الإنسان، في مثل هذا المحيط الهادىء والبعيد عن كلّ أنواع الرياء، مع حضور القلب، يعيش الإنسان حالة خاصّة قادرة على تربيته وتكامل روحه.

لهذا السبب نرى أنّ عباد الله ومحبيه ينهضون إلى التعبُّد في منتصف الليل، لأنَّهُ يزكّي أرواحهم، ويحيي قُلوبهم، ويقوي إرادتهم، ويكمل إخلاصهم.

---

(١) (زهق) مِن مادة «زهوق» بمعنى الاضمحلال والهلاك والإبادة، و(زهوق) على وزن «قبول» صيغة مُبالغة وهي تعني الشيء الذي تمّت إبادتهُ بالكامل.

وفي بداية عصر الإسلام كان رسول الله ﷺ يستفيد مِن هذا البرنامج الروحي في تربية المسلمين، وكان يبني شخصياتهم بحيث كانوا يتغيّرون تماماً عمّا كانوا عليه في السابق، يعني أنَّهُ ﷺ كان يجعل مِنهم شخصيات جديدة ذات إرادة قويّة وشجاعة، ومؤمنين ذوي إخلاص ونقاء.

وقد يكون (المقام المحمود) - الذي ورد ذكره في الآيات أعلاه نتيجة لصلاة الليل، إشارة لهذه الحقيقة.

وعندما نبحث الرّوايات الواردة في المصادر الإسلامية عن فضيلة صلاة الليل - نرى أنّها توضّح هذه الحقيقة. وعلى سبيل المثال يمكن أن نقف مع هذه النماذج:

١ - عن الرّسول ﷺ قال: «خيركم مَن أطابَ الكلام وأطعم الطعام وصلّى بالليل والناس نيام»(١).

٢ - وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنَّهُ قال: «قيام الليل مصحة للبدن، ومرضاة للرّب عَزَّ وَجَلَّ، وتعرّض للرحمة، وتمسك بأخلاق النّبيين»(٢).

٣ - وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّهُ أوصى أحد أصحابه بقوله: «لا تدع قيام الليل فإنَّ المغبون مَن حُرِمَ قيام الليل»(٣).

٤ - وعن رسول الله ﷺ قال: «مَن صلّى بالليل حَسُنَ وجههُ بالنهار»(٤).

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ هذه العبادة (صلاة الليل) على قدر مِن الأهمّية بحيث إنَّ غير الطاهرين والمحسنين لا يوفّقون إليها.

٥ - جاء رجل إلى أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال لهُ: إنّي محروم مِن صلاة الليل، فأجابه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك»(٥).

٦ - في حديث آخر عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إنَّ الرجل ليكذب الكذبة ويحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم بها صلاة الليل حُرِمَ بها الرّزق»(٦).

٧ - وبالرغم مِن أنّنا نعلم أنّ شخصاً مِثل علي بن أبي طالب لا يترك صلاة الليل أبداً، ونظراً لأهميّة هذه الصلاة نرى رسول الله ﷺ أوصاهُ بها في جملة مِن وصاياه لهُ، إذ قال له ﷺ: «أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها، ثمّ قال: اللهم أعنهُ... وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الليل!»(٧).

(١-٦) بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ١٤٢ - ١٤٨.

(٧) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٦٨.

٨ - وعن الرّسول الأكرم ﷺ أنَّهُ قال لجبرئيل عليه السلام: عظني، فقال جبرائيل لرسول الله ﷺ: يا محمّد، عش ما شئت فإنّك ميت، واحبب ما شئت فإنّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنّك ملاقيه، واعلم أنَّ شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزّه كفّه عن أعراض النّاس»[١].

إنَّ هذه الوصايا الملكوتية لجبرائيل تدل على أنَّ صلاة الليل تضفي على الإنسان من الإيمان والروحانية وقوة الشخصية ما يكون سبباً في شرفه كما أن كفّه الاذى عن الآخرين يكون سبباً في عزّته.

٩ - عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «ثلاثة هنّ فخر المؤمن وزينة في الدنيا والآخرة، الصّلاة في آخر الليل ويأسه ممّا في أيدي الناس وولاية الإمام من آل محمّد».

١٠ - عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما مِن عمل حسن يعملهُ العبد إلاَّ ولهُ ثواب في القرآن إلاَّ صلاة الليل، فإنَّ الله لم يبيّن ثوابها لعظيم خطرها عنده فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[٢] [٣].

ولصلاة اللّيل - بالطبع - آداب كثيرة، وَلكن لا بأس أن نذكر هُنا أبسط شكل لها، حتى يستطيع عشّاق وَمحبّو هَذِهِ العبادة الروحية العمل بها والاستفادة مِنها:

وإنّ صلاة الليل تتكون بأبسط صورها مِن ١٢ ركعة، وهي مقسّمة إلى ثلاثة أقسام هي:

أ - أربع صلوات، ذات رُكعتين، يكون مجموعها ثماني رُكعات وتسمّى (نافلة الليل).

ب - صلاة واحدة ذات ركعتين، وتسمّى بـ(الشفع).

ج - صلاة واحدة ذات ركعة واحدة، وتسمّى بـ(الوتر).

أمّا طريقة أداء هذه الصلاة فهي لا تختلف عن صلاة الصبح، إلاَّ أنّها لا تحتوي على الأذان والإقامة، والأفضل إطالة قنوت ركعة الوتر[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٦٩.
(٢) سورة السجدة، الآيتان: ١٦-١٧.
(٣) بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ١٤٠.
(٤) بعض الفقهاء يحتاطون بعدم قراءة القنوت في رُكعتي الشفع أو قراءتها بأمل الرجاء.

٢ - ما هو المقام المحمود؟

المقام المحمود - كما هو واضح مِن اسمه - لهُ معنى واسع بحيث يشمل كلّ مقام يستحق الحمد، ولكن من المسلّم بأنّ المقصود بهِ هنا، هو الإشارة إلى المقام الممتاز والخاص الذي اختص بهِ رسول الله ﷺ وبسبب عباداته الليلية ودعائه في وقت السحر.

والمعروف بين المفسّرين - كما قلنا سابقاً - أنَّ هذا المقام هو مقام الشفاعة الكبرى للرّسول ﷺ. وهذا التّفسير ورد في روايات مُتعدِّدة، ففي تفسير العياشي عن الإمام الصادق أو الباقر عليه السلام، نقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ أنَّه قال: «هي الشّفاعة».

وقد حاول بعض المفسّرين الوصول إلى هذه الحقيقة مِن مفهوم الآية نفسها، فهم يعتقدون أنّ جملة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ﴾ دليل على أنَّ الله سوف يعطيك هذا المقام في المستقبل، المقام الذي سوف يحمده الجميع، لأنَّ فائدته سوف تنال الجميع (لأنَّ محمود في الجملة أعلاه جاءت مطلقة غير مقيّدة بشرط). إضافة إلى ذلك فإنَّ الحمد في مقابل عمل معيّن هو أمر اختياري، والشيء الذي يحتوي على جميع هذه الصفات لا يمكن أن يكون سوى الشفاعة الكبرى والعامّة لرسول الله ﷺ[1].

وهناك احتمال أن يكون المقام المحمود هو أقصى القرب مِن الخالق عزّ وجلّ، والذي تكون إحدى آثاره هي الشفاعة الكبرى. (فتأمل ذلك).

وبالرغم مِن أنَّ المخاطب في هذه الآية - ظاهراً - هو رسول الله ﷺ، إلاّ أنَّهُ يمكن تعميم الحكم والقول بأنَّ جميع الأشخاص المؤمنين الذين يقومون ببرنامج التلاوة وصلاة الليل لهم نصيب في هذا المقام المحمود، وسوف يقتربون مِن الساحة الإلهيّة بمقدار إيمانهم وعملهم، وبنفس المقدار سوف يقومون بالشفاعة للآخرين.

إنّنا نعلم أنَّ أيّ مؤمن وبمقدار إيمانه لهُ نصيب مِن مقام الشفاعة، إلاَّ أنَّ المصداق الأتم والأكمل لهذه الآية هو شخص الرّسول ﷺ.

٣ - العوامل الثّلاثة للانتصار

في ميادين الصراع بين الحق والباطل يكون جيش الباطل - عادةً - ذا عدّة وعدد أكثر، إلاّ أنّ جيش الحق - بالرغم مِن قلّة أفراده ووسائله الظاهرية - يحصل على

---

(١) تفسير الميزان، ج ١، ص ١٧٨.

انتصارات عظيمة. ويمكن مشاهدة نماذج مِن ذلك في غزوات بدر والأحزاب وحنين، وفي عصرنا الحاضر يمكن مُشاهدة ذلك في الثورات المُنتصرة للأُمم المستضعفة في مقابل الدول المستكبرة(١).

وهذا الأمر يكون سبب تحلّي أنصار الحق بقوّة معنوية خاصّة بحيث تصنع مِن (الإنسان) أُمّة. وفي الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التي ابتعد عنها مسلمو اليوم، ولهذا السبب نرى هزائمهم المتكرّرة في مقابل الأعداء والمستكبرين.

والعوامل الثلاثة هي: الدخول الصادق والخالص في الأعمال، والاستمرار على هذه الحالة الصادقة حتى النهاية ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾. ثمّ الاعتماد على قدرة الخالق جلَّ وعلا، والاعتماد على النفس، وترك أيّ اعتماد أو تبعية للأجانب ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾.

وبهذا الشكل فليست هُناك أيّة سياسية تؤثّر في الانتصار كما في الصدق والإخلاص، ليس هُناك أيّ اعتماد أفضل مِن الاعتماد على الخالق والاستقلال وعدم التبعية.

كيف يريد المسلمون أن ينتصروا على الأعداء الذين قاموا بغصب أراضيهم وصادروا مصادرهم الحياتية في حين أنّهم مرتبطون بأعدائهم في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية؟ هل نستطيع أن ننتصر على العدو بواسطة السلاح الذي نشتريه مِنهُ؟

٤ - حتمية انتصار الحق وهزيمة الباطل

نواجه في الآيات أعلاه أصلاً تاماً، وأساساً آخر، وسنّة إلهيّة خالدة تزرع الأمل في قلوب أنصار الحق، هذا الأصل هو أنَّ عاقبة الحق الانتصار، وعاقبة الباطل الاندحار، وأنَّ للباطل صولة وبرق ورعد، وله كرّ وفر، إلاَّ أنّ عمره قصير، وفي النهاية يكون مآلهُ السقوط والزوال... الباطل كما يقول القرآن: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٢).

---

(١) إشارة إلى الحرب المفروضة من قبل العراق على إيران وبدعم من القوى الاستكبارية ضد الثورة الإسلامية ولكن بالرغم من اختلال النظام في الجيش الإيراني إلّا أنّ المقاتلين كانوا يحرزون انتصارات متتالية في جبهات القتال واستطاع الشعب الإيراني الأعزل إخراج أميركا وأذنابها المجهزين بمختلف الأسلحة من الأراضي الإيرانية.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

والدليل على هذا الموضوع كامن في باطن كلمة الباطل، حيث إنَّهُ لا يتّفق مع القوانين العامّة للوجود، وليس لهُ مِن رصيد مِن الواقعيّة والحقيقة.

إنَّ الباطل شيء مصنوع ومزوَّر، ليست لهُ جذور، أجوف، والأشياء التي لها صفات كهذه - عادةً - لا يمكنها البقاء طويلاً.

أمّا الحق فله أبعاد وجذور مُتناسقة مع قوانين الخلق والوجود، ومثلهُ ينبغي أن يبقى.

أنصار الحق يعتمدون سلاح الإيمان، مَنطقهم الوفاء بالعهد، وصدق الكلام، والتضحية، وهم مستعدون أن يضحّوا بأنفسهم والاستشهاد في سبيل الله، قلوبهم مُنوَّرة بنور المعرفة، لا يخافون أحداً سوى الله، ولا يعتمدون إلاَّ عليه، وهذا هو سرّ انتصارهم.

٥ - آية ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ...﴾ وقيام المهدي عليه السلام

في بعض الرّوايات تمّ تفسير قوله: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بقيام دولة المهدي عليه السلام، فالإمام الباقر يبيّن أنَّ مفهوم الكلام الإلهي هو: «إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل»(١).

وفي رواية أُخرى نقرأ أنَّه حينما ولد المهدي عليه السلام كان مكتوباً على عضده قوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٢).

إنَّ مفهوم هذه الأحاديث لا يحصر المعنى الواسع للآية بهذا المصداق، بل إنَّ ثورة المهدي عليه السلام ونهضته هي مِن أوضح المصاديق حيث تكون نتيجتها الانتصار النهائي للحق على الباطل في كلّ العالم.

وبالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم نقرأ أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم دخل في يوم فتح مكّة، المسجد الحرام وحطّم ٣٦٠ صنماً كانت لقبائل العرب، وكانت موضوعة حول فناء الكعبة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحطّمها الواحد تلو الآخر بعصاه، وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وخلاصة القول: إنَّ حقيقة إنتصار الحق وانهزام الباطل هي تعبير عن قانون عام يجري في مختلف العصور، وانتصار الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم على الشرك والأصنام، ونهضة المهدي عليه السلام الموعودة وانتصاره على الظالمين في العالم، هُما مِن أوضح المصاديق لهذا القانون العام.

(١-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢١٢ و٢١٣.

وهذا القانون يبعث الأمل في نفوس أهل الحق، ويعطيهم القوة على مُواجهة مشاكل الطريق في عملهم ومسيرهم الإسلامي.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

القرآن وصفة للشفاء:

الآية التي نبحثها الآن تُشير إلى التأثير الكبير للقرآن الكريم ودوره البنّاء في هذا المجال حيث تقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمّا الظالمون فإنّهم بدلاً مِن أن يستفيدوا مِن هذا الكتاب العظيم، فإنَّهمُ يتمسكون بما لا ينتج لهم سوى الذل والهوان ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

بحوث

١ - مفهوم كلمة ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾

نعرف أنَّ كلمة ﴿مِنَ﴾ في مثل هذه الموارد تأتي للتبعيض، إلاَّ أنَّ الشفاء والرحمة لا تخص قسماً من القرآن، بل هي صفة لكلّ آياته، لذا فإنَّ كبار المفسّرين يميلون إلى اعتبار ﴿مِنَ﴾ هُنا بيانية. ولكنّ البعض احتمل أن تكون تبعيضية كذلك، وهي بذلك تشير إلى النزول التدريجي للقرآن - خاصّة وأنّ ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ فعل مضارع - لذا فإنّ معنى الجملة يكون: (إنّنا ننزل القرآن وكلّ قسم ينزل منهُ، هو بحدِّ ذاته ولوحده يُعتبر شفاءً ورحمة) (فتدبّر جيداً).

٢ - الفرق بين الشّفاء والرّحمة

إنَّ (الشفاء) هو في مقابل الأمراض والعيوب والنواقص، لذا فإنّ أوّل عمل يقوم بهِ القرآن في وجود الإنسان هو تطهيره مِن أنواع الأمراض الفكرية والأخلاقية الفردية مِنها والاجتماعية.

ثمّ تأتي بعدها مرحلة (الرحمة) وهي مرحلة التخلُّق بأخلاق الله، وتفتّح براعم الفضائل الإنسانية في أعماق الأفراد الذين يخضعون للتربية القرآنية.

بعبارة أُخرى: إنّ الشفاء إشارة إلى (التطهير) و(الرحمة) إشارة إلى (البناء الجديد). أو بتعبير الفلاسفة والعارفين، فإنَّ الأُولى تشير إلى مقام (التخلية) بينما الثّانية تشير إلى مقام (التحلية).

٣ - الظّالمون ونصيبهم من القرآن

ليس في هذه الآية القرآنية وحسب، بل في الكثير مِن الآيات الأُخرى، نقرأ أنَّ الظالمين يزداد جهلهم وبؤس حالهم، بدل الاستفادة مِن نور الآيات الإلهيّة!!

إنّ ذلك يعود إلى أنَّ وجودهم قائم بالأساس على قواعد الكفر والظلم والنفاق، لذلك فإنّهم أين ما يجدون الحق يحاربونه، وهذه الحرب للحق وأهله تزيد في بؤسهم وتقوّي روح الطغيان والتمرُّد عِندهم.

فإذا أعطينا - مثلاً - وجبة طعام مُتكاملة لعالم مجاهد، فإنَّهُ سيستفيد مِن تلك الطاقة لأجل التربية والتعليم والجهاد في طريق الحق، أمّا إذا أعطينا نفس وجبة الطعام هذه إلى شخص ظالم، فإنَّهُ سيستفيد مِن هذه الطاقة في تموين قدرة الظلم لديه أكثر، وهذا المثال يكشف عن أنَّهُ لا يوجد اختلاف في المادة الإلهيّة نفسها (المقصود هنا القرآن الكريم) بل الاختلاف في أمزجة وأفكار واستعداد الإنسان المتلقي.

فالآيات القرآنية طبقاً للمثال، هي كقطرات الماء التي تكون سبباً في إنبات الورود في البساتين، بينما تنبت الأشواك في الأرض السبخة.

ولهذا السبب ينبغي أن تتهيأ مسبقاً الأرضية حتى تتم الاستفادة مِن القرآن، إضافة إلى أنَّ فاعلية الفاعل يُشترط فيها قابلية المحل كما يصطلح.

وهنا تتّضح الإجابة على السؤال الذي يقول: كيف لا يهدي القرآن أمثال هؤلاء الأشخاص في حين أنَّهُ كتاب هداية؟ إذ لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، ولكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، ويكونوا في مستوى قبوله والإذعان له، أمّا واقع المعاندين وأعداء الحق فإنَّهُ يكشف عن تعامل هؤلاء سلبياً مع القرآن، ولذلك لا يستفيدون مِن القرآن، بل يزداد عنادهم وكفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرّس في روح الإنسان حالة الكفر والعناد.

٤ - القرآن دواء ناجع لكلّ الأمراض الاجتماعية والأخلاقية

إنَّ الأمراض الروحية والأخلاقية لها شبه كبير بالأمراض الجسمية للإنسان، فالاثنان

يقتلان، والاثنان يحتاجان إلى طبيب وعلاج ووقاية، والاثنان قد يسريان للآخرين، ويجب في كلّ منهما معرفة الأسباب الرئيسية ثمّ معالجتها.

وفي كلّ منهما قد يصل الحال بالمصاب إلى عدم إمكانية العلاج، ولكن في أكثر الأحيان يتمّ علاجها والشفاء منها، إلاّ أنّ العلاج قد لا ينفع في أحيان أُخرى.

إنّهُ شبهٌ جميل وذو معانٍ مُتعدِّدة؛ فالقرآن يُعتبر وصفة شفاء للذين يريدون محاربة الجهل والكبر والغرور والحسد والنفاق... القرآن وصفة شفاء لمعالجة الضعف والذّلة والخوف والاختلاف والفرقة. وكتاب الله الأعظم وصفة شفاء للذين يئنّون مِن مرض حبّ الدنيا والارتباط بالمادة والشهوة. والقرآن وصفة شفاء لهذه الدنيا التي تشتعل فيها النيران في كلّ زاوية، وتئن مِن وطأة السباق في تطوير الأسلحة المدمّرة وخزنها، حيثُ وضعت رأسمالها الاقتصادي والإنساني في خدمة الحرب وتجارة السلاح.

وأخيراً فإنَّ كتاب الله وصفة شفاء لإزالة حُجب الشهوات المظلمة التي تمنع مِن التقرّب نحو الخالق عزّوجلّ.

نقرأ في الآية ٥٧ مِن سورة يونس قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وفي الآية ٤٤ مِن سورة فصّلت نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾.

ولإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام قول جامع في هذا المجال، حيث يقول عليه السلام في نهج البلاغة: «فاستشفوه مِن أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإنَّ فيه شفاء مِن أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال»[١].

وفي مكان آخر نقرأ لإمام المتقين علي عليه السلام قوله واصفاً كتاب الله: «ألا إنَّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي وَدواء دائكم وَنظم ما بينكم»[٢].

وَفي مقطع آخر يَضُمُّهُ نهج علي عليه السلام، نقرأ وصفاً لكتاب الله يقول فيه عليه السلام: «وعليكم بكتاب الله فإنَّهُ الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والريُّ الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع، مَن قالَ بِهِ صدق، وَمَن عمل به سبق»[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.
(٢) المصدر السابق رقم ١٥٨.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦.

هذه التعابير العظيمة والبليغة، والتي نجد لها أشباهاً كثيرة في أقوال النّبي الأعظم ﷺ وفي كلمات الإمام علي عليه السلام الأُخرى والأئمّة الصادقين عليهم السلام، هي دليل يُثبت بدقة ووضوح أنَّ القرآن وصفة لمعالجة كلّ المشاكل والصعوبات والأمراض، ولشفاء الفرد والمجتمع مِن أشكال الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.

إنَّ أفضل دليل لإثبات هذه الحقيقة هي مقايسة وضع العرب في الجاهلية مع وضع الذين تربوا في مدرسة الرّسول ﷺ في مطلع الإسلام، إنَّ المقايسة بين الوضعين ترينا كيف أنَّ أُولئك القوم المتعطشون للدماء، والمصابون بأنواع الأمراض الاجتماعية والأخلاقية، قد تمّ شفاؤهم ممّا هم فيه بالهداية القرآنية، وأصبحوا برحمة كتاب الله مِن القوّة والعظمة بحيث إنَّ القوى السياسية المستكبرة آنذاك خضعت لهم أعنّتها، وذلّت لهم رقابها.

وهذه هي نفس الحقيقة التي تناساها مسلمو اليوم، وأصبحوا على ما هم عليه مِن واقع بائس مرير غارق بالأمراض والمشاكل... إنَّ الفرقة قد اشتدت بينهم، والناهبين سيطروا على مقدّراتهم وثرواتهم، مستقبلهم أصبح رهينة بيد الآخرين بعد أن أصيبوا بالضعف والهوان بسبب الارتباط بالقوى الدولية والتبعية الذليلة لها.

وهذه هي عاقبة من يستجدي دواء علّته من الآخرين الذين هم أسوأ حالاً منه، في حين أنّ علاج الدواء حاضر بين يديه وموجود في مَنزله!

القرآن لا يشفي من الأمراض وحسب، بل إنّهُ يساعد المرضى على تجاوز دور النقاهة إلى مرحلة القوّة والنشاط والانطلاق، حيثُ تكون (الرحمة) مرحلة لاحقة لمرحلة (الشفاء).

الظريف في الأمر أنَّ الأدوية التي تستخدم لشفاء الإنسان لها نتائج وتأثيرات عرضية حتمية لا يمكن توقّيها أو الفرار مِنها، حتى أنَّ الحديث المأثور يقول: «ما مِن دَواء إلاّ ويهيج داء»(١).

أمّا هذا الدواء الشافي، كتاب الله الأعظم، فليست لهُ أيّ آثار عرضية على الروح والأفكار الإنسانية، بل على عكس من ذلك كلّه خير وبركة ورحمة.

وفي واحدة مِن عبارات نهج البلاغة نقرأ في وصف هذا المعنى قول علي عليه السلام: «شفاء لا تخشى أسقامه» واصفاً بذلك القرآن الكريم(٢).

---

(١) سفينة البحار.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٨.

يكفي أن نتعهّد باتّباع هذه الوصفة لمدّة شهر، نطيع الأوامر في مجالات العلم والوعي والعدل والتقوى والصدق وبذل النفس والجهاد. . . عندها سنرى كيف ستُحل مشاكلنا بسرعة.

وأخيراً ينبغي القول: إنَّ الوصفة القرآنية حالها حال الوصفات الأُخرى، لا يمكن أن تعطي ثمارها وأكلها مِن دون أن نعمل بها ونلتزمها بدقة، وإلاَّ فإنَّ قراءة وصفة الدواء مائة مرَّة لا تغني عن العمل بها شيئاً!!

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

التّفسير

كلّ يتصرف وفق فطرته

بعد أن تحدَّثت الآية السابقة عن شفاء القرآن، تشير الآية التي بين أيدينا إلى أحدِ أكثر الأمراض تجذّراً فتقول: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. ولكن عندما نسلب منه النعمة ويتضرر من ذلك ولو قليلاً: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

﴿أَعْرَضَ﴾ مُشتقة مِن (إعراض) وهي تعني عدم الالتفات، والمقصود مِنها هُنا هو عدم الالتفات للخالق عَزَّوَجَلَّ، وإعراض الوجه عنهُ وعن الحق.

﴿وَنَـَٔا﴾ مُشتقّة مِن (نأي) وهي على وزن (رأي) وهي بمعنى الابتعاد، وعند إضافة كلمة ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ إليها يكون المعنى التكبّر والغرور والتزام المواقف المعادية. ويمكن الاستفادة مِن مجموع هذه الجملة أنّ الأشخاص الدنيويين يصابون بالغرور عند مجيء النعم، بحيثُ إنّهم ينسون واهب ومعطي هذه النعم، ولا يقتصر الأمر على النسيان وحسب، بل ينتقل إلى الاعتراض والتكبّر وعدم الالتفات للخالق.

جملة ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ تشير إلى أدنى سوء يصيب الإنسان. والمعنى أنَّ هؤلاء مِن الضعف وعدم التحمّل بحيث إنّهم ينسون أنفسهم ويغرقون في دوّامة اليأس بمجرّد أن تصيبهم أبسط مُشكلة.

الآية الثّانية تخاطب الرّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فتقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾. فالمؤمنون يطلبون الرحمة والشفاء مِن آيات القرآن الكريم، والظالمون لا يستفيدون مِن القرآن

سوى مزيد مِن الخسران، أمّا الأفراد الضعفاء فيصابون بالغرور في حالِ النعمة، ويصابون باليأس في حالِ ظهور المشاكل. . . هؤلاء جميعاً يتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التي تتغيّر وفق التربية والتعليم والأعمال المتكررة للإنسان نفسه.

وفي هذه الأحوال جميعاً فإنَّ هناك علم الله الشاهد والمحيط بالجميع وخاصّة بالأشخاص المهتدين: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

بحوث

١ - الغرور واليأس

يتداول على ألسنتنا أنَّ فلاناً أصبح بعيداً عن الله، أو أنَّهُ نسي الله بعد أن تحسّنت أُموره. ورأينا أنَّ أمثال هؤلاء الأشخاص الذين نسوا الله كيف يصابون باليأس والذلة والهلع عندما تنزل بهم أبسط الشدائد، بحيث لا نكاد نصدِّق بأنّهم سبق وأن كانوا على غير هذه الحال!

أجل، هكذا حال هؤلاء الجماعة مِن ضيّقي التفكير وضعيفي الإيمان، وعلى العكس من ذلك حال أولياء الله، حيث تكون نفوسهم واسعة وأرواحهم وضّاءة نيِّرة إزاء المؤثّرات التي تحيط بهم ولو بلغت في عتوها وضغطها مبلغاً شديداً، إنّهم كالجبال في مقابل الصعوبات والشدائد، إذا وهبتهم الدنيا فلا يُؤثّر ذلك فيهم، وإذا أخذت مِنهم العالم أجمع لا يتأثرون.

والعجيب في الأمر أنَّ هؤلاء القوم الذي يخسرون أنفسهم والذين تذكرهم السور القرآنية في آيات مُتعدِّدة (مِثل يونس - الآية ١٢، لقمان - الآية ٣٢، الفجر - الآيتان ١٤، ١٥، فصلت - الآيتان ٤٨، ٤٩) هم أنفسهم يعودون إلى الله، ويستجيبون لنداء الفطرة عندما تنزل بهم النوازل وتقع بساحتهم الشدائد، ولكنّهم عندما تهدأ أمواج الحوادث والضواغط يتغيّرون، أو في الواقع يعودون إلى ما كانوا عليه سابقاً ويكون مثلهم كمن لم يسمع بالله الذي خلقه وأنقذه!

إنَّ العلاج الوحيد لهذا المرض هو رفع مستوى الفكر في ظلّ العلم والإيمان، وترك العبودية لما هو دون الله وسواه، وفكّ الارتباط مع الشهوة والمادة، والعيش في إطار مِن القناعة والزهد البنّاء.

وممّا ذكرنا تظهر الإجابة على سؤال، وهو: إنَّ الآيات التي نبحثها تصف حال مثل

هؤلاء الأشخاص عند الصعوبات والشدائد بـ «يَؤوس» في حين أنَّ آيات أُخرى مِثل الآية ٦٥ مِن سورة العنكبوت تصفهم بأنّهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهي دلالة على غاية التوجّه نحو الخالق عزّوجلّ ؟

في الواقع ليس ثمّة مِن تضاد بين هاتين الحالتين، بل إنَّ إحداهما هي بمثابة مقدمة للأُخرى، فهؤلاء الأشخاص عندما تصادفهم المشكلات ييأسون مِن الحياة، وهذا اليأس يكون سبباً لأن تزول الحجب عن فطرتهم ويلتفتون لخالقهم العظيم.

إنَّ هذا التوجّه الاضطراري إلى الخالق عزّوجلّ - طبعاً - ليس فخراً لأمثال هؤلاء وليس دليلاً على يقظتهم، لأنّهم بمجرّد انصراف المشاكل عنهم يعودون إلى حالتهم السابقة.

أمّا أولياء الحق وعباد الله المخلصون الحقيقيون فلا ييأسون عندما يقعون في المشاكل والمحن، بل تزيدهم الصعوبات استقامة وصلابة على طريق الهدى، وبسبب اعتمادهم على الله وعلى أنفسهم فإنّهم يتمتعون بقوّة لمواجهة المشاكل ولا معنى لليأس في وجودهم.

إنَّ هؤلاء ليسوا على صلة بالخالق في أوقات المشكلات وحسب، وإنّما في اتصال دائم معهُ في كلّ الحالات إذ يستمدون العون منهُ تعالى، وتكون قلوبهم منيرة برحمته وهدايته.

٢ - ما معنى (شاكلة)؟

«شاكلة» في الأصل مُشتقة مِن (شكل) وهي تعني وضع الزمام والرباط للحيوان. و(شكال) تُقال لنفس الزمام؛ وبما أنَّ طبائع وعادات كلّ إنسان تقيّدهُ بصفات معيّنة لذا يقال لذلك «شاكلة». أمّا كلمة «إشكال» فتقال للاستفسار والسؤال وسائر الأُمور التي تحدِّد الإنسان نوعاً ما[١].

لهذا فإنَّ مفهوم الشاكلة لا يختص بالطبيعة الإنسانية، لذلك ذكر العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان لهذه الكلمة مَعنيين، هما: الطبيعة والخلقة، ثمّ الطريقة والمذهب والسُّنَّة، على اعتبار أنَّ كلّ واحدة مِن هذه الأُمور تحدِّد الإنسان مِن حيث العمل.

ومِن هنا يتّضح خطأ أُولئك الذين اعتبروا الآية أعلاه دليلاً على إلزامية الصفات

(١) مفردات الراغب مادة «شَكَلَ».

الذاتية للإنسان بشكل يخرج عن إرادته، وهو دليلهم على عقيدة الجبر، إذ أنكروا قيمة التربية والتزكية.

هذا النوع مِن التفكير الذي يخضع في أسبابه إلى عوامل سياسية واجتماعية ونفسية - والتي ذكرناها في بحوثنا عن الجبر والاختيار - لهُ هيمنة على ثقافة وأدب الكثير مِن المجتمعات والنُظم، حيث تستخدم هذه الثقافة لتبرير النواقص، إنَّ هذه الثقافة تعتبر مِن أخطر الاعتقادات التي يمكن أن تجرّ المجتمع سنين بل قرون إلى الذلّة والتأخُّر.

بناءً على ما ذكرنا نعتقد أنّ عقيدة الجبر هي دوماً ذريعة للتسلّط الاستعماري، لكي تبقى القوّة المسيطرة في ظل ثقافة الجبر بمنأى عن ردود الفعل المقاومة للسيطرة والتي يمكن أن تنطلق مِن صفوف المسحوقين المستضعفين.

والتعبير المشهور هُنا، يوضّح هذه الحقيقة بشكل دقيق، إذ يقول: «الجبر والتشبيه أمويان والعدل والتوحيد علويان».

وخلاصة القول هنا: إنَّ الشاكلة لا تعني أبداً الطبيعة الذاتية، بل هي تُطلق على كلّ عادة وطريقة ومذهب وأسلوب يعطي للإنسان اتجاهاً معيّناً.

لذا فإنَّ العادات والصفات التي يكتسبها الإنسان بتكرار الأعمال اختيارياً وإرادياً، وكذلك الإعتقادات التي يقتنع بها ويعتمدها بسبب الاستدلال أو التعصّب لرأي معيّن يُطلق عليها كُلّها كلمة «شاكلة».

وعادةً ما تكون الملكات الإنسانية لها صفة اختيارية، لأنَّ الإنسان عندما يُكرِّر عملاً ما ففي البداية يُقالُ لهُ (حالة) ثمّ تتحوَّل الحالة إلى (عادة) والعادة إلى (مَلَكَة) وهذه الملكات نفسها تعطي شكلاً معيّناً لأعمال الإنسان وتحدِّد خطَّته في الحياة، وهي عادةً ما تظهر بفعل العوامل الاختيارية والإرادية.

وفي بعض الرّوايات تمَّ تفسير «الشاكلة» بأنّها النيّة، فقد ورد في أصول الكافي عن الإمام الصّادق عليه السلام، قوله: «النيّة أفضل مِن العمل، ألا وإنَّ النيّة هي العمل، ثمّ تلا قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، يعني على نيّته»[1].

هذا التّفسير ينطوي على ملاحظة لطيفة، وهي أنَّ نيّة الإنسان والتي تنبع مِن اعتقاداته تعطي شكلاً لعمله، وعادة فإنَّ النيّة هي نوع مِن الشاكلة، بمعنى الأمر المقيِّد، لذا تفسّر

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢١٤.

النيّة أحياناً بأنّها نفس العمل. وفي أحيان أُخرى بأنّها أفضل من العمل، لأنَّهُ - في كلّ الأحوال - يكون خط العمل واتجاههُ ناتجاً عن خط النيّة واتجاهها.

وفي رواية «مَن لا يحضره الفقيه» عن صالح بن الحكم، قال: سُئِلَ الصّادق عليه السلام عن الصلاة في البيع والكنائس، فقال عليه السلام: «صلِّ فيها» قُلت: أصلي فيها وإن كانوا يُصلون فيها؟ قال: «نعم. أما تقرأ القرآن: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ صلِّ إلى القبلة ودعهم»(١).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

التّفسير

ما هي الرّوح؟

تبدأ هذه الآية في الإجابة على بعض الأسئلة المهمّة للمشركين ولأهل الكتاب، إذ تقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مفسّرو الإسلام الكبار - السابقون مِنهم واللاحقون - لهم كلامُ كثير عن الروح ومعناها، ونحن في البداية سنشير إلى معنى كلمة (روح) في اللغة، ثمّ موارد استعمالها في القرآن، وأخيراً تفسير الآية والرّوايات الواردة في هذا المجال.

وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة النقاط التالية:

١ - ﴿ٱلرُّوحِ﴾ في الأصل اللغوي تعني (النفس) والبعض يرى بأنَّ (الروح) و(الرّيح) مُشتقّتان مِن معنىً واحد، وإذ تمَّ تسمية روح الإنسان - التي هي جوهرة مستقلة - بهذا الاسم فذلك لأنّها تشبه النَّفَسَ والريح مِن حيث الحركة والحياة، وكونها غير مرئية مثل النَّفَسَ والريح.

٢ - استخدمت كلمة ﴿ٱلرُّوحِ﴾ في القرآن الكريم في موارد ومعانٍ مُتعدِّدة، فهي في بعض الأحيان تعني الروح المقدَّسة التي تساعد الأنبياء على أداء رسالتهم كما في الآية ٨٧ مِن سورة البقرة والتي تقول: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢١٤.

وفي بعض الأحيان تطلق على القوّة الإلهيّة المعنوية التي تقوّي المؤمنين وتدفعهم، كما في قوله تعالى في الآية ٢٢ مِن سورة المجادلة: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وفي موارد أُخرى تأتي للدلالة على (الملك الخاص بالوحي) ويوصف بـ(الأمين)، كما في الآيتين ١٩٣ - ١٩٤ مِن سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

وفي مكان آخر وردت بمعنى (الملك الكبير) مِن ملائكة الله الخاصين، أو مخلوق أفضل مِن الملائكة كما في الآية ٤ مِن سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وفي الآية ٣٨ مِن سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾.

ووردت - أيضاً - بمعنى القرآن أو الوحي السماوي، كما في الآية ٥٢ مِن سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

وأخيراً وردت الروح في القرآن الكريم بمعنى الروح الإنسانية، كما في آيات خلق آدم: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾(١). وكذلك قوله تعالى في الآية ٢٩ مِن سورة الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(٢).

٣ - والآن لنر مِن خلال هذه النقطة ما هو المقصود بالروح في الآية التي نبحثها؟

ما هي الرّوح التي سأل عنها جماعةُ رسول الله ﷺ فأجابهم بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؟

يُمكن أن نستفيد مِن مجموع القرائن الموجودة في الآية أنَّ المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التي تُميِّز الإنسان عن الحيوان، وقد شرّفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كلّ نشاطاتنا وفعالياتنا مِنها، وبمساعدتها نجول في الأرض ونتأمّل السماء، نكتشف أسرار العلوم، ونتوغّل في أعماق الموجودات... إنّهم أرادوا معرفة حقيقة أعجوبة عالم الخلق!!

وَلأنَّ الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، ولها أُصول تحكمها تختلف عن الأُصول التي تحكم المادة في خواصها الفيزيائية والكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى

(١) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٢) قُلنا سابقاً: إنَّ إضافة (روح) إلى الله هي إضافة تشريفية، والهدف هو الروح الكبيرة التي وهبها الله تبارك وتعالى للآدميين.

الرّسول ﷺ أن يقول لهؤلاء في جملة قصيرة قاطعة: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾. ولكي لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا مِن هذا الجواب فقد أضافت الآية: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ حيثُ لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم مِن أنّها أقرب شيء إليكم.

وفي تفسير العياشي نقل عن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام أنّهما قالا في تفسير آية ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ ما نصّه: «إنّما الروح خلق مِن خلقه، لهُ بصرٌ وقوّة وتأييد، يجعلهُ في قلوب الرسل والمؤمنين»(١).

وفي حديث آخر عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا: «هي مِن الملكوت، مِن القدرة»(٢).

وفي الرّوايات المتعدِّدة التي بين أيدينا من طرق الشيعة وأهل السنّة نقرأ أنّ هذا السؤال عن الروح أخذهُ المشركون مِن علماء أهل الكتاب الذين يعيشون مع قريش، كي يختبروا به رسول الله ﷺ، إذ قالوا لهم: إذا أعطاكم الرّسول ﷺ معلومات كثيرة عن الروح فهذا دليل على عدم صدقه، لذلك نراهم قد تعجبوا مِن إجابة الرّسول ﷺ المليئة بالمعاني رغم قصرها وقلّة كلماتها.

ولكن نقرأ في بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، في تفسير هذه الآية، أنّ الروح مخلوق أفضل مِن جبرائيل وميكائيل، وكان هذا المخلوق برفقة النّبي ﷺ وبرفقة الأئمّة الصادقين عليهم السلام من أهل بيته مِن بعده، حيثُ كان يعصمهم مِن أيّ انحراف أو زلل خلال مسيرتهم(٣).

إنّ هذه الرّوايات لا تعارض التّفسير الذي قلناه، بلِ هي مُتناسقة معهُ وداعمة له، لأنّ الروح الإنسانية لها مراتب ودرجات، فتلك المرتبة مِن الروح الموجودة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي في مرتبة ودرجة عالية جدّاً، ومن آثارها العصمة من الخطأ والذنب وكذلك يترتب عليها العلم الخارق. وبالطبع فإنَّ روحاً مِثل هذه هي أفضل مِن الملائكة بما في ذلك جبرئيل وميكائيل. (فتدبّر)

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢١٦.
(٢) المصدر السّابق.
(٣) المصدر السابق، ص ٢١٥.

أصالة واستقلال الرّوح

يُظهر تأريخ العلم والمعرفة الإنسانية أنَّ قضية الروح وأسرارها الخاصّة كانت محط توجُّه العلماء، حيث حاول كلّ عالم الوصول إلى محيط الروح السّري. ولهذا السبب ذكر العلماء آراء مُختلفة وكثيرة حول الروح.

ومِن الممكن أن تكون علومنا ومعارفنا اليوم - وكذلك في المستقبل - قاصرة عن التعرّف على جميع أسرار الروح والإحاطة بتفصيلاتها، بالرغم مِن أنَّ روحنا هي أقرب شيء لدينا مِن جميع ما حولنا، وبسبب الفوارق التي تفصل بين جوهرة الروح وبين ما نأنس بهِ مِن عوالم المادة، فإنّنا لن نحيط بأسرار وكنه الروح، فهي أعجوبة الخلق، والمخلوق الذي يتسامى على المادة.

ولكن كلّ هذا لا يمنعنا مِن رؤية أبعاد الروح بعين العقل، وأن نتعرّف على النظم والأُصول العامّة الحاكمة عليها.

إنَّ أهم أصل يجب أن نعرفه هو قضية أصالة واستقلال الروح، في مقابل آراء المذاهب الوضعية التي تذهب إلى مادية الروح، وأنّها مِن إفرازات الذهن والخلايا العصبية ولا شيء غير ذلك!

وسنبحث هذا الموضوع هنا ونتوسّع فيه، لأنَّ مسألة (بقاء الروح) وقضية (التجرد المطلق أو عالم البرزخ) يعتمدان على هذا الأمر.

ولكن قبل الورود في البحث لا بدَّ من ذكر ملاحظة هامّة، وهي أنّ تعلّق الروح بجسم الإنسان ليست - وكما يظن البعض - مِن نوع الحلول، وإنّما هي نوع مِن الارتباط والعلاقة القائمة على أساس حاكمية الروح على الجسم وتصرّفها وتحكّمها به، حيثُ يشبّهها البعض بعلاقة تعلّق المعنى وارتباطه باللفظ.

هذه المسألة - طبعاً - ستتوضّح أكثر ضمن حديثنا عن استقلال الروح.

والآن لنرجع إلى أصل الموضوع.

لا يشك أحدٌ في أنَّ الإنسان يختلف عن الحجارة والخشب، لأنّنا نشعر - بشكل جيِّد - بأنّنا نختلف عن الجمادات، بل وحتى عن النباتات، فنحن نفهم ونتصوّر ونصمّم، ونريد، ونحب، ونكره، و. . . الخ.

إلاّ أنَّ الجمادات والنباتات ليس لها أيّ مِن هذه الإحساسات، لذلك فثمّة فرق أساسي بيننا وبينها ويتمثّل في امتلاكنا للروح الإنسانية.

ثمّ إنَّهُ لا الماديون ولا أي مجموعة فكرية مذهبية أُخرى تنكر أصل وجود الروح، ولذلك يعتبرون علوماً مِثل علم النفس (سيكولوجيا)، وعلم العلاج النفسي (بسيكاناليزم) مِن العلوم المفيدة والواقعية، وهذين العلمين بالرغم مِن أنّهما يعيشان مراحل طفولتهما بلحاظ بعض العوامل والقضايا، ولكنّهما مع ذلك يدخلان اليوم ضمن المناهج الدراسية في الجامعات، حيث يقوم أساتذة كبار بالبحث والتحقيق فيهما، وكما سنلاحظ، فإنَّ النفس والروح ليستا حقيقتين مُنفصلتين، بل هما مراحل مُختلفة لحقيقة واحدة.

وإنّنا هُنا سنطلق كلمة (النفس) عندما يتعلق الحديث بالارتباط بين الروح والجسم والتأثير المتبادل لكلّ مِنهما على الآخر، أمّا عندما يكون الحديث عن الظواهر الروحية مع غضّ النظر عن البدن فإنّنا سنطلق عليها كلمة (الروح).

وخلاصة القول: أنّه لاأحد يستطيع أن ينكر حقيقة وجود الروح والنفس عندنا.

والآن ينبغي أن نتفحَّص مجالات السجال والحرب بين المذاهب المادية مِن جهة، وبين مجموع هذه المذاهب وتيارات ومذاهب الفلاسفة الروحيين والميتافيزيقيين مِن جهة أُخرى.

إنَّ العلماء الإلهيين والفلاسفة الروحيين يعتقدون بأنَّ الإنسان وبالإضافة إلى المواد التي تدخل في تشكيل جسمه، ينطوي وجوده على حقيقة جوهرية أُخرى لا تتجلى فيها صفات المادة، وإنّ جسم الإنسان يخضع لتأثيرها بشكل مُباشر وفاعل.

وبعبارة أُخرى، فإنَّ الروح هي حقيقة من حقائق ما وراء الطبيعة (أي ميتافيزيقيّة) حيث إنَّ تركيبها وفاعليتها تختلف عن تركيب وفاعلية عالم المادة؛ صحيح أنّها مرتبطة مع عالم المادة، إلاَّ أنّها ليست مادة ولا تملك خواص المادة.

في المقابل هُناك الفلاسفة الماديون الذين يقولون: إنّنا لا نعرف موجوداً مستقلاً عن المادة يسمى بالروح، أو أي اسم آخر، وإنَّ كلّ ما هو موجود هو هذه المادة الجسمية آثارها الفيزيائية أو الكيميائية.

إنّنا نملك جهازاً يسمّى (الذهن والأعصاب) وهو يقوم بقسم مهم مِن أعمالنا الحياتية، وهو مثل باقي الأجهزة المادية حيث يخضع في نشاطه لقوانين المادة.

إنّنا نملك غدداً تحت اللسان تُسمّى الغدد اللعابية والتي تقوم بفاعلية فيزيائية وكيميائية، فعندما يدخل الطعام إلى الفم تقوم هذه الغدد بالعمل بشكل أوتوماتيكي حيث

تقوم بإفراز السائل بالمقدار الذي يحتاجه الطعام حتى يلين ويُمضغ بشكل جيِّد، فهناك أطعمة تحتوي على سوائل وهناك أطعمة قليلة السوائل أو جافّة، وكلّ نوع مِن هذه الأطعمة يحتاج إلى مقدار معيّن مِن هذه السوائل (اللعاب).

المواد الحامضة تزيد مِن عمل هذه الغدد، خاصّة عندما تكون كثافة الطعام كبيرة، حتى يحصل الطعام على كميّة أكبر مِن السوائل ليلين، ومن ثمّ لا تصاب جدران المعدة بضرر.

عندما نبلع الطعام ينتهي عمل هذه الغدد والقنوات. وخلاصة القول: إنَّ هُناك نظاماً عجيباً يتحكّم بهذه الغدد والقنوات بحيث إنّها إذا فقدت تعادلها لمدّة ساعة، فإمّا أن يسيل اللعاب بشكل دائم عبر الشفتين، أو أن يكون الفم جافّاً بحيث لا يمكن ابتلاع الطعام، هذا هو العمل الفيزيائي للعاب، إلاَّ أنّنا نعلم أنَّ العمل الأهم للعاب هو عمله الكيمياوي، فهناك مواد مُتنوعة مُتداخلة معهُ حيث تتفاعل مع الطعام وتقلل مِن تعب المعدة.

الماديون يقولون: إنّ عقلنا وأعصابنا يشبهان عمل الغدد اللعابية وما شابهها مِن أجهزة الجسم مِن حيث العمل الفيزيائي والكيميائي (حيث يسمّى المجموع فيزيوكيميائي) وهذا العمل الفيزيوكيميائي نحنُ نسمّيه بـ «الظواهر الرّوحية أو «الرّوح».

الماديون يقولون: عندما نُفكّر تصدر سلسلة مِن الأمواج الكهربائية مِن عقلنا، هذه الأمواج يمكن التقاطها اليوم بواسطة أجهزة خاصّة وتدوينها على الأوراق ودراستها، خاصّة في مستشفيات الأعصاب، حيث يتمّ تشخيص الأمراض العصبية ومعالجتها، وهذه هي الفعالية الفيزيائية لعقلنا.

إضافة إلى هذا، فإنَّ خلايا العقل عند التفكير، وكذلك عندِ النشاطات العصبية المختلفة، تقوم بمجموعة مِن الأفعال والانفعالات الكيمياوية.

لذلك فإنَّ الروح والصفات الروحية ليست سوى الخواص الفيزيائية والأفعال الكيميائية للخلايا العقلية والعصبية.

إنَّ الماديين يستفيدون مِن كلّ هذا العرض لبلورة النتائج التالية:

١ - بما أنَّ نشاط الغدد اللعابية وآثارها المختلفة لم تكن موجودة قبل وجود جسم الإنسان، بل إنّها وُجدت بعد وجوده، لذا فإنَّ النشاطات الروحية تظهر بعد ظهور الدماغ والجهاز العصبي، وتموت هذه الفعاليات بموت الإنسان.

٢ - الروح من خواص الجسم، إذن فهي مادية وليس لها أي صفات ميتافيزيقية.
٣ - الروح خاضعة لجميع القوانين التي تحكم جسم الإنسان.
٤ - ليس هُناك وجود مستقل للروح بدون جسم، ولا يمكن أن يكون ذلك.

دلائل الماديين على عدم استقلال الروح:

لقد أورد الماديون شواهد لإثبات دعواهم بأنَّ الروح والفكر وسائر الظواهر الروحية هي قضايا مادية، أي تكون انعكاساً للخواص الفيزيائية والكيميائية للخلايا العصبية والدماغية، ونستطيع أن نشير هُنا إلى هذه الشواهد مِن خلال هذه النقاط:

١ - «يمكن الإشارة وبسهولة إلى تعطُّل قسم مِن الأغراض الروحية عند عطل أو إصابة قسم مِن المراكز العصبية أو سلسلة مِن الأعصاب»[١].

فمثلاً تمّ اختبار حالة رُفِعَ فيها قسم مِن دماغ الطير، ولم يؤدّ ذلك إلى موته، بل إنَّهُ فقد قسماً كبيراً مِن معلوماته، مثلاً يفقد شهيّته للطعام فإذا أعطيناه طعاماً فإنَّهُ يأكلهُ ويهضمه، ولكنّا إذا لم نعطه ووضعنا الحَب أمامه فإنَّهُ لا يأكل وسيموت مِن الجوع.

كما شوهد أنَّ إصابة دماغ الإنسان نتيجة للحوادث أو الأمراض ببعض الضربات أو الصدمات، يؤدّي إلى فقدان الدماغ لجزء كبير مِن نَشاطه، حيث ينسى الإنسان جانباً مِن معلوماته.

وقد قرأنا قبل فترة في الصحف أنَّ شاباً مُثقفاً من مدينة (الأهواز) الايرانية تعرّض لضربة على دماغه في حادثة، فنسي جميع أحداث حياته الماضية حتى أنَّهُ نسي أُمّه وأُخته ونسي نفسهُ وعندما جاؤوا بهِ إلى بيته والمكان الذي وُلِدَ وترعرع فيه، فإنَّهُ لم يعرف هذا المكان وبدا فيه غريباً.

إنَّ هذه الأُمور وما شابهها تثبت وجود علاقة قريبة بين نشاطات الخلايا الدماغية والظواهر الروحية.

٢ - «عندما نفكّر تزداد التغييرات المادية على سطح الدماغ... الدماغ يحتاج إلى طعام أكثر، ويطرح مواد فسفورية أكثر، ولكن عند النوم فإنَّ الدماغ لا يقوم بالتفكير، لذا فإنَّهُ يحتاج إلى طعام قليل، وهذا يعتبر دليلاً على أنَّ الآثار الفكرية للإنسان تترشح من فعاليات مادية»[٢].

---

(١) بيسيكولوجي دكتور آراني، ص ٢٣.
(٢) البشر في النظرة المادية، دكتور آراني، ص ٢.

٣ - تُظهر التجارب أنّ وزن أدمغة المفكرين هي أكثر مِن الحد المتوسط (الحد المتوسط لدماغ الرجل في حدود ١٤٠٠ غرام، والحد المتوسط لدماغ المرأة أقل مِن هذا بقليل)، وهذا دليل آخر - بزعم الماديين - على مادية الروح.

٤ - إذا كانت قوّة التفكير والظواهر الروحية دليلاً على الوجود المستقل للروح، فيجب أن نقبل ذلك أيضاً في الحيوانات، لأنّها تملك قدرة الإدراك.

والخلاصة: إنّ الماديين يتحركون في عملية الاستدلال من مقولة إننا ندرك ونحس بأنَّ روحنا ليست موجوداً مستقلاً، والتطورات المتعلقة بمعرفة الإنسان ودراسته تُؤيّد هذهِ الحقيقة.

وَمِن مجموع هذه الاستدلالات، يستنتج هؤلاء أنَّ التقدّم الفيزيولوجي الإنساني والحيواني يوضّحان يوماً بعد آخر حقيقة وجود العلاقة القريبة بين الظواهر الروحية والخلايا الدماغية.

نقد هذه النظرية

الخطأ الكبير الذي وقع فيه الماديون في أدلتهم واستنتاجاتهم، أنّهم خلطوا بين (وسائل العمل) و(القائم بالعمل).

ولأجل معرفة هذا الخلط نذكر هنا مثالاً للتوضيح نرجو أن يدقق فيه القارىء الكريم جيّداً:

مُنذ زمان غاليلو وحتى يومنا الحاضر، حصل تحوُّل كبير في دراسة حركة الأفلاك والأجرام السماوية، فغاليلو الإيطالي استطاع وبمعونة أحد صانعي النظارات الزجاجية مِن صناعة مرصد صغير، فطار غاليلو بهِ فرحاً، بحيث إنَّهُ شرَعَ عند المساء بدراسة نجوم السماء بواسطة مرصده الذي أظهر لهُ أوضاعاً عجيبة إذ إنَّهُ شاهد عالماً لم يستطع أي إنسان مشاهدته حتى ذلك اليوم، لقد فهم غاليلو أنَّهُ توصَّل إلى اكتشاف مهم، ومُنذ ذلك اليوم أصبحت دراسة أسرار العالم العُلْوي في متناول الإنسان.

لقد كان الإنسان حتى ذلك اليوم مثل الفراشة التي لم تكن ترى مِن حولها سوى بعض أغصان الشجر، أمّا عندما صنع الإنسان التلسكوب فإنَّهُ استطاع أن يشاهد مِن حوله مقداراً مِن أشجار الغابة الكبيرة.

لقد تطّور العمل في التلسكوب حتى وصل إلى وضعه الراهن حيث بُنيت مختبرات كبيرة ومراصد جبّارة يبلغ قطر عدساتها عدّة امتار لقد نُصبت هذه المراصد في أعالي

الجبال المرتفعة حيثُ يتميز الأفق بصفاء خاص ممّا يسهل على الفلكيين دراسة النجوم، وبواسطة هذه المراصد الجبّارة استطاع الإنسان أن يُشاهد عوالم أُخرى كان عاجزاً عن مشاهدتها بالعين المجرّدة قبل ذلك.

والآن لِنتصوّر أنّ الإنسان يكون بمقدوره مستقبلاً أن يتوصّل إلى صناعة مرصد بقطر ١٠٠ متر بحيث يكون حجم الأجهزة المستخدمة فيه بحجم مدينة بكاملها، فما هي يا ترى العوالم التي سوف تنكشف لهُ بواسطة ذلك؟

والآن نطرح هذا السؤال: لو أخذت مِنّا هذه المجاهر والعدسات، أفلا يتعطّل قسم مِن معلوماتنا ومعارفنا حول السماوات... وهل الناظر الأصلي نحنُ أم التلسكوب والمجهر؟

هل المجهر والتلسكوب وسيلة نستطيع بواسطتها الرؤيا والمشاهدة، أم أنّها هي التي تقوم بالعمل والنظر الحقيقي؟

وفيما يخصُّ الدماغ لا يستطيع أي شخص أن يُنكر أنَّهُ بدون الخلايا الدماغية لا يمكن أن تتمّ عملية التفكير، ولكن هل الدماغ هو وسيلة عمل للروح، أم أنَّهُ هو الروح؟

وخلاصة القول: إنّ جميع الأدلة التي ذكرها الماديون تُثبت وجود الارتباط بين خلايا العقل والدّماغ وبين إدراكاتنا، إلاّ أنَّ أيّاً مِنها لا يُثبت أنَّ الدماغ يقوم بالإدراك، بل إنَّهُ مجرّد وسيلة لذلك.

وهنا يتّضح لماذا لا يفهم الموتى شيئاً، إذ إنّهم وبسبب عدم وجود الارتباط بين الروح والبدن يعجزون عن ذلك، وبالتالي فإنَّ الموت لا يعني فناء الروح وانعدامها، ومثل الميت مَثَلُ السفينة أو الطائرة التي عُطّل فيها جهاز اتصالها (اللاسلكي) فالسفينة والطائرة بمن فيهما موجودون إلاَّ أنَّ اتصالهم مع الساحل أو المطار مقطوع بسبب فقدانهم لوسيلة الارتباط والاتصال.

أدلة استقلال الروح

كان الكلام حتى الآن عن الماديين الذين يصرّون على أنَّ الظواهر الروحية هي إفرازات لخلايا الدماغ، ويعتبرون الفكر والإبداع والحبّ والتنفّر والغضب وجميع العلوم، مِثل القضايا المادية التي تخضع لأسلوب العمل المختبري وتشملها قوانين المادة، إلاَّ أنَّ الفلاسفة الذين يعتقدون باستقلالية الروح ذكروا أدلة قاطعة على نفي هذه العقيدة، منها:

أوّلاً: ادراك الواقع الخارجي

إنَّ أوّل سؤال يمكن أن نطرحهُ على الماديين، هو أنَّهُ إذا كانت الأفكار والظواهر الروحية هي نفسها الخواص (الفيزيوكيميائية) للدماغ، ففي مثل هذه الحالة ينبغي أن تنعدم الخلافات والفروق بين عمل الدماغ وبين عمل المعدة أو الكلية أو الكبد، حيثُ إنّ عمل المعدة هو التركيب الأساس ومجموعة مِن الفعاليات الفيزيائية والكيميائية، إذ بواسطة نشاط معيّن وإفرازات حامضية تتم عملية هضم الطعام ويصبح جاهزاً للامتصاص مِن قبل الجسم. وإذا كان إفراز اللعاب عملاً فيزيائياً وكيميائياً في آن واحد، فإنّنا نرى أنَّ العمل الروحي يختلف عن هذه الأعمال.

إنّ كلّ أعمال أجهزة الجسم لها تشابه بدرجة معيّنة مع بعضها البعض، ما عدا (الدماغ) الذي لهُ وضع استثنائي، إنَّ أجهزة الجسم مرتبطة جميعاً بجوانب داخلية، في حين أنَّ الظواهر الروحية لها جهة خارجيّة وتخبرنا عن الواقع الخارجي المحيط بنا.

ولأجل توضيح هذا الكلام يجب ذكر بعض الملاحظات:

الملاحظة الأُولى: هل هُناك عالم خارج وجودنا؟

من البديهي وجود مثل هذا العالم، أمّا المثاليون الذين يُنكرون وجود العالم الخارجي ويقولون بأنَّ كلّ ما وجود هو (نحن) و(تصوراتنا) ويعتبرون العالم الخارجي مجموعة مِن التصورات والأحلام التي تُشاهد في النوم، فهؤلاء على خطأ، وقد أثبتنا خطأهم هذا في أحد الأبحاث، وأثبتنا أنّه كيف يتحوّل هؤلاء المثاليون إلى واقعيين في العمل، إذ إنّ ما يفكرون بهِ في محيط مكتباتهم يَنسونَهُ عِندما يتجولون في الشارع ويتنقّلون مِن مكان إلى آخر.

الملاحظة الثّانية: هل ندرك ونعلم بوجود العالم الخارجي، أم لا؟

بالطبع الجواب على هذا السؤال بالإيجاب، لأنّنا نملك معرفة كبيرة عن العالم الخارجي، وعندنا معلومات كثيرة عن الموجودات المحيطة بنا.

والآن نصل إلى هذا السؤال: هل هُناك وجود للعالم الخارجي في داخل وجودنا؟ طبعاً لا، ولكن ارتساماته وصورته منعكسة في أذهاننا حيث نستفيد مِن خاصيّة (انعكاس الواقع الخارجي) لإدراك العالم الخارجي.

هذا الإدراك الذهني للعالم الخارجي - في الحقيقة - ليس من الخواص الفيزيوكيميائية للدماغ لوحدها، إذ إنَّ هذه الخواص وليدة إحساسنا وتأثرنا بالعالم

الخارجي، وفي الاصطلاح: فإنّها معلولة لها. ونفس الشيء يقال بالنسبة لتأثير الطعام على معدتنا، فهل تأثير الطعام على معدتنا والنشاطات الفيزيائية والكيميائية تكون سبباً لمعرفة المعدة بالأطعمة؟

إذن كيف يستطيع الدماغ أن يتعرّف على عالمه الخارجي؟

بعبارة أُخرى نقول: في التعرّف على الموجودات الخارجية هُناك حاجة إلى نوع مِن الإحاطة بها، وهذه الإحاطة ليست مِن عمل الخلايا الدماغية، إذ الخلايا الدماغية تتأثر بالخارج فقط، وهذا التأثُر مَثَلَهُ كمثل سائر أجهزة الجسم، وهذا الموضوع ندركهُ نحنِ بشكل جيّد.

وإذا كان مجرّد التأثُر بالخارج دليلاً على إدراكنا ومعرفتنا بالواقع الموضوعي الخارجي، فيجب أن تتساوى في ذلك معدتنا ولساننا وأن يكون لها نفس قابلية الفهم، في حين أنّنا نعرف أنَّ واقع الحال ليس كذلك. وخلاصة القول: إنَّ الوضع الاستثنائي لإدراكنا دليل على أنَّ هُناك حقيقة أُخرى كامنة فيها، بحيث إنَّ نظامها والقوانين المتحكّمة فيه تختلف عن القوانين والنظم الفيزيائية والكيميائية. (فتدبّر ذلك).

ثانياً: وحدة الشخصية

الدليل الآخر على استقلال الروح وتمايزها هو مسألة وحدة الشخصية في طول عمر الإنسان.

إذا أردنا أن نشك في كلّ شيء، فإنّنا لا نستطيع أن نشك في موضوع وجودنا (أي مقولة: أنا موجود) وليس ثمّة شك في وجودي وفي علمي بوجودي أو ما يصطلح عليه بـ «العلم الحضوري» وليس «العلم الحصولي» أي إنّني موجود عند نفسي وغير مُنفصل عنها.

على أي حال إنَّ معرفتنا بأنفسنا من أوضح معلوماتنا، ولا تحتاج إلى استدلال وإثبات.

أمّا بالنسبة للاستدلال المشهور الذي استدّل به الفيلسوف الفرنسي ديكارت حول وجوده، والذي يقول فيه (بما أنّني أفكّر فإذن أنا موجود) فهو استدلال زائف وغير صحيح، لأنّهُ قبل أن يثبت وجوده اعترف مرّتين بوجوده (المرَّة الأُولى عِندما يقول: إنّني، والثّانية عندما يقول: أنا) هذا مِن جانب.

ومِن جانب ثانٍ فإنّ (إنّني) هذه منذ بداية العمر حتى نهايته واحدة فـ (إنّني اليوم) هي

نفسها (إنّني بالأمس) وهي نفسها (إنّني مُنذ عشرين عاماً) فـ(أنا) مُنذ الطفولة وحتى الآن تعبير عن شخص واحد لا أكثر، إنّني نفس ذلك الشخص الذي كُنت وسأبقى إلى آخر عمري نفس ذلك الشخص، وليس شخصاً آخر، طبعاً خلال هذه الفترة يكون الإنسان قد درس وتعلّم ووصل إلى مراحل عالية في العلم، ولكن في جميع الأحوال يبقى هو هو، ولا يصبح إنساناً آخر، وهكذا في تعامل الآخرين معه حيث يعتبره الآخرون شخصية واحدة منذ أوّل حياته وإلى آخر لحظة فيها باسم واحد وجنسيّة معيّنة.

والآن لِنر ما هو هذا الكائن المتوغّل في أعماقنا؟ فهل هو ذرّات وخلايا جسدنا ومجموعة الخلايا الدماغية وتأثيراتها؟ إنَّ كلّ هذه الأُمور قد تغيَّرت على مدى عمرنا عِدَّة مرّات، تقريباً في كلّ سبع سنوات مرَّة واحدة، حيثُ نعرف أنَّهُ في كلّ يوم تموت ملايين الخلايا في جسدنا لتحل محلها ملايين أُخرى جديدة، ومثلها في ذلك مثل البناء الذي يتمّ إخراج الطابوق القديم مِنهُ ووضع طابوق جديد في مكانه فلو استمر التعمير في هذا البناء فإنّ البُنية الأساسية لن تتغير، ولكن يبقى البيت هو نفس ذاك البيت برغم أنَّ الناس السطحيين لا يلتفتون لذلك، ومثل خلايا الجسم التي تموت وتحيا كمثل المسبح الكبير الذي يدخلهُ الماء ببطء ويخرج مِن طرف آخر، طبيعي أنَّ ماء هذا المسبح سيتغير بعد مدّة بشكل كامل بالرغم مِن عدم التفات الناس إلى ذلك، إذ يظنون أنَّ ماء المسبح ما زال على حاله لم يتغيَّر.

وبشكل عام، إنَّ كلّ موجود يحصل على الطعام ومِن جانب ثان يستهلك هذا الطعام، فإنَّهُ في الواقع يتجدَّد ويتغَّير بالتدريج.

لذا فإنَّ إنساناً في السبعين مِن عمره لا يبعد أن يكون جسمه قد تغيّر عشر مرّات، وإذا كانَ الأمر كما يقول الماديون، مِن أنَّ الإنسان هو نفس جسمه وأجهزته الدماغية والعصبية وخواصه الفيزيائية والكيميائية، ففي هذه الحالة يجب أن يكون الـ(أنا) قد تغيّر عشر مرات خلال هذه السنوات السبعين! ولهذا يكون هذا الإنسان ليس الإنسان السابق، إلاَّ أنَّ هذا الكلام لا يقبلهُ أيّ وجدان.

ومِن هُنا يتّضح أنّ ثمّة حقيقة واحدة ثابتة على طول العمر، هي غير الأجزاء المادية، هذه الحقيقة لا تتغيّر كالأجزاء المادية، وهي أساس وجودنا وتتحكّم في حياتنا وهي سبب وحدة شخصيّتنا.

الحذر مِن هذا الاشتباه!

البعض يتصوّر أنّ الخلايا الدماغية لا تتغيّر، ويقولون: لقد قرأنا في الكتب الفسيولوجية أنَّ عدد الخلايا الدماغية واحد وثابت مُنذ البداية وحتى نهاية العمر، وهي لا تزيد ولا تنقص وإنّما تكبر، لذلك إذا أصيبت بخلل فلن تكون قابلة للعلاج، وعلى هذا الأساس فإنّنا نملك وحدة ثابتة في مجموع بدننا، هذه الوحدة هي الخلايا الدماغية التي تحفظ لنا وحدة شخصيّتنا.

إنَّ هذا الكلام - في الواقع - يمثّل اشتباهاً كبيراً، فهو خلط بين مسألتين، إذ إنّ ما أثبتهُ العلم مِن ثبات عدد الخلايا الدماغية منذ البداية حتى النهاية وأنّها غير قابلة للزيادة والنقصان، لا يعني أنَّ الذرّات المكوِّنة لهذه الخلايا لا تتغيَّر، فكما قُلنا: إنَّ خلايا الجسم التي تأخذ الطعام وتطرد الذرّات القديمة بالتدريج تكون خاضعة للتغيير، مَثلها في ذلك مَثل ذلك الشخص الذي يأخذ المال مِن طرف وينفقه مِن طرف آخر، فهذا الشخص سيتغيّر رأس ماله بالتدريج، بالرغم مِن أنّ مقدار رأس المال لم يتغيَّر. وكذلك يُمكن أن نذكّر بمثال ماء المسبح.

لذلك، يتبيّن أنَّ الخلايا الدماغية ليست ثابتة، بل متغيّرة مثل سائر خلايا الجسم.

ثالثاً: عدم تطابق الكبير مَع الصغير

افترضوا أنّنا جلسنا على ساحل البحر، وشاهدنا أمامنا عدداً مِن الزّوارق معَ باخرة كبيرة، ثمّ نظرنا إلى جانب الشمس فرأيناها تميل للغروب، بينما القمر بدأ يبزغ مِن الجانب الآخر. وعلى الشاطىء هُناك صفوف مِن طيور الماء الجميلة وقد اقترب بعضها نحو الماء. ونشاهد على الطرف الآخر جبلاً عظيماً تناطح قمّتهُ السماء علواً. والآن، إزاء هذا المنظر، لِنغمض عيوننا بُرهة مِن الزمَن ونتخيّل ما شاهدناه: جبل عظيم، بحرٌ واسع، سفينة كبيرة، كلّ هذه الأُمور ترتسم في مخيلتنا كاللوحة الكبيرة للغاية في مقابل روحنا، أو في داخل روحنا.

والسؤال هُنا: أين مكان هذا المخطط في وجودنا... هل تستطيع الخلايا الدماغية الصغيرة والمحدودة للغاية أن تستوعب حجم اللوحة الكبيرة والمخطط الكبير؟ الإجابة - طبعاً - هي النفي، ولذلك لا بدّ أنّنا نمتلك قسماً آخر في وجودنا يكون فوق المادة الجسمية، وهو مِن السعة بمقدار بحيث يستوعب كلّ هذه المناظر والمخططات واللوحات.

وإلاَّ فهل نستطيع تنفيذ مخطط لبناية ذات مساحة ٥٠٠ متر على قطعة أرض ذات مساحة بضعة مليمترات؟

الجواب - طبعاً - سيكون بالنفي، لأنَّ موجوداً أكبر لا يمكنهُ الانطباق على موجود أصغر مع احتفاظه بكبره وسعته، إذ مِن ضرورات الانطباق أن يكونا مُتساويين، أو أن يكون أحدهما أصغر مِن الثّاني، فيمكن حينذاك تنفيذ الصغير على الكبير.

مع هذا الوضع كيف يُمكن لخلايا دماغنا الصغيرة استيعاب الصور الذهنية الكبيرة؟

إنّنا نستطيع تصوّر الكرة الأرضية بحزامها الذي يبلغ أربعين مليون متر في أذهاننا، ونستطيع أن نتصوَّر ذهنياً كرة الشمس التي تَكبُر الأرض بمقدار مليون ومئتي ألف مَرَّة، وكذلك يُمكننا تصوّر المجرات والتي هي أكبر مِن الشمس بملايين المرّات، ولكن كلّ هذه الصور لا يمكن ارتسامها عملياً في خلايا الدماغ الصغيرة، وذلك وفقاً لقاعدة عدم انطباق الكبير على الصغير.

إذن يجب أن نعترف ونقرّ بوجود كامن فينا هو أكبر مِن جسمنا في قدرة استيعابه وإحاطته بالأشياء والمخططات والموجودات الكبيرة.

سؤال مهم

يُمكن أن يقول البعض: إنّ تصوراتنا الذهنية هي مثل المايكروفيلم أو الخرائط الجغرافية التي تحتوي على مقياس للرسم مِثل $\frac{(١)}{١٠٠٠٠٠٠}$ أو $\frac{(١)}{١٠٠٠٠٠٠٠٠}$ حيث يرمز هذا المقياس إلى مقدار التصغير وكذلك كثيراً ما يحدث لإدراك عظمة باخرة كبيرة جدّاً وتصوير حجمها أنّ أحد الأشخاص يقف على عرشتها ويؤخذ لها صورة لكي يعرف الناظر لها عظمة حجمها من خلال رؤية الشخص الواقف عليها.

وتصوراتنا الذهنية على مِنوال الصور المصغَّرة وذات مقاييس رسم معيّنة، وعندما نكبّرها بنفس المقدار فإنّنا نحصل على المخطط أو الحجم الصحيح والواقعي. وبالطبع فإنّ المخططات والأحجام الصغيرة يُمكن أن تستوعبها الخلايا الدماغية.

في الجواب نقول: إنَّ المايكروفيلم يتمّ تكبيره بواسطة (البرجكتر والشاشة الكبيرة التي تنعكس عليها الصور) كما أنَّ الخرائط الجغرافية تستطيع التعرُّف على ما تطويه مِن أحجام حقيقية بواسطة الأرقام الموجودة تحت الخرائط، فعندما نضرب المساحات بهذا الرقم نحصل على الخريطة الكبيرة الواقعية مجسمة في أذهاننا.

والآن نطرح هذا السؤال: أين هي هذه الشاشة أو الصفحة العظيمة التي ينعكس عليها مايكروفيلم الذهن؟ هل تُمثّل الخلايا الدماغية الصفحة أو الشاشة المعنيّة؟

بالطبع لا، لأنَّ الخريطة الجغرافية الصغيرة التي نضربها بمقياس الرسم لتتحوَّل إلى حجمها الحقيقي، لا يمكن أن يكون مكانها الخلايا الدماغية الصغيرة في حجمها.

وبعبارة أوضح نقول: بالنسبة إلى المايكروفيلم والخارطة الجغرافية، فإنّنا نرى أنَّ الشيء الموجود في الخارج هو الفيلم والخارطة الصغيرة، إلاَّ أنَّهُ في صورنا وإدراكاتنا الذهنية تكون الصور بمقدار وجودها الخارجي، ولابدّ بالتالي مِن مكان يستوعبها، فهل يمكن للخلايا الدماغية وهي بمساحتها وحجمها المعروف أن تستوعب كلّ هذه الأحجام العظيمة؟

وخلاصة القول: إنّنا نتصوّر الصور الذهنية للأشياء بنفس أحجامها وسعتها في موضوعاتها الخارجية، وهذا التصوّر العظيم لا يمكن أنّ ينعكس في الخلايا الدماغية، لذلك فهي تحتاج إلى مكان ومحل خاص، وهكذا ندرك أنّ فينا وجوداً حقيقياً أكبر مِن هذه الخلايا وفوقها جميعاً.

رابعاً: عدم تشابه الظواهر الروحية مع الأوضاع المادية

هُناك دليل آخر على استقلال الروح وعدم ماديتها، ففي الظواهر الروحية نشاهد خواصّاً وأوضاعاً معيّنة تختلف عن الخواص والأوضاع المادية، وليس ثمّة تشابه بينهما. ومثال ذلك ما يلي:

١ - الموجودات المادية تحتاج إلى الزمان ولها بعد تدريجي.

٢ - بمرور الزمن تبلى هذه الموجودات المادية.

٣ - مِن صفاتها أنّها قابلة للتقسيم إلى أجزاء مُتعدِّدة.

ولكنّ الظواهر الذهنية ليست لها هذه الآثار والخواص، حيثُ إنّنا نستطيع أن نتصوّر عالماً كعالمنا الحالي في ذهننا دون الحاجة إلى مرور الزمن والتدرّج.

وإضافة إلى ذلك، فإنَّ اللقطات الموجودة في الذهن مُنذ عهد الطفولة لا تصبح قديمة ولا تستهلك أو تُبلى بمرور الزمن، بل تحتفظ بنفس شكلها، ويُمكن أن يُستهلك دماغ الإنسان، إلاَّ أنَّ صورة البيت المتجسّدة في الدماغ مُنذ عشرين عامًا ثابتة فيه لا تتغيَّر ولا تستهلك ولها نوع مِن الثبات الذي هو صفة عالم ما وراء الطبيعة.

إنَّ روحنا تُظهر خلاّقية عجيبة تجاه الصور، وفي لحظة واحدة وبدون أي مقدمة يمكن رسم صور معيّنة في أذهاننا كالكرات السماوية والمجرات والكائنات الأرضية والجبال وما شابهها، إنَّ هذه الخاصية ليست لكائن مادي، بل هي دليل لكائن ما فوق المادة.

إضافة إلى ذلك فإنّنا لا نشك في أنّ ١ + ٢ = ٤ حيثُ يُمكن تجزئة طرفي المعادلة، مثلاً تجزئة الرقم ٢ أو الرقم ٤ إلاَّ أنَّ مفهوم التساوي هذا لا يمكن تجزئته، فنقول مثلا: إنَّ التساوي لهُ نصفان وكلّ نصف هو غير النصف الآخر، فالتساوي مفهوم لا يقبل التجزئة، فإمّا أن يكون موجوداً أو غير موجود، إذ لا يمكن تنصيفه أبداً.

لذا فإنَّ هذا النوع مِن المفاهيم الذهنية غير قابل للتقسيم، ولهذا السبب فهي ليست مادية، إذ لو كانت مادية لكان يمكن تجزئتها، ولهذا السبب فإنَّ روحنا التي هي مركز للمفاهيم غير المادية لا يمكن أن تكون مادية، لذا فإنّها فوق المادة. (فدقق في ذلك)(١).

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

التّفسير

ما عِندكَ هو مِن رحمته وبركته

تحدّثت الآيات السابقة عن القرآن، أمّا الآيتان اللتان نبحثهما الآن فهما أيضاً ينصبّان في نفس الاتجاه.

ففي البداية تقول الآية: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. وبعد ذلك: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ إنّنا نحنُ الذين أعطيناك هذه العلوم حتى تكون قائداً وهادياً للناس، ونحن الذين إذا شئنا استرجعناها مِنك، وليس لأحد أن يعترض على ذلك.

وعند ربط هذه الآيات بالآية السابقة التي كانت تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإنّنا نعرف أنَّ الله إذا شاء يأخذ حتى هذا العلم الذي أعطاه لرسوله ﷺ.

(١) عرض وتلخيص عن كتاب: المعاد وعالم ما بعد الموت، الفصل المتعلق باستقلال الروح.

الآية التي بعدها جاءت لتستثني، فهي تبيّن أنّنا إذا لم نأخذ ما أعطيناك، فليس ذلك سوى رحمة مِن عندنا، حيثُ يقول تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهذه الرحمة لأجل هدايتك وإنقاذك، وكذلك لهداية وإنقاذ العالم البشري، وهذه الرحمة - في الواقع - مُكمّلة لرحمة الخلق.

إنَّ الله الذي خلق البشر بمقتضى رحمته الخاصّة والعامّة، وألبسهم لباس الوجود الذي هو أفضل الألبسة، هو نفسهُ الذي بعث إليهم قادة واعين معصومين وحريصين رؤوفين ذوي استقامة وقدرة لهداية الناس، لأنّ مِن مقتضيات رحمة الله أن لا تخلو الأرض مِن حجّة له عزّوجلّ.

وفي نهاية الآية ولأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

إنَّ وجود القابلية لهذا الفضل في قلبك الكبير بجهادك وعبادتك مِن جهة، وحاجة العباد إلى مثل قيادتك مِن جهة أُخرى، جعلا فضل الله عليك كبيراً للغاية فقد فتح الله أمامك أبواب العلم، وأنبأك بأسرار هداية الإنسان، وعصمك مِن الخطأ، حتى تكون أسوة وقدوة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

كما أنّه ينبغي أن نشير إلى أنَّ الجملة الاستثنائية الواردة هُنا ترتبط مع الآية السابقة، ومفهوم المستثنى والمستثنى منهُ هو هكذا: إذا أردنا فإنّنا نستطيع أن نمنع عنك هذا الوحي الذي أرسلناه لك، إلاّ أنّنا لا نفعل، لأنَّ الرحمة الإلهيّة شملتك وتشمل جميع الناس(١).

ومِن الواضح أنَّ هذا الاستثناء لا يعني أنَّ الله يحجب في يوم مِن الأيّام رحمته عن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو دليل على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يملك شيئاً مِن عنده، فعلمه ووحيه السماوي هو مِن الله ومرتبط بمشيئته وإرادته.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)﴾

---

(١) في الحقيقة إنّ مفهوم الجملة هو هكذا: «ولكن لا نشاء أن نذهب بالذي أوحينا إليك رحمةً مِن ربّك».

التّفسير

معجزة القرآن

الآيات التي بين أيدينا تتحدّث عن إعجاز القرآن، ولأنَّ الآيات اللاحقة تتحدَّث عن حجج المشركين في مجال المعجزات، فإنَّ الآية التي بين أيدينا - في الحقيقة - مقدمة للبحث القادم حول المعجزات.

إنَّ أهم وأقوى دليل ومعجزة لرسول الإسلام ﷺ والتي هي معجزتهُ الدائمة على طول التاريخ، هو القرآن الكريم الذي بوجوده تبطل حجج المشركين.

بعض المفسّرين أراد أن يؤكّد ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة من خلال مجهولية الروح وأسرارها وقياسها بمجهولية القرآن وأسراره، ولكنّ العلاقة التي أشرنا إليها آنفاً تبدو أكثر مِن هذا الربط[1].

على أيّةِ حال فإنَّ الله يُخاطب رسوله ﷺ ويقول له: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

إنَّ هذه الآية دعت - بصراحة - العالمين جميعهم، صغاراً وكباراً، عرباً وغير عرب، الإنسان أو أيّ كائن عاقل آخر، العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخين والنوابغ وغيرهم لقد دعتهم جميعاً لمواجهة القرآن، وتحدّيه الكبير لهم، وقالت لهم: إذا كُنتم تظنون أنَّ هذا الكلام ليس مِن الخالق وأنّه مِن صنع الإنسان، فأنتم أيضاً بشر، فأتوا إذاً بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم، فهذا العجز أفضل دليل على إعجاز القرآن.

إنَّ هذه الدّعوة للمقابلة والتي يصطلح عليها علماء العقائد بـ«التحدّي» هي أحد أركان المعجزة، وعندما يرد هذا التعبير في أيّ مكان، نفهم بوضوح أنَّ هذا الموضوع هو مِن المعجزات.

ونلاحظ في هذه الآية عدّة نقاط ملفتة للنظر:

١ - عمومية دعوة التحدّي والتي تشمل كلّ البشر والموجودات العاقلة الأُخرى.

٢ - خلود دعوة التحدِّي واستمرارها، إذ هي غير مقيَّدة بزمان، وعلى هذا الأساس فإنَّ هذا التحدِّي اليوم جار مِثلما كان في أيّام النّبي ﷺ، وسيبقى كذلك في المستقبل.

---

(١) يراجع تفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٥٨؛ ذيل الآية مورد البحث.

٣ - استخدام كلمة ﴿ٱجۡتَمَعَتِ﴾ إشارة لأشكال التعاون والتعاضد والتساند الفكري والعملي، الذي يُضاعف حتماً مِن نتائج أعمال الأفراد مئات، بل آلاف المرّات.

٤ - إنَّ تعبير ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ تأكيد مجدَّد على قضية التعاون والتعاضد، وهي أيضاً إشارة ضمنية إلى قيمة هذا العمل وتأثيره على صعيد تحقق الأهداف وتنجُزها.

٥ - إنَّ تعبير ﴿بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ دلالة على الشمول والعموم، وهو يعني (المثل) في جميع النواحي والأُمور، مِن حيث الفصاحة والبلاغة والمحتوى، وَمِن حيث تربية الإنسان، والبحوث العلمية والقوانين الاجتماعية، وعرض التاريخ، والتنبّؤات الغيبية المرتبطة بالمستقبل... إلى آخر ما في القرآن مِن أُمور.

٦ - إنَّ دعوة جميع الناس للتحدّي دليل على أنَّ الإعجاز لا ينحصر في ألفاظ القرآن وفصاحته وبلاغته وحسب، وإلاَّ لو كانَ كذلك، لكانت دعوة غير العرب عديمة الفائدة.

٧ - المعجزة تكون قويّة عِندما يقوم صاحب المعجزة بإثارة وتحدِّي أعدائه ومخالفيه، أي كما نقول: يستفزّهم، ثمّ تظهر عظمة الإعجاز عِندما يظهر عجز أُولئك وفشلهم.

وفي الآية التي نبحثها يتجلّى هذا الأمر واضحاً، فمن جانب دعت جميع الناس، ومِن جانب آخر تستفزّهم بصراحة في قولها ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ ثمّ تحرّضهم وتدفعهم للتحدّي بالقول: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾.

وتتحرك الآية التي بعدها - في الواقع - لتوضيح جانب مِن جوانب الإعجاز القرآني، مُتمثلاً في شموليته وإحاطته بكلّ شيء، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾. ولكن بالرغم مِن ذلك: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

﴿صَرَّفۡنَا﴾ مِن «تصريف» بمعنى التغيير أو التبديل.

أمّا ﴿كُفُورٗا﴾ فتعني إنكار الحق.

حقاً إنَّ التنوّع الذي يتضمّنه القرآن الكريم تنوّع عجيب، خاصّة وأنّه صدر مِن شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ففي هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصّة حول قضايا العقائد، وذكرت - أيضاً - الأحكام المتعلقة بحاجات البشر في المجالات كافة. وتعرَّض القرآن - أيضاً - إلى قضايا وأحداث تأريخية تُعتبر فريدة في نوعها ومثيرة في بابها، وخالية مِن الخرافات.

وتعرّض إلى البحوث الأخلاقية التي تؤثّر في القلوب المستعدّة كتأثير المطر في الأرض الميتة.

القضايا العلمية ورد ذكرها في القرآن الكريم، إذ ذُكرت بعض الحقائق التي لم تكن تُعرف في ذلك الزمان مِن قبل أيّ عالم.

والخلاصة: إنَّ القرآن سلك كلّ واد وتناول في آياته أفضل النماذج.

وإذا توجّهنا إلى حقيقة محدودية معلومات الإنسان كائناً مَن كانَ (كما تشير إلى ذلك أيضاً الآيات القرآنية) وأنَّ رسول الإسلام ﷺ قد ترعرع في بيئة محدودة في القضايا العلمية والمعرفيّة حتى أنّها لم تبلغ مِن معلومات ومعارف الإنسان في زمانها إلاَّ مبلغاً يكاد لا يُذكر... وسط كلّ ذلك، ألا يُعتبر التنوّع في القرآن في قضايا التوحيد والأخلاق والاجتماع والسياسة والأُمور العسكرية وغيرها، دليلاً على أنَّ هذا القرآن ليسَ مِن صُنع عقل بشري، بل مِن الخالق جلَّ وعلا؟

ولهذا السبب إذا اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

لِنفترض أنَّ جميع العلماء والمتخصصين يجتمعون اليوم لتأليف دائرة معارف، ويُنظّموها بأفضل ما لديهم مِن خبرات فنيّة ومعرفيّة، فإنَّ النتيجة ستكون عملاً يلقى صداه الحَسن في مجتمع اليوم، أمّا بعد خمسين عاماً فسيعتبر هذا العمل ناقصاً وقديماً.

أمّا القرآن ففي أيّ عصر وزمان يُقرأ، وخاصّة في زمانا الحاضر، فإنّه يبدو كأنَّهُ نزل ليومنا هذا، ولا يوجد فيه أيّ أثر يدل على أنَّهُ قديم.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

سبب النّزول

لقد ذكرَ المفسّرون استناداً للروايات الواردة أسباباً عديدة لنزول هذه الآيات، وفيما يلي سنتعرّض بشكل موجز إلى هذه الأسباب معتمدين بشكل مُباشر على تفسير مجمع البيان الذي قال:

إنَّ جماعة مِن وُجهاء قريش - وفيهم الوليد بن المغيرة وأبوجهل - اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه وخاصموه، فبعثوا إليه أنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر ﷺ إليهم ظنّاً مِنهُ، أنَّهُم بدا لهم في أمره، وكانَ حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد إنّا دعوناك لِنعذر إليك، فلا نعلم أحداً أدخلَ على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين وسفّهت الأحكام، وفرّقت الجماعة، فإن كُنت جئت بهذا لتطلب مالاً أعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال ﷺ: «ليس شيءٌ مِن ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم الله بيننا».

قالوا: فإذَن ليسَ أحد أضيق بلداً مِنّا فاسأل ربّك أن يُسيِّر هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا مَن مضى وليكن فيهم قصيّ فإنَّهُ شيخٌ صدوق لنسألهم عمّا تقول أحقٌّ أم باطل.

فقال ﷺ: «ما بهذا بعثت».

قالوا: فإن لم تفعل ذلك فاسأل ربّك أن يبعث ملكاً يصدّقك ويجعل لنا جنّات وكنوزاً وقصوراً مِن ذهب.

فقال ﷺ: «ما بهذا بعثت، وقد جئتكم بما بعثني الله به، فإن قبلتم وإلاَّ فهو يحكم بيني وبينكم».

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إنّ ربّك إن شاء فعل ذلك.

قال ﷺ: «ذاك إلى الله إن شاء فعل».

وقال قائلٌ مِنهم: لا نؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

فقام النّبي ﷺ وقامَ معهُ عبد الله بن أبي أميّة المخزومي ابن عمّته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمّد عرضَ عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثمّ سألوك لأنفسهم

أُموراً فلم تفعل، ثمّ سألوك أن تعجّل ما تخوّفهم به فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلّماً إلى السماء ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر، ويأتي معك نفرٌ مِن الملائكة يشهدون لك، وكتاب يشهد لك.

وقال أبوجهل: إنّهُ أبى إلاّ سبّ الآلهة وشتم الآباء، وأنا أُعاهد الله لأحملن حجراً فإذا سجد ضربت بهِ رأسهُ.

فانصرف رسول الله ﷺ حزيناً لما رأى مِن قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات أعلاه[1].

التّفسير

أعذار وذرائع مُختلفة

بعد الآيات السابقة التي تحدّثت عن عظمة وإعجاز القرآن، جاءت هذه الآيات تشير إلى ذرائع المشركين، هذه الذرائع تُثبت أنَّ مواقف هؤلاء المشركين إزاء دعوة الرّسول ﷺ التي جاءت أصلاً لإحيائهم، لم تكن إلاّ للعناد والمُكابرة، حيثُ إنّهم كانوا يُطالبون بأشياء غير معقولة في مقابل اقتراح الرّسول ﷺ المنطقي وإعجازه القوي.

هذه الطلبات وردت على ستة أقسام هي:

١ - في البداية يقولون: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾.

«فجور وتفجير» بمعنى الشق. وهي عامّة، سواء كان شق الأرض بواسطة العيون أو شق الأفق بواسطة نور الصباح (مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ تفجير هي صيغة مُبالغة لفجور).

«ينبوع» مأخوذة مِن «نبع» وهو محل فوران الماء، والبعض قالوا بأنَّ الينبوع هي عين الماء التي لا تنتهي أبداً.

٢ - قولهم كما في الآية: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾.

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث. وكذلك جاءَ مثلهُ مع تفاوت في الدر المنثور للسيوطي ذيل الآيات مورد البحث.

٣ - ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾.

٤ - ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾.

«قبيل» تعني في بعض الأحيان «الكفيل والضامن»، وتعني - في أحيان أُخرى - الشيء الذي يوضع قبال الإنسان وفي مُواجهته، وقال بعضهم بأنّها جمع (قبيلة) أي الجماعة مِن الناس.

وطِبقاً للمعنى الأوّل يكون معنى الآية أن تأتي بالله والملائكة كضامنين على صدقك!

وأمّا طِبقاً للمعنى الثّاني فيكون المعنى أن تأتي بالله والملائكة وتضعهما في مقابلنا!

وأمّا طِبقاً للمعنى الثّالث فيكون معنى الآية أن تأتي بالله والملائكة على شكل مجموعة مجموعة!

ويجب الانتباه إلى أنَّ هذه المفاهيم الثلاثة لا تتعارض فيما بينها، ويمكن أن تكون مجتمعة في مفهوم الآية، لأنّ استخدام كلمة واحدة لأكثر مِن معنى ممكن عِندنا.

٥ - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾.

﴿زُخْرُفٍ﴾ في الأصل تعني (الزينة)، ويقال للذهب «زُخرف» لأنَّهُ مِن الفلزّات المعروفة والمستخدمة لأغراض الزينة، ويقال للبيوت المزيَّنة والملوّنة أنّها (مزخرفة)، كما يُقال للكلام المزوّق والمخادع بأنَّهُ «كلام مزخرف».

٦ - ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾.

ثمّ يصدر الأمر مِن الخالق جلَّ وعلا لرسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء في مقابل اقتراحاتهم هذه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

بحوث

١ - جواب الرّسول للمتذرّعين

لقد تبيّن مِن خلال الآيات أعلاه والحديث الوارد في أسباب النّزول، أنَّ طلبات المشركين العجيبة والغريبة لم تكن صادرة مِن روح البحث عن الحقيقة، بل كان هدفهم البقاء على الشرك وعبادة الأصنام لأنّه كان يمثّل الدعامة الأساسية والقوّة المادية لزعماء مكّة، وكذلك منع النّبي ﷺ من الاستمرار في طريق الدعوة إلى التوحيد بأيّ صورة ممكنة.

إلاّ أنَّ الرّسول الهادي ﷺ أجابهم بجوابين مَنطقيين وفي جملة واحدة وقصيرة:

الجواب الأوّل: إنَّ الخالق جلَّ وعلا مُنزَّه عن هذه الأُمور، مُنزّه التأثّر بهذا وذاك، ومنزّه مِن أن يستسلم للاقتراحات الباطلة والواهية لأصحاب العقول السخيفة: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾.

الجواب الثّاني: بغضّ النظر عمّا مضى فإنَّ الإتيان بالمعجزات ليس مَن عملي، فأنا بشرٌ مِثلكم، إلاَّ أنّني رسول الله، والقيام بالمعاجز مِن عمل الخالق وبإرادته تتمّ، وبأمره تُنجز، فأنا لا أستطيع أن أطلب مثل هذه الأُمور مِن الخالق ولا يحقّ لي أن أتدخل في مثل هذه الأُمور، فمتى شاء سبحانه فسيبعث بالمعجزات لإثبات صدق دعوة رسوله: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾.

صحيح أنَّ هناك ترابطاً بين هَذين الجوابين، إلاَّ أنّهما يعتبران جوابين مُنفصلين، فأحدهما يثبت ضعف البشر في مقابل هذه الأمور، والثّاني تنزيه ربّ البشر عن القبول بهذه المعجزات المُقترحة.

وعادة فإنَّ الرّسول ﷺ ليس إنساناً استثنائياً يجلس في مكان معيّن، ويأتي الأشخاص يقترحون عليه المعجزات كيفما يشاؤون، ويتلاعبون بقوانين وسُنن الخلق والوجود، وإذا لم تُعجبهم معجزة معيّنة يطلبون غيرها... وهكذا.

إنَّ مسؤولية الرّسول ﷺ هي إثبات ارتباطه بالخالق عن طريق المعجزة، وعندما يأتي بالقدر الكافي مِن المعاجز، فليست عليه أيّة مسؤولية أُخرى.

إنَّهُ ﷺ قد لا يعرف بزمان نزول المعجزات، وقد يطلب المعجزة مِن ربِّه عِندما يعلم بأنَّ الإتيان بها يرضي الله تعالى.

٢ - الأفكار المحدودة والطلبات غير المعقولة

كلّ إنسان يتكلم بحدود فكره، ولهذا السبب فإنَّ حديث أيّ شخص هو دليل على مقدار عمق أفكاره.

الأفراد الذين لا يُفكّرون إلا بالمال والجاه يتصوّرون أنَّ كلّ مَن يتحدّث عن شيء إنّما يقصد هذا المجال.

لهذا السبب كان مشركو مكّة يقترحون - بسبب قصور تفكيرهم - على رسول الله اقتراحات تتصل بالمال وقضاياه، يطلبون مِنهُ أن يترك دعوته مقابل المال، إنّهم يقيسون الروح الواسعة لرسول الهدى ﷺ بضيق أفكارهم.

إنَّ هؤلاء كانوا يعتقدون بأنَّ مَن لا يُجاهد في سبيل المال أو المقام مجنون حتماً، ومثلهم كمثل المسجون في غرفة صغيرة لا يرى السماء الواسعة والشمس العظيمة والجبال الشامخة والبحار الواسعة ولا يحس بعظمة عالم الوجود. لقد أرادوا مقايسة الروح السمحة العظيمة لرسول الله ﷺ بمقاييسهم.

إضافة لذلك، لنر ما هي الأشياء التي أرادوها مِن الرّسول ﷺ ولم تكن موجودة في الإسلام، لقد أرادوا الأراضي المزروعة والعيون المُتفجِّرة، وبساتين النخيل والأعناب، والبيوت المزخرفة. ونحن نعلم أنَّ الإسلام قد فتح أبواب التقدُّم والتكنولوجيا بحيث يُمكن في ظل التقدّم الاقتصادي تحقيق الكثير مِن هذه الأُمور، بل ونلاحظ بأنَّ المسلمين في ظل البرامج القرآنية وصلوا إلى تحقيق تقدّم أكثر ممّا كان يدور في عقول المشركين ذوي الأفق الضيّق.

فهؤلاء لو كانوا ينظرون بعين الحقيقة لكانوا قد شاهدوا هذا التطوُّر المعنوي العظيم في هذا الدين، وكذلك الانتصارات المادية المنظورة حيث يضمن القرآن سعادة الإنسان في المجالين الدنيوي والأُخروي.

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ اقتراحاتهم السفيهة الأُخرى تدل على مدى التكبُّر والغرور والجهل المسيطر على عقولهم... كقولهم: أو تسقط السماء علينا..

وقولهم: أن تضع سلّماً وتصعد إلى السماء.

وقولهم: أن تحضر أمامنا الله والملائكة!! حتى أنّهم لم يطلبوا منه أن يأخذهم إلى الله تعالى... فما أشدّ هذا الجهل والغرور والتكبُر!!

٣ - ذريعة أُخرى لِنفي الإعجاز

بالرّغم مِن وضوح الآيات أعلاه، وأنّها غير معقّدة، وأنَّ طلبات المشركين من رسول الله ﷺ واضحة، وكذلك سبب تعامل رسول الله ﷺ السلبي مع هؤلاء معلوم أيضاً، إلاّ أنَّ الآيات أصبحت ذريعة بيد بعض المتذرّعين في عصرنا الذين يصرّون على نفي أيّ معجزة لرسول الله ﷺ.

و هؤلاء يعتبرون هذه الآيات من أوضح الأدلة على نفي الإعجاز عن رسول الله ﷺ حيث طلب المشركون منه ﷺ أن يأتي بستة أنواع من المعاجز سواء من الأرض أو السماء وسواء كانت مفيدة لهم أم قاضية بموتهم، إلاّ أنّه ﷺ لم يستطع تنفيذ أيّ منها، وجوابه الوحيد لهم كان ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

نحن نقول: إذا لم يكن متذرعو اليوم كأسلافهم، فإنّ ما ورد في الآيات يكفيهم جواباً على ما أوردوا، إذ ينبغي أن نلاحظ ما يلي:

١ - بعض الطلبات هزيلة، كمثل طلبهم إحضار الخالق جلّ وعلا والملائكة، أو المجيء برسالة من السماء فيها أسماؤهم وعناوينهم! البعض الآخر مما طلبوا، إذا أجابهم رسول الله ﷺ إليه، سوف لن يبقى أثر لهم، وبالتالي لن تكون قضية المعجزة ذات أثر في إيمانهم أو عدمه، مثل قولهم أن يسقط عليهم كسفاً من السماء، أي أن تنزل عليهم صخور من السماء.

أمّا بقية الطالبات المقترحة فتشمل الحصول على المزيد من وسائل الحياة المرفّهة والأموال والثروات الكبيرة، في حين أنّ الأنبياء لم يأتوا لتحقيق هذه الأُمور.

وإذا افترضنا خلّو ما اقترحه المشركون من المآخذ، فإنّنا نعلم - كما تخبر بذلك الآيات - أنّ ما طلبوه كان من نمط التحجّج والتذرّع أمام دعوة الرّسول ﷺ وليس من مسؤولية رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ذرائعهم وتحجّجاتهم هذه، بل عليه أن يقدّم المعجزة بمقدار ما يثبت صدق دعوته، ولا شيء أكثر من ذلك.

٢ - بعض تعابير هذه الآيات توضّح بنفسها - بصراحة شديدة - مدى عناد وتذرّع هؤلاء بمثل هذه الطلبات، فمثلاً هم يقترحون على رسول الله ﷺ الصعود إلى السماء، ولكنّهم يقولون له، بأنّنا لا نصدّق صعودك إن لم تأتنا برسالة من السماء.

إذا كان هؤلاء طُلاّب معجزة - فقط - فلماذا لا يكفيهم صعود الرّسول ﷺ إلى السماء، ثمّ هل هُناك دليل أوضح مِن هذا على عدم واقعية هؤلاء القوم وعدم مَنطقية عروضاتهم؟

٣ - إضافة إلى كلّ ما مر، فإنّنا نعلم أنَّ المعجزة مِن عمل الخالق جلَّ وعلا وليست مِن عمل الرّسول ﷺ، في حين يظهر واضحاً مِن كلامهم أنّهم كانوا يعتبرون المعجزة مِن فعله ﷺ، لذا كانوا ينسبون جميع الأعمال إليه مثل قولهم: ﴿تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا... أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ وما إلى ذلك مِن طلبات.

الرّسول ﷺ كان يعتقد بأنَّ عليه أن يزيل هذه الأوهام مِن عقولهم، ويُثبت لهم بأنَّهُ ليس هو الله ولا هو شريكهُ، والمعجزة مِن الله دون سواه، فأنا بشرٌ مِثلكم، والفارق أنَّ الوحي ينزل عليّ، وبمقدار ما يلزم الأمر فإنَّ الله يُنزل المعاجز على يدي، ولا أستطيع

أن أفعل أكثر مِن هذا، وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ شاهد على هذا المعنى، إذ إنَّ الخالق مُنزَّه عن أيّ شريك وشبيه.

وبالرّغم مِن أنَّ القرآن ذكر معاجز مُتعدِّدة لعيسى عليه السلام مِثل إحياء الموتى وشفاء المرضى وغير ذلك، إلاَّ أنَّ هذه المعجزات جميعاً كانت مُلحقة بكلمة «بإذني» أو «بإذن الله» أي إنّها تتم - فقط - بإذن الخالق، وأجريت على يد المسيح عليه السلام (١).

٤ - أيّ إنسان يصدّق بأنّ إنساناً يدّعي النّبوة، بل يعتبر نفسهُ خاتم النّبيين، ويذكر في كتابه المعاجز الكثيرة للأنبياء السابقين، إلاَّ أنَّهُ نفسهُ لا يستطيع أن يأتي بمعجزة؟!

ثمّ إنَّ الناس على هذا الفرض، ألا يعترضون على مثل هذا النّبي ويقولون لهُ: كيف تكون نبيّاً في حين أنّك تعجز عن القيام بمعاجز مثل معاجز الأنبياء الآخرين... فإن كُنت تدّعي أنّك أفضل مِنهم جميعاً وخاتمهم، فكيف إذن تستقيم الدعوة مع عدم الإتيان بالمعجزات؟

إنَّ هذا الواقع - بحدِّ ذاته - دليل على أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جاءَ - عند الضرورة واللزوم - بالمعجزات، ومن هُنا يتّضح أنّ عدم استسلام رسول الهدى صلى الله عليه وآله وسلم لطلبات المشركين الآنفة إنّما يعود لعلمه صلى الله عليه وآله وسلم بعدم جدواها في إثبات ما يلزم مِن نبوّته، وأنّها انطلقت - فقط - على سبيل التحجّج والتذرُّع مِن قبل عتاة قريش وكُبرائها، لذلك أهمل صلى الله عليه وآله وسلم هذا الكلام ولم يستجب لاقتراحاتهم غير المنطقية وغير المعقولة.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

التّفسير

ذريعة عامّة

الآيات السابقة تحدَّثت عن تذرُّع المشركين - أو قسم منهم - في قضية التوحيد، أمّا الآيات التي نبحثها فإنّها تشير إلى ذريعة عامّة في مقابل دعوة الأنبياء، حيثُ تقول: ﴿وَمَا

(١) يُمكن في هذا الصدد مُراجعة الآيتين (١١٠) مِن سورة المائدة، و(٤٩) مِن سورة آل عمران.

مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

هل يمكن التصديق بأنّ هذه المهمّة والمنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان، ثمّ - والكلام للمشركين - ألم يكن الأولى والأجدر أن تقع هذه المهمّة وهذه المسؤولية على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة - مثلاً - كي يستطيعوا أداء هذه المهمّة بجدارة... إذ أين الإنسان الترابي والرسالة الإلهيّة؟!

إنّ هذا المنطق الواهي الذي تحكيه الآية على لسانِ المشركين لا يخصّ مجموعة أو مجموعتين مِن الناس، بل إنّ أكثر الناس وفي امتداد تأريخ النّبوات قد تَذَرّعوا به في مقابل الأنبياء والرُّسُل.

قوم نوح عليه السلام - مثلاً - كانوا يعارضون نبيّهم بمثل هذا المنطق ويصرّحون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما حكَت ذلك الآية ٢٤ مِن سورة المؤمنون.

أمّا قوم هود فقد كانوا يُواجهون نبيّهم بالقول: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ كما ورد في الآية ٣٣ مِن سورة المؤمنون. ثمّ أضافت الآية ٣٤ مِن نفس السورة قولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

نفس هذه الذريعة تمسّك بها المشركون ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمام دعوة الإسلام التي جاءَ بها، إذ قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾(1).

القرآن الكريم أجاب هؤلاء جميعاً في جملة قصيرة واحدة مليئة بالمعاني والدلالات، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

يعني أنّ القائد يجب أن يكون مِن سنخ مَن بُعِثَ إليه، ومِن جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، والمَلَك لجماعة الملائكة.

ودليل هذا التجانس والتطابق بين القائد وأتباعه واضح؛ فمن جانب يعتبر التبليغ العملي أهم وظيفة في عمل القائد مِن خلال كونه قدوة وأسوة، وهذا لا يتمّ إلاّ أن يكون القائد مِن جنسهم، يمتلك نفس الغرائز والأحاسيس، ونفس مكوّنات البناء الجسمي والروحي الذي يملكهُ كلّ فرد مِن أفراد جماعته، فلو كانَ الرّسول إلى البشر مِن جنس

(1) سورة الفرقان، الآية: ٧.

الملائكة الذين لا يملكون الشهوة ولا يحتاجون إلى الطعام والمسكن والملبس، فلا يستطيع أن يمثّل معنى الأسوة والقدوة لِمن بُعِثَ إليهم، بل إنَّ الناس سوف يقولون: إنَّ هذا النّبي المرسل لا يعرف ما في قلوبنا وضمائرنا، ولا يدرك ما تنطوي عليه أرواحنا من عوامل الشهوة والغضب وما إلى ذلك، إنَّ مثل هذا الرّسول يتحدّث إلى نفسه فقط، إذ لو كان مِثلنا يملك نفس أحاسيسنا ومشاعرنا لكانَ مِثلَ حالنا أو أسوأ، لذا لا اعتبار لكلامه.

أمّا عندما يكون القائد مِثل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي يقول: «إنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لِتأتي أمنة يوم الخوف الأكبر»[1]. فإنّ مِثلَه يصلح أن يكون الأسوة والقدوة لِمن يقودهم.

مِن جانب آخر ينبغي للقائد أن يُدرك جميع احتياجات ومشاكل أتباعه كي يكون قادراً على علاجهم، والإجابةِ على أسئلتهم، لهذا السبب نرى أنَّ الأنبياء برزوا مِن بين عامّة الناس، وعانوا في حياتهم كما يعاني الناس، وذاقوا جميع مرارات الحياة، ولمسوا الحقائق المؤلمة بأنفسهم وهيّأوا أنفسهم لمعالجتها ومصابرة مُشكلات الحياة.

ملاحظات

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني إنّ سبب عدم إيمانهم هو هذا التذرُّع، إلاَّ أنَّ هذا التعبير ليس دليلاً على الحصر، بل هو للتأكيد وبيان أهمية الموضوع.

٢ - عبارة: ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ موضع اختلاف أقوال وآراء المفسّرين، فالبعض يعتبرها إشارة إلى قول عرب الجاهلية الذين كانوا يقولون بأنّنا كُنّا نعيش في هذه الجزيرة حياةً هادئة، وقد جاءَ محمّد ليجلب الفوضى والقلق، إلاَّ أنّهم جوبهوا بقول القرآن لهم بأنَّهُ حتى لو كانت الملائكة تسكن الأرض وكانوا يعيشون حياةً هادئة - كما تدّعون - فإنّنا كُنّا سنرسل لهم رسولاً مِن جنسهم وصنفهم.

البعض الآخر مِن المفسّرين فسّرها بأنّها «اطمئنان إلى الدنيا ولذّاتها والابتعاد عن أيّ مذهب ودين».

وأخيراً فسّرها بعضهم بمعنى (السكن والتوطّن) في الأرض.

لكنّ الاحتمال الأقوى هو أن يكون هدف الآية: لو كانت الملائكة ساكنة في الأرض، وكانوا يعيشون حياةً هادئة وخالية مِن الصراع والنزاع، فبالرّغم من ذلك كانوا

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة رقم ٤٥.

سيشعرون بالحاجة إلى قائد مِن جنسهم، حيثُ إنَّ الهدف مِن إرسال الأنبياء وبعثهم ليس لإنهاء الصراع والنزاع وإيجاد أسباب الحياة المادية الهادئة وحسب، بل إنَّ هذه الأُمور هي مقدمة لطي سبيل التكامل والتربية في المجالات المعنوية والإنسانية، ومثل هذا الهدف يحتاج إلى قائد إلهي.

٣ - يستفيد العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان مِن كلمة «أرض» في الآية أعلاه، أنَّ طبيعة الحياة المادية على الأرض تحتاج إلى نبي، وبدونه لا يمكن الحياة.

إضافة إلى ذلك فإنّه يرى أنّ هذه الكلمة إشارة لطيفة إلى جاذبية الأرض حيث إنَّ التحرُّك بهدوء واطمئنان بدون وجود الجاذبية يعتبر أمراً محالاً.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

التّفسير

المهتدون الحقيقيّون

بعد أن قطعت الآيات السابقة أشواطاً في مجال التوحيد والنّبوة وعرض حديث المعارضين والمشركين، فإنَّ هذه الآيات عبارة عن خاتمة المطاف في هذا الحديث، إذ تضع النتيجة الأخيرة لكلّ ذلك. ففي البداية تقول الآية إذا لم يقبل أُولئك أدلتك الواضحة حول التوحيد والنبوة والمعاد فقل لهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾(١).

إنَّ هذه الآية تستهدف أمرين فهي **أوّلاً**: تُهدِّد المعارضين المتعصّبين والمعاندين، بأنَّ الله خبير وبصير ويشهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنّوا بأنّكم خارجون عن محيط قدرته أو أنَّ شيئاً مِن أعمالكم خاف عنه.

---

(١) مِن حيث التركيب: إنَّ «الباء» في ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ زائدة، و«الله» فاعل «كفى» و«شهيداً» تمييز، أو حال كما يقول البعض.

الأمر الثّاني: هو أنّ الرّسول ﷺ أظهر إيمانه القاطع بما قال، حيث إنّ إيمان المتحدّث القوي بما يقول، له أثرٌ نفسي عميق في المستمع، وعسى أن يكون هذا التعبير القاطع والحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثّراً فيهم، ويهزّ وجودهم، ويوقظ فكرهم ووجدانهم ويهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكّد على أنّ الشخص المهتدي هو الذي قذف الله تعالى نور الإيمان في قلبه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أمّا من أضلّه الله بسوء أعماله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾. فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه ويطلبوا نور الهداية منهُ.

هاتان الجملتان تُثبتان أنّ الدليل القوي والقاطع لا يكفي للإيمان، فما لم يكن هُناك توفيق إلهي لا يستقر الإيمان أبداً.

هذا التعبير يشبه دعوتنا لمجموعة لأن تفعل الخير بعد أن نشرح لهم أهمّية الموضوع بواسطة الأدلة المُختلفة، إلاّ أنّ الحصيلة العملية ستكون موافقة البعض، وامتناع البعض الآخر عن فعل الخير برغم صحة الأدلة. وبذلك لا يكون كلّ واحد لائقاً لفعل الخير.

وهذه حقيقة فليس كلّ قلب يليق لأن ينال نور الحق، إضافة إلى أنّ الكلام يُثير المستمع، وقد يحدث أن يترك الشخص بتأثير هذا الكلام عناده ولجاجه ليثبت لياقته للحق ويستسلم له.

وقُلنا مِراراً: إنّ الهداية والضلالة الإلهيّتين ليستا شَيْئَيْنِ جبريين، بل تخضعان للأثر المباشر لأعمال الإنسان وصفاته، فالأشخاص الذين جاهدوا أنفسهم وسعوا بجديّة في طريق القرب الإلهي، فمن البديهي أنّ الله سيوفقّهم ويهديهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١).

أمّا أُولئك الذين يسلكون طريق العناد والمُكابرة وتتلوّث فطرتهم وقلوبهم بأنواع الذنوب والمفاسد والمظالم، فإنّهم قد قضوا على أيّ استعداد أو جدارة لديهم لقبول الحق فهم بالتالي مستحقون للضلالة: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢). ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٣). ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾(٤).

أمّا عن سبب مجيء ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدُّد الآلهة

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة غافر، الآية: ٣٤.

الوهميّة أو تنوّع الوسائل التي يلجأون إليها، فيكون المقصود أنَّ جميع هذه الوسائل وجميع البشر وغير البشر، وكلّ ما تؤلّهون مِن آلهة مِن دون الله، لا يستطيع أن ينقذكم مِن الضلالة وسوء العاقبة.

ثمّ تذكر الآيات - بصيغة التهديد القاطع - جانباً مِن مصيرهم بسبب أعمالهم في يوم القيامة فتقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فبدلاً مِن الدخول بشكل عادي وبقامة منتصبة، فإنَّ الملائكة الموكّلين بهم يسحبونهم إلى جهنَّم على وجوههم تعذيباً لهم.

البعض يعتقد أنَّ هؤلاء يُسحبون يوم القيامة بسبب عجزهم في ذلك اليوم عن المشي، لذلك فإنّهم يزحفون كالزواحف على وجوههم وصدورهم بشكل ذليل ومؤلم.

نعم، فأُولئك محرومون مِن نعمة كبيرة، هي نعمة المشي على الأرجل، لأنّهم لم يستفيدوا مِن هذه الوسيلة في هذه الدنيا في سلوك طريق السعادة والهداية، بل خصّصوها لسلوك طرق الذنوب والمعاصي.

ثمّ هم يُحشرون: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾. وهُنا قد يطرح هذا السؤال، وهو: إنَّ المجرمين وأهل الجحيم ينظرون ويسمعون ويتكلمون، فكيف تقول هذه الآية ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[1]؟

للمفسّرين أقوال مُتعدِّدة في الإجابة على هذا السؤال، إلاَّ أنّ أفضلها جوابان نستطيع إجمالهما فيما يلي:

أوّلاً: إنَّ مراحل ومواقف يوم القيامة مُتعدِّدة، ففي بعض المراحل والمواقف يكون هؤلاء صُماً وبكماً وعمياً، وهذا نوع مِن العقاب لهم، لأنّهم لم يستفيدوا مِن هذه النعم الإلهيّة بصورة صحيحة في حياتهم الدنيا، إلاَّ أنّ عيونهم في مراحل لاحقة تبدأ بالنظر، وآذانهم بالسماع، وألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب ويسمعون كلام الشامتين، ويبدأون بالتأوّه والصراخ وإظهار ضعفهم، حيث إنّ كلّ هذه الأُمور هي نوع آخر مِن العقاب لهم.

ثانياً: إنَّ المجرمين وأهل النار محرومون مِن رؤية ما هو سارّ ومِن سماع أُمور تبعث

(١) في الآية (٥٣) مِن سورة الكهف نقرأ قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وفي الآية (١٣) مِن سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ وفي الآية (١٢) مِن سورة الفرقان نقرأ: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

على الفرح، ومِن قول وكلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس مِن ذلك، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ولا يقولون إلاّ ما يُؤذي ويؤلم.

في الختام تقول الآية: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

لكن لا تظنّوا أنَّ نارها كنار الدنيا تنطفي في النهاية، بل هي: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

كيف يكون المعاد مُمكناً؟

في الآيات السابقة رأينا كيف أنَّ يوماً سيّئاً ينتظر المجرمين في العالم الآخر، هذه العاقبة التي تجعل أيّ عاقل يفكّر في هذا المصير، لذلك فإنَّ الآيات التي بين أيدينا تقف على هذا الموضوع بشكل آخر.

في البداية تقول: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

«رُفات» كما يقول الراغب في «المفردات» هي قِطَع مِن (التبن) لا تتهشّم بل تنتشر وتتناثر هنا وهناك. والأمر لا يحتاج إلى مزيد توضيح، فالإنسان يتحوّل تحت التُّراب إلى عظام نخرة ثمّ إلى تُراب، ثمّ تتلاشى ذرّات التراب هذه وتنتشر.

وبعد تعجّبهم مِن المعاد الجسماني واعتبارهم ذلك أمراً غير ممكن، يقول القرآن بأُسلوب واضح ومباشر وبلا فصل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾. وعلى هؤلاء أن لا يعجّلوا فإنّ القيامة وإن تأخرت، إلاّ أنّها سوف تتحقق بلا ريب: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ولكن هؤلاء الظالمين والمعادين مستمرون على ما هُم فيه رغم سماعهم هذه الآيات: ﴿فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

وحيث إنّهم كانوا يصرخون ويصرّون على أن لا يكون النّبي مِن البشر حسداً مِن عند أنفسهم وجهلاً وضلالاً، وقد منعهم هذا الحسد والجهل مِن التصديق بإمكانية أن يُعطي الله كلّ هذه المواهب لإنسان، لذا فإنَّ الخالق جلّ وعلا يُخاطبهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾. ثمّ يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

«قتور» مِن «قَتَرَ» على وزن «قتل» وهي تعني الإمساك في الصرف، وبما أنَّ ﴿قَتُورًا﴾ صيغة مُبالغة فإنّها تعني شدّة الإمساك وضيق النظر.

بحوث

١ - المعاد الجسماني

الآيات أعلاه مِن أوضح الآيات المرتبطة بإثبات المعاد الجسماني، فالمشركون كانوا يعجبون مِن إمكانية عودة الحياة إلى العظام النخرة، والقرآن يجيبهم بأنَّ القادر على خلق السماوات والأرض، لديه القدرة على جمع الأجزاء المُتناثرة للإنسان وأن يهبها الحياة مرّة أُخرى.

ولا ندري كيف ينكر بعض من يدّعي الإسلام قضية المعاد الجسماني، ويقتصرون في إيمانهم على المعاد الروحي برغم الدلالات الواضحة لهذه الآيات وغيرها؟

كما أنَّ الاستدلال بالقدرة الكلّية للخالق عَزَّوَجَلَّ في إثبات المعاد، هو واحد مِن الأدلة التي يذكرها القرآن مراراً ويعتمد عليها كثيراً. ويظهر مِثل هذا النمط مِن الاستدلال بالقدرة الكلّية على المعاد في الآية الأخيرة مِن سورة (يس) والتي تتضمّن عدَّة أدلة لإثبات المعاد الجسماني(١).

٢ - أيّ الآيات؟

هُناك احتمالات عديدة في أنَّ الغرض مِن هذه (الآيات) في جملة ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هي آيات التوحيد أو أدلة النّبوة، أو الآيات المرتبطة بالمعاد، ولكن وقوع الجملة في

(١) لمزيد مِن التفاصيل يُراجع كتاب: «العالم والمعاد بعد الموت». لمزيد مِن التفاصيل يُراجع كتاب: «المعاد وعالم الآخرة».

بحث المعاد، ترجّح اعتقادنا بأنّها إشارة إلى آيات المعاد، وهي في الحقيقة مقدمة للردّ على مُنكري المعاد.

٣ - ما هو الغرض مِن ﴿مِثْلَهُمْ﴾؟

إنّنا نعرف أنَّ الله - بسبب قدرته العظيمة - قادر في يوم القيامة على إرجاع الناس، في حين أنّنا نقرأ في الآيات أعلاه أنَّهُ يستطيع أن يخلق مِثلهم. وقد يكون هذا التعبير مدعاةً لاشتباه أو استفسار البعض عمّا إذا كانَ الناس الذين يَردون القيامة هم ليسوا هؤلاء الناس أنفسهم؟

بعض المفسّرين يرى أنّ الغرض مِن (مثل) هنا هو (عين) ففي بعض الأحيان نقول (مثلك يجب ألاّ يقوم بهذا العمل) إلاّ أنّنا نقصد أنّك أنت الذي يجب أن لا تقوم بهذا العمل، لكن هذا التّفسير بعيد، لأنَّ مِثل هذه التعابير لها محلٌّ آخر لا يتناسب مَع ما نبحثه الآن.

الظاهر أنَّ الغرض مِن استخدام تعبير (مثل) في هذه الآية هو إعادة الحياة. فإعادة الخلق مرّة ثانية لا تكون حتماً كالمرّة الأُولى، حيث هُناك على الأقل زمان آخر وظروف أُخرى وصورة جديدة، بالرغم مِن أنَّ المادة هي نفس المادة القديمة. وكمثال لذلك إذا جمعنا أجزاء متناثرة لقطعة من الآجر ووضعناها في قالبها القديم، فإنّنا لا نستطيع أن نقول عن الآجر الجديد إنّه نفس قطعة الآجر القديمة، بالرغم مِن أنَّهُ ليس إلاّ الطين السابق. بل نقول: إنَّهُ مِثله. وهذا دليل على التعابير المختارة والمنتخبة في القرآن الكريم.

ومِن المُسَلَّم بهِ أنَّ روح الإنسان تُحدِّد شخصيّته، ونحن نعلم أنَّ الروح الأُولى هي التي عند البعث، إلاّ أنَّ المعاد الجسماني يقول لنا: إنَّ الروح ستكون مع نفس المادة الأُولى، يعني أنَّ تلك المادة المتلاشية ستتجمَّع مرّة أُخرى وتندمج مع روحها، وفي موضوع المعاد أثبتنا أنّ روح الإنسان بعد أن تتخذ شكلاً معيّناً لا يمكنها أن تنسجم مع غير جسدها الأصلي الذي تربّت وعاشت معهُ. وهذا هو السر في البعث الروحي والجسدي معاً.

٤ - ما هو (الأجل)؟

إنَّ (الأجل) هو نهاية العمر. ولكن هل (الأجل) في هذه الآيات إشارة إلى نهاية العمر أو هو إشارة إلى نهاية عُمر الدنيا وبداية البعث؟

وبما أنَّ الحديث يدور حول المعاد، لذا فإنَّ المعنى الثّاني أكثر صحة، وأمّا ما قالهُ بعض المفسّرين الكبار - مِن أنَّ هذا الكلام لا يتناسب مع جملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأنّ مُنكري المعاد كانوا يشكّون حتماً في قضية المعاد - فغير صحيح، لأنَّ مفهوم مثل هذا التعبير هو أنَّهُ يجب أن لا نسمح للشك بأن يدخل إلى أنفسنا، لا أنَّ أحداً لا يشك بذلك!

لذا فإنَّ المفهوم الكلّي للآية يصبح على هذه الصورة: إنَّ الله الذي خلق السماوات والأرض يستطيع - حتماً - أن يعيد الحياة لهؤلاء البشر، أمّا إذا لم يحدث هذا الأمر بسرعة، فذلك بسبب أنَّ السنّة الإلهيّة لها أجلٌ محدود وحتمي بحيث لا مجال للشك فيها.

وتصبح النتيجة: إنَّ الدليل القاطع في قبال مُنكري المعاد هي هذه القدرة، وأمّا قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهو جواب على سؤال حول سبب تأخير القيامة. (فدقق في ذلك).

٥ - الترابط بين الآيات

عند مطالعة هذه الآيات يُثار سؤال حولَ كيفية الارتباط والصلة بين كلمة ﴿قَتُورًا﴾ التي هي بمعنى (بخيل) الواردة في آخر الآية، وبين ما نبحثُه؟

بعض المفسّرين قالوا: إنَّ هذه الجملة إشارة إلى موضوع طُرِحَ قبل عِدَّة آيات مِن قبل عبدة الأصنام، فقد طلبوا مِن الرّسول ﷺ أن يملأ أرض مكّة بالعيون والبساتين. أمّا القرآن فيقول في جواب هؤلاء: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا﴾.

إلاَّ أنَّ هذا التّفسير مُستبعد لأنَّ كلام المشركين لم يكن عن مالكية هذه العيون والبساتين، بل إنّهم طالبوا الرّسول ﷺ بأصل هذا العمل والذي يعتبر عملاً إعجازياً.

التّفسير الآخر الذي ذُكِرَ في بيان الصلة وهو أفضل مِن التّفسير الأوّل، هو أنّهم - بسبب بخلهم وضيق أنفسهم - كانوا يتعجبون مِن منح هذه الموهبة (النّبوة) للإنسان، وهذه الآية بمثابة ردّ عليهم حيثُ تقول لهم: إنّ بُخلكم بلغ درجة بحيث إنّكم لو ملكتم جميع الدنيا فسوف لا تتركون صفاتكم السيّئة والقبيحة هذه.

٦ - هل أنّ جميع البشر بُخلاء؟

لقد قُلنا - لمرّات عديدة - إنَّ القرآن يذكر الإنسان بشكل عام، ويلومه بأنواع اللوم، ويصفهُ بصفات كالبخل والجهل... والعجول والظلوم وما شابهها.

إنَّ هذه التعابير لا تتنافى مع كونِ المؤمنين والصالحين يتحلّون بضدّ هذه الصفات، حيث يُشير التعبير إلى أنَّ الطبيعة الآدمية هي هكذا، وإذا لم يخضع الإنسان لتربية القادة الإلهيين، وتُرك لشأنه كالنباتات المتروكة فسيكون مستعداً للاتصاف بهذه الصفات السيّئة. وهذا لا يعني أنَّ ذاته خُلقت هكذا، أو أنَّ عاقبة الجميع كذلك(١).

٧ - استخدام تعبير ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾

يعني الخوف مِن الفقر، ذلك الفقر الذي يكون سببهُ كثرة الإنفاق، كما يظنون.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

التّفسير

لم يُؤمنوا رغم الآيات

قبل بضعة آيات عرفنا كيف أنَّ المشركين طلبوا أُموراً عجيبة غريبة من الرّسول ﷺ، وبما أنَّ هدفهم - باعترافهم هم أنفسهم - لم يكن لأجل الحق وطلباً له، بل لأجل التذرُّع والتحجّج والتعجيز، لذا فإنَّ الرّسول ﷺ ردّ عليهم ورفض الانصياع إلى طلباتهم.

وهذه الآيات - التي نبحثها - في الحقيقة تقف على نماذج للأُمم السابقة ممّن شاهدوا أنواع المعاجز والأعمال غير العادية، إلاّ أنّهم استمروا في الإنكار وعدم الإيمان.

في البدء يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾. سنشير في نهاية هذا البحث إلى هذه الآيات التسع وماهيّتها.

---

(١) في البحوث السابقة تعرّضنا لهذه القضية تفصيلاً.

ولأجل التأكيد على الموضوع اسأل - والخطاب مُوجّه إلى رسول الله ﷺ - بني إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين والمنكرين: ﴿فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾.

إلاّ أنّ الطاغية الجبّار فرعون - برغم الآيات - لم يستسلم للحق، بل أكثر مِن ذلك اتّهم موسى ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

وفي بيان معنى «مسحور» ذكر المفسّرون تفسيرين، فالبعض قالوا: إنّها تعني الساحر بشهادة آيات قرآنية أُخرى تقول: بأنَّ فرعون وقومه اتّهموا موسى بالساحر، ومثل هذا الاستخدام وارد ولهُ نظائر في اللغة العربية، حيثُ يكون اسم المفعول بمعنى الفاعل، كما في (مشؤوم) التي يمكن أن تأتي بمعنى «شائم» و(ميمون) بمعنى «يامن».

ولكن قسماً آخر مِن المفسّرين أبقى كلمة «مسحور» بمعناها المفعولي والتي تعني الشخص الذي أثّر فيه الساحر، كما يُستفاد مِن الآية ٣٩ مِن سورة الذاريات التي نسبت السحر إليه، والجنون أيضاً، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

على أي حال، فإنَّ التعبير القرآني يكشف عن الأُسلوب الدعائي التحريضي الذي يستخدمهُ المستكبرون ويتّهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حركتهم الإصلاحية الربانية ضدَّ الفساد والظلم، إذ يصف الظالمون والطغاة معجزاتهم بالسحر أو ينعتونهم بالجنون كي يُؤثّروا مِن هذا الطريق في قلوب الناس ويفرّقوهم عن الأنبياء.

ولكن موسى عليه السلام لم يسكت أمام اتّهام فرعون له، بل أجابهُ بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال لهُ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

لذا فإنّك - يا فرعون - تعلم بوضوح أنّك تتنكّر للحقائق، برغم علمك بأنّها مِن الله! فهذه ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي أدلة واضحة للناس كي يتعرّفوا بواسطتها على طريق الحق، وعندها سيسلكون طريق السعادة، وبما أنّك - يا فرعون - تعرف الحق وتنكره، لذا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

(مثبور) مِن (ثبور) وتعني الهلاك.

ولأنَّ فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدلالات موسى القويّة، فإنَّهُ سلك طريقاً يسلكهُ جميع الطواغيت عديمي المنطق في جميع القرون وكافّة الأعصار، وذاكَ قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

«يستفز» مِن «استفزاز» وتعني الإخراج بقوّة وعنف.

ومِن بعد هذا النصر العظيم: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾. فتأتون مجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف» مِن مادة «لفّ» وهنا تعني المجموعة المتداخلة المعقّدة بحيث لا يعرف الأشخاص، ولا مِن أيّ قبيلة هُم!

بحوث

١ - المقصود مِن الآيات التسع

لقد ذكر القرآن الكريم آيات ومعجزات كثيرة لموسى عليه السلام مِنها ما يلي:

١ - تحوّل العصا إلى ثعبان عظيم يلقف أدوات الساحرين، كما في الآية ٢٠ مِن سورة طه: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

٢ - اليد البيضاء لموسى عليه السلام والتي تشع نوراً: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾[(١)].

٣ - الطوفان: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾[(٢)].

٤ - الجراد الذي أبادَ زراعتهم وأشجارهم ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾[(٣)].

٥ - والقمل الذي هو نوع مِن الأمراض والآفات التي تُصيب النبات: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾[(٤)].

٦ - الضفادع التي جاءت مِن النيل وتكاثرت وأصبحت وبالاً على حياتهم: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾[(٥)].

٧ - الدم، أو الابتلاء العام بالرُّعاف، أو تبدُّل نهر النيل إلى لون الدم، بحيث أصبحَ ماؤه غير صالح لا للشرب ولا للزراعة: ﴿وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[(٦)].

٨ - فتح طريق في البحر بحيث استطاع بنو إسرائيل العبور منهُ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[(٧)].

٩ - نزول الـ(مَنّ) و(السلوى) مِن السماء، وقد شرحنا ذلك في نهاية الآية ٥٧ مِن سورة البقرة ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾[(٨)].

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٢.
(٢-٦) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٥٠.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

١٠ - انفجار العيون مِن الأحجار: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾(١).

١١ - انفصال جزء مِن الجبل لِيُظلّلهم: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾(٢).

١٢ - الجفاف ونقص الثمرات: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٣).

١٣ - عودة الحياة إلى المقتول والذي أصبح قتله سبباً للاختلاف بين بني إسرائيل: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾(٤).

١٤ - الاستفادة مِن ظل الغمام في الاحتماء مِن حرارة الصحراء بشكل إعجازي: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾(٥).

ولكن الكلام هُنا هو: ما هو المقصود مِن (الآيات التسع) المذكورة في الآيات التي نبحثها؟

يظهر مِن خلال التعابير المستخدمة في هذه الآيات أنَّ المقصود هو المعاجز المرتبطة بفرعون وأصحابه، وليست تلك المتعلقة ببني إسرائيل مِن قبيل نزول المنّ والسلوى وتفجّر العيون مِن الصخور وأمثال ذلك.

لذا يُمكن القول إنَّ الآية ١٣٣ مِن سورة الأعراف تتعرض إلى خمسة مواضيع مِن الآيات التسع وهي: (الطوفان، القمل، الجراد، الضفادع، والدم).

كذلك اليد البيضاء والعصا تدخل في الآيات التسع، يؤيّد ذلك ورود تعبير (الآيات التسع) في الآيات ١٠ - ١٢ مِن سورة النمل بعد ذكر هاتين المُعجزتين الكبيرتين.

وبذلك يصبح مجموع هذه المعاجز - الآيات - سبعاً، فما هي الآيتان الأخيرتان؟

بلا شك إنّنا لا نستطيع اعتبار غرق فرعون وقومه في عداد الآيات التسع، لأنَّ الهدف مِن الآيات أن تكون دافعاً لهدايتهم وسبباً لقبولهم بنبوة موسى عليه السلام، لا أن تقوم بهلاك فرعون وقومه.

عِندَ التدقيق في آيات سورة الأعراف التي جاءَ فيها ذكر العديد مِن هذه الآيات يظهر

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٧٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

أنَّ الآيتين الأخريتين هما: (الجفاف) و(نقص الثمرات) حيثُ إنّنا نقرأ بعد معجزة العصا واليد البيضاء وقبل تبيان الآيات الخمس (الجراد، والقمل...) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وبالرغم مِن أنَّ البعض يتصوّر أنَّ الجفاف لا يمكن فصلهُ عن نقص الثمرات وبذا تُعتبر الآيتان آية واحدة، إلاّ أنَّ الجفاف المؤقت والمحدود - كما قُلنا في تفسير الآية ١٣٠ مِن سورة الأعراف - لا يُؤثّر تأثيراً كبيراً في الأشجار، أمّا عندما يكون جفافاً طويلاً فإنَّهُ سيؤدّي إلى إبادة الأشجار، لذا فإنَّ الجفاف لوحده لا يؤدّي دائماً إلى نقص الثمرات.

إضافة إلى ما سبق يُمكن أن يكون السبب في نقص الثمرات هو الأمراض والآفات وليس الجفاف.

والنتيجة أنَّ الآيات التسع التي وردت الإشارة إليها في الآيات التي نبحثها هي: العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، ونقص الثمرات.

ومن نفس سورة الأعراف نعرف أنَّ هؤلاء - برغم الآيات التسع هذه - لم يُؤمنوا، لذلك انتقمنا مِنهم وأغرقناهم في اليم بسبب تكذيبهم[1].

هُناك روايات عديدة وردت في مصادرنا حول تفسير هذه الآية، ولاختلافها فيما بينها لا يُمكن الاعتماد عليها في إصدار الحكم.

٢ - هل أنّ السائل هو الرّسول نفسه؟

ظاهر الآيات أعلاه يدل على أنَّ الرّسول ﷺ كانَ قدَ أُمِرَ بسؤال بني إسرائيل حول الآيات التسع التي نزلت على موسى، وكيف أنَّ فرعون وقومه صدّوا عن حقّانية موسى عليه السلام بمختلف الذرائع رغم الآيات.

ولكن بما أنَّ لدى رسول الله ﷺ مِن العلم والعقل بحيث إنَّهُ لا يحتاج إلى السؤال، لذا فإنَّ بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ المأمور بالسؤال هم المخاطبون الآخرون.

ولكن يمكن أن يُقال: إنَّ سؤال الرّسول ﷺ لم يكن لِنفسه، بل للمشركين، لذلك فما المانع مِن أن يكون شخص الرّسول ﷺ هو الذي يسأل حتى يعلم المشركون أنّه

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٦.

عندما لم يوافق على اقتراحاتهم، فذلك لأنّها اقتراحات باطلة قائمة على التعصُّب والعناد، كما قرأنا في قصّة موسى وفرعون وأمثالها.

٣ - ما المراد بـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ المذكورة في الآيات؟

قرأنا في الآيات أعلاه أنَّ الله أمر بني إسرائيل بعد أن انتصروا على فرعون وجنوده أن يسكنوا الأرض، فهل المراد مِن الأرض هي مصر (نفس الكلمة وردت في الآية السابقة والتي بيّنت أنَّ فرعون أراد أن يخرجهم مِن تلك الأرض. وبنفس المعنى أشارت آيات أُخرى إلى أنَّ بني إسرائيل ورثوا فرعون وقومه) أو أنّها إشارة إلى الأرض المقدَّسة فلسطين، لأنَّ بني إسرائيل بعد هذه الحادثة اتجهوا نحو أرض فلسطين وأمروا أن يدخلوها.

بالنسبة لنا فإنّنا لا نستبعد أيّاً مِن الاحتمالين، لأنّ بني إسرائيل - بشهادة الآيات القرآنية - ورثوا أراضي فرعون وقومه، وامتلكوا أرض فلسطين أيضاً.

٤ - هل تعني كلمة ﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ يوم البعث والآخرة؟

ظاهراً... إنَّ الإجابة بالإيجاب، حيث إنَّ جملة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ قرينة على هذا الموضوع، ومُؤَيِّدة لهذا الرأي. إلاَّ أنَّ بعض المفسّرين احتملوا أنَّ ﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ إشارة إلى ما أشرنا إليه في بداية هذه السورة، مِن أنَّ الله تبارك وتعالى قد تَوَعَّد بني إسرائيل بالنصر والهزيمة مرَّتين، وقد سمى الأُولى بـ«وعد الأُولى» والثّانية بـ«وعد الآخرة»، إلاَّ أنَّ هذا الاحتمال ضعيف مع وجود قوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (فدقق في ذلك).

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

التّفسير

عُشّاق الحق

مرّة أُخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمّية وعظمة هذا الكتاب السماوي ويُجيب على بعض ذرائع المعارضين.

في البداية تقول الآيات: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾، ثمّ تضيف بلا أدنى فاصلة ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.

ثمّ تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ إذ ليسَ لك الحق في تغيير محتوى القرآن.

لقد ذكر المفسّرون آراء مُختلفة في الفرق بين الجملة الأُولى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ والجملة الثّانية: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ مِنها:

١ - المراد مِن الجملة الأُولى: إنّنا قَدّرنا أن ينزل القرآن بالحق. بينما تضيف الجملة الثّانية أنَّ هذا الأمر أو التقدير قد تحقق، لذا فإنَّ التعبير الأوّل يُشير إلى التقدير، بينما يشير الثّاني إلى مرحلة الفعل والتحقق[١].

٢ - الجملة الأُولى تشير إلى أنَّ مادة القرآن ومحتواه هو الحق، أمّا التعبير الثّاني فانّهُ يبيّن أنّ نتيجته وثمرته هي الحق أيضاً[٢].

٣ - الرأي الثّالث يرى أنَّ الجملة الأُولى تقول: إنّنا نزّلنا هذا القرآن بالحق بينما الثّانية تقول: إنَّ الرّسول ﷺ لم يتدخل في الحق ولم يتصرّف بهِ، لذا فقد نزل الحقّ.

وثمّة احتمال آخر قد يكون أوضح مِن هذه التّفاسير، وهو أنَّ الإنسان قد يبدأ في بعضِ الأحيان بعمل ما، ولكنّه لا يستطيع إتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب مِن ضعفه، أمّا بالنسبة للشخص الذي يعلم بكلّ شيء ويقدر على كلّ شيء، فإنَّهُ يبدأ بداية صحيحة، ويُنهي العمل نهاية صحيحة. وكمثال على ذلك: الشخص الذي يخرج ماءً صافياً مِن أحد العيون، ولكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يُحافظ على صفاء هذا الماء ونظافته ويمنعهُ مِن التلوّث، فيصل الماء في هذه الحالة إلى الآخرين وهو مُلَوَّث، إلاّ أنَّ الشخص القادر والمحيط بالأُمور، يحافظ على بقاء الماء صافياً وبعيداً عن عوامل التلوّث حتى يصل إلى العطاشى والمحتاجين له.

(١) يُراجع تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٩٥٥.
(٢) تفسير في ظلال القرآن، ذيل الآية مورد البحث.

القرآن كتاب نزلَ بالحق مِن قبل الخالق، وهو محفوظ في جميع مراحله سواء في المرحلة التي كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التي كان الرّسول فيها هو المتلقي، وبمرور الزمن لاتستطيع يد التحريف والتزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١) فالله هو الذي يتكفّل حمايته وحراسته.

لذا فإنَّ هذا الماء النقي الصافي الوحي الإلهي القويم لم تناله يد التحريف والتبديل مُنذ عصر الرّسول ﷺ وحتى نهاية العالم.

الآية التي تليها تردّ على واحدة مِن ذرائع المعارضين وحججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرّسول ﷺ، ولماذا كان نزوله تدريجياً؟ كما تُشير إلى ذلك الآية ٣٢ مِن سورة الفرقان التي تقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ فيقول الله في جواب هؤلاء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾(٢) حتى يدخل القلوب والأفكار ويُترجم عملياً بشكل كامل.

ومِن أجل التأكيد أكثر تبيّن الآية - بشكل قاطع - أنَّ جميع هذا القرآن أنزلناه نحنُ: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

إنَّ القرآن كتاب السماء إلى الأرض، وهو أساس الإسلام ودليل لجميع البشر، والقاعدة المتينة لجميع الشرائع القانونية والاجتماعية والسياسية والعبادية لدنيا المسلمين، لذلك فإنَّ شبهة هؤلاء في عدم نزوله دُفعة واحدة على رسول الله ﷺ يُجاب عليها مِن خلال النقاط التالية:

أوّلاً: بالرغم مِن أنَّ القرآن هو كتاب، إلاّ أنَّهُ ليسَ ككتب الإنسان المؤلّفة حيثُ يجلس المُؤلّف ويفكّر ويكتب موضوعاً، ثمّ ينظّم فصول الكتاب وأبوابه لِينتهي مِن تحرير الكتاب، بل القرآن لهُ ارتباط دقيق بعصره، أي ارتباط بـ(٢٣) سنة، هي عصر نبوّة نبي الإسلام بكلّ ما كانت تتمخض بهِ مِن حوادث وقضايا.

لذا كيف يُمكن لكتاب يتحدّث عن حوادث ٢٣ سنة متزامناً لها أن ينزل في يوم واحد؟

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) مجيء كلمة (قرآن) منصوبة في الآية أعلاه يُفسّرهُ المفسّرون بأنَّهُ مفعول لفعل مقدَّر تقديرهُ (فرقناه)، وبذلك تصبح الجملة هكذا: (وفرقناه قرآناً).

هل يُمكن جمع حوادث ٢٣ سنة نفسها في يوم واحد، حتى ينزل القرآن في يوم واحد؟

إنّ في القرآن آيات تتعلق بالغزوات الإسلامية، وآيات تختص بالمُنافقين، وأُخرى ترتبط بالوفود التي كانت تفد على رسول الله ﷺ. فهل يُمكن أن يُكتب مجموع كلّ ذلك مُنذ اليوم الأوّل؟

ثانياً: ليس القرآن كتاباً ذا طابع تعليمي وحسب، بل ينبغي لكلّ آية فيه أن تُنفَّذ بعدَ نزولها، فإذا كانَ القرآن قد نَزَل مرَّة واحدة، فينبغي أن يتمّ العمل بهِ مرّةً واحدة أيضاً، ونعلم بأنَّ هذا مُحال، لأنَّ إصلاح مُجتمع مَليء بالفساد لا يتمّ في يوم واحد، إذ لا يمكن إرسال الطفل الأمّي دفعة واحدة مِن الصف الأوّل إلى الصفوف المتقدمة في الجامعة في يوم واحد. لهذا السبب نزل القرآن نجوماً - أي بشكل تدريجي - كي ينفّذ بشكل جيِّد ويستوعبه الجميع وكي يكون للمجتمع قابلية قبوله واستيعابه وتُمثّله عملياً.

ثالثاً: بدون شك، إنَّ رسول الله ﷺ كقائد هذه النهضة العظيمة سيكون ذا قدرات وإمكانيات أكبر عِندما يقوم بتطبيق القرآن جزءاً جزءاً، بدلاً مِن تنفيذه دفعة واحدة. صحيح أنَّهُ مُرسَل مِن الخالق وذو عقل واستعداد كبيرَيْن ليسَ لهما مثيل، إلاَّ أنَّهُ برغم ذلك فإنَّ تقبّل الناس للقرآن وتنفيذ تعاليمه بصورة تدريجية سيكون أكمل وأفضل ممّا لو نزل دفعة واحدة.

رابعاً: النّزول التدريجي يعني الارتباط الدائمي للرّسول ﷺ مع مصدر الوحي، إلاَّ أنَّ النّزول الدفعي يتمّ بمرحلة واحدة لا يتسنّى للرّسول ﷺ الارتباط بمصدر الوحي لأكثر مِن مرَّة واحدة.

آخر الآية ٣٢ مِن سورة الفرقان تقول: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ وهي إشارة إلى السبب الثّالث، بينما الآية التي نبحثها تشير إلى السبب الثّاني من مجموع الأسباب الأربعة التي أوردناها. ولكن الحصيلة أنَّ مجموع هذه العوامل تكشف بشكل حي وواضح أسباب وثمار النّزول التدريجي للقرآن.

الآية التي تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

ملاحظات

في هذه الآية ينبغي الالتفات إلى الملاحظات التالية:

أوّلاً: يعتقد المفسّرون أنَّ جملة ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يتبعها جملة محذوفة قدّروها

بأوجه مُتعدِّدة، إذ قال بعضهم: إنّ المعنى هو: سواء آمنتم أم لم تؤمنوا فلا يضر ذلك بإعجاز القرآن ونسبته إلى الخالق.

بينما قال البعض: إنَّ التقدير يكون: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا فإنَّ نفع ذلك وضرره سيقع عليكم.

لكن يُحتمل أن تكون الجملة التي بعدها مُكَمِّلَة لها، وهي كناية عن أنَّ عدم الإيمان هو سبب عدم العلم والمعرفة، فلو كنتم تعلمون لآمنتم به. وبعبارة أُخرى: يكون المعنى: إذا لم تؤمنوا به فإنَّ الأفراد الواعين وذوي العلم يؤمنون بهِ.

ثانياً: إنَّ المقصود مِن ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ هُم مجموعة مِن علماء اليهود والنصارى مِن الذين آمنوا بعدَ أن سمعوا آيات القرآن، وشاهدوا العلائم التي قرأوها في التوراة والإنجيل، والتحقوا بصف المؤمنين الحقيقيين، وأصبحوا مِن علماء الإسلام.

وفي آيات أُخرى مِن القرآن تمّت الإشارة إلى هذا الموضوع، كما في قوله تعالى في الآية ١١٣ مِن سورة آل عمران: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

ثالثاً: ﴿يَخِرُّونَ﴾ بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الكلمة بدلاً مِن السجود ينطوي على إشارة لطيفة، هي أنَّ الواعين وذوي القلوب اليقظة عندما يسمعون آيات القرآن وكلام الخالق عَزَّوَجَلَّ ينجذبون إليه ويولهون به إلى درجة أنّهم يسقطون على الأرض ويسجدون خشيةً بدون وعي واختيار(١).

رابعاً: (أذقان) جمع (ذقن) ومن المعلوم أنّ ذقن الإنسان عند السجود لا يلمس الأرض، إلاَّ أنّ تعبير الآية إشارة إلى أنَّ هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم حتى أنَّ ذقنهم قد يلمس الأرض عندَ السجود.

بعض المفسّرين احتمل أنَّ الإنسان عندَ سجوده يضع أوّلاً جبهتهُ على الأرض، ولكن الشخص المدهوش عندما يسقط على الأرض يضع ذقنه أولاً، فيكون استخدام هذا التعبير في الآية تأكيداً لمعنى ﴿يَخِرُّونَ﴾(٢).

---

(١) يقول الراغب في (المفردات): ﴿يَخِرُّونَ﴾ مِن مادة «خرير» ويقال لصوت الماء والريح وغير ذلك ممّا يسقط مِن عُلو. وقوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح، والتنبيه أنَّ ذلك الخرير كان صوت تسبيحهم بحمد الله لا بشيء آخر. ودليله قوله تعالى فيما بعد: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

(٢) تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ١٧٥.

الآية التي بعدها توضّح قولهم عندما يسجدون: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[1]. هؤلاء يعبرون بهذا الكلام عن عمق إيمانهم واعتقادهم بالله وبصفاته وبوعده. فهذا الكلام يشمل الإيمان بالتوحيد والصفات الحقة والإيمان بنبوة الرّسول ﷺ وبالمعاد. والكلام على هذا الأساس يجمع أُصول الدين في جملة واحدة.

وللتأكيد - أكثر - على تأثّر هؤلاء بآيات ربّهم، وعلى سجدة الحب التي يسجدونها تقول الآية التي بعدها: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾.

إنّ تكرار جملة ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ دليل على التأكيد، وعلى الاستمرار أيضاً.

الفعل المضارع ﴿يَبْكُونَ﴾ دليل على استمرار البكاء بسبب حبّهم وعشقهم لخالقهم.

واستخدام الفعل المضارع في جملة ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ دليل على أنّهم لا يتوقفون أبداً على حالة واحدة، بل يتوجهون باستمرار نحو ذروة التكامل، وخشوعهم دائماً في زيادة (الخشوع هو حالة مِن التواضع والأدب الجسدي والروحي للإنسان في مقابل شخصية معيّنة أو حقيقة معيّنة).

بحثان

١ - التخطيط للتربية والتعلّم

مِن الدروس المهمّة التي نستفيدها مِن الآيات أعلاه، هو ضرورة التخطيط لأيّ ثورة أو نهضة ثقافية أو فكرية أو اجتماعية أو تربوية، فإذا لم يتمّ تنظيم مثل هذا البرنامج فالفشل سيكون النتيجة الحتمية لمثل هذه الجهود. إنَّ القرآن الكريم لم ينزل على رسول الله ﷺ مرّة واحدة بالرغم مِن أنَّهُ كان موجوداً في مخزون علم الله كاملاً، وقد تمّ عرضه في ليلة القدر على رسول الله ﷺ دفعة واحدة، إلاّ أنَّ النّزول التدريجي استمرّ طوال ٢٣ سنة، وضمن مراحل زمنية مُختلفة وفي إطار برنامج عملي دَقيق.

وعندما يقوم الخالق جلَّ وعلا بهذا العمل بالرغم مِن علمه وقدرته المطلقة وغير المُتناهية... عند ذلك سيتّضح دورنا وتكليفنا نحنُ إزاء هذا المبدأ، وعادة ما يكون هذا قانوناً وتكليفاً إلهيّاً، حيثُ إنَّ وجوده العيني لا يختص بعالم التشريع وحسب، بل في

---

(١) (إن) في قوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ غير شرطية، بل هي تأكيدية، وهي مُخففة من الثقيلة.

عالم التكوين أيضاً، إنَّهُ مِن غير المتوقع أن تنصلح أُمور مجتمع في مرحلة البناء خلال ليلة واحدة لأنّ البناء الحضاري والفكري والثقافي والاقتصادي والسياسي يحتاج إلى المزيد مِن الوقت.

وهذا الكلام يعني أنّنا إذا لم نصل إلى النتيجة المطلوبة في وقت قصير فعلينا أن لا نيأس ونترك بذل الجهد أو المُثابرة، وينبغي أن نلتفت إلى أنَّ الانتصارات النهائية والكاملة تكون عادةً لأصحاب النفس الطويل.

٢ - علاقة العلم بالإيمان

الموضوع الآخر الذي يُمكن أن نستفيدهُ مِن الآيات أعلاه هو علاقة العلم بالإيمان، إذ تقول الآيات: إنّكم سواء آمنتم بالله أو لم تؤمنوا فإنَّ العلماء سيؤمنون بالله إلى درجة أنّهم يعشقون الخالق ويسقطون أرضاً ساجدين مِن شدّة الوله والحبّ، وتجري الدّموع مِن أعينهم، وإنّ هذا الخشوع والتأدُّب يتصف بالاستمرار في كلّ عصر وزمان.

إنَّ الجهلة - فقط - هم الذين لا يُعيرون أهمّية للحقائق ويواجهونها بالاستهزاء والسخرية، وإذا أثَّر فيهم الإيمان في بعض الأحيان فإنَّهُ سيكون تأثيراً ضعيفاً خالياً مِن الحبّ والحرارة.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ في الآية ما يؤكّد خطأ وخطل النظرية التي تربط بين الدين والجهل أو الخوف مِن المجهول. أمّا القرآن فإنَّهُ يؤكّد على عكس ذلك تماماً، إذ يقول في مواقع مُتعدِّدة: إنَّ العلم والإيمان توأمان، إذ لا يمكن أن يكون هُناك إيمان عميق ثابت مِن دون علم، والعلم في مراحله المُتقدمة يحتاج إلى الإيمان. (فدقق في ذلك).

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

سبب النّزول

وردت آراء مُتعدِّدة في سبب نزول هاتين الآيتين مِنها ما نقلهُ صاحب مجمع البيان عن ابن عباس الذي قال: كانَ رسول الله ﷺ ساجداً ذات ليلة بمكّة يدعو: يا رحمن يا

رحيم، فقال المشركون مُتهمين رسول الله ﷺ: إنَّهُ يدعونا إلى إله واحد، بينما يدعو هو مثنى مثنى. يقصدون بذلك قول رسول الله ﷺ: يا رحمن يا رحيم. فنزلت الآية الكريمة أعلاه(١).

التّفسير

آخر الذرائع والأعذار

بعد سلسلة من الذرائع التي تشبّث بها المشركون أمام دعوة الرّسول ﷺ، نصل مع الآيات التي بين أيدينا إلى آخر ذريعة لهم، وهي قولهم: لماذا يذكر رسول الله ﷺ الخالق بأسماء مُتعدِّدة بالرغم من أنَّهُ يدّعي التوحيد. القرآن ردَّ على هؤلاء بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. إنَّ هؤلاء عُميان البصيرة والقلب، غافلون عن أحداث ووقائع حياتهم اليومية حيثُ كانوا يذكرون أسماء مُختلفة لشخص واحد أو لمكان واحد، وكلّ اسم مِن هذه الأسماء كان يُعرّف بشطر أو بصفة مِن صفات ذلك الشخص أو المكان.

بعد ذلك، هل مِن العجيب أن تكون للخالق أسماء مُتعدِّدة تتناسب مع أفعاله وكمالاته وهو المطلق في وجوده وفي صفاته والمنبع لكلّ صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عزّ وجلّ الذي يُدير دفة هذا العالم والوجود؟

أساساً، فإنَّ الله تعالى لا يمكن معرفته ومناجاته باسم واحد إذ ينبغي أن تكون أسماؤه مثل صفاته غير محدودة حتى تعبِّر عن ذاته، ولكن لمحدودية ألفاظنا - كما هي أمورنا الأُخرى أيضاً - لا نستطيع سوى ذكر أسماء محدودة له، وإنَّ معرفتنا مهما بلغت فهي محدودة أيضاً، حتى أنَّ رسول الله ﷺ وهو من هو في منزلته وروحه وعلوّ شأنه، نراه يقول: «ما عرفناك حق معرفتك»(٢).

إنَّ الله تعالى في قضية معرفتنا إيَّاه لم يتركنا في أفق عقولنا ودرايتنا الخاصّة، بل ساعدنا كثيراً في معرفة ذاته، وذكر نفسهُ بأسماء مُتعدِّدة في كتابه العظيم، ومِن خلال كلمات أوليائهِ تصل أسماؤه - تقدّس وتعالى - إلى ألف اسم.

---

(١) يُراجع تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٣.

وطبيعي أنَّ كلّ هذهِ أسماء الله، وأحد معاني الأسماء العلامة، لذا فإنَّ هذه علامات على ذاته الطاهرة، وجميع هذه الخطوط والعلامات تنتهي إلى نقطة واحدة، وهي لا تقلّل مِن شأن توحيد الذات والصفات.

وهُناك قسم مِن هذهِ الأسماء ذو أهمية وعظمة أكثر، حيث تعطينا معرفةً ووعياً أعظم، تسمّى في القرآن الكريم وفي الرّوايات الإسلامية، بالأسماء الحسنى، وهُناك رواية معروفة عن رسول الهدى ﷺ ما مضمونها: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً، مَن أحصاها دخل الجنّة».

وهناك شرح مُفصل للأسماء الحسنى، والأسماء التسعة والتسعين بالذات، أوردناه في نهاية الحديث عن الآية ١٨٠ مِن سورة الأعراف، في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

لكن علينا أن نفهم أنَّ الغرض مِن عَدّ الأسماء الحسنى ليس ذكرها على اللسان وحسب، حتى يصبح الإنسان مِن أهل الجنّة ومستجاب الدعوة، بل إنَّ الهدف هو التخلُّق بهذه الأسماء وتطبيق شذرات مِن هذه الأسماء، مِثل (العالم، والرحمن، والرحيم، والجواد، والكريم) في وجودنا حتى نصبح مِن أهلِ الجنّة ومستجابي الدعوة.

وَهُناك كلام ينقلهُ الشيخ الصدوق رحمه الله في كتاب التوحيد عن هشام بن الحكم جاءَ فيه:

يقول هشام بن الحكم: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن أسماء الله عزَّ ذكره واشتقاقها فقلت: الله مِم هو مشتق؟

قالَ عليه السلام: «يا هشام، الله مُشتقٌ مِن إله، وإلهٌ يقتضي مألوهاً، والاسمُ غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كَفَر ولم يعبد شيئاً، ومَن عَبدَ الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد الاثنين، ومَن عبد المعنى دونَ الاسم فذاك التوحيد. أفهمت يا هشام؟».

قال هشام: قلتُ: زدني.

قالَ عليه السلام: «لله عزّ وجلّ تسعةٌ وتسعون اسماً، فلو كانَ الاسمُ هو المسمى لكان كلُّ اسم مِنها هو إلهاً، ولكن الله عزّ وجلّ معنىً يدلُّ عليه بهذه الأسماء وكُلُّها غيره. يا هشامُ، الخبزُ اسمٌ للمأكول، والماء اسمٌ للمشروب، والثوب اسمٌ للملبوس، والنار اسم للمحروق»(١).

---

(١) توحيد الصدوق نقلاً عن تفسير الميزان ذيل الآية مورد البحث.

والآن لنعد إلى الآيات. ففي نهاية الآية التي نبحثها نرى المشركين يتحدّثون عن صلاة رسول الله ﷺ ويقولون: إنَّهُ يؤذينا بصوته المرتفع في صلاته وعبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعليمات لرسول الله ﷺ عبر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾.

لذلك فإنَّ الآية أعلاه لا علاقة لها بالصلوات الجهرية والإخفاتية في اصطلاح الفقهاء، بل إنَّ المقصود مِنها يتعلق بالإفراط والتفريط في الجهر والإخفات، فهي تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل مِن الحدِّ الطبيعي بحيث تكون حركة شفاه وحسب ولا صوت فيها.

أسباب النّزول الواردة - حول الآية - التي يرويها الكثير مِن المفسّرين نقلاً عن ابن عباس تؤيِّد هذا المعنى.

وهُناك آيات عديدة مِن طُرق أهل البيت نقلاً عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام تؤيّد هذا المعنى وتشير إليه[1].

لذا فإنّا نستبعد التفاسير الأُخرى الواردة حول الآية.

أمّا ما هو حدّ الاعتدال، وما هو الجهر والإخفات المنهي عنهما؟ الظاهر أنَّ الجهر هو بمعنى (الصُّراخ)، و(الإخفات) هو مِن السكون بحيث لا يسمعهُ حتى فاعله.

وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّهُ قالَ في تفسير الآية: «الجهر بها رفع الصوت، والتخافت بها ما لم تُسمع نفسك، واقرأ بين ذلك»[2].

أمّا الإخفات والجهر في الصلوات اليومية، فهو - كما أشرنا لذلك - لهُ حكم آخر، أو مفهوم آخر، أي لهُ أدلة مُنفصلة، حيثُ ذكرها فقهاؤنا رضوان الله عليهم في (كتاب الصلاة) وبحثوا عنها.

ملاحظة:

هذا الحكم الإسلامي في الدعوة إلى الاعتدال بين الجهر والإخفات يعطينا فهماً وإدراكاً من جهتين:

الأُولى: لا تؤدّوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء

(١) يمكن مُراجعة تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣٣ فما بعد.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣٤.

والتحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونة بالوقار والهدوء والأدب، كي تعكس بذلك نموذجاً لعظمة الأدب الإسلامي ومنهج العبادة في الإسلام.

فالذين يقومون في أوقات استراحة الناس بإلقاء المحاضرات الدينية بواسطة مكبّرات الصوت، ويعتقدون أنّهم بذلك يوصلون صوتهم إلى الآخرين، هم على خطأ، وعملهم هذا لا يعكس أدب الإسلام في العبادات، وستكون النتيجة عكسية على قضية التبليغ الديني.

الثّانية: يجب أن يكون هذ التوجيه مبدأً لنا في جميع أعمالنا وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتكون جميع هذه الأُمور بعيدة عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

أخيراً نصل إلى الآية الأخيرة مِن سورة الإسراء، هذه الآية تُنهي السورة المباركة بحمد الله، كما افتُتِحت بتسبيحه وتنزيه ذاته عَزَّوَجَلَّ . إنَّ هذه الآية - في الواقع - هي خلاصة أخيرة لكلّ البحوث التوحيدية التي وردت في السورة، وهي ثمرة لمفاهيمها جميعاً، إذ هي تخاطب الرّسول ﷺ بالقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

ومثل هذا الرّب في مثل هذه الصفات، هو أفضل مِن كلّ ما تفكّر به: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

ونلاحظ في هذه الآية عدة أُمور:

١ - تناسب الصفات الثلاث

في الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاث صفات مِن صفات الله، ثمّ بملاحظة الأمر الوارد في نهاية الآية تكتمل إلى أربع صفات:

أوّلاً: نفي الولد، لأنَّ امتلاك الولد دليل على الحاجة، وأنَّهُ جسماني، ولهُ شبيه ونظير، والخالق جلَّ وعلا ليسَ بجسم ولا يحتاج لولد، وليس لهُ شبيه ونظير.

الثّاني: نفي الشريك ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ حيث إنّ وجود الشريك دليل محدودية القدرة والحكومة والسلطة، وهو دليل العجز والضعف، ويقتضي وجود الشبيه والنظير، والخالق جلَّ وعلا مُنزَّه عن هذه الصفات، فقدرته كما هي حكومته غير محدودة، وليسَ له أيّ شبيه.

الثّالث: نفي الولي والحامي عند التعرُّض للمشاكل والهزائم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

ونفي هذه الصفة عن الخالق يعتبر أمراً بديهياً... إنَّ الآية تنفي أيّ مساعد للخالق أو شبيه له، سواء كان ذلك في مرحلة أدنى (كالولد) أو في مرحلة مساوية (كالشريك) أو أفضل مِنهُ (كالولي).

نقل العلاّمة الطبرسي في (مجمع البيان) عن بعض المفسّرين الذين لم يذكر أسماءهم بصراحة قولهم: «إنَّ هذه الآية تنفي ثلاثة اعتقادات منحرفة لثلاث مجموعات: المجموعة الأُولى هُمُ المسيحيون واليهود الذين يقولون بوجود الولد للخالق، والثّانية مجموعة مشركي العرب الذين قالوا بوجود الشريك لهُ سبحانه، لذلك فإنّهم كانوا يقولون عند كلّ صباح وفي طقوس خاصّة: لبيك لا شريك لك، إلاَّ شريكاً هو لك![1] أمّا المجموعة الثّالثة، فهم عبدة النجوم والمجوس الذين يقولون بوجود الولي والحامي للخالق».

٢ - ما هو التكبير؟

القرآن يؤكّد على رسوله أن يُكبِّر الله، والغرض مِن ذلك هو الاعتقاد بهذا الأمر، وليس فقط ذكر (الله أكبر) على اللسان.

إنَّ معنى الاعتقاد بأنَّ (الله أكبر) أن لا نقيسهُ معَ المخلوقات الأُخرى، ونقول بأنَّهُ أعظم وأكبر مِنها، لأنَّ مثل هذه المقايسة خطأ مِن الأساس، إنّنا يجب أن نعتبره أعظم وأكبر مِن أن نقيسهُ بشيء، كما يُعلمنا ذلك الإمام الصادق عليه السلام في مقولته القصيرة اللفظ والكبيرة المعنى، حيث نقرأ فيها ما نصُّه:

قال رجل عند الإمام الصادق عليه السلام: اللهُ أكبر.

فقال عليه السلام: «الله أكبر مِن أي شيء؟».

قال الرجل: مِن كل شيء.

فقال عليه السلام: «حددته».

فقال الرجل: كيف أقول؟

قال عليه السلام: قُل: «الله أكبر مِن أن يوصف»[2].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً نقرأ عن جميع بن عُمير قال: قالَ أبو عبد الله عليه السلام: «أي شيء، الله أكبر».

---

(١) أصول الكافي، ج ٤، ص ٥٤٢.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣٩.

فقلت: الله أكبر مِن كل شيء.

فقال: «وكانَ ثمّ شيء فيكون أكبر منهُ».

فقلت: فما هو؟

قالَ عليه السلام: «أكبر مِن أن يوصف»[1].

٣ - الإجابة على السؤال

قد يُطرح هُنا هذا السؤال: كيف يكون حمد الخالق في الآية أعلاه في قبال الصفات السلبية، في حين أنّنا نعلم بأنَّ (الحمد) هو في قُبال الصفات الثبوتية كالعلم والقدرة، أمّا صفات مثل نفي الولد والشريك والولي فهي تتلاءم مَع التسبيح لامَعَ الحمد؟

في الجواب على هذا السؤال نقول: بالرغم مِن أنَّ طبيعة الصفات السلبية والثبوتية تختلف بعضها عن بعض وإنَّ احداهما تتلاءم مع التسبيح والأُخرى تتلاءم مع الحمد، إلاّ أنَّهُ في الوجود الخارجي (العيني) يكون الاثنان لازمين وملزومين، فنفي الجهل عن الخالق يكون مُلازماً لإثبات العلم له، كما أنَّ إثبات العلم لذاته جلَّ وعلا ملازم لنفي الجهل.

وعلى هذا الأساس فلا مانع تارة مِن ذكر اللازم وأُخرى من ذكر الملزوم. كما ذُكر التسبيح في بداية هذه السورة لأمر ثبوتي في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾.

دُعاء الختام: إلهي املأ قلوبنا بنور العلم حتى نخضع لعظمتك، ونؤمن بما وعدت، ونلتزم ما أمرت، لا نعبد غيرك، ولا نتوكل إلاّ عليك.

إلّهنا، وفّقنا في حياتنا اليومية في أن لا نخرج عن حدّ الاعتدال، وأن نبتعد عن كلّ إفراط وتفريط.

إلّهنا؛ لك الحمد ولك الشكر، وأنت الواحد الكبير، أكبر مِن أن تحدَّ في وصف، فاغفر لنا، وثبّتنا في خطواتنا، وانصرنا على أعدائنا، وأوصل انتصاراتنا بالانتصار النهائي للمصلح المهدي عليه السلام، ووفّقنا لتكميل هذا التّفسير وارحمنا برحمتك واقبلنا في رضاك.

نهاية سورة الإسراء

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣٩.

سُورَةُ الكَهْفِ

مكيّة وعدد آياتها مائة وعشر

فضيلة سورة الكهف

١ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ألا أدلكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض؟ قالوا: بلى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سورة أصحاب الكهف مَن قرأها يوم الجمعة غفر الله لهُ إلى الجمعة الأُخرى، وزيادة ثلاثة أيّام، وأعطي نوراً يبلغ السماء، ووُقِيَ فتنة الدجّال»(١).

٢ - وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَن حفظ عشر آيات مِن أوّل سورة الكهف، ثمّ أدرك الدجّال لم يضره. ومَن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت لهُ نوراً يوم القيامة»(٢).

٣ - وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال في فضل سورة الكهف: «مَن قرأ سورة الكهف في كلِّ ليلة جمعة لم يمت إلاّ شهيداً، وبعثهُ الله مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مَع الشهداء»(٣).

لقد قُلنا مراراً: إنَّ عظمة السور القرآنية وتأثيرها المعنوي، وبركاتها الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الإيمان بها والعمل وفقاً لمضامينها.

وبما أنَّ قسماً مهمّاً من هذه السورة يتعرّض إلى قصّة تحرّك مجموعة مِن الفتية ضدَّ طاغوت عصرهم، ودجّال زمانهم، هذا التحرّك الذي عرَّض حياتهم ووجودهم للخطر وللموت لولا عناية الباري بهم ورعايتهُ لهم. لذا فإنَّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يُنير القلب بنور الإيمان، ويحفظهُ مِن الذنوب وإغواءات الدجالين، ويعصمه من الذوبان في المحيط الفاسد.

إنَّ ممّا يُساعد على تكميل هذا الأثر في النفوس والقلوب هو ما تُثيره السورة من أوصاف الآخرة ويوم الحساب، والمستقبل المشؤوم الذي ينتظر المستكبرين، وضرورة الالتفات إلى علم الخالق المطلق وإحاطته بكلّ شيء.

(١-٣) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٤٧، ذيل الآيات مورد البحث.

إنَّ كلّ ذلك ممّا يحفظ الإنسان مِن فتن الشيطان، ويجعل نور الإيمان يشع فيه، ويغرس العصمة في قلبه، وتكون عاقبته مع الشهداء والصدّيقين.

محتوى سورة الكهف

تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ وعلا، وتنتهي بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

يشير محتوى السورة - كما في أغلب السور المكّية - إلى قضية المبدأ والمعاد والترغيب والإنذار. وتشير أيضاً إلى قضية مهمّة كانَ المسلمون يحتاجونها في تلك الأيّام بشدّة، وهي عدم استسلام الأقلية - مهما كانت صغيرة - إلى الأكثرية مهما كانت قوية في المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة مِن أصحاب الكهف، أن يبتعدوا عن المحيط الفاسد ويتحركوا ضدَّه.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد والصراع، وإن عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

مِن قصص هذه السورة أيضاً قصّة شخصين، أحدهما غنيٌّ مُرفّه إلاّ أنَّهُ غير مؤمن، والآخر فقير مستضعف ولكنَّهُ مُؤمن. وقد صَمد الفقير المستضعف المؤمن ولم يفقد شرفه وعزّته وإيمانه أمام الغني، بل قامَ بنصيحته وإرشاده، ولمّا لم ينفع معه تبرّأ منه، وقد انتهت المواجهة إلى انتصاره.

وهذه القصّة تذكّر المسلمين وخاصّة في بداية عصر الإسلام وتقول لهم: إنَّ مِن سنّة الأغنياء أن يكون لهم فورة مِن حركة ونشاط مُؤقت سُرعان ما ينطفىء لتكون العاقبة للمؤمنين.

كما يُشير جانب آخر مِن هذه السورة إلى قصة موسى والخضر عليهما السلام حيث لم يستطع موسى الصبر في مقابل أعمال كانت مضرّة بحسب الظاهر، ولكنّها في الواقع كانت مليئة بالأهداف والمصالح، إذ تبيّنت لموسى عليه السلام وبعد توضيحات الخضر مصالح تلك الأعمال، فَنَدِمَ على تعجّله.

وفي هذا دَرسٌ للجميع أن لا ينظروا إلى ظاهر الحوادث والأُمور، ولِيتبصّروا بما يكمن خلف هذه الظواهر مِن بواطن عميقة وذات معنى.

قسم آخر من السورة يشرح أحوال (ذي القرنين) وكيف استطاع أن يطوي العالم شرقه وغربه، ليواجه أقواماً مختلفة بآداب وسنن مُختلفة، وأخيراً استطاع بمساعدة بعض الناس أن يقف بوجه مُؤامرة (يأجوج) و(مأجوج) وأقام سدّاً حديدياً في طريقهم ليقطع

دابرهم (تفصيل كل هذه الإشارات المُختصرة سيأتي لاحقاً إن شاء الله تعالى) ودلالة هذه القصة بالنسبة للمسلمين، هو أن يهيّئوا أنفسهم - بأفق أوسع - للنفوذ إلى الشرق والغرب بعد أن يتّحدوا ويتحصنوا ضدَّ أمثال يأجوج ومأجوج.

الظريف أنَّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين) حيثُ إنَّ هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تتكرَّر في مكان آخر مِن القرآن (أشارت الآية (٩٦) مِن سورة الأنبياء إلى يأجوج ومأجوج دون ذكر ذي القرنين). وهذه الإشارة تُعتبر واحدة مِن خصائص هذه السورة المباركة.

وخلاصة الكلام أنّ السورة تحتوي على مفاهيم تربوية مؤثّرة في جميع الأحوال.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ (١) قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا (٥)﴾

التّفسير

البداية باسم الله، والقرآن

تبدأ سورة الكهف - كما في بعض السور الأُخرى - بحمد الله، وبما أنَّ الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معيّنة مهمّة ومطلوبة، لذا فإنَّ الحمد هُنا لأجل نزول القرآن الخالي مِن كلّ اعوجاج، فتقول الآية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾.

هذا الكتاب هو كتاب ثابت ومحكم ومعتدل ومستقيم، وهو يحفظ المجتمع الإنساني ويحمي سائر الكتب السماوية.

﴿قَيِّمٗا﴾ ويُنذر الظالمين مِن عذاب شديد: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾. وفي نفس الوقت فهو: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا﴾. وهؤلاء في نعيمهم ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾.

ثمّ تشير الآيات إلى واحدة مِن انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيثُ تنذرهم هذا الأمر فتقول: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فهي تحذّر النصارى بسبب اعتقادهم بأنَّ المسيح ابن الله، وتحذّر اليهود لأنّهم اعتقدوا بأنَّ عزير ابن الله، وتحذّر المشركين لِظنّهم بأنَّ الملائكة بنات الله.

ثمّ تشير الآيات إلى أصل أساسي في إبطال هذه الادعاءات الفارغة فتقول: إنَّ هؤلاء لا علم لهم ولا يقين بهذا الكلام، وإنّما هم مُقلدون فيه للآباء، وإنَّ آباءهم على شاكلتهم في الجهل وعدم العلم: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾. ومع ذلك فإنهم يتفوّهون بكلام رهيب ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فهل يعقل أن يكون الله جسماً أو يكون له ولد، أو أن يحتاج إلى الصفات المادية وأن يكون محدوداً... إنّهُ كلام رهيب، ومثل هؤلاء الذين يتفوّهون به لا ينطقون إلاّ كَذِباً: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

بحوث

١ - افتتاح السورة بحمد الله سبحانهُ وتعالى

هُناك خمس سور في القرآن الكريم تبدأ بحمد الله، ثمّ تعرج بعد الحمد والثناء على قضايا خلق السموات والأرض (أو ملكية الله سبحانهُ وتعالى لها) أو هداية العالمين، عدا هذه السورة التي تتناول بعد الحمد والثناء مسألة نزول القرآن على نبيّنا محمّد ﷺ.

وفي حقيقة الأمر إنَّ السور الأربع «الأنعام - سبأ - فاطر - الحمد» تتناول القرآن التكويني، فيما تتطرق سورة الكهف إلى القرآن التدويني، وكما هو معلوم فإنَّ الكتابين، أي (القرآن التدويني) وخلق الكون وما فيه (القرآن التكويني) كلٌّ مِنهما مُكمّل للآخر، وهذا يوضّح أنَّ للقرآن وزنٌ يعادل الخلق. وأساساً فإنّ تربية الخلائق الواردة في الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ غير ممكنة، ما لم يُستفاد بصورة تامة مِن الكتاب السماوي العظيم، أي القرآن.

٢ - القرآن كتابٌ ثابت ومستقيم وحافظ

كلمة «قيّم» على وزن كلمة «سيِّد» مُشتقة مِن مصدر الكلمة «قيام» وهُنا تأتي بمعنى (الثبات والصمود) إضافة إلى أنّها تعني المدبِّر والحافظ لبقية الكتب السماوية، كما

تعني كلمة «قيِّم» في نفس الوقت الاعتدال والاستقامة التي لااعوجاج فيها، إضافة إلى أنَّ كلمة «قيِّم» هي وصف للقرآن في عدم وجود أي اعوجاج في آياته، بل إنّ في مضمونها تأكيد على استقامة واعتدال القرآن، وخلوّه مِن أيّ شكل مِن أشكال التناقض، وإشارة إلى أبدية وخلود هذا الكتاب السماوي العظيم، وكونه أسوة لحفظ الأصالة، وإصلاح الخلل، وحفظ الأحكام الإلهيّة والعدل والفضائل البشرية.

صفة (القيِّم) مُشتقة مِن (قيمومة) الباري عزّوجلّ التي تعني اهتمام الباري عزّوجلّ وحفظه جميع الكائنات، والقرآن الذي هو كلام الله لهُ نفس الصفة أيضاً.

كما وصف الله سبحانهُ وتعالى دينه في عدّة آيات قرآنية بأنَّهُ (القيِّم) حتى أنَّهُ أمر نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالعمل وفق ما يمليه الدين القيِّم والمستقيم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾[1].

وما ذكر أعلاه بشأن تفسير كلمة «قيِّم»، أُخِذَ مِن عِدَّة تفاسير مُختلفة، وهو خُلاصة لما قالهُ المفسّرون من أنَّ كلمة «قيِّم» تعني الكتاب الباقي الذي لا يُنسخ، أو الكتاب الحافظ للكتب السابقة، أو الكتاب القيِّم على الدين، أو الخالي مِن الاختلافات والتناقضات، وكلّ هذه المعاني انصبّت في المفهوم الذي ذكرناه.

واعتبر بعض المفسّرين أنّ جملة ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ تعني فصاحة ألفاظ القرآن وكلمة «قيماً» تعني البلاغة والاستقامة بالرغم مِن عدم امتلاكهم لأيّ دليل واضح على هذا التباين[2]، والظاهر أنَّ الكلمتين تؤكّد كل مِنهما الأُخرى، مع فرق أنّ كلمة «قيِّم» لها مفهوم واسع، وتعني اضافة إلى معنى الاستقامة، المحافظ والمصلح للكتب السماوية الأُخرى[3].

٣ - إنذاران شديدان، عام وخاص

بعد الإنذار العام الذي وجّهته الآيات في البداية لكافة البشر، وجّهت الآيات المذكورة آنفاً إنذاراً خاصّاً للذين ادّعوا بأنّ لله ولداً وهذا ما يوضّح خطورة الانحراف العقائدي الذي أصاب المسيحيين واليهود والمشركين، وانتشر بصورة واسعة في الأجواء التي نزل فيها القرآن، ومِن الطبيعي فإنَّ انتشار مثل هذه الأفكار يقضي على

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٢) تفسير روح المعاني، ج ١٥، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) «قيم» مِن الناحية اللغوية «حال» وعامله «أنزل».

روح التوحيد في ذلك المجتمع، إذ حدّوا الله سبحانه وتعالى بحدود مادية وجسمية، وأنَّهُ يمتلك عواطف وأحاسيس بشرية، إضافة إلى وجود أكفّاء وشركاء له، وأنَّهُ يحتاج إلى الآخرين.

وبسبب هذه المعتقدات نزلت آيات عديدة للردّ على تلك الشبهات، ومِنها الآية ٦٨ في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ والآيات مِن ٨٨ إلى ٩١ في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١)﴾.

وما جاءَ في هذه الآيات المباركة يوضّح قوّة الرّد الإلهي على تلك الادعاءات، حيثُ أكّدت على العقاب الشديد الذي ينتظر مَن يعتقدون بمثل هذه الخرافة، لأنَّ مَن يدّعي باتّخاذ الله سبحانه وتعالى ولداً، إنّما يمس كبرياء الباري عزّوجلّ وعظمته، وينزلهُ إلى المستوى البشري المادي[١].

٤ - الادعاء الفارغ

إنَّ البحث في المعتقدات والمبادىء المنحرفة، كشف عن أنَّ أغلبها ليس لهُ أي دليل واقعي، ولكن بعض الأشخاص يتخذها كشعار كاذب كي يتبعهُ الآخرون، وتنتقل أحياناً مِن جيل إلى آخر كعادة، والقرآن هُنا يلقي علينا دروساً في تجنّب الادعاءات التي ليسَ لها أي دليل أو سند قوي، ويأمرنا بعدم إعارة أيّة أهمية لناقلها ومروّجها، وقد اعتبر الله تبارك وتعالى تلك الأعمال مِن الكبائر، وعدّها مصدراً للكذب والدجل.

ولو اتّخذ المسلمون هذا الأصل منهجاً في حياتهم، أي عدم التحدُّث بشيء مِن دون التأكُّد مِنهُ، ورفض أي شيء ليسَ لهُ دليل، وعدم الاهتمام بالإشاعات الفارغة، لتحسّن الكثير مِن أُمورهم وتصرّفاتهم الخاطئة.

٥ - العمل الصالح برنامجٌ مستمر

الآيات المذكورة أعلاه عندما تتحدَّث عن المؤمنين، تعتبر العمل الصالح بمثابة برنامج مستمر، إذ إنَّ كلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فعل مُضارع، والفعل المُضارع يدل على الاستمرارية، فالعمل الصالح يُمكن أن يصدر صدفة أو

(١) حول عقيدة التثليث واعتقاد المسيحيين بأنَّ المسيح ابن الله يُمكن مُراجعة ما جاء في ذيل الآية (١٧١) من سورة النساء في تفسيرنا هذا.

بسبب ما عن أيّ شخص، فلا يكون حينئذ دليلاً على الإيمان الصادق، لكن استدامة العمل الصالح دليل الإيمان الصادق.

٦ - صفة العبد أرقى وسام للإنسان

وأخيراً، إنَّ القرآن عندما يتحدَّث في آياته عن قضية نزول الكتاب السماوي يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وهذا يعني أنّ صفة «العبد» هي أرقى وسام وأعلى مرتبة ينالها الإنسان في معراج تكامله المعنوي، فإذا نال الإنسان وسام العبودية لله تعالى، فإنّه يرى أنّ كلّ شيء في العالم ملكاً لله، وعملاً يسلك سبيل الطاعة لأوامر الله والتمسك بالنهج الذي رسمهُ وَحدَّده تعالى للإنسان، ولا يفكّر في سواه ويرى أنّ خير شرف للإنسان أن يكون عبداً صالحاً ومُلتزماً بأوامر ونواهي الباري عزّ وجلّ.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

التّفسير

العالم ساحة اختبار

الآيات السابقة كانت تتحدَّث عن الرسالة وقيادة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، لذا فإنَّ أوّل آية نبحثها الآن، تُشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا وهي الإشفاق على الأُمّة فتقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وهُنا يجب الانتباه إلى بعض الملاحظات:

أوّلاً: ﴿بَاخِعٌ﴾ مِن «بخع» على وزن، «نَخلَ» وهي بمعنى إهلاك النفس مِن شدّة الحزن والغم.

ثانياً: كلمة ﴿أَسَفًا﴾ والتي تبيّن شدّة الحزن والغم، هي تأكيد على هذا الموضوع.

ثالثاً: «آثار» جمع «أثر» وهي في الأصل تعني محل موضع القدم، إلاَّ أنَّ أي علامة تدلّ على شيء معيّن تُسمّى أثراً.

إنَّ الاستفادة مِن هذا التعبير في الآيات أعلاه تشير إلى ملاحظة لطيفة، وهي أنَّ

الإنسان قد يُغادر في بعض الأحيان مكاناً ما، ولكنَّ آثاره ستبقى بعده، وتزول إذا طالَ زمن المغادرة. فالآية تريد أن تقول: إنّك على قدر مِن الحزن والغم لعدم إيمانهم بحيث تريد أن تُهلك نفسك مِن شدّة الحزن قبل أن تُمحى آثارهم.

ويُحتمل أن يكون الغرض مِن الآثار أعمالهم وتصرّفاتهم.

رابعاً: استخدام كلمة (حديث) للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة في هذا الكتاب السماوي الكبير، يعني أنَّ هؤلاء لم يُفكّروا في أن يستفيدوا ويبحثوا في هذا الكتاب الجديد ذي المحتويات المستجدّة. وهذا دليل على عدم المعرفة، بحيث إنَّ الإنسان بقدر قُربه مِن هذا الكتاب، إلاَّ أنَّهُ لا يلتفت إليه.

خامساً: صفة الإشفاق لدى القادة الإلهيين:

نستفيد مِن الآيات القرآنية وتأريخ النبوّات، أنَّ القادة الإلهيين كانوا يتألّمون أكثر ممّا نتصور لضلال الناس، وكانوا يريدون لهم الإيمان والهداية، ويألمون عندما يُشاهدون العطاشى جالسين بجوار النبع الصافي، ويأنّون مِن شدّة العطش، الأنبياء يبكون لهم ويجهدون أنفسهم ليلاً ونهاراً، ويبلّغون سرّاً وجهاراً، ويُنادون في المجتمع مِن أجل هداية الناس، إنّهم يألمون بسبب ترك الناس للطريق الواضح وتوجّههم نحو الطرق المسدودة، هذا الألم يكاد يوصلهم في بعضِ الأحيان إلى حدِّ الموت، ولو لم يكن القادة بهذه الدرجة مِن الاهتمام لما انطبق عليهم المفهوم العميق للقائد.

وبالنسبة لرسول الهدى ﷺ كانت تصل به حالة الحزن والشفقة إلى مرحلة خطرة على حياته بحيث إنَّ الله تبارك وتعالى يُسلّيه.

في سورة الشعراء نقرأ في الآيتين ٣ و ٤ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾.

الآية التي بعدها تجسِّد وضع هذا العالم وتكشف عن أنَّهُ ساحة للاختبار والتمحيص والبلاء، وتوضّح الخط الذي ينبغي أن يسلكهُ الإنسان: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾.

لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث إنَّ كلَّ جانب فيه يُذهب بالقلب، ويحيّر الأبصار، ويثير الدوافع الداخلية في الإنسان، كيما يتسنى امتحانه في ظلّ هذه الإحساسات والمشاعر ووسط أنواع الزينة وأشكالها، لِتظهر قدرته الإيمانية، ومؤهّلاته المعنوية.

لذلك تضيف الآية مُباشرة قوله تعالى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾.

أراد بعض المفسّرين حصر معنى ﴿مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالعلماء أو بالرجال فقط، ويقولوا: إنَّ هؤلاء هم زينة الأرض، في حين أنَّ لِهذه الكلمة مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الموجودات على الكرة الأرضية.

والظّريف هنا استخدام الآية لِتعبير ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ وليسَ (أكثر عملاً) وهي إشارة إلى أنَّ حُسن العمل وكيفيته العالية هما اللذان يحدِّدان قيمته عندَ ربّ العالمين، وليسَ كثرة العمل أو كمّيته.

على أي حال فإنَّ هُنا إنذار لكلّ الناس، لكلّ المسلمين كي لا ينخدعوا في ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، وبدلاً مِن ذلك عليهم أن يُفكّروا بتحسين أعمالهم.

ثمّ يبيّن تعالى أنَّ أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة ولا دائمة، بل مصيرها إلى المحوِ والزوال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾.

«صعيد» مُشتقّة مِن «صعود» وهي هُنا تعني وجه الأرض، الوجه الذي يتّضح فيه التراب.

و«جرز» تعني الأرض التي لا ينبت فيها الكلأ وكأنّما هي تأكل نباتها، وبعبارة أُخرى فإنّ «جرز» تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف وقلّة المطر.

إنَّ المنظر الذي نشاهدهُ في الربيع في الصحاري والجبال عندما تبتسم الورود وتتفتح النباتات، وحيثُ تتناجى الأوراق، وحيثُ خرير الماء في الجداول... إنَّ هذه الحالة سوف لا تدوم ولا تبقى، إذ لا بدَّ أن يأتي الخريف، حيث تتعرى الأغصان وتنطفىء البسمة مِن شفاه الورود، وتذبل البراعم، وتجف الجداول، وتموت الأوراق، وتسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحوُّل، فلا بدّ أن يأتي ذلك اليوم الذي يضع نهاية للقصور التي تُناطح السماء، وللملابس الباذخة والنعم الكثيرة التي يَرفُل بها الإنسان، كذلك تنتهي المناصب والمواقع والاعتبارات، وسوف لن يبقى شيء من المجتمعات البشرية سوى القبور الساكنة اليابسة، وهذا درسٌ عظيم.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا

رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

أسباب النزّول

لقد أوردَ المفسّرون قصّة لسبب نزول الآيات خلاصتها أنَّ سادة قريش اجتمعوا ليبحثوا في أمر رسول الله ﷺ وقرروا إرسال اثنين منهم إلى أحبار اليهود في المدينة، والاثنان هما النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط.

قالَ زعماء قريش لهؤلاء: اسألا أحبار اليهود عن محمّد وصفا لهم صفته، وخبّراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم مِن علم الأنبياء ما ليسَ عندنا.

فخرجا حتى قَدِما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النّبي ﷺ وقالا لهم ما قالت قريش.

فقالَ لهما أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مُرسل، وإن لم يفعل فهو رجل مُتقوّل فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كانَ مِن أمرهم، فإنَّهُ قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو.

وفي رواية أُخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي.

فانصرفا إلى مكّة فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصلٍ ما بينكم وبين محمّد. وقصّا عليهم القصة.

فجاؤوا إلى النّبي ﷺ فسألوه، فقال ﷺ: أخبركم بما سألتم غداً ولم يستثن - أي لم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنهُ، ومكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكّة وتكلّموا في ذلك. فشقّ على رسول الله ﷺ ما يتكلم به أهل مكّة، ثمّ جاءه جبرائيل عليه السلام عن الله بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنهُ من أمر الفتية والرجل الطوّاف. وأنزل عليه آية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾(١).

وقد سأل رسول الله ﷺ جبرائيل حينَ جاءه: «لقد احتبست عنّي يا جبرائيل» فقال لهُ جبرائيل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾(٢) الآية.

(مِن الجدير بالذكر هُنا أنَّ سورة الكهف تضمّنت الجواب على سؤالين مِن الأسئلة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥. (٢) سورة مريم، الآية: ٦٤.

الثلاثة. إلاَّ أنَّ الآية التي تتحدث عن الروح قد مرّت علينا في سورة الإسراء، وهذا أمرٌ لا يندر حدوثه في القرآن، إذ تنزل آية في مُناسبة معيّنة، ثمّ توضع بأمر الرّسول ﷺ في سورة أُخرى).

التفسير

بداية قصّة أصحاب الكهف

في الآيات السابقة كانت هُناك صورة للحياة الدنيا، وكيفية اختبار الناس فيها، ومسير حياتهم عليها، ولأنَّ القرآن غالباً ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحسَّاسة، أو أنّهُ يذكر نماذج مِن التاريخ لتجسيد الوعي بالقضية، لذا قام في هذه السورة بتوضيح قصّة أصحاب الكهف، وعبرَّت عنهم الآيات بأنّهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنّهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون في ظل حياة مُترفة بالزّينة وأنواع النعم، إلاّ أنّهم انسلخوا مِن كلّ ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضدّ الطاغوت - طاغوت زمانهم - وذهبوا إلى غار خال مِن جميع أشكال الزّينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم في سبيل الإيمان والثبات عليه.

المُلفت للنظر أنَّ القرآن ذكر في البداية قصّة هذه المجموعة مِن الفتية بشكل مجمل، مستخدماً بذلك أحد أُصول فن الفصاحة والبلاغة، وذلك لِتهيئة أذهان المستمعين ضمن أربع آيات، ثمّ بعد ذلك ذكر التفاصيل في ١٤ آية.

في البداية يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾. إنَّ لنا آيات أكثر عجباً في السماوات والأرض، وإنّ كلّ واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلَّ وعلا، وفي حياتكم - أيضاً - أسرار عجيبة تُعتبر كلّ واحدة مِنها علامة على صدق دعوتك، وفي كتابك السماوي الكبير آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإنَّ قصّة أصحاب الكهف ليست بأعجب مِنها.

أمّا لماذا سميت هذه المجموعة بأصحاب الكهف؟ فذلك يعود إلى لجوئهم إلى الغار كي يُنقذوا أنفسهم، كما سيأتي ذلك لاحقاً إن شاء الله.

أمّا «الرقيم» ففي الأصل مأخوذة مِن (رقم) وتعني الكتابة[1]، وحسب اعتقاد أغلب

---

(١) يقول الراغب في المفردات: إنَّ رقم (على وزن زخم) تعني الخط الخشن والواضح، والبعض اعتبره النقطة في خط. وفي كلّ الأحوال إنَّ (رقيم) تعني الكتاب أو اللوح أو الرسالة التي يُكتب فيها شيئاً.

المفسّرين فإنَّ هذا هو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنَّهُ في النهاية تمّت كتابة أسمائهم على لوحة وُضعت على باب الغار.

البعض يرى أنَّ «الرقيم» اسم الجبل الذي كان فيه الغار.

والبعض الآخر اعتبر ذلك اسماً للمنطقة التي كان الجبل يقع فيها.

أمّا بعضهم فقد اعتبر ذلك اسماً للمدينة التي خرجَ مِنها أصحاب الكهف، إلاَّ أنَّ المعنى الأوّل أكثر صحة كما يظهر.

أمّا ما احتملهُ البعض مِن أنَّ أصحاب الرقيم هم مجموعة أُخرى غير أصحاب الكهف، وتنقل بعض المرويات قصّة تختص بهم، فالظاهر أنَّ هذا الرّأي لا يتناسب مع الآية، لأنَّ ظاهر الآية يدل على أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا مجموعة واحدة، لذلك وبعد ذكر العنوانين تذكر السورة قصّة أصحاب الكهف ولا تذكر غيرهم. وهذا بنفسه دليل على الوحدة.

وفي الرّوايات المعروفة الواردة في تفسير نور الثقلين في ذيل الحديث عن الآية، نرى أنَّ الأشخاص الثلاثة الذين دخلوا الغار قد دعوا الله بأخلص ما عملوه لوجهه تعالى أن يُنجيهم مِن محنتهم، ولكن هذه الرّوايات لا تتحدث عن أصحاب الرقيم بالرغم مِن أنَّ بعض كُتب التّفسير قد تعرَّضت لهم.

على أيّة حال يجب أن لا نتردَّد في أنَّ هاتين المجموعتين ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ هم مجموعة واحدة، وأنَّ سبب نزول الآيات يعضد هذه الحقيقة.

ثمّ تقول الآيات بعد ذلك: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ وعندما انقطعوا عن كلّ أمل توجّهوا نحو خالقهم: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ثم: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. أي أرشدنا إلى طريق يُنقذنا مِن هذا الضيق ويقرّبنا مِن مرضاتك وسعادتك، الطريق الذي فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر الله تعالى. وقد استُجيبت دعوتهم: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

ملاحظات:

١ - جملة ﴿أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ مِن مادة (مأوى) وتعني المكان الآمن، وهو إشارة إلى أنَّ هؤلاء الفتية الهاربين مِن بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسّوا بالأمن عندما وصلوا إلى الغار.

٢ - (فتية) جمع (فتى) وهو الشاب الحدث، ولكنّها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمسنّين الذين يملكون روحيّة شابّة، وقد ذُكرت هذه الكلمة مَع نوع مِن الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم في مقابل الحق.

والشاهد على هذا الكلام ما نُقل عن الإمام الصادق في أصحاب الكهف إذ قال: «أما علمت أنَّ أصحاب الكهف كانوا كُلّهم كهولاً فسمّاهم الله فتية بإيمانهم».

بعد ذلك أضاف الإمام الصادق في معنى الفتوة قولهُ عليه السلام: «مَن آمن بالله واتقى فهو الفتى»(١).

وقد نقل عن الإمام الصادق ما يشبه هذا الحديث في (روضة الكافي)(٢) أيضاً.

٣ - استخدام تعبير ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ إشارة إلى أنَّ هؤلاء الفتية عندما لجأوا إلى الغار تركوا جميع الوسائل والأسباب الظاهرية، وكانوا لا يأملون سوى رحمة الله.

٤ - جملة ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنّما يُوضع ستار على أذُن الشخص بحيث لا يسمع أيّ شيء، وهو ستار النوم.

ولهذا فإنَّ النوم الحقيقي هو النوم الذي يطغى على السمع، وكذلك إذا أردنا أن نوقظ شخصاً مِن نومه، فإنّنا نصيح به ونناديه حتى ينفذ الصوت إلى مسامعه.

٥ - إنَّ استخدام تعبير ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ إشارة إلى أنَّ نومهم قد استمرَّ لعدّة سنين كما سيأتي تفسير ذلك في الآيات القادمة إن شاء الله تعالى.

٦ - إنّ استخدام تعبير ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ لِيقظتهم مِن النوم، قد يكون لأنّ نومهم أصبح مِن الطول بمقدار بحيث كانوا كالموتى. فيقظتهم مِن النوم كبعثهم إلى الحياة مرّة أُخرى.

٧ - جملة ﴿لِنَعْلَمَ﴾ لا تعني أنّ الله يريد أن يعلم شيئاً جديداً، ويكثُر استخدام هذا التعبير في القرآن، والغرض مِنهُ هو تحقق العلم الإلهي، بمعنى نحنُ أيقظناهُم مِن المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أي حتى يسأل كلّ واحد الآخر عن مقدار نومهم.

٨ - عبارة ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ إشارة لما سنتحدّث عنه أثناء تفسير الآيات اللاحقة، حيث إنّهم بعد يقظتهم اختلفوا في مقدار نومهم، فالبعض قال: يوماً، والبعض الآخر قالَ: نصف يوم، في حين أنّهم كانوا نائمين لسنين طويلة.

(١-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٤٤ و٢٤٥.

أمّا قول البعض بأنَّ هذا التعبير هو شاهد على أنَّ أصحاب الكهف هم غير أصحاب الرقيم، فهذا كلام بعيدٌ للغاية ولا يحتاج لمزيد توضيح[١].

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

القصّة المفصّلة لأصحاب الكهف

بعد أن ذكرت الآيات بشكل مُختصر قصّة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصّل لها ضمن ١٤ آية وكان المنطلق في ذلك قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ كلامٌ خال مِن أيّ شكلٍ مِن أشكال الخرافة والتزوير. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. وكما قُلنا فإنَّ ﴿فِتْيَةٌ﴾ جمع (فتى) وهي تعني الشاب الحدث. وبما أنَّ الجسم يكون قويّاً في مرحلة الشباب، فهو على استعداد لقبول نور الحق، ومنبع للحب والسخاء والعفة. ولذا كثيراً ما تُستخدم كلمة (الفتى والفتوة) للتدليل على مجموع هذه الصفات حتى لو كانَ أصحابها من المسنّين.

وتشير الآيات القرآنية - وما هو ثابت في التاريخ - إلى أنَّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون في بيئة فاسدة وزمان شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هُناك حكومة ظالمة تحمي مظاهر الشرك والكفر والانحراف.

مجموعة أهل الكهف - الذين كانوا على مستوى مِن العقل والصدق - أحسّوا بالفساد وقرروا القيام ضدَّ هذا المجتمع، وفي حال عدم تمكنهم مِن المواجهة والتغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

(١) ذهب إلى هذا الرأي صاحب كتاب (أعلام القرآن) في صفحة ١٧٩ مِن كتابه.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾.

فإذا عبدنا غيره: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾.

نستفيد مِن تعبير ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أنَّ بذرة التوحيد وفكرته كانت مُنذ البداية مرتكزة في قلوبهم، إلاّ أنّهم لم تكن لديهم القدرة على إظهارها والتجاهر بها. ولكن الله بتقوية قلوبهم أعطاهم القدرة على أن ينهضوا ويعلنوا علانية نداء التوحيد.

وليس مِن الواضح فيما إذا كانَ هذا الإعلان قد تمَّ أوّلاً أمام ملك زمانهم الظالم (دقيانوس) أو أنَّهُ تمَّ أمام الناس، أو أمام الاثنين معاً (الحاكم الظالم والناس) أو أنّهم تجاهروا به فيما بينهم أنفسهم؟

لكن يظهر مِن كلمة ﴿قَامُوا﴾ أنَّ إعلانهم كان وسط الناس، أو أمام السلطان الظالم.

(شطط) على وزن (وسط) تعني الخروج عن الحد والإفراط في الابتعاد لذا فإنَّ (شطط) تُقال للكلام البعيد عن الحق، ويقال لحواشي وضفاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، وكونها ذات جدران مُرتفعة.

وفي الواقع، إنَّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلاً واضحاً لإثبات التوحيد ونفي الآلهة، وهو قولهم: إنّنا نرى وبوضوح أنَّ لهذه السماوات والأرض خالقاً واحداً، وأنَّ نظام الخلق دليل على وجوده، وما نحنُ إلاّ جزء مِن هذا الوجود، لذا فإنَّ ربّنا هو نفسهُ ربّ السماوات والأرض.

ثمّ ذكروا دليلاً آخر وهو: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾.

فهل يُمكن الاعتقاد بشيء بدون دليل وبرهان؟: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾.

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلاً على مثل هذا الاعتقاد؟ ما هذا الظلم الفاحش والانحراف الكبير: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

وهذا الافتراء هو ظلم للنفس، لأنَّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط والشقاء، وهو أيضاً ظلم بحق المجتمع الذي تسري فيه هذه الانحرافات، وأخيراً هو ظلم لله وتعرّض لمقامه العظيم سبحانهُ وتعالى.

هؤلاء الفتية الموحّدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرك عن قلوب الناس، وزرع غرسة التوحيد في مكانها، إلاّ أنَّ ضجة عبادة الأصنام في ذلك المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبّار كانتا مِن الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة الله في صدورهم وانكمشت همهمات التوحيد في حناجرهم.

وهكذا اضطروا للهجرة لإنقاذ أنفسهم والحصول على محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذي سيذهبون إليه ثمّ كان قرارهم: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾. حتى: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾.

«يُهيِّىء» مُشتقة مِن «تهيئة» بمعنى الإعداد.

«مرفق» تعني الوسيلة التي تكون سبباً للّطف والرفق والراحة، وبذا يكون معنى الجملة ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ أنَّ الخالق سبحانهُ وتعالى سيرتب لكم وسيلة للرفق والراحة.

وليس مِن المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد في الجملة الأُولى إشارة إلى الألطاف المعنوية لله تبارك وتعالى، في حين أنَّ الجملة الثّانية تشير إلى الجوانب المادية التي تؤدّي إلى خلاصهم ونجاتهم.

ملاحظات

١ - الفتوة والإيمان

تتزامن روح التوحيد دائماً مع سلسلة مِن الصفات الإنسانية العالية، فهي تنبع مِنها وتؤثّر فيها أيضاً، ويكون التأثير فيما بينهما مُتبادلا. ولهذا السبب فإنّنا نقرأ في قصّة أصحاب الكهف أنّهم كانوا فتية آمنوا بربّهم.

وعلى هذا الأساس قال بعض العلماء: رأس الفتوة الإيمان.

وقالَ البعض الآخر مِنهم: الفتوة بذل الندى، وكف الأذى، وترك الشكوى.

والبعض الثّالث فسّر الفتوة بقوله: هي اجتناب المحارم واستعمال المكارم.

٢ - الإيمان والإمداد الإلهي

في عدّة مواقع مِن الآيات أعلاه تنعكس بوضوح حقيقة الإمداد الإلهي للمؤمنين، فإذا وضع الإنسان خطواته في طريق الله، ونهضَ لأجله فإنَّ الإمداد الإلهي سيشمله، ففي مكان تقول الآية: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾. وفي مكان آخر تقول: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾. وفي نهاية الآيات كانوا بانتظار رحمة الخالق: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

الآيات القرآنية الأُخرى تؤيّد هذه الحقيقة بوضوح، فعندما يجاهد الإنسان مِن أجل

الله، فإنَّ الله يهديه إلى طريق الحق: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1] وفي سورة محمّد ﷺ الآية ١٧ نقرأ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾.

إنَّ طريق الحق مليء بالموانع والصعوبات، ومن العسير على الإنسان طي هذا الطريق والوصول إلى الأهداف من دون لطف الله وعنايته.

ونعلم أيضاً أنَّ لطف الله أكبر مِن أن يترك العبد في طريق الحق لوحده.

٣ - ملجأ باسم الغار

إنَّ وجود (أل) التعريف في كلمة «الكهف» قد تكون إشارة إلى أنّهم (أصحاب الكهف) كانوا مصممين على الذهاب إلى مكان معيّن في حالِ عدم نجاح دعوتهم التوحيدية، وذلك لإنقاذ أنفسهم مِن ذلك المحيط الملوّث.

(الكهف) كلمة ذات مفهوم واسع، وتذكّرنا بنمط الحياة الابتدائية للإنسان، حيث ينعدم فيه الضوء، ولياليه مُظلمة وباردة، وتذكّرنا بآلام المحرومين، إذ ليسَ ثمّة شيء مِن زينة الحياة المادية، أو الحياة الناعمة المرفَّهة.

ويتّضح الأمر أكثر إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أنَّ التاريخ ينقل لنا أنَّ أصحاب الكهف كانوا مِن الوزراء وأصحاب المناصب الكبيرة داخل الحُكُم، وقد نهضوا ضدَّ الحاكم وضدَّ مذهبه، وكان اختيار حياة الكهوف على هذه الحياة قراراً يحتاج إلى المزيد مِن الشهامة والهمّة والروح والإيمان العالي.

وفي هذا الغار البارد المظلم الذي قد يتضمّن خطر الحيوانات المؤذية، هُناك عالم مِن النور والإخلاص والتوحيد والمعاني السامية.

إنّ خطوط الرحمة الإلهيّة متجلية على جدران هذا الغار، وأمواج لطف الخالق تسبح في فضائه، ليسَ هُناك وجود للأصنام مِن أي نوع كانت، ولا يصل طوفان ظُلم الجبّارين إلى هذا الكهف.

هؤلاء الفتية الموحّدون تركوا الدنيا الملوّثة الواسعة والتي كانت سجناً لأرواحهم وذهبوا إلى غار مظلم جاف. وفعلهم هذا يشبه فعل النّبي يوسف عليه السلام حين أصرّوا عليه أن يستسلم لشهوة امرأة العزيز الجميلة، وإلاّ فالسجن الموحش المظلم سيكون في انتظاره، لكن هذا الضغط زادَ في صموده وقال مُتوجّهاً إلى ربّه العظيم: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾(١).

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٖ مِّنْهُۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرْشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظٗا وَهُمْ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارٗا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبٗا ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

مكان أصحاب الكهف

يُشير القرآن في الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلِّقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف في الغار، وكأنّها تحكي على لسان شخص جالس في مقابل الغار ينظر إليهم.

في هاتين الآيتين إشارة إلى ست خصوصيات هي:

أوّلاً: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه في الجزء الشمالي مِن الكرة الأرضية، فإنَّ ضوء الشمس كانَ لا يدخل الغار بشكل مُباشر، فالقرآن يقول إنّك إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

وعلى هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، وهو أمر لو حصل فقد يؤدّي إلى تلف أجسادهم، ولكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنَّ عبارة ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ التي تعني (التمايل) تؤكّد على هذا المعنى، وكأنَّ الشمس كانت مأمورة بأن تمرّ مِن اليمين (يمين الغار). وكلمة (تقرض) التي تعني (القطع) تؤكّد نفس مفهوم السابق، وإضافة إلى هذا فإنَّ كلمة ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ المشتقّة مِن كلمة (الزيارة) المقارنة

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

لبداية الشيء تُناسب مفهوم طلوع الشمس. (وتقرض) تعني القطع والنهاية وهو معنى يتجلّى في غروب الشمس.

ولأنَّ فتحة الغار كانت إلى الشمال فإنَّ الرياح اللطيفة والمعتدلة كانت تهب مِن طرف الشمال وكانت تدخل بسهولة إلى داخل الغار، وتؤدّي إلى تلطيف الهواء في جميع زوايا الغار.

ثانياً: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾.

لقد كان أُولئك في مكان واسع مِن الغار، وهذا يدل على أنّهم لم يأخذوا مُستَقَرَّهم في فتحة الغار التي تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كي يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشرة لضوء الشمس.

وهُنا يقطع القرآن تسلسل الكلام ويستنتج نتيجة معنوية، حيثُ يبيّن أنَّ الهدف مِن ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

نعم، إنَّ الذين يضعون أقدامهم في طريق الله، ويُجاهدون لأجله فإنَّ الله سيشملهم بلطفه في كلّ خطوة وليسَ في بداية العمل فقط. إنَّ الله يرعى هؤلاء حتى في أدق التفاصيل.

ثالثاً: إنَّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾. وهذا يدل على أنَّ أجفانهم كانت مفتوحة بالضبط مِثل الإنسان اليقظ، وقد تكون هذه الحالة الاستثنائية لكي لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التي تخاف الإنسان اليقظ، أو لكي يكون شكلهم مُرعباً كي لا يتجرأ إنسان على الاقتراب منهم، وهذا بنفسه أُسلوب للحفاظ عليهم.

رابعاً: وحتى لا تتهرأ أجسامهم بسبب السنين الطويلة التي مكثوا فيها نياماً في الكهف، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

حتى لا يتركز الدم في مكان معيّن، ولا تكون هُناك آثار سيئة على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدّة طويلة.

خامساً: في وصف جديد يقول تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

كلمة «وصيد» وكما يقول الراغب في المفردات تعني في الأصل الغرفة أو المخزن الذي يتمّ إيجاده في الجبال لأجل خزن الأموال، إلاّ أنَّ المقصود بهِ هنا هو فتحة الغار.

برغم أنَّ الآيات القرآنية لم تتحدث حتى الآن عن كلب أصحاب الكهف، إلاَّ أنَّ القرآن يذكر هُنا تعابير خاصّة تتضح مِن خلالها بعض المسائل، فمثلا ذكر حالة كلب أصحاب الكهف يفيد أنّه كان معهم كلب يتبعهم أينما ذهبوا ويقوم بحراستهم.

أمّا متى التحق هذا الكلب بهم، وهل كان كلب صيدهم، أو أنَّهُ كلب ذلك الراعي الذي التقى بهم في مُنتصف الطريق، وعندما عرف حقيقتهم أرسل حيواناته إلى القرية والتحق بهم، لأنَّهُ كان يبحث عن الحقيقة مثلهم وقد رفض هذا الكلب أن يتركهم واستمرَّ معهم.

ألا يعني هذا الكلام أنَّ جميع المحبّين - لأجل الوصول إلى الحق - يستطيعون سلوك هذا الطريق، وأنَّ الأبواب غير مغلقة أمام أحد سواء كانوا وزراء عند الملك الظالم ثمّ تابوا، أو كان راعياً، بل وحتى كلبه؟!

ألم يؤكّد القرآن أنّ جميع ذرّات الوجود في الأرض والسماء، وجميع الأشجار والأحياء تذكر الله، وتحبّ الله في قلوبها وصميم وجودها؟ (راجع سورة الإسراء - الآية ٤٤).

سادساً: قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

إنّها ليست المرّة الأُولى ولا الأخيرة التي يحفظ فيها الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالرعب والخوف، فقد واجهتنا في الآية ١٥١ مِن سورة آل عمران صورة مُماثلة جسّدها قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾[1].

وفي دعاء الندبة نقرأ كلاماً حول رسول الله ﷺ: «ثمّ نصرتهُ بالرعب».

أمّا ما هو سبب الرعب في مشاهدة أهل الكهف، وهل يعود ذلك لظاهرهم الجسماني، أو بسبب قوّة معنوية سرّية؟

الآيات القرآنية لم تتحدَّث عن ذلك، ولكن المفسّرين ذكروا بحوثاً مُفصّلة في هذا المجال، ولعدم قيام الدليل عليها صرفنا النظر عن ذكرها.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ في الحقيقة عِلّة لقوله تعالى: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ يعني لكُنت تهرب بسبب الخوف الذي يملأ قلبك، وكأنَّ قلبك مملوء بالخوف،

(١) لأجل التوضيح أكثر يمكن مراجعة ما جاء في ذيل الآية (١٤٨) مِن سورة آل عمران والآية (١٢) مِن سورة الأنفال من تفسيرنا هذا.

وينفذ إلى ذرّات وجودك بحيث إنَّ جميع وجود الإنسان يُصاب بالوحشة والخوف، على أي حال، إذا أراد الله شيئاً فإنَّهُ يُحقق أهم النتائج مِن خلال أبسط الطرق.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

التفسير

اليقظة بعدَ نوم طويل

سوف نقرأ في الآيات القادمة - إن شاء الله تعالى - أنَّ نوم أصحاب الكهف كان طويلاً للغاية بحيث استمر ٣٠٩ سنوات، وعلى هذا الأساس كانَ نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنَّ القرآن يقول في الآيات التي نبحثها ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾.

يعني مِثلما كُنّا قادرين على إنامتهم نوماً طويلاً فإنّنا أيضاً قادرون على إيقاظهم. لقد أيقظناهم مِن النوم: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾(١).

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

لعلّ التردُّد والشك هنا يعود - كما يقول المفسّرون - إلى أنَّ أصحاب الكهف دخلوا الغار في بداية اليوم، ثمّ ناموا، وفي نهاية اليوم استيقظوا مِن نومهم، ولهذا السبب اعتقدوا في بادىء الأمر بأنّهم ناموا يوماً واحداً، وبعد أن رأوا حالة الشمس، قالوا: بل ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وأخيراً، بسبب عدم معرفتهم لمقدار نومهم قالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

---

(١) اللام في ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ هي لام العاقبة وليست للعلّة. يعني أنَّ نتيجة يقظتهم هو أن سأل أحدهم الآخر عن طول مدّة نومهم.

قال بعضهم: إنَّ قائل هذا الكلام هو كبيرهم المسمى (تمليخا) وبالنسبة لاستخدام صيغة الجمع على لسانه ﴿قَالُوا۟﴾ فهو متعارف في مثل هذه الموارد.

وَقد يكون كلامهم هذا بسبب شكِّهم في أنَّ نومهم لم يكن نوماً عادياً، وذلك عندما شاهدوا هندامهم وشعرهم وأظفارهم وما حلَّ بملابسهم.

ولكنَّهم - في كلّ الأحوال - كانوا يحسّون بالجوع وبالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأنَّ المخزون الحيوي في جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسكوكات فضّية لشراء الغذاء: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

ثـمّ أردفوا: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾. لماذا هذا التلطُّف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾.

ثمَّ: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

بحوث

١ - أزكى الطعام

مع أنَّ أصحاب الكهف كانوا بعد يقظتهم بحاجة شديدة إلى الطعام، إلاَّ أنّهم قالوا للشخص الذي كلَّفوه بشراء الطعام: لا تشتر الطعام مِن أيٍّ كان، وإنّما انظر أيُّهم أزكى وأطهر طعاماً فأتنا منهُ.

بعض المفسّرين تأوّلوا المعنى وقالوا: إنَّ المقصود مِن ﴿أَزْكَىٰ﴾ هو ما يعود إلى الحيوانات المذبوحة، إذ إنّهم كانوا يعلمون أنَّ في تلك المدينة مَن يبيع لحم الميتة (أي غير المذبوح على الطريقة الشرعية) وأنَّ البعض يتكسَّب بالحرام، لذلك أوصوا صاحبهم بضرورة أن يتجنّب مثل هؤلاء الأشخاص عندما يحاول شراء الطعام.

ولكن يظهر أنَّ لهذه الجملة مفهوماً واسعاً يشمل كافة أشكال الطهارات الظاهرية والباطنية (المعنوية)، وكلامهم وتوصيتهم هي توصية لكافة أنصار الحق، في أن لا يفكروا بطهارة غذائهم المعنوي وحسب، بل عليهم أيضاً الاهتمام بطهارة طعام الأجسام كي يكون زكيّاً نقيّاً مِن جميع الأرجاس والشبهات، وإنَّ هذا الأمر ينبغي أن يلازمهم حتى في أصعب لحظات الحياة وأشدّها عسراً، لأنَّ هذا المعنى هو تعبير عن أصل في وجود المؤمن.

اليوم يسعى معظم أفراد عالمنا للاهتمام بجانب مِن هذا الأمر، وهو الجانب المتعلّق بالحفاظ على الطعام مِن أشكال التلوّث الظاهري، إذ يضعون الطعام في أوانٍ مغطاة بعيدة عن الأيدي الملوّثة، وعن الأتربة والغبار، وهذا العمل بحدّ ذاته جيد جدّاً، إلاّ أنّ علينا أن لا نكتفي بهذا المقدار، بل ينبغي تزكية الطعام وتطهيره مِن لوثة الشبهة والحرام والرّبا والغش وأيّ شكل من أشكال التلوّث المعنوي.

وفي الرّوايات الإسلامية هُناك تأكيد كبير على الطعام الحلال النقي الزاكي وأثره في صفاء القلب واستجابة الدعاء.

ففي رواية نقرأ أنّه جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ وسَألهُ قائلاً: أحبُّ أن يُستجاب دُعائي.

فقال لهُ رسول الله ﷺ: «طهّر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام»[1].

ثانياً: التقية البنّاءة

نستفيد مِن تعبير الآيات أعلاه أنَّ أصحاب الكهف كانوا يُصرّون على أن لا يعرف أحد مكانهم حتى لا يجبرون على عبادة الأصنام، أو يقتلون بأفجع طريقة مِن خلال رميهم بالحجارة، إنّهم كانوا يرغبون في أن يبقوا غير معروفين حتى يستطيعوا بهذا الأُسلوب الاحتفاظ بقوّتهم للصراع المقبل، أو على الأقل حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بإيمانهم.

وهذا المعنى تعبير عن أحد أقسام «التقية البنّاءة» حيثُ إنّ حقيقة التقية هو أن يحفظ الإنسان طاقته مِن الهدر بإخفاء نفسه أو عقيدته، يحفظ نفسهُ ويصونها حتى يستطيع - في مواقع الضرورة - الاستمرار في جهاده المؤثّر، وطبيعي عندما تكون التقية وإخفاء العقيدة سبباً لتصدُّع الأهداف والبرامج الكبرى، فإنّها تكون ممنوعة وينبغي الجهر بالحق والصدع به بالغاً ما بلغ الضرر.

ثالثاً: اللطف مركز القرآن

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ - كما هو مشهور - هي نقطة الفصل بين نصفي القرآن مِن حيث عدد الكلمات، وهذا بنفسه يشير إلى معنى لطيف للغاية، لأنّ الكلمة مُشتقّة مِن

(١) وسائل الشيعة، ج الرابع، أبواب الدعاء، باب (٦٧) الحديث الرابع. ولمزيد مِن التوضيح يمكن مُراجعة تفسير الآية (١٨٦) مِن سورة البقرة.

اللطف، واللطافة والتي تعني هُنا الدقة. بمعنى أنَّ المرسل لتهيئة الطعام عليه أن يذهب ويرجع بحيث لا يُشعِر أحد بقصّتهم.

بعض المفسّرين قالوا: إنَّ الغرض مِن التلطُّف في شراء الطعام هو أن لا يتصَعَّب في التعامل، ويبتعد عن النزاع والضوضاء وينتخب أفضل البضاعة.

وهذا بذاته لطف أن تُشكّل كلمة اللطف وسط القرآن ونقطة النصف بين كلماته الهادية.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

نهاية قصّة أصحاب الكهف

لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة مِن الرّجال المتشخّصين إلى كلّ مكان وأغاظت بشدّة الملك الظالم، حيث قدّر أن تكون هذه الهجرة مقدّمة ليقظة ووعي الناس، أو قد يذهب أصحاب الكهف إلى مَناطق بعيدة أو قريبة ويقومون بتبليغ مذهب التوحيد والدعوة إليه، ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام.

لقد أصدر الحاكم تعليماته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف في كلّ مكان، وعليهم أن يتّبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم.

ولكن كلّما بحثوا لم يعثروا على شيء، وهذا الأمر أصبح بحدّ ذاته لغزاً للناس،

ونقطة انعطاف في أفكارهم، وقد يكون هذا الأمر - وهو قيام مجموعة من ذوي المناصب في الدولة بترك مواقعهم العالية في الدولة وتعريض أنفسهم للخطر - هو بحدِّ ذاته سبباً ليقظة الناس ومصدراً لوعيهم، أو لوعي قسم منهم على الأقل.

ولكن في كلّ الأحوال، فإنَّ قصّة هؤلاء النفر قد استقرّت في صفحات التاريخ وأخذت الأجيال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

والآن لنعد إلى الشخص المكلَّف بشراء الطعام ولننظر ماذا جرى له.

لقد دَخل المدينة ولكنَّهُ فغَر فاه مِن شدّة التعجُّب، فالشكل العام للبناء قد تغيَّر، هندام الجميع ولباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحوّلت إلى قصور، وقصور الأمس تحوَّلت إلى خرائب!

لقد ظنَّ - للحظة واحدة - أنَّهُ لا يزال نائماً، وأنَّ ما يُشاهده ليس سوى أحلام، فركَ عينيه، إلاَّ أنَّهُ التفت إلى ما يراه، وهو عين الحقيقة، وإن كانت عجيبة ولا يمكن تصديقها.

إنَّهُ لا يزال يعتقد بأنَّ نومهم في الغار كان ليوم أو بعض يوم، فلماذا هذا الاختلاف، وكيف تمَّت كلّ هذه التغييرات الكبيرة والواسعة في ظرف يوم واحد؟!

ومن جانب آخر كان منظره هو عجيباً للناس وغير مألوف. ملابسهُ، كلامه، شكلهُ كلّ شيء فيه بدا غريباً للناس، وقد يكون هذا الوضع قد لفت أنظارهم إليه، لذا قام بعضهم بمُتابعته.

لقد انتهى عجبه عِندما مدَّ يدهُ إلى جيبه لِيُسدِّد مبلغ الطعام الذي اشتراه، فالبائع وقع نظره على قطعة نقود ترجع في قدمها إلى ٣٠٠ سنة، وقد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبّار مكتوباً عليها، وعندما طلب منهُ توضيحاً قالَ لهُ بأنَّهُ حصل عليها حديثاً.

وقد عرف الناس تدريجيّاً مِن خلال سلسلة مِن القرائن أنَّ هذا الشخص هو واحد مِن أفراد المجموعة الذين قرأوا عن قصّتهم العجيبة والتأريخية التي وقعت قبل ٣٠٠ سنة، وأنَّ قصّتهم كانت تدور على الألسن في اجتماعات الناس وندواتهم، وهنا أحسَّ الشخص بأنَّهُ وأصحابه كانوا في نوم عميق وطويل.

هذه القضية كانَ لها صدى كالقنبلة في المدينة، وقد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن.

قال بعض المؤرّخين: إنَّ حكومة المدينة كانت بيد حاكم صالح ومؤمن، إلاَّ أنَّ

استيعاب وفهم قضية المعاد الجسماني وإحياء الموتى بعد الموت كان صعباً جدّاً على أفراد ذلك المجتمع، فقسم مِنهم لم يكن قادراً على التصديق بأنَّ الإنسان يُمكن أن يعود للحياة بعدَ الموت، إلاّ أنَّ قصّة أصحاب الكهف أصبحت دليلاً قاطعاً لأُولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسماني.

ولذا فإنَّ القرآن يبيّن أنّنا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ثمّ أضاف تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾.

حيث إنَّ هذا النوم الطويل الذي استمرَّ لمئات السنين كان يشبه الموت، وأنّ إيقاظهم يشبه البعث، بل يمكن أن نقول: إنَّ هذه الإنامة والإيقاظ هي أكثر إثارة للعجب مِن الموت والحياة في بعض جوانبهما، فمن جهة قد مرَّت عليهم مئات السنين وهم نيام وأجسامهم لم تفنَ أو تتأثّر، وقد بقوا طوال هذه المدَّة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياءً طيلةَ هذه المدَّة؟

أليسَ هذا دليلاً قاطعاً على قدرة الله على كلّ شيء؟ فالحياة بعد الموت، بعد مُشاهدة هذه القضية ممكنة حتماً.

بعض المؤرّخين كتب يقول: إنَّ الشخص الذي أرسل لتهيئة الطعام وشرائه، عاد بسرعة إلى الكهف وأخبر رفقاءه بما جرى، وقد تعجّب كلّ منهم، وبعد أن علموا بفقدان الأهل والأولاد والأصدقاء والإخوان، ولم يبق مِن أصحابهم أحد، أصبحت الحياة بالنسبة إليهم صعبة للغاية، فطلبوا مِن الخالق جلَّ وعلا أن يُميتهم، وينتقلون بذلك إلى جوار رحمته، وهذا ما حدث.

لقد ماتوا ومضوا إلى رحمة ربِّهم، وبقيت أجسادهم في الكهف عندما وصلهُ الناس.

وهنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسماني وبين مَن لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يُريدون أن تنسى قضية نوم ويقظة أصحاب الكهف بسرعة، كي يُسلبوا أنصار المعاد الجسماني هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تُغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافياً إلى الأبد عن أنظار الناس. قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾.

ولأجل إسكات الناس عن قصّتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إنَّ قضيتهم

معقّدة ومصيرهم محاط بالألغاز!! لذلك فإنّ: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾. أي اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث عن قصّتهم.

أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلاً حيّاً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جَهدوا على أن لا تُنسى القصّة أبداً لذلك اقترحوا أن يتّخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإنَّ الناس سوف لن ينسوهم أبداً، بالإضافة إلى ما يتبرّك بهِ الناس مِن آثارهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

وفي تفسير الآية ذُكرت احتمالات أُخرى سنقف على بعضها في البحوث.

الآية التي بعدها تُشير إلى بعض الاختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلاً تتحدّث الآية عن اختلافهم في عددهم فتقول: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وبعضهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وذلك منهم ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾. وبعضهم ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. أمّا الحقيقة فهي: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾. ولذلك ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وبالرغم مِن أنَّ القرآن لم يشر إلى عددهم بصراحة، لكن نفهم مِن العلامات الموجودة في الآية أنَّ القول الثّالث هو الصحيح المطابق للواقع، حيث إنَّ كلمة ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وردت بعد القول الأوّل والثّاني، وهي إشارة إلى بُطلان هَذين القولين، إلاّ أنَّ القول الثّالث لم يُتبع بمثل هذا الاستنكار بل استتبع بقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وأيضاً بقوله ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا بحدِّ ذاته دليل على صحة هذا القول (الثّالث).

وفي كلّ الأحوال فإنَّ الآية تنتهي بنصيحة تحثّ على عدم الجدال حولهم إلاّ الجدل القائم على أساس المنطق والدليل: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾.

﴿مِرَاءً﴾ كما يقول الراغب في مفرداته، مأخوذة في الأصل مِن (مريت الناقة) بمعنى قبضت على (ضَرَعْ) الناقة لأحلبها، ثمّ أطلق المعنى بعد ذلك لِيشمل الأشياء الخاضعة للشك والترديد.

وقد تُستخدم كثيراً في المجادلات والدفاع عن الباطل، إلاّ أنَّ أصلها لا يختص بهذا المعنى، بل تتسع لكلّ أنواع البحوث والمفاوضات حول أيّ موضوع كان موضعاً للشك.

«ظاهر» تعني غالب ومسيطر ومُنتصر. لذا فالآية تقول: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ بمعنى قُل لهم قولاً مَنطقياً بحيث يَتوضّح رجحان منطقك.

وقد احتمل البعض أنّ تفسير هذه الآية هو: لا تتحدَّث حديثاً خاصّاً مع المعارضين والمعاندين حيثُ إنّهم يُحرِّفون كلَّ ما تقول، بل تحدَّث معهم علانية وأمام النّاس كي لا يستطيعوا أن يحرّفوا حقيقة ما تقول، ولا يستطيعوا إنكارها.

التّفسير الأوّل أكثر صحّة.

وعلى أيّ حال فإنَّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدَّث معهم بالاعتماد على الوحي الإلهي، لأنَّ أقوى الأدلة هو ما يصدر عن الوحي دون غيره: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

الآية التي بعدها تعطي توجيهاً عاماً لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني يجب أن تقول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لكلّ ما يخصّ أخبار المستقبل وأحداثه ولكلّ تصميم تتخذه، لأنّك أوّلاً غير مستقل في اتّخاذ القرارات، وإذا لم يشأ الله فإنَّ كائناً مَن كان لا يستطيع القيام بأيِّ عمل، لذا ولأجل أن تُثبت أنَّ قوّتك قبس مِن قوّة الله الأزلية، وأنّها مرتبطة بقدرته، أضف عبارة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلى كلامك.

ثانياً: لا يصح للإنسان - من الوجهة المنطقية - أن يقطع في أخباره المستقبلية ومواقفه وتصميماته، لأنَّ قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلك الأفضل له ذكر جملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مع كلّ تصميم لفعل شيء.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون مُراد الآية هو أن تنفي استقلال الإنسان في إنجاز الأعمال، حيث يصبح مفهوم الآية: إنّك لا تستطيع أن تقول: إنّك ستقوم بالعمل الفلاني غداً إلاّ أن يشاء الله ذلك.

بالطبع فإنّ لازم هذا القول أنّ الكلام سيكون تامّاً مع إضافة (إن شاء الله) ولكن هذا اللزوم سيكون للجملة لا للمتن كما هو الحال في التّفسير الأوّل[(١)].

سبب النّزول الذي أوردناه في بداية الآيات يُؤيّد التّفسير الأوّل، حيثُ إنَّ الرّسول ﷺ قد وعد بالإجابة على أسئلة قريش حول أصحاب الكهف وغيرها بدون ذكر جملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لذلك تَأَخَّر عنهُ الوحي فترة، لكي يكون ذلك تحذيراً لرسول الله ﷺ ويكون عبرة لجميع الناس.

---

(١) يجب الانتباه إلى أنَّهُ طبقاً للتفسير الأوّل فإنَّ هناك جملة مقدَّرة وهي (أن تقول) ويصبح المعنى بعد التقدير (إلاّ أن تقول إن شاء الله) أمّا وفقاً للتفسير الثّاني فليس ثمّة حاجة لهذا التقدير.

وبعد ذلك يقول القرآن: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وهذه إشارة إلى أنَّ الإنسان إذا نسي قول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهو يتحدَّث عن أمر مستقبلي، فعليه أن يقولها فور تذكّره، حيث يُعوّض بذلك عمّا مضى منه.

وبعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

بحوث

١ - قوله تعالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾

كلمة (رجم) تعني في الأصل الحجارة أو رمي الحجارة، ثمّ أطلقت بعد ذلك على أي نوعٍ مِن أنواع الرمي، وتستخدم في بعض الأحيان كناية عن (الاتهام) أو (الحكم استناداً إلى الظن والحدس). وكلمة (بالغيب) تأكيداً لهذا المعنى، يعني لا تحكم بدون الاستناد على مصدر أو علم.

٢ - الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾

في الآيات أعلاه وردت جملة ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بدون (واو) في حين أنَّ جملة ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بدأت بالواو. ولأنَّ جميع تعابير القرآن تنطوي على ملاحظات ومغاز، لذلك نرى أنَّ المفسّرين بحثوا كثيراً في معنى هذه الواو.

ولعلّ أفضل تفسير لها هو ما قيل مِن أنَّ هذه ﴿الواو﴾ تُشير إلى آخر الكلام وآخر الحديث، كما هو شائع استخدامه في أُسلوب التعبير الحديث، إذ توضع الواو لآخر شيء من مجموعة الأشياء التي تذكر، مثلاً نقول: (جاء زيد، عمر، حسن، ومحمّد) فهذه الواو إشارة إلى آخر الكلام وتُبيِّن الموضوع والمصداق الأخير.

هذا الكلام منقول عن المفسّر المعروف (ابن عبّاس)، وقد أيّده بعض المفسّرين، واستفادوا مِن هذه (الواو) لتأييد القول في أنَّ عدد أصحاب الكهف الحقيقي هو سبعة، حيثُ إنَّ القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلة، أبانَ في الأخير العدد الحقيقي لهم.

البعض الآخر مِن المفسّرين كالقرطبي والفخر الرازي ذكروا رأياً آخر في تفسير هذه (الواو) وخلاصته: «إنّ العدد سبعة عند العرب عدد كامل، ولذلك فإنّهم يَعُدّون حتى السبعة بدون واو. أمّا بمجرّد أن يتجاوزوا هذا العدد فإنّهم يأتون بالواو التي هي دليل على بداية الكلام والاستئناف، لذلك تُعرف (الواو) هذه عند الأدباء العرب بأنّها (واو الثمانية)».

وفي الآيات القرآنية غالباً ما يُواجهنا هذا الموضوع، فمثلاً الآية ١١٢ مِن سورة التوبة عندما تُعدِّد صفات المجاهدين في سبيل الله تذكر سبع صفات بدون واو وعندما تذكر الصفة الثامنة فإنّها تذكرها مع الواو فتقول: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

وفي الآية ٥ مِن سورة التحريم، تذكر الآية في وصف نساء النّبي ﷺ سبع صفات ثمّ تذكر الثّامنة مع الواو حيث تقول: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

وفي الآية ٧١ من سورة الزمر التي تتحدَّث عن أبواب جهنَّم تقول: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ إلاّ أنّها وبعد آيتين وعند الحديث عن أبواب الجنّة تقول الآية: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾. أليس ذلك بسبب أنَّ أبواب النار سبعة، وأبواب الجنّة ثمانية؟

طبعاً قد لا يكون هذا تعبيراً عن قانون كُلّي، ولكنَّهُ - في الأغلب - يُعبِّر عن ذلك، في كلّ الأحوال يظهر مِن ذلك أنَّ حرف (الواو) وهو مجرّد حرف، لهُ حسابٌ خاص في الاستعمال ويُظهر حقيقة معيّنة.

٣ - المسجد إلى جوار المقبرة

ظاهر تعبير القرآن أنَّ أصحاب الكهف ماتوا أخيراً ودفنوا، وكلمة «عليهم» تؤيِّد هذا القول. بعد ذلك قرَّر محبّوهم بناء مسجد بجوار مقبرتهم، وقد ذكر القرآن هذا الموضوع في الآيات أعلاه بلهجة تنمّ عن الموافقة، وهذا الأمر يدل على أنَّ بناء المساجد لاحترام قبور عظماء الدين ليسَ أمراً محرّماً - كما يظن ذلك الوهابيون - بل هو عمل حلال ومُحَبَّذ ومطلوب.

وعادة فإنَّ بناء الأضرحة التي تُخلّد الأشخاص الكبار أمرٌ شائع بين أُمم العالم وشعوبه، ويبيّن جانب الاحترام لمثل هؤلاء الأشخاص، وتشجيع لمن يأتي بعدهم، والإسلام لم ينه عن هذا العمل، بل أجازه وأقرّه.

إنَّ وجود مثل هذه الأبنية سند تأريخي للتدليل على وجود هذه الشخصيات والرموز وعلى منهجها ومواقفها، ولهذا السبب فإنَّ الأنبياء والشخصيات الذين هُجرت قبورهم فإنّ تأريخهم أمسى موضعاً للشك والاستفهام.

ويتّضح مِن ذلك أيضاً أن ليس هُناك تضاد بين بناء المساجد والأضرحة وبين قضية التوحيد واختصاص العبادة بالله تعالى، بل هما موضوعان مُختلفان.

بالطبع هُناك بحوث كثيرة حول هذا الموضوع فليراجع إلى مظانّها.

٤ - كلّ شيء يعتمد على مشيئته تعالى

إنَّ ذكر جُملة ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عند اتّخاذ القرارات المرتبطة بالمستقبل ليسَ نوعاً مِن الأدب في محضر الخالق جلَّ وعلا وحسب، بل هُوَ بيان لحقيقة أنّنا لا نملك شيئاً مِن عندنا، بل هُوَ مِن عنده تعالى، وكُلّنا نعتمد ونستند إليه لأنّه هو المستقل بالذات فقط، فلو تحرّكت كلّ السكاكين والشفرات في العالم لِتقطع عرقاً واحداً فإنّها لا تستطيع مِن دون إذنه تعالى.

إنَّ هذه الحقيقة هي نفسها (توحيد الأفعال) ففي الوقت الذي يملك الإنسان حرّيته وإرادته، فإنَّ تحقق أيّ شيء وأيّ عمل إنّما يرتبط بمشيئة الخالق جلَّ وعلا.

إنَّ تعبير ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يزيد مِن توجّهنا نحو الله تبارك وتعالى، ويمنحنا القوّة والقدرة على الإنجاز، وهو مدعاة إلى تزكية وطهارة وصحة الأعمال أيضاً.

ونستفيد مِن بعض الرّوايات أنَّ الإنسان إذا ذكر كلاماً عن المستقبل بدون ذكر ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإنَّ الله سوف يَكِلُهُ إلى نفسه ويُخرجه مِن مظلّة حمايته[١].

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ أنَّهُ عليه السلام أمر يوماً بكتابة رسالة، وعندما جاؤوا بالرسالة إليه وجدها خالية مِن كلمة ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال عليه السلام: «كيف رَجوتم أن يتمّ هذا وليسَ فيه استثناء، انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه»[٢].

٥ - الإجابة على سؤال

قرأنا في الآيات - محل البحث - أنَّ الله يخاطب رسوله بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[٣] وهي إشارة إلى أنّك عندما تنسى ذكر ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وتتذكّر بعد ذلك فعليك باستدراك الأمر بذكر ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وفي الأحاديث العديدة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام - في تفسير الآية - هُناك تأكيد على هذا الموضوع حتى بعد مرور سنة إذا تذكّرت فعليك أن تقول ﴿إن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عِوضاً عمّا فاتك وعمّا نسيته[٤].

والآن قد يُطرح هذا السؤال وهو: إذا جازَ نسبة النسيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في حين

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٥٤.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٧٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٣.
(٤) نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٥٤ فما بعد.

أنَّ الناس يعتمدون على أقواله وأعماله، فكيف يستقيم ذلك مَع دليل عصمة الأنبياء والرُّسل والأئمّة مِن الخطأ والنسيان؟

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنَّ الكثير مِن الآيات القرآنية يكون الحديث فيها مُوجّهاً إلى الرُّسُل في حين أنَّ المعنيّ بها عامّة الناس، وهي كما يقول المثل العربي: «إياك أعني واسمعي يا جارة».

بعض المفكّرين الكبار ذكروا جواباً على هذا السؤال أوردناه في نهاية الحديث عن الآية ٦٨ مِن سورة الأنعام.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

التّفسير

نوم أصحاب الكهف:

مِن القرائن الموجودة في الآيات السابقة نفهم إجمالاً أنَّ نوم أصحاب الكهف كان طويلاً جدّاً. هذا الموضوع يُثير غريزة الاستطلاع عند كلّ مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنة بالضبط استمرَّ نومهم؟

في المقطع الأخير مِن مجموعة الآيات التي تتحدّث عن أصحاب الكهف، تُبعد الآيات الشك عن المستمع وتقول له: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾(١).

ووفقاً للآية فإنَّ مجموع نومهم وبقائهم في الكهف هو ٣٠٩ سنوات. والبعض يرى أنَّ ذكر ثلاثمائة وتسعة مفصولة بدلاً عن ذكرها في جملة واحدة، يعود إلى الفرق بين

(١) طبقاً للقواعد النحوية يجب أن تأتي كلمة (سنة) والتي هي مفرد بدلاً من (سنين) التي هي جمع، ولكن بما أن النوم كان طويلاً للغاية، وعدد السنوات كثيراً، لذا ذكرت الكلمة بصيغة الجمع حتى توضّح الموضوع وتبيّن كثرته.

السنين الشمسية والسنين القمرية حيثُ إنّهم ناموا ٣٠٠ سنة شمسية، وبالقمري تعادل ٣٠٩. وهذا مِن لطائف التعبير حيث أوجز القرآن بعبارة واحدة صغيرة، حقيقة كبيرة تحتاج إلى شرح واسع[1].

ومِن أجلِ وضع حدّ لأقاويل الناس حول مكثهم في الكهف تؤكّد الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ لماذا؟ لأنّ: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

والذي يعرف خفايا وظواهر عالم الوجود ويُحيط بها جميعاً، كيف لا يعرف مدّة بقاء أصحاب الكهف: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾[2] ولهذا السبب فإنَّ سكّان السماوات والأرض: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾.

أمّا مَن هو المقصود بالضمير (هم) في (مالهم) فقد ذكر المفسّرون أقوالاً كثيرة، إذ يعتقد البعض أنّها اشارة إلى سكّان السماوات والأرض، أمّا البعض الآخر فيعتقد أنّ الضمير إشارة إلى أصحاب الكهف، بمعنى أنَّ أصحاب الكهف لا يملكون وليّاً مِن دون الله، فهو الذي تولّاهم في حادثة الكهف، وقام بحمايتهم.

ولكن بالنظر إلى الجملة التي قبلها، يكون التّفسير الأوّل أقرب.

وفي نهاية الآية يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾. هذا الكلام هو في الحقيقة تأكيد على الولاية المطلقة للخالق جلَّ وعلا، إذ ليسَ هُناك قدرة أُخرى لها حق الولاية المطلقة على العالمين، ولا يوجد شريك له تعالى في ولايته، يعني ليس ثمّة قدرة أُخرى غير الله لها حق الولاية في العالم، لا بالاستقلال ولا بالاشتراك.

وفي آخر آية يتوجّه الخطاب إلى الرّسول ﷺ ويقول الله له: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾. أي لا تُعِر أيّة أهمية إلى أقوال الآخرين المخلوطة بالكذب والخرافة والوضع، يجب أن يكون اعتمادك في هذه الأُمور على الوحي الإلهي فقط، لأنَّهُ لا يوجد شيء يستطيع أن يُغيّر كلامه تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾. فكلام الله تعالى وعلمه ليس مِن سنخ علم الإنسان الذي يخضع يوميّاً للتغيُّر والتبديل بسبب الاكتشافات الجديدة

---

(١) الفرق بين السنة الشمسية والقمرية هو (١١) يوم تقريباً، فإذا ضربنا ذلك (٣٠٠) وقسّمنا الناتج على عدد أيّام السنة القمرية أي على (٣٥٤) يكون العدد (٩) طبعاً يبقى باق قليل، أهمل لأنّه لا يصل إلى السنة الكاملة.

(٢) جملة ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ هي صيغة تعجُّب، تُبيّن لنا عظمة علم الخالق جلَّ وعلا، والمعنى أنَّهُ بصير سميع بحيث إنَّ الإنسان يعجب من ذلك.

والمعرفة الحديثة، لذلك لا يمكن الاعتماد عليه والركون إليه مائة في المائة، ولهذه الأسباب: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

«ملتحد» مُشتقّة مِن «لحد» على وزن «مهد» وهي الحفرة التي يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كاللّحد الذي يحفر لقبر الإنسان).

ولهذا السبب يقال للمكان الذي يميل إليه الإنسان (ملتحد)، ثمّ استخدمت بعد ذلك بمعنى «ملجأ».

ومِن المهم أن نلاحظ أنَّ الآيتين الأخيرتين بيّنتا إحاطة علم الخالق جلَّ وعلا بجميع كائنات الوجود، وذلك مِن خلال عِدَّة طرق.

* في البداية تبيّن الآيات: أنَّ غيب السماوات والأرض مِن عنده، ولهذا فهو تعالى محيط بها جميعاً.

* ثمّ تضيف: إنَّهُ سميع وبصير لأقصى حدّ ولأبلغ غاية.

* مرّة أُخرى تقول: إنَّهُ الولي المطلق، وإنَّهُ أعلم الجميع.

* ثمّ تضيف مرّة أُخرى: لا يُشاركه أحد في حكمه حتى يتحدَّد علمه أو معرفته.

* ثمّ تقول: لا يتغيَّر ولا يتبدّل علمه وكلامه.

* وفي آخر جملة تقول الآية: أنّه تعالى هو الملجأ الوحيد في الوجود لا سواه نعلمه، محيط بكُلِّ اللاجئين إليه سبحانهُ وتعالى.

بحوث

١ - قصّة أصحاب الكهف في الرّوايات الإسلامية

هُناك روايات كثيرة في المصادر الإسلامية حول أهل الكهف، ولكن بعضها لا يُعتمد عليها لضعف في سندها، والبعض الآخر تتضاد وتختلف فيما بينها.

ومِن الرّوايات المختلفة اخترنا رواية علي بن إبراهيم القمي التي ينقلها في تفسيره، وقد لاحظنا في هذه الرّواية أنّها الأفضل مِن حيث المتن والمضمون الذي يتناسق مع الآيات القرآنية.

في رواية علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك جبّار عات، وكانَ يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام فمن

لم يجبه قتله، وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عزّ وجلّ ، ووكّل الملك بباب المدينة وكلاء ولم يدع أحداً يخرج حتى يسجد للأصنام، فخرج هؤلاء بعلة الصيد، وذلك أنّهم مرّوا براع في طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم وكان مع الراعي كلب، فأجابهم الكلب وخرج معهم، فقال الصادق عليه السلام : لا يدخل الجنّة مِن البهائم إلا ثلاثة حمار بلعم بن باعور، وذئب يوسف عليه السلام وكلب أصحاب الكهف.

فخرج أصحاب الكهف مِن المدينة بعلّة الصيد هرباً مِن دين ذلك الملك، فلمّا أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف، والكلب معهم فألقى الله عزّ وجلّ عليهم النعاس، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ فناموا حتى أهلك الله عزّ وجلّ الملك وأهل مملكته وذهب ذلك الزمان، وجاء زمان آخر وقوم آخرون ثمّ انتبهوا، فقال بعضهم لبعض: كم نمنا ها هنا؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوماً أو بعض يوم. ثمّ قالوا لواحد مِنهم: خذ هذه الورق وادخل في المدينة مُتنكّراً لا يعرفوك فاشتر لنا، فإنّهم إن علموا بنا وعرفونا قتلونا أو ردّونا في دينهم، فجاء ذلك الرجل فرأى المدينة بخلاف الذي عهدها، ورأى قوماً بخلاف أُولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته، ولم يعرف لغتهم، فقالوا له: من أنت ومِن أين جئت؟ فأخبرهم، فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه، والرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف، فأقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم: هؤلاء ثلاثة ورابعهم كلبهم، وقال بعضهم: هم خمسة وسادسهم كلبهم، وقال بعضهم: هُم سبعة وثامنهم كلبهم، وحجبهم الله عزّ وجلّ بحجاب مِن الرعب فلم يكن أحد يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فإنّهُ لمّا دخل عليهم وجدهم خائفين أن يكون أصحاب [الملك] «دقيانوس» شعروا بهم، فأخبرهم صاحبهم أنّهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل، وأنّهم آية للناس، فبكوا وسألوا الله تعالى أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا، ثمّ قالَ الملك: «ينبغي أن يُبنى هُنا مسجد ونزوره، فإنَّ هؤلاء قوم مؤمنون».

وهنا أضاف الإمام عليه السلام : فلهم في كل سنة، نقلتان، ينامون ستة أشهر على جنبهم الأيمن، وستة أشهر على جنبهم الأيسر، والكلب معهم قد بسط ذراعيه بفناء الكهف»[1].

وفي رواية أُخرى عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورد حديث مُفصَّل عن قصّة أصحاب الكهف مفاده ما يلي:

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

لقد كان هؤلاء في الأصل ستة نفر اتّخذهم (ديقيانوس) وزراءه، فأقام ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره، واتّخذ لهم عيداً في كلّ سنة مَرَّة، فبينا هُم ذات يوم في عيد والبطارقة عن يمينه والهراقلة عن يساره، إذ أتاه بطريق فأخبرهُ أنَّ عساكر الفرس قد غشيته، فاغتمَّ لذلك حتى سقط التاج عن رأسه، فنظر إليه أحد الثلاثة الذين كانوا عن يمينه ويقال لهُ (تلميخا) فقالَ في نفسه: لو كان (ديقيانوس) إلهاً كما يزعم إذاً ما كانَ يغتم وما كان يبول ولا يتغوَّط، وما كان ينام، وليس هذا مِن فعل الإله.

وقد كانَ هؤلاء الوزراء الستة يجتمعون كلّ يوم عندَ أحدهم، وكانوا ذلك اليوم عندَ (تلميخا) فاتّخذ لهم مِن طيِّب الطعام ثمّ قال لهم: يا إخوتاه، قد وقع في قلبي شيء منعني الطعام والشراب والمنام. قالوا: وما ذاك يا تلميخا؟ قال: أطلت فكري في هذه السماء فقلت مَن رفع سقفها محفوظة بلا عمد ولا عُلاقة مِن فوقها، ومَن أجرى فيها شمساً وقمراً، آيتين مُبصرتين، ومن زيّنها بالنجوم؟ ثمّ أطلت الفكر في الأرض فقلت: مَن سطحها على صميم الماء الزخّار، ومَن حبسها بالجبال أن تميد على كلّ شيء؟ وأطلت فكري في نفسي من أخرجني جنيناً مِن بطن أُمي ومَن غذّاني ومَن ربّاني؟ إنَّ لها صانعاً ومدبّراً غير (ديقيانوس الملك)، وما هو إلاَّ ملك الملوك وجبّار السماوات.

فانكبّ الفتية (الوزراء) على رجليه يُقبّلونها وقالوا: بك هدانا الله تعالى مِن الضلالة إلى الهدى فأشر علينا. وهنا وثب (تلميخا) فباعَ تمراً مِن حائط له بثلاثة آلاف درهم وصرَّها في ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا مِن المدينة، فلمّا ساروا ثلاثة أميال قالَ لهم تلميخا: يا إخوتاه جاءت مسكنة الآخرة وذهب ملك الدنيا، انزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم لعلَّ الله أن يجعل لكم مِن أمركم فرجاً ومخرجاً، فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبعة فراسخ في ذلك اليوم، فجعلت أرجلهم تقطر دماً.

وهنا استقبلهم راع، فقالوا: يا أيّها الراعي هل مِن شربة لبن أو ماء؟ فقال الراعي: عندي ما تحبّون، ولكن أرى وجوهكم وجوه الملوك، وما أظنُّكم إلاَّ هُرَّاباً مِن «ديقيانوس» الملك.

قالوا: يا أيّها الراعي لا يحلّ لنا الكذب أفينجينا منك الصدق؟ فأخبروه بقصّتهم، فانكبّ الراعي على أرجلهم يقبّلها ويقول: يا قوم لقد وقع في قلبي ما وقعَ في قلوبكم، ولكن أمهلوني حتى أردّ الأغنام على أربابها وألحق بكم، فتوقّفوا له، فردَّ الأغنام، وأقبل يسعى يتبعهُ الكلب. . . فنظر الفتية (الوزراء) إلى الكلب وقال بعضهم: إنّا نخاف

أن يفضحنا بنباحه، فألحّوا عليه بالحجارة، فأنطق الله تعالى جلَّ ذكره، الكلب [قائلاً]: ذروني حتى أحرسكم مِن عدوّكم.

فلم يزل الراعي يسير بهم حتى علا بهم جبلاً، فانحطَّ بهم على كهف يُقال لهُ (الوصيد) فإذا بفناء الكهف عيون وأشجار مثمرة فأكلوا مِن الثمر، وشربوا مِن الماء، وجنّهُم الليل، فآووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومدَّ يديه عليه، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت بقبض أرواحهم. (فأنامهم الله نوماً طويلا وعميقاً)(١).

وفيما يخصّ ديقيانوس قال بعض المفسّرين: إنَّهُ كان امبراطور الروم وحكم مُنذ عام ٢٤٩ - ٢٥١ ميلادي، وقد كانَ عدوّاً شديداً للمسيحيين، وكانَ يؤذيهم ويعذّبهم، وذلك قبل اعتناق ملك الروم لدين المسيحية.

٢ - أين كانَ الكهف؟

للمفسّرين والعلماء كلام كثير حول أصحاب الكهف، أين كانت مَنطقتهم؟ وأين يقع الكهف الذي مكثوا فيه؟

وهنا ينبغي أن نلاحظ أنَّهُ بالرغم مِن أنَّ العثور على المكان الدقيق لهذه الحادثة لا يؤثّر كثيراً على أصل القصّة ودروسها التربوية وأهمّيتها التأريخية، وبالرغم مِن أنَّ هذه القصّة ليست الوحيدة التي نعرف أصلها ولا نعرف بعض جزئياتها وتفصيلاتها، إلاَّ أنَّ معرفة محل الحادث يُساعدنا حتماً في فهم أكثر لخصوصيات هذه القصّة.

على أيّةِ حال هُناك قولان راجحان مِن بين الاحتمالات الكثيرة المطروحة عن مكان الكهف، يمكن أن نجملهما بما يلي:

أوّلاً: إنَّ هذه الحادثة وقعت في مدينة (أفسوس) وهذا الكهف كان يقع بالقرب مِنها.

ويمكن في الوقت الحاضر مُشاهدة خرائب هذه المدينة بالقرب مِن مدينة (أزمير) التركية، وبالقرب مِن قرية (أياصولوك) في جبال (ينايرداغ) حيثُ يوجد كهف لا يبتعد كثيراً عن (أفسوس).

إنَّ هذا الكهف هو غار وسيع، ويقال بأنَّهُ يمكن في داخله مشاهدة آثار مئات القبور، ويعتقد الكثيرون بأنَّ هذا الغار هو غار أصحاب الكهف.

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٨٢ مادة فكر.

وقد نقل من شاهد الكهف أنَّ فتحة الغار باتجاه الشمال الشرقي، وقد كان هذا الموقع سبباً في ترجيح شك بعض المفسّرين الكبار بِكون هذا المكان هو غير غار أصحاب الكهف، في حين أنَّ هذا الوضع يؤيّد صحة الموضوع ويرجّح كون الغار هو الكهف المقصود لأنَّ دلالة أن تكون الشمس عند الشروق على يمين الغار، وعند الغروب على يساره، هو أن تكون فتحة الغار باتجاه الشمال أو تميل قليلاً نحو الشمال الشرقي.

بالطبع لا يقلِّل مِن صحة الموضوع عدم وجود مسجد أو معبد إلى جانبه، حيثُ يمكن أن تكون آثاره قد اندثرت بعد مرور حوالي ١٧ قرناً على الحادث.

ثانياً: يقع الغار بالقرب مِن (عمّان) عاصمة الأردن، وبالقرب مِن قرية تسمّى «رجيب».

ويمكن مشاهدة آثار صومعة فوق الغار تعود - وفقاً لبعض القرائن - إلى القرن الخامس الميلادي، حيث تحوّلت إلى مسجد ذي محراب ومئذنة بعد سيطرة المسلمين على ذلك المكان.

٣ - الجوانب التربوية لقصّة أهل الكهف

هذه القصّة التأريخية العجيبة التي يذكرها القرآن خالية مِن أيّ خرافة أو وضع، وفيها العديد مِن الدروس التربوية البنّاءة، تماماً كما في قصص القرآن الأُخرى، وإذا كُنّا قد أشرنا إلى هذه الدروس ضمن تفسير الآيات، فإنّنا نرى مِن الضروري الآن أن نشير إليها بشكل مجمل حتى نقترب أكثر مِن الهدف الأساس للقرآن، وفيما يلي أبرز هذه الدروس:

أ: إنَّ أوّل دروس هذه القصّة هو تحطيم حاجز التقليد، والابتعاد عن التلوّن بلون المجتمع الفاسد. فهؤلاء الفتية حافظوا - كما لاحظنا - على استقلالهم الفكري في قبال الأكثرية المنحرفة المحيطة بهم، وهذا الأمر أصبح سبباً في نجاتهم وتحرُّرهم.

وينبغي للإنسان أن يكون له تأثير بنّاء على مجتمعه لا أن يكون مسايراً له.

ب: الهجرة مِن الأوساط المنحرفة درس آخر في هذه القصّة ذات العبر، فهم قد تركوا بيوتهم وحياتهم المرفَّهة المليئة بألوان النعم المادية، وتركوا مَناصبهم، ورضوا بأنواع الصعوبات وأشكال الحرمان - في الغار الذي كان يفتقد كلّ شيء - لكي يحفظوا

إيمانهم، ولا يكونوا من عوامل وأعوان جهاز الظلم والجور والكفر والشرك[١].

ج: التقية بمعناها البنّاء درس آخر نستفيده مِن هذه القصّة، لقد كانوا يصرّون على عدم اطّلاع أهل المدينة على حالهم وخبرهم، واحتاطوا ليبقى أمرهم وحالهم مخفيّاً، حتى لا يخسروا أنفسهم بدون سبب، وكي يتجنّبوا أن يُجبروا على الرجوع إلى المحيط المنحرف الذي تخلّصوا منهُ.

ونحنُ نعرف أنَّ التقية ليست سوى أن يتكتّم الإنسان على حقيقة أمره في الأماكن والمواقف التي لا يرتجي منها فائدة في ذكر الحقيقة، بل تكون سبباً للضرر، والتقية وقاية للنفس واحتفاظ بقوّة الإنسان لوقت جهاد العدو حيث لا تقية[٢].

د: عدم وجود تفاوت بين الناس وهم في طريق الله، فالوزير كانَ إلى جانب الراعي، بل كان الاثنان إلى جانب الكلب الذي كان يقوم بالحراسة، وهذا درس آخر يتّضح مِن خلاله أنَّ امتيازات الدنيا المادية، والمناصب المُختلفة ليسَ لها أدنى نصيب أو تأثير على تصنيف الناس مِن أهل الحق وسالكيه، إذ الكل فيه سواء... إنَّ طريق الحق هو طريق التوحيد، وطريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

هـ: الإمدادات الإلهيّة العجيبة عند ظهور المشاكل، هي نتيجة أُخرى يجب الاعتبار بها، فقد رأينا كيف قامَ الخالق جلَّ وعلا بإنامة أصحاب الكهف كلّ تلك المدّة الطويلة، مِن أجل إنقاذهم مِن تلك الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت تحيط بهم.

وقد أيقظهم جلَّ وعلا في الوقت المناسب، أي في الوقت الذي أصبحوا رمزاً مِن رموز التوحيد، وقد رأينا - كشكل مِن أشكال العناية - كيف أنَّ الله تعالى حفظ أجسادهم خلال هذه المدَّة مِن تأثيرات الأحداث والعوامل المختلفة، وجعل مِن الرعب والخوف أُسلوباً للحفاظ عليهم في قبال أعدائهم.

و: لقد تعلَّمنا مِن أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى في أصعب الظروف وأدقّها، لأنَّ طعام الإنسان لهُ آثار عميقة في روحه وفكره وقلبه، وعندما يختلط الطعام بالحرام والنجاسة، يبتعد الإنسان عن طريق الله؛ طريق التقوى.

---

(١) مِن أجل المزيد مِن التفاصيل حول مسألة الهجرة وفلسفتها في الإسلام يمكن مُراجعة ما جاء في تفسير الآية (١٠٠) مِن سورة النساء مِن تفسيرنا هذا.

(٢) حول كون التقية أُسلوباً للدفاع والوقاية، يُمكن مُراجعة ما ذكرناه لدى تفسير الآية (٦٢) من سورة يونس من تفسيرنا هذا، وكذلك ملاحظة الملاكات الفقهية لهذه المسألة في كتابنا «القواعد الفقهية».

ز: ضرورة الاعتماد على مشيئة الله وطلب العون مِن لطفه تعالى: وقول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في كلّ ما يتعلق بأمور المستقبل... درس آخر نتعلّمه مِن قصّة أصحاب الكهف.

ح: لقد رأينا أنَّ القرآن سمّاهم: بـ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ في حين أنّهم - طبقاً للرّوايات - لم يكونوا شباباً مِن حيث العمر، وإذا عرفنا أنّهم كانوا في البداية وزراء الملك الجبّار، يتأكّد لنا أنّهم لم يكونوا صغاراً مِن حيث العمر. ولكن تسمية القرآن لهم بـ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ للدلالة على صفات الشهامة والرشد والطُّهر والفتوة والعفو والتسامح.

ط: ضرورة النقاش المنطقي مع المعارضين درسٌ آخر نستفيده مِن قصّة أصحاب الكهف، حيثُ إنّهم عندما أرادوا دحض الشرك الذي عليه مجتمعهم، ذكروا أدلة مَنطقية قرأنا نماذج لها في الآيتين ١٥ - ١٦ مِن هذه السورة.

إنَّ أساس عمل جميع الأنبياء والقادة الإلهيين مع أعدائهم ومعارضهم يستند - في العادة - إلى قاعدة الحوار المنطقي والنقاش الحر، أمّا استخدام القوّة لأجل القضاء على الفتنة فهو أمرٌ يُلجأ إليه عندما تفشل الحجة في أداء وظيفتها، أو عندما يقوم الخصم بعرقلة النقاش المنطقي.

ي: وأخيراً، فإنَّ إمكانية المعاد الجسماني وعودة الناس إلى الحياة مرّة أُخرى عند البعث، يُعتبر عاشر وآخر درس نستفيدهُ مِن هذه القصّة، وسنقرأ عنهُ تفصيلاً في بحوث قادمة إن شاء الله تعالى.

إنّنا لا نستطيع القول بأنَّ الدروس التربوية في قصّة أصحاب الكهف تقتصر على ما ذكرناه، ولكنّا نعتقد أنَّهُ حتى لو كان هُناك درس واحد نستفيده مِن هذه القصّة لكفانا ذلك، فكيف بِنا وأمامنا هذه الدروس الكثيرة؟!

على أيّةِ حال، إنَّ هدف القرآن ليس قصّ القصص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، وأحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التاريخ البشري المليء بالحوادث والمواقف.

٤ - هل أنَّ قصّة أصحاب الكهف علميّة؟

مِن المسلَّم به أنَّ قصّة أصحاب الكهف لم تكن مذكورة في أيّ مِن الكتب السماوية السابقة (سواء الكتب الأصلية أو المحرّفة الموجودة الآن) ويجب أن لا تذكر، لأنَّ الحادثة - طبقاً للتأريخ العام - كانت قد وقعت في القرون التي تلت ظهور المسيح عيسى عليه السلام.

إنَّ حادثة أصحاب الكهف وقعت في زمان «دكيوس» (التي تُعرَّب بديقيانوس) حيثُ تعرّض المسيحيون في عصره إلى تعذيب شديد.

ويقول المؤرخون الأوربيون: إنَّ هذه الحادثة وقعت في الفترة مِن ٢٤٩ - ٢٥١ ميلادي، وبذلك يَرى هؤلاء المؤرخون أنَّ مدّة نوم أصحاب الكهف لم تستغرق سوى ١٥٧ سنة، ويطلقون عليهم لقب (النائمون السبعة لأفسوس) في حين أنّهم يُعرفون بيننا بأصحابِ الكهف(١).

والآن لنتعرف أين تقع (أفسوس) هذه؟ وَمَن أوّل عالم كتب كتاباً عن قصّة هؤلاء السبعة النائمين؟ وفي أيّ قرن حصلَ ذلك؟

(أفسوس) أو (أفسس) بضم الألف والسين، هي واحدة مِن مدن آسيا الصغرى (تركيا الحالية التي هي جزء مِن مملكة الروم الشرقية القديمة) وتقع بالقرب مِن نهر (كاستر) وعلى بعد (٤٠) ميلا تقريباً جنوب شرقي (أزمير) حيثُ كانت عاصمة الملك (الونى).

وقد اشتهرت (أفسوس) بسبب معبدها الوثني المعروف بـ«أرطاميس» الذي يُعتبر أحد عجائب الدنيا السبع(٢).

ويقولون: إنَّ قصّة أصحاب الكهف شُرحت لأوّل مرّة في رسالة باللغة السريانية كتبها عالم مسيحي يسمى (جاك) الذي كان رئيساً للكنيسة السورية، وذلك في القرن الخامس الميلادي، ثمّ شخص آخر يسمّى «جوجويوس» بترجمة تلك الرسالة إلى اللاتينية وتسميتها بـ«جلال الشهداء»(٣). وهذا الامر يُبيِّن أنَّ الحادثة كانت معروفة بين المسيحيين قبل قرن أو قرنين مِن ظهور الإسلام، وكانت الكنائس تهتمّ بها.

بالطبع بعض أحداث هذه القصّة - مثل مدّة نوم أصحاب الكهف - تختلف عمّا ورد في المصادر الإسلامية، فالقرآن يقول - وبصراحة - بأنَّ نومهم كان ٣٠٩ سنة.

مِن جانب ثان وطبقاً لما ينقلهُ ياقوت الحموي في معجم البلدان (المجلد الثاني ص ٨٠٦) وطبقاً لما ينقلهُ «ابن خرداذبه» في كتاب «المسالك والممالك» (صفحة ١٠٦ - ١١٠) وطبقاً - أيضاً - لما يقوله أبو ريحان البيروني في الصفحة ٢٩٠ مِن كتاب «الآثار الباقية»: إنَّ مجموعة مِن السوّاح القدماء قد وجدوا غاراً في مدينة (آبس) فيه بعض

(١) أعلام القرآن، ص ١٥٣.
(٢) الكلام مُقتبس مِن كتاب «قاموس الكتاب المقدّس»، ص ٨٧.
(٣) أعلام القرآن، ص ١٥٤.

الأجساد المتيبّسة، وقد احتملوا أنّ هذه الآثار تتعلّق بقصّة أصحاب الكهف.

مِن سياق الآيات القرآنية في سورة الكهف، وأسباب النّزول المذكورة في المصادر الإسلامية، نستفيد أنَّ الحادثة كانت أيضاً معروفة بين علماء اليهود، وأنّها كانت عندهم حادثة تأريخية مشهورة. وبذلك يتّضح - بدقة - أنَّ قصّة النوم الطويل لأصحاب الكهف وردت في المصادر التأريخية للأقوام المختلفة(١).

وهنا قد يشك البعض في طول المدّة التي قضاها أصحاب الكهف في نومهم، ويعتبر أنَّ ذلك لا ينطبق مع المعايير العلمية، لذلك يضعها في قسم الأساطير والقصص الخرافية (!!) والذرائع التي يستند إليها هؤلاء هي:

أوّلاً: إنَّ هذا العمر الطويل أمرٌ غير مألوف في حياة الأشخاص العاديين المستيقظين، فكيف يصح تصوّره لناس نيام؟!

ثانياً: إذا اقتنعنا بهذا العمر الطويل بالنسبة للأشخاص العاديين الذين يُمارسون الحياة بشكل طبيعي، فإنَّ ذلك غير ممكن بالنسبة للنائمين، لأنَّ هُناك مُشكلة الطعام والشراب، إذ كيف يمكن للإنسان أن يبقى طيلة هذه المدّة بدون طعام أو شراب، وإذا افترضنا مثلاً أنَّ الإنسان يحتاج يومياً إلى كيلو غرام واحد مِن الطعام أو لتر واحد مِن الماء، فإنَّ أصحاب الكهف كانوا بحاجة، أثناء نومهم، إلى ١٠٠ طن مِن الطعام و(١٠٠٠٠٠) لتر مِن الماء، ومِن الطبيعي أنَّ الجسم لا يستطيع خزن كلّ هذه الأحجام والكمّيات مِن الماء والطعام.

ثالثاً: إذا تجاوزنا كلّ الأُمور السابقة، فسوف تكون أمامنا مُشكلة جديدة، وهي أنَّ جسم الإنسان لا يستطيع أن يبقى كلّ هذه الفترة الطويلة مِن دون أن تتأثّر أجهزته وتتضرّر بأضرار فادحة.

إنَّ هذه الأُمور قد تبدو للوهلة الأُولى مانعاً مِن التصديق بقصّة أصحاب الكهف، في حين أنَّ الأمر ليسَ كذلك، إذ يُمكن مُناقشة الأُمور السابقة وفقاً لما يلي:

أوّلاً: لا تعتبر قضية العمر الطويل قضية غير علمية، حيثُ إنّنا نعلم أنَّ طول عمر أيّ كائن حي ليسَ لها مِن الوجهة العلمية ميزان ثابت مِن حيث المدّة والعمر، بحيث يكون موت الكائن عندَ هذا الحد المُفترض أمراً حتمياً.

---

(١) المعاد والعالم بعد الموت، ص ١٦٣ - ١٦٥. المعاد وعالم الآخرة، ص ١٦٣ - ١٦٥.

بعبارة أُخرى: صحيح أنَّ الطاقة الجسمية للإنسان مهما بلغت فهي محدودة ولا بدَّ أن تنتهي، إلاّ أنّ هذا الكلام لا يعني أنَّ جسم الإنسان - أو أيّ كائن حي آخر - ليست لهُ قابلية البقاء أكثر مِن المقدار المألوف والمتعارف عليه.

أي إنّ المسألة ليست كالقوانين الطبيعية، فمثلاً الماء يغلي في درجة حرارة ١٠٠ مئوية ويتجمّد في درجة الصفر المئوي، فكذلك الإنسان إذا وصل إلى عمر المائة سنة أو المائة وخمسين سنة فإنَّ قلبه سيتوقف عن العمل.

إنَّ المسألة ليست على هذه الشاكلة، بل إنَّ ميزان طول عمر الكائنات الحيّة يرتبط ارتباطاً كبيراً بوضعهم المعيشي، فعندما تتغيَّر الظروف بالكامل تكون الموازين قابلة للتغيير هي الأُخرى.

والدليل على ما نقول، هو أنّنا لم نَر أحداً مِن علماء العالم قد حدَّدَ ميزاناً معيّناً لعمر الإنسان، ومِن جانب ثان استطاعوا مِن خلال تجارب مختبرية مِن زيادة عمر بعض الكائنات إلى الضعفين، أو الثلاثة في بعض الأحيان، واستطاعوا في أحيان أُخرى أن يفعلوا ذلك بنسبة ١٢ مرّة أو أكثر قياساً للعمر المألوف.

واليوم فإنَّ هؤلاء العلماء يأملون بأنّ الإنسان يمكنهُ - في المستقبل ومع ظهور أساليب علمية جديدة - أن يعيش عدَّة أضعاف عمره الطبيعي.

هذا فيما يخصّ أصل قضية طول العمر.

ثانياً: أمّا فيما يخصّ الطعام والشراب أثناء فترة النوم الطويل، فنقول: إنَّ نوم أصحاب الكهف لو كان عادياً وطبيعياً فنستطيع عندها أن نقبل بالإشكالات والاعتراضات السابقة. أمّا مِن الوجهة العلمية فإنَّ الأصول العلمية تقول: إنَّ حاجة الجسم إلى الطاقة الغذائية أثناء النوم أقل مِن حاجته إليها في اليقظة، إلاَّ أنَّ الجسم مع ذلك لا يستطيع أن يدَّخر ما يلزمه مِن طاقة غذائية لنوم طويل كنوم أصحاب الكهف.

وهنا ينبغي الالتفات إلى أنَّ هناك أنواعاً مِن النوم في عالم الطبيعة تكون فيها حاجة الجسم إلى الغذاء قليلة للغاية، كما في حالة السُّبات مثلاً.

حالة السُّبات

هناك العديد من الأحياء تنام في فصل الشتاء ويسمّى نومها علمياً بـ«السُّبات».

في هذا النوع مِن النوم تتوقف فعّاليات الحياة تقريباً، وتكون بأضعف حالة.

فالقلب يتوقف عن العمل تقريباً، وبعبارة أصح تكون ضرباته قليلة للغاية بحيث لا يمكن الإحساس بها أبداً.

في هذه الحالات يُمكن تشبيه الجسم بالفرن العظيم الذي لا تبقى فيه بعد انطفائه سوى شُعلة أو شمعة صغيرة دائبة الاشتعال. وواضح أنَّ الطاقة التي تحتاجها هذه الأفران (من النفط أو غيره) للاشتعال الطبيعي لايُعادل ما تحتاجه الشمعة الصغيرة مِن طاقة للاشتعال، لعشرات أو مئات السنين. (يمكن أن نطبِّق المثال على ما نحنُ فيه فتكون حالة اشتعال الفرن الطبيعي هي شبيهة بحالة اليقظة، أمّا حالة اشتعال الفرن على الشعلة الصغيرة فقط فهي شبيهة بحالة السُّبات والنوم الطويل).

مِن جهة أُخرى يقول العلماء عن سُبات بعض الأحياء: إنّنا إذا أخرجنا إحدى الزواحف وهي في حالة سبات، فسوف نراها وكأنّها ميتة، فلا هواء في رئتيها، وضربات القلب ضعيفة بحيث لا يمكن الإحساس بها. ومن بين الحيوانات ذات الدم البارد نستطيع أن نعدِّد الفرّاشات والحشرات والحلزون والزواحف وكلّها تخضع لحالة السُّبات، كما أنَّ بعض الحيوانات ذات الأثدية (ذات الدم الحار) تمرّ بحالة السبات أيضاً، وفي فترة السبات تكون الفعاليات الحياتية ضعيفة للغاية، وتقوم الحيوانات السابتة باستهلاك المواد الدهنية المخزونة بالجسم بالتدريج»(١).

المقصود مِن كلّ هذا العرض هو أن نقول: إنَّ هناك نوعاً مِن النوم تكون الحاجة فيه إلى الطعام قليلة جدّاً، وقد تصل النشاطات الحياتية في مثل هذه الحالة إلى درجة الصفر.

وبالمناسبة، نذكر هُنا أنَّ هذا الأمر يُساعد في منع تلاشي أعضاء الجسم أو تضرُّر الأجهزة الجسمية، ويعين - أيضاً - على طول عمر الكائن الحي.

إنَّ السُّبات بالنسبة للحيوانات التي لا تستطيع الحصول على غذائها فرصة ثمينة للغاية لكي تُديم حياتها عن هذا الطريق.

نموذج آخر: دفن المرتاضين

فيما يخصّ المرتاضين يُشاهد أنَّ بعضهم يتمّ وضعهُ بالتابوت ويدفن أحياناً تحت التراب لمدّة أسبوع، وذلك أمام عيون المشاهدين الحيارى التي لا تكاد تصدّق ما ترى،

---

(١) اقتباس عن دائرة المعارف الفارسية الجديدة، مادة (سُبات).

وبعد أن تنتهي المدَّة المقرَّرة يتمّ إخراجه ويجرى لهُ التدليك والتنفّس الاصطناعي حتى يعود إلى حالته الطبيعية.

وحتى لو افترضنا أنّ حاجة أجسادهم إلى الطعام غير ملحّة، فإنَّ الحاجة إلى الأوكسجين حاجة مهمّة للغاية ولا يمكن للجسم التخلّي عنها، إذا نعرف هُنا أنَّ حساسية خلايا المخ للأوكسجين وحاجتها إليه كبيرة للغاية، بحيث إذا حُرِمت مِنها لبضع دقائق فإنّها ستتلف.

والآن يتساءل: كيف يتحمَّل الشخص المرتاض قلّة الأوكسجين مثلاً لمدّة قد تصل إلى حدود الأسبوع؟

الجواب على هذا السؤال - ومع مُراعاة ما ذكرناه قبل قليل - ليسَ بالأمر الصعب، ففي هذه المدَّة تتوقف (تقريباً) الفعّاليات الحياتية لجسم المرتاض، لذا فإنَّ حاجة الخلايا للأوكسجين واستهلاكها له ستقل بشدّة، بحيث إنَّ الهواء الموجود في فضاء التابوت يكفي في هذه المدَّة لتغذية الخلايا.

تجميد جسم الإنسان وهو حي

اليوم ثمّة نظريات كثيرة حول تجميد جسم الأحياء بما فيهم الإنسان (لزيادة العمر) وقد تمَّ تنفيذ قسم مِن هذه النظريات في الوقت الحاضر.

طبقاً لهذه النظريات، فإنَّه عند وضع جسم الإنسان أو أيّ حيوان في درجة حرارة تحت الصفر - بأُسلوب خاص - فإنَّ حياته ستتوقف بدون أن يموت، وبعد مُدَّة معيّنة يوضع الكائن في درجة حرارية معيّنة حيثُ يرجع إلى الحالة العادية.

وقد تمَّ اقتراح مجموعة حالات مِن هذه الحالة للإفادة منها في الرحلات الفضائية إلى الكواكب البعيدة التي يستغرق الوصول إليها مئات أو آلاف السنين، حيثُ يتمّ تجميد أجسام روّاد الفضاء في محفظة خاصّة، وبعد سنين طويلة، وعند الاقتراب مِن الكواكب المعنيّة ترجع الحرارة العادية إلى تلك المحفظة بشكل أوتوماتيكي، وعندها سيعود هؤلاء الروّاد إلى حالتهم العادية دون أن يحدث أيّ ضرر لهم.

ذكرت إحدى المجلات العلمية أنَّ كتاباً صدر مُؤخراً حولَ تجميد جسم الإنسان بهدف إطالة عمره بقلم «روبرت نيلسون» وكانَ لهذا الكتاب صدىً واسعاً في عالم المعرفة. ففي المقالة التي نشرتها تلك المجلة في هذا المجال، ذكر الكاتب أنَّهُ تمَّ أخيراً إضافة فرع علمي جديد إلى الفروع العلمية الأُخرى، يتكفّل التخصص في هذا المجال.

ونقرأ في تلك المقالة أيضاً: «لقد كانت الحياة الأبدية - على طول التاريخ - حُلماً مِن الأحلام الذهبية والقديمة للإنسان، وفي الوقت الحاضر فقد تحقق هذا الحلم، والسبب يعود إلى التقدُّم العجيب لعلم حديث يسمّى (كريونيك) وهو علم يرسل الإنسان إلى عوالم الانجماد، ويحفظهُ على شكل جسد مُنجمد على أمل أن يستطيع العلماء إعادته يوماً إلى الحياة مرّة أُخرى.

هل يمكن تصديق هذا الكلام؟ هُناك العديد مِن العلماء البارزين الذين يقومون بالتفكير في هذا الأمر مِن جوانبه المختلفة. وهناك نشريات كثيرة تقوم ببحث هذا الموضوع مثل (لايف) و(اسكواير) والصحف العالمية في مُختلف أنحاء العالم، والأهم مِن ذلك أنَّ هُناك برنامجاً في هذا المجال هو قيد التنفيذ في الوقت الحاضر[1].

لقد أعلنت الصحف قبل مُدَّة عن اكتشاف سمكة مُنجمدة بين ثلوج القطب الشمالي يعود عمرها إلى آلاف السنين، كما تبيَّن ذلك مِن طبقات الثلج القشرية، وبعد أن وُضعت السمكة في ماء معتدل عادت إلى حياتها الطبيعية وبدأت بالحركة وسط دهشة الجميع.

ويتّضح مِن ذلك أنَّ الأجهزة الحياتية لا تتوقف بالكامل في حالات الانجماد، ولكن في هذه الظروف التي لا يمكن معها ممارسة الحياة الطبيعية يصبح عمل تلك الأجهزة بطيئاً للغاية.

ومن مجموع هذه الأحاديث يتبيّن أنَّهُ بالإمكان إيقاف الحياة أو تعويق حركتها بشدّة والبحوث العلمية دعمت إمكانية ذلك من جوانب مختلفة، وفي مثل هذه الحالة يصل استهلاك البدن للطعام لدرجة الصفر تقريباً، وبذا يكفيه المخزون القليل المُدَّخر في الجسم لإدامة الحياة البطيئة لسنوات طويلة.

ويجب أن لا يُفَسَّر كلامنا هذا بأنّنا نستهدف انكار الجانب الإعجازي في نوم أصحاب الكهف، بل نريد أن نقرِّب الأمر للأذهان من وجهة نظر العلم. إذ من المحتّم أنَّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً كمنامنا في الليل، لقد كان نومهم ذا جنبة استثنائية، لذلك فلا عجب في نوم هؤلاء هذه المدّة الطويلة (بإرادة الله) من دون أن يكونوا بحاجة إلى الشراب والطعام، ومن دون أن تتضرَّر أجسامهم وأجهزتهم الحيوية.

(١) مجلة «دانشمند»، عدد بهمن ١٣٤٧، ص ٤.

والطريف في الأمر أنّنا نستفيد من آيات سورة الكهف أنَّ طبيعة نومهم كانت تختلف عن النوم العادي: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ... لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾(١). إنَّ هذه الآية تدل على أنّ نومهم لم يكن نوماً عادياً، بل هو أشبه ما يكون بحالة الميّت. (ذو العيون المفتوحة).

إضافة إلى ذلك تفيد آيات السورة أنَّ نور الشمس لم يكن يشع داخل كهفهم، ولأنَّهُ من المحتمل أن يكون الكهف في جبال آسيا الصغرى، وفي منطقة باردة، فإنَّ ذلك يعدّ مؤشّراً على الحالة الاستثنائية لنومهم، ومِن جانب آخر فإنَّ القرآن يقول: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾(٢).

ومِن الآية يتبيّن أنّهم لم يكونوا على حالة واحدة، وأنَّ هناك عوامل وقوى غيبية خفيّة غير واضحة لنا كانت تقلّبهم نحو اليمين واليسار (احتمالاً في كلّ سنة مرَّة واحدة) حتى لا تتضرَّر أجسامهم.

والآن وبعد أن اتّضحت الجوانب العلمية في هذا البحث، فإنَّ المعاد لم يعد يحتاج إلى كلام كثير، لأنَّ اليقظة بعد ذلك النوم الطويل تشبه الحياة بعد الموت وتقرّب إلى الأذهان قضية المعاد(٣).

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ

(١) سورة الكهف، الآية: ١٨. (٢) سورة الكهف، الآية: ١٨.
(٣) لتفاصيل أكثر يُراجع كتاب: المعاد والحياة بعد الموت. وكتاب: المعاد وعالم الآخرة.

أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

سبب النّزول

يروي المفسّرون في سبب نزول الآيات الأُولى في هذا المقطع من سورة الكهف المباركة ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أنَّ مجموعة من أشراف قريش ومِن المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له: يا رسول الله، إن جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وروائح صنانهم (كانت عليهم جباب الصوف) (١) جلسنا نحُن إليك، وأخذنا عنك، لأنَّهُ لا يمنعنا مِن الدخول عليك إلاَّ هؤلاء.

لقد كان هؤلاء الأشراف والمؤلفة قلوبهم يقصدون في كلامهم المستضعفين والفقراء مِن أصحاب رسول الله ﷺ مِن أمثالِ سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وصهيب وعمّار بن ياسر وخباب وغيرهم ممن كان على شاكلتهم، إذ كان هؤلاء ممن التفَّ حول رسول الله ﷺ، وممن قرّبه رسول الله ﷺ إليه.

لذلك اشترط الأشراف على رسول الله ﷺ أن يطرد أمثال هؤلاء الفقراء عن مجلسه ونعتوهم بشتى النعوت.

وهنا نزلت الآية الكريمة على رسول الله ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ...﴾ فلمَّا نزلت الآية قامَ النّبي ﷺ يلتمسهم فأصابهم في مُؤخّر المسجد يذكرون الله عزّوجلّ، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي معَ رجال مِن أمتي. معكم المحيا ومعكم الممات»(٢).

التّفسير

الحفاة الأطهار!

مِن الدروس التي نستفيدها مِن قصّة أصحاب الكهف أنَّ مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهري أو بالثروة، بل عندما يكون المسير في سبيل الله يتساوى الوزير

---

(١) هذه الصفات أطلقها أشراف قريش والمؤلفة قلوبهم على المستضعفين مِن أصحاب رسول الله ﷺ كأبي ذر وغيره.

(٢) تفسير مجمع البيان وتفسير القرطبي - ذيل الآيات مورد البحث.

والراعي، والآيات التي نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمّة وتعطي للرّسول ﷺ هذا الأمر: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إنّ استخدام تعبير ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ هو إشارة إلى حقيقة أنّ رسول الله ﷺ كانَ قد تعرَّض إلى ضغط الأعداء المستكبرين والمشركين حتى يُبعد عنهُ مجموع المؤمنين الفقراء، لذلك جاءه الأمر الإلهي بالصبر والاستقامة أمام هذا الضغط المتزايد وأن لا يستسلم له، إنّ استخدام تعبير ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إشارة إلى أنّهم كانوا دائماً وأبداً يذكرون الله.

أمّا استخدام مصطلح ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١) فهو دليل على إخلاصهم وإشارة إلى أنّهم يعبدون الله لذاته لا طمعاً بالجنة (بالرغم مِن نعمها الكبيرة والثمينة) ولا خوفاً مِن الجحيم وعذابه (بالرغم مِن شدّة عذابها) بل يعبدون الله لأجل ذاته المُنزّهة، وهذه أعلى مرتبة في الطاعة والعبودية والحبّ والإيمان بالله تعالى.

ثمّ تستمر الآيات مُؤكّدة خطابها للرّسول ﷺ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢) فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا وزخارفها.

ثمّ مِن أجل التأكيد مجدداً يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ والمطيع لأهوائه النّفسية، والمفرط في أفعاله دائماً ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(٣).

الطريف هُنا أنَّ القرآن وضع هاتين المجموعتين في مقابل بعضهما مِن حيث الصفات، وكانَ الأمر كما يلي:

مؤمنون حقيقيون إلاَّ أنّهم فقراء، ولهم قلوب مملوءة بحبّ الله، يذكرونه باستمرار ويسعون إليه.

الأغنياء المستكبرون الغافلون عن ذكر الله، والذين لا يتبعون سوى هواهم، وخارجون عن حدّ الاعتدال في كلّ أُمورهم ويُفرطون ويُسرِفون.

---

(١) فيما يخص معنى (وجه) وأنّها تأتي في بعض الأحيان بمعنى (الذات) وأحياناً بمعنى (وجه الإنسان) وفي سبب انتخاب ذلك في هذه الموارد. . . فيما يخصُ كل ذلك يُمكن مُراجعة ما كتبناه مُفصلاً لدى تفسير الآية (٢٧٢) من سورة البقرة في تفسيرنا هذا.

(٢) ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ مأخوذة مِن كلمة «عدا يعدو و. . .» وهي بمعنى تجاوز الشيء وبذا يصبح مفهوم الجملة (لا تبعد عينيك عنهم كي تنظر إلى الآخرين).

(٣) «فرط» تعني التجاوز عن الحد، وكل شيء يخرج عن حدّه ويتحول إلى إسراف يُقال لهُ (فُرط).

إنَّ الموضوع - أعلاه - مِن الأهمية بمكان، بحيث إنَّ القرآن يقول للرّسول ﷺ - بصراحة - في الآية التي بعدها: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ولكن اعلموا أنَّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون مِن الألبسة الخشنة التي يرتديها أمثال سلمان وأبي ذر خاصّة، والذين يعيشون حياة مُرفّهة باذخة ومليئة بالزينة، ستنتهي عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

نعم، إنّهم كانوا إذا عطشوا في هذه الدّنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنَّهم عندما يطلبون الماء في جهنَّم يؤتى إليهم بماء كالمهل: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾[1].

ثمّ ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2].

تصوّروا هل يمكن شرب الماء الذي إذا اقترب مِن الوجه فإنَّ حرارته ستشوي الوجه؟ إنّ ذلك بسبب أنّهم شربوا في الدنيا أنواع المشروبات المُنعشة والباردة، في حين أنّهم أجّجوا في قلوب المحرومين نيراناً، إنَّ هذه النار هي نفسها التي تجسّدت في الآخرة بهذا الشكل.

والطريف في أمر هؤلاء أنَّ القرآن ذكر لهم بعض «التشريفات» وهُم في جهنّم، لقد كان لهؤلاء في حياتهم الدنيا (سرادق) عالية وباذخة ليسَ فيها نصيب للفقراء، وهذه السرادق ستتحوّل إلى خيام عظيمة مِن لهيب نار جهنَّم!

وفي هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التي تحضر بين أيديهم بمجرّد مُناداة الساقي، وفي جهنَّم يوجد أيضاً ساق وأشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنَّهُ ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء! نعم، إنَّ كلّ ما هو موجود هُناك (في الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (في الدنيا).

وبما أنَّ أُسلوب القرآن أُسلوب تربوي وتطبيقي، فإنَّهُ بعدما بيّن أوصاف وجزاء عبيد

---

(١) «مُهل» على وزن «قفل» وهي تعني كما يقول الراغب في المفردات: هي المقدار المترسّب من الدهن والذي يكون عادة مُلوّثاً بأشياءٍ وسخة ورديئة الطعم، إلاّ أنَّ بعضاً آخر مِن المفسّرين يقولون بأنّها تعني أي معدن مُذاب. والظاهر أنَّ تعبير ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ يُرجّح المعنى الثّاني.

(٢) «مُرتفق» مِن كلمة «رَفق ورفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التي تنتظرهم جزاء ما فعلوا. لقد أجملت الآية كلّ ذلك بشكل مُختصر، ثمّ بشكل تفصيلي نوعاً ما.

ففي البدء قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي إنّنا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كُلّية أو جزئية، ومن أي شخص وفي أي عُمر كان:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ (الجنات الخالدة).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (من تحت الأشجار والقصور).

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾(١).

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (من حرير ناعم وسميك).

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾(٢).

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾.

﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (وحسنت مجمعاً للأحبّة).

بحوث

١ - الرّوح الطبقية مُشكلة اجتماعية كبيرة

ليست الآيات الآنفة الذكر - وحدها - تحارب تقسيم المجتمع إلى مجموعتين مِن الأغنياء والفقراء، بل إنّنا نجد الكثير مِن الآيات القرآنية الأُخرى، ممّا ذكرناها سابقاً أو سنذكرها لاحقاً، تؤكّد جمعيها على هذا الموضوع.

إنَّ المجتمع الذي تكون فيه مجموعة (وهي أقلية في الغالب) مُرفّهة وغارقة في الإسراف والتبذير وملوّثة بأنواع المفاسد، سيكون في مقابل هؤلاء مجموعة أُخرى، هم الأكثرية التي لا تملك أبسط وسائل الحياة الإنسانية، ومثل هذا المجتمع يرفضه الإسلام وليسَ مجتمعاً إنسانياً.

---

(١) «أساور» جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهي بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) و(كتاب) وهي في الأصل مأخوذة مِن كلمة فارسية عُرّبت واشتقت مِنها الأفعال العربية.

(٢) «أرائك» جمع «أريكة» وتطلق على السرير الذي تكون جوانبه جميعاً مغطاة، وهي في الأصل - كما يقول الراغب - مأخوذة مِن (أراك) وهي شجرة معروفة كان العرب يصنعون مِنها مظلّة؛ أو مِن (أروك) بمعنى الإقامة والتوقّف.

مثل هذا المجتمع سوف لا يرى الاستقرار أبداً، وسوف يلقى الاستعمار والاستكبار وأشكال الظلم والعبودية بظلال عليه، وغالباً ما تقوم الحروب الدامية في مثل هذه المجتمعات ولا تنتهي الاضطرابات فيها أبداً.

ومِن الطبيعي أن يتساءل المرء عن أسباب تكدُّس النعم الإلهيّة بيد حفنة معدودة مِن الناس وبدون سبب، بينما الأكثرية تعيش الفقر والألم والعذاب والمرض؟

إنَّ مثل هذا المجتمع يكون مملوءاً - حتماً - بالكراهية والحسد والكبر والعداء والغرور والظلم والتكبّر، وكل عوامل الفساد الأُخرى.

ولو دَقّقنا النظر في تأريخ النّبوات لرأينا أنّ الأنبياء عليهم السلام بأجمعهم، وخصوصاً رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم واجهوا هذا النظام المنحرف والظالم ورموزه مِن الأغنياء الظالمين مِن أجل تأمين عوامل الاستقرار داخل المجتمع.

في مثل هذه المجتمعات الطبقية تكون جلسات واجتماعات المترفين مُنفصلة عن مجالس الفقراء وأماكنهم، وكذا الحال بالنسبة لمراكز الترفيه وما إلى ذلك. (هذا إذا كان الفقراء يملكون في الأصل مراكز للترفيه). ثمّ إنَّ العادات والتقاليد تختلف بين المجموعتين تماماً.

إنَّ هذا الانفصال المجافي للروح الإنسانية، وروح كلّ القوانين السماوية، لن يتحمّلها أيّ رجل إلهي. وقد كان مثل هذا الوضع حاكماً بشدَّة في المجتمع العربي الجاهلي، حتى كان هؤلاء يعتبرون التفاف الفقراء مِن أمثال سلمان وأبي ذر حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِن أكبر العيوب (!!) ولكن لم يعلم هؤلاء الأغنياء أنّ قلوب الفقراء هؤلاء مملوءة بحبّ الله والإيمان وبصفات الشهامة والإيثار.

في المجتمع الجاهلي الذي عاصر النّبي المصلح نوحاً عليه السلام، قال المترفون مِن الملأ عبيد الدنيا مخاطبين نوحاً عليه السلام: لماذا اتبعك الذين هم أراذلُنا (على حدِّ قولهم) ولقد حكى القرآن اعتراضهم هذا في الآية ٢٧ مِن سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

وهكذا نرى أنَّ عبيد الدنيا وأتباع الهوى هؤلاء يرفضون الجلوس - حتى للحظات - قرب الفقراء المؤمنين!

ولاحظنا - أيضاً - كيف أنّ رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بطرده للمجموعة الأُولى (الأغنياء المترفون) وتقريبه للمجموعة الثّانية (الفقراء المؤمنون) شكَّل مجتمعاً توحيدياً بمعنى

الكلمة، مجتمعاً تفجّرت فيه الطاقات الكامنة، وأصبحت فيه معايير الشخصية والقيم والنبوغ، هي التقوى والعلم والإيمان والجهاد والعمل الصالح.

واليوم ما لم نسعَ لبناء مِثل هذا المجتمع والاقتداء بالنموذج الإسلامي الذي شيَّدَهُ رسول الله ﷺ في عهده، وبدون نبذ الفكر الطبقي مِن العقول عن طريق التعليم والتربية وتدوين القوانين الصحيحة والسهر على تنفيذها بدقّة - بالرغم مِن رفض الاستكبار العالمي وتعويقه لذلك - فسوف لن نملك مجتمعاً إنسانياً سليماً أبداً.

٢ - المقارنة بين الحياة في هذا العالم وعالم الآخرة

لقد قُلنا مراراً: إنَّ تجسُّد الأعمال هو من أهم القضايا المرتبطة بالمعاد. يجب أن نعلم أنَّ ما هو موجود في ذلك العالم هو انعكاس واسع ومُتكامل لهذا العالم، فأعمالنا وأفكارنا وأساليبنا الاجتماعية وصفاتنا الأخلاقية المختلفة سوف تتجسَّم وتتجسّد أمامنا في ذلك العالم وستبقى قرينة لنا دائماً.

الآيات - أعلاه - دليل حيّ على هذه الحقيقة، فالمترفون الظالمون الذين كانوا يعيشون في هذه الدنيا في ظل سُرادق عالية، وكانوا سُكارى بهواهم، وسعوا إلى فصل كلّ شيء يخصّهم عن المؤمنين الفقراء، هؤلاء يملكون في ذلك العالم أيضاً (سُرادق) ولكنّها مِن النار الحارقة، لأنَّ الظلم في حقيقته نار حارقة تحرق الحياة وتحيل آمال المستضعفين المظلومين إلى يأس.

هُناك يشربون من شراب يُجسِّد باطن شراب الدنيا، وهو بالنسبة للظالمين الطغاة شراب من دماء قلوب المحرومين، ومثل هذا الشراب يُقدَّم للظالمين في ذلك العالم، وهو لا يحرق أمعاءهم وأحشاءهم فحسب، بل يكون كالمعدن المذاب الذي يشوي الوجوه قبل شربه مِن شدَّة حرارته.

وعلى العكس مِن ذلك أُولئك الذين تركوا الشهوات في سبيل حفظ طهارة وجودهم ورعاية أُصول العدالة، والذين اقتنعوا بحياة بسيطة، وتحمَّلوا كلّ الصعوبات والمنغصات في هذه الدنيا مِن أجل تنفيذ أُصول العدالة... هؤلاء تنتظرهم هُناك بساتين الجنّة مع الأنهار الجارية، وأفضل أنواع الزينة وأفخر الألبسة، وأحبّ المجالس. وهذا في الواقع تجسيد لنيّاتهم النزيهة حيث كانوا يريدون كلّ الخير لجميع عباد الله.

٣ - العلاقة بين عبادة الهوى والغفلة عن الله

الروح الإنسانية تخضع إمّا لله تعالى أو للأهواء، حيثُ لا يمكن الجمع بين الاثنين، فعبادة الأهواء أساس الغفلة عن الله وعبادة الله؛ عبادة الهوى هي سبب الابتعاد عن جميع الأُصول الأخلاقية؛ وأخيراً فإنَّ عبادة الهوى تُدْخل الإنسان في ذاته وتبعده عن جميع حقائق العالم.

إنَّ الإنسان الذي يعبد هواه لا يفكّر إلاّ في إشباع شهواته، ولا يوجد لديه معنى للفتوّة والعفو والإيثار والتضحية والشيم المعنوية الأُخرى.

وقد أوضحت الآيات محل البحث الربط والعلاقة بين الاثنين بشكل جلي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

لقد طرحت الآية أوّلاً (الغفلة) عن الله تعالى، ثمّ ذكرت بعدها (اتباع الهوى)، والطريف أنّ نتيجة هذا الأمر هو الإفراط وبالشكل المطلق الذي ذكرته الآية.

لماذا يكون عابد الهوى مُصاباً بالإفراط دائماً؟

قد يكون السبب أنَّ الطبيعة الإنسانية تتجه في الملذّات المادية نحو الزيادة دوماً، فالذي كان يشعر بالنشوة بمقدار معيّن مِن المخدّرات، لا يكفيه نفس المقدار في اليوم التالي لبلوغ نفس درجة النشوة، بل عليه زيادة الكمية بالتدريج، والشخص الذي كان يكفيه في السابق قصر واحد مجهَّز بجميع الإمكانات وبمساحة عدة آلاف من الأمتار، يصبح اليوم إحساسه بهذا القصر عادياً، فينشد الزيادة، وهكذا في جميع مصاديق الهوى والشهوة حيث إنّها دائماً تنشد الزيادة حتى تهلك الإنسان نفسه.

٤ - ملابس الزينة في العالم الآخر

قد يطرح البعض هذا السؤال: لقد ذمَّ الله تعالى الزينة والتزيُّن في القرآن بالنسبة لهذه الحياة، إلاَّ أنَّهُ يعد المؤمنين بمثل هذه الأُمور في ذلك العالم، إذ تنصّ الآيات على الذهب وملابس الحرير والإستبرق والسرر والمساند الجميلة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نوضّح بأنّنا لا نوافق على توجيه هذه الكلمات على أنّها كناية عن مفاهيم معنوية، ويفسِّرون الآيات على هذا الأساس، لقد تعلّمنا مِن القرآن الكريم أنَّ المعاد ذو جانبين: معاد روحاني ومعاد جسماني، وعلى هذا الأساس، فإنَّ لذّات ذلك العالم يجب أن تكون موجودة في المجالين، واللذّات

الروحية - طبعاً - لا يمكن مقايستها باللذّات الجسمية، ولكن لابدّ من الاعتراف بأنّنا لا نعرف مِن نِعم ذلك العالم سوى أشباح بعيدة، ونسمع كلاماً يشير إليها.

لماذا؟... لأنّ نسبة ذلك العالم إلى عالمنا هذا كنسبة عالمنا إلى عالم الجنين في بطن الأُم، فإذا قدّر للأُم أن تقيم رابطة بينها وبين الجنين، فلا يسعها إلاّ أن توضّح للجنين بالإشارات جمال هذه الدنيا بشمسها الساطعة وقمرها المنير، والعيون الفوّارة، والبساتين والورود وما شابهها، حيثُ لا توجد ألفاظ كافية لتبيان كلّ هذه المفاهيم للجنين في رحم الأُم كي يفهمها ويستوعبها.

كذلك فإنَّ النعم المادية والمعنوية لعالم الآخرة لا يمكن توضيحها لنا بشكل كامل ونحن محاصرون في أبعاد رحم هذه الدنيا.

ومع وضوح هذه المقدمة نجيب على السؤال ونقول: إنّ ذمّ الله عزّ اسمه لحياة الزينة والترف في هذه الدنيا يعود إلى أنّ محدودية هذا العالم تسبب أن تقترن الزينة والترف مع أنواع الظلم والانحراف الذي يكون بدوره سبباً للغفلة والانقطاع عن الله.

إنَّ الاختلافات التي تبرز خلال هذا الطريق ستكون سبباً للحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وأخيراً إراقة الدماء والحروب.

أمّا في ذلك العالم اللامحدود من جميع الجهات، فإنَّ الحصول على هذه الزينة لا يُسبّب مُشكلة ولا يكون سبباً للتميز والحرمان، ولا للحقد والنفرة، ولا يبعد الإنسان عن الله في ذلك المحيط المملوء بالمعنويات حيث لا حسد ولا تنافس ولا كبر ولا غرور تؤدّي ابتعاد خلق الله عن الله، كما في زينة الحياة الدنيا.

فإذا كان الحال كذلك فلماذا يُحرم أهل الجنّة من هذه المواهب والعطايا الإلهيّة التي هي لذّات جسمية إلى جانب كونها مواهب معنوية كبيرة!

٥ - الاقتراب مِن الأثرياء بسبب ثروتهم

الدرس الآخر الذي نتعلمهُ من الآيات الآنفة، هو أنَّهُ يجب علينا أن لا نمتنع عن إرشاد وتوجيه هذه المجموعة - أو تلك - بسبب كونها ثريّة أو ذات حياة مُرفّهة، بل إنَّ الشيء المذموم هو أن نذهب لهؤلاء لأجل ثروتهم ودنياهم المادية، ونصبح مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أمّا إذا كان الهدف هو الهداية والإرشاد، أو حتى الاستفادة مِن إمكانياتهم مِن أجل تنفيذ النشاطات الإيجابية والمهمّة اجتماعياً، فإنَّ مثل هذا الهدف لا يعتبر غير مذموم وحسب، بل هو واجب.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا
خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا
مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

تجسيد لموقف المستكبرين مِن المستضعفين

في الآيات السابقة رأينا كيف أنَّ عبيد الدنيا كانوا يُحاولون الابتعاد في كلّ شيء عن رجال الحق وأهله المستضعفين، ثمّ عرَّفتنا الآيات جزاءهم في الحياة الأُخرى.

الآيات التي نبحثها تُشير إلى حادثة اثنين مِن الأصدقاء أو الإخوة الذين يُعتبر كلّ واحد مِنهم نموذجاً لإحدى المجموعتين، ويوضّحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين.

في البداية تخاطب الآيات الرّسول ﷺ فتقول: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

البستان والمزرعة كانَ فيهما كلّ شيء: العنب والتمر والحنطة وباقي الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفية مِن كلّ شيء: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾.

والأهم مِن ذلك هو توفّر الماء الذي يُعتبر سرّ الحياة، وأمراً مهمّاً لا غنى للبستان والمزرعة عنه، وقد كانَ الماء بقدر كاف: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

على هذا الأساس كانَت لصاحب البستان كلّ أنواع الثمار: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾.

ولأنَّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته وشعر بالأفضلية والتعالي على الآخرين، حيث التفت وهو بهذه الحالة إلى صاحبه: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

بناءً على هذا فأنا أملك قوّة إنسانية كبيرة وعندي مالٌ وثروة، وأنا أملك - أيضاً -

نفوذاً وموقعاً اجتماعياً، أمّا أنت (والخطاب لصاحبه) فماذا تستطيع أن تقول، وهل لديك ما تتكلم عنه؟!

لقد تضخَّم هذا الإحساس ونما تدريجياً - كما هو حاله - ووصلَ صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنَّ هذه الثروة والمال والجاه والنفوذ إنّما هي أُمور أبديّة، فدخل بغرور إلى بستانه (في حين أنَّهُ لا يعلم بأنَّهُ يظلم نفسه) ونظر إلى أشجاره الخضراء التي كادت أغصانها أن تنحني مِن شدَّة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذي يجري في النهر القريب من البستان والذي كان يسقي أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، وبلسان الآية وتصوير القرآن الكريم: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

بل عمدَ إلى ما هو أكثر مِن هذا، إذ بما أنَّ الخلود في هذا العالم يتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكَّر في إنكار القيامة وقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وهذا كلام يعكس وهم قائله وتمنّياته!

ثمّ أضاف! حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنّي بموقعي ووجاهتي سأحصل عند ربّي - إذا ذهبت إليه - على مقام وموقع أفضل، لقد كان غارقاً في أوهامه ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التي يعيشها والتي صوّرها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه في كلّ فترة وهماً بعد آخر مِن أمثال ما حكت عنهُ الآيات آنفاً، وعندَ هذا الحد انبرى لهُ صديقه المؤمن وأجابه بكلمات يشرحهما لنا القرآن الكريم.

•

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

التفسير

جواب المؤمن

هذه الآيات هي ردّ على ما نسجهُ من أوهام ذلك الغني المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجري على لسان صاحبه المؤمن.

لقد بدأ الكلام بعد أن ظلّ صامتاً يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذي الأفق الضيّق والفكر المحدود، حتى ينتهي مِن كلامه، ثمّ قال له: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ .

وهُنا قد يُثار هذا السؤال، وهو: إنَّ كلام ذلك الرجل المغرور المتكبّر الذي مرَّ ذكره في الآيات الآنفة، لم يصرّح فيه بإنكار الحق جلَّ وعلا، في حين أنَّ جواب الإنسان المؤمن ركزَّ فيه أوّلاً على إنكاره للخالق!؟ لذلك فإنَّهُ وجَّه نظره أوّلاً إلى قضية خلق الإنسان التي هي من أبرز أدلة التوحيد والتوجّه نحو الخالق العالم القادر، الله الذي خلق الإنسان مِن تراب، حيثُ امتصّت جذور الأشجار المواد الغذائية الموجودة في الأرض، والأشجار بدورها أصبحت طعاماً للحيوانات، والإنسان استفاد مِن هذا النبات ولحم الحيوان، وانعقدت نطفته مِن هذه المواد، ثمّ سلكت النطفة طريق التكامل في رحم الأم حتى تحوَّلت إلى إنسان كامل، الإنسان الذي هو أفضل مِن جميع موجودات الأرض، فهو يُفكّر ويُصَمِّم ويُسَخِّر كلَّ شيء لأجله.

نعم، إنَّ هذا التراب عديم الأهمّية يتحوَّل إلى هذا الموجود العجيب، مع هذه الأجهزة المعقّدة الموجودة في جسم الإنسان وروحه، وهذا مِن الدلائل العظيمة على التوحيد.

وفي الجواب على السؤال المُثار ذكر المفسّرون تفاسير مُتعدّدة نجملها فيما يلي:

١ - قالت مجموعة مِنهم: بما أنَّ هذا الرجل المغرور أنكر بصراحة المعاد والبعث أو شكّكَ فيه، فإنَّهُ يلزم من ذلك إنكار الخالق، لأنَّ مُنكر المعاد الجسماني يُنكر في الواقع قدرة الله، ولا يصدّق بأنَّ هذا التُّراب المتلاشي سوف تعود لهُ الحياة مرّة أُخرى، لذا فإنَّ الرجل المؤمن مع ذكره للخلق الأوّل مِن تُراب، ثمّ من نطفة - ثمّ بإشارته للمراحل الأُخرى - أراد أن يُلفت نظره إلى القدرة غير المتناهية للخالق حتى يعلم بأنَّ قضية المعاد يُمكن مشاهدتها هُنا وتمثّلها بأعيننا في واقع هذه الأرض.

٢ - وقال آخرون: إنَّ شركهُ وكفرهُ كانا بسبب ما رَآه لِنفسه مِن استقلال في المالكية وما تصوّره مِن دوام وأبدية هذه الملكية.

٣ - الاحتمال الثّالث أنّه لا يبعد أن يكون الرجل قد أنكر الخالق في بعض كلامه ولم يذكر القرآن هذا المقطع من كلامه. وقد يتوضّح الأمر بقرينة جواب الرجل المؤمن، لذا نرى في الآية التي بعدها أنَّ الرجل المؤمن قالَ لصاحب البستان ما مضمونه: إن كنت أنكرت وجود خالقك وسلكت طريق الشرك، إلاَّ أنّني لا أفعل ذلك أبداً.

على أي حال، ثمّة علاقة واضحة تربط بين الاحتمالات الثلاثة، ويُمكن أن يكون كلام الرجل المؤمن المُوَحِّد إشارة إلى هذه الاحتمالات جميعاً.

ثمّ عَمِد الرجل الموحِّد المؤمن إلى تحطيم كُفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾[(١)] . وإنّي أفتخر بهذا الاعتقاد وأتباهى به، إنّك تفتخر بأنّك تملك بستاناً ومزرعة وفواكه وماءً كثيراً؛ إلاّ أنّني أفتخر بأنَّ الله ربّي، إنّهُ خالقي ورازقي؛ إنّك تتباهى بدنياك وأنا أفتخر بعقيدتي وإيماني وتوحيدي: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾.

وبعد أن أشار إلى قضية التوحيد والشرك اللذّين يُعتبران مِن أهم المسائل المصيريّة، جدَّد لومه لصاحبه قائلاً: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٢)] .

فلماذا لا تعتبر كلّ هذه النعم مِن الخالق جلّ وعلا؟ ولماذا لم تشكره عليها؟ ولماذا لم تقل: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾؟

فإذا كُنت قد هيّأت الأرض وبذرت البذور وزرعت الغرس وربّيت الأشجار، وفعلت كلَّ شيء في وقته المناسب حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه؛ فإنَّ كلّ هذه الأُمور هي مِن قدرة الخالق جلّ وعلا، وقد وَضع سبحانه وتعالى الوسائل والإمكانات تحت تصرّفك، حيث إنّك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شيء!

ثمّ يقول له: ليسَ مِن المهم أن أكون أقل مِنك مالاً وولداً: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) كلمة ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ في الأصل كانت (لكن إنَّ) ثمّ دمجت وأصبحت هكذا.

(٢) جملة ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لها محذوف إذ تكون مع التقدير: ما شاء الله كان، أو: ما شاء الله، فإنَّ هذا هو الشيء الذي يريدهُ الله.

وليسَ فقط أن يُعطيني أفضل ممّا عندك، بل ويرسل صاعقة من السماء على بُستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرضاً محروقة جرداء: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

أو أنَّهُ سبحانه وتعالى يُعطي أوامره إلى الأرض كي تمنعك الماء: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾.

«حُسبان» على وزن «لقمان» وهي في الأصل مأخوذة مِن كلمة «حساب»، ثمّ وردت بعد ذلك بمعنى السهام التي تُحَسب عندَ رميها، وتأتي أيضاً بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، وهذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد» تعني القشرة التي فوق الأرض، وهي في الأصل مأخوذة مِن كلمة صَعود.

«زلق» بمعنى الأرض الملساء بدون أي نباتات بحيث إنَّ قدم الإنسان تنزلق عليها (الطريف ما يقوم به الإنسان اليوم حيث تتمّ عملية تثبيت الأرض والرمال المتحركة، ومنع القرى مِن الاندثار تحت هذه الرمال عند هبوب العواصف الرملية، وذلك مِن خلال زراعتها بالنباتات والأشجار، أو - كما يُصطلح عليه - إخراجها مِن حال الزلق والانزلاق).

في الواقع، إنَّ الرجل المؤمن والموحِّد حذَّر صديقه المغرور أن لا يطمئن لهذه النعم، لأنَّها جميعاً في طريقها إلى الزوال وهي غير قابلة للاعتماد.

إنَّهُ أراد أن يقول لصاحبه: لقد رأيت بعينيك - أو على الأقل سمعت بأذنك - كيف أنَّ الصواعق السماوية جعلت مِن البساتين والبيوت والمزروعات - وخلال لحظة واحدة - تلاً مِن التراب والرماد وأصبحت أرضهم يابسة عديمة الماء والكلأ.

وأيضاً سمعت أو رأيت بقيام هزّة أرضية تطمس الأنهار وتُجفِّف العيون، بحيث تكون غير قابلة للإصلاح والترميم.

وبمعرفتك لكلّ هذ الأُمور فَلِمَ هذا الغرور؟!

أنت الذي شاهدت أو سمعت كلّ هذا، فَلِمَ هذا الانشداد للأرض والهوى؟

ثمّ لماذا تقول: لا أعتقد أن تزول هذه النعم وأنّها باقية وخالدة؛ فلماذا هذا الجهل والبلاهة!!!؟

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

العاقبة السوداء

أخيراً انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يُؤثّر الشخص الموحّد المؤمن في أعماق الغني المغرور، الذي رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أنَّ الأوامر الإلهيّة قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنَّهُ وَجَبَ أن ينال جزاء غروره وشركه في هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أنَّ العذاب الإلهي قد نزلَ في تلك اللحظة مِن الليل عِندما خيّم الظلام، على شكل صاعقة مميتة أو عاصفة هوجاء مخيفة، أو على شكل زلزال مخرّب ومدمّر. وأيّاً كان فقد دُمّرت هذه البساتين الجميلة والأشجار العالية والزرع المثمر، حيثُ أحاط العذاب الإلهي بتلك المحصولات مِن كلّ جانب: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾.

﴿وَأُحِيطَ﴾ مُشتقّة مِن «إحاطة» وهي في هذه الموارد تأتي بمعنى (العذاب الشامل) الذي تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

وعند الصباح جاء صاحب البستان وتدور في رأسه الأحلام العديدة ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنَّهُ قبل أن يقترب منه واجهَهُ مَنظر مُدهش وموحش، بحيث إنَّ فمهُ بقي مفتوحاً مِن شدة التعجُّب، وعيناه توقفتا عن الحركة والاستدارة.

لم يكن يعلم بأنَّ هذا المنظر يشاهده في النوم أم في اليقظة! الأشجار جميعها ساقطة على التراب، النباتات مُدمَّرة، وليسَ ثمّة أيّ أثر للحياة هُناك!

كان الأمر بشكل وكأنَّهُ لم يكن هُناك بستان ولا أراضٍ مزروعة، كانت أصوات (البوم) - فقط - تدوّي في هذه الخرائب، قلبه بدأ ينبض بقوّة، بهت لونه، يبسَ الماء في فمه، وتحطَّم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقلان نفسه وعقله.

كأنَّهُ صحا مِن نوم عميق: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾.

وفي هذه اللحظة ندم على أقواله وأفكاره الباطلة: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

والأكثر حزناً وأسفاً بالنسبة لهُ هو ما أصبح عليه مِن الوحدة في مقابل كلّ هذه المصائب والابتلاءات: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ولأنَّهُ فقد ما كان يملكهُ مِن رأس المال ولم يبق لديه شيء آخر، فإنَّ مصيره: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

لقد انهارت جميع آماله وظنونه الممزوجة بالغرور، لقد أدّت الحادثة إلى انتهاء كلّ شيء، فهو مِن جانب كانَ يقول: إنّي لا أصدّق بأنَّ هذه الثروة العظيمة مِن الممكن أن تفنى، إلاّ أنّني رأيت فناءها بعيني!

ومِن جانب آخر فقد كان يتعامل مع رفيقه المؤمن بكبر ويقول: إنّني أقوى مِنك وأكثر أنصاراً ومالاً، ولكنَّهُ بعد هذه الحادثة اكتشف أن لا أحد ينصره!

ومِن جانب ثالث فإنَّهُ كان يعتمد على قوّته وقدرته الذاتية، ويعتقد بأنَّ غير قدرته محدودة، لكنَّهُ بعدَ هذه الحادثة، وبعد أن لم يكن بمقدوره الحصول على شيء، انتبه إلى خطئه الكبير، لأنَّهُ لم يعد يتملك شيئاً يعوّضه جانباً مِن تلك الخسارة الكبرى.

وعادةً، فإنَّ الأصدقاء الذين يلتفون حولَ الإنسان لأجلِ المال والثروة مثلهم كمثل الذباب حول الحلوى، وقد يُفكِّر الإنسان أحياناً بالاعتماد عليهم في الأيّام الصعبة، ولكن عندما يُصاب فيما يملك يتفرّق هؤلاء الخلاّن مِن حوله، لأنَّ صداقتهم له لم تكن لرابط معنوي، بل كانت لأسباب مادية، فإذا زالت هذه الأسباب انتفت الرفقة!

وهكذا انتهى كلّ شيء ولا ينفع الندم، لأنّ مِثل هذِه اليقظة الإجبارية التي تحدث عندَ نزول الابتلاءات العظيمة يُمكن ملاحظتها حتى عندَ أمثال فرعون ونمرود، وهي بلا قيمة، لهذا فإنّها لا تؤثّر على حال مَن ينتبه.

صحيح أنَّهُ ذكر عبارة: ﴿لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ وهي نفس الجملة التي كانَ قد قالها لهُ صديقه المؤمن، إلاّ أنَّ المؤمن قالها في حالة السلامة وعدم الابتلاء، بينما ردَّدها صاحب البستان في وقت الضيق والبلاء.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ نعم، لقد اتضح أنَّ جميع النعم مِنهُ تعالى، وأنَّ كلّ ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، وأنَّهُ بدون الاعتماد على لُطفه لا يمكن إنجاز عمل: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

إذن، لو أراد الإنسان أن يحبّ أحداً ويعتمد على شيء ما، أو يأمل بهديّة مِن شخص

ما، فمن الأفضل أن يكون الله سبحانه محطّ أنظاره، وموقع آماله، ومِن الأفضل أن يتعلّق بلطفه تعالى وإحسانه.

بحثان

١ - غرور الثروة

في هذه القصّة نشاهد تجسيداً حيّاً لما نطلق عليه اسم غرور الثروة، وقد عرفنا أنَّ هذا الغرور ينتهي أخيراً إلى الشرك والكفر، فعندما يصل الأفراد الذين يعيشون حياتهم بلا غاية وهدف إيماني إلى منزلة معيّنة مِن القدرة المالية أو الوجاهة الاجتماعية، فإنّهم في الغالب يُصابون بالغرور، وفي البداية يسعون إلى التفاخر بإمكاناتهم على الآخرين ويعتبرونها وسيلة تفوّق، ويرون مِن التفاف أصحاب المصالح حولهم دليلاً على محبوبيتهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

ويتبدّل حبّ هؤلاء للدنيا تدريجياً بفكرة الخلود فيها: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

إنَّ ظنَّهم بخلود ثرواتهم المادية يجعلهم يُنكرون المعاد للتضاد الواضح بين ما هم فيه وبين مبدأ البعث والمعاد، فيكون لسان حالهم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

والأنكى مِن ذلك هو أنّهم يعتبرون مقامهم ووجاهتهم في هذه الدنيا دليلاً على قرب مقامهم من محضر القدس الإلهي، فيقولون: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

هذه المراحل الأربع نجدها واضحة في حياة أصحاب القدرة من عبيد الدنيا، مع فوارق نسبية فيما بينهم، فيبدأ مسيرهم الانحرافي مِن الاغترار بما لديهم مِن قوّة وقدرة، ويتصاعد انحرافهم إلى الشرك وعبادة الأصنام والكفر وإنكار المعاد، لأنّهم يعبدون القدرة المادية ويجعلونها صنماً دون سِواها.

٢ - دروس وعِبَر

هذا المصير المقترن بالعبرة والذي ذُكِرَ هُنا بشكل سريع يتضمّن بالإضافة إلى الدرس الآنف، دروساً أُخرى ينبغي أن نتعلمها، وهذه الدروس هي:

أ: مهما كانت نعم الدنيا المادية كبيرة وواسعة، فإنّها غير مُطمئنة وغير ثابتة، فصاعقة واحدة تستطيع في ليلة أو في لحظات معدودة أن تُبيد البساتين والمزارع التي يكمن فيها

جهد سنين طويلة مِن عمر الإنسان، وتحيلها إلى تلّ مِن تراب ورماد وأرض يابسة زلقة.

إنَّ زلزلة واحدة خفيفة يمكن أن تقضي على العيون الفوّارة التي هي الأصل في هذه الحياة، بالشكل الذي لا يمكن معهُ ترميمها أبداً.

ب: إنَّ الأصدقاء الذين يلتفّون حول الإنسان بغرض الإفادة مِن إمكاناته المادية هم بدرجة من اللامبالاة وعلى قدر مِن الغدر والخيانة بحيث إنّهم يتخلّون عنهُ في نفس اللحظة التي تزول فيها إمكاناته المادية ويتركونهُ وحيداً لهمومه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

هذا النوع مِن الأحداث الذي طالما سمعنا ورأينا لهُ نماذج تُبرهن على أنَّ الإنسان لا يملك سوى التعلّق بالله وحده، وأنَّ الأصدقاء الحقيقيين والأوفياء للإنسان هم الذين تصنعهم الروابط والعلائق المعنوية، إذ يستمر ودُّ هؤلاء في حال الفقر والثروة، في الشباب والشيبة، في الصحة والمرض، في العز والذلة، بل وتستمر مودّة هؤلاء إلى ما بعد الموت!

ج: لا فائدة من الصحوة بعد نزول البلاء

لقد أشرنا مِراراً إلى أنَّ اليقظة الإجبارية لدى الإنسان ليست دليلاً على يقظة داخلية حقيقية هادية، وليست علامة على تغيير مسير الإنسان، أو ندمه على أعماله السابقة وعلى ما كان فيها مِن معصية وانحراف، بل كلّ ما في الأمر هو أنَّ الإنسان عندما ينزل بساحته البلاء أو يرى عمود المشنقة، أو تحيط به أمواج البلاء والعواصف، فهو يتأثّر للحظات لا تتعدى مدّة البلاء ويتخذ قراراً بتغيير مصيره، ولكن لأنَّهُ لا يملك أساساً متيناً في أعماقه، فإنَّهُ بانتهاء البلاء يغفل عن صحوته هذه ويعود إلى خطّة ومسيره الأوّل.

لو تأمّلنا الآية ١٨ مِن سورة النساء لرأينا مِن خلالها أنَّ أبواب التوبة تغلق أمام الإنسان عند رؤية علائم الموت، وسبب هذا الأمر هو ما ذكرناه أعلاه.

وفي الآيتين ٩٠ - ٩١ مِن سورة يونس يقول القرآن حول فرعون عندما صارَ مصيره إلى الغرق وعصفت بِهِ الأمواج، فإذا به يصرخ ويقول: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلاَّ أنَّ هذه التوبة تُردّ عليه ولا تقبل منهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾!

د: لا الفقر دليل الذلة ولا الثروة دليل العزة

وهذا درس آخر نتعلّمهُ مِن الآيات أعلاه، طبيعي أنَّ المجتمعات المادية والمذاهب

النفعية غالباً ما تتوهم بأنَّ الفقر والثروة هما دليل الذلة والعزة، لهذا السبب لاحظنا أنَّ مُشركي العصر الجاهلي يعجبون مِن يُتم رسول الإسلام ﷺ وفقره ويقولون: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١).

هـ: أسلوب تحطيم الغرور

عندما تبدأ بواعث الغرور تقترب مِن الإنسان وتناجي أعماقه بسبب المال والمنصب، فيجب عليه أن يقطع تلك الوسوسة مِن جذورها، عليه أن يتذكّر ذلك اليوم الذي كانَ فيه تراباً لا قيمة له؛ وذلك اليوم الذي كان فيه نطفة لا قيمة لها، عليه أن يعي اللحظة التي كان فيها وليداً ضعيفاً لا يقدر على الحركة.

لاحظنا القرآن في الآيات الآنفة كيف يعيد مِن خلال خطاب الرجل المؤمن، صاحب البستان إلى وضعه العادي: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

و: درسٌ مِن عالم الطبيعة

القرآن عندما يصف البساتين المثمرة يقول: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ولكنّهُ عندما يتحدّث عن صاحب البستان يقول: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

يعني: أيّها الإنسان، انظر إلى الوجود مِن حولك، ولاحظ أنَّ هذه الأشجار المثمرة والزراعة المباركة كيف آتت كلّ ما عندها بأمانة وقدّمته لك، فلا مجال عندها للاحتكار والحسد والبخل، فعالم الوجود هو ساحة للإيثار والبذل والعفو، فما تمتلكهُ الأرض تقدّمهُ بإيثار إلى الحيوانات والنباتات، وتضع الأشجار والنباتات كلّ ثمارها ومواهبها في اختيار الإنسان والأحياء الأُخرى، وقرص الشمس يضعف يوماً بعد آخر وهو يشعّ النور والدفء والحرارة؛ الغيوم تمطر والرياح تهب، لتتسع أمواج الحياة في كلّ مكان.

هذا هو نظام الوجود، ولكنّك أيّها الإنسان تريد أن تكون سيد الوجود ومع ذلك تسحق قوانينه الثابتة البيّنة، فتكون رقعة نشاز غير متناسقة في عالم الوجود تريد أن تستحوذ على كلّ شيء وتصادر حقوق الآخرين!

١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

بداية ونهاية الحياة في لوحة حيّة

الآيات السابقة تحدَّثت عن عدم دوام نعم الدنيا، ولأنَّ إدراك هذه الحقيقة في عمر ٦٠ - ٨٠ سنة يُعتبر أمراً صعباً بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإنَّ القرآن قد جسَّدَ هذه الحقيقة مِن خلال مثال حي ومُعبِّر كي يستيقظ الغافلون المغرورون مِن غفلتهم ونومهم عندما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدّة مرّات خلال عمرهم.

يقول تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه القطرات الواهبة للحياة تسقط على الجبال والصحراء، وتعيد الحياة للبذور المستعدّة الكامنة في الأرض المستعدَّة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إنَّ الطبقة الخارجية السميكة للبذور تلين قبال المطر، وتسمح للبراعم في الخروج منها، وأخيراً تشقّ هذِه البراعم التراب وتخترقه، الشمس تشع، النسيم يهب، المواد الغذائية في الأرض تقدِّم ما تستطيع، تتقوى البراعم بسبب عوامل الحياة هذه ثمّ تُواصل نموّها، بحيث - بعد فترة - نرى أنّ نباتات الأرض تتشابك فيما بينها: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الجبل والصحراء يتحوّلان إلى قوّة حياتية دافعة، أمّا البراعم والفواكه والورود فإنّها تزيّن الأغصان، وكأنَّ الجميع يضحك، يصرخون صُراخ الفرح؛ يرقصون فرحاً!

لكن هذا الواقع الجذّاب لا يدوم طويلاً، حيث تهب رياح الخريف وتلقي بغبار الموت على النباتات، يبرد الهواء، وتشح المياه، ولا تمضي مدّة حتى يمسي ذلك الزرع الجميل الأخضر ذو الأغصان المورقة، ميتاً ويابساً: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾[1].

---

(١) «هشيم» مِن «هشم» بمعنى محطَّم، وهي هُنا تطلق على النباتات المتيبسة والمتحطِّمة.

تلك الأوراق التي لم تتمكن العواصف الهوجاء مِن فصلها عن الأغصان في فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث إنَّ أي نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان ويرسلها إلى أيّ مكان شاء: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[1].

نعم: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾.

الآية التي بعدها تذكر وضع المال والثروة والقوّة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين في الحياة الدنيا، حيثُ تقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

إنَّ هذه الآية - في الحقيقة - تُشير إلى أهم قسمين في رأسمال الحياة حيثُ ترتبط الأشياء الأُخرى بهما، إنّها تشير إلى (القوّة الاقتصادية) و(القوّة الإنسانية) لأنَّ وجودهما ضروري لتحقيق أيّ هدف مادي، خاصّة في الأزمنة السابقة إذ كان من يملك أبناء أكثر يعتبر نفسهُ أكثر قوّة، لأنَّ لأبنائهم رُكن القوّة، وقد وجدنا في الآيات السابقة أنَّ صاحب البستان الغني كان يتباهى بأمواله وأعوانه على الآخرين ويقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

لذا فإنّهم كانوا يعتمدون على «البنين» جمع (ابن) والمقصود به الولد الذكر، حيث كانوا يعتبرون الولد رأسمال القوّة الفعّالة للإنسان، وبالطبع ليسَ للبنات نفس المركز أو المقام.

المهم أنَّ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ بمثابة الورد والبراعم الموجودة على أغصان الشجر، إنّها تزول بسرعة ولا تستمر طويلاً، وإذا لم تستثمر في طريق المسير إلى (الله) فلا يُكتب لها الخلود، ولا يكون لها أدنى اعتبار.

ورأينا أنَّ أكثر الأموال ثباتاً ودواماً والمتمثّلة في البستان والأرض الزراعية وعين الماء قد أُبيدت خلال لحظات.

وفيما يخصّ الأبناء؛ فبالإضافة إلى أنَّ حياتهم وسلامتهم معرَّضة للخطر دائماً، فهم يكونون في بعض الأحيان أعداءً بدلاً مِن أن يكونوا عوناً في اجتياز المشاكل والصعوبات.

ثمّ يُضيف القرآن: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

بالرغم مِن أنَّ بعض المفسّرين أرادوا حصر مفهوم ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ في دائرة

---

(١) «تذروه» مِن «ذرو» وتعني التشتيت.

خاصّة مِثل الصلوات الخمس أو ذكر: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وأمثال هذه الأُمور، إلاَّ أنَّ الواضح أنَّ هذا التعبير هو مِن السعة بحيث يشمل كلّ فكره وقول وعمل صالح تدوم وتبقى آثاره وبركاته بين الأفراد والمجتمعات.

فإذا رأينا في بعض الرّوايات أنّ الباقيات الصالحات تفسّر بصلاة الليل، أو مودّة أهل البيت عليهم السلام، فإنّ الغرض مِن ذلك هو بيان المصداق البارز، وليسَ تحديد المفهوم، خاصّة وأنّ بعض هذه الرّوايات استخدمت فيها كلمة (من) التي تدل على التبعيض.

فمثلاً في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّهُ قال: «لا تستصغر مودّتنا فإنّها مِن الباقيات الصالحات»(١).

وفي حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله نقرأ قوله: «لا تتركوا التسبيحات الأربع فإنّها مِن الباقيات الصالحات».

وحتى الأموال المتزلزلة أو الأبناء الذين يكونون أحياناً فتنة واختباراً، إذا استخدمت في مسير الله تبارك وتعالى فإنّها ستكون من الباقيات الصالحات، لأنَّ الذات المقدّسة الإلهيّة ذاتٌ أبدية، فكلّ ما يرتبط بها ويسير نحوها سيكتب له البقاء والأبدية.

بحوث

١ - المغريات

مرّة أُخرى توظّف الآيات أعلاه دور المثال في تجسيد المعاني واستيعابها. إنَّ القرآن - من خلال مثل واحد - يعكس مجموعة مِن الحقائق العقلية التي قد يكون مِن الصعب دركها مِن قبل الكثير مِن الناس.

يقول للناس: إنَّ دورة حياة النبات وموته تتكرَّر أمام أعينكم في كلّ سنة مرَّة، فإذا كان عمر الإنسان ٦٠ سنة فإنَّ هذا المشهد يتكرر أمامكم ٦٠ مرَّة.

إذا ذهبتم في الربيع إلى الصحراء فستشاهدون تلك المناظر الجميلة والتي يدل كلّ ما فيها على الحياة، ولكن لو ذهبتم في الخريف إلى نفس تلك الأماكن فسوف ترون الموت ينشر أجنحته في كلّ مكان.

(١) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٥٠.

إنَّ مثل الإنسان في حياته كمثل النبتة، فهو في يوم كان طفلاً كالبرعم، ثمّ أصبح شاباً كالوردة المملوءة طراوة، ثمّ يُصبح كهلاً ضعيفاً كالنبتة الذابلة اليابسة ذات الأوراق الصفراء، ثمّ إنَّ عاصفة الموت تحصد هذا الإنسان لينتشر بعد فترة تراب جسده المتهرىء - بواسطة العواصف - إلى مُختلف الاتجاهات والأماكن.

ولكن قد تنتهي دورة الحياة بصورة غير طبيعية، بمعنى أنّها لا ترتقي إلى نهاية شوطها، إذ مِن الممكن أن تنتهي في مُنتصف الشوط بواسطة صاعقة أو عاصفة كما في قوله تعالى في الآية ٢٤ مِن سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

وفي بعض الأحيان لا تكون الحوادث سبباً لفناء الحياة في مُنتصف دورة الحياة، بل يستمر السير الطبيعي حتى النهاية، أي وصولاً إلى مرحلة الذبول والتشتت والفناء كما أشارت إلى ذلك الآية التي نبحثها.

في كلّ الأحوال تنتهي الحياة الدنيا - سواء في الطريق الطبيعي أو غير الطبيعي - إلى الفناء الذي يحل بساحة الإنسان عاجلاً أم آجلاً.

٢ - عوامل تحطيم الغرور

قُلنا: إنَّ الكثير مِن الناس عندما يحصلون على الإمكانات المادية والمناصب يُصابون بالغرور، وهذا الغرور هو العدو اللدود لسعادة الإنسان، وفي الآيات السابقة رأينا كيف أنَّ الغرور يؤدّي إلى الشرك والكفر.

ولأنَّ القرآن كتاب تربوي عظيم، فهو يستفيد مِن عدّة طرق لتحطيم الغرور.

ففي بعض الأحيان يجسّد لنا أنَّ الفناء هو نهاية الثروات المادية كما في الآيات أعلاه.

وفي أحيان أُخرى يُحذّر مِن إمكانية تحوّل الثروات والأولاد إلى عدّو للإنسان (كما في الآية ٥٥ مِن سورة التوبة).

وفي مرّات يحذّر الناس ويوقظ فيهم حسّهم الوجداني، عندما يستعرض أمامهم عاقبة المغرورين في التاريخ مِن أمثال فرعون وقارون.

وقد رأينا القرآن يعالج إحساس الإنسان بالغرور مِن خلال تذكيره بماضيه، عندما

كان نطفة عديمة الأهمية أو تراباً لا يُذكر، ثمّ يُجسّد لهُ مستقبلهُ وما هو صائر إليه كي يعرف أنَّ الغرور بين حَدّي الضعف هَذين يُعتبر عملاً جنونياً (كما في الآية ٦ مِن سورة الطارق، والآية ٨ مِن سورة السجدة، والآية ٣٨ مِن سورة القيامة).

وبهذه الصورة حاول القرآن توظيف أي أُسلوب ووسيلة لمعالجة عوامل الغرور في شخصية الإنسان، هذه الصفة الشيطانية التي هي مصدر الكثير مِن الجرائم في طول التاريخ.

ولكن مِن المسلَّم به أنَّ المؤمنين الحقيقيين لا يُصابون بهذه الخصلة القبيحة عند الوصول إلى مَنصب أو ثروة، ليسَ هذا وحسب، بل ترى أنَّهُ لا يحدث أدنى تغيير في برنامج حياتهم، إذ يعتبرون كلّ هذه الأُمور عبارة عن زينة عابرة، وبضاعة زائلة، ومصيرها إلى فناء عندما تهب أدنى عاصفة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

يا ويلتاه مِن هذا الكتاب!

تعقيباً لما كانت تتحدّث به الآيات السابقة عن غرور الإنسان وإعجابه بنفسه، وما تؤدّي إليه هذه الصفات مِن إنكار للبعث والمعاد، يَنصب المقطع الراهن مِن الآيات التي بين أيدينا على تبيان المراحل المُمَهِدَة للقيامة وفق الترتيب الآتي:

١ - مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

٢ - مرحلة البعث.

٣ - قسم مِن مرحلة ما بعد البعث.

الآية الأُولى تذكّر الإنسان بمقدمات البعث والقيامة فتقول: إنَّ انهيار معالم الشكل

الراهن للعالم هي أوّل مقدمات البعث، وسيتمّ هذا التغيير لشكل العالم مِن خلال مجموعة مظاهر، في الطليعة مِنها تسيير الجبال الرواسي وكلّ ما يُمسك الأرض ويبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية مِن أيّ مِن المظاهر السابقة: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

هذه الآية تشير إلى حوادث قبيل البعث، وهي حوادث كثيرة جدّاً. والملاحظ أنّ السور القصار تتحدّث عنها بشكل بارز في إطار حديثها عمّا بات يُعرف اصطلاحاً بـ «أشراط الساعة».

إنّ المستفاد مِن مجموعة تلك السور أنّ وجه العالم الراهن يتغيّر بشكل كُلّي حيثُ تتلاشى الجبال، وتنهار الأبنية والأشجار، ثمّ تضرب الأرض سلسلة مِن الزلازل، وتنطفىء الشمس، ويخمد نور القمر، وتظلم النجوم. وعلى حطام كلّ ذلك تظهر إلى الوجود سماء جديدة، وأرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الأُخرى في مرحلة البعث والحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿نُغَادِرْ﴾ مِن «غدر» بمعنى الترك. ولذلك يقال للذي يُخلف الوعد والميثاق ويتركه بأنَّهُ «غدر» ويقال لمياه الأمطار المتجمعة في مكان واحد بـ «الغدير» لأنّها قد تركت هناك.

في كل الأحوال، تؤكّد الآية الآنفة الذكر على أنّ المعاد هو حالة عامّة لا يستثنى مِنها أحد.

الآية التي بعدها تتحدّث عن كيفية بعث الناس فتقول: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾. إنّ استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كلّ مجموعة مِن الناس تتشابه في أعمالها في صف واحد؛ أو أنّ الجميع سيكونون في صف واحد دون أيّة امتيازات أو تفاوت، وسوف يقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فليسَ ثمّة كلام عن الأموال والثروات، ولا الذهب والزينة، ولا الامتيازات والمناصب المادية، ولا الملابس المختلفة، وليسَ هُناكَ ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التي خلقناكم فيها أوّل مرّة، بالرغم مِن أنّكم كُنتم تتوهمون عدم إمكان ذلك: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾.

وذلك في وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم مِن إمكانات مادية غفلتم

معها عن الآخرة، وأصبحتم تفكّرون في حياتكم الدنيا وخلودها، وغفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثمّ تشير الآيات إلى مراحل أُخرى مِن يوم البعث والمعاد فتقول: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾. هذا الكتاب الذي يحتوي على أحوال الناس بكلّ تفصيلاتها: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾. وذلك عندما يطّلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف والوحشة على وجوههم.

في هذه الأثناء يصرخون ويقولون: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾.

الجميع مدعوّون للحساب عن كلّ شيء مهما دنا وَصَغُر، إنَّهُ موقف موحش.. لقد نسينا بعض أعمالنا وكأن لم نفعلها، حتى كُنّا نظن بأنّنا لم نقم بعمل مُخالف، لكن نرى اليوم أنَّ مسؤوليتنا أصبحت ثقيلة جدّاً ومصيرنا مظلم.

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمّة دليل آخر: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾. وجدوا الحسنات والسيئات؛ الظلم والعدل، السلبيات والخيانات، كلّ هذه وغيرها وجدوها مُتجسِّدة أمامهم.

في الواقع إنّهم يُلاقون مصير أعمالهم: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. الذي سيشملهم هُناك هو - لا مُحالة - ما قاموا به في هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحداً سوى أنفسهم.

بحوث

١ - سر انهدام الجبال

قلنا: إنَّهُ في يوم الحشر والنشور سيتغيّر نظام العالم المادي، وقد وردت صياغات مُختلفة حول انهدام الجبال في القرآن الكريم، يمكن أن نقف عليها مِن خلال ما يلي:

في الآيات التي نبحثها قرأنا تعبير ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ وإنَّ نفس هذه الصيغة التعبيرية يمكن ملاحظتها في الآية ٢٠ مِن سورة النبأ. والآية ٣ مِن سورة التكوير.

ولكنّنا نقرأ في الآية ١٠ مِن سورة المرسلات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾.

في حين أنّنا نقرأ في الآية ١٤ مِن سورة الحاقة قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾.

وفي الآية ١٤ مِن سورة المزمّل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾.

وفي الآيتين ٥ و ٦ مِن سورة الواقعة قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾﴾.

أخيراً نقرأ قوله تعالى في الآية ٥ مِن سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

ومِن الواضح أن ليس هُناك تناف أو تضاد بين مجموع الآيات أعلاه، بل هي صيغ لمراحل مُختلفة لزوال جبال العالم ودمارها، هذه الجبال التي تعتبر أكثر أجزاء الأرض ثباتاً واستقراراً، حيث تبدأ العملية مِن نقطة حركة الجبال حتى نقطة تحوّلها إلى غبار وتُراب بحيث لا يرى في الفضاء سوى لونها!

ترى ما هي أسباب هذه الحركة العظيمة المخيفة؟

إنّها غير معلومة لدينا، إذ قد يكون السبب في ذلك هو الزوال المؤقت لظاهرة الجاذبية حيثُ تكون الحركة الدورانية للأرض سبباً في أن تتصادم الجبال فيما بينها ثمّ حركتها باتجاه الفضاء، وقد يكون السبب هو الانفجارات الذريّة العظيمة في النّواة المركزية للأرض، وبسببها تحدث هذه الحركة العظيمة والموحشة.

وعلى كل حال، فهذه الأُمور تدلّ على أنَّ ظاهرة البعث والنشور هي ثورة عظيمة في عالم المادة الميت، وثورة أيضاً في تجديد حياة الناس، حيث تكون كلّ هذه المظاهر هي بداية لعالم جديد يكون في مستوى أعلى وأفضل، إذ بالرغم مِن أنَّ الروح والجسم هما اللذان يحكمان طبيعة ذلك العالم، إلاّ أنَّ جميع الأُمور ستكون أكمل وأوسع وأفضل.

إنَّ التعبير القرآني يتضمَّن هذه الحقيقة أيضاً، وهي أنَّ عملية فناء عيون الماء ودمار البساتين هي أُمور سهلة في مقابل الحدث الأعظم الذي ستتلاشى عندهُ الجبال الراسيات، ويشمل الفناء كلّ الموجودات بما في ذلك أعظمها وأشدّها.

٢ - صحيفة الأعمال

يرى العلاّمة الطباطبائي في تفسير (الميزان) أنَّ في يوم القيامة ثلاثة كُتب، أو ثلاثة أنواع مِن صحف الأعمال:

أوّلاً: كتاب واحد يوضع لحساب أعمال جميع البشر، ويشير لذلك قوله تعالى في الآية التي نحنُ بصددها ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

الثّاني: كتاب يختص بكلّ أُمّة، إذ لكلّ أمّة كتاب قد كُتب فيه أعمالها كما يصرّح بذلك قول الحق سبحانه وتعالى في الآية ٢٨ مِن سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

الثّالث: كتاب لكلّ انسان بصورة مستقلة كما ورد في سورة الإسراء الآية ١٣ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا. . .﴾[1].

وطبيعي أنَّهُ لا يوجد أي تعارض بين هذه الآيات، لأنَّهُ ليسَ ثمّة مانع مِن أن تُدوَّن أعمال الإنسان في عدّة كُتب، كما نشاهد نظير ذلك في برامج دنيا اليوم، إذ مِن أجل التنظيم الدقيق لتشكيلات دولة ما، هناك نظام وحساب لكلّ قسم، ثمّ إنَّ هذه الأقسام وفي ظل أقسام أكبر لها حسابٌ جديد.

ولكن يجب الانتباه إلى أنَّ صحيفة أعمال الناس في يوم القيامة لا تشبه الدفتر والكتاب العادي في هذا العالم، فهي مجموعة ناطقة غير قابلة للنكران، وقد تكون الناتج الطبيعي لأعمال الإنسان نفسه.

في كل الأحوال، نرى أنَّ الآيات التي نبحثها تُظهر أنَّهُ علاوة على تدوين أعمال الناس في الكتب الخاصّة، فإنَّ نفس الأعمال ستتجسَّد هُناك وستحضر: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾.

فالأعمال التي تكون على شكل طاقات مُتناثرة في هذا العالم وتكون محجوبة عن الأنظار وتبدو وكأنّها قد تلاشت وانتهت، هي في الحقيقة لم تنته (وقد أثبت العلم اليوم أنَّ أية مادة أو طاقة لا يُمكن أن تفنى، بل يتغير شكلها دائماً).

ففي ذلك اليوم تتحوَّل هذه الطاقة الضائعة بإذن الله إلى مادة، وتتجسَّد على شكل صور مناسبة، فالأعمال الحسنة على شكل صور لطيفة وجميلة، والأعمال السيئة على شكل صور قبيحة، وهذه الأعمال ستكون معنا، ولهذا السبب نرى أنَّ آخر جملة في الآيات أعلاه تقول: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لأنَّ الثواب والعقاب يترتبان على نفس أعمال الإنسان.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٤٨.

بعض المفسّرين اعتبر جملة ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ تأكيداً على قضية صحيفة الأعمال، وقالوا: إنَّ معنى الجملة هو أنّنا سنجد جميع أعمالنا مُدوَّنة في ذلك الكتاب(١).

البعض الآخر اعتبر كلمة (جزاء) في هذه الآية مُقدَّرة وقالوا: إنَّ المعنى هو أنّهم في ذلك اليوم «سيشاهدون جزاء أعمالهم جاهزاً»(٢).

إلاَّ أنَّ التّفسير الأوّل أكثر ملاءمة مع ظاهر الآيات.

أمّا فيما يخص تجسُّد الأعمال فقد ذكرنا شرحاً مفصلاً لذلك في نهاية الآية ٣٠ مِن سورة آل عمران، وسنبحثه أكثر مرّة أُخرى أثناء الحديث عن الآيات التي تُناسب الموضوع.

٣ - الإيمان بالمعاد ودوره في تربية الناس

حقّاً إنَّ القرآن كتاب تربوي عجيب، فعندما يذكر للناس جانباً مِن مشاهد القيامة يقول: إنَّ الجميع سيعرضون على محكمة الخالق العادلة على شكل صفوف مُنظّمة، في حين أنّ تشابه عقائدهم وأعمالهم هو المعيار في الفرز بين صفوفهم! إنَّ أيديهم هناك فارغة مِن كلّ شيء، فقد تركوا كلّ مُتعلقات الدنيا، فهم في جمعهم فُرادى، وفي فرديتهم مجموعين، تُعرض صحائف أعمالهم.

هناك يُذكر كلّ شيء، صغائر وكبائر الناس، والأكثر مِن ذلك أنَّ الأعمال والأفكار نفسها تحيا... تتجسَّد... تحيط الأعمال المتجسِّدة بأطراف كلّ شيء، فالناس مشغولون بأنفسهم بحيث إنَّ الأم تنسى ولدها، والابن ينسى الأب والأُم بشكل كامل.

هذه المحكمة الإلهيّة - والجزاء العظيم - التي تنتظر المسيئين، ستلقي بظلّها الثقيل والموحش على جميع الناس، حيث تحبس الأنفاس في الصدور، وتتوقف العيون عن الحركة! تُرى ما مقدار ما يعكسهُ الإيمان بهذا اليوم - بهذه المحكمة بكلّ ما تتخلله مِن مشاهد ومواقف - على قضية تربية الإنسان ودفعه ليتحرك في خط الرسالة والاستقامة والابتعاد عن الشهوات!؟

في حديث عن الإمام الصادق نقرأ وصفهُ عليه السلام لهذا اليوم: «إذا كانَ يوم القيامة دُفع

(١) الفخر الرازي في التّفسير الكبير، والقرطبي في التّفسير الجامع.
(٢) المصدر السّابق.

للإنسان كتاب، ثمّ قيل له: اقرأ» قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: «إنَّهُ يذكره، فما مِن لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعلهُ إلاَّ ذكره، كأنَّهُ فعلهُ تلك الساعة، ولذلك قالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[1].

مِن هُنا يتّضح الدور المؤثّر للإيمان بالقيامة في تربية الإنسان، وإلاَّ فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، وبين إيمانه ويقينه بهذا اليوم!؟

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

التّفسير

لا تتخذوا الشياطين أولياء

لقد تحدّثت الآيات مرّات عدّة عن خلق آدم وسجود الملائكة له، وعدم انصياع إبليس. وقد قلنا: إنَّ هذا التكرار يتضمن دروساً مُتعدِّدة، وفي كلّ مقطع مكرَّر هناك دروس وعبرٌ جديدة.

بعبارة أُخرى نقول: إنَّ للحادثة المهمّة عدَّة أبعاد، وفي كلّ مرَّة تذكر فيها يتجلى واحد مِن أبعادها.

ولأنَّ الآيات السابقة ذكرت مثالاً واقعياً عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين والمغرورين في مقابل الفقراء المستضعفين وتجسُّد عاقبة عملهم، ولأنَّ الغرور كانَ هو السبب الأصلي لانحراف هؤلاء وانجرارهم إلى الكفر والطغيان، لذا فإنَّ الآيات تعطف الكلام على قصّة إبليس وكيف أبى السجود لآدم غروراً مِنهُ وعلوّاً، وكيف قاده هذا الغرور والعلو إلى الكفر والطغيان.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٦٧.

إضافة إلى ذلك، فإنَّ هذه القصّة توضّح أنَّ الانحرافات تنبع مِن وَساوس الشيطان، كي تكشف أنَّ الاستسلام إلى وساوس الشيطان الذي أصرَّ على عناده وعداوته للحق تعالى يعدّ غاية الجنون والحمق.

في البداية تقول الآيات: تذكّروا ذلك اليوم الذي فيه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾. هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنَّ إبليس كانَ مِن جنس الملائكة، في حين أنَّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس - إذاً - طريق الطغيان والكفر إذا كانَ مِن جملتهم؟

لذلك فإنَّ الآيات - منعاً لهذا الوهم - تقول مُباشرة إنَّهُ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

إنَّهُ إذاً لم يكن مِن الملائكة، لكنَّهُ - بسبب عبوديته وطاعته للخالق جلَّ وعلا - قُرِّب وكانَ في صف الملائكة، بل وكان معلّماً لهم، إلاَّ أنَّهُ - بسبب لحظة مِن الغرور والكبر - سقط سقوطاً بحيث إنَّهُ فقد معهُ كلّ ملاكاته المعنوية، وأصبح أكثر الموجودات نفرة وابتعاداً عن الله تبارك وتعالى.

ثمّ تقول الآية: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾.

والعجب أنّهم: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾.

وهذا العدو، هو عدوّ صعب مُصَمِّم على ضلالكم وأن يوردكم سوء العاقبة، وقد أظهر عدوانه مُنذ اليوم الأوّل لأبيكم آدم عليه السلام.

فاتّخاذ الشيطان وأولاده بدلاً مِن الخالق المتعال أمرٌ قبيح: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1].

حقّاً إنَّهُ لأمر قبيح أن يترك الإنسان الإله العالم الرحيم العطوف ذا الفيوضات والرحمات والألطاف، ويتمسك بالشيطان وأصحابه، إنَّهُ أقبح اختيار، فأيّ عاقل يقبل أن يتخذ مِن عدوّه الذي ناصبهُ العداء - مُنذ اليوم الأوّل - وليّاً وقائداً ودليلاً ومعتمداً؟!

الآية التي بعدها هي دليل آخر على إبطال هذا التصوّر الخاطىء، إذ تقول: عن إبليس وابنائه أنّهم لم يكن لهم وجود حين خلق السماوات والأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾. حتى نطلب العون مِنهم في خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

---

(١) «بدلاً» من حيث التركيب اللغوي، تمييز. وفاعل «بئس» هو الشيطان وعصابته، أو عباد الشيطان وعصابته.

لذا فإنَّ الشخص الذي ليسَ له أيّ دور في خلق العالم، وحتى في خلق مَن يقع على شاكلته ومَن هو مِن نوعه، ولا يعرف شيئاً مِن أسرار الخلق، كيف يكون مستحقاً للولاية، أو العبادة، وأيّ قدرة أو دور يملك؟

إنَّهُ كائن ضعيف وجاهل حتى بقضاياه الذاتية، فكيف يستطيع أن يقود الآخرين، أو أن ينقذهم مِن المشاكل والصعوبات؟

ثمّ تقول: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

يعني أنّ الخلق قائم على أساس الصدق والصحة والهداية، أمّا الكائن الذي يقوم منهج حياته على الإضلال والإفساد، فليس لهُ مكان في إدارة هذا النظام، لأنَّه يسير في اتجاه معاكس لنظام الخلق والوجود؛ إنَّهُ مخرّب ومدمِّر وليسَ مُصلحاً متكاملاً.

آخر آية مِن الآيات التي نبحثها، تحذّر مرَّة أُخرى، وتقول: تذكّروا يوماً يأتي فيه النداء الإلهي: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾.

لقد كُنتم تنادونهم عمراً كاملاً، وكنتم تسجدون لهم، واليوم وبعد أن أحاطت بكم أمواج العذاب في ساحة الجزاء، نادوهم ليأتوا لمساعدتكم ولو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادي الأشخاص الذين لا تزال ترسّبات أفكار الدنيا في عقولهم: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾. فلم يجيبوا على ندائهم، فكيف بمساعدتهم وإنقاذهم!!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾(١).

ثمّ تقول الآية التي بعدها موضّحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان والمشركين: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾.

لقد انكشفت لهم النّار التي لم يكونوا يُصدِّقون بها أبداً، وظهرت أمام أعينهم، وحينئذ يشعرون بأخطائهم، ويتيقّنون بأنّهم سيدخلون النّار: ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾.

ثمّ يتيقّنون أيضاً أن لا منقذ لهم مِنها: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

فلا تنقذهم اليوم مِنها لا معبوداتهم ولا شفاعة الشفعاء، ولا الكذب أو التوسُّل بالذهب والقوّة، إنَّها النّار التي يزداد سعيرها بسبب أعمالهم.

ينبغي الالتفات هنا إلى أنَّ جملة «ظنّوا» بالرغم مِن أنّها مُشتقّة مِن «الظن» إلاّ أنّها في هذا المورد، وفي موارد أُخرى تأتي بمعنى اليقين، لذا فإنَّ الآية ٢٤٩ مِن سورة البقرة

(١) «موبق» مِن «وبوق» على وزن «نبوغ» وهي تعني الهلاك، وَ (موبق) تقال للمهلكة.

تستخدم نفس التعبير بالرغم مِن أنّها تتحدّث عن المؤمنين الحقيقيين والمجاهدين المرابطين الذين كانوا مع طالوت لقتال جالوت الجبّار الظالم، إذ تقول: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾.

فإنَّ كلمة ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُشتقّة مِن «مواقعة» بمعنى الوقوع على الآخرين، وهي إشارة إلى أنّهم يقعون على النّار، وأنَّ النّار تقع عليهم؛ فالنّار تنفذ فيهم وهم ينفذون في النّار، وقد قرأنا في الآية ٢٤ مِن سورة البقرة قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾.

بحثان

١ - هل كانَ الشيطان مَلَكاً؟

كما نعلم أنّ الملائكة أطهار ومعصومون كما صرّح بذلك القرآن الكريم: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧﴾(١).

ويعود سبب عدم وجود التكبّر والغرور ودوافع ارتكاب الذنوب لدى الملائكة، إلى أنّ العقل لا الشهوة يتحكّم في أعماقهم.

من ناحية ثانية، يتداعى إلى الذهن من خلال استثناء إبليس في الآيات المذكورة أعلاه (وآيات أُخرى في القرآن الكريم) أنّهُ كان من صنف الملائكة، وهنا يرد على عصيانه وتمرّده الإشكال التالي: كيف تصدر ذنوب كبيرة عن مَلَكٍ من الملائكة؟ وقد جاء في نهج البلاغة «ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها مَلَكاً»(٢).

الآيات المذكورة تحلّ لنا رموز هذه المشكلة حينما تقول: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾، والجن كائنات خفيّة عن أنظارنا لها عقل وإحساس وغضب وشهوة، ومتى ما وردت في القرآن كلمة «الجن» فإنّها تعني هذه الكائنات... لكن مَنْ يعتقد مِنَ المفسّرين بأنّ إبليس كان من الملائكة، فإنّما يفسّر الآية المذكورة آنفاً بمفهومها اللغوي، ويقول: إنّه يفهَمْ من عبارة ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أنّه كان خفيّاً عن الأنظار كسائر الملائكة، وهذا المعنى خلاف الظاهر تماماً.

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٢) نهج البلاغة الخطبة (١٩٢) «الخطبة القاصعة».

ومن الدلائل الواضحة التي تؤكّد ما ذهبنا إليه من المعنى، أنّ القرآن الكريم يقول في الآية ١٥ من سورة الرحمن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي من نيران مختلطة ومن جانب آخر كان منطق إبليس عندما امتنع عن السجود لآدم: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[(1)].

هذا بالإضافة إلى أنّ الآيات الشريفة أعلاه أشارت إلى أنّ لإبليس (ذرية) في حين أنّ الملائكة لا ذرية لهم.

إنّ ما ذكرناه آنفاً، مضافاً إلى التركيبة الجوهرية للملائكة تثبت أنّ إبليس لم يكن مَلَكاً، لكن آية السجود لآدم شملته - أيضاً - لانضمامه إلى صفوف الملائكة، وكثرة عبادته لله وطموحه للوصول إلى منزلة الملائكة المقرّبين.

وإنّما بيَّن القرآن امتناع إبليس عن السجود بشكل استثنائي، وأطلق عليه الإمام عليّ عليه السلام في الخطبة القاصعة في نهج البلاغة كلمة (المَلَك) كتعبير مجازي، وجاء في كتاب (عيون الأخبار) عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إنّ الملائكة معصومون ومحفوظون من الكفر بلطف الله تعالى» قالا: قلنا له: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضاً ملكاً؟، فقال: «لا، بل كان من الجن، أما تسمعان الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فأخبر عزّ وجلّ أنّه من الجن، ...»[(2)]

وفي حديث آخر نقل عن الإمام الصادق عليه السلام، بأنّ أحد أصحابه المخلصين وهو جميل بن دراج قال: سألته عن إبليس كان من الملائكة وهل كان يلي من أمر السماء شيئاً؟ قال: «لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من السماء شيئاً، إنّه كان من الجن وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة تراه أنّه منها، وكان الله يعلم أنّه ليس منها، فلمّا أمر بالسجود كان منه الذي كان»[(3)].

وعندما صدر أمر السجود تحقق الشيء الذي نعرفه (كشفت الأستار واتّضحت ماهية إبليس).

وهناك بحوث تفصيلية ذكرناها حول إبليس والشيطان بشكل عام في ذيل الآيات ١١ - ١٨ من سورة الأعراف، وفي ذيل الآية ١١٢ من سورة الأنعام، وفي ذيل الآية ٣٤ من سورة البقرة.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٦٧.
(٣) المصدر السّابق.

٢ - لا تستعينوا بالضالّين

مع أنّ هذه الآيات، صادرة عنه تعالى وتنفي وجود عضد له من الضالين، ونعلم أنّه تعالى ليسَ بحاجة إلى من يعينه سواء كان المعين ضالاً أم لم يكن، لكنّها تقدّم لنا درساً كبيراً للعمل الجماعي، حيث يجب أن يكون الشخص المنتخب للنصرة والعون سائراً على منهج الحق والعدالة ويدعو إليها، وما أكثر ما رأينا أشخاصاً طاهرين قد ابتلوا بمختلف أنواع الانحرافات والمشاكل وأصيبوا بالخيبة وسوء الحظ جرّاء عدم الدقّة في انتخاب الأعوان، حيث التفّ حولهم عدد من الضالّين والمضلّين حتى تلفت أعمالهم، وكانت خاتمة أمرهم أن فقدوا كلّ ملكاتهم الإنسانية والاجتماعية.

إنّنا نقرأ في تاريخ كربلاء أنّ سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام قام يتمشى إلى (عبيد الله بن الحر الجعفي) وهو في فسطاطه حتى دخل عليه وسلّم عليه، فقام ابن الحر وأخلى له المجلس، فجلس ودعاه إلى نصرته، فقال عبيد الله بن الحر: والله ما خرجت من الكوفة إلاّ مخافة أن تدخلها، ولا أُقاتل معك، ولو قاتلت لكنت أوّل مقتول، ولكن هذا سيفي وفرسي فخذهما...

فأعرض الإمام عنه بوجهه فقال: «إذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في مالك، والآية ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾»[1].

إشارة إلى أنّك ضال ومضل، ولا تستحق أن تكون نصيراً.

وعلى أيّة حال، فإنّ البقاء دون نصير ومعين أفضل من طلب معونة الأشخاص الملوّثين والضالين واتّخاذهم عضداً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٦٨.

التّفسير

في انتظار العقاب

تنطوي هذه الآيات على تلخيص واستنتاج لما ورد في الآيات السابقة، وهي تُشير - أيضاً - إلى بحوث قادمة.

الآية الأُولى تقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

لقد ذكرنا نماذج مِن تأريخ الماضين المليء بالإثارة، وقد أوضحنا للناس الحوادث المرَّة للحياة واللحظات الحلوة في التاريخ، وقد فصّلنا بيان هذه الأُمور بحيث تتقبلها القلوب المستعدّة للحق، وتكون الحجة على الآخرين تامّة، ولا يبقى ثمّة مجال للشك.

ولكن بالرغم مِن هذا فإنَّ مجموعة عُصاة لم يؤمنوا أبداً: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿صَرَّفْنَا﴾ مِن «تصريف» وتعني التغيير والتحوّل من حال إلى حال، الهدف مِن هذا التعبير في الآية أعلاه هو أنّنا تحدّثنا مع الناس بكلّ لسان يمكن التأثير به عليهم.

«جدل» تعني محادثة الآخرين على أساس المُنازعة وإظهار نزعة التسلّط على الآخرين. ولهذا فإنَّ (المجادلة) تعني قيام شخصين بإطالة الحديث في حالة مِن التشاجر، وهذه الكلمة في الأصل مأخوذة - وكما يقول الراغب في المفردات - مِن (جدلت الحبل) أي ربطت الحبل بقوّة، وهي كناية عن أنَّ الشخص المجادل يستهدف مِن خلال جدله أن يحرف الشخص الآخر - بالقوّة - عن أفكاره.

وقال آخرون: إنَّ أصل (الجدال) هو بمعنى المصارعة وإسقاط الآخر على الأرض. وهي تستعمل أيضاً في الدلالة على الشجار اللفظي.

في كل الأحوال، يكون المقصود بالناس في الآية هُم تلك الفئة التي لا تقوم في وجودها وممارساتها على أُصول التربية الإسلامية وقواعدها، وقد أكثر القرآن في استعمال هذه التعابير، وقد شرحنا هذه الحالة مفصّلاً في نهاية الحديث عن الآية ١٢ مِن سورة يونس.

الآية التي بعدها تقول: إنَّهُ بالرغم من كلّ هذه الأمثلة المختلفة والتوضيحات المثيرة والأساليب المُختلفة التي ينبغي أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإنَّ هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ

وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي مصير الأمم السالفة: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾(١) فيرونه بأمّ أعينهم.

إنَّ هذه الآية - في الحقيقة - إشارة إلى أنَّ هذه المجموعة المعاندة والمغرورة لا تؤمن بإرادتها وبشكل طبيعي أبداً، بل هُم يؤمنون في حالتين فقط:

أوّلاً: عندما يُصيبهم العذاب الأليم الذي نزل مثلهُ في الأقوام والأُمم السابقة.

ثانياً: عندما يُشاهدون العذاب الإلهي بأعينهم، وقد أشرنا مراراً إلى أنَّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

ومِن الضروري الانتباه هُنا إلى أنَّ مثل هؤلاء الناس لم يكونوا ينتظرون مثل هذه العاقبة أبداً، لأنَّ هذه العاقبة كانت حتمية بالنسبة لهم وهي الشيء الوحيد الذي ينتهي إليه مصيرهم، لذا نرى القرآن قد طرحها على شكل انتظار، وهذا نوع من الكناية اللطيفة، ومثلهُ أن تقول للشخص العاصي: إنَّ أمامك - فقط - أن تنتظر لحظة الحساب، بمعنى أنَّ الحساب والعقاب أمرٌ حتمي بالنسبة له، وهو بذلك يعيش حالة انتظار للمصير المحتوم.

إنَّ بعض حالات العصيان والغرور التي يُصاب بها الإنسان قد تتسلّط عليه بحيث لا يؤثّر فيه لا الوحي الإلهي، ولا دعوات الأنبياء الهادية، ولا رؤية دروس وعبر الحياة الاجتماعية، ولا مطالعة تأريخ الأمم السابقة، إنَّ الذي ينفع مع هذه الفئة مِن الناس هو العذاب الإلهي الذي يعيد الإنسان إلى رشده، ولكن عند نزول العذاب تُغلق أبواب التوبة، ولا يوجد ثمّة طريق للرجعة والاستغفار.

ومِن أجل طمأنة الرّسول ﷺ في مقابل صلافة وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

ثمّ تقول الآية: إنَّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنَّ مِن واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة والاستهزاء بآيات الله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾(٢).

---

(١) (قبل) تعني (التقابل، بمعنى مُشاهدة العذاب الإلهي بالعين، بعض المفسّرين كالطبرسي في مجمع البيان، وأبي الفتوح في روح الجنان، والآلوسي في روح المعاني احتملوا أن تكون (قبل) جمع (قبيل) وهي إشارة إلى الأنواع المختلفة مِن العذاب، إلاَّ أنَّ المعنى الأوّل أقرب حسب الظاهر.

(٢) (يدحضوا) مُشتقة مِن (إدحاض) بمعنى الإبطال والإزالة، وهي في الأصل مأخوذة مِن كلمة (دحض) بمعنى الانزلاق.

وهذه الآية تشبه الآيات ٤٢ - ٤٥ مِن سورة الحج التي تقول: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ إلى آخر الآيات.

ويحتمل في تفسير الآية أنَّ الله تبارك وتعالى يريد أن يقول: إنَّ عمل الأنبياء لا يقوم على الإجبار والإكراه، بل إنَّ مسؤوليتهم التبشير والإنذار، والقرار النهائي مرتبط بنفس الناس كي يُفكّروا بعواقب الكفر والإيمان معاً، وحتى يؤمنوا عن تصميم وإرادة وبيِّنة، لا أن يلجأوا إلى الإيمان الاضطراري عند نزول العذاب الإلهي.

لكن، مع الأسف أن يُساء استخدام حرّية الاختيار هذه والتي هي وسيلة لتكامل الإنسان ورقيّه، عندما يقوم أنصار الباطل بالجدال في مقابل أنصار الحق، إذ يُريدون القضاء على الحق عن طريق الاستهزاء أو المغالطة. ولكن هناك قلوباً مستعدة لقبول الحق دوماً والتسليم له، وإنَّ هذا الصراع بين الحق والباطل كان وسيبقى على مدى الحياة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾

التّفسير

لا استعجال في العقاب الإلهي

الآيات السابقة كانت تتحدَّث عن مجموعة مِن الكافرين المُتعصّبين والمظلمة قلوبهم؛ والآيات التي بين أيدينا تستمر في نفس البحث.

ففي البداية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

إنّ استخدام تعبير ﴿ذُكِّرَ﴾ يوحي إلى أنَّ تعليمات الأنبياء عليهم السلام هي بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطري في أعماق الإنسان، وإنَّ مهمّة الأنبياء هي رفع الحجب عن نقاء وشفافية هذه الفطرة.

هذا المعنى ورد في الخطبة الأُولى مِن خطب نهج البلاغة حيث يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لِيَسْتَأدُوهُم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا إليهم بالتبليغ، ويُثيروا لهم دفائن العقول».

الطريف في الأمر أنَّ الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء وإعادتهم إلى نور الهداية، هي:

أوّلا: إنَّ هذه الحقائق تلائم بشكل كامل ما هو مكنون في فطرتكم ووجدانكم وأرواحكم.

ثانياً: إنّها جاءت مِن قبل خالقكم.

ثالثاً: عليكم أن لا تنسوا أنّكم اقترفتم الذنوب، وأنَّ مِنهاج عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة مِن الذنوب والهداية للصواب.

لكن هذه الفئة مِن الناس لم تؤمن برغم كلّ ذلك: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾(١) وبذلك لا تنفع معهم دعوتك: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

ولا نعتقد أنّنا بحاجة إلى أن نوضّح أنّ سبب انعدام قابلية التشخيص والقدرة والإحساس والسمع لدى هؤلاء، إنّما كانَ مِن عندَ الله، ولكن بسبب ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وبسبب الأعمال التي قاموا بها سابقاً، وهذا هو الجزاء المباشر لأعمالهم ولما كسبت أيديهم. بعبارة أُخرى: إنَّ الأعمال القبيحة السيّئة والمخزية تحوّلت إلى ستار وثقل، أي (كنان ووقر) على قلوبهم وآذانهم، وهذه الحقيقة تذكرها الكثير مِن الآيات القرآنية، إذ نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى في الآية ١٥٥ مِن سورة النساء: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ولكن هناك مَن يتذرَّع بشتى الحجج والذرائع لإثبات فكرة الجبر ودعم مذهبه في ذلك، دون أن يأخذ بنظر الاعتبار بقية هذه الآية، وسائر الآيات القرآنية الأُخرى التي تفسّرها، بل يعتمد على ظواهر ألفاظ الآيات ويتخذها سنداً لإثبات مقولة الجبر، في حين أنَّ الجواب على ذلك - كما أسلفنا - واضح بدرجة كبيرة.

---

(١) كما قُلنا سابقاً (أكنة) جمع (كنان) على وزن كتاب، وتعني الستار أو الحجاب و(وقر) تعني ثقل الأذن عن السماع.

إنَّ البرنامج التربوي للخالق جلَّ وعلا هو أن يُعطي لعباده الفرصة بعد الأُخرى، وهو جلَّ وعلا لا يُعاقب بشكل فوري مِثل الجبّارين والظالمين، بل إنَّ رحمته الواسعة تقتضي دوماً إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإنّ الآية التي بعدها تقول: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾. فإذا كانت الإرادة الإلهيّة تقتضي إنزال العذاب بسبب ارتكابهم للذنوب لتحقّق ذلك فوراً.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾(١).

فغفرانه تعالى يقضي أن يرحم التوّابين، ورحمته تقضي أن لا يعجّل عذاب غيرهم، إذ مِن المحتمل أن يلتحق بعضهم بصفوف التوّابين، إلاّ أنّ عدالته تعالى تقتضي مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عندما يصل طُغيانهم وتمرّدهم إلى أقصى درجاته، وعندما يكون بقاء مثل هؤلاء الأفراد الفاسدين المفسدين الذين لا يوجد أمل في إصلاحهم، عبثاً وبدون فائدة، لذا ينبغي تطهير الأرض منهم، ومِن لوث وجودهم.

وأخيراً تنتهي هذه المجموعة مِن الآيات إلى توجيه التحذير الأخير مِن خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرَّة لِمن ظَلَمَ مِن السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنَّ هذه المدن والقرى أمامكم، ولكم أن تشاهدوا خرائبها والدمار الذي حلَّ فيها، وقد أهلكنا أهلها بما ارتكبوا مِن ظلم، في نفس الوقت الذي لم نعجّل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعداً لِمهلكهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

(١) (موئل) مِن كلمة (وئل) وتعني الملجأ ووسيلة النجاة.

التّفسير

لقاءِ موسى والخضر عليهما السلام

ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآيات أنَّ مجموعة مِن قريش جاؤوا إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وسألوه عن عالم كان موسى عليه السلام مأموراً باتباعه، وفي الجواب على ذلك نزلت هذه الآيات.

لقد ذكرت في سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هي: قصّة أصحاب الكهف التي انتهينا مِنها؛ وقصّة موسى والخضر عليهما السلام؛ وقصّة ذي القرنين التي سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا مِن الأُفق المحدود في حياتنا وما تعوّدنا عليه وألفناه، وتبيّن لنا أنّ حدود العالم لا تنحصر في نطاق ما نرى وما نُشاهد، وأنَّ الشكل العام للحوادث والأحداث ليسَ هو ما نفهمهُ مِن خلال النظرة الأُولى.

وإذا كانت قصّة أصحاب الكهف تتحدّث عن فتية تركوا كلّ شيء مِن أجل أن يحافظوا على إيمانهم، وقد أدّى بهم ذلك إلى حوادث عظيمة ذات أبعاد تربوية لجميع الناس، فإنَّ قصّة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة أُخرى. ففي القصّة يُواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّاً مِن أولي العزم بكلّ وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته مِن بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلّم على يديه، ونرى أنَّ المعلم يقوم بتعليمه دروساً يكون الواحد مِنها أعجب مِن الآخر، ثمّ إنَّ هذه القصّة تنطوي - كما سنرى - على ملاحظات مهمّة جدّاً.

في أوّل آية نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

إنَّ المعني بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النّبي المعروف مِن أولي العزم، بالرغم ممّا احتمله بعض المفسّرين مِن أنَّ موسى المذكور في الآية هو غير موسى بن عمران عليه السلام، وسوفَ نرى - فيما بعد - أنَّ اعتماد هذا الرأي كان بسبب عدم استطاعتهم حلّ بعض الإشكالات الواردة في القصّة، في حين أنّه كلّما ورد اسم ﴿مُوسَىٰ﴾ في القرآن فالمراد به موسى بن عمران.

أمّا المعني مِن (فتاه) فهو كما يقول أكثر المفسّرين - وكما تُشير إلى ذلك العديد مِن

الرّوايات - أنّه يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن مِن بني إسرائيل، واستخدام كلمة (فتى) في وصفه قد يكون بسبب هذه الصفات البارزة، أو بسبب خدمته لموسى عليه السلام ومرافقته له.

﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بمعنى محل التقاء البحرين، وهناك كلام كثير بين المفسّرين عن اسم هذين البحرين، ولكن - بشكل عام - يمكن إجمال الحديث بثلاثة احتمالات هي:

أوّلاً: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس» (إذ المعروف أنَّ البحر الأحمر يتفرّع شمالاً إلى فرعين: فرع نحو الشمال الشرقي حيث يشكّل خليج العقبة، والثّاني نحو الشمال الغربي ويسمى خليج السويس، وهذان الخليجان يرتبطان جنوباً ويتصلان بالبحر الأحمر).

ثانياً: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال المحيط الهندي بالبحر الأحمر في منطقة «باب المندب».

ثالثاً: محل اتصال البحر المتوسط (الذي يسمّى - أيضاً - ببحر الروم والبحر الأبيض) مع المحيط الأطلسي، يعني نفس المكان الذي يطلق عليه اسم (مضيق جبل طارق) قرب مدينة «طنجة».

الاحتمال الثّالث مُستبعد بحكم بُعد مكان موسى عليه السلام عن جبل طارق الذي يبعد عنهُ مسافة كبيرة جدّاً، قد تصل فترة وصوله عليه السلام إليه عدَّة أشهر إذا انتقل بالوسائل العادية.

أمّا الاحتمال الثّاني، فمع أنَّ المسافة ما بينهُ وبين مكان موسى عليه السلام أقرب، إلاّ أنَّهُ مستبعد - أيضاً - بحكم الفاصل الكبير بين الشام وجنوب اليمن.

يبقى الاحتمال الأوّل هو الأقرب مِن حيث قربه إلى مكان موسى عليه السلام، وما يرجّح هذا الرأي هو ما نستفيده مِن الآيات - بشكل عام - مِن أنَّ موسى عليه السلام لم يسلك طريقاً طويلاً بالرغم مِن أنَّهُ كان مستعدّاً للسفر إلى أيّ مكان لأجل الوصول إلى مقصوده (فدقق في ذلك).

وفي بعض الرّوايات إشارة إلى هذا المعنى أيضاً.

كلمة «حقب» تعني المدّة الطويلة والتي فسَّرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى عليه السلام مِن هذه الكلمة، هو أنّني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيّعتهُ ولو أدّى ذلك أن أسير عِدَّة سنين.

ومِن مجموع ما ذكرنا أعلاه يتبيّن لنا أنّ موسى عليه السلام كان يبحث عن شيء مهم وقد أقام عزمه ورسّخ تصميمه للعثور على مقصوده وعدم التهاون في ذلك إطلاقاً.

إنّ الشيء الذي كان موسى عليه السلام مأموراً بالبحث عنه، لهُ أثرٌ كبير في مستقبله، وبالعثور عليه سوف يفتح فصلٌ جديدٌ في حياته.

نعم، إنَّهُ عليه السلام كان يبحث عن عالم يزيل الحجب مِن أمام عينيه ويُريه حقائق جديدة، ويفتح أبواب العلوم أمامه، وسنعرف سريعاً أنَّ موسى عليه السلام كان يملك علامة للعثور على محل هذا العالم الكبير، وكانَ عليه السلام يتحرّك باتجاه تلك العلامة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي السمكة التي كانت معهما، أمّا العجيب في الأمر فإنّ الحوت: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾(١).

وهناك كلام كثير بين المفسّرين عن نوعية السمك الذي كان معدّاً للغذاء ظاهراً هل كانت سمكة مشوية، أو مملّحة أو سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازي وقفزت إلى الماء وغاصت فيه؟

وفي بعض كتب التّفسير نرى أنَّ هُناك حديثاً عن عين تهب الحياة، وأنّ السمكة عندما أصابها مقدار مِن ماء تلك العين عادت إليها الحياة.

وهناك احتمال آخر وهو أنّ السمكة كانت حيَّة، بمعنى أنّها لم تكن قد ماتت بالكامل، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه مِن الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد في هذه الفترة إلى الماء.

وفي تتمّة القصّة، نقرأ أنَّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفي هذه الأثناء تذكَّر موسى عليه السلام أنَّهُ قد جلب معهُ طعاماً، وعند ذلك قالَ لصاحبه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

(غداء) يقال للطعام الذي يتمّ تناوله في أوّل اليوم أو في منتصفه. ولكنّا نستفيد مِن التعابير الواردة في كُتب اللغة أنّهم في الأزمنة السابقة كانوا يطلقون كلمة (غداء) على الطعام الذي يتمّ تناوله في أوّل اليوم (لأنّها مأخوذة مِن كلمة «غدوة» والتي تعني بداية اليوم) في حين أنَّ كلمة «غداء» و«تغدّى» تطلق اليوم على تناول الطعام في وقت الظهيرة.

على أي حال، إنَّ هذه الجملة تُظهر أنَّ موسى ويوشع قد سَلَكا طريقاً يُمكن أن نسمّيه بالسفر، إلاّ أنَّ نفس هذه التعابير تفيد أنَّ هذا السفر لم يكن طويلاً.

---

(١) (سَرَب) على وزن (جَرَب) كما يقول الراغب في مفرداته، وهي تعني السير في الطريق المنحدر، وَ (سرب) على وزن (حرب) تعني الطريق المنحدر.

وفي هذه الأثناء قال لهُ صاحبهُ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾(١).

ولأنَّ هذا الحادث والموضوع - بشكل عام - كان علامة لموسى عليه السلام، لكي يصل مِن خلاله إلى موقع (العالم) الذي خرجَ يبحث عنهُ، لذا فقد قال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

وهُنا رجعا في نفس الطريق: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

وهنا قد يُطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبي مثل موسى عليه السلام أن يُصاب بالنسيان حيث يقول القرآن: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ ثمّ لماذا نَسَبَ صاحب موسى عليه السلام نسيانهُ إلى الشيطان؟

في الجواب نقول: إنَّهُ لا يوجد ثمّة مانع مِن الإصابة بالنسيان في المسائل والموارد التي لا ترتبط بالأحكام الإلهيّة والأُمور التبليغية، أي في مسائل الحياة العادية (خاصّة في المواقع التي لها طابع اختبار، كما هو الحال في موسى هنا، وسوف نشرح ذلك فيما بعد).

أمّا ربط نسيان صاحبه بالشيطان، فيمكن أن يكون ذلك بسبب أنّ قضية السمكة ترتبط بالعثور على ذلك الرجل العالِم، وبما أنَّ الشيطان يقوم بالغواية، لذا فإنَّه أراد مِن خلال هذا العمل (النسيان) أن يصلا مُتأخِرينَ إلى ذلك العالم، وقد تكون مقدمات النسيان قد بدأت مِن (يوشع) نفسهُ حيثُ إنَّهُ لم يُدقق ويهتم بالأمر كثيراً.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

---

(١) إنّ جملة ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ جملة اعتراضية تقع في وسط الكلام، ولأنَّ هذه الجملة تذكر - في الواقع - سبب النسيان، لذا فقد وقعت في وسط الكلام، وهذا الأسلوب شائع خصوصاً للأشخاص الذين يكونون موضع عتاب شخص أكبر، حيث إنّهم يذكرون العلة الأصلية ضمن الكلام بشكل اعتراضي، حتى يكون الاعتراض عليهم أقل.

التفسير

رؤية المعلم الكبير

عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأوّل، أي قرب الصخرة وقرب ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾، فجأة: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

إنَّ استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجداه أخيراً.

أمّا استخدام عبارة: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فهي تبيّن أنّ أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلَّ وعلا، وأنَّ مقام العبودية هذا يكون سبباً في شمول الإنسان بالرحمة الإلهيّة، وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه.

كما أنَّ استخدام عبارة ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ تبيّن أنَّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً مِن أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التي لا يعلمها سوى الله تعالى.

أمّا استخدام ﴿عِلْمًا﴾ بصيغة النكرة فهو للتعظيم، ويتبيّن مِن ذلك أنَّ ذلك الرجل العالم قد حصَلَ مِن علمه على فوائد عظيمة.

أمّا ما هو المقصود مِن عبارة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فقد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة، فقال بعضهم: إنّها إشارة إلى مقام النبوة، والبعض الآخر اعتبرها إشارة للعمر الطويل. ولكن يُحتمل أن يكون المقصود هو الاستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التي وهبها الله تعالى لهذا الرجل كي يكون قادراً على استقبال العلم الإلهي.

أمّا ما ذكر مِن أنَّ هذا الرجل اسمهُ (الخضر) وفيما إذا كانَ نبيّاً أم لا، فسوف نبحث كلّ ذلك في البحوث القادمة.

في هذه الأثناء قالَ موسى للرجل العالِم باستفهام وبأدب كبير: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ونستفيد مِن عبارة ﴿رُشْدًا﴾ أنَّ العلم ليس هدفاً، بل هو وسيلة للعثور على طريق الخير والهداية والصلاح، وأنَّ هذا العلم يجب أن يُتعَلَّم، وأن يفتخر به.

في معرض الجواب نرى أنَّ الرجل العالِم يجيب موسى عليه السلام بكلام عجيب: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

ثمّ بيّن سبب ذلك مُباشرة وقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

وكما سنرى فيما بعد، فإنَّ هذا الرجل العالم كانَ يُحيط بأبواب مِن العلوم التي تخصّ أسرار وبواطن الأحداث، في حين أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن مأموراً بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير، وفي مثل هذه الموارد يحدث كثيراً أن يكون ظاهر الحوادث يختلف تمام الاختلاف عن باطنها، فقد يكون الظاهر قبيحاً أو غير هادف في حين أنَّ الباطن مفيد ومقدّس وهادف لأقصى غاية.

في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلى الظاهر صبره وتماسُكهُ فيقوم بالاعتراض وحتى بالتشاجر.

ولكن الأستاذ العالِم والخبير بالأسرار بقي ينظر إلى بواطن الأعمال، واستمرّ في عمله ببرود، ولم يعر أي أهمّية إلى اعتراضات موسى وصيحاته، بل كان في انتظار الفرصة المناسبة ليكشف عن حقيقة الأمر، إلاَّ أنَّ التلميذ كانَ مستمرّاً في الإلحاح، ولكنّهُ ندمَ حين توضّحت وانكشفت لهُ الأسرار.

وقد يكون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اضطرب عندما سمعَ هذا الكلام وخشي أن يُحرم مِن فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهّد بأن يصبر على جميع الحوادث وقال: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

مرّة أُخرى كشف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قمّة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّي صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابراً.

ولأنَّ الصبر على حوادث غريبة وسيّئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليسَ بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم مِن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتعهّد لهُ مرّة أُخرى، وحذّره: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1]. وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ

---

(١) إنّ عبارة: ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الاعتبار كلمة (أحدث) هو: إنّي أنا الذي أبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الأُولى؛ أمّا أنت فلا تتكلم.

قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

التّفسير

المعلم الإلهي والأفعال المنكرة!!

نعم، لقد ذهب موسى وصاحبهُ وركبا السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾.

من الآن فصاعداً نرى القرآن يستخدم ضمير المثنّى في جميع الموارد، والضمير إشارة إلى موسى والعالم الرّباني، وهذه إشارة إلى انتهاء مهمّة صاحب موسى عليه السلام (يوشع) ورجوعه، أو أنَّهُ لم يكن معنياً بالحوادث بالرغم مِن أنَّهُ قد حضرها جميعاً، إلاَّ أنَّ الاحتمال الأوّل هو الأقوى.

عندما ركبا السفينة قام العالم بثقبها: «خرقها».

«خرق» كما يقول الراغب في المفردات: الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكّر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالِم على هذا المنوال.

وبحكم كَوْن موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً كبيراً فقد كان مِن جانب يرى أنّ من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومِن جانب آخر كان وجدانه الإنساني يضغط عليه ولا يدعهُ يسكت أمام أعمال الرجل العالِم التي يبدو ظاهرها سيّئاً قبيحاً، لذا فقد نسيَ العهد الذي قطعهُ للخضر (العالم) فاعترض وقال: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

لا ريب أنَّ هدف العالم (الخضر) لم يكن إغراق مَن في السفينة، ولكنَّ النتيجة النهائية لخرق السفينة لم يكن سوى غرق مَن في السفينة، لذا فقد استخدم موسى عليه السلام: «اللام الغائية» لبيان الهدف.

مثل ذلك ما نقوله للشخص الذي يأكل كثيراً، عندما نقول لهُ: أتريد أن تقتل نفسك؟! بالطبع مِثل هذا لا يريد قتل نفسه بكثرة الطعام، إلاَّ أنَّ نتيجة عمله قد تكون هكذا.

«إمر» على وزن «شمر» وتطلق على العمل المهم العجيب أو القبيح للغاية.

وحقّاً، لقد كان ظاهر عمل الرجل العالِم عجيباً وسيّئاً للغاية، فهل هُناك عمل أخطر مِن أن يثقب شخص سفينة تحمل عدداً مِن المسافرين!

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنَّ أهل السفينة انتبهوا إلى الخطر بسرعة وقاموا بإصلاح الثقب (الخرق) مؤقتاً، ولكن السفينة أصبحت بعد ذلك معيبة وغير سالمة.

وفي هذه الأثناء نظر الرجل العالِم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصّة وخاطبه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

أمّا موسى الذي ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذي قطعه لهذا العالِم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلاً: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾. يعني لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذني بهذا الاشتباه.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ مُشتقّة مِن «إرهاق» وتعني تغطية شيء ما بالقهر والغلبة، وتأتي في بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفي الآية - أعلاه - يكون معناها: لا تصعّب الأُمور عليَّ، ولا تقطع فيضك عنّي بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجّلوا مِن السفينة: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾، وقد تمَّ ذلك بدون أي مقدمات!

وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة أُخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفل بريء بدون أي سبب، وظهرت آثار الغضب على وجههِ وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسي وعده مرّةً أُخرى، فقام للاعتراض، وكان اعتراضه هذه المرَّة أشد مِن اعتراضه في المرّة الأُولى، لأنَّ الحادثة هذه المرَّة كانت موحشة أكثر من الأُولى، فقال عليه السلام: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾. أي إنّك قتلت إنساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

كلمة «غلام» تعني الفتى الحدث، أي الصبي سواء كان بالغاً أو غير بالغ. وبين المفسّرين ثمّة كلام كثير عن الغلام المقتول، وفيما إذا كان بالغاً أم لا، فالبعض استدل بعبارة ﴿نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ على أنَّ الفتى لم يكن بالغاً، والبعض الآخر اعتبر عبارة ﴿بِغَيْرِ

نَفْسٍ﴾ دليلاً على أنَّ الفتى كانَ بالغاً، ذلك لأنَّ القصاص يجوز بحق البالغ فقط، ولكن لا يمكن القطع في هذا المجال بالنسبة لنفس الآية.

«نكر» تعني القبيح والمنكر، وأثرها أقوى مِن كلمة «أمر» التي وردت في حادثة ثقب السفينة، والسبب في ذلك واضح، فالأمر الأوّل قد أوجد الخطر لمجموعة مِن الناس، إلاَّ أنّهم تداركوه بسرعة، لكن ظاهر العمل الثّاني يدل على ارتكاب جريمة.

ومرّة أُخرى كرَّر العالم الكبير جملته السابقة التي اتّسمت ببرود خاص، حيث قالَ لموسى عليه السلام: «قال ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً».

والاختلاف الوحيد مع الجملة السابقة هو إضافة كلمة «لك» التي تفيد التأكيد الأكثر؛ يعني: إنّني قلت هذا الكلام لشخصك!

تذكّر موسى تعهّده فانتبه إلى ذلك وهو خجل، حيث أخلَّ بالعهد مرَّتين - ولو بسبب النسيان - وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأستاذ في أنَّ موسى لا يستطيع تحمّل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قالَ لهُ عندما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر إلى الاعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرّة أُخرى فلا تصاحبني وأنت في حلٍّ منّي: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾. صيغة العذر هنا تدل على إنصاف موسى عليه السلام ورؤيته البعيدة للأُمور، وتبيّن أنَّهُ عليه السلام كانَ يستسلم للحقائق ولو كانت مرّة؛ بعبارة أُخرى: إنّ الجملة توضّح وبعد ثلاث مراحل للاختبار أنَّ مهمّة هذين الرجلين كانت مُختلفة.

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.

لا ريب، إنَّ موسى وصاحبه لم يكونا ممّن يلقي بكلّه على الناس ولكن يتّضح أنَّ زادهم وأموالهم قد نفدت في تلك السفرة، لذا فقد رغبا أن يضيفهما أهل تلك المدينة (ويحتمل أنَّ الرجل العالم تعمّد طرح هذا الاقتراح كي يعطي موسى درساً بليغاً آخر).

ويجب أن نلتفت إلى أنَّ ﴿قَرْيَةٍ﴾ في لغة القرآن تنطوي على مفهوم عام، وتشمل المناطق السكنية في الريف والمدينة، أمّا المقصود مِنها في الآية فهو المدينة لا القرية، كما تصرّح بعد ذلك الآيات اللاحقة.

وذكر المفسّرون نقلاً عن ابن عباس أنَّ المقصود بهذه المدينة، هو (أنطاكية)(١).

---

(١) أنطاكية مِن المدن السورية القديمة التي تقع على بعد (٩٦) كم مِن حلب، و(٥٩) كم عن الإسكندرونة، =

وذكر آخرون: إنَّ المقصود مِنها هو مدينة «أيلة» التي تسمى اليوم ميناء (أيلات) المعروف والذي يقع على البحر الأحمر قرب خليج العقبة، أمّا البعض الثّالث فيرى بأنّها مدينة (الناصرة) الواقعة شمال فلسطين، وهي محل ولادة السيّد المسيح عليه السلام. وقد نقل العلاّمة الطبرسي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يدعم صحة هذا الاحتمال.

ورجوعاً إلى ما قلناه في المقصود مِن ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ إذ قلنا: إنَّهُ كناية عن محل التقاء خليج العقبة وخليج السويس، يتّضح أنَّ مدينة (الناصرة) أو ميناء (أيلة) أقرب إلى هذا المكان من انطاكية.

المهم في الأمر، أنّنا نستنتج مِن خلال ما جرى لموسى عليه السلام وصاحبه مِن أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاماً دنيئي الهمّة، لذا نقرأ في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله في وصف أهل هذه المدينة: «كانوا أهل قرية لئام»[(١)].

ثمّ يضيف القرآن: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[(٢)] وقد كان موسى عليه السلام يشعر بالتعب والجوع، والأهم مِن ذلك أنَّهُ كان يشعر بأنَّ كرامته وكرامة أستاذه قد أهينت مِن أهل هذه القرية التي أبت أن تضيفهما؛ ومِن جانب آخر شاهد كيف أنَّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم مِن سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، وكأنَّهُ بذلك أراد أن يجازي أهل القرية بفعالهم السيّئة؛ وكان موسى يعتقد بأنّ على صاحبه أن يُطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيعا أن يُعدّا لأنفسهما طعاماً.

لذا فقد نسي موسى عليه السلام عهده مرّة أُخرى وبدأ بالاعتراض، إلاّ أنَّ اعتراضه هذه المرَّة بدا خفيفاً فقال: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وفي الواقع فإنَّ موسى يعتقد بأنَّ قيام الإنسان بالتضحية في سبيل أناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة؛ بعبارة أُخرى: إنَّ الجميل جيّد وحسن، بشرط أن يكون في محلّه.

صحيح أنَّ الجزاء الجميل في مقابل العمل القبيح هو مِن صفات الناس الإلهيين، إلاّ

= تشتهر المدينة بالحبوب الغذائية، والحبوب الدهنية، فيها ميناء يسمى «سويدية» ويبعد عن مركزها (٢٧) كيلومتر. (يراجع في ذلك دائرة فريد وجدي، ج ١، ص ٨٣٥).

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

(٢) إنَّ نسبة «الإرادة» إلى الجدار هو استخدام مجازي، ومفهوم ذلك أنَّ الجدار كان ضعيفاً للغاية وهو على مشارف الانهيار.

أنَّ ذلك ينبغي أن لا يكون سبباً في دفع المسيئين للقيام بالمزيد مِن الأعمال السيّئة.

وهنا قالَ الرجل العالم كلامه الأخير لموسى، بأنّك ومِن خلال حوادث مُختلفة، لا تستطيع معي صبراً، لذلك قرَّر العالم قراره الأخير: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

موسى عليه السلام لم يعترض على القرار - طبعاً - لأنَّهُ هو الذي كان قد اقترحهُ عندَ وقوع الحادثة السابقة، وهكذا ثبت لموسى أنَّهُ لا يستطيع الاستمرار مع هذا الرجل العالم، ولكن برغم كلّ ذلك، فإنَّ خبر الفراق قد نزل بوقع شديد على قلب موسى عليه السلام، إذ يعني فراق أستاذٍ قلبه مملوء بالأسرار، ومفارقة صُحبة مليئة بالبركة، إذ كان كلام الأستاذ دَرساً، وتعاملهُ يتّسم بالإلهام؛ نور الله يشع مِن جبينه، وقلبه مخزن للعلم الإلهي.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن على موسى عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المُرَّة.

المفسّر المعروف أبو الفتوح الرازي يقول: ورد في الخبر، أنَّ موسى عليه السلام عندما سُئِلَ عن أصعب ما لاقى مِن مُشكلات في طول حياته، أجاب قائلاً: لقد واجهت الكثير مِن المشاكل والصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السلام مِن فرعون، وما عاناه مِن بني إسرائيل) ولكن لم يكن أيّاً مِنها أصعب وأكثر ألماً على قلبي مِن قرار الخضر في فراقي إيّاه[(١)].

«تأويل» مَن «أول» على وزن «قول» وتعني الإرجاع، لذا فإنَّ أي عمل أو كلام يُرجعنا إلى الهدف الأصلي يُسمّى «تأويلاً» كما أنَّ رفع الحجب عن أسرار شيء هو نوع مِن التأويل.

إطلاق كلمة (التأويل) على تفسير الأحلام يعود لهذا السبب بالذات، كما ورد في سورة يوسف ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾[(٢) (٣)].

---

(١) أبو الفتوح الرازي في (روح الجنان)، ج ٣، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) للتوضيح أكثر يمكن مراجعة الآية (٧) مِن سورة آل عمران.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم
مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن
يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ
كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا
كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ
صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث

بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام أمراً حتمياً، كانَ مِن اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطع موسى أن يصبر عليها، وفي الواقع فإنَّ استفادة موسى مِن صُحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد مِن المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة.

ففي البداية ذكر قصّة السفينة وقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيِّر وراء ثقب السفينة الذي بدأ في حينه عملاً مشيناً سيّئاً، والهدف هو نجاتهم مِن قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذاً خلاصة المقصود في الحادثة الأُولى هو حفظ مصالح مجموعة مِن المساكين.

كلمة «وراء» لا تعني هُنا الجانب المكاني، وإنّما هي كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أنَّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التي سوف تصيبهُ لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

إضافة إلى ذلك فإنَّ الإنسان عندما يخضع لضغط فرد أو مجموعة فإنَّهُ يستخدم تعبير

(وراء) كقوله مثلاً: الدّيانون ورائي ولا يتركوني؛ وفي الآية ١٦ مِن سورة إبراهيم نقرأ قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ وكأنَّ جهنَّم تلاحق وتتبع المذنبين، لذا فقد استخدمت كلمة وراء[1].

ويفيد استخدام كلمة (مسكين) أنَّ «المسكين» ليسَ هو الشخص الذي لا يملك شيئاً مطلقاً، بل هي وصف يُطلق على الأشخاص الذين يملكون أموالاً وثروة لكنّها لا تفي بحاجاتهم.

ويحتمل أيضاً أن يكون السبب في إطلاق وصف (المساكين) عليهم ليسَ بسبب الفقر المالي، بل بسبب افتقارهم للقوّة والقدرة، وهذا التعبير يستخدم في لغة العرب، كما وأنَّهُ يتلاءم مع الجذور الأصلية لمعنى مسكين لغوياً، والذي يعني السكون والضعف.

وفي نهج البلاغة نقرأ قول أمير المؤمنين ﷺ: «مسكين ابن آدم... تؤلمهُ البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنهُ العرقة»[2].

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سرِّ الحادثة الثّانية التي قتل فيها الفتى فيقول: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

تحتمل مجموعة مِن المفسّرين أنَّ المقصود مِن الآية ليسَ ما يتبيّن مِن ظاهرها مِن أنَّ الفتى الكافر والعاصي قد يكون سبباً في انحراف أبويه، وإنّما المقصود أنَّهُ بسبب طغيانه وكفره يؤذي أبويه كثيراً[3]؛ ولكن التّفسير الأوّل أقرب للصحة.

في كل الأحوال، فإنَّ الرجل العالم قامَ بقتل هذا الفتى، واعتبر سبب ذلك ما سوف يقع للأب والأم المؤمنين في حالِ بقاء الابن على قيد الحياة.

وسوف نجيب في فقرة البحوث على شبهة (القصاص قبل الجناية) التي ترد على عمل الخضر هذا.

كلمة (خشينا) تستبطن معنىً كبيراً، فهذا التعبير يوضّح أنَّ هذا الرجل العالم كان يعتبر نفسهُ مسؤولاً عن مستقبل الناس، ولم يكن مستعدّاً لأن تصاب أم أو أب مؤمنان بسوء بسبب انحراف ولدهما.

---

(١) في معنى (وراء) يمكن مراجعة البحث الوارد في ذيل الآية (١٦) مِن سورة إبراهيم في تفسيرنا هذا.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار الجملة رقم ٤١٩.
(٣) وفق التّفسير الأوّل يكون الفعل «يرهق» مُتعدّياً إلى مفعولين: الأوّل (هما)، والمفعول الثّاني ﴿طُغْيَٰنًا﴾، أمّا وفق التّفسير الثّاني فإن ﴿طُغْيَٰنًا﴾ و﴿وَكُفْرًا﴾ يكونان مفعولاً لأجله.

كما إنَّ تعبير (خشينا) جاء هُنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلاَّ لا معنى للخوف في هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى مِن العلم والوعي والقدرة.

وبعبارة أُخرى، فإنَّ الهدف هو الاتّقاء مِن حادث سيّىء نرغب أن نقي الأبوين مِنهُ على أساس المودّة لهما.

ويحتمل أن يكون التعبير بمعنى (علمنا) كما ينقل عن ابن عباس، يعني أنّنا كُنّا نعلم أنَّ الفتى - في حال بقائه - سوف يكون سبباً لأحداث أليمة تقع لأبيه وأمه في المستقبل.

أمّا لماذا استخدم ضمير المتكلّم في حالة الجمع، بينما كان المتكلّم فرداً واحداً، فإنَّ سبب ذلك واضح، حيث إنّها ليست المرّة الأُولى التي يستخدم القرآن هذه الصيغة، ففي كلام العرب عندما يتحدّث الأشخاص الكبار عن أنفسهم فإنّهم يستخدمون ضمير الجمع. والسبب في ذلك أنَّ هؤلاء الأشخاص يملكون أشخاصاً تحت أيديهم ويعطونهم الأوامر لتنفيذ الأعمال، فالله يعطي الأوامر للملائكة، والإنسان يعطي الأوامر للذين هم تحت يديه.

ثمّ تحكي الآيات على لسان العالم قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

إنَّ تعبير (أردنا) و﴿رَبُّهُمَا﴾ يطوي معانٍ كبيرة سوف نقف عليها بعد قليل.

﴿زَكَوٰةً﴾ هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان والعمل الصالح، وتتسع للأمور الدينية والمادية، وقد يكون في هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذي قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً...﴾ فقالَ لهُ العالم في الجواب: إنَّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يُبدلهما ربّهما ابناً طاهراً بدلاً عن ذلك.

وفي روايات عديدة نقرأ «أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيّاً»[(١)].

في آخر آية مِن الآيات التي نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثّالث الذي دعاه إلى بناء الجدار فقال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٨٦ و٢٨٧.

وأنا كُنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوي هذين اليتيمين، كي لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضاً للخطر.

وفي خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفي أيّ شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكي يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه غيبي، قال العالم: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ بل بأمر مِن الله.

وذلك سرُّ ما لم يستطع عليه موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

بحوث

١ - هل كانت مهمّة الخضر في إطار النظام التشريعي أم التكويني!؟

إنَّ هذه الحوادث الثّلاث شغلت عقول العلماء الكبار، وأثارت بينهم الكثير من الكلام والاستفهامات.

والسؤال الأوّل هو: هل يمكن إتلاف جزء مِن أموال شخص بدون إجازته بذريعة أنَّ هُناك غاصباً يريد أن يُصادرها؟

وهل يمكن معاقبة فتى بذريعة الأعمال التي سيقوم بها في المستقبل؟

ثمّ هل هُناك ضرورة للعمل المجاني بهدف الحفاظ على أموال شخص معيّن؟

لقد رأينا مِن سياق القصّة القرآنية أنَّ موسى اعترض على الرجل العالم، ولكنَّهُ بعد أن استمع للتوضيحات وأحاط ببواطن الأُمور عاد واقتنع.

أمّا نحن فأمامنا طريقان للإجابة على الأسئلة، نعرضها بالتفصيل الآتي:

الطريق الأوّل: أن نطابق الحوادث وتصرّفات الرجل العالم مع الموازين الفقهية، وقوانين الشرع، وقد قامت مجموعة مِن المفسّرين بسلوك هذا الطريق.

فالحادثة الأُولى اعتبروها مُنطبقة مع قانون الأهم والمهم؛ وقالوا بأنَّ حفظ مجموع السفينة عمل أهم حتماً مِن الضرر الجزئي الذي لحقها بالخرق؛ وبعبارة أُخرى، فإنّ الخضر قام هُنا (بدفع الأفسد بالفاسد) خاصّة وأنَّهُ كان يُمكن تقدير الرضا الباطني لأهل

(١) ﴿لَمْ تَسْطِع﴾ كان في الأصل «تستطيع» وبعد ورود حرف الجزم حذف حرف التاء باب الاستفعال.

السفينة فيما إذا علموا بهذه الحادثة. (أي أنَّ الخضر قد حصل مِن وجهة الأحكام والقواعد الشرعية على إذن الفحوى).

وفيما يتعلّق بالغلام فقد أصرَّ المفسّرون ممن سلك هذا الطريق، على أنَّ الفتى كانَ بالغاً وأنَّهُ كان مرتداً أو مفسداً، وبسبب أعماله الفعلية فإنَّهُ مِن الجائز أن يُقتل.

وأمّا حديث الخضر عن جرائم الغلام المستقبلية، فإنَّهُ بذلك أراد أن يقول بأنّ جرائم هذا الغلام لا تقتصر على إفساده الراهن وجرائمه الحالية، بل سيقوم بالمستقبل بجرائم أكبر، لذا فإنَّ قتله طبقاً للموازين الشرعية وبسبب ما اقترفه من جرائم فعلية يكون جائزاً.

أمّا ما يخصّ الحادثة الثّالثة، فلا أحد يستطيع أن يعترض على الآخرين فيما لو قاموا بالتضحية والإيثار مِن أجل الآخرين، ومِن أجل أن لا تضيع أموالهم دون أن يتقاضوا أجراً على أعمالهم، وهو بالضبط ما قام بهِ الخضر، وقد لا تصل هذه الأفعال إلى حدّ الوجوب، إلاَّ أنّها تعتبر - حتماً - مِن السلوك الحسن.

بل قد يُقال مِن الوجهة الفقهية أنّ الإيثار والتضحية في بعض الموارد مِن الأُمور الواجبة، مثل أن تكون أموال كثيرة لطفل يتيم معرّضة للتلف، ويمكن المحافظة عليها بجهد قليل فلا يستبعد وجوب بذل الجهد.

الطريق الثّاني: تتمّ فيه مناقشة بعض عناصر الاستدلال الفقهية التي وردت في الطريق الأوّل، فإذا كانت التوضيحات الآنفة مُقنعة فيما يخصّ الكنز والحائط، إلاَّ أنّها في قضية قتل الغلام لا تتلاءم مع ظاهر الآية، الذي اعتبر علّة قتل الغلام هو ما سيقوم بهِ مِن أعمال في المستقبل، وليسَ أعماله الفعلية.

أمّا الدليل الوارد حول خرق السفينة، فهو أيضاً لا يخلو من تأمل فهل نستطيع مثلاً - ومِن الوجهة الفقهية - أن نتلف جزءاً مِن أموال أو بيت شخص معيّن بدون علمه لإنقاذها مِن خطر ما، حتى لو علمنا وتيقّنا بأنَّهُ سيتمّ غصب تلك الأموال في المستقبل... تُرى هل يسمح الفقهاء بمثل هذا الحكم؟!

وعلى هذا الأساس يجب علينا أن نسلك طريقاً آخر:

الطريق الثّالث: إنَّ في هذا العالم ثمّة نظامان هما: «النظام التكويني، والنظام التشريعي»، وبالرغم مِن أنَّ هذين النظامين مُتناسقين فيما بينهما في الأصول الكليّة، ولكنّهما قد ينفصلان ويفترقان في الجزئيات.

على سبيل المثال، يقوم الله سبحانه وتعالى ومِن أجل اختبار العباد، بابتلائهم

بالخوف ونقص في الأموال والثمرات وموت الأعزّة وفقدانهم حتى يتبيّن الصابر مِن غيره تجاه هذه الحوادث والبلاءات.

والسؤال هنا هو: هل يستطيع أي فقيه أو حتى نبي أن يقوم بهذا العمل، أي ابتلاء العباد بنقص الأموال والثمرات وفقدان الأعزّة، وفقدان الأمن والاستقرار بهدف اختبار الناس وابتلائهم؟

ونرى أنَّ الله سبحانهُ وتعالى يقوم بتحذير وتربية بعض أنبيائه وعباده الصالحين، وذلك بابتلائهم بمصائب بسبب تركهم للأولى، مثل ما ابتلى بهِ يعقوب عليه السلام بسبب قلّة توجّهه إلى المساكين، أو ما ابتلى بهِ يونس عليه السلام بسبب تركه الأولى في بعض الأُمور ولو لفترة قصيرة فهل يا ترى يحق لأحد أن يقوم بهذه الأعمال بعنوان الجزاء والعقاب لهؤلاء الرسل الكرام والعباد الصالحين؟

ونرى أنَّ الله سبحانه وتعالى يقوم في بعض الأحيان، بسلب النعمة مِن الإنسان بسبب عدم شكره، كأن تغرق أمواله في البحر - مثلاً - ويخسر هذه الأموال، أو يُصاب بالمرض بسبب عدم شكره لربِّه على نعمة السلامة...

والسؤال هنا: هل يستطيع أحد مِن الناحية الفقهية والتشريعية أن يسلب النعمة مِن الآخرين، أو ينزل الضرر بسلامتهم وصحتهم بسبب عدم شكرهم وبدعوى ابتلائهم؟

إنَّ أمثال هذه الأُمور كثيرٌ للغاية، وهي تُظهر - بشكل عام - أنَّ عالَم الوجود، وخصوصاً خلق الإنسان، قد قام على النظام الأحسن، حيث وضعَ الله تعالى مجموعة مِن القوانين والمقررات التكوينية حتى يسلك الإنسان طريق التكامل، وعندما يتخلّف عنها فسيُصاب بردود فعل مُختلفة.

ولكنّا مِن وُجهة قوانين الشرع وضوابط الأحكام لا نستطيع أن نصنِّف الأُمور في إطار هذه القوانين التكوينية.

على سبيل المثال نرى أنّ الطبيب يستطيع أن يقطع إصبع شخص معيّن بحجّة عدم سراية السم إلى قلبه، ولكن هل يستطيع أي شخص أن يقطع إصبع شخص آخر بحجّة تربيته على الصبر أو عقاباً لهُ على كفرانه للنعم؟ (بالطبع الخالق يستطيع القيام بذلك حتماً لأنَّهُ يُلائم النظام الأحسن).

والآن بعد أن ثبت وتوضّح أنّ في العالم نظامين (تكويني وتشريعي)، وأنَّ الله هو الحاكم والمسيطر على هذين النظامين، لذا فلا مانع في أن يأمر تعالى مجموعة بأن

تطبّق النظام التشريعي، بينما يأمر مجموعة مِن الملائكة أو بعض البشر (كالخضر مثلاً) بأن يطّبقوا النظام التكويني.

ومِن وجهة النظام التكويني لا يوجد أي مانع في أن يبتلي الله طفلاً غير بالغ بحادثة معيّنة، ثمّ يموت ذلك الطفل بسبب هذه الحادثة، وذلك لعلم الله تعالى بأنَّ أخطاراً كبيرة كامنة لهذا الطفل في المستقبل كما أنَّ وجود مثل هؤلاء الأشخاص وبقاءهم يتمّ لمصلحة معيّنة كالامتحان والابتلاء وغير ذلك.

وأيضاً لا مانع في أن يبتليني الله اليوم بمرض صعب يقعدني الفراش لعلمه تعالى بأنَّ خروجي مِن البيت لو تمّ فسأتعرّض لحادثة خطيرة لا أستحقّها، لذا فهو تعالى يمنعني مِنها.

بعبارة أُخرى: إنَّ مجموعة مِن أوليائه وعباده مكلّفون في هذا العالم بالبواطن، بينما المجموعة الأُخرى مكلّفون بالظواهر، والمكلّفون بالبواطن لهم ضوابط وأصول وبرامج خاصّة بهم، مثلما للمكلّفين بالظواهر ضوابطهم وأصولهم الخاصّة بهم أيضاً.

صحيح أنَّ الخط العام لهذين البرنامجين يوصل الإنسان إلى الكمال؛ وصحيح أنَّ البرنامجين متناسقين مِن حيث القواعد الكليّة، إلاَّ أنّهما يفترقان في التفاصيل والجزئيات كما لاحظنا ذلك في الأمثلة.

بالطبع لا يستطيع أحد أن يعمل كما يحلو له ضمن هذين الخطين، بل يجب أن يحصل على إجازة المالك القادر الحكيم الخالق جلَّ وعلا، لذا رأينا الخضر (العالم الكبير) يوضّح هذه الحقيقة بصراحة قائلاً: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ بل إنّي خطوت الخطوات وفقاً للبرنامج الإلهي والضوابط التي كانت موضوعة لي.

وهكذا سيزول التعارض والتضاد وتنتفي الأسئلة والمشكلات المثارة حول مواقف الخضر في الحوادث الثلاث.

وسبب عدم تحمّل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأعمال الخضر يعود إلى مهمّة موسى التي كانت تختلف عن مهمّة الخضر في العالم، لذا فقد كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يبادر إلى الاعتراض على مواقف الخضر المخالفة لضوابط الشريعة بينما كان الخضر مستمراً في الطريق ببرود، لأنَّ وظيفة كل مِن هذين المبعوثين الإلهيين تختلف عن وظيفة الآخر ودوره المرسوم لهُ إلهيّاً، لذلك لم يستطيعا العيش سويّة، لذا قال الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾.

٢ - مَن هو الخضر؟

لقد رأينا القرآن الكريم يتحدَّث عن العالم مِن دون أن يسمّيه بالخضر وقد عبَّر عن معلّم موسى عليه السلام بقوله: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ والآية توضّح المقام الخاص للعبودية والعلم والمعرفة، لذا فإنّنا غالباً ما نصفه بالرجل العالم.

أمّا الرّوايات الإسلامية وفي مختلف مصادرها عرَّفت هذا الرجل باسم (الخضر) ومِن بعض هذه الرّوايات نستفيد بأنَّ اسمه الحقيقي كان (بليا بن ملكان) أمّا الخضر فهو لقب له، حيث إنَّهُ أينما كان يَطأ الأرض فإنَّ الأرض كانت تخضر تحت قدميه.

البعض احتمل أنَّ اسم الرجل العالم هذا هو (إلياس) ومن هنا ظهرت فكرة أنّ الياس والخضر هما اسمان لشخص واحد.

ولكنّ المشهور المعروف بين المفسّرين والرواة هو الأوّل.

وطبيعي أن نقول: إنَّ اسم الرجل العالم أيّاً كان فهو غير مهم لا لمضمون القصّة ولا لقصدها، إذ المهم أن نعرف أنَّهُ كان عالماً إلهيّاً، شملتُه الرحمة الإلهيّة الخاصّة، وكان مُكلّفاً بالباطن والنظام التكويني للعالم، ويعرف بعض الأسرار، وكان معلّم موسى بن عمران بالرغم مِن أنَّ موسى عليه السلام كانَ أفضل مِنهُ مِن بعض الجوانب.

وهناك أيضاً آراء وروايات مُختلفة فيما إذا كان الخضر نبيّاً أم لا؟

ففي المجلد الأوّل مِن أصول الكافي وردت روايات عديدة تدل على أنَّ هذا الرجل لم يكن نبيّاً، بل كان عالماً مِثل (ذوالقرنين) و(آصف بن برخيا)(١).

في حين نستفيد مِن روايات أُخرى أنَّهُ كان نبيّاً، وظاهر بعض الآيات أعلاه يدل على هذا المعنى، لأنّها تقول على لسانه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾. وفي مكان آخر قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾.

ونستفيد من روايات أُخرى أنَّ الخضر عمَّر طويلاً.

وهُنا قد يُطرح هذا السؤال: هل ذكرت قصّة موسى وهذا العالم الكبير في مصادر اليهود والمسيح؟

---

(١) أصول الكافي، ج الأوّل، باب «إنّ الأئمّة بمن يشبهون ممّن مضى»، ص ٢١٠.

في الجواب نقول: إذا كان المقصود هو كتب العَهدين (التوراة والإنجيل) فإنَّ ذلك غير مذكور فيهما، أمّا بعض كتب علماء اليهود التي تمَّ تدوينها في القرن الحادي عشر الميلادي، ففيها قصّة تشبه إلى حدٍّ كبير حادثة موسى عليه السلام وعالم زمانه، بالرغم مِن أنّها تذكر أنَّ أبطال تلك القصّة هما (إلياس) و(يوشع بن لاوي) وهما مِن مفسّري (التلمود) في القرن الثّالث الميلادي، وتختلف مِن خلال عدّة أُمور عن قصّة موسى والخضر، والقصّة هذه هي:

«وهو (أي يوشع) يطلب من الله أن يلقى الياس، وبمجرّد أن يستجاب دعاؤه ويحظى بلقاء الياس فإنَّه يرجوه أن يطلعه على بعض الأسرار، فيجيبه الياس: إنّك لا طاقة لك على تحمّل ذلك، إلاّ أنّ يوشع يصرّ ويلحّ في طلبه فيستجيب له الياس مشترطاً عليه أن لا يسأل عن أيّ شيء يراه، وإذا تخلّف يوشع عن هذا الشرط فإنَّ الياس حرّ في الانفصال عنه وتركه، وعلى أساس هذا الاتّفاق يترافق يوشع والياس في السفر.

وأثناء سفرهما يدخلان إلى بيت فيستقبلهما صاحب البيت أحرّ استقبال ويكرم وفادهما، وكان لأهل ذلك البيت بقرة هي كلّ ما يملكون من حطام الدنيا حيث كانوا يوفّرون لأنفسهم لقمة العيش من بيع لبنها، فيأمر الياس صاحب البيت أن يذبح تلك البقرة، ويستولي على يوشع العجب والاستغراب من هذا التصرّف ويدفعه ذلك لأن يسأله عن المبرّر لهذا الفعل، فيذكّره الياس بما اتّفقا عليه ويهدّده بمفارقته له فيصمت يوشع ولا ينبس بكلمة.

ومن هناك يواصلان سفرهما إلى قرية أُخرى فيدخلان إلى بيت شخص ثريّ وينهض الياس إلى جدار في ذلك البيت يشرف على السقوط فيرمّمه ويقيمه، وفي قرية أُخرى يواجهان عدداً من سكان تلك القرية مجتمعين في مكان معيّن ولا يعيرون هذين الشخصين بالاً ولا يواجهونهما باحترام. فيقوم الياس بالدعاء لهم أن يصلوا جميعاً إلى الرئاسة، وفي قرية رابعة يواجههما سكّانها باحترام فائق فيدعو لهم الياس بأن يصل شخص واحد منهم فحسب إلى الرئاسة، وبالتالي فإنّ يوشع بن لاوي لا يطيق الصبر فيسأل عن الوقائع الأربع، ويجيبه الياس: بأنّه في البيت الأوّل كانت زوجة ربّ الدار مريضة ولو أنَّ تلك البقرة لم تذبح بعنوان الصدقة فإنّ تلك المرأة تموت ويصاب صاحب الدار بخسارة أفدح من الخسارة التي تلحقه نتيجة لذبح البقرة، وفي البيت الثّاني كان هناك كنز ينبغي الاحتفاظ به لطفل يتيم، وأمّا إنَّهُ قد دعوت لأهل القرية الثّالثة

بأن يصلوا إلى الرئاسة جميعاً فذلك لكي تضطرب أُمورهم ويختلّ النظام عندهم، على العكس من أهل القرية الرّابعة فإنّهم إذا أسندوا زمام أُمورهم إلى شخص واحد فإنّ أُمورهم سوف تنتظم وتسير على ما يرام»[1].

ويجب ألاّ نتوهّم بأنّ القصّتين هما قصّة واحدة، بل إنّ غرضنا الإشارة إلى أنّ القصّة التي يذكرها علماء اليهود يمكن أن تكون قصّة مُشابهة أو محرّفة لما حصل أصلاً لموسى عليه السلام والخضر، وقد تغيّرت بسبب طول الزمان وأصبحت على هذا الشكل.

٣ - الأساطير الموضوعة

إنّ الأساس في قصّة موسى والخضر عليهما السلام هو ما ذكر في القرآن، ولكن مع الأسف هناك أساطير كثيرة قيلت حول القصّة وحول رمزيها (موسى والخضر) حتى أنّ بعض الإضافات تعطي للقصّة طابعاً خرافياً، وينبغي أن نعرف أنّ مصير كثير مِن القصص لم يختلف عن مصير هذه القصّة، إذ لم تنجُ قصّة مِن الوضع والتحريف والتقوُّل.

مقياسنا في واقعية القصّة هو أن نضع الآيات الثلاث والعشرون أعلاه كمعيار أمامنا، وحتى بالنسبة للأحاديث والرّوايات فإنّنا نقبلها في حال كونها مُطابقة للآيات، فإذا كان هُناك حديث لا يطابق الآيات فسنرفضه حتماً ومن حسن الحظ لم يرد في هذه الأحاديث حديث معتبر.

٤ - هل يمكن أن يُصاب الأنبياء بالنسيان؟

لقد واجهتنا - أعلاه، ولعدّة مرّات - قضية نسيان موسى عليه السلام ، فمرّة في قضية تلك السمكة المعدَّة لطعامهم؛ وثلاث مرّات أُخرى خلال الحوادث الثلاث التي وقعت عندَ مُرافقته للخضر، حينما نسي تعهّده!

إذن، نحنُ أمام هذا السؤال: هل يقع النسيان بالنسبة للأنبياء؟

البعض يعتقد بصدور ووقوع مثل هذا النسيان بالنسبة للأنبياء، لأنَّهُ لا يرتبط بأساس دعوة النّبوة ولا بفروعها ولا بتبليغ الدعوة، بل يقع في قضية عادية تخصّ الحياة اليومية، فالمسَلَّم به أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يُصاب بالنسيان في أصل دعوة النّبوة، ولا يخطئ أو يشتبه في التبليغ، حيث إنّ عناية الله تعصمهُ في مثل هذه الأُمور.

---

(١) ما ورد أعلاه منقول عن كتاب (أعلام القرآن)، ص ٢١٣.

ولكن ما المانع أن ينسى موسى عليه السلام طعامه، خصوصاً وأنّ هذا النسيان أمر طبيعي عندما يكون موسى مُتوجّهاً بحواسه في البحث عن الرجل العالم؟

ثمّ ما المانع مِن أن يُصاب بالهيجان بحيث ينسى العهد الذي قطعهُ مع صاحبه العالم، وذلك عندما شاهد هذه الحوادث العظيمة التي مرَّت به كقتل الفتى وخرق السفينة وبناء الجدار في مدينة البخلاء؟

إنَّ موارد النسيان هذه لا تتعارض مع مقام العصمة، ولا هي مستبعدة عن أيّ نبي.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون النسيان هنا بمعنى مجازي، ويعني الترك، لأنَّ الإنسان عندما يترك شيئاً فهو كمن قد نسيه؛ أمّا لماذا ترك موسى طعامه، فقد يعود ذلك إلى عدم اهتمامه بمثل هذا الأمر، وفيما يتعلّق بتعهّده اتجاه صاحبهِ العالم، فذاك منهُ لأنَّهُ كان ينظر إلى ظواهر الأُمور، إذ مِن غير المألوف أن يعرّض أحد أرواح وأموال الناس إلى الضرر، فضلاً عن أن يكون ذلك الشخص هو العالم الكبير، لذا فإنَّ موسى عليه السلام كان يعتبر نفسهُ مُكلّفاً بالاعتراض، وكان يعتقد بأنَّ هذا الأمر لا يُقيَّد بالتعهّد.

لكن مِن الواضح أنَّ هذه التفاسير والآراء لا تتسق مع ظواهر الآيات.

٥ - لماذا ذهب موسى لرؤية الخضر؟

في حديث عن ابن عباس قال: أخبرني أبي بن كعب قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا.

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم مِنك.

قال موسى: يا ربّ فكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتاً...»[1] إلخ الرّواية حيثُ أرشد تعالى نبيّه موسى للوصول إلى الرجل العالم.

كما روي ما يشابه هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام [2].

إنَّ مفاد هذه الواقعة هو تحذير لموسى عليه السلام حتى لا يعتبر نفسه - برغم علمه ومعرفته - أفضل الأشخاص.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٨١. (٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٧٥.

ولكن هنا يثار هذا السؤال: ألا يجب أن يكون النّبي - وهو هنا مِن أولي العزم وصاحب رسالة - أعلم أهل زمانه؟

في معرض الجواب نقول: نعم، ينبغي أن يكون أعلم فيما يتعلّق بمهمّته، يعني الأعلم بالنظام التشريعي، وموسى عليه السلام كان كذلك، أمّا الرجل العالِم (الخضر) فهو كما قلنا سابقاً، كانت لهُ مهمّة تختلف عن مهمّة موسى عليه السلام ولا ترتبط بعالم التشريع. بعبارة أُخرى: إنَّ الرجل العالم كان يعرف مِن الأسرار ما لا تعتمد عليه دعوة النّبوة.

وفي حديث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «كان موسى أعلم مِن الخضر»[1]. أي أعلم مِنهُ في علم الشرع.

وهنا نلاحظ أنَّ هذه الشبهة وقضية نسيان موسى عليه السلام هما اللتان دفعتا البعض إلى القول أنَّ موسى المذكور في القصّة ليسَ هو موسى بن عمران، بل هو شخص آخر. لكن مع حلّ هاتين المشكلتين لا يبقى مجال لهذا الكلام.

وفي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام نرى إشارة صريحة إلى أنّ مهمّة ووظيفة كلّ مِن موسى والخضر كانت تختلف عن الآخر، فقد كتب أحدهم إلى الإمام الرضا عليه السلام يسأله عن العالم الذي أتاه موسى، أيّهما كان أعلم؟ فكان ممّا أجاب به الإمام قوله عليه السلام: «أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة مِن جزائر البحر إمّا جالساً وإمّا مُتكئاً فسلَّم عليه موسى، فأنكر السلام، إذ كانت الأرض ليسَ بها سلام. قال: مَن أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً؟ قال: نعم، قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني ممّا علمت رشداً. قال: إنّي وكلت بأمر لا تطيقه، وَوُكِلتَ بأمر لا أطيقه»[2].

وَمِن المناسب هُنا أن نختم هذه الفقرة بما رواه صاحب «الدر المنثور» عن الحاكم النيسابوري مِن أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لمّا لقي موسى الخضر، جاء طير فألقى منقاره في الماء، فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلاّ كما أخذ مِنقاري مِن الماء»[3].

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٥٦.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٨٠. والميزان، ج ١٣، ص ٣٥٦.
(٣) تفسير الدر المنثور ومصادر أُخرى طبقاً لما نقله صاحب الميزان في ج ١٣، ص ٣٥٦، ذيل الآية مورد البحث.

٦ - ماذا كان الكنز؟

مِن الأسئلة التي تُثار حول هذه القصّة، هي عن ماهية الكنز الوارد في الآية، ماذا كان؟ ولماذا كان صاحب موسى يصر على إخفائه؟ ولماذا قام الرجل المؤمن، يعني أب الأيتام بتجميع هذا الكنز وإخفائه؟

يرى بعض المفسّرين أنّ الكنز يرمز إلى شيء معنوي، قبل أن يكون لهُ مفهوم مادي.

إذ إنَّ هذا الكنز - طبقاً لروايات عديدة تُنقل مِن طرق السنّة والشيعة - لم يكن سوى لوح منقوش عليه مجموعة مِن الحِكم.

أمّا ما هي هذه الحِكم؟ فثمّة كلام كثير للمفسّرين في ذلك.

ففي كتاب الكافي نقلاً عن الإمام حيث قال في جوابه على سؤال يتعلّق بماهية الكنز: «أمّا إنَّهُ ما كان ذهباً ولا فضة، وإنّما كان أربع كلمات: لا إله إلاَّ الله، مَن أيقن بالموت لم يضحك، ومَن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومَن أيقن بالقدر لم يخش إلاَّ الله»[1].

وفي روايات أُخرى، ورد أنَّ اللوح كان مِن ذهب. الظاهر أنّه ليس هُناك تعارض بين الاثنين، لأنَّ هدف الرّواية الأُولى أن تبيّن أنَّ الكنز لم يكن دراهم ودنانير.

ولو فرضنا أنّنا التزمنا المعنى الظاهر لكلمة كنز، وفسّرناه على أنَّهُ كمّية مِن الذهب، فإنّنا لا نواجه مُشكلة أيضاً، لأنّ الكنز المحرّم شرعاً هو أن يقوم الإنسان بتجميع وادّخار أموال وثروة كبيرة لمدّة طويلة في حين أنّ المجتمع بحاجة إليها، ولكن لو قام أحد الأشخاص بدفن ماله ليوم أو عدّة أيّام (كما هو المتعارف في الأزمنة السابقة بسبب عدم الأمن) ثمّ توفي هذا الشخص بسبب حادثة، فلا يوجد أيّ إشكال في مثل هذا الكنز.

٧ - دروس هذه القصّة

هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها مِن القصّة، ويمكن لنا أن ندرجها كما يلي:

أ: أهمية العثور على قائد عالِم والاستفادة مِن علمه، بحيث رأينا أنَّ نبيّاً مِن أُولي العزم مِثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه، وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفي أيّ عمر كانوا.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٨٧.

ب: جوهرة العلم الإلهي تنبع مِن العبودية لله تعالى، كما قرأنا في الآيات أعلاه في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

ج: يجب تعلّم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي علمني عملاً يقرّبني مِن هدفي ومقصدي، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الاستعجال في الأعمال، إذ العديد مِن الأُمور تحتاج إلى الفرص المناسبة (الأُمور مرهونة بأوقاتها) خاصّة في القضايا المهمّة، ولهذا السبب، فإنَّ الرجل العالم قد ذكر سرّ أعماله لموسى في الفرصة المناسبة.

هـ -: الظاهر والباطن مِن المسائل المهمّة الأُخرى التي نتعلّمها مِن القصّة، إذ يجب علينا أن لا نصدر أحكاماً سريعة تجاه الحوادث التي تقع في مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا، إذ ما أكثر الحوادثِ التي نكرهها، ولكن يتّضح بعد مدّة أنَّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع مِن الألطاف الخفيّة الإلهيّة، والقرآن يصرّح بمضمون هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

إنَّ المستفاد مِن هذه القضية أن لا يُصاب الإنسان باليأس عندما تهجم عليه الحوادث، وفي هذا الصدد نقرأ في حديث طريف ينقلهُ عبد الله بن المحدّث والفقيه المعروف زرارة بن أعين، ويقول فيه عبد الله: قالَ لي أبو عبد الله عليه السلام: «اقرأ مِني على والدك السلام، وقل له: إنّي إنّما أعيبك دفاعاً مِنّي عنك، فإنَّ الناس والعدوّ يُسارعون إلى كلّ مَن قرّبناه وحمدنا مكانه لإدخال الأذى في مَن نحبّه ونقرّبه، ويرمونه لمحبتنا لهُ وقربه ودنوه مِنّا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل مَن عبناه نحن، فإنّما أعيبك لأنّك رجلٌ اشتهرت مِنّا، وبميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عندَ الناس غير محمود الأثر بمودّتك لنا ولميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك مِنّا دافع شرّهم عنك. يقول الله عزّوجلّ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ هذا التنزيل مِن عند الله، لا والله ما عابها إلا لكي تسلم مِن الملك، ولا تعطب على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

يديه، ولقد كانت صالحة ليسَ للعيب فيها مساغ والحمد لله، فافهم المثل يرحمك الله، فإنّك والله أحبّ الناس إليّ، وأحبّ أصحاب أبي حياً وميتاً. فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وإن مِن ورائك ملكاً ظلوماً غصوباً يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد بحر الهدى ليأخذها غصباً، ثمّ يغصبها وأهلها، ورحمة الله عليك حياً ورحمته ورضوانه عليك ميتاً»(١).

و: مِن دروس القصّة الاعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما تخلّف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالِم، عرف أنَّهُ لا يستطيع الاستمرار معهُ في الصحبة، وبالرغم مِن أنَّ فراق هذا الأستاذ كان أمراً صعباً على موسى عليه السلام، إلاَّ أنَّهُ عليه السلام لم يُكابر وأنصف العالم بإعطائه الحق، وفارقه عن إخلاص بعد أنِ حصل على حقائق عظمية وكنوز معنوية كبيرة مِن هذه الصحبة القصيرة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره في اختبار نفسه، بحيث تتحوَّل حياته إلى مُختبر للأمور المستقبلية التي قد لا تحصل أبداً، اذ عليه عندما يختبر موضوعاً ما عدَّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الاختبار وأن يقتنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء

لقد تحمّل الخضر مسؤولية حماية الأبناء بالمقدار الذي كانَ يستطيعه، وذلك بسبب الأب الصالح المُلتزم، بمعنى أنَّ الابن يستطيع أن يسعد في ظل الإيمان وأمانة والتزام الأب، وإنَّ نتيجة العمل الصالح الذي يلتزمه الأب تعود على الابن أيضاً.

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنَّ ذلك الرجل الصالح لم يكن الأب المباشر لليتامى، بل هو مِن أجدادهم البعيدين جدّاً، (وهكذا يكون للعمل الصالح تأثيره)(٢). وإنَّ مِن علائم صلاح هذا الأب هو ما تركهُ مِن الكنوز المعنوية، ومِن الحِكَمْ لأبنائه.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين

عندما يطال الموت الابن بسبب ما يلحقه مِن أذى بوالديه في مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به مِن أذىً وطغيان وكفر، قد يحرفهم عن الطريق الإلهي، كما رأينا ذلك في القصّة التي بين أيدينا، فإنَّ الرّوايات الإسلامية تربط بين قصر العمر وترك صلة الرحم

---

(١) معجم رجال الحديث، ج ٧، ص ٢٢٦.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٨٩.

(وبالأخص أذيّة الوالدين وعقوقهما) وقد أشرنا إلى بعضها في نهاية الحديث عن الآية ٢٣ مِن سورة الإسراء.

وينبغي هنا أن نستوعب الدرس على صعيد هذا الجانب مِن القصّة، إذا كانَ الولد يُقتل لما يلحقه بأبويه مِن ضرر وأذى في مستقبل حياته، تُرى فما حال الذي يمارس الأذى فعلاً بحق والديه ويرهقهما بالعقوق؟

ط: الناس أعداء ما جهلوا.

قد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلاَّ أنّنا نتصوره عدوّاً لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الأُمور، ونتسرّع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والأُمور التي نجهلها ولا نحيط بأسبابها علماً. مِن الطبيعي أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علماً مِن الأحداث والقضايا، إلاَّ أنَّ الدرس المستفاد مِن القصّة هو أن لانتسرّع في إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التي نحيط مِن خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ففي حديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، نقرأ قوله عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا»[(١)]، لذا فإنّه كُلّما يرتفع الوعي لدى الإنسان فإنَّ تعامله يكون أكثر منطقية، وبعبارة أُخرى إنَّ أساس الصبر هو الوعي.

وكان لانزعاج موسى عليه السلام - بالطبع - ما يبرّره، إذ كانَ يرى تجاوزاً عن حدود الشرع في الأحداث التي وقعت على يد صاحبه بحيث تعرّض القسم الأعظم للشريعة إلى الخطر، ففي الحادثة الأُولى تعرّضت مصونية أموال الناس إلى الخطر؛ وفي الثّانية تعرّضت أرواحهم إلى خطر، أمّا في الثّالثة، فكان اعتراضه ينصب على ضرورة التعامل المنطقي معَ حقوق الناس، لذلك فقد اعترض ونسي عهده الذي قطعه لصاحبه العالم، ولكن ما إن اطّلعَ على بواطن الأُمور هدأ وكفَّ عن الاعتراض. وهذا الأمر يدل على أنَّ عدم الاطلاع هو أمرٌ مقلق بحدّ ذاته.

ي: أدب التلميذ والأستاذ

ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأستاذ ظهرت في مقاطع الحديث بين موسى عليه السلام والرجل الرّباني العالم، فمن ذلك مثلاً:

(١) نهج البلاغة - الحكمة رقم ٤٣٨. والكلمات القصار، الكلمة ١٧٢.

١ - اعتبار موسى عليه السلام نفسه تابعاً للخضر قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾.

٢ - لقد أعلن موسى عليه السلام هذا الاتباع على شكل استئذان فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

٣ - اقراره عليه السلام بعلم أستاذه وبحاجته للتعلّم فقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

٤ - وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيراً، وهو يطلب جانباً مِن هذا العلم، فقال: ﴿مِمَّا﴾.

٥ - يصف علم أستاذه بأنَّهُ علم إلهي فيقول: ﴿عُلِّمْتَ﴾.

٦ - يطلب مِن أستاذه الهداية والرشاد فقال عليه السلام: ﴿رُشْدًا﴾.

٧ - يقول لأستاذه بشكل لطيف وخفي، بأنَّ الله قد تلطّف عليك وعلّمك، فتلطّف أنت عليَّ، حيث قال عليه السلام: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

٨ - إنَّ جملة ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ تكشف حقيقة أن يكون التلميذ في طلب الأستاذ، وفي اتباعه، إذ ليسَ مِن وظيفة الأستاذ اتباع تلميذه إلاَّ في حالات وموارد خاصّة.

٩ - بالرغم من أنّ موسى كان يتمتع بمنصب كبير (حيث كان نبيّاً مِن أولي العزم وصاحب رسالة وكتاب) إلاَّ أنَّهُ تواضع، وهذا يعني أنّك ومهما كنت وفي أيّ مقام أصبحت، يجب عليك أن تتواضع في مقام طلب العلم والمعرفة.

١٠ - إنَّ موسى عليه السلام لم يذكر عبارة جازمة في معرض تعهّده لأستاذه، بل قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ وهذه الصيغة في التعبير مملوءة أدباً إزاء الخالق جلَّ وعلا، واتجاه الأستاذ أيضاً، حتى إذا تخلّف عنها لا يكون ثمّة نوع مِن هتك الحرمة إزاء الأستاذ.

وضروري أن نذكر في خاتمة هذا الحديث أنَّ العالِم الرباني قد استخدم إزاء موسى عليه السلام مُنتهى الحلم في مقام التعليم والتربية، فعندما كان موسى عليه السلام ينسى تعهّده وتثور ثائرته ويعترض عليه، يجيبه الأستاذ بهدوء وبرود، ولكن على شكل استفهام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ

رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ
وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

التّفسير

قصّة «ذي القرنين» العجيبة:

قُلنا في بداية حديثنا عن أصحاب الكهف: إنَّ مجموعة مِن قريش قرَّرت اختبار الرّسول الأكرم ﷺ، وقامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا هي: تأريخ الفتية مِن أصحاب الكهف.

السؤال عن ماهية الروح، أمّا القضية الثّالثة فقد كانت حول «ذو القرنين».

وفي القرآن، جاءَ الردّ على قضية الروح في سورة الإسراء، أمّا الإجابة على السؤالين الآخرين فقد جاءت في سورة الكهف.

ونحنُ الآن بصدد ذكر قصّة «ذي القرنين»:

وأشرنا سابقاً إلى أنَّ سورة الكهف أشارت إلى ثلاث قصص تختلف في الظاهر عن بعضها، ولكنّها تشترك في جوانب معيّنة، والقصص الثلاث هي قصّة أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وقصّة «ذو القرنين».

إنَّ في القصص الثلاث هذه مضامين تنقلنا مِن حياتنا العادية إلى أفق آخر، يكشف لنا أنَّ العالم في حقائقه وأسراره لا يُحَدُّ فيما ألفناه مِنهُ، وفيما يحيطنا مِنهُ، واعتدنا عليه.

إنَّ قصّة «ذو القرنين» تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة والباحثين منذ القدم. وقد بُذلت جهود ومساعٍ كثيرة للتعرُّف على هذه الشخصية.

وسنقوم أوّلاً بتفسير الآيات الست عشرة الخاصّة بذي القرنين حيث إنّ حياته مع قطع النظر عن جوانبها التاريخية بمثابة درس كبير ومليء بالعبر، ثمّ ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصية ذي القرنين نفسه مستفيدين في ذلك مِن الرّوايات الإسلامية، وممّا أشار إليه المؤرّخون في هذا الصدد.

بتعبير آخر: إنَّ ما يهمنا أوّلاً هو الحديث عن شخصية ذي القرنين، وهو ما فعلهُ القرآن، حيث يقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

فيكون الجواب على لسان الرّسول المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

ولأنَّ «السين» في ﴿سَأَتْلُوا۟﴾ تستخدم عادة للمستقبل القريب، والرّسول هنا يتحدَّث مُباشرة إليهم عن ذي القرنين، فمن المحتمل أن يكون ذلك مِنهُ ﷺ احتراماً ومراعاة للأدب؛ الأدب الممزوج بالهدوء والتروي، الأدب الذي يعني استلهامه للعلم مِن الله تبارك وتعالى، ونقلهُ إلى الناس.

إنَّ بداية الآية تبيّن لنا أنَّ قصّة «ذو القرنين» كانت متداولة ومعروفة بين الناس، ولكنّها كانت محاطة بالغموض والإبهام، لهذا السبب طالبوا الرّسول الأكرم ﷺ الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

وفي استئناف الحديث عن ذي القرنين يقول تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أي منحناه سُبل القوّة والقدرة والحكم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾.

بالرغم من أنّ مفهوم (السبب) يعني الحبل المستخدم في تسلُّق النخيل، إلاّ أنّ بعض المفسّرين يحصره في الوسائل المستخدمة في إنجاز الأعمال، إلاّ أنَّ الواضح مِن مفهوم الآية أنَّ الكلمة المذكورة يُراد مِنها معناها ومفهومها الواسع، حيث إنَّ الله تبارك وتعالى منحَ «ذو القرنين» أسباب الوصول لكلّ الأشياء: العقل، العلم الكافي، الإدارة السليمة، القوّة والقدرة، الجيوش والقوى البشرية، بالإضافة إلى الإمكانات المادية، أي إنَّهُ مُنحَ كلّ الأسباب والسبُل المادية والمعنوية الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

ثمّ يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذي القرنين مِن هذه الأسباب والسبل فيقول: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

ثمّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾.

فرأى أنّها تغرب في بحر غامق أو عين ذات ماء آسن: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[1].

(١) ﴿حَمِئَةٍ﴾ تعني في الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة؛ أو الماء الآسن الموجود في المستنقعات. وهذا الوصف يُبيّن لنا بأنَّ الأرض التي بلغها «ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معهُ بأنَّ الشمس كانت تغرب في هذه المستنقعات، تماماً كما يشعر بذلك مسافر البحر، وسكّان السواحل الذين يشعرون بأنَّ الشمس قد غابت في البحر أو خرجت مِنهُ!.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي مجموعة من الناس فيهم الصالح والطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب الله ذا القرنين في شأنهم: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾(١).

ويرى بعض المفسّرين في كلمة ﴿قُلْنَا﴾ دليلاً على نبوّة ذي القرنين، ولكن مِن المحتمل أن يكون المقصود بهذا التعبير هو الإلهام القلبي الذي يمنحهُ الخالق جلَّ وعلا لغير الأنبياء أيضاً، هذا وليسَ بالإمكان انكار أنَّ التعبير الآنف الذكر يشير بالفعل إلى معنى النّبوة.

بعد ذلك تحكي الآيات جواب ذي القرنين الذي قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾(٢). أي إنَّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوي والأخروي معاً.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

أي أنّنا سنتعامل معهُ بالقول الحسن، فضلاً عن أنّنا سنخفف عنهُ ولا نجعلهُ يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبي مِنهُ ضرائب كثيرة.

والظاهر أنَّ ذا القرنين أراد مِن ذلك أنّ الناس سينقسمون مقابل دعوتي إلى التوحيد والإيمان والنهي عن الظلم والفساد إلى مجموعتين، الأُولى: هي المجموعة التي سترحّب ببرنامجه الإلهي ودعوته للتوحيد والإيمان وهذه ستجزى بالحسنى وستعيش حياة آمنة ومطمئنة. أمّا الثّانية: فستتخذ موقفاً عدائياً مِن دعوة ذي القرنين وتقف في الجبهة المناوئة، وتستمر في شركها وظلمها، وتواصل فسادها. وهي لذلك ستعاقب نتيجة موقفها هذا أشدّ العقاب.

وبمقارنة قوله: ﴿مَن ظَلَمَ﴾ وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يتبيّن لنا أنَّ الظلم يعني هنا الشرك والعمل غير الصالح الذي يُعدُّ مِن ثمار شجرة الشرك المشؤومة.

وعندما انتهى «ذو القرنين» مِن سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيثُ يقول القرآن في ذلك: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي استخدم الوسائل والإمكانات التي كانت بحوزته.

---

(١) يظهر أنّ جملة ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ . . .﴾ إستفهامية بالرغم من أنَّ ظاهرها جملة خبرية.

(٢) «نكر» مُشتقة مِن «مُنكر» بمعنى الشيء المجهول؛ أي العذاب المجهول الذي لم يمكن تصوره.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾. وهنا رأى أنّها: ﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾. وفي اللفظ كناية عن أنَّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّاً، ولا يملكون سوى القليل مِن الملابس التي لا تكفي لتغطية أبدانهم مِن الشمس.

أمّا بعض المفسّرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التي تحميهم مِن الشمس(١).

وهناك احتمال آخر يطرحه البعض، ويرى أن يكون هؤلاء القوم في أرض صحراوية تفتقر للجبال والأشجار والملاجىء، وأن ليسَ في تلك الصحراء ما يمكّن هؤلاء القوم مِن حماية أنفسهم مِن الشمس مِن غطاء أو غير ذلك(٢).

بالطبع ليسَ هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾. هكذا كانت أعمال «ذي القرنين» ونحن نعلم جيّداً بإمكاناته.

بعض المفسّرين قال: إنَّ هذه الآية تُشير إلى الهداية الإلهيّة لذي القرنين في برامجه ومساعيه(٣).

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ
يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ
لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي
بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ
قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ
أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي
جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾

---

(١) أشارت بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى التّفسير الأوّل، فيما أشارت روايات أُخرى إلى التّفسير الثّاني. وليسَ ثمّة تناقض بين الاثنين (يراجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣٠٦).
(٢) التفسير في ظلال القرآن، والفخر الرازي ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٩١.

التّفسير

كيف تمّ بناء سد ذي القرنين؟

الآيات أعلاه تشير إلى سفرة أُخرى مِن أسفار ذي القرنين حيثُ تقول: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

أي بعد هذه الحادثة استفاد مِن الوسائل المهمّة التي كانت تحت تصرّفه ومضى في سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

والآية تشير إلى أنّهُ وَصَل إلى مَنطقة جبلية، وهناك وَجدَ أُناساً (غير المجموعتين اللتين عثر عليهما في الشرق والغرب) كانوا على مستوى دان مِن المدنيّة، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدُّن لدى البشر.

البعض احتمل أنَّ جملة ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا تعني أنّهم لم يكونوا يعرفون اللغات، بل كانوا لا يفهمون محتوى الكلام، أي كانوا مُتخلّفين فكريّاً.

أمّا عن مكان الجبل والجوانب التأريخية والجغرافية لهذه الحادثة، فسنذكر في نهاية البحث التّفسيري، حديثاً مفصّلاً عن ذلك.

في هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذي القرنين، لأنّهم كانوا في عذاب شديد مِن قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منهُ قائلين: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

قد يكون كلامهم هذا تمَّ عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنّهم لا يفهمون لغة ذي القرنين، أو أنّهم تحدّثوا معهُ بعبارات ناقصة لا يمكن الاعتداد بها.

ويحتمل أن يكون التفاهم بينهم تمَّ عن طريق المترجمين، أو بأُسلوب الإلهام الإلهي، مثل تحدّث بعض الطيور مع سليمان عليه السلام.

في كل الأحوال، يمكن أن نستفيد مِن الآية الشريفة أنَّ تلك المجموعة مِن الناس كانت ذات وضع جيِّد مِن حيث الإمكانات الاقتصادية، إلاّ أنّهم كانوا ضعفاء في المجال الصناعي والفكري والتخطيطي، لذا فقد تقبّلوا بتكاليف بناء هذا السدِّ المهم، بشرط أن يتكفّل ذو القرنين ببنائه وهندسته.

وفيما يخص يأجوج ومأجوج سنتحدّث عنهم في نهاية هذا البحث إن شاء الله.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، وإنّي لا أحتاج إلى مساعدتكم المالية وإنّما: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

كلمة «ردم» على وزن «طرد» وهي في الأصل تعني ملء الشق بالأحجار، إلاّ أنّها فيما بعد أخذت معنىً واسعاً بحيث شملَ كلّ سدّ، بل وشمل حتى ترقيع الملابس.

يعتقد بعض المفسّرين أنَّ كلمة «ردم» تقال للسدّ القوي(١)، ووفقاً لهذا التّفسير فإنَّ ذا القرنين قد وعدهم بأكثر ممّا كانوا ينتظرونه.

كما أنّه يجب الانتباه إلى أنَّ «سد» على وزن «قد»، و«سُدّ» على وزن «قفل» هما بمعنى واحد، وهو الحائل الذي يفصل بين شيئين، إلاّ أنَّ البعض - كما يقول الراغب - وضع فرقاً بين الاثنين، فالأوّل هو مِن صناعة الإنسان، والثّاني هو الحائل الطبيعي.

ثمّ أمر ذو القرنين فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾.

﴿زُبَرَ﴾ جمع «زُبرة» على وزن (غُرفة)، وتعني القطع الكبيرة والضخمة مِن الحديد.

وعندما تهيّأت قطع الحديد أعطى أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطّي بين الجبلين بشكل كامل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾.

«صدف» تعني هنا حافة الجبل، ويتّضح مِن هذا التعبير أنَّ هناك شقّاً بين حافتي الجبل حيث كانَ يأجوج ومأجوج يدخلان منه، وقد صمم ذو القرنين ملء هذا الشق.

الأمر الثّالث لذي القرنين هو طلبه مِنهم أن يجلبوا الحطب وما شابههُ، ووضعهُ على جانبي هذا السد، وأشعل النار فيه ثمّ أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرَّ الحديد مِن شدّة النّار: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾.

لقد كان يهدف ذو القرنين مِن ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدّاً من قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذي يُقام به اليوم في ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لي النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

(١) «الآلوسي» في «روح المعاني»، والفيض الكاشاني في تفسير «الصافي»، والفخر الرازي في «التّفسير الكبير».

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السدّ الحديدي بطبقة من النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء ويُحفظ مِن التآكل.

بعض المفسّرين قالوا: إنَّ العلم المعاصر أثبت أنَّهُ عند إضافة مقدار مِن النحاس إلى الحديد فإنَّ ذلك سيزيد مِن مقدار مقاومته، ولأنَّ «ذا القرنين» كان عالماً بهذه الحقيقة فقد أقدم على تنفيذه.

إنَّ المشهور في معنى «قطر» هو ما قلناه (أي النحاس المذاب)، إلاَّ أنّ بعض المفسّرين فسَّر ذلك بـ«الخارصين المذاب» وهو خلاف المتعارف.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر مِن القوّة والإحكام بحيث: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[1].

لقد كان عمل ذي القرنين عظيماً ومهمّاً، وكانَ لهُ وفقاً لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهى بهِ أو يمنّ به، إلاَّ أنَّهُ قال بأدب كامل: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ لأنَّ أخلاقهُ كانت أخلاقاً إلهيّة.

إنَّهُ أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنَّ كلّ ذلك إنّما كانَ مِن قبل الخالق جلَّ وعلا، وإذا كُنت أملك قابلية الكلام والحديث المؤثّر فذلك أيضاً مِن الخالق جلَّ وعلا.

وإذا كانت مثل هذه الوسائل والأفكار في اختياري فإنَّ ذلك مِن بركة الله ورحمة الخالق الواسعة.

أراد ذو القرنين أن يقول: إنّني لا أملك شيئاً مِن عندي كي أفتخر به، ولم أعمل عملاً مهمّاً كي أَمُنّ على عباد الله.

ثمّ استطرد قائلاً: لا تظنوا أنَّ هذا السد سيكون أبدياً وخالداً: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

لقد أشار «ذو القرنين» في كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

لكن بعض المفسّرين اعتبر الوعد الإلهي إشارة إلى التقدّم العلمي للبشر والذي بواسطته لا يبقى معنىً لسد غير قابل للاختراق والعبور، فالطائرات وما شابهها تستطيع أن تعبر جميع هذه الموانع، ولكن هذا التّفسير بعيد حسب الظاهر.

---

(١) «اسطاعوا» كان في الأصل «استطاعوا» وحذف حرف التاء من باب الاستفعال.

بحوث

أوّلاً: الملاحظات التربوية في هذه القصّة التاريخية

سنبحث فيما بعد - إن شاء الله - ما يتعلّق بذي القرنين؛ مَن هو؟ وكيف تمّ سفره للشرق والغرب؛ وأين كان السد الذي أنشأه؟ وغير ذلك، ولكن بصرف النظر عن الجوانب التاريخية، فإنَّ القصّة بشكل عام تحوي على دروس تربوية كثيرة من الضروري الالتفات إليها والإفادة مِنها، وفي الواقع أنّها هي الهدف القرآني مِن إيرادها. ويمكن تلخيص هذه الدروس بالشكل الآتي:

١ - إنَّ أوّل درس تعلّمنا إيّاه أنَّ العمل الدنيوي لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنَّ الله تبارك وتعالى وهَب الوسائل والأسباب لتقدم وانتصار ذي القرنين في عمله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾. وفي نفس الوقت استفاد «ذو القرنين» مِن هذه الأسباب والوسائل بأفضل وجه ممكن: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

لذلك فإنَّ مَن يظن أنَّهُ سيحصل على النصر مِن دون تهيئة أسبابه ومقدماته، فإنَّهُ لا يصل إلى مرامه حتى لو كان ذا القرنين نفسه!

٢ - بالرغم مِن أنَّ غروب الشمس في عين من ماء آسن سببهُ خطأ في الباصرة واشتباه مِنها، إلاَّ أنَّ المعنى الذي نلمحهُ مِن هذا المثال هو إمكان تغطية الشمس مع عظمتها بالعين الآسنة ومثلها في ذلك مثل ذلك الإنسان العظيم الذي يسقط وينهار بسبب خطأ واحد فتغرب شخصيته من أنظار الناس.

٣ - لا تستطيع أي حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذي اعتمد عليه ذو القرنين حيثُ قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ... ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨٨﴾﴾.

والإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بلور هذا المعنى في رسالته إلى مالك الأشتر والتي هي برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: «ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنَّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهلِ الإساءة على الإساءة»[1].

(١) نهج البلاغة، الرسالة رقم ٥٣.

٤ - التكليف الشاق والتصعُّب في الأُمور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كلّ هذه الأُمور لا تناسب الحكومة الإلهيّة العادلة أبداً، ولهذا السبب فإنَّ ذا القرنين بعد أن صرّح بمعاقبة الظالمين وتشويق الصالحين، أضاف: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ حتى يمكن إنجاز الأعمال عن شوق ورغبة.

٥ - الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت والاختلاف القائم في حياة الناس وتُراعي شرائط حياتهم المُختلفة، ولهذا السبب فإنَّ «ذا القرنين» صاحب الحكومة الإلهيّة والذي واجهته أقوام مُختلفة، كانَ يتعامل معَ كلّ مجموعة بما يُناسب حياتها الخاصّة، وبذلك كان الجميع منضوين تحت لوائه.

٦ - إنَّ «ذا القرنين» لم يستبعد حتى تلك المجموعة التي لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ بل إنَّهُ استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأيّ أُسلوب كان، وبنى لهم سدّاً محكماً بينهم وبين أعدائهم اللدودين ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ وقد قام بإنجاز أُمورهم بدون أن يفرّق بينهم (رغم أنَّهُ كان يظهر أنَّ مثل هؤلاء الناس عديمي الفهم لا ينفعون الحكومة بأيّ شيء).

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ قوله: «إسماع الأصم مِن غير تصغّر صدقة هنيئة»(١).

٧ - الأمن هو أوّل وأهم شرط مِن شروط الحياة الاجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمَّل «ذو القرنين» أصعب الأعمال وأشقّها لتأمين أمن القوم مِن أعدائهم، وقد استفاد مِن أقوى السدود وأمنعها الذي أصبح مضرب الأمثال في التاريخ ورمزاً للاستحكام والدوام والبقاء، حيث يقال للبناء القوي «إنّه مثل سدّ الاسكندر» بالرغم من أنّ «ذا القرنين» غير الاسكندر.

وعادةً لا يسعد المجتمع مِن دون قطع الطريق على المفسدين، ولهذا فإنَّ أوّل شيء طلبهُ إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة هو الأمن: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾(٢).

ولهذا السبب أيضاً فإنَّ الفقه الإسلامي وضع أقسى العقوبات للذين يعرّضون أمن المجتمع إلى الخطر (راجع في ذلك تفسير الآية ٣٣ مِن سورة المائدة).

٨ - الدرس الآخر الذي يمكن أن نتعلّمهُ مِن هذه القصّة، هو أنَّ أصحاب المشكلة

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، مادة «صمم».

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

الأصليين معنيون بالدرجة الأُولى في الاشتراك في الجهد المبذول لحلّ مُشكلتهم، لذا فإنّ «ذا القرنين» أعطى أمراً إلى الفئة التي اشتكت إليه أمر يأجوج ومأجوج بأن يجلبوا قطع الحديد، ثمّ أعطاهم الأمر بإشعال النار في أطراف السد لدمج القطع فيما بينها، ثمّ أمرهم بتهيئة النحاس المذاب، وعادة فإنّ العمل الذي يتمّ بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين في المشكلة يؤدّي إلى إظهار استعداداتهم ويعطي قيمة خاصّة للنتائج الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومِن ثمّ يحرص الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحمّلهم لمجهودات إنشائه.

كما يتّضح من هذه النقطة أنّ المجتمع المتخلّف والمتأخّر يستطيع أن يُنجز أعمالاً مهمّة وعظيمة إذا تمتّع ببرنامج صحيح وإدارة مُخلصة.

٩ - الزعيم الإلهي والقائد الرّباني لا يلتفت إلى الجزاء المادي والنفع المالي وإنّما يقتنع بما حباه الله، لذا رأينا «ذا القرنين» عندما اقترحوا عليه الأموال قال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وهذا النمط مِن السلوك يخالف أساليب السلاطين وولعهم العجيب بجمع الثروة والأموال.

وفي القرآن الكريم نقرأ مراراً في قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاءً لأعمالهم ودعواتهم.

ويمكن مُشاهدة هذاالموضوع في ١١ مورداً مِن القرآن الكريم، سواء ما يخص نبي الإسلام ﷺ أو الأنبياء السابقين، ففي بعض الأحيان يذكر القرآن تعبير: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. وفي أحيان أُخرى يضع القرآن محبّة أهل البيت عليهم السلام والذين هم ركن القيادة المستقبلية أساساً للجزاء فيقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

١٠ - إحكام الأُمور هو درسٌ آخر نستفيده مِن هذه القصّة، فذو القرنين استفاد مِن القطع الحديدية الكبرى في بناء السد، وقد وصلها بالنّار، ثمّ غطّاها بالنحاس المذاب كي تمتنع عن التلف والصدأ إذا تعرّضت للهواء والرطوبة.

١١ - مهما كان الإنسان قويّاً ومُتمكناً وصاحب قدرة واستطاعة في إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درسٌ آخر نتعلّمهُ مِن قصّة «ذي القرنين». فقد اعتمد في جميع شؤونه على قدرة الخالق جلَّ وعلا، وقال بعد إتمام السد: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

رَبِّي﴾. وعندما اقترحوا عليه المساعدة المالية قال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. وأخيراً عندما يتحدّث عن فناء هذا السد المحكم، فإنَّهُ لا ينسى أن ينسب موعد ذلك إلى الله تعالى.

١٢ - كلّ شي إلى زوال مهما كان محكماً وصلداً. هذا هو الدرس الأخير في هذه القصّة، وهو درس للذين يتمنّون أو يظنون خلود المال أو المنصب والجاه، إنَّ سد ذي القرنين أمر هيِّن قياساً إلى انطفاء الشمس وفناء الجبال الراسيات، إذاً فكيف بالإنسان المعرَّض للأضرار أكثر من غيره!؟

ألا يكفي التفكير بهذه الحقائق حافزاً على الوقوف بوجه الاستبداد؟

ثانياً: مَن هو ذو القرنين؟

ذكر المفسّرون كلاماً كثيراً عن شخصية ذي القرنين الواردة في القرآن الكريم، فمن هو؟ وعلى أيّ واحد من الشخصيات التاريخية المعروفة تنطبق أوصافه؟ ويمكن أن نرجع الآراء إلى ثلاث نظريات أساسية هي:

النظرية الأُولى: يرى البعض أنَّ «ذا القرنين» ليسَ سوى «الإسكندر المقدوني»، لذا فإنّهم يسمّونه «الإسكندر ذو القرنين» ويعتقد هؤلاء بأنَّهُ سيطر بعد وفاة أبيه على دول الروم والمغرب والمصر، وبنى مدينة الإسكندرية، ثمّ سيطر بعد ذلك على الشام وبيت المقدس، ثمّ ذهب مِن هناك إلى «أرمينيا»، وفتح العراق وبلاد فارس، ثمّ قصد الهند والصين، ومِن هناك رجع إلى خُراسان، وقد بنى مدناً كثيرة، ثمّ جاءَ إلى العراق ومَرِضَ في مدينة «زور» وتوفي فيها.

ويقول البعض: إنَّهُ لم يُعمِّر أكثر مِن ٣٦ سنة، أمّا جسده فقد ذهبوا بِهِ إلى الإسكندرية ودفنوه هناك[1].

النظرية الثّانية: ويرى جمع مِن المؤرخين أنَّ «ذا القرنين» كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمّون بـ«تبّع» وجمع ذلك «تبابعة») وقد دافع عن هذه النظرية «الأصمعي» في تأريخ العرب قبل الإسلام، و«ابن هشام» في تأريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و«أبو ريحان البيروني» في كتاب «الآثار الباقية».

---

(١) يمكن ملاحظة ذلك في تفسير الفخر الرازي، والكامل لابن الأثير (المجلد الأوّل، الصفحة ٢٨٧). ويعتقد البعض أنّ أوّل مَن قال بهذه النظرية هو الشيخ ابن سينا في كتابه الشفاء.

ويمكن لنا أن نلمح في شعر شعراء (الحميرية) وهم مِن أقوام اليمن، وبعضاً مِن شعراء الجاهلية تفاخراً بكونِ «ذي القرنين» مِن قومهم(١).

وفقاً لهذه النظرية يكون سد ذي القرنين هو سد «مأرب» المعروف.

النظرية الثّالثة: وهي أحدث النظريات في هذا المجال وردت عن المفكر الإسلامي المعروف (أبو الكلام آزاد) الذي شغل يوماً منصب وزير الثقافة في الهند. وقد أورد رأيه في كتاب حققه في هذا المجال.

وطبقاً لهذه النظرية فإنَّ ذا القرنين هو نفسه (كورش الكبير) الملك الأخميني.

أمّا النظريتان الأُولى والثّانية فإنّها لا تدعمها أدلة قويّة، ومضافاً إلى ذلك فإنّ صفات الإسكندر المقدوني أو ملوك اليمن لا تنطبق مع الصفات التي ذكرها القرآن لذي القرنين.

مِن ناحية ثالثة فإنَّ الإسكندر لم يبن سدّاً معروفاً. أمّا سد مأرب في اليمن فإنَّهُ لا يتطابق مع الصفات الواردة في سدّ «ذي القرنين» الذي بُني مِن الحديد والنحاس، وقد أُنشىء لصد هجوم الأقوام الهمجية، في حين أنَّ سد مأرب مُكوَّن مِن المواد العادية، ووظيفته خزن المياه ومنعها مِن الطغيان والفيضان، وقد ذكر القرآن شرحاً لذلك في سورة «سبأ».

لكلّ هذه الأسباب سنركّز البحث على النظرية الثّالثة، ونرى مِن الضروري - هنا - الانتباه بدقة إلى الأُمور التالية:

أ: لماذا سمي ذو القرنين بهذا الاسم؟

البعض يعتقد أنّ سبب التسمية تعود إلى وصوله للشرق والغرب، حيثُ يعبَّر العرب عن ذلك بقرني الشمس.

البعض الآخر يرى بأنَّهُ عاش قرنين أو أنَّهُ حَكَمَ قرنين، وأمّا ما مقدار القرن فهناك آراء مُختلفة في ذلك.

البعض الثّالث يقول: كان يوجد على طَرَفي رأسه بروز (قرن)، ولهذا السبب سُمّي بذي القرنين.

وأخيراً فإنَّ البعض يعتقد بأنَّ تاجهُ الخاص كان يحتوي على قرنين.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤١٤.

بالطبع هناك آراء أخرى في ذلك، إلاّ أنَّ ذكرها جميعاً يُطيل بنا المقام؛ وسوف نرى أنَّ مِبتكر النظرية الثّالثة (أبو الكلام آزاد) استفاد كثيراً مِن هذا اللقب لإثبات نظريته.

ب: لو لاحظنا بدقة في آيات القرآن الكريم لاستفدنا أنَّ ذا القرنين كانت لهُ صفات ممتازة هي:

* هيّأ لهُ الله جلَّ وعلا أسباب القوّة ومقدمات الانتصار، وجعلها تحت تصرّفه وفي متناول يده.

* لقد جهّز ثلاثة جيوش مهمّة: الأوّل إلى الغرب، والثّاني إلى الشرق؛ والثّالث إلى المنطقة التي تضمّ المضيق الجبلي، وفي كلّ هذه الأسفار كان لهُ تعامل خاص معَ الأقوام المختلفة حيث ورد تفصيل ذلك في الآيات السابقة.

* كان رجلاً مؤمناً تتجلى فيه صفات التوحيد والعطف، ولم ينحرف عن طريق العدل، ولهذا السبب فقد شملهُ اللطف الإلهي الخاص، إذ كان ناصراً للمحسنين وعدوّاً للظالمين، ولم يكن يرغب أو يطمع بمال الدنيا كثيراً.

* كان مؤمناً بالله وباليوم الآخر.

* لقد صنع واحداً مِن أهم وأقوى السدود، السدّ الذي استفاد لصنعه مِن الحديد والنحاس بدلاً مِن الطابوق والحجارة. (وإذا كانت هناك مواد أُخرى مستخدمة فيه، فهي لا تعتبر شيئاً بالقياس إلى الحديد والنحاس) أمّا هدفه مِن بنائه فقد تمثّل في مساعدة المستضعفين في قبال ظلم يأجوج ومأجوج.

* كان شخصاً مشهوراً بين مجموعة مِن الناس، وذلك قبل نزول القرآن، لذا فإنَّ قريشاً أو اليهود سألوا رسول الله ﷺ عنه، كما يصرّح بذلك الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

ولا يمكن الاستفادة بشيء مِن صريح القرآن للدلالة على أنَّهُ كان نبيّاً، بالرغم مِن وجود تعابير تُشعِر بهذا المعنى، كما مرَّ ذلك في تفسير الآيات السابقة.

ونقرأ في العديد مِن الرّوايات الإسلامية الواردة عن الرّسول ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام أنَّهُ: «لم يكن نبيّاً بل عبداً صالحاً»[1].

---

(١) يراجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٩٤ و٢٩٥.

ج: أساس القول في النظرية الثّالثة (في أنَّ ذا القرنين هو كورش الكبير) قائم على أصلين، هما:

الأصل الأوّل: وفق العديد مِن الرّوايات الواردة في سبب نزول هذه الآيات فإنَّ الذي سأل عن «ذي القرنين» هم قوم مِن اليهود، أو أنَّ قريشاً قامت بالأمر بتحريض مِن اليهود، لذا يجب العثور على أصل هذا الموضوع في كتب اليهود.

وَمِن الكتب المعروفة عند اليهود، هو كتاب «دانيال» حيث نقرأ في الفصل الثامن مِنهُ، ما يلي: «حينما ملك (بل شصّر) عرضت لي وأنا دانيال رؤيا بعد الرؤيا الأُولى التي شاهدتها، وذلك حينما كنت أسكن قصر (شوشان) في بلاد (عيلام) فقد رأيت وأنا في المنام بأنّي على مقربة مِن نهر (أولاي) وأنّ كبشاً يقف قرب النهر وكان لهُ قرنان طويلان، ووجدتهُ يضرب بقرنيه غرباً وشمالا وجنوباً، ولم يتقدّم أحد أمامه، ولأنَّهُ لم يكن يوجد أحد أمامه، لذا فإنَّهُ كان يتصرّف وفقاً لما يريد، وكان يكبر»(١).

وبعد ذلك نقل عن دانيال في هذا الكتاب قوله: «وقد تجلّى لهُ جبرائيل (أي لدانيال) وفسّر منامه هكذا: إنَّ الكبش ذا القرنين الذي رأيتهُ فإنَّهُ مِن ملوك المدائن وفارس (أو ملوك ماد وفارس).

لقد استبشر اليهود مِن رؤيا دانيال وعلموا بأنَّ فترة عبوديتهم ستنتهي مِن قبضة البابليين.

ولم تمض مُدَّة طويلة حتى ظهر (كورش) على مسرح الحكم في إيران ووحَّد بلاد (ماد وفارس) وشكَّل مِنهما مملكة كبيرة؛ وكما قالَ دانيال، فإنَّ الكبش كان يضرب بقرنه الغرب والشرق، فإنَّ كورشاً قامَ بالفتوحات الكبيرة في الجهات الثلاث، وحرَّر اليهود وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين.

والطريف ما نقرؤه في التوراة في كتاب «أشعيا» فصل ٤٤ رقم ٢٨: «ثمّ يقول بخصوص كورش: إنَّهُ كانَ راعياً عِندي (أي عند الرب) وسيقوم بتنفيذ مشيئتي».

يجب الانتباه إلى أنَّ وصف كورش ورد في بعض تعبيرات التوراة على أنَّهُ «عقاب المشرق» والرجل المدبّر الذي يأتي مِن مكان بعيد(٢).

الأصل الثّاني: لقد تمَّ العثور في القرن التاسع عشر الميلادي على تمثال لكورش في طول إنسان تقريباً، وذلك بالقرب مِن مدينة «اصطخر» بجوار نهر «المرغاب» ويظهر مِن

---

(١) كتاب دانيال، الفصل الثامن، الجمل ١ - ٤.

(٢) كتاب أشعيا، فصل ٤٦، رقم ١١.

هذا التمثال أنَّ لكورش جناحين مِن الجانبين يشبهان جناح العقاب، وعلى رأسه تاج يُشاهد فيه قرنان يشبهان قرنا الكبش.

فضلاً عمّا يطويه هذا التمثال مِن نموذج قيّم لفن النحت القديم، فقد جلب انتباه العلماء، حتى أنَّ مجموعة مِن العلماء الألمان سافروا إلى إيران لأجل رؤيته فقط.

عند تطبيق ما ورد في التوراة على مواصفات التمثال تبلور في ذهن العلاّمة (أبو الكلام آزاد) احتمال وجود اشتراك بين «ذي القرنين» وكورش، وأنَّ الأخير لم يكن سوى «ذي القرنين» نفسه. فتمثال كورش لهُ جناحان كجناحَيْ العُقاب، وهكذا توضّحت شخصية «ذي القرنين» التأريخية لمجموعة مِن العلماء.

وممّا يؤيّد هذه النظرية الأوصاف الأخلاقية المذكورة لكورش في التاريخ.

يقول «هرودوت»، المؤرخ اليوناني: لقد أعطى كورش أمراً إلى قوّاته بألاّ يضربوا بسيوفهم سوى المحاربين، وأن لا يقتلوا أي جندي للعدوّ إذا انحنى، وقد أطاع جيشهُ أوامره، بحيث إنَّ عامّة الناس لم تشعر بمصائب الحرب ومآسيها.

ويكتب عنهُ «هرودوت» أيضاً: لقد كان كورش ملكاً كريماً، وسخيّاً عطوفاً، ولم يكن مثل بقية الملوك في حرصهم على المال، بل كان حريصاً على إفشاء العدل، وكان يتسم بالعطاء والكرم، وكان ينصف المظلومين ويحب الخير.

ويقول مؤرّخ آخر هو (ذي نوفن): لقد كانَ كورش ملكاً عادلاً وعطوفاً، وقد اجتمعت فيه فضائل الحكماء، وشرف الملوك؛ فالهمّة الفائقة كانت تغلب على وجوده، وكان شعاره خدمة الإنسانية، وأخلاقه إفشاء العدل، كما أنَّ التواضع والسماحة كانا يغلبان الكبر والعجب في وجوده.

الطريف في الأمر أنَّ هؤلاء المؤرّخين الذين ذكروا كورش في الأوصاف الآنفة الذكر، كانوا مِن كُتّاب التاريخ الغرباء عن قوم كورش، ومِن غير أبناء وطنه، حيثُ كانوا مِن (اليونان)، والمعروف أنَّ أهل اليونان تعرّضوا لهزيمة منكرة على يد كورش عندما فتح «ليديا»!

ثمّ إنَّ أنصار هذا الرأي يقولون: إنَّ الأوصاف المذكورة في القرآن الكريم حول «ذي القرنين» تتطابق مع الأوصاف التأريخية لكورش.

والأهم من ذلك أنَّ كورشاً قد سافر أسفاراً نحو الشمال والشرق والغرب، وقد وردت قصّة هذه الأسفار مُفصَّلة في حياته، وهي تتطابق مع الأسفار الثلاثة لذي القرنين الوارد ذكرها في القرآن الكريم.

فأوّل جيش لهُ كانَ قد أرسله إلى بلاد «ليديا» الواقعة في شمال آسيا الصغرى، وهذه البلاد كانت تقع غرب مركز حكومة كورش.

وعندما نضع خارطة الساحل الغربي لآسيا الصغرى أمامنا، فسوف نرى أنَّ القسم الأعظم مِن الساحل يغرق في الخلجان الصغيرة وخاصةً قرب «أزمير» حيثُ يكون الخليج بشكل يشبه شكل العين. والقرآن يبيّن أنّ «ذا القرنين» في سفره نحو الغرب أحسَّ بأنَّ الشمس غرقت في عين مِن اللجن.

هذا المشهد، هو نفس المنظر الذي شاهده «كورش» حينما تطمس الشمس في الخلجان الساحلية لتبدو لعين الناظر وكأنّها غارقة في تلك الخلجان الساحلية.

أمّا الجيش الثّاني فقد كان باتجاه الشرق، وفي وصفه يقول المؤرخ «هرودوت»: إنَّ هذا الهجوم الكورشي في الشرق كانَ بعد فتح «ليديا» وخاصّة بعد عصيان بعض القبائل الهمجية التي أجبرت بعصيانها كورشاً على هذا الهجوم.

وتعبير القرآن الذي يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ هو إشارة إلى سفر «كورش» إلى أقصى الشرق حيث شاهدَ أنَّ الشمس تشرق على أناس لم يجعلوا لهم ما يظلّهم مِن حرّ الشمس، وهذه إشارة إلى أنَّ القوم كانوا مِن سكنة الصحارى الرحّل.

أمّا الجيش الثّالث فقد أرسله نحو الشمال باتجاه جبال القوقاز حيثُ وصلَ إلى المضيق المحصور بين الجبلين، وبنى هناك سدّاً محكماً بطلب من أهل المنطقة، لكي يتحصّنوا به عن هجمات القبائل الهمجية مِن قوم يأجوج ومأجوج.

المضيق يسمى في الوقت الحاضر مضيق «داريال» حيث يمكن مشاهدته في الخرائط المُنتشرة في الوقت الحاضر، ويقع بين «والادي كيوكز» و«تفليس» في نفس المكان الذي ما زال يظهر فيه حتى الآن الجدار الحديدي الأثري، والذي هو نفس السد الذي بناه «كورش»، إذ ثمّة تطابق واضح بينهُ وبين ما ذكر القرآن مِن صفات وخصائص لسدّ ذي القرنين.

هذه هي خلاصة الأدلة التي تدعم صحة النظرية الثّالثة حول شخصية «ذي القرنين»[1].

(١) لمزيد مِن التفاصيل يمكن مُراجعة كتاب «ذو القرنين أو كورش الكبير».

صحيح أنَّ ثمّة نقاطاً مُبهمة في هذه النظرية، إلاّ أنّها في الوقت الحاضر تعتبر أفضل النظريات في تشخيص شخصية «ذي القرنين» وتطبيق مواصفاتها القرآنية على الشخصيات التأريخية.

ثالثاً: أين يقع سد ذي القرنين؟

بالرغم من محاولة البعض المطابقة بين سدّ ذي القرنين وبين جدار الصين الذي لا يزال موجوداً ويبلغ طوله مئات الكيلومترات، إلاّ أنَّ الواضح أنَّ جدار الصين لا يَدخل في بنائه الحديد ولا النحاس، ومضافاً إلى ذلك لا يقع في مضيق جبلي ضيّق، بل هو جدار مبني مِن مواد البناء العادية ويبلغ طوله مئات الكيلومترات، وما زال موجوداً حتى الآن.

البعض يرى في سد ذي القرنين أنّه سد مأرب في اليمن، ولكن هذا السد برغم وقوعه في مضيق جبلي، إلاّ أنَّهُ أُنشىء لمنع السيل ولخزن المياه، ولم يدخل النحاس والحديد في بنائه.

ولكن بالاستناد إلى شهادة العلماء وأهل الخبرة فإنَّ السد - كما أشرنا لذلك قبل قليل - يقع في أرض القوقاز بين بحر الخزر والبحر الأسود، حيث توجد سلسلة جبلية كالجدار تفصل الشمال عن الجنوب، والمضيق الوحيد الذي يقع بين هذه الجبال الصخرية هو مضيق «داريال» المعروف، ويشاهد فيه جدار حديدي أثري حتى الآن، ولهذه المرجّحات يعتقد الكثيرون أنَّ سدّ «ذو القرنين» يقع في هذا المضيق، وأنَّ المتبقّي مِن مواصفات آثاره دليل مؤيّد لذلك.

الطريف في الأمر أنَّهُ يوجد نهر على مقربة من ذلك المكان يُسمى «سائرس» أي «كورش» إذ كان اليونان يسمّون كورش بـ(سائرس).

الكتابات الأرمنية القديمة كانت تطلق على هذا الجدار اسم «بهاك كورائي» والتي تعني «مضيق كورش» أو «معبر كورش» وهذا دليل آخر على أنَّ كورشاً هو الذي بنى السد(١).

رابعاً: مَن هم يأجوج ومأجوج؟

ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج في سورتين، إذ وردت المرّة الأُولى في الآيات التي نبحثها، والثّانية في سورة الأنبياء، الآية ٩٦.

---

(١) للمزيد مِن التفاصيل يراجع المصدرين السابقين.

الآيات القرآنية تؤيِّد بوضوح أنَّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكّان المناطق المحيطة بهم.

وفي كتاب «حزقيل» مِن التوراة، الفصل الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين، وفي كتاب رؤيا «يوحنا» الفصل العشرين، ذكرا بعنوان «كودك» و«ماكوك» التي تعني بعد التعريب يأجوج ومأجوج.

ويقول العلاّمة الطباطبائي، في تفسير الميزان: إنَّهُ يستفاد مِن مجموع ما ذكر في التوراة أنّ مأجوج أو يأجوج ومأجوج هم مجموعة أو مجاميع كبيرة كانت تقطن أقصى نقطة في شمال آسيا، وهم أناس محاربون يغيرون على الأماكن القريبة منهم(١).

البعض يعتقد أنَّ هاتين الكلمتين عبريّتين، ولكنّهما في الأصل انتقلتا مِن اليونانية إلى العبرية، إذ كانتا تلفظان في اليونانية بـ«كاك» و«ماكاك» ثمّ انتقلتا على هذا الشكل إلى كافّة اللغات الأوربية.

ثمّة أدلة تأريخية على أنَّ مَنطقة شمال شرقي الأرض في نواحي «مغولستان» كانت في الأزمنة السابقة كثيفة السكّان، إذ كانت الناس تتكاثر بسرعة، وبعد أن ازداد عددهم اتّجهوا نحو الشرق أو الجنوب، وسيطروا على هذه الأراضي وسكنوا فيها تدريجياً.

وقد وردت مقاطع تأريخية مُختلفة لحركة هؤلاء الأقوام وهجراتهم، وقد تمَّت واحدة مِن هذه الهجمات في القرن الرابع الميلادي، بقيادة «آتيلا» وقد قضت هذه الهجمة على حضارة الأمبراطورية الرومانية.

وكان آخر مقطع تأريخي لهجومهم في القرن الثّاني عشر الميلادي بقيادة جنگيز خان، حيث هاجم شرق البلاد الإسلامية ودمَّر العديد مِن المدن، وفي طليعتها مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وفي عصر كورش في حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد قامت هذه الأقوام بعدّة هجمات، لكن موقف حكومة «ماد وفارس» إزاءهم أدّى إلى تغيير الأوضاع واستتباب الهدوء في آسيا الغربية التي نجت مِن حملات هذه القبائل.

وبهذا يظهر أنَّ يأجوج ومأجوج هُم مِن هذه القبائل الوحشية، حيث طلب أهل القفقاز مِن «كورش» عند سفره إليهم أن ينقذهم مِن هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم على تأسيس السد المعروف بسدّ ذي القرنين(٢).

---

(١) يلاحظ ج ١٣، مِن تفسير الميزان، ص ٤١١.

(٢) لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب (ذو القرنين أو كورش الكبير).

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

التّفسير

عاقبة الكافرين

لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج ومأجوج وانهدامه عند البعث، وهذه الآيات تستمر في قضايا القيامة، فتقول أوّلاً: إنّنا سنترك في ذلك اليوم - الذي ينتهي فيه العالم - بعضهم يموج ببعض: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾.

إنَّ استخدام كلمة ﴿يَمُوجُ﴾ إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس في تلك الواقعة، وشبيه لهُ ما نقوله مِن أنَّ الناس في القضية الفلانية يموجون، كناية عن كثرتهم، أو بسبب الاضطراب والخوف الذي يصيب الناس في ذلك اليوم، وكأنّما أجسادهم تهتز كأمواج الماء.

طبعاً لا يوجد تناقض بين المعنيين، ويمكن أن يشمل تعبير الآية كلا الحالتين.

بعد ذلك تضيف الآيات: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ وبلا شك فإنَّ كافّة الناس سيجمعون في تلك الساحة ولن يستثنى مِنهم أحد، وتعبير ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة.

مِن مجموع الآيات نستفيد أنَّ ثمّة تحوّلان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم وبداية العالم الجديد:

الأوّل: فناء الموجودات والناس بشكل آني.

والثّاني: إحياء الموتى بشكل آني أيضاً.

ولا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، ولكنَّ القرآن يُعبّر عن هذين التحوّلين بعنوان: (نفخ الصور)، وسنشرح ما يراد من ذلك في نهاية الآية ٦٨ مِن سورة الزمر إن شاء الله.

وهناك رواية ينقلها «أصبغ بن نباتة» عن الإمام الصادق عليه السلام، يبيّن فيها عليه السلام أنَّ

المقصود مِن قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ هو يوم القيامة(١).

وقد يتصوّر البعض أنّ هناك تعارضاً بين الرّواية وبين ما ذكرناه أعلاه في تفسير الآية، حيث قلنا: إنّها تعني مرحلة فناء الدنيا، كما يظهر مِن الآيات التي تسبقها والتي تليها، لكن هذا التعارض سيزول إذا التفتنا إلى ملاحظة وهي أنَّهُ يتمّ استخدام يوم القيامة في بعض الأحيان بمعناه الواسع الذي يشتمل على المقدمات (أي مقدمات القيامة) ونحن نعرف: أنّ الفناء السريع للدنيا هو أحد المقدمات.

ثمّ تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضّح عاقبة أعمالهم، والصفات التي تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

إنَّ جهنَّم ستظهر لهم، وتتّضح لهم الأنواع المختلفة مِن عذابها، وهذا هو بحدّ ذاته عذاب أليم موجع، فكيف إذا ولجوها!؟

ولكن مَن هُم الكافرون؟ ولماذا يُصابون بمثل هذه العاقبة؟

الآية تعرِّف هؤلاء بجملة قصيرة واحدة بقولها: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ وبالرغم من أنّهم يمتلكون آذاناً، إلاّ أنّهم يفقدون القدرة على السماع: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

فهؤلاء أسقطوا في الواقع أهم وسيلة لمعرفة الحق وإدراكه، وأهملوا الوسيلة الهامّة في شقاء أو سعادة الإنسان، يعني أنَّهم غطّوا أعينهم وأسماعهم بحجاب وستار بسبب أفكارهم الخاطئة وتعصّبهم وحقدهم وصفاتهم القبيحة الأُخرى.

الطريف في الأمر أنَّ الآية تقول فيما يخصّ العين: إنّها كانت مُغطّاة وبعيدة عن ذكري، وهذه إشارة إلى أنهم لم يستطيعوا أن يشاهدوا آثار الخالق جلَّ وعلا، لأنّهم كانوا في ستار وحجاب مِن الغفلة، ولأنّهم لم يشاهدوا الحقائق فقد اختلقوا الأساطير ونسوا الله.

نعم، إنَّ الحق واضح، وكلّ شيء في هذا الوجود يتحدّث مع الإنسان، والمطلوب أن تكون للإنسان عين تنظر وأذن تسمع!

بعبارة أُخرى: إنَّ ذكر الله ليسَ شيئاً يُمكن رؤيته بالعين، فما يشاهد هو آثاره، إلاَّ أنَّ آثاره هي التي تذكّر الإنسان بخالقه.

---

(١) تفسير العياشي، نقلاً عن الميزان ذيل الآية مورد البحث.

الآية التي بعدها تشير إلى نقطة انحراف فكريّة لدى هؤلاء هي أصل انحرافاتهم الأُخرى، فتقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾.

هل يملك هؤلاء المعبودون - كالمسيح والملائكة - شيئاً للدفاع عن الآخرين بالرغم مِن مكانتهم العالية، أو أنَّ الأمر بالعكس إذ كلّ ما عندَ هؤلاء هو مِن الله، وأنّهم أنفسهم يحتاجون إلى هدايته؟

إنّ هذه حقيقة واضحة، ولكنَّ هؤلاء تناسوها وتورّطوا في شراك الشرك.

في ختام الآية وللمزيد مِن التأكيد، تقول الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

«نزل» على وزن «رُسل» بمعنى الإقامة، وتعني أيضاً الشيء الذي يُهَيَّأ لتقديمه للضيوف، وذهب البعض إلى أنّ هذه الكلمة تطلق على أوّل شيء يقدّم للضيف عند وروده كالفواكه والشراب.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)﴾

التّفسير

أخسر الناس

هذه الآيات والآيات اللاحقة - إلى نهاية السورة المباركة - في الوقت الذي تتحدّث فيه عن صفات غير المؤمنين، فإنّها تُعتبر نوعاً مِن التلخيص لكافّة البحوث التي وردت في هذه السورة، خاصةً البحوث المتعلّقة بقصّة أصحاب الكهف وموسى والخضر وذي القرنين، وما بذلوه مِن جهود إزاء معارضيهم.

فالآيات تكشف أوّلاً عن أخسر الناس، ولكنّها - بهدف إثارة حب الاستطلاع لدى المستمع إزاء هذه القضية - تعمد إلى إثارتها على شكل سؤال مُوجّه إلى رسول الله ﷺ، فتقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

ثمّ يأتي الجواب بدون أي توقف حتى لا يبقى المستمع في حيرة، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح وحسب، بل إنَّ الخسران الواقعي هو خسران أصل رأس المال، وهل هناك رأس مال أربح وأفضل وأحسن مِن العقل والذكاء والطاقات الإلهيّة الموهوبة للإنسان مِن عمر وشباب وصحة؟

إنَّ نتاج كلّ هذه المواهب هي أعمال الإنسان، وأعمال الإنسان هي في الواقع انعكاس وتجسيد لطاقاتنا وقدراتنا.

عندما تتحوَّل هذه الطاقات إلى أعمال مخرّبة أو غير هادفة، فكأنّها قد فنيت أو ضاعت، فهي كمثل الإنسان الذي يحمل ثروة عظيمة معهُ، ولكنَّهُ أثناء ذهابه إلى السوق يفقد هذه الثروة ويعود بيد خالية.

وقد لا يكون الخسران خسراناً خطيراً عندما يتعلّم الإنسان مِن فقدان الثروة دروساً كبيرة قد تكون في قيمتها مُساوية للثروة التي فقدها، أو أكثر قيمة مِنها في بعضِ الأحيان، فكأنّه لم يخسر شيئاً.

إلاّ أنَّ الخسران الحقيقي والمضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادي والمعنوي في مسالك خاطئة ومجالات منحرفة ويظن أنَّهُ أحسن العمل، فهو في هذه الحالة لم يحصل على ثمرة لعمله، وفي نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكرِّر العمل.

الجميل هنا، إنَّ القرآن الكريم استخدم تعبير ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ في حين أنّ المفروض هو القول: «الأخسرين عملاً» (لأنَّ التمييز مفرد عادة) ولكن لعلّ هذه الصياغة القرآنية بسبب أنّهم لم يخسروا في عمل معيّن، بل إنَّ جهلهم المركب كانَ سبباً للخسران في جميع البرامج الحياتية وفي جميع أعمالهم.

بعبارة أُخرى: إنَّ الإنسان قد يربح في تجارة معيّنة ويخسر في أُخرى، إلاّ أنَّ المحصّلة في نهاية السنة هي أنَّهُ لا توجد خسارة كبيرة، ولكن مِن سوء حظّ الإنسان أن يخسر في جميع الأعمال التي اشترك فيها.

استخدام كلمة «ضلّ» لعلّه إشارة إلى هذه الحقيقة؛ وهي أنَّ أعمال الإنسان لاتفنى في هذا العالم بأيّ صورة مِن الصور، كما أنَّ المادة والطاقة تتبدّل وتتغيّر ولكنّها لا تفنى، ولكن قد تختفي أحياناً، لأنَّهُ لا يمكن مشاهدة آثارها بالعين، ولايمكن الاستفادة

مِنها بأيّ شكل مِن الأشكال ومثلها في ذلك مثل رأس المال الضائع والذي لا هو في حوزتنا فنستفيد مِنهُ، ولا هو فانٍ.

أمّا لماذا يُصاب الإنسان نفسياً بمثل هذه الحالات؟ فهو أمرٌ سنبحث فيه مفصّلا في فقرة البحوث.

الآيات الأُخرى تذكر صفات ومعتقدات هذه المجموعة مِن الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التي تكون أساساً في مصائبهم فتقول: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾. إنّهم كفروا بالآيات التي تفتح الأبصار والمسامع؛ الآيات التي ترفع حُجب الغرور وتجسّد الحقائق أمام الإنسان، وأخيراً فإنّها آيات النور والضياء التي تخرج الإنسان مِن ظُلمات الأوهام والتصوّرات الخاطئة وترشده إلى عالم الحقائق.

ثمّ إنّهم بعد ذلك نسوا الله وكفروا بالمعاد وبلقاء الله ﴿وَلِقَائِهِ﴾.

نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، وما لم يحس الإنسان بأنَّ هناك قوّة تراقب أعماله وتحتفظ بكلّ شيء إلى لحظة انعقاد المحكمة الكبيرة الدقيقة والقاسية، فإنَّ الإنسان سوف لا يعير أهمّية إلى أعماله وسوف لا يصلح نفسه.

ثمّ تضيف الآية أنّهم بسبب مِن كفرهم بالمبدأ والمعاد فإنَّ أعمالهم قد حبطت وضاعت: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾. وغدت تماماً كالرماد في مقابل العاصفة الهوجاء.

ولأنّهم لا يملكون عملاً قيّماً ثميناً لذا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

لأنَّ الوزن يخصّ الأُمور الموجودة، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئاً مِن الأعمال، ولذلك ليسَ لهم وزن ولا قيمة؟ وفي إطار بيان جزاء هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب في انحراف وخسران هؤلاء، وهو الاستهزاء بما أنزل الله فتقول: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[1].

وبذلك فإنَّ هؤلاء انتهوا إلى إنكار الأصول الأساسية الثلاثة في الاعتقاد الديني (المبدأ، والمعاد، ورسالة الأنبياء) والأكثر مِن الإنكار أنّهم استهزؤوا بهذه الأُمور!

والآن بعد أن عرفنا علامات الكفار والأخسرين أعمالاً، وبعد أن انكشفت عاقبة

(١) هناك كلام بين المفسّرين حول تركيب جملة ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ فالبعض اعتبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ خبراً و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدلاً، في حين أنّ البعض الآخر اعتبر أنَّ المبتدأ محذوف و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر له، و﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ لخبر آخر تقديره: الأمر ذلك جزاؤهم جهنم. إلاّ أنّه يظهر أنَّ الرأي الأوّل أكثر تناسباً من غيره.

أعمالهم، تتوجّه الآيات إلى المؤمنين فتبيّن عاقبتهم، وبمقايسة بين الاثنين نستطيع تشخيص كلّ طرف بشكل كامل. تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ بقول كبار المفسّرين (البستان) الذي يشتمل على كلّ النعم والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين في الجنّة.

وبما أنَّ كمال النعم بدوامها وأن لا تطالها يد الزوال، لذا فإنَّ الآية تقول بلا فصل: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

وبالرغم مِن أنَّ طبع الإنسان قائم على التغيُّر والتنوّع، إلاَّ أنَّ سكّان الجنّة لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبداً: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾. ذلك لأنّهم يجدون كلّ ما يطلبون حتى التنوّع والتكامل كما سيأتي شرح ذلك.

بحوث

١ - مَن هم الأخسرون أعمالاً؟

نلاحظ في حياتنا وحياة الآخرين، أنَّ الإنسان عندما يقوم بعمل خاطىء ويعتقد أنَّهُ صحيح، فإنَّ جهلهُ المركب هذا لا يدوم أكثر مِن لحظة أو موقف أو حتى سنة، أمّا أن يدوم على امتداد عمره فذلك هو سوء الحظ وهو الخسران المبين.

لهذا وجدنا القرآن الكريم يسمّي مثل هؤلاء الأشخاص بالأخسرين، لأنَّ الذي يرتكب الذنب وهو يعلم بذلك، فإنَّهُ سيضع حدّاً لما هو فيه ويعوّض عن الذنب بالتوبة والعمل الصالح، أمّا أُولئك الذين يظنون أنّ ذنوبهم عبادة وأعمالهم السّيئة أعمالاً صالحة، وانحرافهم استقامة، فإنَّ مثل هؤلاء لا يستطيعون التعويض عن ذنوبهم، بل يستمرون فيما هُم فيه إلى نقطة النهاية، فيكونون كما عبَّر عنهم القرآن: ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾.

وفي الرّوايات والأحاديث الإسلامية تفاسير مُتعدِّدة للأخسرين أعمالاً، وإنَّ كلّ واحد مِنها إشارة إلى أحد المصاديق الواضحة لهذا المفهوم الواسع مِن دون أن تحدّده، ففي حديث «أصبغ بن نباتة» أنّه سأل الإمام علي عليه السلام عن تفسير الآية، فقال الإمام: «كَفَرَة أهل الكتاب، اليهود والنصارى، وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنّهم يحسبون صنعاً»(١).

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣١١ - ٣١٢.

وفي حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أيضاً، قوله بعد ذكر الجواب الآنف: «وما أهل النهر مِنهم ببعيد» يعني عليه السلام الخوارج(١).

وفي حديث ثالث هنا إشارة خاصّة إلى الرهبان (الرجال والنساء الذين يتركون الدنيا) والمجاميع التي ابتدعت البدع مِن المسلمين(٢).

وهناك قسم مِن الرّوايات تفسّر الآية بـ (الذين يُنكرون ولاية أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام)(٣).

أليسَ الرهبان الذين يعيشون كلّ عمرهم في زاوية مِن الزوايا (في الدير مثلاً) ويعانون أنواع الحرمان، ويمتنعون عن الزواج والأكل والملابس الجيّدة، ويفضّلون سُكنى الدير على كلّ شيء وهم يظنون أنَّ هذه الحياة تقرّبهم إلى الله، أليسَ هؤلاء مصداقاً واضحاً للأخسرين أعمالاً؟!

هل هُناك مذهب أو دين إلهي يمكن أن يدعو إلى خلاف قانون العقل والفطرة، أي يدعو الإنسان الاجتماعي إلى الابتعاد عن الحياة، ويعتبر هذا العمل مصدراً للتقرّب إلى الله تعالى؟!

إنَّ الذين أوجدوا البدع في دين الله من قبيل التثليث في مقابل توحيد الله الواحد الأحد، واعتبروا المسيح ابن مريم ابن الله، وأدخلوا خرافات أُخرى في دين الله، ظنّاً مِنهم بأنّهم يُحسنون صُنعاً، أليسَ هؤلاء وأمثالهم هم أخسر الناس؟!

ألا يُعتبر خوارج «النهروان» مِن أخسر الناس، وهم المجموعة الجاهلة التي ارتكبت أعظم الذنوب (مثل قتل الإمام علي عليه السلام) ظنّاً مِنهم أنَّ هذا الأمر سيقرّبهم مِن الله، بل واعتبروا أنَّ الجنّة مخصوصة لهم؟!

الخلاصة: إنَّ الآية لها مفهوم واسع، إذ تشمل أقواماً كثيرين في السابق والحاضر والمستقبل.

والآن نصل إلى هذا السؤال: ما هو مصدر هذا الانحراف الخطير؟

إنَّ التعصّب القوي والغرور والتكبّر وحب الذات، هي مِن أهم العوامل التي تقود إلى مثل هذه التصوّرات الخاطئة، وفي بعض الأحيان يكون التملّق، أو الانطواء على النفس لفترة معيّنة سبباً لظهور هذه الحالة، حيث يتصوّر الإنسان أنَّ كلّ أعماله الخاطئة

(١-٣) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٣١١ - ٣١٢.

المنحرفة هي أعمال جميلة، بحيث يشعر بالفخر والغرور والمباهاة بدلاً مِن الإحساس بالخجل والشعور بالعار بسبب أعماله القبيحة. يقول القرآن في مكان آخر واصفاً هذه الحالة: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾(١) وفي آيات أُخرى، نقرأ أنَّ الشيطان هو الذي يُزيِّن للإنسان سيئاته حسنات، ويمنّيهم بالغلبة والنصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾(٢).

ويقول القرآن بعد قصّة برج فرعون المعروف: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. والآية تعليق على عمل فرعون عندما طلب مِن هامان أن يبني لهُ برجاً لِيطّلع بزعمه إلى إله موسى كما في الآية ٣٧ مِن سورة غافر.

٢ - ماذا يعني لقاء الله؟

بالرغم مِن أنَّ بعض أشباه العلماء يستفيدون مِن أمثال هذه الآيات إمكانية رؤية الخالق جلَّ وعلا في العالم الآخر، ويفسّرون لقاء الله باللقاء الحسي، إلاَّ أنَّهُ مِن المعلوم بداهة أنَّ اللقاء الحسي يقتضي تجسيم الخالق جلَّ وعلا، والتجسيم يقتضي التحديد والحاجة، والمحدود المحتاج يكون قابلاً للفناء، والكلّ يعرف ويؤمن بأنَّ هذه الصفات لا تنطبق على الله تعالى.

لذا فإنَّ القصد مِن اللقاء أو الرؤيا في الآيات القرآنية ليسَ الرؤية الحسّية، بل الرؤية الباطنية المعنوية.

يعني أنَّ الإنسان في يوم القيامة يُشاهد آثار الخالق أكثر وأفضل مِن أي زمان، لذا فإنَّهُ ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعي البصير، لهذا السبب - ووفقاً للآيات القرآنية - فإنَّهُ حتى أشد الناس إنكاراً للخالق وأكثرهم عناداً، سوف يقر يوم القيامة بوجود الخالق، وأنّه لا مجال لإنكاره(٣).

بعض المفسّرين اعتبر هذا المفهوم (لقاء الله) مشاهدة النعم والثواب، وأيضاً العذاب والعقاب الإلهي وفي ذلك تكون كلمة الثواب والعقاب مقدّرة في الآية.

وبالرغم من أنّ هذين التّفسيرين لا تعارض بينهما، إلاَّ أنَّ التّفسير الأوّل يبدو أظهر وأوضح.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨. (٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

(٣) يمكن مراجعة سورة المؤمنون، الآية ١٠٦ فما فوق.

٣ - وزن الأعمال

ليسَ لنا حاجة إلى أن نفسّر قضية وزن الأعمال عن طريق تجسيم الأعمال والقول بأنَّ عمل الإنسان سيتحوَّل هناك إلى جسم وله وزن، ذلك لأنَّ الوزن لهُ معنى واسع يشمل أيّة مقايسة، فمثلاً نقول للأشخاص عديمي الشخصية أنّهم أشخاص لا وزن لهم، أو أنّهم أشخاص خفيفون، ونعني بذلك ضعف شخصيتهم وليسَ القلّة في وزنهم الجسمي.

والجميل هنا أنَّ الآية تصف الأخسرين أعمالاً بأنّنا لم نضع لهم يوم القيامة ميزاناً للقياس. ولكن هل تتعارض هذه الآية مع قوله تعالى في الآية ٨ مِن سورة الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾؟

طبعاً لا، لأنَّ الوزن يخصّ الأشخاص الذين قاموا بأعمال تستحق الوزن، أمّا الشخص الذي لا يساوي وجوده وأعماله وأفكاره حتى جناح بعوضة، فهل هو بحاجة إلى الوزن؟!

لهذا السبب نقرأ في رواية معروفة عن النّبي قوله ﷺ: «إنَّهُ ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة»[1].

لماذا؟ لأنَّ أعمال مثل هؤلاء وأفكارهم وشخصيتهم كانت في الحياة الدنيا عديمة الأهمية والفائدة.

ومِن هنا يتّضح أنَّ الناس - هناك - على عدَّة أنواع هي:

١ - مجموعة تكون مُثقلة بالحسنات والأعمال الصالحة بحيث لا تحتاج إلى الوزن والحساب في أعمالها، بل تدخل الجنّة بدون حساب.

٢ - مجموعة ثانية من الذين حبطت أعمالهم، أو ليسَ لهم أي عمل الصالح، وهذه لا تحتاج إلى وزن أيضاً، بل تدخل النّار بدون حساب.

٣ - أمّا المجموعة الثّالثة، فهي التي تملك السيئات والحسنات، وهذه يشملها الوزن والحساب. وقد يكون أكثر الناس مِن هذه الفئة.

٤ - تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(حول) على وزن (علل) لها معنى مصدري وتعني التحوّل ونقل المكان، وكما قلنا في تفسير الآيات، فإنَّ الفردوس بستان الجنّة توجد فيه أفضل النعم والمواهب الإلهيّة، ولهذا السبب فإنّها تعتبر أفضل مناطق ذلك العالم، حيث إنَّ الساكنين فيها لا يتمنّون أبداً الانتقال مِنها إلى مكان آخر.

وقد يقول البعض: إنَّ الحياة قد تكون هناك رتيبة وراكدة، وهذا بحدّ ذاته نقص وعيبٌ كبيرٌ فيها؟!

في الجواب نقول: ليس ثمّة مانع مِن أن يكون التحوُّل والتكامل في نفس المكان، إذا توافرت أسباب التكامل واجتمعت هناك، وهي - قطعاً - متوافرة، وفي ظلّ الأعمال التي قام بها الإنسان في هذه الدنيا، فإنَّ الإنسان - مِن خلال المواهب الإلهيّة هناك - سوف يستمر في طريق تكامله بشكل دائم ومستمر.

وسنقوم إن شاء الله بشرح أفضل لتكامل الإنسان حتى في الجنّة، وذلك في نهاية الآيات التي تُناسب الموضوع.

٥ - الفردوس لمن؟

قلنا: إنَّ «الفردوس»(١) أفضل مناطق الجنّة، ولا يسكنهُ سوى المؤمنين وذوي الأعمال الصالحة، إذاً سيكون السؤال: مَن يسكن الأقسام الأُخرى في الجنّة، إذا كانت الجنّة مكاناً للمؤمنين فحسب وممنوعة على غيرهم؟

في الجواب نقول: إنَّ الفردوس لا تشمل كلّ مؤمن ذي عمل الصالح، بل هي لمن بلغ درجة عالية مِن الإيمان والعمل الصالح، وهذه المرتبة هي المعيار للوصول إلى الفردوس بالرغم مِن أنَّ ظاهر الآية مطلق، إلاَّ أنَّ الانتباه إلى معنى الفردوس يقيّد الإطلاق المذكور.

لذلك عندما تتحدّث سورة المؤمنون عن صفات ورثة الفردوس فإنّها تبيّن الحد الأعلى لصفات المؤمنين والذي لا يكون موجوداً عند جميع الأفراد، وهذا دليل آخر على أنَّ سكنة الفردوس يملكون صفات ممتازة بالإضافة إلى شَرطي الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) ذهب بعض إلى أنّ هذه الكلمة مأخوذة من اللغة الرومية في الأصل، وذهب آخرون إلى أنّ جذورها حبشية انتقلت إلى العربية (تفسير الفخر الرازي وتفسير مجمع البيان).

لذلك رأينا رسول الله ﷺ في حديث سابق، يعلّمنا بأنّنا عندما نطلب الجنّة، فعلينا أن ندعو لنيل الفردوس بالخصوص، لأنّها أكمل وأفضل منازل الجنّة.

وهذه إشارة إلى ضرورة أن تنصرف همّة المؤمن - في كلّ الأُمور - إلى أعلى حدّ، وحتى في الجنّة عليه أن لا يقنع بمراحلها الدنيا بالرغم ممّا في هذه المراحل مِن نعم ومواهب.

وطبيعي أنَّ الذي يطلب هذه المنزلة مِن الله لا بدَّ وأن يكون قد أعدَّ نفسهُ لها، وعليه أن يبذل كلّ سعيه وجهده لكسب أفضل الصفات وأرضى الأعمال.

ومن ذلك يعلم أنّ من يقول بأنّ المهم هو أن أدخل الجنّة حتى في أدنى درجة منها هو شخص يفتقد الهمّة العالية للمؤمنين الحقيقيين.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

سبب النزّول

عن ابن عباس قال: «قالت اليهود لمّا قال لهم النّبي ﷺ ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١] قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة وَمَن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾.

وقيل أيضاً: قالت اليهود: إنّك أوتيت الحكمة، ومَن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ثمّ زعمت - والمخاطب هنا رسول الله ﷺ - أنّك لا علم لك بالروح؟ فأمره الله تعالى أن يجيبهم بأنّي وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة»[٢].

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) تفسير القرطبي، ج١١ - ١٢، ص ٦٨ - ٦٩. وج ٦، ص ٤١٠٧ و ٤١٠٨. وكذلك تفسير الصافي، ذيل الآية مورد البحث.

التّفسير

الذين يأملون لقاء الله

الآيات أعلاه في نفس الوقت الذي تبحث بحثاً مستقلاً، إلاّ أنّها متصلة مع بحوث هذه السورة، حيثُ إنَّ كلّ قصّة مِن القصص الثلاث الواردة في السورة، تكشف الستار عن مواضيع جديدة وعجيبة، وكأنّما القرآن يريد أن يقول في هذه الآيات: إنَّ الاطلاع على قصّة أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وذي القرنين، يعتبر لا شيء إزاء علم الله غير المحدود، لأنَّ علمهُ سبحانه وتعالى ومعرفتهُ تشمل كافّة الكائنات وعالم الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل.

القرآن الكريم يخاطب الرّسول ﷺ - في أوّل آية نبحثها - بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

«مداد» تعني الحبر، أو أي مادة ملوّنة تساعد في الكتابة، وهي في الأصل مأخوذة مِن «مدَّ» بمعنى السحب، حيث تتوضّح خطوط الكتابة بسحب القلم[1].

(كلمات) جمع كلمة، وهي في الأصل تعني الألفاظ التي يتمّ التحدّث بها، أو بعبارة أُخرى: الكلمة لفظ يدل على المعنى، وبما أنَّ كلّ موجود مِن موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدرة الخالق، لذا فإنَّهُ يطلق في بعض الأحيان على كلّ موجود اسم (كلمة الله) ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمّة العظيمة.

فبالنسبة للمسيح عيسى عليه السلام يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾[2].

وفي الآية التي نبحثها فإنَّ (كلمة) قد استخدمت بهذا المعنى، أي إشارة إلى موجودات عالم الوجود التي تدل كلّ واحدة فيه على الصفات المختلفة لله تبارك وتعالى.

وفي الحقيقة إنّ القرآن يُلفت أنظارنا في هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهي: لا تظنّوا أنَّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو على قدر مِن السعة

---

(١) نقل الفخر الرازي في معنى (مداد) إضافة إلى ما ذكر معنى آخر، وهو «الزيت» الذي يوضع في المصباح ويكون سبباً للنور، والاثنان يرجعان إلى معنى واحد.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

والعظمة بحيث لو أنَّ البحار تتحوّل إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنّها - أي البحار - ستجف قبل أن تحصي موجودات عالم الوجود.

ومِن الضروري الالتفات هنا إلى أنَّ كلمة البحر يراد بها الجنس وكذلك كلمة (مثل) في قوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ فإنّه يراد بها الجنس أيضاً، وهذه إشارة إلى أنّنا مهما أضفنا مِن أمثال هذه البحار إليها فإنَّ الكلمات الإلهيّة لا تنتهي ولا تنفد.

ولهذا السبب فليس ثمّة تعارض بين هذه الآية وما ورد في سورة لقمان في قوله تعالى في الآية ٢٧: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾. يعني أنَّ هذه الأقلام ستتكسر والمحابر ستجف حتى آخر قطرة، ومع ذلك فإنّ أسرار المخلوقات وحقائق عالم الوجود لا تنتهي.

وينبغي الانتباه هنا إلى أنَّ الآية أعلاه في الوقت الذي تُجسِّد فيه سعة عالم الوجود اللامتناهية في الماضي والحاضر والمستقبل، فإنّها تُوَضِّح - أيضاً - العلم المطلق وغير المحدود للخالق جلَّ وعلا، لأنّنا نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى يحيط علمه بما كان موجوداً في عالم الوجود، وبما سيكون موجوداً، وفي الوقت الذي يعتبر فيه علم الله تعالى «علماً حضورياً» فإنّه لا يفترق عن وجود هذه الموجودات. (فدقق في ذلك).

إذن نستطيع أن نقول: لو أنَّ جميع المحيطات وبحار الأرض تحوّلت إلى حبر ومداد، ولو أنَّ كافّة الأشجار تحوّلت إلى أقلام، فإنَّ ذلك كُلّه لا يستطيع الإحاطة بما هو موجود في علم الخالق جلَّ وعلا.

توضيح لمفهوم اللانهاية

يقوم القرآن الكريم بتجسيد العدد اللانهائي ويقرّب معنى العلم المطلق غير المحدود لله تعالى، ويقرّب سعة عالم الوجود العظيم إلى أفكارنا. وقد استخدم القرآن في ذلك توضيحاً بليغاً للغاية، وذكر أرقاماً حيَّة وذات روح.

تُرى هل هناك أعداد حيَّة وأُخرى ميتة؟

نعم، ففي الرياضيات إذا وُضعت الأصفار إلى يمين العدد الصحيح فهي لا تعبّر في الواقع سوى عن أعداد ميتة لا تستطيع أن تجسِّد عظمة شيء معيّن.

الأشخاص الذين يهتمّون بالقضايا الرياضية والحسابية يعرفون أنَّ العدد الواحد (كرقم واحد مثلاً) لو وضع أمامهُ مِن الجهة اليمنى أصفار بطول كيلومتر واحد، فسيكون

عدد عظيم جدّاً ومحيّر ولا يمكن تصوّر عظمته، ولكن لمن؟ للأشخاص الرياضيين لا عامّة الناس الذين لا يستطيعون تصوّر العظمة في هذا الرقم.

العدد الحي هو العدد الذي تنشغل أفكارنا به، ويجسِّد الحقائق كما هي ويملك روحاً ولساناً وعظمة.

والقرآن الكريم بدلاً مِن أن يقول: إنَّ مخلوقات عالم الوجود تتجاوز في كثرتها الرقم الذي تقع على يمينه مئات الكيلومترات مِن الأصفار، يقول: إذا تحوّلت جميع الأشجار إلى أقلام، وكلّ البحار إلى مواد وحبر، فإنَّ الأقلام ستتكسر ومياه البحار ستنتهي، ولا تنتهي أسرار ورموز وحقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التي يحيط بها جميعاً علم الله تعالى.

فكّروا جيّداً وتأملوا المقدار الذي يستطيع أن يكتبهُ القلم، ثمّ ما هو عدد الأقلام التي يمكن صناعتها مِن غصن واحد صغير من شجرة معيّنة؟

ومعلوم أنّ باستطاعتنا صناعة آلاف بل حتى ملايين الأقلام مِن شجرة كبيرة عظيمة، ولنا أن نتصوّر كميّة الاقلام التي يمكن صنعها مِن أشجار الأرض جميعاً وغاباتها!

من الجهة الثّانية لنا أن نتصوّر عدد الكلمات التي يمكن كتابتها مِن قطرة حبر واحدة، ثمّ علينا أن نتصوَّر ما نستطيع كتابته مِن حوض واحد، فبحيرة واحدة، فبحر واحد، فمحيط، ومِن ثمّ جميع بحار الأرض ومحيطاتها!

إنَّ الحصيلة - بلا شك - ستكون رقماً عجيباً وخيالياً!!

وتتوضّح عظمة المثال القرآني إذا عرفنا أنَّ رقم (سبع) ليسَ للتحديد، بل هو إشارة للكثرة، ومعنى هذا الكلام أنّنا لو أضفنا لهذا العدد أضعافه مِن البحار، فإنَّ كلمات الله لا تنفد.

والآن لِنتصوّر الحيوية والروح الدافقة في هذا العدد، والشاهد الحي الذي يبعث اليقظة في روح الإنسان، ويشغل فكره ويجعلهُ يفكِّر في آفاق اللانهاية!

إنَّ العدد الذي يتضمّنه المثال القرآني يحس بعظمته الجميع سواء كانوا رياضيين أو أميين.

نعم، إنَّ علم الله تعالى هو أعلى وأوسع مِن هذا العدد.

علم غير محدود ولا مُتناهي.

علم يشمل كلّ الوجود، سابقاً وحاضراً ومستقبلاً، وهو يضم في طيّاته كلّ الأسرار والحقائق!

الآية الثّانية في البحث والتي هي آخر آية في سورة الكهف، عبارة عن مجموعة مِن الأسس والأصول للاعتقادات الدينية، التي تتركّز في التوحيد والمعاد ورسالة الرّسول ﷺ. والآية في مضمونها إشارة إلى نفس المضمون الذي ورد في بداية السورة المباركة، ففي البداية تحدَّثت السورة عن الله والوحي والجزاء والقيامة، والآية الأخيرة هي خلاصة لمجموع ما ورد في السورة، التي اشتملت في قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفة باعتبارها محاور للسورة.

ولأنَّ قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال مِن الغلو والمبالغة على طول التاريخ، لذا فإنَّ الآية تقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

وهذا التعبير القرآني نسف جميع الامتيازات المقرونة بالشرك التي تُخرج الأنبياء مِن صفة البشرية إلى صفة الألوهية.

ثمّ تشير الآية إلى قضية التوحيد مِن بين جميع القضايا الأُخرى في الوحي الإلهي حيث تقول: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

أمّا لماذا تمّت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنَّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، وغاية كلّ البرامج الفردية والاجتماعية التي تجلب السعادة للإنسان.

وفي مكان آخر، أشرنا إلى أنَّ التوحيد ليسَ أصلا مِن أصول الدين وحسب، وإنّما هو خلاصة لجميع أصول وفروع الإسلام.

لو أردنا - على سبيل المثال - أن نشبِّه التعليمات الإسلامية مِن الأصول والفروع على أنّها قطع مِن الجواهر، عندها نستطيع أن نقول: إنَّ التوحيد هو السلك والخيط الذي يربط جميع هذه القطع إلى بعضها البعض ليتشكَّل مِن المجموع قلادة جميلة وثمينة.

وإذا أردنا أن نشبِّه التعليمات الإسلامية أصولاً وفروعاً بأعضاء الجسم، فإنَّ التوحيد سيكون روح الإنسان التي تهب الحياة لكافّة الأعضاء.

وقد أثبتنا في بحوثنا حول المعاد والنبوة أنَّ هذين الأصلَيْن لا ينفصلان عن التوحيد. يعني: عندما نعرف الخالق بجميع صفاته، فإنّنا نعلم أنَّ مثل هذا الخالق يجب أن يرسل الأنبياء، وتقتضي حكمته وعدالته أن توجد محكمة عادلة وأن يكون هناك بعث.

والمسائل الاجتماعية، وكلّ المجتمع الإنساني وما يرتبط به، ينبغي أن يكون فيه شعاع مِن التوحيد حتى يتوحّد وينتظم ويستقر.

لهذا السبب نقرأ في الأحاديث القدسيّة إنّ: «كلمة لا اله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

وكلّ منّا قد سمع أيضاً أنّ النّبي ﷺ قال في بداية الإسلام: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا».

الجملة الثّالثة في الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث وتربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفريع) حيث تقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

بالرغم مِن أنّ لقاء الله بمعنى المشاهدة الباطنية ورؤية الذات المقدّسة بعين البصيرة هو أمرٌ ممكن في هذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلاَّ أنَّ هذه القضية تكتسب جانباً عاماً يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة والواضحة والصريحة للخالق تبارك وتعالى. لذا فإنَّ القرآن استخدم هذا التعبير في خصوص يوم القيامة.

مِن جانب آخر، فإنَّ الإنسان الذي ينتظر أمراً معيّناً، ويأمل شيئاً ما، فمن الطبيعي أن يُهيّيء نفسهُ ويعدّها لا ستقبال ذلك الأمر، أمّا الشخص الذي يدّعي ولا يستعد، وينتظر ولا يعمل، فهو في الواقع مدع كاذب لا غير.

لهذا السبب فإنَّ الآية أعلاه تقول: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ حيث وردت بصيغة الأمر؛ الأمر الذي يلازمه الرجاء والأمل بانتظار لقاء الله.

وفي آخر جملة ثمّة توضيح للعمل الصالح في جملة قصيرة، هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

بعبارة أُخرى: لا يكون العمل صالحاً ما لم تتجلى فيه حقيقة الإخلاص.

فالهدف الإلهي يعطي لعمل الإنسان عمقاً ونورانية خاصّة، ويوجّهه الوجهة الصحيحة، وعندما نفقد الإخلاص يكون العمل ذا جنبة ظاهرية حيث يشير إلى المنافع الخاصّة، ويفقد عمقه وأصالته ووجهتهُ الصحيحة.

في الحقيقة إنَّ العمل الصالح الذي ينبع مِن أهداف إلهيّة، ويمتزج بالإخلاص ويتفاعل معه، هو الذي يكون جوازاً للقاء الله تبارك وتعالى.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنَّ العمل الصالح لهُ مفهوم واسع للغاية، وهو يشمل أي برنامج مفيد وبنّاء، فردي واجتماعي، وفي أيّ قضية مِن قضايا الحياة.

الإخلاص أو روح العمل الصالح:

أعطت الرّوايات الإسلامية مكانةً خاصّة لقضية «النيّة»، والإسلام في العادة يقرّ بقبول الأعمال بملاحظة النيّة والهدف مِن العمل.

الحديث المشهور عن النّبي ﷺ: «لا عمل إلاّ بنية» بيانٌ واضح لهذه الحقيقة.

وبعد (النيّة) هناك (الإخلاص)، فلو اقترن العمل بالإخلاص فسيكون عملاً ثميناً للغاية، وبدون الإخلاص لا قيمة له، والإخلاص هو أن تكون الدوافع الإنسانية خالية مِن أيّ نوع مِن أنواع الشوائب، ويمكن أن نسمّي الإخلاص بـ«توحيد النيّة» يعني التفكير بالله وبرضاه في جميع الأُمور والحالات.

والطريف في الأمر هنا هو ما ورد في سبب نزول هذه الآية مِن أنَّ رجلاً جاء إلى النّبي ﷺ فقال: إنّي أتصدق وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلاّ لله، فيذكر ذلك مِنّي، وأحمد عليه فيسرّني ذلك، وأعجب بِهِ، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئاً، فنزلت الآية: ﴿... فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

إنَّ المقصود مِن هذه الرّواية ليسَ الفرح أو السرور اللاإرادي، بل الحالة التي يكون فيها الفرح والسرور هدفاً لعمل الإنسان، أو الحالة التي تؤدّي إلى عدم خلوص النيّة.

فالعمل الخالص يعتبر مهمّاً في الإسلام إلى الحدّ الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «مَن أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة مِن قلبه على لسانه»[2].

دعاء الختام:

إلهي، اجعل نيّاتنا خالصة في جميع أعمالنا بحيث لا نفكّر بأحد سواك، ولا نعدوك إلى غيرك... واجعل ما نريده وما لا نريده تبعاً لطاعتك ورضاك... آمين ربّ العالمين.

---

(١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث. وكذلك تفسير القرطبي.

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٠٨.

فهرس الجزء الثالث عشر

سورة النحل

محتويات السورة ٥
فضيلة السورة ٦
أتى أمر الله ٧
الحيوان ذلك المخلوق المعطاء ٩
أهمية الزراعة والثروة الحيوانية ١٣
كل شيء في خدمة الإنسان! ١٥
البحوث: ١ - النعم المادية والمعنوية ١٨
٢ - لماذا الزيتون والنخيل والأعناب دون غيرها؟! ١٩
٣ - التفكر والتعقل والتذكر ٢١
نعمة الجبال والبحار والنجوم ٢٢
بحث: الطريق، العلامة، القائد ٢٨
آلهة لا تشعر! ٢٩
بحث: من هم المستكبرون؟ ٣٢
حمل أوزار الآخرين ٣٣
بحثان: ١ - السنة سنتان. . . حسنة وسيئة ٣٨
٢ - التسليم بعد فوات الأوان ٤٠
عاقبة المتقين والمحسنين ٤١
البلاغ المبين. . . وظيفة الأنبياء ٤٤
بحثان: ١ - ما هو البلاغ المبين؟ ٤٩
٢ - لكل أمة رسول ٥٠
المعاد و. . . نهاية الاختلافات ٥١
ثواب المهاجرين ٥٤
اسألوا إن كنتم لا تعلمون! ٥٧

بحث: من هم أهل الذكر؟ ٥٨
لكل ذنب عقابه ٦١
سجود الكائنات لله عَزَّوَجَلَّ ٦٣
أثر الظلال في حياتنا ٦٤
دين حق ومعبود واحد ٦٧
عندما كانت ولادة البنت عاراً! ٧٠
بحوث: ١ - لماذا اعتبروا الملائكة بناتاً لله؟ ٧٢
٢ - لماذا شاع وأد البنات في الجاهلية؟ ٧٣
٣ - دور الإسلام في إعادة اعتبار المرأة ٧٥
وسعت رحمته غضبه ٧٧
بحث: ما هو الأجل المسمى؟ ٧٩
المياه، الثمار، الأنعام ٨١
بحوث: ١ - كيف يتكون اللبن؟ ٨٣
٢ - أهم ما في اللبن من مواد غذائية ٨٤
٣ - اللبن... غذاء خالص وسهل الهضم ٨٥
﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾!/ **ما هو «الوحي»؟** ٨٦
٢ - هل يختص الإلهام الغريزي بالنحل؟ ٨٧
٣ - المهمة الأولى في حياة النحل ٨٨
٤ - أين مكان النحل؟ ٨٨
بحوث: ١ - مم يتكون العسل؟ ٨٩
٢ - السبل المذللة! ٨٩
٣ - أين يصنع العسل؟ ٩٠
٤ - ألوان العسل المختلفة؟ ٩٠
٥ - العسل... والشفاء من الأمراض ٩٠
٦ - ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ٩٢
٧ - ملاحظات مهمة بخصوص العسل ٩٣
٨ - عجائب حياة النحل ٩٤
سبب اختلاف الأرزاق ٩٦
هل التفاضل في الرزق من العدالة؟! ٩٧

بحثان: ١ - أسباب الرزق ١٠٠
٢ - مواساة الآخرين ١٠٣
لا تجعلوا لله شبيهاً ١٠٤
مثلان للمؤمن والكافر! ١٠٦
بحوث: ١ - الإنسان بين الحرية والأسر ١٠٨
٢ - دور العدل والاستقامة في حياة الإنسان ١٠٩
٣ - أما الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ١١٠
أنواع النعم المادية والمعنوية ١١١
١ - بداية الإدراك عند الإنسان ١١١
٢ - نعمة وسائل المعرفة ١١٢
٣ - ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ١١٣
بحوث: ١ - أسرار تحليق الطيور في السماء ١١٤
٢ - ترابط الآيات ١١٦
٣ - الظلال، المساكن، الأغطية ١١٨
بحثان: ١ - كلمات المفسرين ١٢١
٢ - صراع الحق مع الباطل ١٢١
عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين ١٢٢
وهل ثمة حاجة إلى شاهد مع وجود علم الله المطلق؟ ١٢٣
بحثان: ١ - القرآن تبيان لكل شيء ١٢٧
٢ - مراحل الهداية الأربع ١٣٠
أكمل برنامج اجتماعي ١٣٠
أشمل آيات الخير والشر ١٣٣
الوفاء بالعهد دليل الإيمان ١٣٦
بحثان: ١ - فلسفة احترام العهد ١٣٨
٢ - ما لا يقبل في نقض العهود ١٤٠
ثمن الحياة الطيبة ١٤٢
بحوث: ١ - منابع الخلود ١٤٣
٢ - التساوي بين الرجل والمرأة ١٤٤
٣ - جذور العمل الصالح ترتوي من الإيمان ١٤٤

٤ - ما هي الحياة الطيبة؟ ١٤٦
اقرأ القرآن هكذا ١٤٧
بحوث: ١ - موانع المعرفة ١٤٨
٢ - لماذا يكون التعوذ «من الشيطان الرجيم»؟ ١٤٩
٣ - بين لواءي الحق والباطل ١٤٩
٤ - آداب تلاوة القرآن ١٥٠
الافتراء! ١٥٢
بحوث: ١ - قبح الكذب في المنظور الإسلامي ١٥٧
٢ - الكذب منشأ جميع الذنوب ١٥٧
٣ - الكذب منشئ للنفاق ١٥٨
٤ - لا انسجام بين الكذب والإيمان ١٥٨
٥ - الكذب يرفع الاطمئنان ١٥٩
المرتدون عن الإسلام ١٦٠
بحثان: ١ - التقية وفلسفتها ١٦٣
٢ - المرتد الفطري والملي و. . . المخدوعين ١٦٥
الذين كفروا فأصابهم العذاب ١٦٦
بحوث: ١ - أهو مثالٌ أمْ حدثٌ تاريخي؟ ١٦٧
٢ - الرابطة ما بين الأمن والرزق الكثير ١٦٩
٣ - لباس الجوع والخوف ١٦٩
٤ - أثر كفران النعمة في تضييع المواهب الإلهية ١٧٠
لا يفلح الكاذبون ١٧١
فلماذا حددت الآية أربعة أشياء فقط؟ ١٧٣
كان إبراهيم لوحده أمة! ١٧٦
١ - ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ ١٧٧
عشرة قواعد أخلاقية. . . سلاح داعية الحق ١٨٠
١ - ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ ١٨٠
٢ - ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ١٨١
٣ - ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ١٨١
٥ - ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ١٨٢

٦ -﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ١٨٣
٨ -﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ ١٨٣
٩ -﴿ إِنَّ مَعَ ٱتَّقَواْ﴾ ١٨٤
١٠ -﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ ١٨٤
خاتمة مقال سورة النحل «سورة النِعَم» ١٨٥
الهدف من ذكر النعم ١٨٧

سورة الإسراء

أولاً: أسماء السورة ومكان النزول ١٨٩
ثانياً: فضيلة سورة الإسراء ١٨٩
ثالثاً: خطوط عامة في محتوى السورة ١٩٠
معراج النبي ﷺ ١٩٢
المعراج ١٩٥
المعراج في القرآن والحديث ١٩٥
هل كان المعراج جسدياً أم روحياً؟ ١٩٨
هدف المعراج/ المعراج والعلوم العصرية ١٩٩
الأولى: الإفسادان التأريخيان لبني إسرائيل ٢٠٥
الثانية: تحمل الإنسان لتبعات أعماله ٢٠٩
الثالثة: تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامي ٢١٠
أقصر الطرق للهداية والسعادة ٢١١
بحوث: أولاً: هل الإنسان عجول ذاتاً؟ ٢١٦
ثانياً: أضرار العجلة ٢١٧
ثالثاً: دور العدد والحساب في حياة الإنسان ٢١٨
أربعة أصول إسلامية مهمة ٢١٩
بحوث: ١ - التفؤل والتطير ٢٢٣
٢ - صحيفة أعمال الإنسان العجيبة ٢٢٤
٣ - البريء لا يؤخذ بجريرة المذنب ٢٢٥
٤ - قاعدة «أصل البراءة» وآية﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ ٢٢٦
مراحل العقاب الإلهي ٢٢٧

طلاب الدنيا والآخرة ٢٢٩
بحوث: أولاً: هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفي نقيض؟ ٢٣٢
ثانياً: دور السعي في تحقيق المكاسب ٢٣٤
ثالثاً: الإمدادات الإلهية/ أحكام إسلامية مهمة ٢٣٥
الأهمية الاستثنائية لاحترام الوالدين ٢٣٧
بحوث: أولاً: احترام الوالدين في المنطق الإسلامي ٢٣٩
ثانياً: بحث حول كلمة «قضى» ٢٤١
ثالثاً: بحثٌ حول معنى كلمة ﴿أُفٍ﴾ ٢٤٢
رعاية الاعتدال في الإنفاق والهبات ٢٤٤
بحوث: أولاً: من هم المقصودون بذي القربى؟ ٢٤٨
ثانياً: مصائب الإسراف والتبذير ٢٤٩
ثالثاً: الفرق بين الإسراف والتبذير ٢٥٠
رابعاً: هل ثمة تعارض بين الاعتدال في الإنفاق والإيثار؟ ٢٥١
ستة أحكام مهمة ٢٥١
فلسفة تحريم الزنا ٢٥٤
١ - أضرار التطفيف في الكيل ٢٥٩
٢ - ما هو حكم التطفيف وبخس الكيل؟ ٢٦٠
٣ - ما هو معنى «قسطاس»؟ ٢٦٠
الانقياد للعلم ٢٦١
درس في استقرار النظام الاجتماعي ٢٦٢
الأوهام وسبل مكافحتها/ ثانياً: الكبر والغرور ٢٦٤
ثالثاً: لا تكن مشركاً ٢٦٧
بنات الله!! ٢٦٧
كيف يفرون من الحق؟ ٢٦٩
دليل التمانع ٢٧٠
تسبيح الكائنات ٢٧٢
جانب من روايات العترة الطاهرة ٢٧٥
المغرورون وموانع المعرفة ٢٧٧
بحوث: ١ - خلاصة عامة للآيات ٢٧٨

٢ - لماذا تنسب الحجب للخالق؟ ٢٧٩
٣ - ما معنى الحجاب المستور؟! ٢٧٩
٤ - «أكنة» و«وَقر» ماذا يعنيان؟ ٢٨٠
٥ - تفسير جملة ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ ٢٨٠
٦ - لماذا اتهموا النبي بأنه مسحور؟ ٢٨١
٧ - تخوف المشركين مِن نداء التوحيد ٢٨١
حتمية البعث ويوم الحساب ٢٨٢

فهرس الجزء الرابع عشر

التعامل المنطقي مع المعارضين ٢٨٥
ما هي الوسيلة؟ ٢٩١
بحوث: ١ - رؤيا النبي ﷺ والشجرة الملعونة ٢٩٣
٢ - أعذار منكري الإعجاز ٢٩٧
٣ - ما العلاقة بين المنكرين سابقاً والمنكرين لاحقاً؟ ٢٩٨
مكر إبليس ٢٩٩
بحوث: ١ - في معاني الكلمات ٣٠١
٢ - وسائل الشيطان المختلفة في الوسوسة والإغواء ٣٠٢
لماذا الكفران مع كل هذه النعم؟ ٣٠٥
بحوث: ١ - الشخصية المتقلبة ٣٠٨
٢ - لا يمكن الهروب مِن حكومة الله ٣٠٩
٣ - معاني الكلمات ٣٠٩
الإنسان سيد الموجودات ٣١٠
بحوث: أولاً: وسيلة النقل أول نعمة للإنسان ٣١٠
ثانياً: تكريم الإنسان مِن قبل الخالق ٣١١
ثالثاً: الفرق بين ﴿كَرَّمْنَا﴾ و﴿فَضَّلْنَا﴾ ٣١١
رابعاً: ما معنى كلمة ﴿كَثِيرٍ﴾ في الآية؟ ٣١٢
خامساً: لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ ٣١٢
بحوث: ١ - دور القيادة في حياة البشر ٣١٥

٢ - تكريم ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ٣١٥
٣ - دور القيادة في الإسلام ٣١٦
٤ - عميان القلوب ٣١٧
بحوث: ١ - هل أبدى الرسول مرونة إزاء المشركين؟ ٣٢٠
٢ - لماذا العذاب المضاعف؟ ٣٢١
٣ - معنى (الضعف) ٣٢٢
٤ - تفسير جملة ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ٣٢٣
٥ - إلهي لا تكلني إلى نفسي ٣٢٣
مؤامرة خبيثة أخرى ٣٢٤
الفناء نهاية الباطل ٣٢٦
بحوث: ١ - صلاة الليل عبادة روحية عظيمة ٣٣٠
٢ - ما هو المقام المحمود؟ ٣٣٣
٣ - العوامل الثلاثة للانتصار ٣٣٣
٤ - حتمية انتصار الحق وهزيمة الباطل ٣٣٤
وقيام المهدي عليه السلام ٣٣٥
القرآن وصفة للشفاء ٣٣٦
بحوث: ١ - مفهوم كلمة ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ٣٣٦
في ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ٣٣٦
٢ - الفرق بين الشفاء والرحمة ٣٣٦
٣ - الظالمون ونصيبهم من القرآن ٣٣٧
٤ - القرآن دواء ناجع لكل الأمراض الاجتماعية والأخلاقية ٣٣٧
كلٌ يتصرف وفق فطرته ٣٤٠
بحوث: ١ - الغرور واليأس ٣٤١
٢ - ما معنى (شاكلة)؟ ٣٤٢
ما هي الروح؟ ٣٤٤
أصالة واستقلال الروح ٣٤٧
نقد هذه النظرية ٣٥١
أدلة استقلال الروح ٣٥٢
أولاً: ادراك الواقع الخارجي ٣٥٣

ثانياً: وحدة الشخصية ٣٥٤
الحذر مِن هذا الاشتباه! ٣٥٦
ثالثاً: عدم تطابق الكبير مَع الصغير ٣٥٦
رابعاً: عدم تشابه الظواهر الروحية مع الأوضاع المادية ٣٥٨
ما عِندكَ هو مِن رحمته وبركته ٣٥٩
معجزة القرآن ٣٦١
أعذار وذرائع مختلفة ٣٦٥
بحوث: ١ - جواب الرسول للمتذرعين ٣٦٦
٢ - الأفكار المحدودة والطلبات غير المعقولة ٣٦٧
٣ - ذريعة أخرى لنفي الإعجاز ٣٦٨
ذريعة عامة ٣٧٠
المهتدون الحقيقيون ٣٧٣
كيف يكون المعاد ممكناً؟ ٣٧٦
بحوث: ١ - المعاد الجسماني ٣٧٧
٢ - أي الآيات؟ ٣٧٧
٣ - ما هو الغرض مِن ﴿مِثْلَهُمْ﴾؟ ٣٧٨
٤ - ما هو (الأجل)؟ ٣٧٨
٥ - الترابط بين الآيات ٣٧٩
٦ - هل أن جميع البشر بخلاء؟ ٣٧٩
٧ - استخدام تعبير ﴿ٱلْإِنفَاقِ﴾ ٣٨٠
لم يؤمنوا رغم الآيات ٣٨٠
بحوث: ١ - المقصود مِن الآيات التسع ٣٨٢
٢ - هل أن السائل هو الرسول نفسه؟ ٣٨٤
المذكورة في الآيات؟/ يوم البعث والآخرة؟ ٣٨٥
عشاق الحق ٣٨٦
بحثان: ١ - التخطيط للتربية والتعلم ٣٩٠
٢ - علاقة العلم بالإيمان ٣٩١
آخر الذرائع والأعذار ٣٩٢
١ - تناسب الصفات الثلاث ٣٩٥

٢ - ما هو التكبير؟ ٣٩٦
٣ - الإجابة على السؤال ٣٩٧

سورة الكهف

فضيلة سورة الكهف ٣٩٨
محتوى سورة الكهف ٣٩٩
البداية باسم الله، والقرآن ٤٠٠
بحوث: ١ - افتتاح السورة بحمد الله سبحانه وتعالى ٤٠١
٢ - القرآن كتابٌ ثابت ومستقيم وحافظ ٤٠١
٣ - إنذاران شديدان، عام وخاص ٤٠٢
٤ - الادعاء الفارغ ٤٠٣
٥ - العمل الصالح برنامج مستمر ٤٠٣
٦ - صفة العبد أرقى وسام للإنسان ٤٠٤
العالم ساحة اختبار ٤٠٤
بداية قصة أصحاب الكهف ٤٠٨
القصة المفصلة لأصحاب الكهف ٤١١
١ - الفتوة والإيمان ٤١٣
٢ - الإيمان والإمداد الإلهي ٤١٣
٣ - ملجأ باسم الغار ٤١٤
مكان أصحاب الكهف ٤١٥
اليقظة بعد نوم طويل ٤١٨
بحوث: ١ - أزكى الطعام ٤١٩
ثانياً: التقية البناءة ٤٢٠
ثالثاً: اللطف مركز القرآن ٤٢٠
نهاية قصة أصحاب الكهف ٤٢١
بحوث: ١ - قوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ ٤٢٦
٢ - الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ٤٢٦
٣ - المسجد إلى جوار المقبرة ٤٢٧
٤ - كل شيء يعتمد على مشيئته تعالى ٤٢٨

٥ - الإجابة على سؤال ٤٢٨
نوم أصحاب الكهف ٤٢٩
بحوث: ١ - قصة أصحاب الكهف في الروايات الإسلامية ٤٣١
٢ - أين كان الكهف؟ ٤٣٤
٣ - الجوانب التربوية لقصة أهل الكهف ٤٣٥
٤ - هل أن قصة أصحاب الكهف علمية؟ ٤٣٧
حالة السبات ٤٤٠
نموذج آخر: دفن المرتاضين ٤٤١
تجميد جسم الإنسان وهو حي ٤٤٢
الحفاة الأطهار! ٤٤٥
بحوث: ١ - الروح الطبقية مشكلة اجتماعية كبيرة ٤٤٨
٢ - المقارنة بين الحياة في هذا العالم وعالم الآخرة ٤٥٠
٣ - العلاقة بين عبادة الهوى والغفلة عن الله ٤٥١
٤ - ملابس الزينة في العالم الآخر ٤٥١
٥ - الاقتراب مِن الأثرياء بسبب ثروتهم ٤٥٢
تجسيد لموقف المستكبرين مِن المستضعفين ٤٥٣
جواب المؤمن ٤٥٥
العاقبة السوداء ٤٥٨
بحثان: ١ - غرور الثروة ٤٦٠
٢ - دروس وعبر ٤٦٠
بداية ونهاية الحياة في لوحة حيّة ٤٦٣
بحوث: ١ - المغريات ٤٦٥
٢ - عوامل تحطيم الغرور ٤٦٦
يا ويلتاه مِن هذا الكتاب! ٤٦٧
بحوث: ١ - سر انهدام الجبال ٤٦٩
٢ - صحيفة الأعمال ٤٧٠
٣ - الإيمان بالمعاد ودوره في تربية الناس ٤٧٢
لا تتخذوا الشياطين أولياء ٤٧٣
بحثان: ١ - هل كان الشيطان ملكاً؟ ٤٧٦

٢ - لا تستعينوا بالضالين ٤٧٨
في انتظار العقاب ٤٧٩
لا استعجال في العقاب الإلهي ٤٨١
لقاءِ موسى والخضر عليه السلام ٤٨٤
رؤية المعلم الكبير ٤٨٨
المعلم الإلهي والأفعال المنكرة!! ٤٩٠
الأسرار الداخلية لهذه الحوادث ٤٩٥
بحوث: ١ - هل كانت مهمة الخضر في اطار النظام التشريعي أم التكويني!؟ ٤٩٨
٢ - من هو الخضر؟ ٥٠٢
٣ - الأساطير الموضوعة ٥٠٤
٤ - هل يمكن أن يصاب الأنبياء بالنسيان؟ ٥٠٤
٥ - لماذا ذهب موسى لرؤية الخضر؟ ٥٠٥
٦ - ماذا كان الكنز؟ ٥٠٧
٧ - دروس هذه القصة ٥٠٧
قصة «ذي القرنين» العجيبة ٥١٢
كيف تم بناء سد ذي القرنين؟ ٥١٦
بحوث: أولاً: الملاحظات التربوية في هذه القصة التأريخية ٥١٩
ثانياً: من هو ذو القرنين؟ ٥٢٢
ثالثاً: أين يقع سد ذي القرنين؟ ٥٢٨
رابعاً: مَن هم يأجوج ومأجوج؟ ٥٢٨
عاقبة الكافرين ٥٣٠
أخسر الناس ٥٣٢
بحوث: ١ - من هم الأخسرون أعمالاً؟ ٥٣٥
٢ - ماذا يعني لقاء الله؟ ٥٣٧
٣ - وزن الأعمال ٥٣٨
٥ - الفردوس لمن؟ ٥٣٩
الذين يأملون لقاء الله ٥٤١
توضيح لمفهوم اللانهاية ٥٤٢
الإخلاص أو روح العمل الصالح: دعاء الختام ٥٤٦